



# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقاً

الجزء الاول

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢







## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الأكوان ومدبرها ومقدر الأحوال ومسبرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مهراج الدجى وكل من بنورهم اهتدى وبهداهم اقتدى وسلم تمليا كثيرا دائما وأبدا

وبعد فمن نظر في هذا العالم وسير أحواله وتدبر قوانينه التي فطر عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين أفراد كل نوع من أنواعه وبين كل نوع وغيره من العالم وكل جنس وآخر من اجناسه ارتباطا تاما يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضا الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحاءها واجزائها فينفضل بواسطة الحرارة بخار يرتفع ليلتصق على الهواء فينعدد سحباً في جو السماء تثيره الرياح فتعبره الى حيث شاء الله من الاماكن الناصية والدانية فيتراكم ويسقط على الارض ماء تخرج به الارض انواع النبات والثمار رزقا للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجا وهاجاً وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حيا ونباتا وجنات النافاث ثم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ايا كان ما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء اشيء يدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه المحكم الازلية والاحكام العلية بتعويضه وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله

فاذا علمنا ذلك في الامور النظرية والاحوال النظرية ناسب ان نراعيه كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية

فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة الزمنا انفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالجميل على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان

مثلاً نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال

الكامل وصلنا اليها ولم تكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى  
يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا  
مدينين له مطالبين من جهته مغمورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن  
الحليل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضه وتحت سائه ونعشنا بهوائه وروينا  
بهائه واغندينا بنباته وحيوانه وانفعنا بسائر اجزائه وهو في كل آن يدنا  
ويفيدنا ويعطينا ويزيدنا كما كان صنيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين  
وكذلك يكون شأنه مع ابنائنا واحفادنا اللاحقين فلزمنا ان نندره حق  
قدره ونأتي على اخر جهودنا واستطاعتنا في منفعة وخيره ولا شيء انفع له  
واجاب للخير والبركة اليه من تعليم ابنايه وبت المعارف والفنون النافعة  
فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا بدأ واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية  
ما يمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك  
تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعتبهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا  
يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه  
فضلاً عن نفع غيره لانه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا  
يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقر بها المقصود  
واسلمها من الآفات والمخدور بل طال ما اراد ان ينفع فضر وطلب الخير  
فاجتنب الشر فان الجاهل اعى ولو كان بصيراً فهو يتخبط في ظلمات الغي  
والخيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري حاله وما عليه  
ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة  
والاتفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستنبهاً  
بصباح علمه فيميز الخير من الشر والملج من التبع ويرى الصواب واضحاً فيقصد  
ونجح الحق نيراً فيملكه ويعرف قدر نفسه وغيره وماله على غيره وما لغيره  
عليه ويرى حقوق وطنه فيأخذ نفسه بقضاياها وحسن القيام بها عارفاً ان نفعه  
لوطنه مع كونه حقاً يقضيه ودينياً يؤديه انما هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا رية  
فيه عندك من ان خير بلاده وخصبها وبركتها وتقدمها ورفعة شأنها كل  
ذلك فائدة له وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطنه نفع نفسه كصاحب الارض

مثلاً ينتفع بخيراتها ويحني ثمراتها فيترتب عليه آراء ذلك ان يقوم بخدمتها  
 واداء ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من نقليب ونقصيب وتمبيد وتسييد  
 وري وطي ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في  
 نظير ما انتفع به منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فتدبر عليه  
 خيراتها وتتم حاصلاتها فتعود عليه بنفع اخر وتزيك خيرا وهلم جرّاً

هذا واني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظله  
 ونقلت في مهك وتربيت في حجر كفالته وتعهدت حتى صرت من ابناؤه  
 المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيراً بكثير من خيراته وثمراته  
 ولا ازال متنعماً بطيباته فاجدني وان استوفيت المجهود وقضيت العمر في  
 خدمته لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذلك  
 واعترافي به لا يعني من بذل جهد المفل والانتها لغاية الاستطاعة ولهذا التزمت في  
 كل ما تقدمت من الاعمال وجميع ما نقلبت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل  
 ما ناله يدي وبلغه امكاني مما اراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل او جل كالسعي  
 في استكثار المكتاب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما  
 بالاشتغال في تأليفها بنفسي او بالبحث والتحريرض عليها لمن ارى فيه اهلية  
 القيام بها

وقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام  
 بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان  
 لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال  
 فجداني هذا ايام نظارتي لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمنه كثيراً  
 من النوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب  
 فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك النوائد ينالها  
 عنواً بلا عناء حرصاً على تعميم الفائدة وبث المنفعة

فشرعت في جمع هذا الكتاب مستمداً من عناية الله مستعيناً في تهذيب  
 عبارته وتحسين اشارته ببعض جهابذة الاساتذة لا سيما العالم الفاضل السيد  
 الاجل عبدالله باشا فكري وكيل ديوان المعارف فانه صرف عنايته الى تنقيح

ما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهدب معانيه وشذب مبادئه وقرب مجانيه فحاج كتاباً جامعاً اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المنفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية واسرار الخليفة وغرائب المخاوف وعجائب البر والبحر وما نقلت نوع الانسان فيه من الاطوار والادوار في الزمن الفابر وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طراً عليه من تقدم وتقهقر وضياف وتكدر وراحة وهناء وبؤس وعناء الى غير ذلك من الشؤون بتقلب الدهور ونصرف الامور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين احواله وعاداته في الاوقات المتفاوتة والانحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يشجذ خاطره وينبه فريجه ويمتنع فكرته وبدرجه لاعمال عقله وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الامور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنعمة والضرة وتخير النافع والانعكاس والاحسن منها على نمط يسوع عن السامة ولا يهمل الى الملالاة مفرغاً في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسيم بعلم الدين مع رجل انكليزي كلاماً هياب بن بيان نظهما سبط الحديث لتاتي المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وفرع السمع وشغل البال وحرك قوة من قوى النفس من السياحة يحج الناظر في الكتاب مسنوف في البيان مشبعاً فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمته الى مسامرات يتنقل فيها القارئ تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر كما يتنفع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مفكراً منيها وللثاني معلماً مفهما والله المستول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعله ذخيرة عند ليوم المآب







بِكَ اسْتَعِين

المعامرة الاولى  
العصر

حكى انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر  
رجل من فقهاء الريف كان يصلي بالناس في جامع القرية  
ويعلم اطفالهم كتاب الله عز وجل وكان من اهل الفضل  
والصلاح رزقه الله على الكبر بولد سماه علم الدين تفاقولا بان  
يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه رباه في كتابه وآدبه  
مجانسا آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله  
العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى فيه  
والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن التريجة ومحبة العلم  
والقبول لما يلقي عليه والقابلية لما يساق اليه فاراد اكمال تربيته  
وتعليمه في اوان شببته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال  
الحكماء علموا اولادكم صغارا تتفعلوا بهم كبارا وقالوا من لم يتعلم  
في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر

قد ينفع الادب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الادبُ

ان الغصون اذا قومتها اعندلت

ولن تلين اذا قومتها الخشبُ

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الظاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الارب ويكتسب بصحبتهم العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وضم عليها واعد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مكتوباً الى صديق له في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهامته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد وتقربته منهم ليسمحوا بهذيبه ويذلو النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامثال لمعلمه فيما يعود نفعه عليه وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونه اليه وان يجنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرواح مع اهل الصلاح ومن

لم شهرة بفعل الخير وحسن السير فقد قال العلماء اصطفى  
 من الاخوان ذا الدين والمحسب والراي والادب فانه رده لك  
 عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين  
 عند عافيتك وقال الشاعر

تخير من الاخوان كل ابن حرة

يسرك عند النائبات بلاؤه

وقارن اذا قارنت حراً فانما

يزين ويزري بالفنى قرناؤه

وقال عدي بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الاردي فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا  
 الى السلطان فامر بقتلهم جميعاً فتقدم احدهم وقال انا لست منهم  
 وانما كنت مغنياً لهم ولم افعل افعالهم فقال السلطان فغن حتى  
 نسمع فلم يجر على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد  
 فغنى بهما فلما بلغ الى قوله ( فكل قرين بالمقارن يقتدي ) قال  
 السلطان سبحان من انطقك وانا اول من صدقك ثم امر به  
 فقتل معهم وهذه عاقبة من يصاحب الاشرار ويخالط التجار

فانه ان لم يفعل كافعالم نسب الى احوالهم ثم ان الشيخ رحمه الله  
 ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما  
 يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب  
 والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بني ان آداب المتعلم  
 كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اخصرها لك في عشر جل  
 تلقتها عن المشايخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

### الوظيفة الاولى

تقوم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف  
 كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من  
 موانع التحصيل وقواطع السبيل

### الوظيفة الثانية

ان يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الاهل  
 والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من  
 قلوبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة فصرت عن ادراك الحقائق  
 ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة  
 المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق! ماؤه فنشفت الارض  
 بعضه واخطفت الحرارة بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ  
 الزرع

ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والجهد ويصبر على المشقة والكد ويبدل غاية الوسع والجهد ويطرح الكسل والملل ولا يتقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامد وبعد المدد فقد حكى عن بعض المشائخ انه اتي في اول امره الى الجامع الازهر لطلب العلم فمكث فيه مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله وعزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من الجامع تاركاً للتحصيل قاصداً للرحيل فلما قرب من بابه اتفق انه راي دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها غسر الصعود بالنسبة اليها فصعدت مقداراً يسيراً ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع ما كانت قد وصلت اليه اولاً ووقعت ولم تنزل كذلك تقع وترتفع مراراً حتى وصلت الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون اعجز من هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولحمة ظريفة فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انه عاد الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة ونفس صابرة فما زال يجهد ويجتهد ويكد الى ان صار وحيد اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبدة لاولي

الالباب وقد قال الله سبحانه انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

### الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلقي اليه زمام امره في التعليم ويدعن لتصحيحه اذعان المريض الجاهل للطبيب المثقف الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من اخلاق المؤمن التملق الا في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة من يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الا من المشهورين واصحاب المظاهر وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهرباً من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يغتنيها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً من كان فلذلك قيل العلم حرب للفتى المتعالي \* كالسيل حرب للكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والثناء السمع قال الله تعالى ( ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او اتقى السمع وهو شهيد ) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فيها ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلما

التي اليه مجسّن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة  
 فيكون المتعلم لمعلمه كارض مينة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع  
 اجزائها واذعنت بالكليّة لقبوله وقد قال عليّ رضي الله عنه من  
 حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه  
 اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي له سرّاً ولا تغتابنّ  
 احداً عنده ولا تطلبنّ عثرته وان ذلّ قبلت معذرتّه وعليك ان  
 توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت له حاجة  
 سبتت القوم الى خدمته

#### الوظيفة الخامسة

ان يجتري الخائض في العلم في مبداء الامر من الاصغاء الى  
 اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من  
 علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه  
 من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة  
 الحميدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب  
 والشبه واخلاف الآراء فان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار راي  
 واحد وانما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر  
 منه فان اضلاله أكثر من ارشاده فلا يصلح الاعى لقود العميان  
 وارشادهم ومن هذه حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل

#### الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من

انواعه الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده  
 العمر طلب التجرفيه والا اشتغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من  
 البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في  
 الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس  
 اعداء ما جهلوا قال تعالى ( واذ لم يتدوا به فسبقولون هذا فك  
 قديم ) وقال الشاعر

ومن يك ذافر مريـض \* يجد مرأ به الماء الزلالا

#### الوظيفة السابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب  
 ويبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً  
 فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنه فقد قال علي رضي الله  
 عنه وكرم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء  
 احسنه وانشا يقول

ما حوى العلم جميعاً احد \* لا ولو مارسه الف سنة  
 انما العلم بعيد غوره \* فخذوا من كل علم احسنه

#### الوظيفة الثامنة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان  
 العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض والموفق من



راعى ذلك الترتيب والتدرج وذلك كترتب علم المعاني على النحو  
وعلم الهندسة على الحساب فمن خاض في فن وحاول تحصيله  
قبل ان يعرف الذي قبله فقد أحبط عمله وإضاع وقته في  
الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى ( الذين اتيناهم الكتاب  
يتلونه حق تلاوته ) اي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً  
وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتجره الترقى الى ما فوقه

### الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك به اشرف العلوم وذلك يراد  
به شيان احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقه الدليل فعلم الحساب  
وعلم الطب مثلاً اذا نسبتها لبعضهما وجدت علم الطب اشرف  
باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمره الحساب حفظ المال  
ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية  
وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وان كان كثير منه  
بالتحمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم  
الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الوبال الابدى والشقاء  
السرمدى ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والمدح لعلم الدين ذم  
غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحتمارة كعلم النحو واللغة  
وغيرها من الفنون المدوحة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفخيمه  
تهجين غيره من العلوم وتسيبها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها

كما تكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله  
 ففهم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة والذي  
 يستقيم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهد لها ولا ينفك احد  
 منهم عن اجر اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله  
 تعالى ( يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات )  
 وقال تعالى ( هم درجات عند ربهم ) والفضيلة نسبية وكون  
 السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته  
 وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة  
 خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ومن قصد وجه الله  
 وسبيل الخير بالعلم ابي علم كان نفعه ورفعته لا محالة وينبغي ان  
 لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابه فيه ولا  
 بخطاء واحد او احاد فيه ولا بخالفتم موجب علمهم بالعمل فتري  
 جماعة تركوا النظر في العقليات والتهيمات متعللين فيها بانها لو  
 كان لها اصل لادركه اربابها وتري طائفة يعتقدون بظلان  
 الطب لخطاء شاهده من طيبين وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم  
 لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بظلاله لخطاء اتفق لآخر  
 والكل خطاء بل ينبغي ان يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم  
 يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنه  
 لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفه اهله

## الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد المتعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظيها واحسن الطرق واسلمها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يقصد بتحصيله المفاخرة والمباهاة والمحاسنة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايقتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان ممدوحاً في نفسه الا ان من قصده بنية ذميمة كان مذموماً بالنسبة لهُ ففعل الصلاة مثلاً ممدوح في نفسه وطاعة الله سبحانه وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والفخر كان مذموماً بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه ان يحسن نيته ويخلص طويته ويقصد وجه الله وطريق الخير ينفعه الله ويرفعه في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيخته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لهم وهو يبكي اني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع عليّ في حق الوالدين والاقارب ومن اتى اليّ وقد منّ الله تعالى عليّ بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عوناً من بعدي وجاهاً قائماً بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واتقوا الله الذي

تسالون به والارحام وبقوله تعالى وبالوالدين احساناً ولكن مقصودي هذا لا يتم الا بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور للسريّة والمأجى للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو المؤنس في الوحشه والمحدث في الخلوء والجلس في الوحدة والصاحب في العربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزينة عند الاخلاء والسلاج على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في الدنيا ومرافقة الابرار في الآخرة ولذا قال الشاعر

لا تدخر غير العلو \* م فانها نعم الذخائر  
فالمرء لو ربح البقاء \* مع الجهالة كان خاسر  
قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل ثم انه التفت الى ولده في الآخر وخاطبه بقول الشاعر  
العلم انفس شيء انت ذاخره

من يدرس العلم لم تدرس مفاخره

اقبل على العلم واستقبل فوائده

فاول العلم اقبال وآخره

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر ونقطة من قطر وللعلم من المزايا الفاخرة في الدنيا والآخرة ما لا يحاط بمجد ولا يدخل

تحت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصممت النية على ارسال ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع الازهر وتجربه فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفرقه وادعوا له عسى ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعاً بالدعاء له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات المحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعندت عليها الايام وصدعتها الامراض والاسقام فكف بصرها واخذل امرها فرفعت راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامل وان يرده لبلده في صحة وسلامة مجملًا باوصاف اهل الكمال متخليًا بحال ارباب الجلال لينتفع به اهل بلده وليكون ردا لاقاربه وعشيرته وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وامن الشيخ وبقية الحاضرين ثم انهم ودعوا علم الدين وهم في نحيب وبكاء من حرقة الفرقة وبعد الشقة ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان متوجهًا الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى منزلهم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضًا يدي والده والدته وسار على بركة الله تعالى



المسامرة الثانية  
سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقه من قبل وتارة يفرح لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظاً للقرآن وكان يرى في نفسه ان فيه استعداداً لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائماً يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احياناً يتكدر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باخنلاطه بهم والمحادثة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئاً فشيئاً حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصاً وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لتقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيراً لكثرة ممارسته لهم واخنلاطه بهم فاتخذ علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويقفه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل و حاله اذا اخلط باهل الازهر واتصل ووعده انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عليه اي وقت احب ووصف له منزله وحارته فتسلى

الولد بذلك وقرناظره وطاب خاطره حتى انتقضت ايام السفر  
ودخلوا مصر آمنين فاخذه ذلك الرجل الى منزله واكرمه فبات  
عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان  
حكى علم الدين للرجل ان معه مكتوباً لبعض اصدقاء والده  
وعرفه اسمه فوعده الرجل بان يده عليه فلما اصبح الصباح قام معه  
وتوجه به الى صاحب والده وسلمه المكتوب فلما قرأه فرح بالولد  
لان بينه وبين ابيه مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب به وتعهد  
له بان يكون له كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليه ليقضيه  
له وفاء بحق صحبة والده لانه من اعز الناس عليه فشكره علم  
الدين على معرفته وسأله ان يرشده الى كل ما يلزمه لانه مأمور  
من والده ان لا يخرج عن رأيه وطاعته فقال له لا تعجل فني  
غد ان شاء الله اتوجه معك واسلمك لاحد الاساتذة واوصيه  
بك واتكلم معه بما تعود منافعه عليك واتقنا على ذلك ثم ان  
الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزله او في مكان  
قريب من المسجد فاخار الاقامة في مكان قريب من المسجد  
ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب  
والده رايه ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته  
في تحصيل العلم وحرصه عليه ولما جاء الغد مضى معه الى الجامع  
الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائه كان بينه وبينه صداقة  
ووداد وله فيه حسن اعتقاد فوصى به ورغب اليه في التهاء نظره

عليه ورعاية شأنه والعناية بامرّه وإرشاده الى سواء السبيل في  
امر الطلب والتحصيل وترجاه كثيراً في ذلك وذكر له ما بينه  
وبين والده من المودة الأكيدة فقبل الشيخ رجاءه وأمر علم الدين  
بمضور الدروس في أوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن  
الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذٍ ملازماً للدروس طول  
نهاره وإذا جاء الليل ذهب الى بيته وإقام غالب ليله يطالع  
الدروس المستقبلية ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل  
في تلاوة القرآن فما مضى عليه إلا قليل من سنين حتى بلغ في  
علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغاً لا  
يصل اليه غيره في سنين كثيرة ثم أخذ يتعلم علوم البلاغة  
والأصول والتفسير والحديث وهكذا كان يتقل من فن الى آخر  
ومن درجة الى ما فوقها حتى برع في العلوم الثقلية والعقلية وصار  
يشار اليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الأقران وما  
ذاك إلا بدعاء والديه ورضى مشايخه وإخوانه عنه وكثرة  
اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وامثاله امر مشايخه وإخوانه  
وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي  
الالباب كامل الأخلاق والآداب إذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما  
لا يعنيه وإذا سئل أحسن الجواب وأصاب الصواب محباً لمجالسة  
اللطفاء ومجانسة الأدباء حميد الخصال حسن الصفات والأفعال  
شاعراً أديباً فصيح اللسان لبيباً محمود الخلق والمخلق عند العام



والخاص يشهد له بذلك العلماء والأكابر والخواص وقد حاز جميع هذه الاوصاف الحميدة والمزايا الفاتحة الفريدة في مدة يسيرة واعوام غير كثيرة لم يسافر فيها الى وطنه ولم يحن الى مسقط راسه وعطنه الى ان جاءه الخبر بموت والديه ومن يعز فراقهم عليه فتوجه الى البلد ليأتي باخواته الى مصر وكن ثلاثا من البنات خلفن ابوه بعد سفره الى مصر فاحضرهن معه وقد باع كل ما تركه ابوه على اهل البلد وكان شيئاً قليلاً وذلك بعض اعنز وحمارة وانية فخار وشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو اربعمائة قرش واشترى منه ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة اقامته في البلدة اجتمع عليه مشائخها ومشادوها والجيران وتكلموا معه ان يقيم في وظيفة ابيه اماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتنى عن ذلك قائلاً اني احب ان اتم دراسة العلم وبعد ذلك ان شاء الله تعالى اعود لبلدتي ومقر راسي فقالوا له جميعاً ان الذي حصلته انت من العلم الان اكثر مما كان يعلمه ابوك فقد درست النحو والقه وغيرها وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيراً فضلاً عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان ابوك لا يحسن غير تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للامامة وعقد النكاح بل انت الان فيك كفاية لان ثولى نيابة القضاء في القرية فلو بقيت عندما توجهنا بك الى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة القضاء في البلد والحو على فاني واعذرهم بان القضاء يحتاج

الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانه لا ينبغي ان تعرض  
للقضاء وفصل قضايا الناس الا من كان متجراً في العلوم الشرعية  
متضلعاً من اصولها وفروعها واثقاً من نفسه بعدم الميل عن اتباع  
الحق في الحكم بين الخلق وانه لا يرضى ان يكون مسؤولاً يوم القيامة  
عما يحكم به خصوصاً اذا كان بدون ثبوت فقد قال صلى الله  
عليه وسلم لياتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان  
لم يقض بين اثنين في تمرة قط لاسيما وانه يخشى ان يغره الطمع  
وحب الدنيا فيقع في حبال الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على  
خلاف الطريقة الشرعية والعمر يتقضي ومتاع الدنيا قليل فالأولى  
بالعاقل ان يتمسك بعري التقوى فانها السبب الاقوى وامثال  
هذا الكلام فما كان يزيدهم تمنعاً الا رغبة فيه فلما لم يجد له مخلصاً  
من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا  
الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ  
القران ووظيفته ان يملا ميضأة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ  
جعلوه اماماً لهم في صلاتهم موقناً الى حضور علم الدين من الجامع  
الازهر وتوليته وظيفة والده فلما حضر وابى فرح الضرير بذلك  
في نفسه بسبب انه يصير حينئذ مستقلاً بهذه الوظيفة وملحقاً بها من  
عقد نكاح وغيره وكان بعض مشايخ البلدييل الى الضرير فقالوا  
الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحمله كتاب الله  
ونعرفه حق المعرفة فهو اولى من غيره فاتقوا جميعاً على تقليده هذه

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر  
واستأجر لهن بيتاً في ربيع وانزلهن فيه وصار كل يوم ياتهن بمجرايته  
المرتبة له بالازهر ولكنها لما لم تكن كافية لقوت اربعة تضايق  
فقصد بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حاله وحال اخواته  
ولكونه محبباً اليهم ومقرباً لديهم سعلوا له في ترتيب جارية اخرى من  
المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتب له من المجرايتين كفاية لنفقته  
ونفقة اخواته فضاقت من ذلك صدره وتحير في تدبير المعيشة امره  
والجأته الضرورة الى القراءة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان  
منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان  
فيه هتك المرات إلا ان الضرورات تبيح المحظورات فكان  
يذهب معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب  
الى بيوت الامراء لاختذ الصدقات فحصل له من ذلك بعض  
اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق الفقر  
واحواله



## المسامرة الثالثة الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم  
 وليله في قرأة الختمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولن  
 ويقوم باصلاح شأنهن كان دائماً مشغول البال بهن فرغب في  
 الزواج ليستريح فؤاده من جهتهن ويتفرغ لطلب العلم والسعي في  
 تحصيل معيشتهم الا انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة  
 الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي  
 أن ما يرد له في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلت رغبته  
 وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى ( وما من دابة في الارض الا  
 على الله رزقها ) وقوله صلى الله عليه وسلم من تزوج يريد  
 العفاف فحق على الله عونته ) وقول عمر بن الخطاب اني لا تشعر  
 من الشاب ليست له امرأة ) كثرت في الزواج رغبته وقويت  
 نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف له وجه الصواب  
 عن احد المحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما  
 ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا هم احدكم بامر فليستخر  
 ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه  
 الخير ) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا  
 الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ) فهلا استخرت او ذهبت الى

بعض المشايخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبين له ان الزواج هو الصواب ثم طرأ له تحير اشد من الاول ولم يدري على ماذا يعول وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان تكون ثيبا او بكرأ قال فكنت ذا قلب معذب وعزم مذبذب لا اهتدي الى صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأيت لكل مزية وليست واحدة منها عما يحذر منه عرية لان البكر وان كانت درة محزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا مارسها عابث ولا وكسها طامث الا انها ابنة العنان بطيئة الاذعان مؤنتها كثيره ومعونتها يسيره تقول انا البس واجلس واطلب من يطلق ويحبس واما الثيب فهي وان كانت الصناع المدبرة والفظنة المخبرة عمالة الراكب وانشطة الحاطب الا انها اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دابها كنت وكنت وظالما بغي علي فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس وامثال هذا مما قراته في الاسفار وطالعته من منشور الاخبار ومنظوم اشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل وتقع باليسير الا ان ما يرد لي من الصدقات والحراية وقرأة الحنتمات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يبغي بما يزيد لاجل الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر المعيشة الا ان لوازمها كثيرة ويجب لها من الحقوق ما لا يجب

غيرها لاعنيادها على السعة في بيت اهلها وربما كانت المساعدة  
 التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصاً وغالب  
 من اراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم  
 مقام غناه بسبب جهلهم فربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه  
 واستهزؤا به ولم يريدوه لان الانسان عدو ما جهله ومن جهل  
 شيئاً عاداه وما زلت اقلب في مثل هذه الافكار والخواطر وارتدد  
 بين الموارد والمصادر فازداد بي التخيير وتشعبت علي طرق التخيير  
 ووقعت من الحيرة في ليل بهم ولم ادري في اي واد اهم فرجعت  
 الى كتب الحديث والاخبار وما ورد عن السلف الصالح من  
 الاثار فقرات ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال قال لي  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال ابكراً  
 ام ثيباً قلت ثيباً قال هلاً بكراً تلاعيك وتلاعبيها وامثال  
 هذا الحديث فرجعت البكر على الثيب ثم قرأت ما رواه الامام  
 احمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال اعظم النساء بركة ايسرهن مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لحالي  
 ايسر مؤونة وبالنسبة لعالمي اكثر معونة واقرب للثناعة بقليل ما  
 لدي وابعد عن الترفع والتعظيم علي فصمت النية على البكر  
 الفقيرة بعد ان استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت  
 فقيرة بالغة اسمها ثقيفة فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من  
 الصداق فرضي به وما عاب فاحضرت الشهود واولمت على قدر

الموجود وعقدنا العقد وميزنا بين المؤجل والنقد

### المسامرة الرابعة

#### العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي  
 اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر على  
 القليل ولا تنسى الجميل فبلغ علم الدين بها مناه وحمد الله سبحانه  
 على ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب  
 العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن  
 التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالحياطة والتطريز  
 وكب الحرير وكما تيسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل  
 من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفن  
 شيئاً من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت  
 عن ساعد المجد واخذت تعلمن جميع ما يلزمهن اذا تزوجن  
 فاخذن في التعلم وصرن لها كبناتها فقمن بخدمة المنزل وتفرغت  
 هي لصنائعها وكما تيسر تصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله  
 وراق باله ومكثوا على هذه الحالة اياماً متطاولة وليالي متوالية  
 لا يخطر لهم الهم ببال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد  
 عندها ميلاً لتعلم العلم فصار يلتقنها منه قواعد الدين شيئاً فشيئاً

ويعلما الكتابة فكتبت وحفظت القرآن وتعلمت من العقائد ما  
تحتاج لمعرفة ثم سألته ان لا يكتف عنهما شيئاً ما يعلمه فعلها  
العلوم الادبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من  
المعقول والمنقول وهي مع ذلك مؤدية جميع ما يجب عليها من  
حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس  
والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللمطالعة في مطولات  
الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص  
المتقدمين والخبار حتى جارتها في كل مضار واخذت معه في  
اودية العلم حيثما سار ولم تنزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم  
الله باربعة من الاولاد فتعظلت عن مساعدته في امور المعيشة  
بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان  
يرى ان نعم الله عنده واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه  
حامداً له على ما اولاه الا انه كان يرى ان ما يرد له من الجارية  
والقرأة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يرى لهم غليلا ولا  
يروى لهم غليلا لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده  
الاربعة وزوجه فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه  
ويتامل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق  
الحال ولا يجد لتفريج ما به من الضيق سبباً ولا للعلم باسرار الحكمة  
الالهية مطلباً ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول  
مخاطباً لنفسه اذا كان بقسمة الله تجري الامور فالصبر عليها



مشكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجنى الظفر والصبر  
على الغصة ربما أدى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كفي مؤنة  
بلواه وعدم الرضا معادة للقضا وتذكر قول شهاب الدين في  
تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمش الزمان معك على ما  
تريد فامش معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير  
ذلك من المواعظ التي مرت به والحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند  
ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان  
اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف  
الماكولات والمشروبات باكتافها احنت او دخل بيتاً من بيوت  
جهلة الاغنياء والاوغاد الاغنياء ورأى ما لديهم من النعم والتوسع  
في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته  
ايضاً بهذه الحالة الا انها كانت تبالغ في كتمان امرها وتحذر من  
افشاء سرها خوفاً على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك  
يكتتم امره ولا يبدي سره واذا لاح له منها امارات الضجر سالها  
تطبيياً لمخاطرها عن اسباب ضجرتها فتعلل بان ذلك لامر حدث  
بين اخيها وزوجنه او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على  
ظاهره ولا يدقق عليها خوفاً من ان تحبره بالحقيقة فيزيد تشويش  
فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء ووله لم  
يسبق في العادة لها وله فلم يسعه الاّ الاحاج عليها في طلب  
الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغيرها والبكاء الذي  
 اضرَّ بها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني اعذر اليك  
 منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيك عني ومعاذ الله  
 ان اكون دنست في عشرتك او قصدت غير مسرتك فان كان  
 ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعذرت اليك منه وان كان من  
 طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التبعاد عنه فاماطت  
 عن مكنون سرها الجلباب ونضت عن مستر ضميرها النقاب  
 وقالت

---

المسامرة الخامسة  
 محاوره

استغفر الله لي ولك واساله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي  
 واملك واقول لك الحق وامحضك الصدق ان البكاء الذي  
 عراني والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب وانما هي امور  
 جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف  
 ذلك قالت نظرت لتفقر حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق  
 عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد ماتنا وذهلت عن

قول الله تعالى ( وما من دابة في الارض الا على الله رزقها )  
 فهذا الذي اجري عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا تواخذني  
 في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم  
 منهم رافة ورقة قتال لما ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان  
 فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الا حوقلت ولا ارى  
 سوقاً ولا بيتاً مزخرفاً الا استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق  
 دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها  
 محجدين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال  
 في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقروناً بالفقر والجمل  
 ملازماً للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله  
 تعالى ( وبشر الصابرين ) وامثال ذلك لكن الحواس لا ترى  
 الا ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه بحكم  
 بما شاهده وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد  
 في اخفائه عنك واسأل الله دواء هذا الداء فانه وهن عظمي  
 واهي جسي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك  
 على هذا ان شئت ولا تواخذني ان اسأت فقال هاتِ قالت ان  
 اكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح  
 العلم واهله وربما جلموه باباً للرزق واصله حيث قالوا انه نور  
 تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف له مخدرات  
 حقائق الاكوان فيكسو صاحبه حلل الجمال والهيبة والاجلال

وان الجهل يطس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي  
ومعاطبه ويحجبه عن مشاهدة الاسرار الربانية وينعه عن ادراك  
ما اودع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخبال  
ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الا ظواهر الاشيا فيحكم  
عليها باحكام باطلة واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة  
الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه ما يضره ولذا  
يقال في الامثال ( الجاهل عدو نفسه ) ومن كان عدو نفسه  
كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرروه  
والمفهوم الذي استتجوه من هذا المثل وقدروه ان يقال العاقل  
حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان  
من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج  
نتائجه الا عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا  
ففيه اشكال اريد ان استمد فيه رايك واستطلع ما عندك قال  
وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل  
عدو نفسه وربه كما قلنا وراينا الغنى والسعة عند اهل الجهل  
والفقر والقلّة مع اهل العلم والفضل كما نقول في الحكمة في ذلك  
وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدوه  
فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد  
لا يسأل عما يفعل ولا معقب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا  
بكل ما يجري به القضا لكي لا نخرم الثواب في الآجل اذا حرمنا

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديماً  
 وفرغنا منه تعلماً وتعليماً وأنا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل  
 كل عاقل فضلاً عن الكمل الافاضل كما اني لا ارتاب في  
 ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك  
 اعلم ان الله عات كالمته وجلت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار  
 عليّة وحكم خفيّة او جليّة فان الانسان من خلقه اذا اتاه حظاً  
 عظيماً من العقل وقدرراً وافراً من الحكمة وولاه جانباً من حسن  
 البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الامور والاطلاع  
 على غوامض الاشياء نجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت  
 أفعاله عن العبث وخلت اموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو  
 حال من احواله وشيء من أقواله وافعاله عن حكمة يريدتها  
 ونكتة يقصدها اذا امده الله بالعصمة وايده بالتوفيق لتمتضي الحكمة  
 فما ظنك بالصانع القدير الحكيم الخبير الذي لا يغرب شيء عن  
 علمه كما لا يشدّ شيء عن أمره وحكمه أيجوز لمن رزق لمحة من الفضل  
 او لمعة من العقل ان يظن به جل جلاله وتقدس كماله ان  
 يطرق العبث الى ساحة شيء من امره او يخلو عن الحكم الجليلة  
 شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاً ثم حاشا وكلاً نعم نعم مع  
 ذلك ان عقل العاقل وان جلّ امره وعظم قدره لا يمكنه  
 الوصول الى الاحاطة بحكم الله كلها ولا جاهها وانما يصل الى  
 معرفة اقلها فان حكم الله المنظومة في تضاعيف المتدور المنبثّة في

تصارييف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قل او اكثر  
خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليه شيء من صغير او كبير  
الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما بحكم  
بحسب ما يراه في الاشياء المحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور  
من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة  
ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها  
ومعزول عنها فمن اين له علمها وكيف يتأتى له فهمها ومصداق ذلك  
اننا نجد في بني نوعنا من آثره الله علينا بمزية مزيد العقل ونور البصيرة  
وكثرة التجربة فاذا تفقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر  
والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله  
وربما راينا بعضها خلوًا من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا اخر  
الامر ما كان قد خفي علينا اولًا من حكمته وانه فهم بكثرة عقله  
ما لم نفهم وعلم بمزيد تجربته ما لم نعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله  
وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره  
من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على  
سوء الظن به والتدج في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن  
الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن  
درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته  
وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلًا وتجربة فنسفه رأيه  
ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيه من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انه كان قد اشار علينا بما هو  
الصواب وظهر له ما خفي علينا فاخطأنا بمخالفته وامثال هذا في  
كل عصر ما لا يدخل تحت حصر وكثيراً ما يتفاوت الناس في  
الآراء والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله  
وتجربته ما يخفى على غيره لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى  
الفضلاء والجهلاء وانتقلت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل العاقل  
البصير ولده الصغير بشيء ينفعه ويعود عليه بعظيم الفائدة في  
حاله او استقباله فتكره ذلك الشيء نفس الصبي وينفر منه طبعه  
ولا يعلم له حكمة ولا فائدة لتصور عقله عن عقل والده هذا ولا  
شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل  
الغري الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل  
العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير  
والغري الجاهل لم يخرجوا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن  
البصير ومن نوعهما وان قللاً في درجة العقل عنهما بخلاف العبد  
وربه الذي ليس كمثل شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان  
العقل وان انكشف له بعض الحكم الالهية واطلعه الله سبحانه  
على شيء من اسرارها فلا سبيل له الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها  
فله عز شانه حِكْم مصونة واسرار مكنونة تتلشى انظار البصائر  
دونها وتنفاني هم الاكابر عليها فلا يصلونها الا ان له مع ذلك  
حكماً ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

ذوي الابصار فلا يجهلها غير صبي او من يقارب منزلته من فاقد  
البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور  
ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكير ومنها ما  
يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة  
والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون  
بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك  
المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل  
ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فحكمته  
وعدله فاذا كان ذلك كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا  
السرفي شيء من افعاله جل جلاله باديء بدء ان تقطع الامل  
من معرفته ونياس من روح الله في الوصول الى حكمته بل  
نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة  
والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يعلمنا ما جهلنا خفاياه  
ويفيض علينا من بجار عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك  
شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل  
اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما اوّلا  
فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتاس  
حكمته فقد امرنا بالنظر والتفكير في مصنوعاته كما نهينا عن التفكير  
في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من  
عمل الاركان واما ثانياً فبالشكر على ما يفيض علينا علمه والله



سبحانه يقول ( ولئن شكرتم لازيدنكم ) واما ثالثاً فبالصبر على  
الطلب وقد قال ( انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب )  
ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من  
المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة  
الخاطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها  
فيما يتأني للعقول البشرية ان تصل الى سر حكمتها الزاهرة من  
افعال الله ومعجائب مصنوعاته الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه  
ومحبته والخضوع له والاتجاه اليه والتقرب من حضرته والاعتراف  
بحسن حكمته واجلب لسكون الخاطر واطمئنان القلب وراحة  
السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم  
يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصداً الى تفهيمك فان كل ما  
عندي ليس الاً من ثمرات تعليمك ولكي لما سألت ذلك السؤال  
واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يتطرق اليك سؤال  
الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليه  
فؤادي ولهذا اطنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى  
خمس امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني  
ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول  
البشرية لا يتأني لها الاحاطة بجميع حكم الله سبحانه وانما يمكن  
لها الوصول الى بعضها الرابع ان حكم الله سبحانه كما ان منها ما  
لا تصل اليه عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

لا يحتاج الى طول نظر وتدبر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس  
انا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اول وهلة فلا تقطع  
باليأس منه بل ننظر فيه ونلتبس بالحكمة له بقدر الاستطاعة  
وحيثئذ فلا باس بنا في النظر فيما اخذنا بصدده من المقام الذي  
بسببه انساق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش  
الفضلاء وقرح حالهم ورغد عيشة الجهلاء وكثرة ما لهم فان كان  
عندك في ذلك وجه حكمة فمك نستفيد والّا فلينظر كل منا  
بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت  
بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان  
واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شي من الامور الواقعة  
بقضاء الله وقدرته والتمسنا له وجه حكمة وسر استنبط بواسطة  
العقل على حسب ما يصل اليه الادراك وينفذ فيه الفكر فهذا  
لا يخلو من مزية بالنسبة اليها من سكون الخاطر وارتياح النفس  
كما قلت ولكن لا ينبغي لنا ان تقطع القول به ونجزم بان ذلك  
الوجه الذي لاج لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي  
ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بني عليه وقدر بل  
يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيه  
كذا وكذا ويجوز ان يكون له في هذا الامر اسرار وحكم اخر  
وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليه بالكلية اذ لسنا معصومين  
من الغلط والوهم والخطاء فقطع القول في ذلك والنجزم به ان لم

يرد به دليل شرعي ونصّ قطعي اقدم على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار باننا نظن كذا فلا باس به لانه اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيه مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنه فللناس فيه اقوال كثيرة منها ان الله لما رزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعتدل القسمة ويتساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا . ذكاء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رزق الجاهل سعة المال تأتي للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وعقلهم واحتياج الجاهل اليهم للانتفاع بعلومهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان المال مع اهل العلم والفضل ما كان للجهال وجه ينالون به من اموالهم فيختل الحال ويهلك الجاهل والله دراي تمام حيث قال

ولو كانت الارزاق تأتي على الجحى

هلكن اذا من جهلن البهائم

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انه قال وكل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليعلم ان لو كان الرزق بالحيلة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تجري بقضائه وقدرته لا بصنع ابن ادم وفكرته فكانت الحكمة في

هذا الهداية الى الله والدلالة عليه وارشاد العقول الى ان الامر  
كله منه واليه

نكد اللبيب وطيب عيش الجاهل

قد ارشداك الى حكيم كامل

وما ينسب للشافعي رضي الله عنه

لو كان بالحيل الغني لوجدتني

بنجوم اقطار السماء تعلقني

لكنن من رزق الحجى حرم الغني

ضدان مفرقان اي تفرقي

ومن الدليل على القضاء وكونه

بؤس اللبيب وطيب عيش الاحق

فقال هذه وجوه خطايبه ونكات ادبية يستانس بها في  
بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راي الناس من  
عالم غني وفقير عني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من  
اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغني ولا ملازمة بين هذه  
الامور بل التضيبة على العكس والعلم احد موجبات الغني والسعة  
والجهل احد اسباب الفقر والضعفة لولا عوارض واسباب اخر  
غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار  
موضع الكسب والسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية  
تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والري بالاكل والشرب

وامثال ذلك ما جرى به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي والعمل لا بالبطالة والكسل كما قال تعالى ( فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ) وامثال هذا ما يطول بيانه ولا يخفى عليك تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق والتشبث بوجوه تكسبه امثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته وطلب منه بلسان الحال والافعال وهو اصدق من لسان المقال فهو اقرب الى القبول فكأن المشبث بالاكل طالب من مولاه بلسان حاله وفعله افاضة الشيع والمشبث بالشرب طالب كذلك للرزي والمصطلي طالب للدفء وهكذا الاخذ في اسباب الرزق طالب للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا يجمل عنده ولا ضيق فيما لديه فهو فيفيض على كل احد ما طلبه بلسان حاله وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التمهيد قلت لك ان اهل العلم من لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا منتهمى انظارهم على العلم والتشبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلباً له واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا في طلبه افيض عليهم ذلك . نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي المجد لاسباب اخر واسرار وحكم قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا في العمومات والكليات لا في الخصوصيات والحزئيات فمحق كل

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه ما عند الآخر  
 الابوجه اللوم الأ على نفسه ويرحم الله من يقول  
 وعاجز الراي مضياع لفرصته

حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقال الشيخ اراك قد سمت الكلام الى حد اردت به توجيه  
 الملامة علي واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة  
 المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب  
 قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتياب وها انت قد حصلت  
 من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك  
 وانت الان بمحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فانا  
 عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من  
 الرزق الحلال فني علمك ان للعبد ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا  
 صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في  
 الطلب وكيف لنا تحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى  
 الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قليله  
 ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واخلاف  
 درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق  
 الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان  
 في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يثاني له معرفة ذلك  
 لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذ ذاك كل على اهله

مضطر للاقتياد لهم واتباع آراءهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليه ما يرونه نافعاً له وهو لا يدري اني ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع له ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشده وملك زمام امره واخذ يحكم عقله في التميز بين ما هو نافع له او اذيع وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاخيار لما يراه خيراً له فحينئذٍ اما ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه له واخذوه بسلك سبيله او يخلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اخاروه من اجله كان يكون اهله قد اخاروا له من صغره صنعة الكتابة والزوم الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه ورأى ان الاشتغال بصنعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير له من الكتابة لكونه راي بعض المشتغلين بها احسن حالاً وانعم بالا من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضاه من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اخاره كالخياطة مثلاً وان كان اذيع له في نفس الامر فرضاً يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليها هواه لا يمكنه التمسك منها فان ذلك لا يكون الا بعد اتقان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النفقة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأم ولا يجد فيها كسباً عاجلاً فيندم والحاصل انه يخجل حاله ويتذبذب امره ويخار فيما يخار ويكون حاله كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة انه لم تعبته مشيته

الموروثة عن ابيه فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يبرن نفسه على ذلك فسي مشيته الاصلية ولم تحصل له المشية التي ارادها وبقي يججل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه ممن خالف رايه راي اهله فيما علموه له في صغره فلا هو حصل الغرض ما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكلية وضاع عليه ما قضاه فيه من عمره وساء حاله وتخير في امره وربما كان من الاغرار فينضم اليه جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه ضلالاً الى ضلاله وخيالاً على خياله فان كان عنده بعض مال ورثه عن ابيه احتملوا على فناءه فذهبوا به من مكان الى دكان وانقلبوا معه من خان الى حان الى ان يصبح فقيراً معدماً نادماً سادماً وان كان من اصله فقيراً حسنوا له اموراً قيحة قل ان يحصل منها على الكفاية وربما آلت به الى الفضيحة وعلى كل حال يندم حيث لا ينفعه الندم ويبقى على اسوء الحالات الى ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه بسلوك سبيله فانه تعود عليه منفعة ما تعلمه ويحني ثمرته ولا يضع عليه ما قضاه فيه من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم فلننتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لاشك ان اهلك حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الا التحير فان كنت راضياً بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن



مقصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت  
 انت اخبرتني ان والدك المرحوم كان فقيها واماماً بمسجد قريته  
 فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله  
 لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون  
 دونه او مثله او فقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة  
 وجه الا انك اذا قارنت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت  
 الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه  
 للاقامة حيثذ بل الواجب عليك ان تقفوا اثره فيما كان عليه  
 وتتع راي والديك فتتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة  
 واقامتك في الارياف على اي حالة احسن لان الثقة هناك اقل  
 والموتة ايسر والهواء انقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا يتفجع منك  
 اهل البلد بتعليمك لم امر دينهم وتتفجع منهم انت بما تستعين به  
 على امور المعيشة ما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع  
 ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان  
 الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم ( واذ  
 اخذ الله ميثاق الذين اتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه )  
 وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زيتها ثمها كذلك العلم  
 زيتته العمل به وتعليمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راض  
 بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قضدت  
 متصدماً لتصدوه ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير  
والا كان صاحبه بمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه  
صفته نعوذ بالله من ذلك

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت  
في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع  
الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة

قالت لا يخفى عليك ان احياج اهل الريف للتعلم اكثر  
وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبه العلم في الازهر فانهم  
يجدون كثيراً من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك  
الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك  
بينهم انسب وتعليمك لهم اصوب واعلم انه اذا كان في يدك  
مال تريد ان تصدق به ووجدت رجلاً فقيراً بين قوم اغنياء  
من اهل الخير يوالونه بنفقاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل  
اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يسك  
رتمه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة  
وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد  
من يتصدق عليه وترجمه على ذلك الفقير المقيم بين اظهر المحسنين  
اليه وهكذا ايضاً حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من  
حيث الاحياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه  
المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزاي التي

## ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت عليّ الملام ولكن  
 هناك اعدار واهوال واخطار لولا مناقشتك ما سمحت نفسي  
 باظهارها لك فقالت له هات ما عندك قال لو علمت حال اهل  
 الارياف وما هم عليه من الظلم والاحجاف لما رغبت فيه ولا رضيت  
 به فانهم لا يرحمون فقيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يفهمون قبلاً ولا  
 يهتدون سبيلاً فقهاؤهم دائماً تحت رايهم وامرهم ونهيمهم وان فهموا في  
 انفسهم غير ذلك فلجهلهم وان وصل اليهم شيء من الدنيا فانما  
 يكون بالاحجاج وارقة ماء الحياء فهل يرضى بهذه الحالة والاقامة  
 مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان اارقة ماء  
 الوجه لا يرضى بها الا جاهل وكيف اعلم ذم ذلك واقع فيه  
 وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضع مني بالاقامة معهم  
 لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة  
 هناك ولا يوجد بقري الارياف الا صاحب ارض فلا يتكلم الا  
 في حريتها وبذرها وحصدتها او تجار فلا يتكلم الا في انواع الاخشاب  
 وما يصلح منها للسواقي والسقوف والابواب او صياد سمك فلا  
 يتكلم الا في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من  
 اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الا من كان مثلهم فان اقام  
 عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع  
 يسري كما قيل

طبع الفتى يُسرق من طبع من \* يصحبه فانظر لمن تصحب  
فقال له اما ما ذكرته من سوء حال اهل الريف فهو حجة  
لي عليك لا لك عليّ فان هذا ان كان كذلك فانما هو من  
شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم  
وتنبيههم ما يجوز وما لا يجوز وتوقيفهم على ما ينفع وما يضر واما  
قولك ان من يكون عندهم يضع علمه فحسبك في هذا قوله  
تعالى ( واتقوا الله ويعلمكم الله ) واما ما ذكرت من ان من يقيم  
معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على  
نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولا مثالك الذين كملت نفوسهم  
ورسخت في المعرفة اقدامهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت  
على الحق والهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث  
والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من  
الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكملون فلا يؤثر في حسن  
طباعهم سوء طباع غيرهم بل يعلو حتمهم على باطل سواهم ويسطو  
نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا  
اقتلعت الشجرة والمدرة والصخرة فلا تقتلع الجبل الراجح ولا تزحزحه  
عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم  
اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين  
الضالين بدعوتهم الى الحق وارشادهم الى الهدى وياخذون بايديهم

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن  
ذمير الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على  
الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما  
يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من  
الهلاك فقال الشيخ او نحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله  
سبحانه ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) وقال جل  
شانه ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني ) وقال عز من قائل  
( قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ) فكمال  
اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان  
دابه وديدنه طول حياته وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة  
الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيراً  
من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله  
وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده وعلى الجملة  
والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رايتك لراي اهلك  
فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ  
القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة  
ويكثر ميسر الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رايتهم فيما قصدوه  
ولكنك علمت اموراً جهلوا ففكرت ما احبوه وعدلت عما ارادوه  
واذا لم تر ما راوه فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود  
الذي تروم الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فيها

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المحتاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثواباً مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والمجادل والتفيل والقال والجواب والسؤال والحل والاشكال واعتراض واجيب وفيه نظر ويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه الى غيره كما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينتشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يتعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقي العلم منحصراً فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقتك فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك تستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل

قالت اسالك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحاول في الجواب قال سلي عما شئت قالت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنيهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلاً فصلاته بالضرورة فاسدة فعلمته كيف يتوضأ فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسألة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلمته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فتواييك في اي واحد منهم اكثر وتعليم ابيهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق احق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خير بين سلعتين من امور تجارته اخنار ما يعلم انه اكثرها له رجماً وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كتبت انت من تجار الآخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المعتول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيراً من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لهم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عتائد فاسدة مضرة ومنهم

من يقول كلامًا يكفر به وهو لا يشعر ولا نجد من يعلمهم أو ينبههم  
وتراهم على هذه الأحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك  
واخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض  
والتقدير ووقف على دروس العلماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون  
ولا يتفهم بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ  
الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري بفساد عقيدته  
او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه  
بعلمك وعلمت بمقتضى محبة الله ورسوله وملتته وامته لكنت تشفق  
عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على  
مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتقعد فيه بين المغرب  
والعشاء مثلا وتعتقد لمن تراه هناك منهم درسا تعلمهم به كيف  
يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة  
صحيحة وكيف يكون البيع صحيحًا وكيف يكون فاسدًا ونحو ذلك  
من الامور الضرورية لم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصلح على يدك  
عقيدته ومنهم من تصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من  
الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحانه ما لا يقدر اللسان على  
وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده  
فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة  
المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الا اذا قلت  
معمدة على حسن عنوك مغترة بفرط حبلك راجية عدم المواخظة



من جهتك إن قصدك بالعلم مجرد التباهي به والنظائر بالتجرب فيه  
والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والخوض في بحاره العميقة  
فتقول لك نفسك ان تعلم هؤلاء العوام لا يحتاج الى كثرة علم  
وجودة فهم فلا يظهر به فضل الانسان وسعة علمه وحدة ذهنه  
فما لك به وليس لك فيه فائدة وامثال ذلك مع ان فيه اعظم  
فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه  
المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من امور الدنيا حصلتها ولو اخلصت  
لله سبحانه النية والعمل لأتاك الدنيا من حيث لا تحتسبها  
واتبادت اليك عفو على ان الاشتغال بامور الدين وابتغاء مرضاة  
الله لا ينافي الاشتغال بامور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل  
لاخرتك ودنياك معاً وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تتس  
نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في  
كفالة اهلك في صغرك فعليك ان تعول ذريتك وعيالك في  
كبرك وتسعى لهم بما يصلح حالهم وينعم بهم من المعاش الطيبة  
بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وابتغاء فضل الله سبحانه  
وقد قال جل جلاله ( فاتشروا في الارض وابتغوا من فضل  
الله ) وقال ( واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل  
الله ) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم  
الحلي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما  
قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوباً

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها  
 ألم في طلب المعاش وما نقله منه عن أبي سعيد الخدري رضي الله  
 عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الأعمال الكسب  
 من الحلال ومنه عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك دنياه لاخرته ولا اخرته لدنياه  
 حتى يصيب منها جميعاً فان احداها بلغة الاخرى ومنه عن أنس  
 ايضاً من لم يتم في امر معيشته لم يتم بامر دينه والنفس لا تكون  
 متفرغة للطاعة حتى يكون يكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت  
 امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا  
 وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف  
 كثير . وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع  
 قال اتعبد قال من يعولك قال اخي قال اخوك اعبد منك  
 وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما  
 افتقر احد قط الاّ اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في  
 عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال  
 عمر رضي الله عنه لا يتعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم  
 ارزقني فقد علمت ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وكان زيد ابن  
 مسلمة يغرس في ارضه فقال له عمر رضي الله عنه اصبت استغن  
 عن الناس يكون أصون لدينك وأكرم لك عليهم وكان اصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويغرسون

ويعملون في خيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يتعدى فما هذا التقاعد  
 والتقاعس عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع  
 على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة  
 والبطالة وهلاً قسمت وقتك قسمين قسم تصرفه في العلم والعبادة  
 والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة  
 في الريف معاً ذكرت لك فلا باس عليك اذا تشبثت هنا بالسعي  
 على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض  
 العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدينه وما الذي تريته

فقلت العاقل من اتدى باهل حرفته وامثاله وخرفته  
 وقد علمت ان كثيراً من امثالك لهم مراتب ووظائف واقطاعات  
 ولا أرى احدا منهم الا وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان  
 فقيراً وفي زيادته ان كان غنياً فلو تصديت لهذا الامر وسعيت  
 فيه فما اظن ان سعيك يضيع عليك فقد قيل من جد وجد  
 ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من ارباب الكلمة  
 وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة  
 امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من  
 محرم ولا مكروه بل ربما كان واجباً فانا مامورون بالسعي  
 والناس جميعاً شنيهم وفتيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج  
 الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يغلب

عليه حب العظمة والترفع والترفة فلا يشتغل إلا بالامور المهمة الكلية ويكل أموره الجزئية لخصائرها الى غيره فيحتاج للفقير ليقوم له بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مروءة ومعروف انتطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ بغيره وهكذا حال الفقراء والاعنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لا شك فيه ولا ريب يعتريه ولكني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واخبرت حالم مع روائها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الا من عدل عن الحق واتبع أهواء الخلق فان كل صاحب وظيفة لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق وإما ان يتبع أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون به حتى يعزل ولا يخفى ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب \* وخمارها صعب شديد

كم تائه بولاية \* ويعزله يغدو البريد

فبأي الحالتين ترضين واي الامرين تريدن وهل بعد هذا العمر وظهور الشيب يلقى بي ان اذل نفسي واسعى فيما يوجب

لها غضب الله او اطلاق السنة الناس عليّ فتضيع دنياي  
واخرتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال  
لسلامتنا فيه من السنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل  
فان تجنّبها كنت سالمًا لاهلها

وان تجنّبها نازعناك كلاهما

فانا وان كنا في ضيق من العيش فمثانا كثير وربما كنا  
احسن من غيرنا وانا اعد نفسي من السعداء حيث زوجني الله  
بك فكنت موافقة لي في العلم والعمل ففي الخبر من سعادة المرء  
الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة  
في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين  
واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منهما  
في الدنيا لرؤينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائماً في معاناة رسوم  
كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته  
وسكناته مشهورة واقواله وافعاله ماثورة مذكورة يلتقطها  
الناس ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها  
ويستتجون منها شراً وربما كان قد اراد بها خيراً فتنطلق  
السنة العوام بسببه وذمه وعيبه وتصير سيرته في الازقة شائعة  
وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهنا بمنام ولا يتم له نظام ولا يدخل  
منزله الا وفكره مشغول قد آلمه السقم والم به النحول فبيبت  
سمير الارق نديم الوهم والتلق فابن هو ما نحن فيه الآن ومن ذا

الذي يرضى استبدال المله وعناء بلذة راحته وهناك  
فقال له ان الذي قدرته بوهمك وتخيلته بفهمك مسلم من  
جهة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت  
دار تعب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم  
الله يختم به من يشاء من عباده فكيف يكون سبباً لدم  
صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية  
الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا  
في سلامة من السنة الناس بالعزلة فجنح ان سلمنا السلامة بهذه  
المحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنة الفقر  
والافلاس واين السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق  
عيش عيالنا فكيف يطمئن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم  
الجوع والثقله افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيباً لحاظرك  
فانك ان كنت منقطعاً عن الخلق في منزلك فاموالهم واحوالهم في  
قلبك فليست العزلة مجرد حبس الاجسام كما ان الصوم ليس  
مجرد الامتناع من الشرب والطعام والآن لكانت متحققة في اهل  
السجن والجرائم العظام وسأذكرها هنا مقدمة أهدبها للكلام ثم  
اخوض معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى  
الاشياء الا على حسب ما تظهر له فان وقف على حقيقة امرها  
واطلع على ما كمن من سرها ظهرت له من جميع جهاتها فحكم  
عليها بما تستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت له

المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تتنصيه تلك الجهة دون سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الا ما كشف الغطاء عن الأسرار الربانية واطلع صاحبه على المحكم الالهية ولذا قال أسد الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش هذا يفتح القلاع بخيله ورجله وذاك يملك القلوب برأيه وقوله ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم يكشف عن حقائق الطباع ويغوص بحار اسرار المخلوقات ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور بصيرته فالخلق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظئان الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير ولا تدبير الا بالعلم فالقوة الحيوانية محتاجة للقوة الروحانية والاولى مأمورة وتابعة والثانية آمرة ومتبعة فامور الدنيا لا تتظم الا بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير الاخر فكذلك العالم يفتح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا يحملها على غير ما اريد بها واظن ان غالب اختلاف الخلق من اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه بما يستخمه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

حكم به على تلك الجهة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغنى فانك لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تله فلم تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذمته وان كنت قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك لنظرت ايضا لما فيه من الفوائد الجمة والمزايا المهمة كالتوسعة على العيال والاقارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة الملهوف واعانة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء وكفالة الايتام واطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموقفين من الخيرات والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يطول استقراؤه ولا يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغنى من هذه الجهات لحكمت بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة فعبتة من اجلها وتحاميت به بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويتنعم من ادخالها بيته خوفاً من الاحراق فلو تحفظ لما يوجب سريان شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغنى فانه وان كان قد يوذي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا ينكر ذلك الا متجاهل او جاهل وحاشاك وليس الغنى للعلماء



بدعا ولا تحصيلهم له متمنعا فان العلم بانواعه يستعان به على  
مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله  
وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع الخلق كالطبيب  
الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر  
له بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء له فينتهي عليه  
ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظرا الى  
ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والاقوال  
فيعامل كالأمنهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق  
به من غير عدول عن الطريق القويم والصرراط المستقيم فقد  
قبل

احمل الناس على اخلاقهم \* فيه تملك اعناق البشر  
فتميل عند ذلك قلوبهم اليه ويغدقون بالاحسان عليه  
ويتقنون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعلمه  
وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع  
نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث ينتفع  
به الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تنغذى به ارواح  
الخلق ويتعلمون منه ما ينجيهم من غضب الحق ومن كانت  
هذه حالته فالاحسان اليه مبذول ودعاؤه عند ربه مقبول  
فقال الشيخ لا بأس بما تقولين ولا شك في كثرة فوائد  
الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تيسر لي سلوك سبيله ما

قضرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده إلا رضاك وابتهاجك  
 وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والاقبال  
 عليه ولكن كيف السبيل اليه . وابن الثريا من يد المتناول .  
 قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس  
 بفضلك وفهمك

قال الشيخ سجان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم  
 من أعمالي وانت أعلم بجميع اقوالي وافعالي واما التعليم فليس لي  
 اشتغال الا به ولا تعلق الا بسببه وتعليمك انت اقوى دليل  
 والله على ما تقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي اردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل  
 اذا ما اتيت الامر من غير بابه

ضللت وان تدخل من الباب مهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على  
 مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا  
 يزال كذلك حتي ينقضي العمر فيلزم مرید اي علم ان يعرف قبل  
 نعبه ثمرة علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان  
 لم يغرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع  
 المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم به ويدخل في العرض

الالوان والاحوال والافعال ويدخل في الجوهر الحيوان والنبات  
والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة  
بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها  
وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراما  
عليها الخالق المحكم القادر جل شأنه ولكل منها في ذاته  
واحواله اللاحقة له والمتعاقبة عليه لفظ يعبر به عنه وخاصة  
نقوم به وحكم يحكم به عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع  
افرادها واحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العلم الخبير الذي  
خلقها وصورها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار  
حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي  
على الاطلاق لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض  
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية  
ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتضحل دونه واما علمنا بها  
فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة  
ما يتأني للعقول البشرية ادراكه ومعرفته من افرادها واحوالها  
الاصلية والظائرة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق  
تحصيلها وكيفية استعمالها والانتفاع بها وخواصها واحكامها وحلالها  
وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات  
والكيمياء والطبيعة والطب والشريعة وفروعها . القسم الثاني علم  
ملحق بالحقيقي ووسيلة له ويسمى علم الالات وهو علم اللسان

فيدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها  
فمن اقتصر على العلم الملتحق بالتحقيقي لم يكن عالماً حقيقياً بل  
يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم  
التحقيقي كان له أن يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد  
أخذت من كلا العلمين بنصيب وافر وبلغت الى درجة شريفة  
فمن ذلك انك فقيه عارف بالمذاهب الاربعة مستخضر لاصولها  
وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت اكثر اشتغالا به فلا  
اقول لك اترك الفقه واتقطع الى الطب أو الهندسة او الفلاحة  
مثلاً بل اقول يلزم ان تكون موظفاً بوظيفة تعمل فيها بعلمك  
وتتفع وتتفع فيها بجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي اشرت  
اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من  
الوظائف من غير ان تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا  
وكاذب الفجر يبدو قبل صادقته

وأول الغيث قطر ثم ينهل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذي  
تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه او ان هذا البلد غير البلد  
الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد  
وغير ذلك لا اقول وفيما جرت بيننا من المناقشة كفاية  
قال الشاعر

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده

وليس عليه أن يتم المطالب

وقال آخر

لا تيأسن إذا ما كنت ذا ادب

على جمولك أن ترقى إلى الفلك

فبينما الذهب الأبريز مختلط

بالترب إذ صار أكليلاً على الملك

فقال لما دعيني أفكر في أي الأمرين أولى وهل ينشرح

خاطري لموافقتك أم لا



المسامرة العادسة

السائح الأنكليزي

وقام من عندها وتوجه إلى الجامع كعادته وهو متفكر فيما جرى بينه وبين زوجته وكان قلبه يميل لمرغوبها لإدخال السرور عليها وعلى أولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في نفسه أحوال أحد الأمرين بأحوال الآخر ويقدر ما في كليهما من منفعة ترجى أو مضرة تحذر ثم ترجع عنده الرجيل عن البلد وكنتم هذا الأمر ولم يفشه لأحد وأخذ في أسباب معرفة أحوال

البلاد والاقطار تارةً بالسؤال من اهلها وتارةً بمطالعة كتب  
السيّاحات والابخار واقام ينتظر الفرصة فلم تمض الا ايام قليلة  
حتى اتفق ان رجلاً من مشاهير الانجليز المشتغلين في بلادهم  
بتعلم اللسان العربي وقراءة علومه حضر الى مصر القاهرة ولقي  
حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر واطلعه على بعض رسائله معه  
من الامراء والكبراء تتضمن التنويه به وطلب رعايته وانهى اليه  
انه من عشاق اللغة العربية وطلابها والمتعلقين باهدائها وان  
عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن  
المكرم ابن ابي الحسن الخزرجي الانصاري رحمه الله وانه لما  
راه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغرارة مادته وعظم نفعه  
وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة  
يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطلابه فان تحصيله بخط  
القلم لا يتيسر الا للاغنياء واهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع  
قلة نسخه وندرة وجوده وانه حضر الى مصر بقصد تصحيح النسخة  
التي معه من هذا الكتاب لاجل الطبع منها والتمس من حضرة  
الشيخ ان يدلّه على استاذ من افاضل العلماء المتبحرين في تصحيح  
الكتب ويقرأ عليه بعض العلوم العربية ويجعل له في نظير  
ذلك راتباً كافياً يرضيه ويعوض تعبته فان اقتضى الحال في اثناء  
ذلك سفره من مصر الى بلاد الانكليز او غيرها استصحبه معه  
بشرط ان يضاعف له مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤنّته ونفقته

ولوازم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر له الشيخ جماعة من افاضل العلماء المتفنين المعروفين بجدّة الذهن وجودة الفهم والتمكن في الدين والعلم ودله عليهم وقال له اجتمع بهم وتكلم معهم واسترهم بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانكليزي ببعضهم وتكلم الشيخ ايضاً مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الا امتنع واعتذر خصوصاً حين يسمع بالسفر فمنهم من اعتذر بكبر سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفارقة اهله ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر للرجل الانكليزي فسأل عنه واجتمع به في مجالس متعددة فرأى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بحبته ورغب كل الرغبة في صحبته وكله ذات يوم في ذلك ورغبه في موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد رآه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخياً الطبع يتودد للمسلمين ويظهر ميله اليهم وتمنيه الخير لهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم فانس به ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن اهلني الى الغد حتى اتفكر في نفسي فان الراي اذا لم يبيت ويتثبت فيه كان كالجنين المولود لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا

مأمورون في ديننا بالاستشارة في أمورنا

فقال له الأنكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في  
صحتي كل ما يسرك ويرضيك ويعجبك وموعدنا الغد في هذا  
المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين  
يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه  
ومحبته له من الناس فترجح عنده موافقة الرجل على طلبته  
وواقفه على ذلك من استشاره من احبته وفي خلال ذلك أحس  
برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته  
لم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل  
اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظراً واجمعوا  
رايهم على ان يبذل كل منهم غاية جهده في منعه وصدده عما هو  
بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حوالبه وقالوا أدام الله ايها  
الاستاذ تمكينك وحرس دنياك ودينك قد سمعنا من بعض  
الناس ان هذا الرجل الأنكليزي قد استمالك الى موافقته على  
مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظمتنا ذلك واكبرناه ورددناه  
وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور  
له في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعلمه علوم  
الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك  
وورعك واستقامة رأيك وسلامة طبعك وقد علمت قول الله  
سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم



اولياء تلغون اليهم بالموءة) الى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل  
سواء السبيل) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الامل والاطمان  
وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب  
البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب  
او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربة كربة والثقله مثله لا  
سبالذي قلّة

ان الغريب الطويل الذيل ممتهن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غريتك

لقرب الدار في الاقتار خير \* من العيش الموسع في اغتراب  
فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان  
اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعم المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه  
فان كثيراً من الناس انا من جملتهم يتمنون ان يحصلوه ولا يتيسر  
لم ان ينالوه بسبب كبره واحياج استكنا به الى مدة كثيرة ونفقة  
غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله فانا انما اخدم العلم  
والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر  
واذا علمت الرجل شيئاً من العلم فليس المعلم كالخادم فان من  
شان المعلمين التكريم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة  
والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على  
ديننا فائدة فقد يقف على حقائق ديننا فيحبه ويميل اليه ويرجحه

على غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي على دينه كان في بلاده وابناء  
 وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاول التي التي  
 يلتقيها بعض علماءهم في حقتنا وانا قد احسست في هذا  
 الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحججة والطلب للعلم  
 فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة  
 ( وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم  
 ابلغه ما آمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وقد نزلت في المشركين  
 الذين 'نقضوا' العهد فنبد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم  
 عهدهم وامر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لما خرج الى غزوة تبوك وتخلف المناقون وارجعوا بالاراجيف  
 جعل المشركون ينتقصون العهد فنبد اليهم عهدهم وهذا الرجل  
 الذي نتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم نهدهم نقضهم لعهدنا  
 فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى  
 هذه الاية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منيع العلم  
 والدين قال الامام فخر الدين الرازي على هذه الاية في تفسيره  
 الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلاً من  
 المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه  
 اذا اردنا ان نأقي الرسول بعد انتقضاء هذا الاجل لسمع كلام الله  
 او لحاجة اخرى فهل تقتل فقال علي لا ان الله تعالى قال ( وان  
 احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ) قال

والمقصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالباً للحجة  
والدليل او جاء طالباً لاستماع القرآن فانه يجب امهاله ويحرم  
قتله ويجب ايصاله الى مأمنه ودل هذا على ان النظر في دين  
الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي  
صار دمه مهدراً لما اظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والاستدلال  
زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنه ثم قال  
المذكور في هذه الاية كونه طالباً لسماع القرآن فنقول ويلحق به  
كونه طالباً لسماع الدلائل وكونه طالباً للجواب عن الشبهات  
والدليل عليه ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه  
غير عالم لانه قال ( ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وكان المعنى  
فأجره لكونه طالباً للعلم مسترشداً للحق وكل من حصلت فيه هذه  
العلة وجبت اجارته ( انتهى ) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به  
من الاعتراض على تعليقه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم  
بمخايق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على  
ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرى نفسي ان النفس لامارة  
بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها  
الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الاية فقد  
نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة لما كتب الى اهل مكة ان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح فتحذوا حذرکم ثم ارسل ذلك  
الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلمة جئت  
قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب  
الموالي يوم بدر اي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة  
فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فانها حاطب  
واعطاها عشرة دنانير وكساها برداء واستعملها ذلك الكتاب الى  
مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك  
فبعث علياً وعمرو عماراً وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها  
وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله  
ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فاخرجت الكتاب  
من عقاص شعرها فجاءوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فعرضه على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت  
ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم  
فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق  
هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله  
تعالى قد اطع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم  
ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا  
دليل لما نحن فيه وهوان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله  
عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من  
كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم  
في الآية المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه

ما بعد هذه الآية من قوله تعالى ( لا ينهاكم الله عن الذين لم  
 يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤم وتسقطوا اليهم  
 ان الله يحب المقتولين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين  
 واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم  
 فاولئك هم الظالمون ) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين  
 ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا  
 وعاهدونا ونصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول  
 قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير  
 ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيلة عليها وهي مشركة فلم تقبلها  
 ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها  
 وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الآية تدل  
 على جواز البر بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالاة منقطعة  
 ( انتهى ) وقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة  
 وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحبة الكفار وتقبل  
 هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم الحارث ابن كلدة طيب العرب دواء فوصفه له وكان  
 الحارث كافراً ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد  
 البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة اليّ على  
 الاجتماع بهذا الرجل وتعليه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس  
 بتعلم لسان هؤلاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الشريف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي  
 صلى الله عليه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية  
 فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء ( المحكمة ضالة المؤمن فليأخذها  
 حيث وجدها ) وجاء ( اطلبوا العلم ولو بالصين ) ومعلوم ان اهل  
 الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هؤلاء  
 القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه  
 من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة  
 لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما  
 لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم  
 نختار منها ما نراه نافعاً لبلادنا ولازماً لنا ولا بأس علينا في  
 ذلك فقد جاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان  
 الفارسي بان قومه وقد كانوا محبوساً يصطنعون الخنادق في بلادهم  
 امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة به وعمل فيه بنفسه صلى  
 الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امرأ نافعاً ان نتركه  
 لمخالفتهم لنا في الدين بل نتفع به وما علمنا من دينهم فلذا ديننا  
 ولهم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن  
 ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعاً منه بالنسبة لما فيه من  
 الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر مما لا يدخل  
 تحت حصر . قال الشاعر

سافر تجرد عوضاً من تفارقه  
وانصب فان اكتساب المجد في النصب  
فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يصب  
لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ  
للوازم معيشته فانه يترجم في حقه السفر على الاقامة اذا كان  
فيه رجاء الغنى والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والمخضر  
مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي

الفقر في اوطاننا غربة \* والمال في الغربة اوطان  
والارض شيء كلها واحد \* والناس اخوان وجيران  
ولا ينال المني الا بالغنى ولا الراحة الا بالتعب ولا تدرك  
معاني الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار  
وركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال  
تريدون ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النخل  
وأيضاً المسافر في حفظ الله وكفه اذا كان متوكلاً عليه  
ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو ارف به  
من نفسه

الله أكبر من ان تستعدّ له \* بعدّة او ترجي دونه سيبا  
اذا اصطفاك لامر هيئتك له \* يد العناية حتى تبلغ الاربا

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الاقامة  
والحضر ومن يموت بعيداً عن بلده كمن يموت بين أهله وولده  
فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا  
تخص بلداً دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكل حافل  
ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال  
والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المصائر والفوائد  
ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه  
وينبهم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من  
الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظربعين التامل في منابع ثروتهم  
وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا رأى اهل  
صنع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر  
والتامل والمقارنة بين احوال ذلك الصنع وغيره حتى اذا علمها  
وتحفظها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء  
من ذلك مخبراً عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل  
بذلك على فوائد جلييلة منها زيادة علمه ومنها انتفاع غيره بما  
يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه  
ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده  
وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعتباره بامورهم واطلاعه في  
سياحه على الاسرار المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر  
الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على



سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرب اليه بالطاعة والامتثال  
 لاوامر ونواهيه واستمسك بحبال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف  
 الغطاء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء  
 فيزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر  
 واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره لانه  
 يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما  
 قالوا مثل ذلك فمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها  
 فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسمع والخبر  
 واما ما ذكرتم من حب الوطن فليس حبه خاصاً بملازمته وعدم  
 مفارقتة وليس المقام به دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً  
 على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراجل عنها وهو لها  
 محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكنه  
 سفراً او حضراً وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من  
 الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء  
 والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من التنقلات  
 والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من  
 الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة والله  
 الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا  
 املهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته  
 ومضى الى بيته فدخل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما

دار في سره وسالها عما تراه

فقات اذا عزمت فتوكل على الله

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرر هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه

الى بلده والى ابي بلد اراد فقد تطول مدة السفر ويمتد امد

الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

فقات اري ان تعيينها وعدمه على حد سوا وربما كان

عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت

اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيك وارادتك فان

كثرت مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت

ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشتك

واجتهد في نفعك فطول المدة وقصرها يتبع ما يقع بينكما في

مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه

خيراً فافعل ما تطول به المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد

في تعليمه والصنع عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يقع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فمن ذا الذي ترضي سبحانه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معاتبه

فبجس الخلق تدوم المودة وبسوء الخلق تكون المباغضة  
والمباغدة فقل ما يرجح زنتك وافعل ما يجلب قيمتك فمن قوم  
لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم  
لديك ولا يخفى عليك فاغنم صفو الزمان وانتهر فرصة الامكان  
وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى الخلوص  
من ضررها لكن يكون ذلك باللفظ والمعروف والظرف لا  
بالشدة والعسف فقد يدرك باللفظ ما لا يدرك بالعنف وكل  
ذلك لا يعلم الاّ عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسمع  
لان الحب كما علمت حالة للنفس تنبعث عند مشاهدة المطلوب  
وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين  
ما يجلب بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد المتحابين وربما  
أدى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا  
جميعاً شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا  
نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محذور فيه ولا مانع اذ ركوب  
الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج  
الى الفرج ومتى كانت مكاتبنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة  
دامت الحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرت واطلع كل  
منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح  
الخواطر وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصلة  
ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحابين حبل ودم متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكتابة فعلاطة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يتيدي بكتاب واوڊ ان لا ترى في هذا كله غير ما اري فافضل الرأي ما لم يفوت فرصة ولم يورث غصة فاخلس الدهر اخلاصاً فظالما سرّ ثم اسأ الى غير ذلك من المرغبات ثم قالت له اني اري ان تستحب أكبر اولادك لتكون تربيتة على يدك ويشاهد البلاد التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن اديه فقد قيل من ادب ولده صغيراً سرّ به كبيراً وربما تحتاج اليه في بعض امورك ولكن هذا انما يكون برأي صاحبك ورضاه فاعرضه عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتا ليلتها بتجاذبان أهذاب المحادثة والنظر في اطراف هذه المحادثة الى ان ادبر الليل واقبل النهار فقام ومضى لموعده الانكليزي فوجده في الانتظار فاخبره بانه رضي ببلازمته وصحبته فسرّ بذلك لما كان اشرب قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرض الأمر عليه ويبرما الشروط بينها على يديه فمثلا عنده وقبلها يده واخبراه بما دار بينها اولاً وآخرأ من الكلام وانها يريدان اتمام الشروط على يديه لهذا المرام

فقال لا بأس، ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اثنى على الشيخ علم الدين نجاسن فضائله وعرفه بانه من اكابر علماء الزمان

وإفاضله وإن اللطف أخص خصائله والبراعة بعض شمائله  
 والبلاغة طوع لسانه وإنامله والعلوم العربية نصب ناظر والفنون  
 الأدبية رهن خاطر وإنه بين العلماء مرفوع المكانة معروف  
 بالصدق والاستقامة والأمانة لم يسمع فيه قذح قاذح ولا يبلغ ما  
 فيه مدح مادح وقال للانكليزي استوصي به لاجل خاطري  
 ولما يستحقه وكل ما وصفته به سيظهر إن شاء الله صدقه وهم  
 ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة ويجرر

فقال الانكليزي اما أكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس  
 وله عندي كل ما يسره ويرضيه ويحمله على الرغبة في دوام  
 صحبتي وأما ما وصفتم به حضرته فهو اهله ومحله فاني قبل ان  
 اجتمع به ما ذكرته لاحد الا اثني عليه غاية الثناء ومدحه باحسن  
 انواع المدح فلما اجتمعت به بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله  
 وبراعته وجلالة قدره وإن كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة  
 فان القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وأنا كنت  
 قد اقامت في بعض بلاد المغرب نحو اربع سنين تعلمت فيها  
 طرفاً من العلوم العربية ثم حضرت الى هذه الديار المصرية  
 وإن أكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية الا اني في كل سنة  
 اتوجه الى بلادي او غيرها من البلاد الأوروبية اقضي فيها زمن  
 الصيف بسبب شدة الحرارة فيه في ارض مصر وارغب ان يصحبي  
 الشيخ في السفر والاقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد على كل

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شاء تردد عليّ  
 في اوقات معينة كحالنا بمصر وان شاء لازمني ولازمته ليلاً ونهاراً  
 حيث كان لا يعرف هناك احداً غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح  
 كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئاً من العلوم العربية  
 وله عليّ في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنبها انكليزيا  
 وفي امدة السفر اجعل له ضعف ذلك وهذا ما عدا مصاريف  
 التنقلات والسكنى والمؤنة فكلها عليّ لا يلزمه منها شيء وقد  
 قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان وانه فليتمياء له فارضى  
 الشيخ بذلك وطابت نفسه به غير انه طلب ان يكون معه ابنه  
 في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعليّ مؤنته  
 ايضاً ففرح الشيخ علم الدين وقرّر ناظره وسرّ الانكليزي ايضاً  
 وطاب خاطره وانتقا على ذلك وكتبا بينهما المكاتبة اللازمة وشكر  
 الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واظن في الثناء  
 عليه وانشده

واحبيت لي ذكري وما كان خاملاً

ولكنّ بعض الذكر أنه من بعض

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها وانتقا على  
 تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين  
 يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقرآة بعض العلوم  
 العربية والمحاذنة فيما تستدعيه المناسبة وما ينساق اليه الكلام مع

اللطف والادب والكمال فظابت الصحة وزادت المحبة وتمكنت  
الالفة وارتفعت الكلفة وصار كل منها يكثر التردد على الآخر  
ويسال عنه اذا غاب ويأنس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان  
الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما  
اتفقا عليه الى ان قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم  
الفلائي فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة  
الفلاية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما  
اتفقنا عليه تجديني في انتظاركما لسير معاً فوعده الشيخ بذلك وعاد  
بالخبر الى زوجته

فقال له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت به  
بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة  
والرفاهية وأكدت عليه في عدم انقطاع مكاتباته عنها ومكاتبات  
ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعد ودّعها وودع بقية  
اولاده واخواته ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقرأ  
( والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات  
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان  
اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي  
فوجده في انتظارها فسلم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعاً الى محطة  
سكة الحديد

المسامرة السابعة  
سكة الحديد .

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة يبسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اتشد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق له بذلك عادة كما قدمنا الا انه كان قد سمع بها وراى معه غيره من الناس غير منزعجين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئنًا معتمدًا على خالق الورى و اشار للعربة يقول  
سيرى على اسم الله واسم الذي

علامة الايمان ان يذكر  
وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد



يزعجه الحال لعدم اعتياده إلا أنه تأسى بوالده وغيره وتفرس فيه  
 أبوه الخوف فزال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من  
 الشبابيك إلى ما يمران به من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات  
 والإنكليزي ينظر إليهما فاراد أن يعلم ما لديهما وقد عرف أنها أول  
 مرة فيها ركبا سكة الحديد ورايا هذا الأثر الباهر والاختراع الجديد  
 فقال للشيخ أيها الأستاذ كيف ترى . قال وماذا أرى أرى أن  
 الأرض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما  
 قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مع السحاب وهذا  
 الدخان قد أنتشر في الجو كالسحاب إذا انفطرت وتطير الشرر في  
 الهواء كالنجوم إذا انثرت وكثر الزحام كالمخلائق إذا حشرت وقد  
 فُتشت أوراق المسافرين كالصحف إذا نشرت فتذكرت بهذه  
 الأحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والآخرة حسن  
 السلامة قال ففما تفكر

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة المجارة لهذه العربات وتأمل  
 فيما لها من الحركة العجيبة وشدة السرعة الغربية التي حملت  
 الأغرار من بعض العامة على أن يقولوا أنها إنما تسير بقوة جماعة  
 من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم  
 وأمثال ذلك مما حملهم عليه غرابة الأمر وعدم علمهم بحقيقة السر  
 وقد عرفت أنها تسير بواسطة النار التي أرى كثرة دخانها وأفواج  
 شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشغولاً باضرامها

وتنقد امرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل في هذا الامر العظيم قدّاح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته الى محجة اليقين فاني ما رايت ولا اشتغلت به قبل هذه المرة بسبب اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلي اجد علمه لديك ولكن خشيت ان اتعب خاطرک وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرک قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر به من غير ان اجد بنفسي ادنى حرج حتى لو كلفني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوك الا تكلم عني امراً تريده ولا تحشم من شيء تسأل عنه لانك على سفر قد كلفتك به الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد راحتك وانسراح خاطرک ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي سالت عنه ليس في بيانه مشقة علي ولا كلفة وانا وان كنت لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين به وقرات بعض الكتب المصنفة فيه وصار لي به معرفة كافية لامثالي وهو فن واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل الاجمال والتلخيص ما لا يمل سماعه لتقطع به مسافة الطريق

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلقت رغبتك بالتعرج فيه والتوسع  
في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتني سررك الله بما يجعل فيه اسعادك  
وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه  
تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة  
بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينفذ منه  
البخار في منافذ معلومة الى الات مخصوصة فيحركها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حلت منه  
اجزاء تكوّن بخاراً فترتفع منه وتختلط بالهواء وينقص بقدرها  
من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تخفيف الثوب  
في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في  
الهواء ويبقى الثوب جافاً ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضاً انه اذا وضع مقدار من  
الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه  
منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار  
المتحلل من الماء بجمرة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء  
سواء كان فراغاً محضاً اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او  
كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك  
الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من

قبل وباردياد البخار تزداد قوة تمدده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تتجاوزه ويتقطع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنخس فيه البخار انه تشيع

قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواء كان فراغاً محضاً او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء له فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وإنما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئاً فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فارغاً من الهواء الجوي فلا يجرد البخار ما يزاحمه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان به شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من المحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب الارتفاع الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضاً له فيدافعه ويعالجه حتى يتخلله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلًا من البخار والهواء المذكورين معًا فإذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحت النار مكشوفًا لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار اتشر في الجو واخيلط بالهواء الموجود فيه فلا يبقى مقدار منه مجتمعا في محل واحد محفوظاً به حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبقى في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فتمت وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجوى بقدر ضغط الهواء الجوى كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذ لا يعارضه مانعة من جهة الجو فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقاع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بجالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المتبالة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منهما معاً وقد علم ايضاً ان البخار كلما اتشر وتفرقت اجزائه وتخلل بسبب اتساع المحل الموجود فيه ضعفت قوته وكما انكس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقداراً من البخار في اناء ليس به ماء ورأينا قوته اقل من القوة

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالمحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة

قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تتجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وإنما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانياً ذلك الماء بخاراً كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيه ماء فهل تتغير تلك الحالة اذا كان فيه ماء

قال الانكليزي لا تتغير القوة النهائية بوجود الماء وإنما اذا استحال جميع الماء الموجود بخاراً فعند ذلك تزيد القوة بتقل الحجم وتقص بزيادة الغازات

وقد وقف اهل الفن بتجارب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون  
بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجوف يقال قوة  
البخار الفلاني جو واحد واثان او ثلاثة مثلاً وهكذا

قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي  
نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع  
المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من  
جميع جهاتها مند فوق رؤسنا الى بعد عظيم الا انه محدود لا  
يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في  
درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها  
عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكثف  
بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها  
عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء  
بحسب جرمها وقد قدر ذلك بالحساب وحرر فعلم ان كل مقدار  
سانتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل  
كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جراماً

قال الشيخ ما معنى سانتيمتر وكيلوجرام فهذه الفاظ

لا اعرفها لانها ليست عربية

قال الانكليزي سانتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

المتراي عشر عشر المتر والمتر هو ذراع وثلاث بالذراع المعاري المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار سانتيمتر اي عشر عشر المتر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٢٤٤ درهم مصري من ضغط الجو وهو ثقل عمود من الزئبق قاعدته سانتيمتر واحد وطوله ستة وسبعون سانتيمتر او قدر عمود من الماء قاعدته سانتيمتر وطوله عشرة امتار وثلاث لان الزئبق اثقل من الماء ثلاثة عشر مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزئبق المذكور وهو ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة امتار وثلاث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر سانتيمتر من سطح اناء مثلاً مساوياً للضغط الواقع من الجو على القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جواً واحداً واذا كان بقدر ضغط الجو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا

ولسهولة الاعمال حرراهل الفن جداول يعلم منها درجة الحرارة المتبالة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجو فالجو الواحد يقابله مائة درجة والجوان ( ١٢٠ ) درجة وستة اعشار وهكذا الى ثمانمائة وعشرين جواً يقابلها ( ٢٢٠ ) درجة وتسعة اعشار

قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق بفعل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكننا لم نجد



فيها كيفية استعمال هذه الصورة البخارية الان وانما كان يستعمل قديماً قوة الانسان والحيوان في نقل الاثقال وإدارة بعض الآلات كالسواقي والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في إدارة بعض الآلات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في الأبحر والأنهر وإدارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك اما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكراً فيما وصل الينا من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الأهداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما امكن الوصول الى معرفته ما كان جارياً في ذلك بالاعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة مجوفة تدور على محور افقي دورة زحوية وجعل فيها انابيب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانابيب معوجة الى جهة واحدة فتمت قوي البخار في جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات فاجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرجا وهذا ايضاً يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما امكن الاستدلال عليه ما حصل في الازمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسيين قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كروياً يعبر عنه بالدست والقران وجعل له انبوتين لكل منهما حنفية تفتح وتغلق على حسب الإرادة واحدى هاتين

الانبوتين في اعلى الوعاء ليصب منها الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد اىصال الماء . فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يملأ كله بل يبقى اعلاه فارغاً لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتخلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء تخنه النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يتليء الحوض

ثم في سنة ١٠٢٩ من الهجرة جعل احد الطليانين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب طارة راسية لها كفات وان شئت قلت ريشات او الواج مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب النار اعني الطارة التي يسير بها مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتغلق بالاخيار فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتخلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهاً الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعها بقوته فتنزل وتاتي الكفة التي بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك . وتلك الطارة متصلة

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الآلة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة تيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستانين كرويين مركبين على فرن وفي كل منهما انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبويتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستانين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يصب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستانين الى قرب نصفه مثلاً واوقدت تحته النار يتولد منه البخار ويضغط على الماء فيمشي في الانبوبة المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلاه وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منهما يستحيل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الاعلا

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسية يسمى (باين) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحاً من اعلاه مسدوداً من اسفله وفيه مكبس محكم مائل للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعاء الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب نعبر

عنه بالساق فيوضع في الوعاء الاسطواناني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل ربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شيء ثقيل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بمسامر يثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواناني المذكور فتحصل البرودة ويقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حينئذ المسامر المسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وسقوطه يسحب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت آلات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في آنية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يضع جز كبير من البخار يذهب سدى وذلك انه عند توجيه البخار الى

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جزئ كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء إلا إذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد (بابن) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فتم ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة يتمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجيء ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٢٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها واتفق بدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها

وأكثر مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع واستقاء المزارع والمحراث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في البحر وعلى سلك الحديد في البر حتى صار البخار أكبر مساعد للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد من المتع عمله بالوسائط الاولى

فقال الشيخ نعم قد عمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد من المتع في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكك الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تم معروفك بان تشرح لي صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تميماً للاكرام فاتم ما مننت به واحسن \* فما المعروف الا بالتمام

قال الانكليزي حبا وكرامة اما استعمال السكك الحديدية اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع على الارض كما تشاهده فلم يكن الا منذ عهد قريب فان اول تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٢٥ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جربت

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الأرض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيره فتركت وبعد ذلك اشغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيره ولكن كانت سرعتها قليلة لقلة كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة البخاري فيها تأثير القوة الفعالة فلذا بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الا في نقل الفحم الحجري وبعض بضائع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويتفكرون في استنباط طريقة ييسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيرة والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسيين استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة الى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحرارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في الة انشأها (ستيفنسون) الانكليزي في معمل له وجريت فنجحت . ومن وقتئذ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الأرض المعمورة وقد كانت الآلات التي

علمت من قبل لا تزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة الواحدة وكان ما ينقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضاً ما يساوي مقدار اثنين وعشرين قنطاراً مصرياً وبعض كسر قليل من قنطار فثانون طنًا تساوي ألفاً وسبعائة وعشرين قنطاراً فهذا غاية ما كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة واما الان فلما دخل هذه الآلات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان ينقل بها في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة هذا في قطارات البضائع واما قطارات المسافرين فيمكن لها لحقتها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين الف متر فاكثر الى ثمانين الف متر فان سرعة الآلات البخارية تزيد وتنقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الآلة تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة فلا تجر في سرعة ثمانين الف متر مثلاً الاًعشر هذا المقدار فاذا وصلت السرعة الى مائة وستين الف متر مثلاً فانما تسير بنفسها ولا تجر شيئاً مطلقاً

واما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاخصار والتقريب فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلاً عن الآلة واما باخرة



سكة الحديد فيكون فيها اناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كثيـ  
واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار  
يجر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على  
مقتضى قواعد معلومة تختص بتحديد سعتها وميلها واختلف اتجاه  
سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى  
بلاد مختلفة ولتكم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وريّ المزارع  
وإدارة المعامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فعمل البخار فيها  
( وهو المعروف بالدست والقران ) يكون موضوعاً فوق الفرن  
بحيث يكون اكثر سطحه ماساً للنار حتى يحصل مقدار كثير من  
البخار من غير اطلاق وإسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري  
في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون  
بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها  
لحصول البخار فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القران على الماء  
الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة  
يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الآلة تسمى الاسطوانات  
لكل منها غطاءً محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتي  
تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطاء الاسطوانة الى  
خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها  
من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل اي من جهة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها واذا جاء من الاعلى ابي  
من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى الاسفل ففي الحالة الاولى  
يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطائها وفي  
الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة  
وهابطة بتكرار ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى  
ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلق وتسفل معها سيقانها  
المخارجة من اغطية الاسطوانات كما مر ذكره انفاً وهناك قطعة  
مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القب تشبيهاً لها بقب  
الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة  
قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل  
ويسفل العالي وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها  
باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس  
بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعداً  
كان الاخر هابطاً ثم يهبط الصاعد و يصعد الهابط وهكذا . وبحركة  
المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة  
سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع  
الساق الصاعدة ويهبط مع الهابطة وهكذا . وبحركة طرفيه تتحرك  
معها قضبان ثابتة فيها متصلة بجوار موضوعة على الارض او غيرها  
فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور  
فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة

بأقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل الة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها اشكال مختلفة وانواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لاجل الغزل والحياكة او صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولا ما يراد به ادارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به ادارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

واما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقران والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الاسطواناني الذي تراه امام القطار موضوعاً على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المؤخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست أي اوله من الجهة التي يسير اليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان الى الجو وبين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه انابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فاكثر الى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مارة من بيت الماء الموجود بينها كما ذكر

وهذه الانابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها اخلية صغيرة

ببلاها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه  
ثم فوق الدست مما يلي جهة النار بيت البخار وهو الذي  
تراه نائماً فوقه كالمحذبة على ظهره ويقال له طنبوشه  
فيوضع الماء في القزان اي في بيت الماء السابق ذكره ولا يملا  
جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغاً من الماء ليتولد فيه البخار ومنه  
يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت  
الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن  
ايضاً وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة  
ويحصل منه مقدار كثير يكفي للمطلوب يجمع في الطنبوشة كما  
مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة  
طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مارة من بيت الماء من اعلاه في  
الجزء الذي يكون فارغاً من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في  
الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فيها في  
اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع  
البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فيها  
الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك  
ينفصل في انبويتين يصل منها الى اسطوانتين في جانبي بيت  
الدخان احداها جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منهما  
مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها  
فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبسين تحرك عدد متصلة بهما

واصله الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها  
 حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الالة كلها  
 عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم البجار فعله  
 المطلوب منه ينصرف من تلك الاسطوانات بواسطة انابيب توصله  
 منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور  
 فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق  
 القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه  
 للاحتراز من زيادة قوة البجار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد  
 البجار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة وتقصها والقزانات انما  
 تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة البجار يتمزق القزان  
 وينكسر ويحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الامن الاحتراز  
 من ذلك النخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى  
 ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس  
 في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خففها وان كانت  
 ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة  
 للبجار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد  
 تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة  
 بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتركب مع بعضها  
 على مقتضى اصول وقواعد مقرررة طويلة الشرح يوجد بيانها في  
 كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التجري في معرفتها وانما هذا بيان

اجمالي لصفتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها  
واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها  
قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٢٩ من الميلاد  
اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز ( ٢٢٣٢ ) كيلومتر  
وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا ( ٥٧٢ ) كيلومتر وفي باقي  
اوروبا ( ٨٢٤ ) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في  
نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها  
اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات  
بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها  
فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها  
كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات ( ٧٠٠٠٠ ) كيلومتر  
وفي سنة ١٢٧٢ من الهجرة احصي وقدّر ما حصلت المقابلة على  
انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت ( ١١٥٣٩٥ )  
كيلومتر منها في ايتازونيا من بلاد امريكا ( ٢٣٧١٠ ) كيلومترات  
وفي بلاد الانكليز ( ٢١٥٥٥ ) كيلومتر وفي بلاد فرنسا ( ١١٦١٥ )  
كيلومتر وفي المانيا ( ١٨٠٨٤ ) كيلومتر وفي باقي الجهات  
( ٣٠٤٣١ ) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ  
المذكور ( ٧٧٢٣١ ) كيلومتر منها في بلاد الانكليز ( ١٤٠٣٥ )  
كيلومتر وفي امريكا ( ٣٩١٩٨ ) كيلومتر وفي المانيا ( ١١٩٧٥ )

كيلومتر وفي فرنسا ( ١١٦١٥ ) كيلو متر والباقي في سائر جهات أوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري ( ٥١٨ ) كيلو متر ثم تم بعد ذلك باقي ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره وإذا قايسنا بين هذه المقادير وبين أهل الجهات المذكورة نرى ان كل مليون من الأهلين أي الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر من سكك الحديد في بلاد ايتازونيا والف كيلو متر في بلاد الانكليز وخمسمائة كيلو متر في فرنسا والمانيا وما من يوم إلا ويحدث فيه انشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها في كل يوم في تجديد وكل وقت في مزيد

فقال الشيخ ان السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتأخذ ما يتحصل من ايرادها فهل الجاري في سائر الجهات مثل ذلك

فقال الانكليزي الجاري في البلاد الأوروبية على خلاف ذلك فان انشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات تتألف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة المطلوب انشاؤها والتعود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضائع التجارية وغيرها بمقتضى اقوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدر على تعديلها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات من اطلاق التصرف بما يحل بالغرض الاصيل وهو تسهيل امر

النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والامن باجرة اقل مما كانوا  
يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل ميريامتر  
اي عشرة من الكيلومتر فوجد ٧٥ شخصاً في بلاد الانكليز و٧٢  
شخصاً في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات  
المتشغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو ( ٢٧,٠٠٠ ) شخص  
وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة  
البشرية وتمعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار  
جميع المشغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب  
من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرّف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ  
تجاوز حد المعهود فقد وجد متوسط ما يصرّف في انشاء كل  
كيلومتر في بلاد الانكليز نحو ( ٢٢,٧٢٠ ) جنيه انكليزي وفي  
بلاد المانيا ( ١١,١٢٠ ) وفي امريكا ( ٥,٠٤٠ ) جنيه وفي فرنسا  
( ٢٠,١٢٠ ) جنيه من هذا ( ٢٤,٠٠٠ ) جنيه ثمن الارض  
و ( ٥٦,٠٠٠ ) جنيه ثمن القضيب من الحديد و ( ٢٤,٠٠٠ ) جنيه  
ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني وبخلاف  
المصرف كثرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيراً  
جداً فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من  
مدينة ليون وصرّف على محطة باريس نحو ( ١٢٠,٠٠٠ ) جنيه



انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فان بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ١٠٧٣٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف المعامل الجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول ابي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاصل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس . وفي بلاد الالمانيين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب راوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجملة فاخلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهله

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

على ما ذكرت ولكن ربحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلباً للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٢ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١,٣٦٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١,٠٠٠,٠٠٠) جنيه ايضاً فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢,٣٦٠,٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥,٥٢٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضائع (٦,٠٤٠,٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١,٥٦٠,٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضائع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة الحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلومتر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي<sup>٢٤</sup> وما يصرف سنوياً على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنوياً خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

وأربعة وخمسون من المائة في سكك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية وأربعة وتسعون في جهاتها الغربية  
 فقال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب  
 كثرة ما ينقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر  
 في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية  
 بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير  
 جهات الفروع وجهة الصعيد

فقال الانكليزي لادري حاصل ايراد السكة بمصر  
 ومصر وفيها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما  
 رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر بيالي ان اسأل  
 من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن اين لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت  
 فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما  
 كنت اجد موجياً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الأمرة  
 واحدة لامر مهم وذلك ان والذي توفي وترك ايتاماً فذهبت  
 واحضرتهم ولم اخرج الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة  
 الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي  
 هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل  
 هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له  
 عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

وفي غيرها كالداية والمركب مثلاً ومبخار ما هو الأرجح له من غير  
ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الداية او المركب مثلاً فهذه  
عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر  
لعادتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة  
او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في  
غير هذه البلاد فارجوك ان تبين لي منه نبذة فرما يمكن لنا ان  
نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

فقال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فعندنا  
في بلاد الانكليز كان الريح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً  
وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع  
المنصرف من اصل المتحصل وفي فرانساً بلغ مرة خمسة ومرة ستة  
ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الريح زهاء عشرة في المائة وفي  
بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي ايتازونيا بلغ الريح  
في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثني عشر وخمسة عشر في المائة  
وليست تدوم هذه الارباح على قدر واحد و احد معين بل تزيد  
وتنقص بحسب الاسباب ومتنضيات الاحوال وكذلك المصاريف  
قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة  
مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والرونق فما وجه ذلك هل هو  
بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون  
قال الانكليزي ذلك بحسب ما يدفعونه من الاجرة فان

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها . ثانيها الدرجة الثانية وهي دونها واول منها اجرة . ثالثها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واول منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضائع وغيرها

قال الشيخ الظاهر ما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة

الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتاباً الفه بعض الفرنسية حديثاً في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلت التجارب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكتر الى ١٢ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٢ في الثالثة ومتحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرانسوا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٢٢ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلومتر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلاث سنتيم في فرانسوا و٨ وثلاث في

بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش  
واربعة وثلاثون نصفاً فضة بالمعاملة الديوانية الجارية بمصر وكل  
عشرين فرنكاً بتو واحد وما يحصل من اجرة البضاعة أكثر ما  
يتمحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدها للآخر وجدنا اجرة  
المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانساً نحو  
٤٤ وفي المانيا نحو ٢٨ تقريباً وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام  
بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في  
الزيادة دائماً وعليه مدارس سكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه  
المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما تنقل  
من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانساً سنة ١٢٥٩  
من الهجرة فبلغ ٢٥٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة  
١٢٢٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة ٢٢٧٠٠٠ طونيلاته والان  
يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانساً نحو (١٢٠٠٠٠٠٠)  
وفي انكلترة نحو (٦٢٠٠٠٠٠٠) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار  
الاجرة فقد كان يؤخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتياً في  
كل كيلومتر من السكة والان لا يؤخذ الا سبعة سنتيات وذلك  
في بلاد فرانساً كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان  
ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا يتقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المنقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المنقول قدر الاول عشر مرات فعلوا ان تقلل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاته فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثني عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الا سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جداً فلها رأوا ان ينحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجابةً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لم ارساليات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحاً

كثيراً وثمة عظيمة

ثم انهم رأوا ان كثيراً من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتيماً في كل كيلومتر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك سنة سنتيمات لكل كيلومتر فان كانت البضاعة ١٥٠ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلومتر سنتيماً واحداً فكما كان المتقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ ما امكن فتوصلوا الى هذا الغرض بتقص اجرة اللوازم الأولية كالخبر والجبر مثلاً لتنقل الى البلاد البعيدة والقريبة والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة مثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التدبيرات وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضاً انتفاع الناس بسكك الحديدية زيادة تذكر

وبينما هما يتجادلان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطار جلبة وبعض اصوات مختلطة ونظر الشيخ فاذا بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك



فسأل بعضهم فاخبره ان احدى العربات وجدت فيها نار والناس  
من خدم السكة مشتغلون باطفائها فخاف الشيخ وقال لولده  
وللانكليزي قوما بنا نزل

فقال الانكليزي لاتف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثر  
حصوله في سكك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسرى هذه  
النار انطفأت في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض  
برهة قليلة حتى انطفأت النار وسار القطار كما كان فاطمان  
خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث  
ظن ان ذلك منه وينسب التقصير الى خدم السكة لعدم  
النفاتهم لمنعه

فقال الانكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان  
وانما هو من شدة احنكاك الدناجل واللثم وليس من احد وهذا  
اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعوذ  
بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا  
يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسكك الحديد والآتيا  
من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في  
سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر  
خبره وعظم خطره ومات به خلق كثير فاكثر الناس وقتئذ  
بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتحريض على تركها

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك

قال الانكليزي من دأب المخلق ان يشتغلوا بالامور عند وقوعها ويتركوها اذا تقادم عهدها ولو تأملوا في الامور حق التأمل وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم يخبطون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير روية ولا تدبر فمن ذلك حكمهم على سكة الحديد بمجاذبة مضرّة حصلت او بعض حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطراً وأكثر مزية واخف ضرراً

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٣ من الهجرة ركب سكة الحديد في امريكا من المسافرين ٢٧٨ ٢٢٤ ٠٧٠ شخصاً مات منهم بحوادث السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٣ من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرانس ٧٦٩ ٢٤٠ ٢٢٤ من الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٤٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة ١٢٧٣ للهجرة نقل بسكة الحديد في بروسيا ٨١٢ ٥٥٠ ٥٥٠ شخصاً مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين في تلك الجهات ١٢٢ ٩٦٠ ١٢٥٠ مات منهم ٢٠٠

وانجرح ٢٥٢١ فيكون قد مات من كل ٤٥٠٠٠٠ من المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٢٨١٠٠٠ منهم شخص واحد وهذا قليل جداً بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انه مات في ارض فرانسـة بسبب العربات المعتادة التي تجرها الخيل ١٠٢٢٤ شخصاً في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ هجرية وما حصل من الحوادث في شركة السفن الفرنسية المسماة مساجري ايمريال يدل على ان السكة اقل خطراً من غيرها بكثير فان جملة ما نقلته سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٧١٠٢٩٨ شخصاً بلغ عدد من مات منهم ٢٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون قد مات واحد من كل ٢٥٥٤٦٢ من المسافرين وجرح واحد من كل ٢٩٨٧٢ منهم وهو اكثر من الحاصل في سكك الحديد بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المردوم الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم الا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير

ومشقات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم  
تقطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في  
اليوم ٤٠ كيلومتراً وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع  
ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة  
ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت  
عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان  
قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امريكا كأنما احدثتها سكة  
الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يتحصل  
من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسة  
في السنة الواحدة ٢٤٠ جنيه وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠  
جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للنزهة والتفجع اقل اجرة من  
القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ٢٦٠ ١٦ جنيه

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في  
جميع مملكة فرانسة مثلاً وهم ٧٥٠٠٠٠٠٠٠ من الناس يسافرون  
مسافة ٤٠ كيلو متر قلنا ان كل واحد منهم توفر له ثلاث  
ساعات كانت تمضي في السفر والحركة فان هذه المسافة يقطعها  
الوابور في ساعة وتقطعها العربة المعتادة في اربع ساعات فجملة  
ما توفر لجميعهم ٢٢٥٠٠٠٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة  
لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنة

١١٢٥٠٠٠٠٠ فرنك اي ٤٥٠٠٠٠٠٠ جنيه وقبل حدوث  
سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل  
كيلومتر واحد تقرب من ١٢ سنتيا وهي الآن لا تزيد عن  
سبعة سنتيات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضاً ٤٠٠٠٠٠٠  
جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩٩٠٠٠٠٠٠  
جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالخمار والجمل  
مثلاً لكان مقدار الوفر بالضرورة اكثر لان سير هذه الدواب  
اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة اكثر  
من ملقة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة  
نفسه وحده بل يلزمه ايضاً مونة دابته واجرة حرسها اذا  
بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد  
الذي قدرناه لارض فرانسة كان الوفر قدر ما مر ذكره سبع  
مرات واكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة  
والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثر نقل البضاعة  
وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان المحاصل من اجرتها لا  
يبلغ ثلث المتحصل من جميع المنقولات وصل بواسطة السكك  
الى ثلثيه والى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من  
البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية ان مقدار البضائع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف الف فلو قدرنا ان هذا القدر كان يتقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق وكانت ثلاثة مليارات منه تتقل بالعربات العادية ومليار واحد يتقل بالسفن في البحر قلنا ان تقل ذلك بواسطة سكة الحديد بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون من اربعة عشر سنتيماً الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان الوفير في كل طونولاته اربعة سنتيمات ونصفاً فان سكة الحديد يؤخذ فيها سنتيمان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة ( ٤٨٠٠٠٠٠ ) جنيه ومن المنقول في البحر ايضاً يتوفر على كل طونولاته اربعة سنتيمات فيتج من ذلك ( ١٦٠٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما توفر ما ذكر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة ( ٦٤٠٠٠٠٠ ) جنيه ويلزم ان يضاف الى هذا ايضاً مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول بالمرائب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ ( ٢٦٨٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو (٢٠٠٠٠٠٠٠) جنيه

وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان حال الطرق الاولى لم  
تغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت  
فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك  
الحديد (١٨٤) كيلومتر وكان متوسط عدد العربات العادية  
الموجودة (٢٤٢) ولما بلغ طول سكة الحديد (٤٩٥٢) كيلومتر  
في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية (٢٤٤) فلما  
وصل طول السكة الى (٨٦٧٩) كيلومتر سنة ١٢٧٥ هجرية  
كان عدد العربات (٢٤٦) ولما بلغ طولها (١٢٠١٨)  
كيلومتر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات (٢٢٧) فمن هذا  
ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين  
النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق  
كثير استخدموا في اشغالها واعمالها وربحت اصحاب الاموال منها  
ربحاً عظيماً فانهم بعد ان كانوا لا يتالون في السنة الا اثنين في  
المائة ربحاً صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح  
عشرين في المائة

وجملة ما يتحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربايها  
التشاركين فيها على جميع ما يتقل بها يبلغ (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه  
فلو فرض ابطالها بالمرة والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف  
حيثنهم على ما كان يتقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

( ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ) جنيه فقد وفرت سلك الحديد على اصحاب  
 المقولات ( ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ) جنيه فضلاً عن ان الذي يتقل بها  
 لا يمكن ان يتقل بغيرها

فقال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثمراتها كثيرة  
 وليست منافعها خاصة بالتجارة بل تعم غيرها من الصناعة والزراعة  
 والعلوم والفنون والعادات والاخلاق والسياسة والعمران والمدنية  
 ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من  
 بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزداد  
 صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة  
 بتسهيل نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها  
 وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعنائهم بها وهلم جرا

فقال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في  
 الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها  
 ولوازمها ايضاً كالسماد ( السباخ ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى  
 المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة  
 فتويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت  
 القاذورات والفضلات في المدن الخالية عن الزراع تطرح خارجها  
 فتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواءها فيضر بصحة اهلهما  
 فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشياء  
 صارت تؤخذ من المدن فتنتقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة



فصارت نافعة بعد ان كانت مضره وصححت بها بقاع كثيرة من الارض كانت فقرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة فعمرت وتزينت بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الا ارض يابسة كالحمة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر

وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة الشرقية من ارض فرانس في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١ ١٥٥٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين الحلو ٢٠٠٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادى لحصل منه فوائد جليلة وثمرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان احياج ارضهم الى السماد امر غير خفى ولا منكر حتى انهم لقلته وكثرة حاجتهم اليه تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون مصاريف كثيرة لجلب السماد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما بها من الدواب واصناف الحيوان تحصل فيها كل سنة من هذه المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها من المدن القريبة لسكك الحديد تحصل فيها من ذلك مقادير عظيمة ليس يتنفع بها في شيء فضلاً عن ضررها فلواتخذت طرق مستحسنة في تله باجرة قليلة لانتفعت السكة باجرته واهل القرى باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرره الحاصل من

افساده للهواء بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي زمان يحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجري على التدرج وكم لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومهما نسينا من شيء فلا ننسى فائدتها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المستعملة بينها وقد كانت جهات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت ما حصل لغيرها من اليسار والثروة وانقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط وما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠٠٠٠٠٠٠ هيكترولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧٠٠٠٠٠٠ هيكترولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦٠٠٠٠٠٠ اظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جداً

وقبل سكك الحديد كان سفر الحيوانات التي تحتاج للاكل وللزراعة صعباً شاقاً محتاجاً الى مصروف كثير فسهل ذلك

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليها من هذه  
 الحيوانات واتسعت دائرة زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد  
 وزاد عدد الناس فيها بزيادة مقدار المحصولات فنمت الثروة  
 في كثير من البقاع كانت خراباً منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد  
 الحيوانات المنقولة في ارض فرانسنة بسكة الحديد في سنة واحدة  
 ٤٠٢٨٧٠٤٠٢٤٠ من جميع الاصناف

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والقتل  
 وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم  
 الى بلاد يتفنون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس  
 شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن  
 العامرة والمحاضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب انتفعوا به فخلصوا  
 من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الارض بقاع غير صالحة للزرع  
 فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت  
 بها سكك الحديد استحوذ كثير من الناس على كثير منها فحراثوها  
 وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتى  
 صلحت فزرعوها وانتفعوا بها فخرجت من الخراب الى العارة

وقد تيسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف  
 والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة  
 امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسوخها في اذهانهم

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم  
وهذا فضلاً عن اختلاطهم ببعضهم والمذاكرة بينهم في أمور مهمة  
من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها  
ولا ينتهي نفعها

فلما انتهى الكلامر بهما الى هذا الموضوع كانا قد وصلنا الى  
طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين فقراً ما تيسر من القرآن  
الكريم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي  
رضي الله تعالى عنه

---

### المقامة الثانية طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا  
وبعضهم يسميه طندتا ولم اعلم اصل ذلك  
فقال الشيخ سمعت من لم مزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبرة  
باللسان المصري القديم وإتقانه قراءة وكتابة وفيها ان اصل اسمها  
في اللسان المذكور طنطا بطاء بين مفتوحين بينهما نون مفتوحة  
ايضاً ومعناه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم حرفه التنبط

وقالوا طندنا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد  
 التاء فمن قال طنطا بسكون النون فهو تخفيف طنطا بفتحها وإما  
 طندنا فهو كما تصرف القبط فيه

فقال الانكليزي اني لهذا السيد عند الناس اعتقاداً  
 عظيماً ومحبة شديدة وتعظيماً كثيراً وإقبالاً على موالده فهل  
 بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على  
 ذكر منك شيء من علم ذلك فمن على بيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي  
 من ترجمته وبعض خبره مما قرأته في كتب كثيرة ككتاب  
 المقرئ وحسن المحاضر للسيوطي والطبقات للشعراني وهذا  
 غير الكتب المختصة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية  
 لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزيك الصوفي وغير  
 ذلك وهذه نبذة من ترجمة امرة على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملقب الشريف العلوي سيدي السيد احمد  
 البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن  
 عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن  
 عيسى بن علي الهادي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن  
 جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن  
 محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يلتقي نسبه معه  
صلى الله عليه وسلم في جده الاقرب عبد المطلب بن هاشم  
نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم اليها  
الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الاموي  
لقتال عبد الله ابن الزبير فغلب الحجاج على بن الزبير وصلبه  
وجعل يتسلط على الاشراف فرحل منهم خلق كثير فكان من  
رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري احد اجداد السيد  
البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من  
مكة فساروا وصاروا يتنقلون من بلد الى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب  
سنة ٧٣ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس واحبهم اهلها وتزوجوا  
منها واقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد ابراهيم بن محمد الحمد  
الادنى للسيد وتزوج بابنة اخي السلطان بها وقتئذ فأولدها علياً  
والد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن ابراهيم تزوج من  
أكابر الناس واهل الحسب فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد  
الله بن مدين ابن شعيب ام السيد فأولدها ثلاثة اولاد وثلاث  
بنات وكان اخر اولادها سيدي احمد البدوي رضي الله عنه  
ولد في زقاق الحجرة بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل  
به ابو علي بن ابراهيم مع سائر اولاده واهله سنة ٦٠٢ هجرية

يريد الحجاز ليحج فمر في طريقه بمصر واقام معهم بها مدة ثم سافر بهم الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان يتلمذ ولبس لثامين لا يفارقها وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقراه القرآن العظيم فحفظه وجوّدته ونفقه على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدث له حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر مقيماً بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٣٢ راحلاً الى العراق ودخل بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق به هو فقدم مكة ثانياً ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٤٧ فدخل دار شخص من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام به لا يفارقه لا صيفاً ولا شتاءً مدة طويلة واعواماً كثيرة وكان له امامان يصليان به وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عدد جمل قوّلنا (المّدّد) وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكل العينين كبير

الوجه عظيم الوجنتين ولونه بين البياض والسمره وكان في وجهه ثلاث تقط من اثر الجذري واحدة في خده الايمن واثنان في الأيسر اقنى الانف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد اخيه الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظماً معتقداً عند الناس محبوباً فيهم مشهوراً في الافاق تعلقه هيبه ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتوحات بيبرس البندقدار يعتقدده ويبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن الشيخ عبد المجليل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ يجتمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه فالبسه خرقة التصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه واحداً عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان ياخذ الشيخ على مریده العهد والبيعة على الطاعة والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله والمحبة لله ولرسوله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويكون له عوناً على العلم مرشداً له في الاعمال والاخلاق وسائر الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالربي للطفل والوالد الناصح الشفيق المولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقه الحمراء شعاره وشعار اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المتعال اعلم اني اخترت هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد ماتي وهي علامة لمن



يثني على طريقتنا من بعدي فقال له سيدي عبد المتعال فما  
 شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بفاحشة  
 وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذليل عفيف  
 النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائم الفكر  
 وقد ورد في صحيح الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة  
 على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين  
 اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً أكبرهم خليفته  
 الشيخ عبد المتعال وهو صاحب الثوب الأحمر الذي يليه الخليفة  
 في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي  
 المنارة ورتب السماط وتخلف بعد السيد فشيده اركان البيت  
 وقصده الناس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم  
 السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٢٢ هجرية  
 ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من  
 أجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف  
 سلطان وقته فمال قلبه الى الشيخ واحبه ولزم مجلسه وانقطع اليه  
 فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد  
 رأيتني في عيني اعظم حرمة من السلطان ولا نزل السلطان  
 لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا علي  
 وتلامذته كثير جداً بطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين  
 بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد  
 اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال  
 في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل  
 وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو الا مجنون  
 من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وانشد  
 مجانين الا ان سر جنونهم

عزيز على اغتابه بسجد العقل

فلما كلفه عرف الشيخ قدره وعظمه واعذره اليه وقبل يده  
 ويحكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع به ارسل الى  
 الشيخ عبد العزيز الديريني يقول له امتحن لي هذا الرجل الذي  
 اشتغل الناس بامره واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل  
 فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد  
 العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان  
 خليفة الحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن  
 محل السيد فوصف له فمضى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن  
 له فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليه السلام وساله ما شاء الله  
 من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سلني عما شئت  
 فاني اجيبك فعظم في عينه واعذره له وارسل الى قاضي القضاة  
 يعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

هو مجرلا يدرك له قرار وما تقل عن السيد البدوي يرويه عن  
الحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من  
لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية  
من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاء  
لم يكن له في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على  
عباد الله لم يكن له شفاعة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن  
عنده صبر ليس له في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده  
تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنية ولما  
توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وستروه وقام  
بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة  
السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية  
وحدث لهم بعد مدة عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوراً  
يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)



### المعاصرة التاسعة الموالد والاعیاد والمآتم

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمله  
للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاءه المرید بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاته حضروا باتباعهم ومن معهم الى طنطا ليعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا وقتئذ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام فلما ارادوا الرجيل شيعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نخضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذلك المولد الكبير وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هؤلاء المشايخ ثم صار يزداد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشايخ المتتمين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض ليال كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن عادة

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة  
 وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها  
 بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشاء عنها المولد الصغير وكان  
 يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشاء المولد  
 الرجبي فان بعض المشائخ وهو الشيخ الرجبي بدا له ان يجدد العامة  
 الموضوعة على مقام السيد البدوي فاتخذها مقداراً كافياً من  
 الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضره مع جماعته ومريديه الى  
 طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشائخ والمريدين والفقراء  
 الى مقام السيد فلغوا الشاش الجديد في محل التديم واتخذوا ذلك  
 عادة استمرت كذلك فنشاء عنها المولد المعروف بالرجبي باسم  
 الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العامة تجدد فيه العامة  
 المذكورة في كل عام ويوثى بالشاش الذي يتخذها في ركب عظيم  
 يوصل به الى المقام فهكذا كان منشاء هذه الموالد فكانت تكرر كل  
 سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور  
 القبطية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقته من  
 فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في  
 وقت قلة الماء بتلك الجهة او كثرتة وانغار الارض به للري ومثل  
 هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات  
 بتنبهات واوامر من الحكومة رعاية لمتنضيات المصالح والاحوال  
 والحجاري عليه الان ان يكون المولد الكبير في اول شهر مسري

والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امرأ عظيماً وموسماً جسيماً فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالدهم لاسيما ركة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه يتلك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الا هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قديم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها وعادات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الا القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

البلاد البحرية والقبليّة وكانت تلك المواسم دينيّة وسياسيّة وكان  
يخصر في كل منها الملك أو من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة  
وخلق كثير من الناس في أشبه بالأسواق التي كانت للرومانيين  
أخذوها عن اليونان وأخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين  
ينسب أحداثها كما ينسب اليهم أحداث كثير من الأمور النافعة  
للأمم كما أفاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يحتفل فيها  
لهذه المواسم مدينة بوباست التي أثرها الآن تل بسطة قرب مدينة  
الزقازيق من إقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الآن صا الحجر بإقليم  
الغربية ومدينة هيلوبوليس التي تسمى الآن عين شمس ( وهي  
المطرية ) ومدينة بتو وأثرها الآن تلال موجودة في ساحل البحر  
البحر ما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابر ميس والآن لا يعلم  
محلها ولا أين كانت من الجهات البحرية أو القبليّة

وكان يجمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان  
أكثر مما يجمع الآن في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم  
أخرى كبيرة تعمل على رأس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل  
لمن تقع في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان  
يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفخس والفجور والمنكرات  
وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة بأوقات الزراعة وحركة  
الشمس في منطقة البروج وبها تتعين ثلاثة فصول الزراعة في كل

وإول اعيادهم كان عيد شروق كوكب الشعرى في اشعة الشمس ووقته في أول شهر توت وهو أول شهرهم وفيه كانت تذبح سمانه قرباناً الى ( ايزيس ) المقدسة عندهم ويخرج التسييس من معبد مدينة ابو هياكل مقدسيهم محمولة في هودج على اعتناق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثني عشر الى ستة عشر بالنسبة لتقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم

وفي هذا الشهر بعينه بعد ان يصير القمربدراً ببعض ايام كان يعمل موسم طوط ويقال انه ادريس عليه السلام وان هذا الشهر شهره واسمه ماخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم أكل التين وشرب العسل ويقال بعد آكله ما احلى الحق

قال الشيخ الشيء بالشيء يذكر قد كان لقبط مصر بعد قدماء المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم هوم ومواقيت انهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضاً بالماء واستمر ذلك جاريًا في مدد الملوك الاسلاميين ايضاً وكان يمنع احياناً ويرخص فيه احياناً وكان للخلفاء الفاطميين اعناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت اول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضية والدولة الخالية ( يعني دولة الفاطميين ) من مواسم بطالاتهم



ومواقبت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والفواحش صريحة فيه ويركب فيه أمير موسوم بامير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبة ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج التفاؤل ويقنع بالميسور من الهبات ويجمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة ( احد قصور الخليفة ) بحيث يشاهد المخليفة وبايديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شرباً ظاهراً بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء مزوجاً بالافذار . وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستغف مجرمته فاما ان يفتدي نفسه واما ان يفضح ولم يجزِ الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراح بالبيض والتصافع بالانطاع واقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به ( هـ ) كلامه وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعائة وامر الدولة بديار مصر وتديريها الى الامير الكبير برقوق قبل ان يجلس على سرير الملك ويسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فاندف الناس عن اللعب في القاهرة

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخيلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وقما انتفضى يوم نوروز الأ وقتل فيه قتيل او اكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف ابتهاجك بالنوروز يا ملي

وكل ما فيه يحكيه واحكيه

فتارة كليب النار في كبدي

وتارة كتوالي دمعتي فيه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنايس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاسقف مقاريوس دها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع المحرمات ويمرهم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله امر في يوم عيد الصليب سنة ٢٨١ فنع الناس من عادة الخروج الى بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم من السنة ايضاً عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المنعم وهيئته العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من السماط الذي يعمل بالقصر لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منفوخة من سكر وارز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجبل وصفه وينبسطون بما يصل اليهم فمن تأمل في هذه الاعياد وجدها اشبه شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كان بعضها مأخوذاً منها ومن جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم من شهر يابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هار بوكرات يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل عنها

وفي هذا الموسم كان يوضع في عنق صورة ايزيس طلسم يسمونه الصوت الصحيح على قول وكلمة الحق على قول اخر وبعد هذا الموسم كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر يابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس

في العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها  
 احتاجت الى عصا تنكأ عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب  
 تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع  
 مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزريس  
 زوجها واعظم مواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل  
 في مدينة بابرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عادتهم فيه  
 ان التمس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه  
 في برزخ مذهب في موضع مقدس لم قريب من المعبد وفي الغد  
 يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض  
 التمس عند الهيكل وباقيهم يقفون عند باب المعبد وبأيديهم العصي  
 والمساق لتصدع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء  
 الوقت المحدود حمل التمس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم  
 خلق كثير بالعصي والمساق لادخاله المعبد برغم الواقفين به  
 لمنعهم فاذا جاؤ وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به  
 من التمس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويجرح فيه كثير من  
 الناس ويسيل دمهم ولا ينقطع القتال من بينهم الا بدخول  
 الهيكل في المعبد واستقراره به في مكانه وزعمت التمس انه لم  
 يكن يحصل لاحد ضرر من تلك الجروح كما تله هيردوط  
 المؤرخ

وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها عن مرافقه فجمع احبائه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه وسر ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزريس في قبضة تيفون عدوه والقائه في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدوداً من ايام التحس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافته و كانت مدة هذا الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بثور قرونة مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالثور الى اوزريس وبقطعة القماش المذكورة الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر اولاً لتقص النيل وثانياً لغلبة الريح الجنوبية وهي المكثي عنها تيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثاً لتغير طول النهار بطول الليل ورابعاً لتجرد الارض من الخضرة وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوسير فانها كان فيها معابد اوزريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن ببعض تحريف وتغيير

وكان الحزن في هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال الحزن  
 ايزيس على زوجها اوزريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام  
 والقربان فيه من فحول البقر ومن عاداتهم ان لا يؤخذ من القربان  
 بعد ذبحه الاً الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل  
 واما ما عدا ذلك من الجثة فيملا من الدقيق والعسل مع الزيت  
 والبن والافاويه والعقاقير الطبية الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها  
 اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنواج والبكاء  
 والعيول ويلطن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد  
 ذلك يأكل الناس ما اخذوا من لحوم القرابين كما مر ذكره  
 ويتفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من مبصر من اليونان ويعلمون  
 اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضاً  
 جروحاً كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم  
 اظهاراً شدة الحزن والجزع ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل  
 خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك  
 وحرمه على قومه والظاهر ان هذه العادة قديمة فانها وجدت عند  
 اهل امريكا والهند ايضاً

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن  
 اوزريس يشيرون بذلك الى انجباس النيل في مجراه ومبدأ زراعة

## المخريف

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في  
مدينة اسنا المقدسيم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم ان يظهروا جميع اواني المعبد  
وَحَلِيَّهٍ وَيَتَقَرَّبُوا بِالْمُخْبِزِ وَالنَّبِيذِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَشْرُوبَاتِ وَبِالْأَوْزِ  
وَفَحْمِ الْبَقْرِ وَبَشَائِرِ الْمَزْرُوعَاتِ جَمِيعَهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه  
عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام  
وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيحيون ليلته  
وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنايس وتزيينها وكان يفرق فيه ايام  
الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم  
الجامات من المحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلايه والسك  
وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ اللبحة والتائل  
البديعة باموال لا تنحصر فلا يبقى احد من الناس اعلام وادناهم  
حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس  
واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج  
عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالاة في  
اثانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف  
درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت  
رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

قال الانكليزي كان لم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع اريس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس الحجر مسلسلًا في القيود وكان يرخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التمساح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزريس بثلها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاتجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يتخذ في مدينة صا الحجر عيد كبير مشهور بالوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعم ايضا كما كان عند المصريين

وكان له في هذا الشهر موسم اخر لتجدد تجسد اوزريس فكان القس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزريس مزينا بجميع ما يمكن لم من انواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب ياثونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول التسيس وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزريس قد عثرنا به



وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجوناً بماء النيل مخلوطاً ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي وليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينامر الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٢٢٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طنج امير مصر في داره المعروفة بالخنارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من الماكل والمشارب والملابس والآت الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والتصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سروراً ولا تغلق فيها الذروب ويغطس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حيناً

## وقنع حيناً

قال المسيحي في تاريخه من حوادث سنة ٢٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ونودي ان من عمل ذلك نفي من المحضرة

وقال في سنة ٢٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطئ النيل ونصبت اسرة للرئيس فهد بن ابرهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والمليون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر ا وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضان وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيبان فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فيين كثير من هذه الرسوم . ورسوم القديما في اعيادهم ومواسمهم مناسبة ظاهرة

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدماء المصريين عيد  
مشاهدة ايزيس لاوزريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر  
وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض  
وكان لهم في شهر برمودة عدة اعياد احدها عيد تطهير ايزيس  
قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر  
وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزريس مذاكير مصنوعة من  
الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احياناً تصنع  
من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل  
مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزريس في القمر  
يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون  
يسمون القمرام الدنيا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة

هوروس

الرابع موسم قد يستهم نيت في مدينة بوباست ومحلها الان  
تل بسطه واصل هذا الاسم بوباست وهو احد اسماء نيت المذكورة  
ولها اسماء والقباب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضاً والظاهر  
انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

المولد المشهور في شهر برمودة المذكور وإن لفظ دميانه أو جميانه  
 اصله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي الى الان هو مولد  
 نيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يبدأ به في خامس يوم  
 من برموده ويجتمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون  
 الان في مولد جميانه

وكان قداماء المصريين يأتون هذا المولد من سائر اقاليم  
 مصر في مراكب يكثرونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في  
 المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكثرون  
 في طريقهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في  
 المركب من النساء كل من رأينه في البرمنهن بالفاظ قبيحة وكلام  
 فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البرمنهن بعد  
 ان يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخاطر بهن من المقامح يرفعن  
 ذبولهن ويظهرن من اجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن  
 وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للشور ايس وكان الرجال  
 لا يستقبحون منهن هذه الامور المغايرة للادب والحياء وكان  
 يستهلك في هذا الموسم من التبيذ قدر ما يستهلك في باقي ايام  
 السنة كلها وكان يجتمع فيه قريب من سبعمائة الف من الناس  
 على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعاً يفعلون ما ارادوا من  
 اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ مها  
 فسقوا او فجروا او خرجوا عن جميع حدود الادب

فقال الشيخ كأن ما كان معتاداً في هذه الاعياد من الفحش  
والتمتكت سرى الى الاعصار الاخيرة فجرى فيها نظيره من المنكرات  
والموبقات فقد كان يحصل في الفرون المتأخرة في الشهر الذي  
يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد  
الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي

وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى  
يلتقي النصارى فيه تابوتا من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم  
الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل اليه النصارى من جميع  
انقرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل  
القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط  
النيل وفي الجزائر ولا يلقى مغزٍ ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا  
رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فانك  
ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصيه الا  
خالقهم وتصرف اموال لا تتحصر ويتجأه هناك بما لا يختمل من  
المعاصي والفسوق وتشورفتن وتقتل اناس ويبيع من الخمر خاصة  
في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع  
الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد  
فلاحى شبرى دائماً في وفاء المخرأج على ما يبيعونه من الخمر في  
عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٧٠٢ فبغى الامير  
بيبرس الحاشنيكبر وشدد في معه وكان عنده رجل كاتب من

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد احوى على عقله  
واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع  
مخدومه بيبرس وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً  
ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التمويه وتسيق المكر فثبت  
بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكاتب المذكور  
ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله  
سجانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم  
يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٣٨ وعمر  
الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة  
التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة فطلب منه الامير بلبغا  
البيجاوي والامير الطنبغا المارديني ان يخرجوا الى الصيد ويغيبا  
مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في حبهما  
واراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد  
فيكون تفرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد  
قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع له الناس من  
كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد  
وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة  
٧٥٥ فبغ وتقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي  
بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها  
واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى  
فبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني  
بها ما قد حكيتها من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون  
والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه  
العادات والاعیاد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة  
في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لهم في هذا الشهر اعني شهر بشنس عيد  
حمل ايزيس بهربوكرات وكان لهم في شهر بوٲنه عيد يقتربون فيه  
بنظير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب  
اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في  
هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما  
هي مما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها  
وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي  
كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل  
الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد  
انتهائها في الصعود وقد حافظ القبط على عادة الاحتفال لليلة  
النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لهم موسم في شهر مسرى وهو مولد هرربوكرات وكان  
يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على الفم  
ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عاداتهم في هذا الشهر

قتل كلاب شقر وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون  
بذلك الى كوكب الشعري في اليوم الثاني من مسرى وكان لهم  
عيد كبير يعمل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم  
يبينوا وقته وإنما ذكروا انه كان لاوزريس وايزيس ابوتو  
وكان يتقرب في هذا الموسم بالخنزير ولم يكن الأكل من لحمه  
مباحاً عند المصريين الا في هذا الموسم فاتهم كانوا يقولون بنجاسته  
ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين  
بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا  
يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الأكل من  
لحمه في هذا الموسم ولا ذكره هيردوط المؤرخ

وكيفية تقريب القران منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال  
والبطن وفوقها الدهن ويحرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون  
صورة من الطين ويحرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم  
التي جرتنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واحشاد  
الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والاعادات  
التي في جملتها ما هو اشبه شيء بعبادات قدماء المصريين فيما  
ذكرناه من موالدهم واعيادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم  
عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى ابطالها  
لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرّة



الاعتطيل من يكون بها من الناس، عن اشغالهم ومصالحهم  
المعتادة لكني فما تراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم  
يستصص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم  
والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا  
حال من حكيت عنه ممن تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء  
ما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه  
ولو امعن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما  
سمعه منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس  
الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا  
ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على  
الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له  
احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد  
من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض  
امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد  
او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور  
المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا  
وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر  
من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والبركات فلماذا  
نغرض عن المحسنة وتقتصر انظارنا على السيئة

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للمضي اليه والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفرشين والطباخين وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكتري والاشياء التي تشتري وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد ويتظرون لهذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع بشئ ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى يتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة مما لا يوجد في جهاتهم او لبيع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت انه يكون في بلادكم اسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها ما ذكرناه وما لم نذكره فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا يقصد التجارة او نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان يتتبع منه غيره فالمنفعة حاصلة على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلواً من الاستغال في غير المولد فهو بظال في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وان كان في غير المولد تاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدر كان له في المولد فسحة وتغيير هواء وصحة ونزهة وراحة يتقبل بعدها على اعماله بنشاط جديد وشوق مستحدث وهمة مقبلة ونفس غير كليلة فيتعوض بذلك ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل واتصل الكد والعمل بلحقتها السأم والكلال والملل فلا بد من ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته من انسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويتفرغون لرفاهة بهم استرجاعاً لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتمني ابطال هذه الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من الفوائد وقد احدثت هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت البعيد

## المسامرة العاشرة

ثنى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة ومنافعها وعزم على انشاءها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها باساً فصم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سبباً لجلب الثروة الى ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يتم في مدة حياته والذي تم في مدته ومشى فيه الوابور كان ما بين كفر الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتماً باتمامها عاجلته المنية فات ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معتنياً بامرها ليله ونهاره وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الوابور وكل من ولي الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاح قصده وجد في اكماله فكل سعيد باشا المرحوم ما ابتداء سلفه وانتهت في مدته السكة الى مصر القاهرة واخذت الوابورات في السفر بينها وبين الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشاها

ايضاً بين سمود وطلخا والزقازيق وبنها وكذلك بين القاهرة والسويس تسهياً لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس العثم بطريق مصر فيما ينقل من بلادهم الى الهند من الناس والبضائع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها ونقل تجارتهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك ينقل الى السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب وكان ذلك امراً مهماً وشغلاً شاغلاً وكان يتحصل منه مبلغ عظيم من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب عليها خسارات كثيرة فعمل تلك السكة لمنع الصعوبة والحسارة وتسهيل السيل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتمها واكملها ثم لما ولي الحكومة الجناب المخديوي (اسماعيل باشا) اخذ في توسيع دائرتها والاستكثار منها فاستخدمتها في الصعيد وفي جهات كثيرة من الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضائع وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها لا يسافر فيها الوابور الا نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه البخاري اتمامها بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في بر مصر انشئ الوابور

وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل  
وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي  
السفر بها ولا العلم بحقيقة كيفيةها وإنما كنت اعلم بالسماع ان  
السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير ان  
اعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق الى معرفة ذلك حتى  
شرحت لي اليوم ما شرحت واوضحت ما اوضحت من ان حركتها  
وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر  
اعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخار الى آلة بجرها فتتحرك  
بجرتها العجلة وتمشي الباخرة اعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن  
بقي عليّ ان اعرف حقيقة لفظه **وابور** ومعناها لاعرف حقيقة اسم  
هذه الباخرة كما عرفت سماها فان هذه الكلمة ليست من العربية  
وما اظنها الا من اللغة الافرنجية

فقال الانكليزي نعم لفظه وابور كلمة افرنجية معناها في  
اللغة الفرنسية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة  
تسميةً للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى  
في اللغة المذكورة هو (لوكوموتيف)

فهذا ما اعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق  
بها وما هنا شيء اريد ان اسألك عنه وهو انك عبرت بالقدر  
بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي ام غير صحيح ام ماذا  
تري فيه وكذا العربية والعربية او العجلة فارجو ان تشرح لي

ما تعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لتقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبتته حفظي ووصل اليه علي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الـ ذال معربة تطلق في العربية علي جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضا له نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطرز واللعبة الواحدة والشيء مع افراده التامة فهو من السلاح مثلاً العدة الكاملة ومن الثياب ايضا الكاملة اجزائه التامة افراده من السراويل الي المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجاملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد لشهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعد ان نقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

مستعاراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال ايحاء

فهو الوزير ولا أزر يشدّ به

مثل العروض له بحر بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه ان يكون مشتركاً لاختلاف معناه في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية له معان اربعة اللباس والرئاسة والحيلة ودست القمار وجمعها المحريري في قوله نشدتك الله ألت الذي اعاره الدست فقلت لا والذي اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست وللمغلوب تم عليه الدست وانقلب عليه الدست ومن الاخير دست الشطرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا

وصار لهم مال وخيل سوابق

فقلت لهم شاخ الزمان وانما

تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لتقدر النحاس قال سليمان بن عبد

الحق في بعض اهل الديوان وكان يلتب بالقط



ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسقط

ولّى عن الدست على رغبه

وانقلب الدست على التقط

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شي وهو ان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء ما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله ماخوذ من لفظ دستي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالحجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بجذف يائه وكسرداله ومعربه دستيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الا ان معناه الشبر فقد علم ما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتاً رايته في كلام

شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كمثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالتيل في دست منصب

قال الشيخ . قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي

يطبخ فيها والفيل بالفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف

بمعنى القدر والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر

حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والتيل في قوله كالتيل

بالقاف المفتوحة وهو الملك مطلقاً او من ملوك حير او هودون  
 الملك واصله قبيل كَعِيل سمي به لانه يقول ما شاء فينذ قوله  
 والدست اراد به الديوان او صدر البيت ومنصب في اخر البيت  
 واحد المناصب وصف بهذا البيت قدراً عظيمة يقول وقدر مثل  
 الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشراف الامير في ديوان  
 منصبه او في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر  
 فجعلها كالفيل وان لم تكن كذلك

قال الانكليزي قد كنت متوقفاً في تانيث هذا الشاعر لضير  
 القدر في قوله . اشرفت حتى رايتك توئتها

قال الشيخ القدر مؤثثة . قال ابن سيدة في المخصص القدر  
 التي يطبخ فيها انثى وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد  
 قدرتها اقدرها واقدرها (كضرب ونصر) طجنتها ومرق مقدر  
 مطبوخ في القدر والتقدير ما يطبخ في القدر والافتدال الطبخ فيها  
 انتهى . وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مرله ذكر  
 في البيتين السالفين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها  
 ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها والقدر الوئبة الواسعة  
 وانشد ابو عبيد

وقدر كرال الصمصعان وئبة

انخت لها بعد الهدوء الانافيا

والانافيا حجارة توضع عليها القدر

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعاء على اخر  
رماه الله بثالثة الاثافي فما مغناه

قال الشيخ ثالثة الاثافي الجبل وذلك انهم قد يضعون  
القدر على اثفتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون  
الجبل ثالثة الاثافي فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثالثة  
الاثافي اي بدهاية عظيمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر

وقدر جماع كاليفاع دمية \* زوازية سوداء غير صلود  
قال الشيخ . يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظيمة واليفاع  
الثل ويقال قدر دمية ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم  
بعد الجير والدم كعنب التي يسد بها خصاصات البرام من  
دمٍ أو لباء والدم والندمام ما يطلن به والقدر الزوازية  
والزويوزية هي التي تضم الجزور نقله ابن سيدة عن ابي عبيد  
وغير صلوداي غير بطيئة النضج يقال صلدت القدر تصلدفهي صلود  
ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمها وفي  
التنزيل وقدر راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها برام  
كخيال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعا المبرم وهو من يقطع  
حجارتها من الجبال واكبر البرام الجماع ثم التي تليها الميكلة وهي  
التي يستخف المحي ان يطبخوا فيها اللحم والعصيدة والصيداء حبر  
ابيض تعمل منه البرام

قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر  
رأيت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي  
احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله  
عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تمطر الخير كفه

اذا راح فياض العشيات خضوما

وصلت به زكبي ووافق شيمتي

ولم الكُ عضا في الندامى ملوما

وابقى لنا مر الحروب ورزؤها

سيوقاً وادراعاً وجمعاً عرمرما

اذا اغبر افاق السماء واحملت

كأن عليها ثوب عصب مسها

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

يقول اذا اشتد الجذب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجذب والتحط كثيراً

والصاد الصفر وجمعه صيدان كئار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذائب

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان  
برام الحجارة والصاد قدور الصفر والنحاس قال ابن جنى  
والفه منقلبة عن الياء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد  
من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت  
صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان  
والحمي والنوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال  
الشاعر

نفور علينا قدرهم فنديها \* ونفتوها عنا اذا حميها غلا  
(اه) وذكرت بهذا قول امرء القيس في صفة الفرس  
على العقب جياش كأن اهتزاه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجل  
العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزاز شدة  
الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمي وجاش كما  
تجيش القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس  
وقيل كل قدر مرجل وهي مؤنثة وقال ابن دريد التساخين  
المراجل لا واحد لها الا انهم قد قالوا تسخان ولا احته وشكيمة  
المرجل عرونها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر  
وتقول الترك وبعض محالطيم من العامة للقدر التي يطبخ فيها  
تجرة وهو محرف تنكيه الفارسي ومعربه طنخير بغير هاء كما في  
القاموس وطنخيره بالهاء كما في لهجة اللغات وفيها ايضا الهائلة قدر

صانع الحلواء وفي القاموس الهيظلة قدر معروف من صفر معرب  
 باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخيصة مخبضة ويقال للوعاء الذي  
 يقلى عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطيجن وهما معربان كما في  
 القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه  
 معرب تابه والمحرقه التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال  
 لها الجعال واجعلها انزلها بالجعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر  
 ولو اخذنا في استيفاء جميعه اطال الكلام وتشعب القول فلنكتف  
 بهذا القدر وننتقل الى الكلام على العربية وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربية بلغة اهل  
 الجزيرة سفينة يعمل فيها رحي في وسط الماء الجاري مثل دجلة  
 يديرها شدة جريه وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم وانا لا ادري  
 هل المركب المسمى عربية ( وهو ما نحن فيه ) اخذ من هذا او هو  
 غير عربي وهو الظاهر ( اه ) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة ( ع ب ر ) بجميع نقاليها الستة  
 التي منها ( ع ر ب ) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته  
 المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من ( ع ب ر ) وهي في نقاليها  
 الستة تفيد العبور والانتقال فالاول ( ع ب ر ) ومنه العبارة لان  
 الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الا اذا انتقل من حرف الى حرف  
 اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه  
 الى ذهن السامع ومنه العبارة ( بالفتح ) لان تلك الدمعة تنتقل

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة (بالكسر) لان الانسان يتقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان يتقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه يتقل ما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني (ع ر ب) ومنه سميت العرب لكثرة انتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخلت الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث (ب ر ع) ومنه فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع (ب ع ر) ومنه البعر لكونه منتقلاً من الداخل الى الخارج الخامس (ر ع ب) ومنه يقال للخوف رعب لان الانسان يتقل عند حدوثه من حال الى حال اخرى . السادس (ر ب ع) ومنه الربع لان الناس يتقلون منها واليهما (اه) .

فعلى هذا مادة (ع ر ب) تدل على الانتقال والعبور مثل (ع ب ر) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاخفاء فيها ولكننا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربية على المركب المذكور وإنما نسبناه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطتهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اوردته فيما ذكر من الكلمات وكتبه بالالف هكذا (اره به) قال الانكليزي فما هذه الهاء التي بعد الراء

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحة الحرف الذي قبلها لا للتلفظ بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وإنما تكتب كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسمية لكونها ترسم ولا تقرأ ولعل هذه الكلمة محرفة من عربية بابدال عينها همزة كما صنعوا في عباء فقد رسمه في الكتاب المذكور (ابه) وقال هو عربي محرف وصحنه عباء وبعض الناس يزيد على لفظ عربية الباء ويقول عربية

قال الانكليزي فما يقال في العربية في محل لفظ عربية المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف اخره وحال وهي التي تتخذ للصبي ليتعلم عليها المشي ودراجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة ايضاً زازية كما في الفاموس وفيه ايضاً العجلة بالتحريك الالة التي يجرها الثور والجمع عجل وعجال وعجال والدولاب او المحالة وخشب تؤلف تحمل عليها الانتقال (اه) والان تطلق العجلة على تلك الدائرة التي تسير بها العربية على الارض واسمها في العربية دؤارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدرو لم يتحرك فهو دؤارة وفؤارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دؤارة وفؤارة بضمها واذا اتسع ثقب الدؤارة من اكل المحور الذي فيها وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسمى هذه الخشبة نخاس



بالحاء المعجمة بعد النون وقيل التماس طوق الدوارة والمحور  
المذكور يسمى القب والمسمار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته  
في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء  
بعض مواضع العجلة

وبيناها في هذا الكلام وامثاله اذا بهما قد وصلا الى موقف  
السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده  
الاّ الموقف في اسكندرية ولم يبق عليها الاّ مدة سيرة ودقائق من  
الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سيجان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب  
هذا الجزار تقارباً شديداً حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن  
عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار  
يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها  
من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك الاّ في مدة اسبوعين او اكثر  
حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في  
الجريد القاهرة فلم يصل اليها الاّ بعد ثلاثين يوماً فقد رجع  
الانسان مدة طويلة من عمره فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي  
كان يصرفه في سفره واستراح من كثير مما كان يكابده من المشاق  
والمناعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم  
مسافر منها فما اكثر فوائد هذه السكة وما اوفر ما لها من الخير

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل وبعضها من المساعدة الكلية فيما يطراء عليها من المحوادث الفظيعة كالغلاء والتحط فتصل الاخبار وتتقل الارزاق من سائر الاقطار ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة وقيل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم المعمورة لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الا بعد جهد جهيد وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً بعد ما اكلوا الرم والجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه السكة مفارقتة بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات من الخضروات والفواكه تحقق عنده فائدة البजार ومزيد منفعته فانا نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا استعمال البजार فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري بنقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباحه وازدادت درجة

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزوع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزوع الان يجد بينهما فرقاً كبيراً جداً في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الا بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحلج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والاتساع فيها والمحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتيجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والرجح ولولا هذا البخار لكنت غالب بقاع الارض محرومة ما هي متمتعة به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاخص ان استعمال البخار اقوى مغذ لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالرونق والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فباتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق. وبسببه اعادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من موجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتاكّد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين الخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسجان من ابدعه ودبره  
ولم يظهره الا في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغره  
جنته ودقة اعضائه ونخافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله  
استغرب وتعجب ولم يهتد في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه  
وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على  
اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احنل على الهواء فسخره  
وصار يجوب به البحار والتفاريق ويملاً به الجداول والانهار فتارة  
يجري به الماء وتارة يجتمع وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه  
وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمرتفعة من غير فرق  
بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده متقادة في جميع احوالها  
اليه فظهرت له خيراتها واغدقت عليه ببركاتهما وكذلك سخر النار  
فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرية والبحرية فلم  
يكن شيء من المخلوقات الا وقد دخل تحت طاعنه وفي تصرفه  
وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع  
لسطوته مذعن لباسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالملك  
بالنسبة لرعيته وذلك بمقتضى ما منحه الله سبحانه من خلافته قال  
تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق  
لكم ما في الارض جميعاً ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره  
في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

بعض الاحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان  
العقل سبباً في هذا النفع بكاله قد يكون سبباً في ضرر صاحبه  
وضلاله والوقوع في سيء اعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب  
ويمنعه من منازل القرب ولا ريب ان هذا كله ما يدل على وجود  
الصانع العليم والمبدع المحكم الذي اودع في كل ذرة من مخلوقاته  
لطائف صنعه ولطيف آياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي  
الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له آية \* تدل على انه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويمجد ما منحه واواه  
قال الانكليزي لاشك ان الانسان صفة الخليفة والملك  
المخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات  
العظيمة والدرجات العالية بالتدرج والتقدم شيئاً فشيئاً فكان  
كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الآثار  
بمحت عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار  
القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله  
في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكما اتسعت دائرة  
استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكوناتها  
اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على  
مكونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكلما اطلع على سر  
استفتح منه غيره وبهذه الطريقة وصل للقوانين العمومية والنواميس

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكسفه لم يكن الا نتيجة بحثه في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن يعلم ما يعلمه الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الا وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة فكم من امة كانت في اسوء حال من نحو اربعين سنة قد انتقلت عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الا من حسن تدبيرها وادارة امورها بموافقة قوانينها وكم من امة كانت تخشى سطوتها الامم آل حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والهانة وانحطت عما كانت عليه من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو عليه الان كان غارقا في بحار الجهل زمنا طويلا يرتع كالانعام بل اضل سبيلا كاهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريكا فاستمر بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس الى الالفه والاجتماع فدبت بينهم علائق التانس ومبادئ التمدن وذلك انهم اخططوا مدنا وامصارا وقرى وديارا سكنوا بها واجتمعوا فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتحمل فكان ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض البقاع ودب في الخلق حب الاتساع فتعلقوا من الشرائع مجالها

فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال  
الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان  
كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن يأتي  
معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع  
البشري في الازمان الماضية كذلك ينتقل في الازمان الاتية وحيث  
علم ذلك ظهران اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في  
مقاصده هو الخليفة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما  
عليه ان يخص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما  
علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن  
الحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله  
ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه  
بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف  
حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجهه وحكم بحسبه  
ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه  
الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين  
خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته  
ويؤل امره الى العذاب المهيمن بعد ماته فعلم ان عقل الانسان  
قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليفة ومقلداً لها واما بعد العلم  
فيكون لها كالمملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة  
باحوال المملك وكل ما يصدر عنه من قول او فعل يسري الى

الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليفة فان اهتدى الى الطريق  
الحق وصل واتصل وان عدل عنه ضل واطل  
وقد امتد بينهما القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى  
اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة  
واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزياً في اربع ساعات  
ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد  
نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب  
الذي كان سبباً لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب  
ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي  
هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها  
وقراها ضحك ملياً وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكي قال الشيخ لا  
قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي  
ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو والذي من  
منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق  
الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من  
تعجبه من سرعة الواور فقال له الانكليزي سأشرح لك بعد  
الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى





المسامرة المحادية عشرة  
المخانات واللوكدات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان من خانات  
المسافرين المعروفة باللوكدات ليقيموا به الى ان يحضر وابور  
البوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق له دخول مثل هذه المحلات  
وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه  
هذا الخان داراً للانكليزي اولاد احبابه ولكنه كان يتأمل  
في حسن رونقه وبهجه ونظافة مفروشاته ولطافته فیتعجب ما يراه  
لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد  
خصصوا له ولولده حجرة بها سريران ودولابان وطرابيزة وشمعدانات  
وساعة دقاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف  
والكراسي بحيث لا يتقص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال  
ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال  
كثير وثروة عظيمة حتى يكون له منزل مجهل بهذه الصفات  
غاص بهذه المخلوقات فقال له ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان  
هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل  
منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا واكثر واظن ان  
هذه الدار ليست ملكاً له بل لاحد اصحابه وقد شاهدته عند

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة  
 فقال له والده هي علي كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء  
 كانت له او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه  
 وبينما هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي  
 وسأله عما يلزم له وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل وأشار  
 له الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له  
 اذا لزم لك شيء مما تريد فشد هذا المحل وحركه يتحرك بحركته  
 جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتخبره بما تريد يأتيك به في  
 اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثني على اخلاقه فقال  
 الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار  
 لا ينبغي له ان يمنع الخجل عن طلب ما يلزم له لان اصحابها لم  
 قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان  
 الذي ينزل به سواء طلب ما يلزم له او امتنع من طلبه وعليهم  
 لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال له الشيخ اليس هذا المكان  
 لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف  
 بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من  
 الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالحلات التي  
 تعرف عندكم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله ارى الافرنج يعنون  
 باتقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها  
 كتساهلنا في خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما يأكله او يشربه او يفرشه او يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لانه يكون تحت تصرف انواع الحشرات من البرغوث والتقل والبق والبرغش بييت مسهداً ومثل هذا مشدداً

ثلاث باءت بلينا بها \* البق والبرغوث والبرغش

ثلاثة اوحش ما في الورى \* ولست ادري ايها اوحش

وهكذا النمل وجميع الموزيات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويريح القلب والخطار تنهال عليه الا تربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقا لانه تراها تقدمها الى السقوط آلت وتخرها تساقطت اتربتها وانهاالت فتمضي عليه المدة في قلق ويطضي ليله في سهر وارق خصوصا من كثرة نباح الكلاب وشحج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشيش الهوام وصهيل الخيل ونبيق المحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيئات المغيث والحجير وليس بها منافذ لتجدد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حقيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجبت الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم يتنفع بها في دفع الحر والبرد والغبار فهي في الشتاء زمهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وشربال للتراب يغلغله

على الاجسام وينثره على الجفون ويذره في العيون فان فتح الانسان  
 عينه امتلأت قذى وان اغمضها لم يأمن من الاذى فان نزل  
 المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء ويتخف بالانواء فهذا السقف  
 يطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف  
 الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار  
 فبت كاني ساورتني ضيئلة

من الرقش في انيابها السم نافع  
 ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال  
 الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة داركان  
 بسكنها فبت اترغم باياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي  
 القصائد هي فقال الشيخ ها هي  
 دار سكنت بها اقل صفاتها  
 ان تكثر الحشرات من حشرات  
 الخير عنها نازح متباعد  
 والشردان من جميع جهاتها  
 من بعض ما فيها البعوض عدته  
 كم اعدم الاجفان طيب سناتها  
 وتبيت تسعدها براغيث متى  
 غنت لها رقصة على نغاتها

رقص بتنقيط ولكن قافه

قد قدمت فيه على اخواتها

وبها ذباب كالضباب يسد؛

من الشمس ما غي سوى غنائها

اين الصوارم والقنا من فتكها

فيها واين الاسد من وثباتها

وبها من الخطاف ما هو معجز

ابصارنا عن وصف كفياتها

وبها من الجردان ما قد قصرت

عنه العتاق الجرد في حركاتها

وبها خنافس كالطنافس افرشت

في ارضها وعلت على جنباتها

لو شم اهل الحرب منتن فسوها

اردى الكاة<sup>١</sup> الصيد عن صهواتها

وبنات وردان واشكال لها

ما يفوت العين كنه ذواتها

ابداً تمص دماءنا فكأنتها

حجامة لبدت على كاساتها

وبها من النمل السلبياني ما

قد قل در الشمس عن ذراتها

ما راعني شيء سوى وزغاتها  
 فتعوذوا بالله من لدغاتها  
 سمعت على أوكارها فظننتها  
 ورق الحمام سمعن في شجراتها  
 وبها زناير تظن عقاربها  
 حر السموم اخف من زفراتها  
 وبها عقارب كالأقارب رتع  
 فينا حمانا الله لدغ حاتمها  
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجبا  
 ة ولا حياة لمن رأى حياتها  
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها  
 والأرض قد نسجت على آفاتها  
 والبوم عاكفة على أرجائها  
 والدود يبحث في ثرى عرساتها  
 والجبن تاتيا إذا جن الدجي  
 تحكي الخبول الجرد في حملاتها  
 والنار جزء من تلهب حرها  
 وجهنم تعزى إلى نغماتها  
 شاهدت مكتوبا على أرجائها  
 ورايت مسطورا على جنباتها

لا تقربوا منها وخافوها ولا  
تلقوا بأيديكم الى هلكاتها

أبدأ يقول الداخلون بيها  
يارب نخ الناس من افاتها  
قالوا اذا ندب الغراب منازلنا  
تتفرق السكان من ساحاتها

وبدارنا الفنا غرب ناعق  
كذب الروات فاين صدق روايتها  
صبراً لعل الله يعقب راحة

للنفس اذ غلبت على شهواتها  
دار تبيت الجن تحرس نفسها  
فيها وتندب باختلاف لغاتها

كم بت فيها مفردا والعين من  
شوق الصباح تسع من عبراتها  
واقول يارب السموات العلا

يارازقا للوحش في فلواتها  
اسكتني مجهم الدنيا فني

اخراي هب لي المخلد في جناتها

فلما اكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر  
واحاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذهما وتقييمها

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها

فقال الشيخ كل ما ذكره من المتعاج العظيمة والاصناف  
الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا  
الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار  
مشمئ على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه  
ونظافة محلاته وكمال ادواته فيقيم به الانسان في دعة وراحة  
وسعة لا يرى الا ما يسر ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما  
يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت  
ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدرج بما يقرب  
من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل  
والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة  
لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاوقات التي مرت على مصر فكان  
من يسير او يسبح بها قبل الآن بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا  
الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك  
الاوقات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب  
بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتيها  
منهم ليقف على اخبارها او يطلع على آثار الماضين من سكانها  
يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ  
جسيمة ويستغرق ازمة طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه



ومخاطبات رسمية لعدم التعرض له وتحفظات كثيرة على نفسه  
وما له وما معه لان الفتن كانت مستمرة والاحوال لم تكن مستقرة  
والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها  
والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض  
الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك  
امراً مشهوراً بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة باللسنة  
مختلفة من ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة  
العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل  
عن جميع الاحوال التآسية كأهل دارفور وكردفان الان فكل  
جهة كانت مخصصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت  
المحكّم والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشغولين باحوالهم  
المخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشته وما يزيد في  
ثروته على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة  
والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو باضرار  
لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب  
ولا آل ففسد امر الناس وتضعف وانحط حالهم وتزعزع لقله  
الناصر وعدم المنصف القاهر فاهملت اسباب الثروة والتقدم  
والآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهاات  
الكثيرة المستنظمة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها  
من عدم الراحة ما يبلاء الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

ووقع اهلها في اشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انقطع عنها توارد  
 الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانقطاعهم عنها خلت افكار  
 اهلها منهم فعملوا ما عملوا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال  
 انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها  
 فوق الكفاية اذ لم يكن المقصود منها الا الوقاية الوقفية مدة  
 الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم  
 لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان  
 الغرض الحقيقي منها انما هو ماوى بعض الناس فيها بالليل ليس  
 غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطهنت القلوب وحصل الامان  
 وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين المملل خصوصا بين اهل  
 مصر وسائر الدول بحصول الامن على المال والنفوس ووجود  
 انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمان الغريب وامن وسهل  
 عليه مفارقة الوطن وهرع الناس الى مصر من سائر البقاع  
 وتواردوا عليها من جميع الاطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت  
 مختلفة فمنهم من يقصد الإقامة فياخذ له بها مسكنا ويتخذها موطنًا  
 ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب  
 منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب  
 اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعنائهم بانقادهم  
 عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج واكتساب  
 الصحة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

لا يقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها  
ولكونها من قديم الزمان مجمع تجارة بلاد العرب والسودان  
كانت مركزاً يجتمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات  
المعمورة كافة وما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود  
سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها  
وبين بلاد الهند واوربا فانتقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت  
الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا  
زيادة في المصرف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة  
في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياوون الا اليها  
ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب  
على شيء شاب عليه) فمن ثم ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً  
خانات ومحلات للملاهي وقهاوٍ مشبهة لما في بلادهم ومناسبة  
لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى  
للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة  
البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئاً فشيئاً وهكذا كلما مدت التجارة  
اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتطفت اهلها من ثمارها كثرت  
اثار التمدن والعمارة والتناس والمحاضرة واما قليل يتآلفون  
بالاغراب وتناكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب  
قلوبهم اليهم ويحسنون امر ما بينهم ويتقل القطر ومبانيه واحواله  
واحوال ساكنيه ويكون هذا الانتقال ثمة وجود الاغراب ولو

شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي  
 الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء  
 وقت الطعام فقم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله  
 يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد  
 وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخولا  
 جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق  
 كثير من نساء ورجال وشبان واطفال فداخله الحياء والهيبه  
 لعدم اعنياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم  
 جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه  
 ولما علم الانكليزي منه ذلك مزجه ومازحه وازال ما داخله من  
 الحياء وقال له تعلم ان ما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة  
 بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في  
 ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز  
 الحسن والتبجح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك  
 العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه  
 الجمعية وماكولها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملقنة وسكيناً  
 وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدر ما المراد بها وكذلك ولده  
 فاراد ان يستفهما عنها من صاحبهما الانكليزي الا انها رأياه يتكلم  
 مع من بجانبه من الطرف الآخر فلم يريد ان يقطعاً كلامه ورأيا  
 امام كل واحد من المحاضرين مثل ذلك فانفقوا على ان يصبوا

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف  
يتنفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرها

وبيناها في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف  
يستعمل الحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليها وعرفها  
بما رآه قد يخفى عليهما واعلمها ان جميع ما يحضر لذلك المحل من  
اللحم اصله ماخوذ من جزائرين من اهل البلاد فضلاً عن كون  
اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر الحاضرين  
واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح  
وتركا ما اعد منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما  
على هذه المائدة بين هؤلاء الناس المخفاني الاجناس ان  
تطلعا كما اخبرنكما على الرسوم والعادات وتعودا قبل دخول  
اوروبا علي مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغراباً من  
بلاد شتى واجمبع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة  
او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا مأربهم واغراضهم  
ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان  
ترافقنا في وابور البوسطة الذي نساfer فيه فان شئت واذنت  
عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعرفة والائتلاف بالناس  
والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا ما  
ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من  
 الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم  
 بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب  
 لغات المحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشمائل  
 ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية  
 بل تأتي بمجاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع  
 الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ  
 من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد المشرقية  
 امثالها فانه يراهن دائماً عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهم سوى  
 خدمة المنزل ولا يتكلمن الا مع ازواجهن وذوي قرابتهن واذا  
 تكلمن مع الرجال يتكلمن بنجمل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية  
 ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقاً في المخاطبة  
 والمجاوبة والمحاوره والمسامرة وكان يرى الخادم يبداء في تقديم  
 الطعام بهن قبل الرجال واذا طلبن شيئاً بادر بتقديمه اليهن  
 من كان قريباً منهن لا فرق بين صديق وغريب واجني وقريب  
 فالكل محنفل باكرامهن كل الاحفال ولا ياتي الا بما يسرهن من  
 الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قداح الفكر  
 وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقين لينظر ايها افضل فرأى ان  
 عوائد المشرقين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف  
 واصون للعرض من اسباب التلف

ولما انتهى امر الطعام وحن وقت القيام توجهوا جميعاً الى محل شرب القهوة فمنهم من اقام بها يقرأ صحف الاخبار ونحوها ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ لمحجرته ومعها برهان الدين وكان الانكليزي قد تفرس ما دار بمخاطر الشيخ في اثناء الطعام الاّ انه منع نفسه من الكلام في ذلك المقام ولما استقر بهم المجلس وساغ ابداء ما حاك في النفوس

### المسامرة الثانية عشرة

#### النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذه المائة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما في اخنلاط النساء مع الرجال فوجدت في اخنلاطهن فوائدهن من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من المحادث والاخبار

وما يظعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا  
 الاخلال ما يخرجهم عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان  
 كثرة المخالطة والملاسة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد  
 ذلك فلا شك ان عادات المشركين ارجح وراهم في احتجاب النساء  
 عن الرجال اصح واصح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتلاف المرأة  
 باهلها ويؤكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها  
 بجاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على  
 معاش الناس مع اخلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها  
 الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينها المنازعات والمخاضات  
 فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذا  
 المصالح ورد شرعنا باحتجابهن واطن ان اصل شريعتكم لا يخالف  
 ذلك وهو ايضا مقتضى اراء العقلاء والنبلاء واکابر الحكماء قال علي  
 كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير  
 لهن من الارتياب وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق  
 به عليهن فان استطعت الا يعرفن غيرك فافعل . قال السعاني  
 لاتامنن على النساء ولو أخاً \* ما في الرجال على النساء امين  
 ان الامين ولو تحفظ جهده \* لا بد ان بنظرة سيخون  
 وقال عمر الفاروق استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا  
 من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات



لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شي وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فترى كل ما يمر بالشوارع والمحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن احبته خاطبته وما اعجبها فعلته وحيثئذ يكون حال من قعدت في منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبايها من اهل البلد فيمكنها ان تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد منها من الخروج فربما تعلت بان عليها ريجاً من الجن او بها مرضاً من الامراض فلا تستريح الا بزيارة بعض الاولياء او المضي الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تبلغ بها الامل وهذا كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لعرضها ومحافضة على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها لغير بعلمها اذ ليست من تخرج متى شئت وتجنبع بمن ارادت في اي وقت كان مثل من لا تخرج الا باذن وسبب وعلّة . قلت ليس هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن

التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلال المروءة  
اللاتفة بها وبزوجها وأقاربها فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك  
لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن  
التربية في الابتداء لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان  
ويصفي طباعه ويعوّده على الفضائل ويبعده عن الرذائل فهو  
زمام ذلك كله والقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم أر هذه العادة  
المخالفة لعاداتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاخصاصها  
بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة  
فان جميع نساء الأرياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب  
وأهل المغرب وسواحل الشام وأرض الحجاز لا يتخجن عن الرجال  
وربما قمن مقام أزواجهن في بعض الاحوال كأكرام الضيف  
والاخذ والاعطاء مع الاجانب وكثيراً ما يكون امر المنزل وإدارته  
موكولاً الى رأيهن وتديبرهن وقد رأيت فيهن من عاونت الرجل  
في اعماله الشاقة وهذا كله بالاخيار من غير اكراه ولا اجبار  
فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبهي لما وجدت في  
المدن واطن ان هذه العادة ماخوذة من الاعاجم وسرت الى  
امثال هذه البلاد عند دخول النار والترك بها واستيلائهم عليها  
فنشأ من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم وأكثروا للخدمة من الجوّاري  
وللفرش من السراري ولما أكثروا منهم خافوا عدم رضاهن  
بهم فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختلاط بالرجال

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الاجانب وما يقوي هذا  
الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهن خارجاً وداخلاً فنجدهم  
ملازمين لهن موكلين بهن من قبل ساداتهن يخبرونهم بكل ما  
يحصل منهن من قول وفعل فتكون العائلة دائماً في اضطراب  
ورعب وعذاب خائفة من ان تنزل او يقال في حقها شيء لسيد  
المنزل وان كان هناك تليذات منزلية فأظن انها وقتية وربما  
كان غالبها تصنعاً وتكلفاً وتطبعاً لان اللذة الطبيعية لا تكون  
الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما  
يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا  
مساواة بينهما ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر  
بالقلب بل يكون بينهما غالباً بعض وحشة وكدر وحيث لا يمكنها  
الانفصال لا يسعها الا الطاعة والامثال والاعاشة في هم ونكد  
وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والجواري  
والمخدم والاعاوات وانواع الحلي وزخرفة المنزل والملبوسات  
لا يفيدها الاغما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر منشم  
فيتزايد ضررها خوفاً من ان يتمتع به غيرها لعلها حيثئذ بدرجته  
في السعة واليسار فلا تهنا بجال ولا يقر لها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة الجارية عندنا لازمة عقلاً  
وشرعاً اما عقلاً فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن  
ان يطلع احد على حرم غيره فضلاً عن حرم نفسه لما

ركب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاختادها وكسر عاديها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشد غلمتها الا في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك المخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممتنعة بنفسها صادة ما يريد من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبعها التألف والاختصاص كافية الفها مؤنة صيانتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات المؤتلفة فمكنت غير الفها من نفسها فحصل بذلك متئلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذا عقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسع النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادئ ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشئ لا يكون الا بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من التكشف بمحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن وكرها هذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والمخلوة

بين ولكن لما كانت الرجال بمقتضى الحكمة الالهية هم الذين يقومون  
بصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا  
الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معائشهم واما النساء فلما  
لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل الزمن بملازمته . على ان المرأة في  
بيت زوجها لا يلزمها الا تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ  
ولا لغسل الثياب ولا لكس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته  
زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرينها  
مع بعلمها كما روي ان رجلاً جاء بباب عمر بن الخطاب ايام امارته  
يشكوه سوء خلق زوجته عليه فبعد ان دق الباب سمع صوت  
امراة مرتفعاً على امير المؤمنين تناول منه وتؤذيه فالتفت الرجل  
راجعاً وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر  
وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفاً فناداه  
واستخبره عن شأنه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكوا اليك  
منه فقال امير المؤمنين ان النساء بخدمتنا بما لا يجب عليهن يغسلن  
ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي  
لحظة وتسير فليحسن خلقك يحسن خلقك

وايضاً فإلغائفة العائفة عليها او على الزوج من مخالطة  
الاجانب فضلاً عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع  
لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من  
اخذلها بالاجانب الا تضررها بزوجه او تضرر زوجها بها لانه

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بين هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسمح نفسه بروية غيره لحرمه فكذلك المرأة لا تسمح نفسها بروية غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيرة من الرجال كما هو معلوم وايضاً فان غالب نساء المشرقين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد الشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي تراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والتربة لانهن لو لبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضائهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الا بالشمسيات خوفاً من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحدة لم تكن عوائد اهلها واحدة لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تامل احوال الامم يجد هذا الامر عمومياً فطبايعكم مناسبة لبلادكم وطبايعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزلهن عن غير محارمن كثيرة

ولقد كانت العرب على عوائد قريية من العوائد الاروباوية  
 فكانت النساء يجاذن الرجال ويناشدنهم الاشعار ويناقلن الاخبار  
 لكن كان امر المحرمة وتصون النساء فيهن قوياً وكانت امورهم  
 منكشفة لما كانوا عليه من ظهور البداوة ولم تكن متكاثفة عليهم  
 الاستار المدنية فجاء الاسلام وهم على تلك العوائد فقام العقلاء من  
 المسلمين منهم عمر بن الخطاب فقالوا يا رسول الله تغيرت الاحوال  
 وكثر الاجتماع واشتد اخلاط الناس بعضهم ببعض من العرب  
 وغيرهم وظهر الفساد من اخلاط الشباب فهلاً امرت بالحجاب  
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اوامر بذلك ثم اوحى اليه  
 كما هو شان الله معه حيث لا يوحى اليه حكماً الاً عند اقتضائه  
 بحكم تغير العوائد ومن ذلك الوقت تواترت الايات والاحاديث  
 بحجب النساء ومنعهن من الخروج وحدثت الاخلية في البيوت ولم  
 تكن قبل عند العرب وشدد امر الحجاب على التدرج فكان اولاً  
 منع النساء من الخروج نهراً وكن يخرجن الى البراز عند اقبال  
 الظلام فوقف عمر ليلة في طريق ذهاب نساء النبي صلى الله عليه  
 وسلم الى البراز فرأى عمر احدى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم  
 وهي سودة بنت زمعه فقال قد عرفناك يا سودة فرجعت ومنعن  
 ليلاً ايضاً الا من الخروج الى المساجد للصلوات في موضع منها  
 خلف الرجال كما هو ترتيب الصفوف الشرعي فلما ازداد اجتماع  
 الناس من سائر النواحي وصار غير العرب أكثر من العرب اجتهد

عمر اجتهاداً دينياً في منع ذوات الهيئات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاصته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجاها من حيث لا تشعر فضربها على عجزيتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد فسد الزمان ومثل ذلك سبقت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعاً اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فربما يسو الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة واذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار واليسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او يخس بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تبيح المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم



للعالم وهذا النادر كما يتفق في نساءنا يتفق في نساءكم من غير  
فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغوات فلم يكن اتخاذهم امراً قديماً وإنما  
هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكن من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة  
ولم يرد بها شرع فلا ينسب اليها ما خرج عن حدوده فكم من  
بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الا عند بعض الامراء  
لزعيمهم ان الاعتبار لا يتم الا بها او انها علامة على العظمة وعلى  
حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره تعدد الاغوات ومع  
ذلك لم يقصدوا بانخاذهم لهم الا اكرام النساء وتعظيمهم واما جميع  
الاهالي على اختلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغوات ولا حاجة لهم  
بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الا تقليداً  
بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد  
عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن  
العرب تعرف خصاء الانسان اصلاً وكان شائعاً في الروم فلم يرد  
في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين  
الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال  
الذين لم تخلق فيهم الفحولة وهم المعبر عنهم بغير اولي الاربة والاربة  
حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابداء زينتهم حكم بامتناعها  
وحرمتها الا على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال  
فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخصيان رأى  
 امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأياً مذهبياً بالقياس على غير  
 اولى الاربعة جواز استعمال الخصيان فلما اقتنى منهم من اقتنى واراد  
 ان يدخله على بعض نسائه امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصياً  
 فقالت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل  
 الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصيان تقليداً لمذهب  
 معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصبة  
 ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية  
 لكان عساه ان يحكم بتجرمه فقد يطراء على الخلق ما ليس من  
 طبائعها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك  
 لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحکم بالجسم فتوهنه ويجتهد  
 من ابتلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغاوات  
 بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر  
 على صاحبه واما ضررهم فتعد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته  
 واقاربه فمن تأمل حال الاغاوات مع ساداتهم وجد ان السيد  
 ما جلب لنفسه الا ضرراً وما اكتسب باتخاذهم الا مخالفة الشريعة  
 الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور  
 المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كامرأة عجوز او بنت او  
 ولد صغيرين وعلى اي حال ففائدتهم لا تفي بضررهم لان غالب  
 النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الا بسببهم لما

يلقونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها او بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل ويخلفونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيراً ما يكونون سبباً في غضب الزوج على عائلته وشدوذ الزوجة عن طاعته او خروجها من بيته فيكون سبباً في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها وبين رب المنزل وبالمجمله فلا حصر لما ينشأ من اقوالهم وافعالهم بل كثيراً ما اتقت الاغايات والمحرم على اتلاف رب المنزل وفقده وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره بخرف عن الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق كالنجوم والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما بقي به نفسه من السوء كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن يقلدون امرأها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم ورؤسائهم فان كانت الامراء سائرة سيراً حسناً انتشر ذلك في افراد الرعية فصالح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها والآن انقلب الحال واخذ في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامراءهم كالاطفال بالنسبة

لمعلمهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل  
فكل احد يجب ان يتشبه بمن يقرب منه على حسب طاقته فكما ان  
الذآت تسري بالملامسة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم  
وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر . الا ترى ان اصحاب الوظائف  
تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائماً بما يجب لها مؤدياً جميع حقوقها  
قام كل منهم بها هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل  
ولا ملل وتحصلت ارباب المحقوق على حقوقهم باوقاتها والعكس  
بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الا من يشاكله  
ويجانسه وفي اوصافه يائتله فاصحاب الكبائر من الامراء لا يلوذ  
بهم الا مثلهم وكذلك ذور الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل  
بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه  
وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى  
ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بها يجب عليه  
حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياساً على ذلك حال  
كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته  
تبعته رعيته فكثير خيرها وان سلك طرق الفساد انحل امرها  
واتضع وفسد حالها وتضعضع ومن يتأمل احوال المتقدمين يرى  
ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تنضع فكم من  
قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت  
منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

او احسن ما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من الفقر  
 والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعتقاراً وعزاً ووقاراً  
 فيبقى اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها روتها الاول على يد  
 ناجب من الذرية يلم شعنها ويصلح وعنها فيعود لها مجدها ويرجع  
 اليها سوءكدها ما ذاك الا لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود  
 الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا  
 اغواء الغاوين ولم يتعدوا برأي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم  
 ينجسوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت  
 عليهم حلال الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من  
 الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاقوات فان النصيحة  
 لا تؤخذ ممن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد او كان  
 من المتعلقين واهل النفاق او من ارباب المعاصي على الاطلاق  
 لان مثل هؤلاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون  
 الا التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية  
 ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا تؤخذ النصيحة الا ممن عهد  
 عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة  
 لا تؤخذ الا عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان  
 اردت الزيادة ففي وقت اخر تستمع فان ما قلته لك بعض ما  
 يقال اقال الله عترتك في من يقال

قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام

فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع تقى  
الصنع بالفضائل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما  
على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي  
العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركن الى عملي

ينفعك علي ولا تضرك اوزاري

ان الرجال كاشجار لها ثمر

فاجن الثار واخل العود للنار

فقالت له لا والله حتى يكون عمك علي وفق عمك

وانشدت

ابدا بنفسك فانها عن غيرها

فاذا انتهت عنه فانت حكيم

لا اتنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك اذا فعلت عظيم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا

كيا يصح به وانت سقيم

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي

الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما

بين باك ومغشي عليه فقالت له كيف رأيت فبكي وقال

نفعك الله ياسيدي ونفع بك

قال الانكليزي كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدى به  
من العلماء والامراء وها نحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك  
تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب البوسطة يقوم  
بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمر شتى فربما  
يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت  
عني خيرا فقد اظهرت ما اضمرت في نفسي ان اسألك عنه



### المعامرة الثالثة عشرة البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة  
بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروباوية مصلحة قائمة بذاتها  
من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة  
على حسب وزنها وهي ملزومة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية  
الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل  
تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها  
قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مخصصون بها لم مرتبات على  
قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ وهل هذه المصلحة مخصوصة باهل مصر واسكندرية ام عامة لجميع الجهات المصرية من المدن والقري وكيف سهولتها في النقل

فقال الإنكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد نظريفها وختمها يوضع بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في اوقات معينة وتوضع في مخال او علب تسلم لاحد مستخدمى البوسطة مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضى سندات بيد اربابها فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم لوكيل البوسطة الذي في تلك المحطة ما كان مخصصا بجهته وهكذا . ثم يصير توجيهها الى اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة فتارة تؤخذ من المرسل اليه وتارة تاتي له خالصة الاجرة اذا كانت دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك



المصلحة ومنها انه يتأتى بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم واجراء  
 حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على  
 امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فيأتيه  
 الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم  
 له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكره أولا  
 وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولا بالتلغراف مجبلا ثم يتبعه  
 بطريق البوسطة مفصلا فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب  
 حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة  
 وهذا بخلاف ما كان في الازمان السابقة لان الاخبار اذ ذاك  
 كانت لا تصل الا بالكتابة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر  
 وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضيع على التجار اغلب  
 الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم  
 به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من  
 العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد  
 اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع  
 الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة  
 التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع  
 جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما  
 جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر  
 الذي كان كامنا في الخلفة فاستعمله وانتفع به فزادت بذلك ثروته

وإما في الأزمان السابقة فكانت المخاطبات والأخبار بطيئة الوصول  
 لأنها كانت ترسل مع أحد الأحاباب أو المتوجهين للجهات فيطول  
 الزمن ويضيع وقت انتهاز الفرصة الى أن حصل بعض رفاهية  
 وتقدم فاتخذت الساعة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على  
 أبعاد متساوية فكانت هذه الطريقة أسرع من الطريقتين قبلها  
 لكنها كانت في مبداء الأمر خاصة بالملوك والأمراء ولم يصرح لعموم  
 الناس بالانتفاع بها الا فيما بعد فاتسع هذا الأمر واستعملته جميع  
 البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا امر التجاره واتسع في البر  
 والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل احناجوا جميعاً الى استعمال  
 هذه البوسطة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى  
 صار من احسن نظامات الدول واكبر مؤلف بين الملل وكانوا  
 قديما في البلاد المشرقية كمصر والشام يستعملون الحمام في توصيل  
 الاخبار كما يعلم ذلك من اطلع على تواريخ المتقدمين ويقال ان  
 اول استعماله كان من رشيد الى دمياط وقد اختلف في اول  
 من رتب البوسطة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض  
 المؤرخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي  
 بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانساشرلماني فوسعوا في دائرتها وما  
 زالت يتسع امرها شيئاً فشيئاً الى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار  
 عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل النخوت  
 بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة الى حارة فيتجبه خادم

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفترا مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فتمت راجع الخادم الخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فتمت ماموريته من غير مشقة الا ان القاهرة وان كان بها نمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين ويحضر خطاباته ويجعلها في ظرف ويكتب علي ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخاطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت اتهدده من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً من اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يفقد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الا بعد شهر من

نارنج الخطاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفة لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فافظن ان الحاملة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبائي بالقاهرة والزمه بتوصيلها الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المکتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ<sup>ف</sup> ودعاه وانصرف الانكليزي ليقتضي اشغاله



المسامرة الرابعة عشرة  
الملكانة

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنه بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجه ضمنه نصائح وحكماء من فكرته  
وصورته

السيدة المصونة والذرة المكنونة . من لا اصرح باسمها ولا يغرب  
 عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة قرع العينين وزوجنا  
 ان شاء الله في الدارين . اما بعد بث الاشواق وابلاغ  
 ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اننا بفضل خالق البرية  
 قد وصلنا بالصحة والسلامة الى ثغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف  
 القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة  
 الخواجا الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلا تهمني بامرنا ولا  
 تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخلاصة القول بالاختصار والايجاز اننا  
 في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا لزيادة التفاته وموانسته  
 يزيد تفضلاً وازيد شكراً \* فذلك دأبه ابدًا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي  
 اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء  
 والديه يتحصل على ما نقر به اعيننا وتشرح له خواطرننا واني  
 لراضٍ عنه لما فيه من الادب والامثال والاجتهاد فما من يوم  
 الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجاة والنجاح فنسال الله  
 ان يقفه في الدين ويمنّ عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله  
 والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوك ان  
 لا تكتسي عنهم شيئاً من طرق الرشاد وان تكرر عليهم ما جمعناه  
 في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في المنزل تحت نظرك وتلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني اخشى من اخلاطهم بنيرهم من الاطفال ان يتطبعوا بطباع غير مرضية فتضر بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان تصان طباعهم مما يخشى عليهم منه فان انتِ اخترتِ لهم مجالات من مجالات المنزل وتتيته من الاتربة والاوساخ والقمامات ووضعت فيه حصيراً او شيئاً من المفريشات كان اولى من ان يتوجهوا الى الكتاب فتسبخ من التراب بلائسهم ونضيق من التعمود على البلاط منافسهم ويديب اليهم التميل من كل حذب فيخل بصحتهم وربما نشأ منه داء الجرب خصوصاً ولبعض المؤدبين عوائد قيحة فلا نعرض اولادنا لها اقلها تكرار ثتم الوالدين والاتيان بحكايات كاذبة وعبارات ناسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما دام الطفل يتندم فرها يحفظها فتضر بتصوره وعقله فاني الى الان راسخ في ذهني ما كان مرتبه عليّ مودبي في صغري ان اتى له بشيء من الغزل فكنت اتحابل تحابل اللصوص حتى اخلسه وأتبه به وان امتنعت او اتيت باقل ما طلب توعدي او ضربني وكان احياناً ياملنا معاملة الخدم فلنا من يخدم الزوجة فيملاء لها الزير ويكس البيت وينفض الحصير ومنا من يخدمه فهذا يهبي له غذاء ويفليه وهذا يملاء السبيل ويوضيه وهذا يدق له النشوق وهذا يجمع له النوى من السوق وهذا يجمع التوالح للتهوة وهذا

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لتصر عقله  
لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فيميل بطبعه للعب فكما نحب خدمته  
اكثر من حبنا للتعلم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة  
سنين بلا فائدة فان تعلم شيئاً كان ضرره اكثر من نفعه وربما  
اكتسب في مدة الإقامة اوصافاً ذميمة فتصير له كالطبع ويتعذر  
على اهله تحويبه عنها فيما بعد فتستمر معه بقية عمره فارجوكم ان  
لا تبعثي الاولاد الى الكتاب ولا عليك ما يلزم لهم من المصروف  
فقد غمرني الله بنعمته واجزل عليّ عظيم منته ولا يخفك ان من  
هم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بربية اولاده وفلذ  
اكباده وانت تعلمين ان اولادنا ثمار قلوبنا وحماد ظهورنا ونحن لهم  
سواء ظليمة وارض ذليلة فان غضبوا فارضيم وان سألوا فاعظيمهم  
وان لم يسألوا فابتدعهم ولا تنظري اليهم شزراً فيملوا حياتك  
وتمنوا وفاتك وبحسن التربية ينصلح حالهم ويعلمو بين الناس  
شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهري نعم الله عليهم فتاتي لهم  
بما يوافق حالهم من الملابس والماكل فان فلت ذلك ورأفت  
بهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق  
التدرج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية  
والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قوائم البدنية  
وحواسم العقلية فاذا بانغوا لشدهم لا يكون للاوهام الفاسدة على  
عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبها يتعودونه في الصغر

من الاخلاق المرضية تعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغفرهم الله بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه واذا اخترت مؤدباً فالاولى ان يكون موصوفاً باوصاف اهل الكمال ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفاً عن وجه مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب وفي العقيدة اشعريا وفي الاخلاق احنيا وفي علم السير مجرا وفي الحديث كأنما تحت بحراً ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لتلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوك منع الضرب مطلقاً وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القرينة كان تهدي للمجتهد منهم بعض تحف من ملبس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه الاطفال على حسب ما يظن لك من الاحوال فان ذلك باءث لغيرتهم وازدياد رغبتهم اكثر مما يكون بالاذى والضرب فان الضرب يوتر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوتر في الباطن وتبقى لذتها



لمن اغنمها والمها لمن أحرما ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب  
يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند  
حدّ العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب  
المضروب فرما اضر باعضائهم او ترتب على الخوف والرعب  
البحث عما يخلصهم من يده فينجون بكل ما امكنهم من الحجج من  
غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجوا من يده وربما الجأتم  
الاحججاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبني  
فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الالباء في تربية اولادهم ليس  
الأأكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال  
صغرهم لما يجل بهذا المقصد وان يختاروا لتربية اولادهم مؤدبين  
موصوفين بالادب والرافة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم  
الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال  
بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم  
منها الى ما فوقها وهكذا فيميلون من انفسهم الى التعلم وحب العلم  
خصوصاً اذا ارشدهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم  
من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوكم  
ان تعلمي بنصحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه اليّ عن  
حال كل منهم ودرجته خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد  
انفقت مع صاحبنا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باستلام  
ما ترغبن ارساله من الخطابات وهو يرسله الينا ولا باس، ان

تخبريني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشنق  
الى مستط راسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية  
وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه ويناسب ذكره من  
الحوادث وامور البلاد التي تقصدها لتفني على اثارنا وليكون  
عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدتني من اكيد الود وقديم العهد فهو باق لا يغيره  
بعد ولا فراق ولو علمت ما بي من تذكري اياك حال اغترابي لم  
ترقا لك دمعة ولم تهدهاء لك لوعة

اما وجلال الله لو تذكريتي

كذكريك ما كفكفت للعين ادعما

وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في  
خاطري مجال ولكن ما قدر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر  
بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما \* بالمجد يرزق منهم من يرزق  
فكوني من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد  
وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات  
المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديمي  
الاحتجاب واذا تناولت شيئاً فليكن من وراء حجاب وبلغني الاولاد  
والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك  
عشرين جنهما كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة ياتيك

بها وكيل الخوaja في اخر كل شهر كما حرره له بذلك واذا لزم  
 الامر لاكثر فاطليه من الوكيل المذكور على سبيل الاستقراض  
 فقد اذن له صاحبنا الخوaja بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل  
 وردنا اليكم الرد الجميل      حرره بينانه وحرره ببيانه  
 الفقير علم الدين  
 خادم العلم الشريف

المسامرة الخامسة عشرة  
 ! الملاحه

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخوaja وسلمه  
 له فاخذه منه ووضع داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم  
 توجهوا جميعاً الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ  
 الخوaja للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكراماً لها ثم بعد  
 ذلك توجهوا الى اللوكندة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا  
 الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخوaja قارباً وساروا الى ان  
 وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في  
 القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ آيات التحفظ ويذكر ربه في نفسه

من غير تلفظ ويتلو ورد البحر وتبرك وإذا بالمركب للسيرتحرك  
فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب  
وابور البرفاني اليه واقبل بعذب الفاظه يسليه وقال يا حضرة  
الشيخ لا تنزع ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم  
سياجه ليس الامر كما فهمت وإنما تذكرت الاهل والوطن فهمت اذ  
لا يخفى عليك يا ذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان  
اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبابه ووطنه وملعب اترابه  
وعطنه ويأسف على مفارقة ما لوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته  
وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر  
مآلي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة  
فقد قيل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقفة  
والى مسقط راسها مشتاقفة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما اوصى به  
نبي الله يوسف الصديق ان يحمل تابوته ليدفن عند ابائه الى ان  
جاء موسى الكليم فاخرجه من الميم وحمله الى مقام ابائه ودفنه ثم  
وما ذاك الا لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام وآسيت  
قلبي من الم هذه الاستقام وتآسيت بما قاله الافاضل الاخيار في  
مدح التنقلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم  
الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة  
وَلَوْ دُ وَالسكون عاقر . وقوله

وما هي إلا بلدة مثل بلدي \* خيارها ما كان عوناً على دهري  
وقوله وكل بلاد او طتك بلاد

وغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه  
الامور الا مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة  
والاطمئنان مستحضراً تغيرات الزمان وتقلبات الحداثان دائماً التذكار  
لقول الله الواحد القهار يقرب الليل والنهار ممثلاً بهجة وسروراً  
منقاداً لمتضى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطوراً

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان  
كل صنعة تدل على صانعها وعظمها يدل على عظمه ومن اعظم  
الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف  
اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقاً  
متنوعة الاشكال وجعله مقراً للجواهر واللال وخص كل نوع من  
ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شأنه  
واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كغيره لنوع الانسان  
فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل  
العجيب والوضع المحكم الغريب واطاف اليها من تفتناته وبديع  
اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته ومكنه من العناصر  
حتى صارت طوع يده فترى الريح مع قوتها والجبر مع ميوعته  
والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

وارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب  
البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمناً من تقلب امواجه  
وتشعب افواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتتها

فقال له الانكليزي . سيدي انه قد مضى على نوع الانسان  
احتماب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة  
وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في  
البتعة التي هي فيها لا تعداها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل  
محروماً عما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم  
قريباً من السواحل والجزائر انما كان يتنفع بالصيد من الشواطئ  
واذا انتقل انما يتقل الى موضع قريب منه وبمقتضى ما يشاهد من  
تجدد الاحوال حسب الاحياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة  
سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور  
الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون  
بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي  
على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة نقي من البلل بان  
سطحو جرمها او الصقوا بها غيرها فسارت مع التيار اما لجلب منفعة  
واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما  
هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدنية والعمارة وكما هو دأب  
القبائل الباقية على الحشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن  
واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتقانها ويدبر في اصلاح شأنها الى ان جعلها في صورة لائحة لنقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا روامس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اتقانهم وعند ارتحالمهم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتمم واخلاقهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الا بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديمهم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان ارتفاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجنيز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجب المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصة الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطئ والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤوا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

الاوروباوية الا من القرن الثاني عشر بعد المسيح وان كان معلوماً  
 قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطئ  
 بحر العجم فلم تكن خاصة جذب حجر المغناطيس للحديد خفية عند  
 الامم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها القضيب  
 الصغير من الحديد بعد المغطسة اي بعد مسه لهذا الحجر وهذه  
 الخاصية هي ان لا تتغير اتجاهاته بل يكون دائماً على اتجاه واحد من  
 الشمال الى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب الا انهم  
 كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائماً الى الشمال فطبقوا هذه  
 الخاصية على سير السفن بان رسموا خطين عموديين على قطعة  
 ورق مستديرة وثبتوا القضيب فيها فاهتدوا بذلك الى النقط  
 الاربع من الافق وبقي الامر على ذلك مدة الى ان علمت خاصية  
 اتجاه الابرة الى جهة الشمال دائماً متى كانت متحركة موضوعة فوق  
 مركز في اي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي  
 كانت تلحق الملاحة وسهل على الملاحين جواز البحار وامنوا من  
 جميع الاهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبه  
 مملوءة ماء وثبتت القضيب في قطعة من خشب الفل نعوم فوق  
 الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب ثقل السفينة على  
 الدوام وعدم وجود الثمام تام للالة كانت الابرة قليلة التوازن  
 ودالاتها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الامم بتحسين امرها بان  
 جعلوا الابرة متحركة فوق محور راسٍ مثبت في علبه اسطوانية



الشكل وجعلوا فوق الابرة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرة  
تتحرك بمركتها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال  
والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي  
خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين  
ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولى  
وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من  
ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعترضه تغيير ولا تبديل  
الا في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر  
الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة  
فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلاح شأن الناس في الحال والمال  
وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو  
النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن  
والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة  
والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء  
عن جزائر وسواحل معمورة بام شتى عارين عن التمدن واسبابه  
فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم  
واستخذوا على ارضهم واستعلموهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم  
لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على  
من جاورهم ولما راي الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب  
في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

اوروبا على الاستخوذ على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقيا  
 وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط  
 الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع  
 واكثرها ثروة وصارت ملوكهم اعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما  
 ذاك الاسبب الملاحظة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في  
 اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكامًا يتصرفون فيها وبحكمون  
 على اهلها الا انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب  
 عظم قوتهم المحربية واتساع دائرة علومهم السياسية الآخذة في  
 الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يروونه من الصنائع  
 واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا  
 السير بحال من الاحوال بل هم ملازمون له ساعون بكليتهم  
 في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عامًا

فقال له الشيخ قد فهمت مما افدتني ان الانسان بعقله هو  
 الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعًا في ذلك السير  
 الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره  
 وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة  
 بالبوصله في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي  
 المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم  
 اهل ملته ولكن ارى ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير  
 السفن حسب الحاجة فانهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد

يلزمهم الانحراف اليها والخروج عن الخطوط التي توجب تلك الآلة المشي عليها فكيف اهتدواؤهم لذلك فقال له الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا تعين الا اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه اللازم للوصول لنقطة محددة الا بمساعدة وقد عرف ذلك جميع الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون في الانهر والمخجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل ملاحو النيل فانهم يسيرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب الفاطنة في شاطئ البحر الاحمر والصيدون في بعض الجائر المتسعة وكانت علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ المسيح غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين تقنطين بعيدتين عن بعضهما هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واحد وميل واحد لا ترسم دائرة عظمى على الكره بل ترسم احدى الموازيات فعند ذلك اشتغلت العلماء بجلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

متجهة نحو الشمال دائماً او نحو الجنوب دائماً واما اذا كانت متجهة نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون جزءاً من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من المحط الجانبي خمسة واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع الخطوط الجانبية الاخرى في ميول مختلفة تكبر بالتدرج الى ان تكون تسعين درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع الخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطاً حلزونيّاً وبعد عدة دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدأت السير منه ومن ذلك رأوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة تزيد وتقص عن طول قوس الدائرة تبعاً لعرض البلاد ويكون الخط كبيراً كلما كان فرق عرض تقطعي المبدأ والنهية كبيراً فبناء على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن يرغب في اتباع قوس دايرة عظيمة وحيثذ فلا بد من معرفته ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت مجل مسئلة العلماء الافاضل فمنهم من وضع لمعرفته طرقاً حسابية وجداول مخصوصة للاقتداء بها ومنهم من حوّل المسألة الى طرق رسمية فتعددت من ذلك طرق الاشتغال وجال فيها الفكر فظهر من ذلك المحرط التي ويستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لهم فيها من المنافع والفوائد التامة فانه يكفي ان يرسم عليها الخط المار

بالنقطتين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة  
 للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك  
 موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية  
 غير الموافقة والمياه القليلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التخلص  
 من خطر تلك الموانع مسألة معرفة الموضع الذي تكون فيه  
 السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي الجار  
 واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن  
 معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت اتيام  
 ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل  
 بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى  
 الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة  
 للميل في طرفه قطعة من خشب مثلثة الشكل مثقلة في قاعدتها  
 بالرصاص فمتى رغب قبطان السفينة قياس السرعة القاه في  
 البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكر من على مغزله  
 مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب  
 ولما لم يكن ذلك شافياً اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي  
 والخط الموازي التابعين لها في السير حتى تتعين لهم نقطة التقطع  
 وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناء عليه نتج مسألة تعيين  
 العرض والطول فاشتغل بجلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر  
 لهم من بحثهم ان مسألة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناءً عليه فعرض اي نقطة هو ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين ومخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلاً على القطب فيمتدون به لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالي مغموسة ومغبية في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغوا في معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائماً ظاهرة تمام اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره اهل العلم في جداول مضبوطة براجعها الملاحون في اعمال الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين على بعضهما لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية وبحسبون الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التي نراها الى الان قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

واستعاضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل  
 عضادة بها ثقب صغير فتى أريد استعمالها علت الدائرة في السفينة  
 وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر  
 اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة الدالة على  
 الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن  
 المعروفة بالاكتان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد  
 العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط  
 السهولة والضبط فبناءً على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد  
 اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدرج فان  
 الاصل في ذلك كله شجرة القاهما الريح في التيار فجرت معه فنظر  
 اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فراه غيره فقلده واستعملها  
 بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات  
 البشرية وما زالت تنتقل من حالة الى احسن منها حتى  
 تم حسنها وعظمت دائرة اهميتها واعنى بها الخلق فوصلت الى  
 الحالة التي نراها عليها الان ولا شك ان كل صورة من هذه  
 الصور اشتغلت بها الافكار مدة واطهرت فيها تغييراً فاخترعت  
 صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رأوا في الثانية عيباً  
 اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واختراعات عملية حتى اجتمع من  
 ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومئاتها  
 ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

اتجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علماً نفسياً فانظر كيف  
امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان يتتقل من حالة الى  
حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن  
وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافياً على ان تقدم جميع الفنون  
والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات  
الانسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد  
امتد بينهما الفال والتيل في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل  
فاحب الشيخ ان يتبع المخبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر  
لئلا يكون فيما سمعه مقلداً ومتبعاً اذ ليس من رأى كمن سمع  
فاجابه الانكليزي الى ما طلب وقام معه الى قبرة القبودان ليريه  
ما احب وكلمه بلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الضباط  
ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت  
عليه السفينة فسار معه وراه فوق ما كان سمعه واطلعه على  
الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاذة ولا شاردة مبتدئاً  
من مؤخر المركب الى مقدمه مبيناً له فوائد كل واحدة باسمها  
وبين له اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما  
للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً  
في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكره الشيخ على صنيعه  
واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل فمرته وادى ما يجب  
عليه من العبادة الموقته وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان



يأكل في قبرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من  
 بالسفينة مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى  
 وصلوا جميعاً بالسلامة الى البر

### المسامرة السادسة عشرة التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة  
 واحداً فهو في معنى اثنين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه  
 وسلم على تعلم الالسنه بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكرم ولما  
 رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازياً سافر الى اليمن مرة ودخل  
 مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له  
 الملك ثب يامره بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يامره بالظرة  
 كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع  
 وطرفاتي نفسي من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا قليل له  
 ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمر يريد من  
 دخل ظفار وجب ان يتعرف لغة خمير فاستفاد من هذا ان من  
 دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد

ان يطالع في كتبه ياخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه  
دروساً وبسبب اجتهادها في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم  
فيها

واخذ الانكليزي بحسن له التعلم ويرشده الى كيفيته ويشجعه  
عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات اموراً منها المحفظ  
والتطبيق بالممارسة والمحاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت  
بذهنك كل ما حفظته واعندت النطق به وفي قليل من الزمن  
تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يتدأء  
اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لحنفة الفاظها وعباراتها ثم بما  
فوقها وهكذا. وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يتدأء  
اولاً بمطالعة الدرس ويقف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره  
الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول  
من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر  
لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على  
قاعدته ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك  
في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت  
اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادر الاداب  
لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان  
يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان  
يجنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

واني وان لم استوف هنا غرضي لكني آتيك بكتاب فيه كفاية لهذا  
الغرض فان اتبعته وسرت على مارسمته لك فلا يمضي عليك قليل  
من الزمن الا وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند  
العود تجد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكرو الشيخ على نصيحه  
وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلقيان  
كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما  
نعم الساعد والمساعد وصارا ما بين سائل ومسؤل الى ان نالوا  
من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقسامًا بعضها للفسحة  
في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة  
والمذاكرة والاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه  
كان لا يفارقه الا عند الضرورة وكان لا يخاطبه الا بكلام  
يطيب به خاطره وتشرح منه ضائره محافظًا على مرضيه آتياً بكل  
ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه الالفة  
وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فينبأها في بعض الاوقات  
يتحدثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع  
والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والخلف وما آلت اليه من  
الاتقان وتم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك  
داعياً للانكليزي ان قال يا حضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ  
اشده وحصل من العلوم العربية طرفاً صالحاً وهو يحتاج الى تعلم

صناعة تكون له في المستقبل عوناً على حسن معيشتة فما اضمرت على تعلمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المرام تفكرت فيما يحسن حاله وبلغ به ان شاء الله آماله بحيث لا يخرج عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو بمعونة حضرتكم آخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانتا له خير صنعتين وبأيتهما يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كانك تقول ان ولدك اما ان يصير اماماً او خطيباً في جامع او ترجماناً او نائب قاض في بعض المواضع وعلى كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلاً عن كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التقصير في اداء وظيفته او الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره لحضرتكم ان الوظائف درجات منها الشريف والذني والاعلى والعلوي وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيساً واميراً وبين ما يجعله تابعاً لغيره واسيراً ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب الا فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تجيل الفكر وتدقق النظر حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكى من الورد

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا

فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الأصناف ووظائف  
تقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالمهندسة والحكمة  
والجندية ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان تعلمه  
صنعة من هذه الصنائع وتخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني  
سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة  
والذي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احداً من  
اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تشبعتها  
فوجدت ان كل من نبيغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله  
اليه من الرزق قليلاً كان او كثيراً ووجدت في النسبة لكل  
منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة  
ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان  
الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرَّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم  
كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه \* مثل الظل الذي يمشي معك  
انت لا تدركه متبعاً \* فاذا وليت عنه تبعك  
الخبر كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا . والشركه  
في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليّ الرحمن من دونهم بالغربة ومفارقة الوطن

ولا حيلة فيما قضاه واحده واشكره على ما من به علي من صحبتكم ولا  
يخفى على جنابكم ان الناس بالسنتهم ليسوا غافلين عن بعضهم  
فربما يقع الانسان في شباكم فيستط من اعينهم ويتقص قدره فيما  
بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقي وعما كان عليه اجداده قبله  
اختلفوا علي اقوالاً تزري وعبارات ربما تخل بامري ولا اقل من  
ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس  
دون طائفة ولا باهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تقوم  
بالانسان على قدر ما يجوز من العلم والادب فكما تكون في الفقهاء  
تكون في المهندسين والحكام وكما تكون في التجار واهل البضائع  
تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصنائع فليس الانسان  
باصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع  
النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والترتب وكم من ذي نسب  
واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حتمير ازال  
بكمال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاهوام  
الناس وابطالهم ويؤثره على ما رآه عقله حسناً وصواباً وهل  
يقندي البصير بالضرير او هل يستوي الاعى والبصيرام هل  
تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا  
علم وله صنعة يعرف بها فلا يخل بشرف الاصل ان يتقاد الانسان  
رتبة كالجندية وعلم الحكمة والمهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

فيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل  
 ملة على ان قدر كل انسان وقيمه بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما  
 اكتسبه فاذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه  
 ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه  
 وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واثقنها لتجذب اليه قلوب  
 الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه  
 وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها  
 اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المؤلفة بين الملل وبعضها  
 والاسباب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم  
 الجغرافيا والنباتات والحيوانات والحجادات والهندسة والفلك وجر  
 الانتقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويقف على النواميس الابدية  
 المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو  
 بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض  
 وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والباطنة وارتباطها  
 بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شان ربه  
 وخالقه ولا يلزم ان يتجرب بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي  
 معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها  
 فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهله ويعلو قدره  
 بين الامراء وتجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاضات  
 لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا ارى لولدك الامرين

فاختار ايها احب اليك من غير حكم عليك . احدها ادخاله  
 باحدى المدارس الميرية والآخر ابقاؤه باحدى مدارس لوندرة  
 ليتربى فيها كما تربى اولادنا فان اخترت منها واحدة برئت من  
 واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فاست بضامن لنفسك  
 البقاء حتى نتم تربيته واذا اراد لك المولى باقتضاء الاجل والموت  
 قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن  
 العلم والجاه افلا تكون مسئولا عن هذا الاهمال وهل كان حبك  
 له الا سببا لوقوعه في اسوء الاحوال واشق الاعمال وان سلمته  
 لاحد المودبين فلا تدري هل هو كفو تربيته ام لا والاعتبار  
 بالظاهر لا يكون دليلا على الباطن فرما كان عالما لكنه سيء  
 الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى  
 اي حال فالموذبون غالبا لا يسلكون طريقة مستقيمة متقنا على  
 صحة نيتهم بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة  
 اسباب اختلافها ان كان لتصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار  
 او لظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية  
 فانها لم تكن تابعة لشهوة اجد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها  
 ولزوم اتباعها فان طريقتها هي الجارية عند جميع الملل المتمدنة  
 وسلكها جميع العقلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب  
 على كل عاقل ملاحظته والتمسك به من ابتداء شبيبته والاستمرار  
 عليه بين ابنا عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا



يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شققة الاهل تؤدي الى اهماله  
والتغافل عن هنواته ولعبه وربما كانت هذه الشققة سبباً في فساد  
خصلته التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض  
وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغاله بامورهم المنزلية  
والدنيوية يلهمهم عما يفعله كل منها ويدفع اهله الاجرة يظنون  
حصول المقصود واي حجة اجمع بها الطفل وتعلل يقبلونها منه  
سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فتمنع المودب عن تاديبه والطفل  
عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات  
ان الاباء يخفي عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة  
شفتتهن على اولادهن قد يرين ان اولادهن يعلمون زيادة عما  
يلزم وكذلك الخدم تخفي على سادتهم ما تعلم من عيوب اولاد  
سيدهم كالخيانة وقلة الادب وعدم الالتفات وكثرة اللعب  
 واصحاب البيوت على اختلاف درجاتهم في الثروة لا يخلون من  
تردد المنافقين والمتملقين على منازلهم فيتسري طباعهم الى ذريتهم  
فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزري بهم فاذا بقي الطفل في  
المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المودب طول يومه وربما يسأم فلا  
يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليهما قد  
تتشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا  
يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع  
هذه العوارض وتدب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقي

اليهم من اساتذتهم لتوهم المحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز  
 عن الاهل والاقارب والمنع من روية التملقين من الاحباب  
 الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله ووجه  
 لما فيه خير له وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقي اليهم  
 فيكون الحق مع احدهم تارةً ومع غيره اخرى وهكذا كل يوم  
 فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات  
 التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحقهم ملل ولا يعجزهم  
 من كثرة العمل فتورولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من  
 الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فنمو قواه  
 البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اساتذته فيعتادها ولكون  
 الاساتذة منتخبين من احسن المربين لا يقع منهم ما يجلب بشان  
 التعليم وان فرض كان نادراً فيكتسب الطفل في زمن قريب  
 محاسن الاخلاق واخلاق الرجال وتساوي الجميع في الهيئة  
 الظاهرة وطرق التعلم والتعليم ثناكد بينهم الاخوة ويعطف بعضهم  
 على بعض بما ينسون به رافة الامومة والابوة والتدرج ينزل  
 ولد العظيم عن تعاضه بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه  
 وفضله فهل ترى طريقاً احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شفقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته  
 بغير بلدها وان كنت اعلم ان بقائه للتعلم في بلاد الانكليز ما  
 يؤول به ان وفق الله الى غاية التكرم والتعزيز ولكن استغفر الله

وإدخله اذا عدنا المدارس لاكون ملاحظًا احواله ومراقبًا اعماله  
مريحًا بذلك خاطري وخاطر امه واما الصنعة فلست ادري ما  
يليق به على نخافة جسمه

فقال الانكليزي الاصوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على  
كثير من الاشياء فلعله وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال  
طبعه اليها وهو يتنى ان يكون من اهلها المتفعين بها والحياة يمنعه  
من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه  
واخبره بما دار بينهما في امره وانها وقفا الجزم في ذلك على استطلاع  
امرهم واستكشاف سره

وقال له يابني قد عرفت الوظائف الشرعية والسياسية  
واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدنية فهل  
تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتحيل افكارك فيما لاحداها  
من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغب ومساعدك على كل ما  
مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى  
خلاف ما تراه ولحدائة سني انت ادري بما فيه صلاح لسأني  
مني وشفتك علي كافلة بما يعود نفعه الي فان اتقمتا على صنعة  
اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال  
ادبك وفضلك لكن مرادنا ان نخبرنا بما يميل اليه قلبك

لانه لا بد انك شاهدت امورا اثرت عليك تاثيرات مختلفة  
منها ما جذب قلبك فرغبتة ومنها ما نفر منه طبعك فكرهته فلا  
تكلم عنا ما نسخ بفكرك واظهر لنا ما كمن في سر. فالتفت الولد  
نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثلا من طريقتك ولا تمنيت  
ان اكون على غير خلتك لاهيا عن جميع الحرف موقنا ان ليس  
لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني  
فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شذائ  
الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما تحصل به لعياالك  
بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف  
اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما  
تكلفت فاخذت حينئذ انفكر في جهات الاكتساب وما يكون  
لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة  
والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة  
التحصيل فطقت انظر محاسن الحرف ومعايها واعد مثالب  
اهلها ومناقبها فما رأيت لحرفتنا مثالا ولا تصورت كاهلها اهلا  
فانها النياية عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين  
ومعادن العرفان واليقين واكثر من نراهم على تلك الحالة  
عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استر الحق  
بالباطل وبذلك صارت حرفتنا بعد الحرف عن الثراء وادفعها

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل  
القوة والعافية كقراءة الختمات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها  
امام فقد حرمها امام وكثرة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر  
مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض  
القرآء فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق  
كما قال علي بن الرومي من تقدم بهم الزمان بهجو طبيبا  
افنى واعى ذا الطبيب بطبه

ويكمله الاحياء والبصراء

فاذا نظرت وجدت من عيائه

امما على امواته قراء

وارى بين اصحاب الوظائف الميرية رتباً عالية ولها مراتب  
كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة  
بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم من وظيفته اصلاح  
الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم  
من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات  
بينهم وايصال المحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف  
مراتب على حسب درجاتهم تؤدي اليهم سنوياً او شهرياً فهم  
بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر  
الجميع فان كنت اختار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة  
فقال له والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

ما تراه من الاحوال والصفات والترتيب والذوات وقد اقام  
الله المخلوق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا مناقشة  
فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة  
ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى  
العليم الحكيم فرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضير  
وبالعكس

وما ندرى أني الامر المرجى \* ام الامر الذي نخشى السرور  
واعلم يا بني واعز شيء علي ان النظام الحقيقي هو هذا  
النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني  
مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده  
الحق جل جلاله وكما يلحق الصداء المعدن كذلك يكون العلم  
مخفوفاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا  
يحد شيئاً الا وهو مقترن بصدده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف  
الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان تقول ان  
النسبة بينهما كسبة العناصر التي تتركب منها الاجسام الى بعضها  
اعني ان بينها تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة  
او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي  
بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكون صفاته ولا توجد  
فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها  
ومتى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

كان مضرًا بعد ان كان نافعًا فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد  
 الدخيل وكثراهل الزور والاباطيل نقهر امر المستحقين ونقص  
 عددهم وربما ضرَّ بهم كضرر الداء الدفين لان الدخيل لعدم  
 وقوفه على الحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها  
 في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير  
 خلفها الملة فتهموي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد  
 الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصًا بطائفة دون  
 طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها  
 وكبرها في كميتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه  
 ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض وتترك الامر فيه لله ولن  
 صرفه في خلقه وعليهم ولاة فانهم المسئولون عن امر انفسهم ورعاياهم  
 واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملزمون  
 بتقيد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحث عن  
 الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم  
 كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر  
 الذي ينتج من اهل امراء الملة وتساهلهم لا تعود عاقبة امره الا  
 عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فتى  
 تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حتى يوقه المرضية دامر  
 لهم السرور واشرفت بهم مالكمهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم  
 وقد ترى ما اشرق به الزمان ومنة تجدد اعتدال الاوان فنسأل

الله له التمام ورجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تنصع لنا  
عما اخترته لنفسك من الصنائع

فقال ابن الشيخ لم يكن في أمكاني ولم يحم بجناني معرفة ما يوافقني  
من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها  
لسنني وبنيتي وحيث رأيتا انه لا بد للانسان من صنعة يكتسب  
منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس والاعتبار فلا مانع وقد  
فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتماه واقع عندي  
موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة  
التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما علي الا ان اكون ممثلاً لما  
تأمراني به وان ابذل غاية جهدي لاحقق ما ظننته في فان  
رايتا ادخالي بالمدارس الميرية فانا راض به راغب فيه خصوصاً  
لما رأيت به بنفسي من احوال من سبق له الدخول بها فاني لم اجد  
احداً منهم الا وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واظن ان  
والدي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم  
لم درجات مختلفة اقلها بمراتب كافية وفيهم من بلغ المناصب  
الرفيعة والرتب العالية وله مرتبات جسيمة ينفق منها على الاهل  
والاقارب ويتصدق على الجار والصاحب فضلاً عن الصدقات  
المربوطة للفقراء والمساكين ورايت جميع اهل الحارة بل واهل  
الخط يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعدتهم الخيرية وليس  
فيهم ابن امير او شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء



حارتنا هناك فوجدت بها تراتيب ونظامات النفا قلبي واخذت  
بلي فمن ذلك الوقت وددت ان اكون من زمرة من بها لما فيها  
من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تنمية القوى الباطنية  
وتقوية المحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما  
يلزم لحفظ الصحة من الصون عن اسباب الامراض والعاهات  
بملاحظة حكماء موظفين لذلك لا يزالون متعبدين اغذيتهم  
واماكن مبيتهم ومواضع مدارسهم ومحل تفحصهم وترويج انفسهم  
لتجديد نشاطهم وتقوية قرائحهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار  
والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اخضت به من  
افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسارن ما دام فيها لا  
يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى  
خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا  
تم ما فرض عليه في مدرسة انتقل لغيرها على حسب درجة استعداده  
وما ابداه في الامتحانات العامة والمخاصة الى ان ينتهي المفروض  
على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد لخدمة وطنه فعند  
ذلك تعطى له الرتب اللائمة به ويحظى بمرتباته ويعد من رجال  
الملة وبحسب ما يديه في خدمته من حسن الادارة والصدقة  
يندرج ضمن افاضلها فبناءً على ما ذكرته متى كان الانسان كثير  
الاجتهاد متخلتاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه جميع عمره  
من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

مجبلاً بين اقرانه وخوجاته فيميزونه ويعدونه من اهل الفضل  
 واذا خرج عنها الى اعماله واشغاله يتقدم في درجات الشرف  
 ويعد من اهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن ادارته  
 ففرح الانكليزي بما القاه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت  
 شأنه وقدره حتى انه اضمر في نفسه انه بعد دخوله بالمدارس  
 يساعده ويقوم بكل ما يلزم له من كتب وادوات وان يجعل  
 له من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقانه على  
 الاقران وان يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة اقامته في البلاد  
 الاوروباوية ويطلع على جميع احوال تلك البلاد واسباب  
 ثروة اهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الاشياء  
 ويقف على حقائقها وان يريه المعامل والفبريقات واماكن اللهو  
 والترسانات ليؤكد ميله ورغبته واخبر بما اضمر اياه فاطال  
 شكره له وثناه عليه

---

المسامرة السابعة عشرة  
 في البحر وعجائبه

ثم اخذا في شجون الحديث وتناقلا اخبار القديم والحديث  
 حتى جرى بمناسبة الحال ذكر البحار فتواصفا غرائب ما اودعته من

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحاً هذا المجال املاً ان  
يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه فهمه سبحان من اجمل صنعه  
واحسن كل شي خلقه واثقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح  
متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسما ومن  
علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد  
فلقد كنت انفاً اقراء في بعض كتب الاخبار متاملاً فيما تضمنت من  
عجائب الليل والنهار

فيشتت الافكار ما فاسى الورى

من هول هذا الجبر عند ركوبه

من امواج ثلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض  
السفن تدور لا يتظر من دارت عليه الالهة الشور فقد قبل  
داخله مفقود والمخرج منه مولود فنسأل الله دوام المبرة حتى تنقضي  
بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبلغ في كلاته  
اكرم غاية لا نرى الجبر الا رهوا ولا ننظر الجوا الا صحوا  
ولكن حب الاطلاع سببا في صحة مثل حضرتكم يهون كل صعب  
فاحب ان نتكلم في امر هذا الجبر فلقد رايت في بعض ما قرأت  
ان الجهة الجنوبية من الارض مغمورة بالماء وان للجبر جريانا مع  
كونه اخذاً نهاية تمدده متوازناً في مقره وقد ذكر لذلك اسباب  
اختلف القول فيها فما عندكم فيه فاتم ابناء الجبر وعندكم يقين علمه  
فقال له الانكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السياحة في البحار  
 بالسفن البخارية والشرعية واستكشف كثيراً ما فيها من بقاع  
 الارض وغيرها الا ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد  
 في جوفه ما لا يحصى من الخلق وهذا الهدء والسكون الذي رايته  
 لم يكن الاً ظاهرياً اذ تحنه عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة  
 طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الا وهو في فعل  
 مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يؤثر في  
 الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة ويتقلبه المستمر ياخذ  
 من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فاهو الاً كما مور من  
 قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء  
 خلق العالم الى ما شاء الله فلا هده له ولا استقرار ولا سكون له  
 بالليل ولا بالنهار ولعظمه لا يظهر لعواصف الرياح تاثير الاً على  
 سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئاً بالنسبة لما يحصل من  
 حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء  
 وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه انجرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها  
 الريح الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر  
 بصورة جديدة فتارة تكون سحاباً فيسير الى الجهة التي قدر الله  
 انصابه فيها فتخصب به ارضها وتتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً  
 جارفة فيتسبب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطراً لطيفاً  
 واخرى تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على  
سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجتمع بها حتى اذا امتلات  
وضاقت عن احتمال المدد الدائم التلاحق تفجرت عيونًا وطلبت  
مياها الأمكنة المطيئة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع  
المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخجان التي تمر  
بالبلاد التي نسكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصبوة  
ويلطف الجو فيعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على  
تلك المياه وجعلها في اسره وتصرف فيها على حسب رغبته ولوازم  
اعماله تعود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان  
ومحصولات اعماله

فقال الشيخ . شرحتم فافدتم وادعجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب  
تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من  
اخراج غذائه وتلطيف هوائه وايداء نمائه وتحسين روائه فما احسن  
هذا الكلام كاشفًا عن حقيقه المرام غير ان اناسًا من ضعفة العقول  
ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء  
وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراءة بعض الكتب  
المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف  
نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الازهان  
وتسلطوا بالطعن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان  
ظهروا بصورة المنكرين على جميع كلمات المتقدمين مشتغلين

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع الحوادث ابتداء للاحكم  
الحاكمين مقررین ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب  
الفلسفة منكراً والمشتغلون بقراءتها كفرة واشتد ذلك في القرون  
المتوسطة حتى كان يكتب في عهود تولية الخنسين امرهم والتشديد  
عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان  
عنده شيئاً منها وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن  
استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة  
الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما  
يضر ما ينفع ويميزوا ما لا يصح ان يسهل من كلام الحكماء عن غيره  
وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتباً واكثرها وخطأوا  
راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع  
من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبين كثير من فطناء  
المتأخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة مما ابطله نحو  
الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على  
القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصدياً للجواب  
عنه ونص عبارته (الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يولف بينه ثم  
يجعله ركماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من  
جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء)  
اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسألتان . المسئلة  
الاولى قوله الم تر بعين تتمالك والمراد التنبيه والارجاء السوق

قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزوجها كل احد وازجاء السير  
 في الابل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه . قال الفراء  
 بين لا يصلح الاً مضافاً الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب  
 واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى  
 ( وينشيء السحاب الثقال ) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع  
 بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركائماً اي مجتمعة  
 والركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله مركوماً والودق المطر  
 قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصفهاني الماء  
 من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كخيال في جمع جبل  
 وقرىء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزوجي سحابا يجمع  
 انه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شيء ويجمع ان يغيره من سائر الاجسام  
 لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة  
 ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من  
 قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام  
 سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدماً متفرقاً اذ  
 التاليف لا يصح الاً بين موجودين . ثم انه سبحانه يجعله ركائماً  
 وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب  
 انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من  
 عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبائعيون ان تكون  
 السحاب والمطر والتلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

من تكاثف البخار وفي الأقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء او لا . فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قوياً او لا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والواابل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برداً واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تتعقد سحاباً مطراً وقد لا تتعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة . وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ . ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد . وخامسها لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين



يكونون تحت الغمامة يطرون والذين يكونون فوقها يكونون في  
الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا  
ضربها برد الليل كنفها وعقدتها ماء محسوساً ونزل مبلولاً متفرقاً  
لا يحس به الاً عند اجتماع شيء يعتمد به فان لم يجهد كان طلاً  
وان جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع الى الظل نسبة الثلج الى المطر  
واما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء  
وينقبض وحيثئذ تحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انا لما  
دللنا على حدوث الاجسام توصلنا بذلك الى كونه قادراً مخزراً  
يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه  
خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضاً فهب  
ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالانفاق ممكنة في ذواتها فلا  
بد لها من مؤثر ثم انها متائلة فاخصاص كل واحد منها بصفته  
المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة  
لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع  
وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق  
السبب فكان سبحانه هو الذي يزجي سحاباً لانه هو الذي خلق  
تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهوا  
ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها ببعض  
فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاباً فثبت على جميع التقديرات ان  
وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واخلاف الآراء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان البازل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التي لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانضت اجسامها في تحصيله وتشيد اركانه واطاعة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا يبادر كالانغار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لهم علم اليقين او يتعرض بعض الانرار كما حكيم لنقض اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ عواصف الرياح

وإنما يقال للرياح البحرية قواصف لأنها قد تفعل العصف وللرياح  
 البرية عواصف لأنها قد تحمل العصف وهو ما ييس من أوراق  
 الأشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما  
 يقال للرياح التي تلعق أناث الأشجار من ذكورها اللوائح والمختلفة  
 الشديدة الحواشك والحارة في الصيف البوارح والتي تقدم المطر  
 فجئياً بلبلة المبشرات والتي مع المطر المعصرات والتي تثير الأغبرة  
 الأعاصير والتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحت من النبات  
 السوافي وهذه الأسماء أكثر ما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح  
 إذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تابعت مستمرة فهي  
 الرخاء وإذا سمع لها صوت كحنين الأبل فهي الحنون فاذا ابتدأت  
 بشدة فهي النافحة والسيهج والسيهوج والسهوج فاذا سمع لها مع  
 الشدة صوت فهي الزفازف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي  
 الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الأشجار أو دون ذلك بتليل فهي  
 الزعزع والزعزاع والزعزعان وإذا حملت الحصباء أي الحصى فهي  
 الحاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرّسن  
 فهي الدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي التّوّج فاذا أسرعت  
 فهي الجفل والجافلة فاذا هبت من الأرض نحو السماء كالعمود فهي  
 الأعصار والزوبعة فان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب  
 وترددت به ويسمى المر بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة  
 فهي المحرجف والمصرصر والعريفة كغنية فان اشتدت حتى خرقت

الثوب فهي الحريق فاذا كانت حارة فهي الحرور ليلاً والسموم  
 نهاراً فاذا كانت بين بين فهي التجميع فاذا لم تلقح شجراً ولم تسق  
 مطراً فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن  
 يمين المتوجه للشرق الجنوب وعن شماله الشمال والشمال ومن  
 المغرب الدبور فاذا خرجت بين مهبي ريحين من هذه الأرباع  
 فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر  
 الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصايبه وان كانت  
 بين الشمال والدبور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الدبور  
 والجنوب فهي الهيف بفتح الميم وكانت العرب تتنادي بها لكونها  
 تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف الماء وفي المثل ذهبت  
 هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده ولبعضهم  
 نظم الاصول والنكب وهو هذا

صبا ودبور والجنوب وشمال

بشرق وغرب واليمين واليصاد

ومن بينها النكباء ازيب جربيا

وصايبه والهيف خاتمة العمد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار  
 ما اسفلنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال  
 البعير

القوانين الاول المحذوب الواقع على البعير من الكواكب فقد

ثبت علمًا وعملاً ان القمر بسبب قربه من الارض يؤثر على سطح  
 البحر المحيط فيجذب ماءه نحوه فيحدث من ذلك تموجه ثم يرتفع  
 بعض اقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاه الكوكب في جوف  
 السماء وبعد ان يقطع مسافة في سيره ينصدم بين ارض هولاندة  
 وبين ارض اسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوته  
 وينقسم الى تيارين احدهما يتجه جهة سواحل الافريقية وبعد ساعة  
 من ظهور القمر تكون تلك الامواج وصلت الى ارض فاس  
 ومراكش وبعد ساعتين تكون بينغاز الطارق وتر بسواحل بلاد  
 البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت الى السواحل القربية  
 من بلاد الانكليز ولا تصل الى سواحل ارض اسونج الا في الساعة  
 الثامنة لانها تتعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال  
 والثاني ياخذ اتجاه سواحل امريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة  
 الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بارض السواحل المذكورة  
 اتجه الى الشمال فينجس هناك بين جزائر متعددة فترتفع امواجه  
 ارتفاعاً يقرب من ثمانين قدماً ويكون اكبر من ارتفاع الامواج  
 التي تحدث عند اعظم الفورتونات بخمسين قدماً لانه لم يعلم الى  
 الان ارتفاع الامواج باعظم العواصف اكثر من ثلاثين قدماً كما  
 ذكر في التواريخ

والثامن الثاني وان كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن  
 اكثر الناس تحججه لانه غير محسوس ولا يدركه الا اولوا الابصار

من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون به الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تخلل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع ما دونه في الحرارة ولا يزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فتمت نقصت عن ذلك صار بازياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائريين ان يكون ارضاً وان يكون هواً متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صفة الحرارة له وامتزاجها به ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انه علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة آلاف وستائة قدم

وبناءً على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديمة وتبادل بين طبقاته فتمت ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فوقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلافها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثمانى درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكد الملاصق لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

الصنديل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة  
ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكم من عجائب خفية  
تحت طباق الماء يمر فوقها الانسان ويقطع جميع هذه البحور ولا  
يحصل منه ادنى النفات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من  
الغابات التسعة والوديان المطئنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة  
فكم في قاع البحور من ارتفاعات ووهداث وانخفاضات وكم فيه  
من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارة يكون بسيطاً عظيم  
الاستواء مجرداً عن النبات في بعض الجهات وتارة يكون عامراً  
بالنبات والعشب في جهات اخرى وترى قاع البحر كسطح الارض  
فيه المرتفع والمنخفض والتحلل والنخس وقد شوهد في جزيرة  
ستمبيلينه بالمحس ان عمق البحر اربعة عشر الفا وخمسة وخمسون  
قدماً وعند القطب الشمالي وصل المحس الى عمق ستة وعشرين  
الف قدم وستائة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا  
الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي  
هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكانشاهد ان سطح الارض دائماً في التغير فبعضه يرتفع  
وبعضه ينخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في  
البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علماً ومشاهدة ان استواء الماء في  
المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً للرأي المتقدمين فانهم  
كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاقوال  
 فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل الجار وينظر  
 اسكان طباقه بعين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجوده  
 واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم فطرة القادر وعظم  
 شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تفهمه بحصره  
 ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة  
 لا يعلم منتهاها الا الله فيها وحولها بواقى ما ابتلعه البحر من مخلوقات  
 ومعادن ومصنوعات ومكان ما ابتلعه من الازمان السابقة فترى  
 الآت الحرب وبواقى القتلى وقطع السفن وكذا الذهب والفضة  
 اللذان هما تقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك  
 تحت الصخور وفي فجوات البحور

وفوق ذلك وتحته وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكل  
 وصور وكميات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى  
 وما هو اكبر منه وهكذا الى الهاشمة التي لا شبيه لجسمها في  
 المخلوقات الارضية وما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع  
 هذه الانواع وبعضها فتارة تكون طاردة وتارة تكون مطرودة  
 وتارة آكلة وتارة ماكولة وتارة غالبية وتارة مغلوبية هذا دأبها مع  
 بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق  
 الماء سواء كان في هده او سكون محاربات ومحاورات وهجوم  
 ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات



وطيور فكذلك يكون في البحر ما يشبه الذئب وما يشبه الاسد  
وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك  
وربما كانت اشد افتراساً وقسوة ولما عندها من الحيل تراها  
تغتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدّها  
الله لقوتها ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية  
الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى  
اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة  
او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شوهد امور اخرى غير  
هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون  
الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل  
العرب ويكون وردياً كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر  
كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من  
الوان النبات والاعشاب النابتة في بناع بحار هذه الجهات او من  
الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون  
اللون شديداً او غير شديد تبعاً لتكاثف الطبقات وتراكم هذه  
الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة  
مالديف واخرى تكسبه لوناً ابيض كما في جهة غينه واغرب من  
هذا كله ان هناك نوعاً من هذه الحيوانات له لمعان شديد ومتى  
اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات والديدان بقاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في سيرها تيارات مجهولة تنتقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ومن الغريب ان الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذاءها فلا يهنا لها عيش الا بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للتحير حتى الهائشة التي هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحترشيء وهو الديدان ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ماله اكثر ميلاً للاسفار من السمك فانه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات الشمالية وهذه تنجبه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب كالسردين اي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية اللامسة فلا يكون للسفارة عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما يجري تليجه وادخاره لاجل الائتداه به عند الحاجة اليه اكثر وفيه اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدر فيل والترمسة التي تبلغ الف افة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي يضطادون

في كل عام الوفاء مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي  
البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صوراً  
متعددة ويتلون بالوان مختلفة لطيفة حتي يتكون منها بساتين  
عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تميل اغصان الاشجار  
البرية تبعاً للرياح كذلك تميل اغصان النباتات البحرية تبعاً  
لامواج البحر حتي انها في بعض الاحيان تفلح من اصولها وتسير  
الى مسافات بعيدة وتتراكم ويتركب منها طبقة كثيفة تغطي جزءاً  
عظيماً من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه  
النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتاً بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج  
ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالتراب من السواحل  
واذا نبت بعيداً عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعاً وتنتب في  
جميع البحار ولكن الاكثر ان هذه النباتات لا تكون الا في البحار  
الجنوبية فتنتب فيها وتمتد الى نحو الف وخمسة اقدم وتارة تمتد  
على سطح البحر وتغطي ماء بالكلية وتستره حتى تكون سمعتها ثلاث  
مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض  
وقد قطع ( كورلومب ) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين  
ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية  
اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل  
شعب يتفرع كذلك وهكذا حتى يتكون من ذلك شعاب عظيمة  
والجميع ينتهي باوراق رفيعة الاطراف ومنها ما ياكاه الانسان

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات إلا  
منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال  
فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة  
سكرية ويوجد على سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها الف  
قدم واوراقها حمراء وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة  
تحت عقد الفروع تمنعها من الانغاس وفي بعض الجهات شوهد  
حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقداراً عظيماً من  
الفاكهة وجذورها متماسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه  
فروع شجر الصنّاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة  
لا يحصرها الاً موجودها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها  
تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه  
فيكون قباً كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية  
فتارة تكون شكلاً هرمياً مربعاً او مثلثاً ومنها ما يسبح على سطح الماء  
ويكسو منه جزءاً عظيماً فيمنع نفوذ الضوء والحرارة ومنها ما يكون  
خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب  
كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التعشق  
والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدين والمساكن  
بأوي اليها ويتحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومن  
يبصر تلك الغابات ويتاملها يرى اموراً عجيبة تدهشه لانه يرى على  
اغصانها ديداناً تسبح نحو الوزق لتتغذى منه ويرى عجل البحر جابلاً

ما بين نبت الماء والقراصي الاصلية وكتب الجردا العيون الرصاصية  
 والنمردا المعرفة والذكاء والترمسة كلاً في مكانه ومحل راحته ومأمنه  
 وما من نوع منها الا وهو راصد لغيره اما لتحصيل قوته واما للفرار  
 من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من اعداء  
 غيره واذاه فهذا بقوته يكر وهذا يضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت  
 الغابة وعلى فروعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف  
 كافة ولو امعنت النظر لوجدت اموراً اخرى غريبة وهي انك ترى  
 انواع الحمار مجتمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل  
 عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقبلة في مقرها غير محتاجة  
 الى الانتقال ولا تخشى من تقلب الاحوال عالمة كغيرها بان الله  
 خاتما ودبر لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها قماً  
 فتكتفي بما تاخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وشفاء الدم  
 وغير تلك الانواع والاجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم  
 لا يوجد مثلها في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل انه  
 اول ما ينشأ يظهر فوق حجر من الاحجار القارة في قاع البحر فرع  
 يشبه اصلاً نباتياً مسكون بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الاول  
 وهكذا فيتكون على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان  
 وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله  
 الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه ان يخرج من  
 المحجر ويعود اليه وهذا الحيوان وان كان صغيراً جداً لكن يفعل .

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتاً فترتفع من قرار البحر الى  
 سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من  
 المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه  
 وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل  
 الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار المخلق في جميع  
 الازمان وتنج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا  
 الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج  
 ويبعد عن المياه الكدرة والراكمة واول اساس يصنعه في عميق  
 الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يخطط  
 بمساكنه وبيوته الصخرية ساعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض  
 الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح  
 ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدوء وسكون دائمين ومن  
 عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمساكنه سطح الماء وذلك لانه متولد  
 منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقاومة الهواء والشمس  
 وكثيراً ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور  
 واشكال عجيبه ويرى في وسطها هذه الجوائر الراكدة وحوها الامواج  
 الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر قرعته ودوي عظيم وفي داخل  
 الادوار التخفية وعليها تجلب امواج البحر حبوباً وحشائش من  
 اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع  
 الحشرات والطيور بأوي البها وترى بها صغارها مع الامن والراحة

النامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتكون تلك الحشائش جزيرة  
وارضاً يسكن بها الانسان ويعمل بها آثاراً عجيبه فانظر لحكمة الله  
وعظمته

فقال الشيخ قد أكثر الناس من وصف العجائب البحرية  
ونقلوا انها أكثر من العجائب البرية وما ذلك على الله بكثير فاشد  
الاشياء قوة واكبرها جسمًا لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير  
وقد اختلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر كالعنبر  
فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحال الى صلاح  
كاستحالة الدم لبنًا في البهائم ومسكًا في بعض الغزلان ومن قائل  
انه صمغ نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في ثمه فيلغظه  
وتجده الناس في السواحل ومن قائل انه مادة تكون بنفسها في  
قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيتلعها الحيوان  
المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب  
العنبر فاذا ابتلعها قتلته وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل  
تلك الجهات فياخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة  
يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشحر من بني مهرة  
وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلا في طلبه فيقال  
ان العجيبه من الابل اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه  
وذلك الحيوان الذي يقال انه يتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعائة  
ذراع فاكثر ويروى ان جيشًا من الصحابة بعثهم النبي صلى الله عليه

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنجد زادهم فيما هم يوماً يتظرون رزق الله اذا هم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه واكلا منه ثمانية عشر يوماً وماءوا مزادهم واجرتهم من شحمه وقديده وحين ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومرتحنه اطولم ركباً ناقته ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في حقيقته . وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطوانه نبات وعن غيره انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغناطيس وانه يستخرج من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى ( يخرج منها اللؤلؤ والمرجان ) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان كبار اللؤلؤ يسمى دراً وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمند حيوان يشبه خلق الطائر بخلقه الله في النار وبها حياته وله وبر حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا علاها الوسخ نلقى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول الشاعر

لو أصلي الياقوت نار صبايتي \* لتغيرت احواله وصفاته  
او قرب الطير السمند لمهجتي \* لتضى عليه وعطلت حركاته



فيكون ما حكيم في المرجان ليس موضعاً للانكار غير ان  
صورته وكونه فروعاً واغصاناً تخرج منها ازهار تقرب القول بانه  
نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباويين كان  
كاعتقاد الام الماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين  
والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات  
ينبت في قاع البحر ليناً ثم يتجمد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه  
الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرية فيتميل نحو الشمال  
واليمن وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيراً من  
الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة  
وكذلك كثير من الامور النظرية والتواعد العلمية صارت لاغية  
لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات  
الخلق فبعضها وجد باطلاً لا اصل له والبعض هجر واستعيب عنه  
باحسن منه ومن ذلك مسألة المرجان وحيثته وكيفيته ففي اوائل  
القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايطاليا انه استكشف  
زهر المرجان واتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى  
مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار وبناء  
عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد ازيل الشك واتضح الحق  
وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون  
وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ احضر احد حكماء الفرنسيين

في سياخه من سواحل افريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له  
 فاطلع عليه وامتنحه امتحاناً تاماً بان وضعه في اجانة وملاها بالمياه  
 البحرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت  
 منه حية وتجمعت فكادت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان  
 الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه  
 الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الا بيوتاً تصنعها هذه  
 الحيوانات لما واها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به  
 مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما  
 قاله لم التلياني اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر  
 للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الا عن امتحان فبين من ذلك  
 صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الا عبارة عن حيوانات  
 صغيرة جداً تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه  
 من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نقط شكلها نجوي مركب من  
 ثماني اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة  
 كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتقاد القديم وثبت عند  
 الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعاً كفروع الاشجار  
 الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء  
 ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية  
 متحددة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه  
 احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة  
 والجمهورية فهذا في الأصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد  
 منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير  
 صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيها واحدة كما قيل  
 والحيوان المذكور اسطواني الشكل ابيض اللون يعلو طرفه ثمانية  
 افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون  
 الفروع او الاوراق متحركة ولكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض  
 الاوقات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة  
 تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة  
 كشتين هي فم ذلك الحيوان ومنه يتجه داخل الجسم قضيب  
 اسطواني يتد الى وسطه بحيث يرى كأنه معلق به وارتباطه من  
 الفم بثنيات واصلة من فروعه الثانية بالانتظام وكل من هذه  
 الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما  
 يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية  
 التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن  
 انابيب مختلفة الغلظ فالأكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والاقبل منها  
 فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل اولاً للمنسوج  
 الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة  
 للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء  
 كل قناة ومنفذ قسطنها قسماً من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية

قدرها الحق جل جلاله وعز شأنه وكاله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد نارة تكون من محض الذكور وتارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تنذف بيضها من فيها ففي المبداء يكون ديداناً صغيرة جداً ثم يتدیی في النخس وَاخذ الشكل الحقيقي شيئاً فشيئاً وكما يوجد المرجان بافريقيا والاندلس كذلك يوجد بسواحل ایتالیا وفرنسا وكيفية استخراجہ عند الجميع واحدة تقريباً وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاجراجه اولوا قوة لمعاونة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعود على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بهما حجر ثم يربط فيها الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر به فاذا ظن الصيادون وجوده يجعل رموا شباكهم فيه ثم يسبرون الى امام او خلف ومعهم دواليب لرفع الآلة بكيفية يعلمونها فياخذون ما تعلق بها وينظفونه

المسامرة الثامنة عشرة  
في البراكين

وبيناهم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين بشخصون بابصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللفظ وكأننا رأوا شيئاً من السماء سقط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة فلاح من الشيخ التفاتة فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى دخاناً كثيفاً صاعداً الى السماء مختلطاً بلهب ولبعده كان يظهر له انه يخرج من البحر فدهش من ذلك وعن مسألة المرحان اعرض وسأل الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرض فقال له ان هذا الذي رأيته دخان يخرج من احد الجبال النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى بالبحر الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض متقد الى الآن مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينا فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك وهوان برية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

من البلاد المشرقية ان ثم جبلا شاهقة منها جبل يسي دبقاوند  
ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشتد في بعض الاوقات  
دون بعض سيما ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثنتي  
عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة  
الحرارة لا يربهاشي الا اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات  
وربما ترصد ذلك من يغرر بنفسه من المشتغلين بالكيمياء فيصعد  
اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون انه  
يدجل في الصنعة ويصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب  
صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه  
الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم  
منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله  
بالنعم الوافرة والالطاف الجممة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان  
الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس اقرب بقلبه واذعن بعبوديته  
لربه فسبحانه ما اعظم شأنه

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضا جزء غير مسكون  
وهو ما قرب من الجبل وباقيها معمور بالناس وفيها كثير من  
الحيوانات وانواع النباتات وبسبب اعنياد الناس على هذا الجبل  
صار خروج النار منه عندهم كالعيون والآبار من الامور العادية

وهذه النيران وان كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اخمص بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تهب فيها النيران فتأخذ سعة من الارض تكبر وتصغر على حسب قوة الهيجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الآن بخلافه وقت هيجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترتج منها الارض ويسمع لها دوي وقرقعة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد فترتفع الى الجوى ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غايته ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة له زوال بلادهم وخسفها ومن شدة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هيجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشغولون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٨٦٢ واذا بارض تنزل وترتج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلاً كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتندرد الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتجسها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان و لهب ومواد

فكان ذلك امرًا عجيبًا ومنظرًا غريبًا خصوصًا في الليل فكانت الأشكال التي ترسمها المواد المتذوفة ترى بصور تشبه الصور التي تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه الحالة الى أوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تزلزل الأرض وتموجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفتحت في طول الفين وخمسمائة متر في راي العين وخرجت منها المواد المحبوسة من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المتذوفة عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي المواد السائلة والرماد والكتل النارية وسقوطها من فوق تلك التلال الى الأرض تجمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي في البعض فكان يشاهد كأن الفوهات العليا تقذف كتلاً جسيمة متجمدة وان الفوهات السفلى تقذف ناراً ولهباً ومواد سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الهيجان على ذلك ثم سكن هيجانه بعض سكون وصار لا يرى فيه الا دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان يسمع تحت الأرض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض تموج وتزلزل مزعج ويتسلاخ الجو بالدخان ويتغير لونه ونحجب الشمس وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباخلاطها مع



اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة وبلحق الحلق رعب  
كثير وبعد زمن خشع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المقذوفة  
تصعد الى الجوالفأ وسبعائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل  
الهدء كالاول وقدر بعض العلماء المواد المقذوفة من فوهاته في  
السته ايام الاول فوجدوا ان الحجيل اخرج في كل ثانية تسعين  
متراً مكعباً وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو  
سته امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجهدت وقلت سرعتها  
فتكون عنها في جميع جهات الحجيل اخاديد وتفرع من كل  
اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد  
فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين متراً في المبداء وعمقه خمسة  
عشر متراً وبعده عن فم الفوهة ستة آلاف متر وفي بعض الجهات  
كانت المواد تقع في اودية ووحدات منخفضة من الارض فكان  
يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصباها من الشلالات وقد  
قيس بعض تلك الوحدات بعد ان طفت منها المواد السائلة  
فوجد عمقه خمسين متراً وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة آلاف  
متر في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة  
المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الحجيل فينبجر ثانياً على  
حين شغلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المقذوفة  
اودية وراضي واسعة فيتلف كثيرا من اراضي الزراعة والمسكن  
المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

وكثير من المزروعات واحضي ما تلف من الاشجار التي كانت هناك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقته هذه المواد مع لهب ودخان الحجيل شعلة كان الملاحون وسكان السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزناً شديداً على ما تلف من غاباتهم وارضاي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان والاضطراب الذي شرحه لحضرتكم لم يكن شيئاً بالنسبة لما هو مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا انه هاج خمساً وسبعين مرة في ظرف الف سنة واقبلها حصل عنها امتداد المواد المتذوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليها من المدن والقرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعاً وامتداداً حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة الآف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيه هذه الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان يتلف كثير من سكانها ومساكنها وتعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الحزم بذلك لان كثيراً ما شوهد في بقاع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكوتاً تاماً الى الآن

وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان  
والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل  
فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل وانتقال المواد التي  
قذفها فيطفأ كما طفء غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة  
اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل  
تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة  
سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لا عجب من ارض تشرب وبها اشجار تزهر خاصة  
بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه  
المواد السائلة التي تشبه في اندفاعها اندفاق الماء من اعلا الصخور  
والنابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها  
الحقيقية فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل ذوبان المواد  
الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية  
فتؤثر على المواد الجمادة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك  
فما كيفية انتذافها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من  
بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان  
نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد  
على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على  
طريقتكم ومقتضى فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك  
وشرح احوال هذه المحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاي شيء

يسكن الجبل تارة ويهيج اخرى ولم كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى تارة فتظهر وتضعف اخرى فتسترو وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها ناراً ودخاناً ثم طفتت وسكنها الانسان والحيوان من بعد وصارت بالحيوان والانسان معمورة وبالنبات ورونق البهجة مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدت دفعة واحدة او تدريجاً في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود كحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل، لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قدماء سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقدوه وهو ان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها اقلبت بخاراً وبعروض حوادث اخرى واسباب خفية تؤثر فيما تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تقذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتكون عنها المواد البركانية والدخان والمهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجو وتأثير الجو عليها تجهد شيئاً فشيئاً حتى تصير

حجرًا او صخرًا يتكون منه الجبال . ثانيها ما قاله بعضهم وهو ان جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوةها من الفوهات البركانية . هذا ما قيل ولم يعلم ايها اصح ولكن رجح كثير من اهل العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء بسواء

واخبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار تسعمائة وتسعة وتسعين جزءًا من الماء والجزء الباقي مواد اخرى كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد ان الحبل يقذف في كل دفعة ٦٠٠٠٠ متر مكعب وبما انه كان يقذف في كل اربع دقائق مرة ففى مدة مائة يوم يكون مقدار الماء المقذوف ٢١٦٠٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في الجزائر موجودة الى الآن . منها ما سكن ومنها ما هو على حاله وكثير ما سكن هذه الجبال يخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة في الحرارة والتركيب المعدني

والجبال النارية كثيرة جدا ففي البحر المحيط الاعظم وفي

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة  
جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخاناً ولهباً ومعادن  
متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي  
الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض وانتلاع مدن باهلها  
وسكان هذه الجزيرة دائما في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه  
الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد  
البركانية من فوهة جبل مستلى المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر  
خمسة الآف واربعمائة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم  
كانه عمود من نار قاعدته في البحر ورأسه في السماء يستر ظله جزءا  
عظيما من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى  
اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لانزال الارض في تزلزل  
واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه  
الجبال يشبه بعضها بعضاً في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخاناً  
ولهباً واحجاراً . ومنها ما يقذف مع ذلك تراباً . ومنها ما لا يقذف  
الأماء حاراً يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل  
البحر الهندي فالجبال النارية لم تنزل فعالة بقوة في جهات جزيرة  
سومتره وجزيرة زانفا

ووجد في سواحل بلاد العرب والمند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه المحطات زمن كانت فيه متهيجة ومنتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالمحطات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البحر المحيط الاتلنتيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد طفئ اكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) ما تان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منهما ولا ترجيحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة اكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفئ كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العددين بل تزيد وتقص باسباب واحوال واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلاً ثم طفئ فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المقذوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة ضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القران

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر الابيض المتوسط لان كثيراً ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف وثلثائة متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان بينهما اتصال وكان منبع هيجانها واحداً لحصل الهيجان فيها معاً وايضاً فالمواد المتذوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي تقذف ماء وطيناً ليس اقل من هول الجبال التي تقذف ناراً ولها بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من الاتلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض ساعات وقذفت ماء وطيناً فاغرقت مدناً وقرى واتلفت ولايات واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف التجارة قحمة خراباً لا تجد فيها يوماً ولا غراباً مثل ما اتفق في سنة ١٧٦٣ من الميلاد في جبل بابانربانج اعظم الجبال النارية بمجزيرة جافا وهوان الجزء الاعلى من الجبل تمزق واتقذفت منه قطعة بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء الساخن فملاّت فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات



تظهر فيها عيون يخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويرى  
من جميع مسام الجبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة  
ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الصلبة  
بل الغالب فيها ان تكون متقطعة وبعضها لا يقذف الا طيناً  
او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو  
مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الا ماء ولذلك  
سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ما  
دفعه واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتمزيقه ومن كثرة  
سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد  
فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لنقل التخت بعيداً عنه وكثير  
من جبال جزيرة جافا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الا  
طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره متجمد بمواد قابلة للالتهاب  
تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٢ في جزيرة كدوبوقذف احد جبالها النارية  
مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي  
المجاورة له واغرق خمسة وثلاثين الف نفس  
واكبر من هذه المحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد  
جبال دائرة الاستواء بالقرب من كنبو من جهة الجنوب من جبل

تويجوراها فقد نقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتدهدت منه جهة فاعتبها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فملاّت مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة وحبست المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائئة وكيفياتها والجبال النارية ومدنوفاتها نجد ان لا فرق بينها الا انها تارة تذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الا في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الا بالقرب من شواطئ البحار وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة في نواحي جبل قامار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة في جهتي بغازبانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فما كان في جهة الشرق فمواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه متقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في أي الفصول الا ان قذفه في الصيف اكثر منه في الشتاء وهناك جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المدنوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون المواد المدنوفة طيناً مائعاً لاختلاطها بمياه الامطار ويخرج معها دخان وتكون شديدة الحرارة لتساعد المياه وتجدد بالسطح ويخرج

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة  
مخاريط تعلو سطح الارض فيحبس البخار الى ان تغلب قوته  
تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجوى ويستمر الحال على ذلك الى  
ان ياتي فصل الشتاء فنذوب المواد الطينية وتكون كما كانت  
في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطاً  
بين اوقات القذف واوقات المد والجزر فيزداد القذف في اوقات  
المد حتى يسمع له دوي وقرقعة داخل الجبل وربما تكون المواد  
المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية ويتص في  
اوقات الجزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب  
المؤثرة في جوف الارض على المواد المتراكمة منها طبقاتها حتى انها  
تقذف تارة مواد جامدة مع دخان وهب وتارة ماء ومواد طينية  
وتارة لا يكون الا ماء وتارة طيناً يشبه الوحل فلا بد لهذا  
الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج  
الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها ان  
بعض التجار مر ببعض الجبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار  
وبعضها بارد ولم يكن بين مجراها الا مسافة شبر وحكى بعضهم  
ان هذه العيون منها ما يكون نافعاً للشرب والري ومنها ما لا  
يتففع به لتغير طعمه ورأيت أنه وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

يكون حاراً جداً لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض  
الفاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوي طعامه على  
حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن  
البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهمي وتخيلته وهي قياس  
ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه  
المكّنون .الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه  
توقدون .وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى  
ما قيل في خشب المرخ والغفار وها نوعان من شجر البادية اذا  
احنك منها غصن بغيره صار نارا فاظن ان نار هذه الجبال  
وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القبيل وان السبب هو  
احنكك بعض الصخور بحكمة يعلمها العالم القدير فتصادف بعض  
مواد نارية كالكبريت او غيره فينشأ عنها ما ذكر من البراكين  
فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السببين اللذين نسب اليهما  
علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المتدفقة  
صلبة او مائعة وها الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان  
في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً  
وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها  
متسع وهذه الموصلات تارة تكون متفرقة كالانهر والخلجان وتارة  
تكون غير متفرقة وبينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين  
البحر والفتحات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بها  
واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه  
في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين متراً فاكثروا اذا وصل الماء  
في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة  
ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير  
المياه عن حالة السيلان الا اذا سفلت وانخفضت الى الف  
وخمسمائة متر فينبئذ تكون درجة حرارتها هناك خمسمائة درجة  
تقريباً بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابخرة قوة على دفع الماء  
الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة  
تصعد الابخرة وتتدفق من خلال الطبقات الارضية وتخلط  
بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذائبة بالحرارة ومتى بلغت  
قوة الابخرة حد العظم في الذائبة من الصخور دفعتها الى اعلا  
وقدفتها من الفوهات النارية الموجودة قديماً ان كان التأثير عند  
فتحتها نحوها والاثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذها تكبر  
وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر  
في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثرت في العرض فتخرج  
المواد المتدفقة منها الى سطح الارض وبتماذي الزمن وتراكم المواد  
المتدفقة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد  
معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن  
ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

الاحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الارض ودفعت مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء تزيد وتنقص تبعاً لقوة السبب وضعفه وكثيراً ما يحصل كسر الجروف بحسب قوة سيلان المواد المتذوفة على الارض المجاورة وتخرّب أكثرها وتارة يكون انصبابها في البحار فتجعل فيها لساناً ممتداً الى بعد عظيم من ساحله الاصلّي ويتغير شكل شواطئه وبحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان تكون طينية ويختلف لونها وراحتها بحسب المواد فان كان التأثير الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الارض دفعته في هيئة البراكين واسائه كما هي حالة الشلالات وكثيراً ما وجد في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش

واما وجود الماء الحار بانقرب من الماء البارد وعدم صلاحية الاول للشرب وصلاحية الثاني لهُ فسببه ان اصل البارد المياه التي تشربها الارض من الامطار والثلوج وغيرها واصل الحار من المياه السفلية واخذ الاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت بكيفيتها ويجوز ان يكون ما تخيلت بعض الاسباب فانها ظنون متفاوتة قوة وضعفاً



المسامرة التاسعة عشرة  
شذور

وبسبب دخول الوقت انقطع بينها الكلام وانصرف الشيخ  
ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام وبات تلك الليلة متفكراً في  
صنع الله متدبراً في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات  
وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدره الله وعظمته سبحانه وتعالى  
ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي  
السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق  
في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في  
السماء يعلم عدد الرمال ومكايل البحار ومناقيل الجبال لا اله  
الا هو وهو بكل شيء عليم

وبينا هو يناجي ربه ويهلل واذا بولده برهان الدين لتقبيلا  
يده قد اقبل وعلى حسب عاداتها من وقت نزولها بالسفينة في  
تشاركها في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينها المكاملة فيما تعلماه  
وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه  
لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال  
عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطيفه  
ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

واحبوه ولذلك فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم  
 الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ  
 كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حالته فباسطه  
 وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الحبيب وبركة دعائه  
 في صحة تامة لا يعتريه ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده  
 انه سع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم  
 المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مکتوب  
 الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور  
 غريبة عن والده وعن الخواجا رآها خصوصاً وقد عثرت في السفينة  
 على شخص سبق له اسفار كثيرة في جميع البحار وعان من احوالها  
 احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد وله معرفة بتليل من  
 العربية تعلمه في بعض جهات سواحل افريقيا فكتبت عنه  
 كثيراً ما سمعته وذلك الشخص اسمه جس اي يعقوب وانه رغب  
 في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقيم في احدى الجهات ليستريح  
 من مشاق البحر لكنه لا يتيسر له ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً  
 غير ما عليه من الثياب وله تاريخ عجيب ذكر لي بعضه واخبرني  
 انه يرغب في بقاءه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو  
 يرجوك في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اكنسبت ثوابه واظن  
 ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثنى عليه مكافأة  
 على تذكره لوالدته ودعائه بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية



كما تقدم قال له من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليّ في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ راسه حياءً منه فقبله الشيخ بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على حسب العادة صلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لهم بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلهما بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما به برهة مع الناس واذا بالخوaja قد حضر وحياتها وسألها عن صحتها فشكرها

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية ثورانها وانواع مواد مقذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض وما ينشأ عنها من المحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا اللهب والدخان وسماعي لذلك الدوي والهيجان لم يكن في علمي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل على ان هناك جبلاً شامخاً واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتكم وكت لا ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا ارى لها اهمية

توجب الاشتغال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة  
تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع  
ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها لطلب العلم  
من جميع الاقطار كجزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعم  
والتتر والاتراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام  
بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اخلاف آرائهم فمنهم  
من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزه ولا يقيم  
عليه دليلاً ولعدم اهمية مثل هذه المسائل بيننا كما نرى ان المنازعة  
فيها والاصغاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه  
على يقين من ذلك لكونه رأها في بلاده كان مجبوراً على عدم  
التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الاخرين واذا اضطر الى الكلام  
فيها قال يقول العموم لئلا يجرح نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه  
غيره ممن خالف راي الاكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من  
جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة  
رأي مثل هؤلاء ربما توقع في ضرر وقد استولت عليّ الليلة الفكر  
فلم اتم الاقريب السحر فرصت الزمن في التأمل في صنع اللطيف  
المخبير البديع التدبير من جبال نصبتها وفي مواقعها رتبها وبجار  
ازخرها ولمنافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الاودية وشواهد  
الجبال صرفها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب  
لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

والارض قائلين بلسان الاعترار ربنا ما خلقت هذا باطلا انما هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي ورموني بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لا يملون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حظ احدهم ان يأكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام اذا سمع وصف التجار والجمال قال ذلك لا يثبت الا بمحض الخيال وكل ما ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال به بش الاشتغال غافلا عن قول رب العالمين . وفي الارض آيات للموقنين . وفيهم من يخشى من صولته وَيُرْهَبُ من هيئته فرما كان داعية للكتمان وسببا من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجهل ومدح العلم وانها ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم لرايه ومتى كانت الحتمات ثابتة بالبرهان العقلي او النقلي عن اساتذة افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بما وقع تحت نظره وشاهده خصوصا اذا كان لهم في معرفته فائدة بل الواجب عليه حينئذ الافصاح به واشهاره فانه وان لم يصدقه الكل فقد يصدقه البعض فيكون معضداً له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتقدم  
 الملة شيئاً فشيئاً وتوضع البركة في ارزاقها وتوسع ثروة اهلها بانساع  
 دائرة العلم بين علمائها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل  
 المتمدنة . الا ترى ان البلاد الاوروبوية بعد ان كانت في حالة  
 التوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في  
 الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل . هل لذلك سبب غير  
 اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه  
 ما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصاً ما اخذوه عن اهل الشرق  
 فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمناً  
 طويلاً كان سبباً عظيماً في اخلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن  
 ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت  
 جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم  
 للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه  
 فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الا انها  
 كانت سبباً في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقين ما  
 عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف  
 واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذ الى الان لم تنقطع  
 سبل الاخلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط  
 التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة براً وبحراً وازداد  
 بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الا وترى الوقفاً من اهل اوروبا

تسبح بالارض فلا يرون بشيء الا رسموه ولا يرون اثرًا الا تأملوه  
وربما شرحوه وفي بلادهم نشروه وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا  
الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستحجة فاستخذوا عليها  
وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية وجلبوا بهذه الطرق الى  
ارضهم جميع خيرات البقاع وجمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة  
فوق سطح الارض وفي وسط البحار المتسعة فوصلوا بسعيهم  
واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا  
منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحربة  
التامة رأيم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا  
شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الا العلم وكثرة  
السياحة اذ لو اقتصرنا على معلوماتهم الاولية ومعارف ابائهم في  
الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان مجهلون كيفية  
ذرع النبات خصوصًا النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما  
تعلموا ذلك من المشرقين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة  
هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم  
والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في  
العالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظورًا عليهم  
النظر في غيرها كائنًا ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به  
الفسس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة  
من الاهانة . فمنهم من مات مسخونًا ومنهم من قتل ومنهم من حرق

بالتار ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل  
 والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت عصبية الحق لانهم كلما  
 رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم  
 ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحفوا بهم حتى كبر جاههم  
 وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من  
 المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما رؤوا فيها من الاشياء النافعة  
 والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لشرط طرقيهم وعلومهم  
 بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس  
 وتحصل عليها الفقير والغني والذكي والغبي وامتدت بها اغصان  
 شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد  
 ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون  
 حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع  
 والحرف عدد غير متناهٍ وما من يوم الا وتظهر كتب جديدة  
 واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم  
 والصنائع في البلاد الاوروباوية كان من قبل قسس الديانة  
 العيسوية لكن الامر في البلاد الشرقية والديار الاسلامية على  
 خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي  
 علم من العلوم النافعة ديناً ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه  
 وسائر رسله امرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

العالمين إلا وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثاً وكان ادريس خياطاً وكان نوح نجاراً وكذلك زكريا وكان هود تاجراً وكذلك صالح وكان ابراهيم زراعاً وكان اسماعيل قناصاً (اي صياداً) وكان اسحق راعياً وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكاً وكذلك سليمان وكان هارون وزيراً وكان الياص نساجاً وكان داود زراداً (اي يعمل زرد درع الحديد) وكان عيسى سياحاً وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهداً ولذلك قال . جعل رزقي تحت ظل رمحي . وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عزوجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالألم من عمل يده امسى مغفوراً له

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور (اي السعي في اول النهار) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المتأديروقال بعض الحكماء الحركة وبركة والتواني هلكة والكسل شوم وكتب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروءة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار (اي اهل

المدينة ) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئاً فقال له  
اما في بيتك شي قال بلى جلس ( اي فراش ) نلبس بعضه ونبسط  
بعضه وقعب ( اي اناء ) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه  
وسلم ائني بهما فاتاه بها فاخذها بيده فقال من يشتري هذين فقال  
رجل انا اخذها بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على  
درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاها اياه واخذ  
الدرهمين فاعطاها الانصاري وقال اشتر باحدها طعاماً فانذهه الى  
اهلك واشتر بالآخر قدوماً فائني به فاتاه به فائت فيه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحنطب وبع  
ولا اريتك خمسة عشر يوماً ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم  
فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم هذا خير لك من ان تجيء بالمسئلة نكتة في وجهك يوم القيامة  
وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لان يحنطب احدكم حزمة  
على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم  
يقول كثرة المسئلة كدوح ( بضم الكاف اي قروح ) في وجه صاحبها  
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل  
فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في  
بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن  
الآ ولم فيه التأليف المفيدة ولا حرفة الآ ولم فيها الاختراعات



العديدة ومن زعم في المشرقين غير ذلك فقد اخرج الحق عن موضعه اما لعداوة او حسد او نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الاسلام وتقدم اهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سبباً في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احيا التمدن القديم بدرياق اسراره النافعة وازال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المتدع فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيراً من المستكشفات التي تعزى الان الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل يتكر احد ظهور شردمة قليلة من بلاد العرب ملكت اكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة اكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدناً ابيه من تمدن اوروبا في عهد اغسطوس اكبر القياصرة ولو نظر لحال العلم قبل الاسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهند والصينيين لوجد انه كشجر بلا ثمر او سحاب بلا مطر فبظهور علماء الاسلام ظهر اصله واتضح وشاع نفعه ورجح وبعد ان كانت المخلق غارقة في بحار الاوهام لا يتخيلون العلوم الا كاضغاث احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

علوم مؤسسة على قواعد حتمية واتضح الدليل وتبدد شمل الاباطيل  
 وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد  
 الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فكانت الثروة والقوة  
 للمسلمين لتشبثهم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من  
 ذوي الاطلاع الا ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجمله فينبغي لجميع  
 علماء اوروبا ان يدعوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان  
 كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الا من وقت ظهور الاسلام  
 فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحيث يكون الاسلام  
 هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروباوية  
 الا بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة وحيث كان الامر كذلك  
 فتحتم ان لا ينسب الا لاهل هذه الملة الا انه كما يكون للتقدم  
 اسباب فله موانع وذلك لانا لو شبهنا اهل الملة بالعائلة كان  
 رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاهية العائلة وسعادتها تابعة  
 لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى  
 راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من  
 يسوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور  
 العائلة والذرية ويكون تقدمها وعدمه تابعا لما ينخط عليه رأيهم  
 وانه يلزم ان يكون لمدير امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزم لها  
 حالاً واستقبالاً وان يكون ذا بصيرة بمجواتد الامور وتقلبات  
 الدهور لئني قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكينة ويسلك

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا  
 على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على  
 جهل ما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد ماتهم او كانوا مختلفين  
 في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلفت افكارهم واضمحلت حال العائلة  
 لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالم وعن قريب يحيط بهم الفقر ويحل  
 بساحتهم جيش الذل والقهر ويدخلهم في قيد الاسر وسجن الذل  
 طول الدهر ما لم يقبض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها  
 ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها  
 وبلوكها وما انحط عليه راي جمهور رجالها فان كانت رجال  
 الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على  
 اسباب التقلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت  
 الحوادث سواد ملتهم واختلفت التجارب لباس جدتهم وارضعهم  
 الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعلموا بكثرة الممارسة  
 تضاريف اقداره واقضيته واحاطوا بمجاذب اهل ملتهم وحوادث  
 الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيجتنون  
 الرعية عليها واسباب الشقاوة فيهنونها عنها فما وجدوا فيه نفعا  
 لاوطانهم جلبوه او ضرراً اجتهدوا في ازالته واجنبوه. كان ذلك  
 سبباً في ازدياد البركة وحصناً من الوقوع في مهاوي الهلكة فيجتنبون  
 يصفوهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من  
 ذلك بالعكس وقعت الرعية في العكس بهلا ليس فقد قيل عدل

السلطان انفع من خصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه من خراب  
مدينته ويساله مالاً يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك  
فاذا قرأت كتابي فحسن مدينتك بالعدل ونقّ طرقها من الظلم  
فانه مرمتها والسلام قال

ولم أرَ مثل العدل للملك رافعاً

ولم أرَ مثل الجور للملك واضعاً

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النمص  
وان ريضها رايض ومرعى رياضها بارض وانها محتاجة الى عمارة  
وزراعة وحرثاة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر ( والدمص بكسر فسكون كل صف  
من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص بزنته والعرق بتخمين  
يعمها والنمص بكسر فسكون اثار التبت بعد رعيه والريص  
بتخمين المراد به الماشية ورايض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي  
المراد بلفظ بارض )

ومن طالع تواريخ المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها  
سائرة بسير مدبر امورها ان خيراً فخير وان شرافسرو من تأمل مصر  
وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر  
الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحالين ولا مناسبة بين  
الزمنين ففي الازمان السابقة كان يندر وجود الافرنج في بلادنا

واما الان فلا اقل من وجود مائة الف نفس وكذلك كان لا يوجد واحد من ابناء جنسنا يتكلم بلغة اجنبية واما الان فيوجد الوف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احد المصريين سافر الى بلاد اوروبا واما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون في هاب وايباب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الاسبله فلم تكن حالتها فيما تقدم من الزمان كحالتها التي هي عليها الان حيث ضبط ريعها وحفظت من الضياع رباعها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقه بالمدارس الميريه في الترتيب والمقاصد الخيره فضلاً عما حصل في هذا العهد من تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل طرق الري في جميع الجهات وكذلك الفنون تسرت لطلابها اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء والحكامه الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزايهم بين جميع العباد فبسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات وبما رتبته من القوانين الصحيه ودبره من المواد الطبيه تخلص الناس من الامراض والعلل كالجذام والزهري (اي المبارك) والبرص والجرب والجدرى وكذلك نشأ من ابناء الوطن مهندسون اعالمهم تغني اللبيب عن ذكر صفاتهم وهكذا في كل صنعه من الصنائع

كالمحدادة والبرادة والنجارة حتى صار القطر بهم غنياً عن سواهم  
 هذا الى من برع من رؤسا في العلوم العسكرية وعلماء مدرسين  
 في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار  
 ما وجد الاً بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام  
 سعدتها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلمين عليها  
 بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي  
 ابنائها فلولم يمن الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه  
 اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم من جاورهم كالبربر وعرب  
 الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات  
 الخالية عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك  
 ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجهور رجالها ومديريها ومعها  
 وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر  
 صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة  
 في الازهان ذميمة وافكاراً فاسدة واعنقادات كاسدة فلا تزول بمجرد  
 بعض التجددات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن  
 الى المات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا  
 تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هؤلاء او اكثرهم فعلى حكم العقل  
 يلزم التريص الى انقضاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة او مائة  
 وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المؤلفين  
 ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات

الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم يتقدم لاحد بها الملام ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق والمناقضة فحينئذ يجب اتقاؤها تدريجاً انما من سعادة الملل قد يظهر لها في بعض الاحيان من يخصه الله بافكار عليية ومعلومات ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهاها الفاسدة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتألف هذه التجديدات وفي الزمن اليسير تتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق والاضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انها انقلبت وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وتديير صاحب الوقت ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهمي او ميربوهي نسبة تقهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلماؤها الف كتباً كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية وان ذلك ليس من شأني والذي يجري بيننا من المباحث انما

علي سبيل الاستفادة والافادة شان المتصاحبين في الاسفار والمتقاربين  
 في الافكار ان ياتي كل منها لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه  
 من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقاً سواء كانت من  
 مشاهدات الابصار او من مبتكرات الافكار حتى نتأكد بينهم جبال  
 المودة والصفا وتمتد اليهم اسباب الالفة والوفاء متجافين الجدل  
 متحامين موجبات الملل لان المقصود الموائمة ولا أكد لذلك من  
 المناوضة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من  
 الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى  
 الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا راداً لما قضاه ولا خلاف  
 فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد المللية  
 بل نعدل الى علوم سواها ونقتصر عليها ولا تعداها مما يطيب  
 الخاطر ويسر السرائر ويمكن الحب من الضمائر فاقول ولوان  
 بعض مؤلفي النصارى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام  
 لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث  
 قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من  
 عداها من الموسوية واليسوية وقد ترجمت من احد المؤلفات  
 الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قراتها عليك

فقال الشيخ لا بأس

فاخرج الخواجا كراسة قراء فيها ما نصه





## المسامرة العشرون العرب

انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة فلمهم الفضل ايضاً في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي المقدمة للعلوم في الزمن الخالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي فلولا ان حنيناً ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما امكن (كبلير) الفلكي ان يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بجزائن الكتب باوروبا ومخبأ لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف به ميل منطقة البروج واختراع المزاول والربع والساعة الفلكية ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب بطليموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

نصف النهار واليهم تنسب الازياج الفلكية والمداول الجغرافية  
 واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت  
 خرطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم ( قان ) احد المغاربة  
 الذي كان في ارض ( الجوزران ) ببلاد الهند وقد اخذه معه  
 وسكود وجاما معرفا مجريا الى مدينة ميلغده بجزيرة زنجبار وكان  
 عند اليورق البرتغالي لوحة اي خرطة اخرى من رسم شخص  
 من ابناء العرب يقال له عمر كان يهندي بها في سفره في بحر عمان  
 والخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضاً من العلوم الرياضية اتصال الخطوط  
 الماسة في حساب الثلثات واستعواض الجيوب بالاوثار وتطبيق  
 الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكعيبية  
 ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيمياء الذي  
 كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت  
 وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الالكول  
 واستنفاع النيذ وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب  
 الاعشاب تأليف ( دستوردي ) واستكشاف التناخ بين النباتات  
 حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لها وقد يكون في الشجرة  
 الواحدة صنفان وانثاء بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب  
 وتكثيرها

وفي علم الطب المعالجة بالخزام واستعمال الراوند والتمر هندي  
والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على  
العسل في تركيب اشربة الجلبة

وانشأ اجزاخانات ومدارس لعلم الطب وبجوارها شفاخانات  
لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة  
بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل حجة فيما يتعلق بانواع  
الامراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآت  
وفي انواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للمجاط  
وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنسية بوفون وانشأ بساتين لتربية  
اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولم يعزى  
استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع  
السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تدبيرهم وقوة اجتهادهم  
حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لم  
والبعيدة عنهم خلق كثير للاستزاق والاقامة فزاد بالوافدين  
عمارهم ونامهم سرورهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز  
والقطن وشجر التوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفسق  
ووزد يابونيا وزهر الكاملي الاحمر والابيض ونبات الهليون وغير  
ذلك مما لا حصر له

ولم في علم السياسة اختراع الاوراق للمعاملة بها بدل النقود

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات  
المتخذة من الزجاج وبيت الابرّة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق  
الحديد وسقيه

وما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارة التي لم  
يسبقهم اليها احد فان الاوروباويين لم يتعلموا الصنعة القرطبية  
المشهوره في الابنية الا منهم

وما يشهد بفخرهم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن  
مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب  
العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرونق  
واللطف والتفنن في الاشكال والهيئات وامتزاج الخطوط المستقيمة  
بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار  
في تعشيق الخطوط

ولهم يعزى الخط السني وتولية الحيطان بالقيشاني وغيره من  
انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفننات البنائية  
العربية في بنائهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارة  
الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة  
الان بمبؤنهم التي هي نتيجة تقدماتهم ومعلوماتهم بالمباني العربية القديمة  
الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن  
واتقن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

مدار معيشة أكثر الخلق اعندوا بها كما اعنوا بغيرها ففتحوا الطرق ونظموها وجعلوا لها قانوناً لحفظها وحفظ المارين بها والمترددين وجعلوا بها فساقى للياه وخانات لقبولة المارين ومبيت المسافرين ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة مصنوعات البلاد ببعضها فانتفع كل بلد بما عند الآخر فلم ينزل البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصاً في الارز والسكر والقطن والزعفران والعنبر والعاج والتبرالزنجباري وبلور الصخور واسلحة دمشق وطليلطة وجلود النور وطقوم خيل الحمل والمشال والسروج والجلود السخنيانية القرطبية والجوخ المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات الموصل والعقاير الطيبة واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احداً منهم الا وله حرفة يتقوت منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية سواء في ذلك الكبير والصغير والمأمور منهم والامير فاصحاب العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون ما رسموه وبينوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان القرآن الشريف حاثاً على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعد فرضاً خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب

اوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه اشرف من غيره ولا انه قروي وذلك مدني ولا انه فقير وذلك غني بل كانوا جميعاً لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد فكانت الصنائع تشرف بهم لا انهم يشرفون بها بخلاف الجاري في البلاد الاوروباوية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة الجيوش وروساء الاقلام لا يبالون باسما صناعتهم حيث تيسر لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخياطة والعطارة والجمهورية فكان ابو بكر بزازاً وعمر رضي الله عنه دلالاً وعثمان رضي الله عنه تاجراً وكان علي اصغر سنه ساعياً في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم ولما كبر كان يجلب الوقود للصاغة احياناً فعلى مقتضى الشريعة المحمدية يلزم كل انسان اميراً كان او مأموراً ان يقتات من عمل يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية اعني في عهد قريب منا كان السلطان محمود الاول جوهرياً وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته وما يلزم له وكلما اكثرنا البحث في الكتب وتبعنا اثار العرب وجدنا لهم من التمدن الحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول ويتعسر على غيرهم اليه الوصول فن ذلك استعمال خيل البريد لسرعة الانتقال متى شأوا بثغور بلاد الاندلس من الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافةً وكانوا يجعلون على الطرق جنوداً منتظمة لحفظ المارة والتجارة من امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من محاسن الآثار

وبالجمله فلم تر العرب شيئاً الاً عملته ولا فناً نافعاً الا تعلمته فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لتوصيل الاخبار السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لاتزال مطروقة بام مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كاللحج الى بيت الله المحرام والسفر لزيارة الصالحين وصلة الارحام وكان بكل مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان يضبط امور رعاياها وعسس يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل بالاسواق ومحاسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف بقدر ما يرونه من انواع النكال

واما ادارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن القائم بها واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من اهلها فيقومون بتدبير ما يرونه من المصلحة ومع حصرها في مراكز معينة فكان يرتب لها ما مورون يرون بالاقاليم ويلاحظون ما بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

بإداء الواجبات في أوقاتها وتحصيل أمورها وتخييز ما فيه مصلحة  
 لأقواتها وكانت حكام الأقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم  
 ماجرياتها وتقارير قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف  
 وقوفاً تاماً على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقاً للحال من نجاز  
 الأعمال واصطلاح الأحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح  
 المملكة والرعية مدبرة تدبيراً حسناً وكان من ضاقت عليه  
 الأحوال واحاطت به جيوش الأهوال إذا دخل في حكم أهل  
 الإسلام وانتقاد لما لهم وعليهم من الأحكام غمهم السرور وانجلي ما كان  
 به من المضائق والشورور كما حصل لأهل صقلية والاندلس حين  
 تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم  
 الراحة وقاموا جميعاً بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات  
 لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من أنواع  
 الرياحين كالفل والممام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من  
 جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفننت  
 العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن  
 والعقاقير واستعمال مجاري المياه من أنابيب معدنية حتى وصلوا  
 في أقرب وقت إلى أعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة إذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي)  
 الفرنساوي مائتا ألف نفس وباشبليه ثلاثمائة ألف وكان محيط  
 إحدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون ألف قصر وستائة مسجد



وخمسون قشلة للساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي  
 في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة  
 الاف نول لنسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما  
 كان فلا يعلم اي داهية دهتها واي مصيبة اعترتها حتى اخذل  
 امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسين  
 الفاً

وكانت تهرع طلبة المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم  
 العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد  
 الاسلام تتأثق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً بلاد  
 الاندلس

وكان في كل من مدينة سبته والقيروان والجزائر وتونس  
 وطرابلس مدارس عامة وكنبجانات وكان ثغر سيراف وعدن  
 وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة واردة اليها وذهابة منها وكان  
 سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات اسيا  
 واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم  
 الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عددهم وذكرهم  
 فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا المقام ان علماء العرب واهل الاسلام  
 لم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم احق به من غيرهم  
 واولى لاسيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدماً في كل فن خصوصاً في علم النجوم والفلسفة محباً لاهلها ولما افضت الخلافة الى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تم ما بدأ به جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معانده فداخل ملوكاً وسألهم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضر لهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق به للعلم اسواق وشمرت دولة الحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث له على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلاً حسن السمائل فقال له من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع فكانت هذه الرواية من اقوى الاسباب الداعية لاجراء الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليه يسأله انفاذ ما يجنار الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وغيرها فسلمهم ملك الروم بيت الحكمة فاخذوا منها ما اخناروا ورجعوا به الى المأمون فامرهم بنقله الى لغة العرب فنقلوه وكان ممن انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم ممن عني باخراج الكتب ومن نقل العلوم الحكمة

الى اللغة العربية اصطفان نقل لخالد بن يزيد بن معاوية وكذلك  
البطريق نقل للمنصور ايضاً شيئاً بامرّه وابن يحيى الحجاج هو  
الذي نقل كتاب المحسّطى واقليدس للمامون وكان في ايام  
البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال  
بن ابي هلال الحمضي وابن آوى وابن رابطة وعيسى بن نوح  
وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة  
اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عربّ كتاب اقليدس ونقله من  
اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فتحمه  
وهذبه وكذلك كتاب المحطسى وكان حنين المذكور راشد اهل  
عصره اعنتاء بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوحد عصره في  
علم الطب وكان يلحق بابيه في النقل ومعرفة اللغات وتعريب  
اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمه ابوه ثم  
انقطع الى القاسم بن عبدالله وزير الامام المعتضد بالله واخص  
به حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه  
بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة  
وكان يحيى بن عدي وابن المنفع من نقل من الفارسية الى  
العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم  
وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب  
فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

قد مرض فاحضره فعالجه حتى برىء واتصل به وقرب منه ودخل الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصله من علومها فاتهم بانه حرقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره الا وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها وكان منشأً ببخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي منها الى كركانج وهي قسبة خوارزم واخلف الى خوارزم شاه علي بن مامون وما زال تنتقل به الاحوال من بلد الى بلد الى ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس اولها

هبطت اليك من المحل الارفع

وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنَعٍ

محبوبة عن كل مقلة عارف

وهي التي سفرت ولم تبرقع

وَصَلَّتْ عَلَى كَرهِكَ وَرَبْمَا

كرهت فراقك وهي ذات تفتح

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي

صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن  
يوحنا في ايام المتندر وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرَّب  
نناؤها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكى انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه  
مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو بزِّي الاتراك  
وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف اقعد فقال حيث  
انا امر حيث انت فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى  
انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحه فيه حتى اخرجه عنه وكان  
على رأس سيف الدولة ماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به  
قل ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء  
الادب واني سائله عن اشيء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له  
ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب  
سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن  
اكثر من سبعين لساناً فعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين  
في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى  
صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم  
سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا  
فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع فقال نعم فامر سيف  
الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع  
الملاهي فلم يجر احد منهم آتته الا وعابه ابو نصر وقال له

اخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً  
فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيداناً  
وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها  
وركبها تركيباً اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم  
فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً اخر فنام كل من في المجلس  
حتى البواب فتركهم نياماً وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة  
المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي  
بن يحيى بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيى ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيى بن عيسى بن جزله  
الطبيب الماهر وكان نصرانياً ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على  
اليهود والنصارى وبين معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في  
التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه  
مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظروه وما زالت  
العلوم الحكيمية تتداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد  
العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي  
المفخم العلامة بن يونس مخترع البندول (اي رقاص الساعة)  
والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد  
الملوك السلجوقية الذي صارت الناس توّرخ بعصره فيقولون كذا  
كأ في سنة كذا من التاريخ الجلالى

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن  
 ماجية وكان يصنع الاضطراب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن  
 اطلع عليه وكان يرسم على كرة فبينما هو يسير يوماً على فرس وبين  
 يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانبسطت واعجبته  
 الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاضطراب على  
 وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى  
 قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيراً وصدقاً للسلطان محمود الغزنوي  
 وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم  
 الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس  
 وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية  
 وكان بهراکش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي  
 مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء  
 الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديواناً  
 لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ  
 صاحب حياه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو  
 الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقرئ  
 الذي لم يسمع بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

من تسلطن بها من المالك وغيرهم المسمى كتاب الخطط وله  
قاموس تاريخي وكذا اولوغ بيك التتاري حفيد تيمورلنك ومن  
اثاره انشاء رصدخانه في مدينة سمرقند

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي  
ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة  
وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا  
فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن القود في المعاملات  
وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاد بمدينة طهران

وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهر العلامة كاتب  
جلي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابه حتى ان كثيراً  
من الناس ينكر كونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد أسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل  
من القليل الاّ انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان  
للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكمية حيث لا مانع لهم من  
معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في بحار العلوم  
واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء  
فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية  
ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شغلوا  
غليل ظمائمهم بما اغترفوه من ساحل بحار معلومات اهل الاسلام  
اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاعتراف من بحر معارفهم الى



هذا الزمان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما  
اهتدوا اليه الا بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك قواميسهم المتضمنة  
اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما  
وقع في ايديهم من كتب العرب فخذوا حذوها فقد دون اهل  
الاسلام في علم التاريخ فضلاً عن غيره تدويناً امتازوا به على غيرهم  
بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتمام لطرق استنتاجهم وهذه المزايا  
من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب  
والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف والثلاثمائة مؤلف في  
خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلاً عما ألف في ذلك  
باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام  
قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من  
الفنون وسبتم غيرهم بفوائد جليلة اخذت عنهم واستفيدت منهم  
فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم  
او قريت من التكافؤ حتى هدأت الفتن وقل عددها وقصرت  
مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا قعدت ولا التهب نيرانها  
الا بسرعة خمدت على خلاف ما كان في الاعصر الخالية حيث  
كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاء صوارمهم ورماحهم  
الى غير ذلك من آلات المكافحة فكانت الحرب خصوصاً في  
العرب تنشأ من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتولد

من فتنة فتن يصطلي حرها خلق كثير وتطول مدتها فرما  
افامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما  
اهتدى الناس الى استعمال البارود والآت اطلاقه خمدت الفتن  
وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم  
الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وان  
لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملحاً في بعض الادوية  
ويسمون ملح البارود الابيض ويبردون به الماء بدل الثلج واستعمله  
المسلمون في حروبهم ومحاصرتهم بعد القرن الخامس من الهجرة  
وما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرّة الذي يستعملونه في تحرير  
محارب مساجدهم فيتعرفون به جهة قلبهم التي امرؤا باستقبالها في  
صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبتها ولا الاقطار  
لاستئثارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة  
بيت الابرّة سائر الناس حتى ان المسافرين برأً وبجرأ لا يستغنون  
عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم . وما ينسب  
لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة  
وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين  
يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان  
اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل . وما سبق باستعماله  
المسلمون الورق بدل القود واوراق الحوالات التي تسمى بالسقجة  
ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لحفة الحمل

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعلم العائدة بالنفع حفرهم الخليج العتيق المعروف بجليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمرو ابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنها وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالمشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت له مواع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة واولفة فمنعه عن ذلك ايضاً فساد اخلاق طوائف القزاق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً واخراً اذ رآه محباً للحق وفي الحكم منصفاً وبتقدم الملة الاسلامية في سائر الفنون معترفاً وزاد حبه له اضعاف ما كان وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفاً من ان يكون ذلك سبباً في حصول النفور بينها وكان الانكليزي مراقباً ذلك ايضاً قائماً بما يجب للشيخ من المحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينها هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي

ربما يشير الى الديانة بما يدنسها فلما قص عليه ما قص ولم يظهر من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدال ولم ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزا اليها استمرار التقدم بما اكتسبته في الزمن الخالي حتى صارت اساساً يعتمد عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والاستقبالي وانه لولاها لارتفعت من بين الناس موجبات الالفه والمسارّ وامتنعت عنهم اسباب التمدن واليسار فن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاوزاع

فخاض معه بجر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال . وما يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة . وكانت اليهودية في نير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة . وكانت المجوسية في بني تميم

واول من غير دين الحنفية عمرو بن لحي ابو خراعة وهو انه رحل الى الشام فرأى العماليق يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اصنام نستمرها فمطرنا ونستنصرها فنصرنا فقال اعطوني منها صنماً اسير به الى ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنماً يقال له هُبَل فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

واول ما كانت عبادة الاحجار في بني اساعيل وسبب ذلك

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فتنفروا  
 في البلاد وما من احد يظعن الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم  
 تعظيماً له فحيثما نزلوا وضعوه وطاقوا به كطوافهم بالكعبة ثم تناسلوا  
 فنسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا  
 الى ما كانت عليه الام قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفراً  
 تمتح به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره  
 واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب  
 الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لغريش وبني كنانة العزى وكان حجابها بني شيبه  
 وكانت اللات لتثيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف  
 وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق  
 ونسرف قيل انهم كانوا اسماً اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتقياء  
 عبادا فمات احدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً فراقوا ان يصوروا صورته  
 ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر ورصاص ثم مات اخر  
 ففعلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروه هناك واقام من بعدهم  
 على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحاً  
 عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لا تذرنا  
 آلهتك ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (الاية)  
 ولما عم الطوفان الارض طمها وعلا عليها التراب زمناً طويلاً ثم

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ودّ على صورة رجل وسواع  
على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس  
ونسر على صورة نسر

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده  
امةً واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المجيد ومن العجيب  
انكم معاصر الاوروبين تعلمون ذلك وتعزّون الى الاسلام تاخر  
النوع الانساني في المدينة

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب  
والاديان من التعصب والتخرب من قديم الزمان فكل يميل الى  
ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل  
فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بحواس المتدينين  
ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الا راي اسلافهم ولا  
يعلمون الا ما سطر في تاليفهم ولا يظاهون قوانينهم بقوانين غيرهم  
ولا قواعدهم بقواعدهم الا لتقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا  
يفرقون بين الصحيح والاصح والراجح والارجح واما انا فلست من  
هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محنمة ولا  
احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب  
على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه  
وتعالى لم يبعث الرسل عبثاً بل ارسلهم هداية من اتبعهم وما قصدت  
بفراقى بايدي واهلي واولادي وتوجيى الى بلاد المشرق واقامتى بمصر

وتعلمي اللغة العربية الآ الوقوف على حقيقة الملة الاسلامية ودرجة علمائها فان مؤلفات الاوروباويين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب مضلة واخلافات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمداً يقول ان النساء لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجاعند ذلك وقال مثل هذا لا يقال من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك كتب المفسرين وحملة الشريعة اجمعين لم يوجد فيها لمثل ذلك ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعبارة وقد قدمت لحضرتكم ان جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى ( وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجد يذكر المؤمنين الا ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الا ومعهم المسلمات ولا الصائمين الا ومعهم الصائمات قال تعالى ( ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها ) وقال تعالى من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقاتنين والقاتنات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

الله كثيراً والذكريات اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيماً ( هو الجنة وما فيها ) وهكذا في غير ما اية وان اردت ان اطلعك على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحتمية بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورفيقٍ ومولىٍ وعتيقٍ وقال صلى الله عليه وسلم ايما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحت زينتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحشر يوم القيامة عذراء طفلة فان كان زوجها مؤمناً فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمناً زوجها الله من الشهداء فكيف يتوهم فيمن اتصف بالعدل فضلاً عن اتصافه بالفضل ان يضع عمل عامل او يحرم الراجحي فضله الشامل

فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحبين دين الاسلام لكن ربما يمنعن شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واضر وهو اتخاذ الرجل منكم عدداً من الزوجات

فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين البصرانية في احياء العلوم الادبية ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما اختبتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحنياجكم اليهم كاحنياج المتعلم الى الاستاذ



واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا خاصاً بنا بل هو عامٌ لنا ولغيرنا ولم يمنعهُ الاطائفة النصارى فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوزون التعدد ايضاً فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانس الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشرير وداغوير الاول ثلاث زوجات ولم داغوير وهو قلودومير اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاد كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ يدسفاس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامرأة ثانية اذا اصيبت المرأة بداءٍ يمنعها عن القيام بحقوق الزوج جازله ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه لهصابة مؤنّها الضرورية

ولعل المحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفاس راعى الشرع جانبه لذلك واما حكمة الافراد التي عولتم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن الجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها تقطع ما تخشونه من المفسد ذريعة فقد يأتي زمن يمتنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واسقاط الاجنة

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكي نظرت في المصحف  
مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر  
بضرب النساء مع انه بخل بشرف الانسانية

فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منها  
خلاف ما كان يعهد على انه ليس له ذلك من اول الامر بل  
يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط  
ان لا يضربها على ان حسن العشرة المأمور به في القرآن ربما  
جعل التشديد عليهن مذموماً وصير من عاقبتن على كل ما فرط  
منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامسك بمعروف او  
تسريح باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احموا النساء على  
اخلاقهن . وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان  
يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلاً وقال بعض  
الصحابه للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال  
ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه  
ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت . ومعنى لا تقبح . لا تسمعها المكروه  
ولا تشتمها ولا تنقل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما  
يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل  
حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه  
المرؤة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص

الرجال كما نهبت على خفايا حدوده وابدت ظواهرها الشرائع  
وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء  
عبارة عن تخليتهن وما اشتبهن مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة  
شهواتهن واهوائهن على عقولهن

وبينماها يتجاوران اذا بضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة  
للولوصول الى الميناء فحي كل صاحبه بالسلامة وهما بالصعود الى  
البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر به صاحبه وبلغ  
باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين

---

المسامرة المحادية والعشرون  
كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطمان بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ  
ان غدا توجه البوستة الى مصر  
فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج له كتاباً  
هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة . وحق المهد والدر الذي لا يقوم  
مقامه الشهيد ومناغاني في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا  
خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقأ لعيني دمعاً ولم

تهدأ قلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم قراراً ولا لقلبي راحة  
 وكنت قبل ذلك اجهل الفراق والمه للجهلي باحواله ومشاقه وكنت  
 اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر  
 العرب وغيرهم اراني لا اذوق له معنى ولا افهم ما يراد منه بل  
 كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين  
 الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هوله  
 غريقاً

شكا الم الفراق الناس قبلي \* وروع بالنوى حي وميت  
 واما مثل ما ضمت ضلوعي \* فاني ما سمعت ولا رايت  
 فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار  
 احبابنا لو لقيتم في اقامتكم  
 من الصباية ما لاقيت في الظعن  
 لاصبح البحر من انفاسكم ييسا  
 كالبر من ادعي ينشق بالسفن

وما زادني قلقاً وشجوناً وأرقاً ما اراه في عالم المثال فتارة اراك  
 تعانقيني وتبيليني وتارة اراك نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة  
 ارى انك تصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والأمواج الى  
 الجوف قد امتدت وان الحق تعالى على خلقه غضب وكان السماء  
 تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع الا آيناً واستغاثة  
 وحينئذ وان الجبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكان الامواج تدفني الى  
 جزيرة وكان اقواماً اخذوني وهموا بتلي فاقوم من الفراش على قدمي  
 فاستعيز بالله وابسل ثم اعود ثانياً بقصد الرقاد فما ارى الحال الا  
 في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففني ليلة رايت ما  
 رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغنمض بنوم  
 فسالني عن حالتي فاخبرته بما وقع لي طول ليكتي فسكن روعي  
 وطيب خاطري بكلام رقيق اروني لك منه ما امكنتي حفظه قال  
 ما يمنع عنك ذلك وبيك التخيلات والاحلام ان تستحضر  
 وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من  
 العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضاريل انظر  
 لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك  
 يغير ما عندك من الانفعالات بضدها واصرف افكارك الى ما  
 يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف  
 واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني هي وارقى  
 تلك الليلة فقال يا بني كن في جميع احوالك كامل العقل متسماً  
 بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بها يعينك متجافياً عما يشينك  
 ويعينك قائماً بها يجب للناس من توفير كبيرهم وملاطفة صغيرهم  
 متحلياً بصفات اهل الكمال متخلياً عما يزرري بك من الاقوال  
 والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولذ بهن  
 يصلحك حاله ويرشدك الى الخير مقاله وغذ قلبك بثمرات العلوم

كما تغذي جسمك بما تستطيع من المشروب والمطعم ولا تكن  
 لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط  
 بعيد ولا تغتر بجلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطن وظاهر ولا يقف  
 على الفرق بينهما الا اللبيب الماهر فما كل ما يعلم يقال ولا كل ما  
 حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فبمدح  
 وتارة يضل عنه فيستعجب ولا ترو شيئاً من غير دليل فتكون كمن  
 يطب غيره وهو عليل ولا تثق الا بما ترى فائدته بديهية ومنفعته  
 عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن  
 غالب وقتك مستفيداً فوافق رايتك فاحفظه وما لم يوافق  
 مذهبك فالنظره واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات  
 وهية منشأها امور طرات عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم  
 علمهم بكيفياتها يصورونها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم  
 باسبابها يلبسونها ثياباً غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها  
 وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها رسموها فتتمكن من مخيلتهم  
 وتحل في وجودهم كحلول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس  
 بها ويتحول الفكر بكليته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها  
 فان كان ما تخيله خيراً عظم عنده شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ان  
 هناك اعظم منه وان كان شرّاً رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون  
 ويقدره المقدرين وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه  
 ليس في الامكان ابداع ما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

بقدر ما توهمه في المحالين ومن تكرر هذه الصور في القوة المخيلة  
 تزايد حتى تظهر لصاحبها كأنها من جملة الامور المرئية وتؤثر فيه  
 كأنها حقيقية وإن كان التأثير زائداً عن الطاقة تخرج منه مضار جسيمة  
 اما في العقل فيخلل واما في الجسم فيعتل حتى انه في بعض  
 الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايت في نومك من التمثيل  
 ليس الا من هذا القبيل لان الفراق امر لست معتاده فصورته في  
 نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن  
 فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس  
 والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يقظتك توهمته  
 وكذلك رؤيتك لوالدتك واخوانك وعماتك سببه تصور حيك  
 لم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقمتهم فلذلك  
 رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو  
 تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك والسحبين في عودتك لاسما  
 اذا راوك متحملاً مجلل الادب متصفاً بصفات اهل العلم والرتب  
 ولاحظت ما يصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع  
 مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمنزل هذه الوسوسة  
 بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدو والروح  
 وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار  
 تقديره ووكلوا امورهم الى تصارييف تديره عالمين بانه اللطيف  
 بحالهم الخبير بما يصلح لهم في حالهم وما لهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط  
الاندال حقر ومن جالس العلماء وقروم من مزح استخف به ومن  
اكثر من شيء عرف به ومن اكثر كلامه اكثر خطاه ومن اكثر  
خطاه قل حياؤه واحذر يا ولدي اذا وصلت الى والدتك وسألتك  
ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلي حبك عن تحقيق ما  
رايت او منعني شوقى اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في  
حال عماتي واخواني الصغار شوش فكري اناء الليل واطراف  
النهار بل قدر انك تقول لها رايت كذا ودريته ورويت كذا  
وفهمته وما كفاني ما كنت انعلمه بالنهار بل كنت اسهرتارة مع  
والدي وتارة وحدي الى الاسحار فعند ذلك تعظك وتجلك  
كثيراً . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمن قلبي  
وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشغلاً  
بالاستفادة مجتهداً في الاستزادة ومن تفضل الله علي اجتمعت في  
السفينة بشيخص انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية  
فوقع بيني وبينه مزيد الالفة وارتفعت بطول الصحبة من بيننا  
اسباب الكلفة





## المسامرة الثانية والعشرون

برهان الدين وصاحبه

(تمة من الكتاب)

فصرت ارتع معه في رياض العلم واتمتع من فوائده بما لم  
اجد عنه اعتياضاً فتشبثت بمجال وده وتمسكت وتعطرت بطيب  
اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة  
الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية  
اذ كشف لي من الامور معها وجلا عين فكري بعد عماها فتارة  
كان يحدثني عن سابق اسفاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادير وتارة  
يتخفي بالفاظ كأمثال الجواهر وكت قبل ذلك لا التفت لتنوع  
اساليبه بل كان جل ميلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان  
جميع ما يحكيه لا يخلو من فوائد اذا كان السامع نبهياً فقلت في  
نفسى لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب  
حررته لوالذي يكون بعضه من ذلك والبعض من فكري لتعلم  
ما علمت وتنف على قدر ما حفظت وتسلي بعباراتي عن رؤية  
ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الا اكتبته حتى جمعت من ذلك

جملة تصلح ان تسمى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ  
منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه  
واستفدته منه وابدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازمننا من  
الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن مينائها بنحو ميل نظرت  
الى الساحل والمدينة فوجدتها يصفران شيئاً فشيئاً كلما بعدنا  
وكت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسط  
راسي حتى صرت لا اراها الا كمنقطة سوداء في وسط ضباب او  
هلال شك في خلال سحب الى ان صرت لا انظر غير الماء  
والسحاب المسخريين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى  
واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئاً وكت ارى السحاب  
تارة ينعدم وتارة يتقطع وتارة يكون متفرقاً ثم يتجمع وتارة ارى  
سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء وتارة  
كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور  
والوان مختلفة تبهير النظر وكأنها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت  
محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد  
برهة من الزمن ينعدم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي  
الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واخلاف اشكاله  
وهيآته فارى الشمس ساطعة على وجه الماء لا يحجب نورها  
حاجب فعند ذلك ارى للماء الواناً لا حصر لها واذا كان البحر  
هادياً والريج في سكون رايت فيه من الصور والهيئات ما لا اراه

حين يكون الغيم او تهب الرياح فارى تلك الصور تمتزج مع بعضها وتتناقق ومنها ما يعلو بعضه بعضاً فما سفلى يمر في جهة وما علا يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصوات مختلفة كالحنين تارة وكالانين تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة تتمايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنفة ولكون هذه اول سفرة ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا اتحول من موضعي الا ابتداءً والدي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشاني لكنت اقضي الليل والنهار في مشاهدة هذه الاثار فبينما انا اتامل في اسرار هذه الآيات التي لا يحيط بعلمها الا عالم الخفيات واذا برجل من ملاحي المركب يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء واللطف اذ تجعل الافكار متجهة الى التأمل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا فأبن لي جليّ امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية عانيت فيها انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وساشرح لك قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته لعدم المسامحة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

مصر والجهات الشرقية اخذت في تذكاري ما نسيت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مامولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فانسلي بما يتقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف وما حملني على الميل اليه كون والدي مع صاحبه الانكليزي دائماً في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه اكثر ما استفداه مني كما سترينه وتيقنت ان ذلك سر دعاء والدي وبركة رضاها علي ولو ان كلام والدي فيه اكتفاء لكني كنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفت من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشغلت بكتابة ما كان يليق به وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازماً له لا يفصل ذاتي من ذاته الا اداء ما عليه من خدماته فانقضت مدة الجز على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدي ذات يوم وانا انظر الى البحر وتعجب من عظته وقدره مدبره واذا به قد نبهني بيده وقال لي فيم اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البحر فقال لي ليس هذا هو البحر لانه وان كان عظيماً لكنه صغير جداً بالنسبة لغيره من البحار اذ هو كحجول

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاذا وهل هناك بحار  
غير هذا فتبسم متعجباً ونظر اليّ مستغرباً وقال كانك لم تقراء علم  
الجغرافية فقلت وايّ علم هذا فضحك وقال هو العلم بسطح الارض  
وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار  
وما اخص به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم  
عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الا  
منك ولم اروه الا عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين  
دونوه واسسوه افتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع  
اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على  
الكرة من المخلوقات ويقف على حتمية كثير من الكائنات وبدونه  
تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذا يكون علم التاريخ عندكم  
مفقوداً فقلت له لا الا اننا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة  
بل نعهده من ضمن القصص والايخبار اذ ليس علماً يحتاج  
الى معلم فيمكن ان يقراه الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني  
عبس واعرض وطاطا راسه الى الارض وسكت ملياً ثم رفع راسه  
وقال الان علمت سر تهتمر الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل  
البلاد المشرقية وهوانها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من  
بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سبباً في سطوتها وعظم  
بطشها وتمكن قوتها وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل  
قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم ما

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت اسر غيرها فيجور  
 عليها ويذلها واعلم يا ولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيز الفرائد  
 اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في  
 سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء  
 بهم في احوالهم الا انه يحتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة  
 وحسن نظر وثبت يفرضان بصاحبهما الى الحق لان الاخبار اذا  
 اعتمد فيها على مجرد النقل فرما لا يامن فيها من مزلة القدم ومنفعة  
 علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل  
 مشير وسمير كل وزير وظهرير كل سمير اذا سئل عن خبر اجاب  
 وابدى فيه العجب العجاب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه  
 النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو  
 مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمان فكم فيه من حوادث  
 وامثال به تنقف على ما كان عليه اباؤنا واجدادنا ومشاهير كل  
 ارض وامة والحوادث التي مرت بين الامم وبعضها والفتن التي  
 اوجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها  
 والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فاجب تقدمهم وشهرتهم  
 ومن شرف فاجب فقرهم وفاقتهم فلم يترك سيرة ملك الا احصاها  
 ولا احوال رعية الا استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ  
 منه ما يلزم لصنعتة فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما  
 يريد به شرفه بين العباد وصاحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعتة

فهو يعسوب لكل فن والمفتاح لكل اثر حسن وغير حسن فناخذ  
 منه ما يلزمنا فنعلم المدوح فخبه والمذموم فخبنبه فهو المنبع والاصل  
 لاكتساب حلل الفضل والمحسن المانع من غوائل الجهل واهم  
 شي يجب تدريسه بالمدارس والامكاتب لتنبه ابناء الملة على صفات  
 الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويجوزون بها اعلى  
 الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند  
 النزال لمحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين  
 الذين اورثوا ملتهم ثمرات علمهم وعلمهم فيتعودون من الصغر على  
 الاتصاف بصفاتهم والافتداء بافعالهم ولا يكفي ان نتعلم الاطفال  
 كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك  
 اكتسابهم حب الوطن وتمريهم على ما سبق من حوادث الزمن  
 حتى يكونوا مثلاً وقدوة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق  
 يرغبون في الاطلاع على سير مخترعة وخرافات واكاذيب ونحو  
 ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثراً  
 ولا يروون عنه خبراً فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم  
 ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ  
 آلاف سنين اكثر من اعنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف  
 في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة  
 ارضهم وارض المدينة القاطنين بها  
 فحجبت من كلامه وتمنيت ان تكون تربيتي حسب مرامه

فحين رأى ذلك مني اراد ان يذهب المحجل عني . فقال لا باس عليك فانه لم يهتد بنفسه احد وليس التقصير من قبلك وإنما اللوم والمعنة على من نُصبت له اعلام الهداية وهو ينظر فلم يدل عليها وبانت له غاية الرشد فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائده التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت له الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد به الكسل وهو يرى نجاحه وامير اخذ هتمه الاغفال واخمل ذكر مساعيه الاهمال وكل راع عن رعيته مسئول وكل طالب ماخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دلت طالباً ونهيت نائماً وعرفت مجهولاً وانلت مسئولاً وفتحت لي ابواب الطلب وشدت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشيء بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العمل جار فيها على ما وصفته ومسلوك بابنائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتسابقت في رضاهم امالم واستحق ولانها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا الو جهداً في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له



ما مرارك وبم يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت  
من صدره بعض الالين ثم رفع راسه مصعداً انفاسه وقال  
الانسان متعجب ولا عتب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى  
الاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعتراف فليس لي  
امنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اتمت بهذه المنازل  
الكاراة الفارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي  
وارجوك ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني  
ارغب الدخول في جملة والتكن من الاقامة بخدمته فوعده  
بذلك واقبلت عليه مستخرجاً بالسؤال مكنون ما لديه فبادر  
بالاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلاماً اجمالياً  
من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون  
كالمقدمة المشوقة الى الاعناء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس  
وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من  
الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كأنك تنظر من  
مكانك الى جميع بقاع الارض وبجارها وانهارها وجبالها فظهرت  
الابتهاج بحسن نيته واثبت على لطف اخلاقه وحسن سخيته  
واخذت القلم لاكتب ما يليه لاتذكر ما سمعه منه واعيه فلم ينطق  
بكلمة الا اكتبها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي  
سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس  
علي واميلهم لاىصال كل خير الي ليزيد سرور والدني بما حصلت

عليه من المعارف ولتاخذ في تلقيج افكار اخوتي بما يكون محمود  
العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع  
من طرح بعض المعارف الاولية في اذهان الصغار فانه يكون  
كالبذر يلقى في الارض الثنية يرحي ان تظل اشجاره وتجنبي باطراف  
الانامل، ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتمل على اجل  
مرغوب ومطلوب

---

المسامرة الثالثة والعشرون  
الجغرافية والتاريخ  
( تمة من الكتاب )

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون  
في اكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان  
الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل  
مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء المحكم المشهور  
ارسطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشتغلين بهذه المسألة حتى صار العلم بكون الارض كرة من قبيل العلوم الضرورية الآن فيها نوع انخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة . وقطباها عبارة عن القطبين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار وموقعها من الفراغ على بعد ( ١٥٢٨٨٨٢٥٠٠٠٠ ) ميريامتر من الشمس وتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين يوماً وخمس ساعات وثمانى واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانية وتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف المحيط الواصل بين قطبيها ٩٤٢ ٦٢٥٥ متراً وقدر نصف قطر دائرة الاستواء ٦٢٧٦٨٥١ متراً ومساحتها ٥٠٩٨٨٥٧ ميريامتر مربع ( والميريامتر ) كلمة افرنكية معناها عشرة الاف متر وهي عبارة عن ٢٨٢٢ قصبه وحجمها ٦٠٨٢ ٦٢٤٠٠٠ ميريامترمكعب وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره ( ٥٦٠ ) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقية وهي ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الارض ويختلف سمكها من اثنين من الميريامتر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

وان لم يصلوا الى روية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض الامور الارضية كالمايا الحارة النابعة من جوفها وجبال النار والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضاً وان لم يتعمق الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب طبقات الجبال الشامخة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر مثلاً يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية مختلفة التركيب والسلك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية (أي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سموا كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس مستويًا وان به محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة والتمارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها واما لقوة فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني التارة هو المسكون وينقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

ذلك والمنخفض منها ينقسم أيضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك  
وسعة الأرض اليابسة ١٢٦٦٢٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور  
٢٤٨٥٢٠٥٨ ميريامتر فجميع الأرض اليابسة لا تزيد عن ربع  
سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والأرض القارة تفصيلات  
وأقسام لها أسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى  
ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وإنما نقول ان الأرض القارة  
كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقيها فما  
ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الجبل وان كان قليل  
الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى  
مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في  
بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه  
الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية تمامها ولا بد لكل جبلين  
من وهدة بينهما اما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها  
الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الأنهر والمخجان فتسير منها  
حتى تنصب في البحار فنابع الأنهر من الجبال ومصباها في البحار  
ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يخص  
بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة  
خط الاستواء ونقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان  
من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفأوهي تنقسم الى قسمين  
الاول النباتات اللابزرية وهي نباتات عديمة الفلقة البزرية

كالشبية والحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزيرية وهي التي لها فلتقة بزيرية كالمخنطة والنخل . والذي علم من اصناف الحيوان قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفصليّة وهي مركبة من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه اليد وهو في البحر انتقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع الارض فجميعها مسكنه ومحل سلطانه وهو وان كان نوعاً واحداً لكنه ينقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالتوقاسى نسبة الى قوقاس ويقال قوة قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو جبل في بلاد الجركس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشمه وضيق الفم واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة القحف ولين الشعر وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد اوروبا ونسلم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس

واليهود والسريان والنتار وهو في شمالي اوربا وأوسط آسيا  
 يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى  
 قوقاس لان اهل تلك النواحي اي الجراكسة والكرج اجمل اهل  
 الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصيه القسم الثاني الاصفر  
 ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من التتار ويقال انهم  
 في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز  
 بكونه اصفر البشرة مربع الخف مخروطي الجبهة عريض الوجه  
 مفرطه ناتيء الخدين اسود العينين ضيقهما مع ميلها الى الجهة  
 الوحشية صغير الانف ابطسه خفيف اللحية اسود الشعر قليلة مع  
 الحشونة وهو اقصر قامة من القسم الاول ومنه اهل الصين  
 والهند وياپان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي  
 امريكا غير ان سكان امريكا المعروفين بالاسكيو لهم تعلق بالقسم  
 الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اختلاط القسم الثاني والثالث .  
 القسم الثالث الاسود وهو يمتاز بسواد البشرة وله ثلاثة فروع  
 اولها الملتقي نسبة الى شبه جزيرة ملقا و يمتاز باللون الزيتوني  
 وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف  
 ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه  
 فرع من القسم الثاني المتقدم ثانيا الاميركاني و يمتاز باللون النحاسي  
 وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع  
 عظم الخد وطول القامة ومنه سكان امريكا الاصليون الذين

وجدوا في الفارّتين الغربيّتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك  
 ثالثها الزنجي ويمتاز بشدة سواد البشرة وجعودة الشعر وسواده  
 وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم التحف وفطس الانف وعرض  
 الخد واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخرطوم  
 وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان اواسط افريقية وجنوبها وهذه  
 الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض وتنج من ذلك  
 فروع عديدة يتعسر المحاقها باصولها والانسان وان شارك غيره  
 من الحيوانات في كثير من الصفات الا انه اخص بامور كثيرة  
 منها حسن الصورة واعندال القامة والتسلط علي ما في الارض  
 والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط  
 به نطاق العبارة واعظم مميزات العلوم والادراكات بما ركب فيه  
 من القوى المدركة التي بها يميز الحق من الباطل والحسن من  
 القبيح فيعلم بافكاره جميع احتياجاته ويعبر عنها بالنطق فالتكلم  
 حينئذ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتتم  
 الالفه وحسن الخصال





## المسامرة الرابعة والعشرون

### العبادات

( نعمة من الكتاب )

وجميع افراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل وبتسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحنه طوائف ومذاهب كثيرة القسم الاول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الا واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا له  
القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة وتحت هذا القسم فرق

متعددة

الاولى جعلت لبعض الكواكب تأثيراً فعبدوها وكان ذلك كثيراً في الامم السالفة ولا يوجد الآن الا عند القليل الثانية جعلت صفات الالهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم المتمدنون من الامم السابقين وقد انقطع اثرهم بالكلية الثالثة تقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وحيوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسمون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الا انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء به موسى وانبياء بني اسرائيل ويتظرون المسيح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبياء وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليوناً تقريباً ولا فرق بين الكيستين الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائباً عن المسيح اولا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويقتدون به في فعله وعددهم مائة واربعون مليوناً والثاني البروسطانت وهؤلاء لا يقولون الا بما في الانجيل وعددهم ستون

مليوناً ويجيزون زواج الفسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى مذهبين احدهما اللوتيري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز ونبذ يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انهما يستحيلان الى جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذا المذهب يقولون تفاوت درجات الفسس بخلاف اهل المذهب الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم مثلك وانما احب ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد افترقت وانقسمت كغيرها حسبما اخبر به صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة وطريقة واحدة الا من كان يبطن النفاق ويظهر الوفاق ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في امور اجتهادية لا توجب ايماناً ولا كفراً وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

التويم وذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او المقدس حتى سمعوا ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل وصفين ثم اختلافهم ايضاً في بعض الاحكام الفروعية وكان الخلاف يتدرج ويترقى شيئاً فشيئاً الى اخرايام الصحابة حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يتشعب والآراء تتفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من الخوارج) وجماعة اخرى يرجئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل انا لا اقول ان صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وثبت له المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزلنا واصل فلذلك سمي هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان القدم اخص

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات  
الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير  
مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شايعوا علياً رضي الله عنه  
وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جلياً واما  
خفياً واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت  
فاما بظلم يكون من غيرهم او بنقبة منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج ومنهم الذين خرجوا على عليّ عند  
التحكيم وكفروه فسموا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من  
نصب من قریش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام  
وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا به لانهم يرجئون العمل عن  
النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون  
لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة التجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم  
يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله  
ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الروية وحدوث  
الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة له اصلاً ولا مؤزرة ولا كاسبة وهو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بال مخلوقات

الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجعلوا على حدوث العالم ووجود الباري سبحانه وانه لا خالق سواه وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لا شبيه له ولا ضد ولا ند ولا يجلى في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثاره فبفضله وان عاقب فبعده لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف فيما يفعل او يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا له حد ولا نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق وكذا المجازاة والمحاسبة والصراف والميزان وخلق الجنة والنار وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل

المحنة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا تكفر  
 احداً من اهل القبلة الا بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او  
 انكار للنبوة او لما علم محيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه  
 كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالفائل به مبتدع غير كافر  
 وهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات  
 ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة  
 الا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وائتاء  
 الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص  
 لله عز وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال  
 ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الاهل والعيال  
 والمحرم مثل الغش والغيبة والتميمة والحقد والحسد والاضرار  
 بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بحجة والمندوب مثل اصطناع  
 المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم  
 به ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة  
 والتفصيل يحتاج الى التطويل واريد ان تعود الى تفهيم ما بدأت  
 من الكلام فما المعروف الا بالتام



## المسامرة الخامسة والعشرون

### الانسان وهياة الاجتماع

( تمة من الكتاب )

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان وديانته بما انساق به القول الى هذا المقام والان نقول ان هذا النوع الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان وركبه على صورة لا بقاء له عليها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وتحصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من المحنطة مثلاً فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لا يتم الا بكثير من اهل الصناعات كالحداد والتجار والفاخوري وغير ذلك ولو فرضنا انه يأكله حياً من غير علاج فهو ايضاً يحتاج في تحصيله



حجاً الى اعمال كثيرة كالزراعة والمحصاد والدرس الذي يخرج  
الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات  
متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي  
قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحيثئذ لا بد من اجتماع القدر  
الكثير من ابناء جنسه فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لضعافهم  
وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء  
جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم  
القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة  
اكل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان  
بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته  
ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوانات جعل لكل واحد منها  
عضواً لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضاً  
عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهينة للصنائع خادمة للفكر  
والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في  
جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النائية عن القرون الناطحة  
والسيوف النائية عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر  
لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لاسيما المقترسة فهو عاجز  
عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضاً باتخاذ الآلات المعدة  
للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة  
لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

لتم حكمة الله تعالى في بقاءه وحفظ نوعه والألم يتيسر له  
غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحوانات  
وطعمة للطيور ويظل نوع البشر فاذا وجد التعاون حصل له  
القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري  
للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع  
ورادع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان  
والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحوانات العجم كافياً  
لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فحينئذ لا بد لهم  
من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون  
من غير جنسهم لقصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين  
ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى  
يتمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص  
للعاجز من القادر ويتصف المظلوم من الظالم فينكف شربعضهم  
عن بعض بعدله ويعم الأمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى  
الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزاً عنهم بخواص  
حتى يقع التسليم له والقبول منه لينفذ حكمه فيهم وعليهم من غير  
انكار ولا تزيف ولكن لا يتم عز هذا الملك الاً بالشريعة والقيام  
لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الاً بالملك  
ولا عز للملك الاً بالرجال ولا قوام للرجال الاً بالمال ولا سبيل  
الى المال الاً بالعارة ولا سبيل للعارة الاً بالعدل والعدل هو

الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعله له قيا وهو الملك ولذا يقال لا ملك الا بالمجد ولا جند الا بالمال ولا مال الا بالخراج ولا خراج الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل ولا عدل الا باصلاح العمال ولا تصلح العمال الا باستقامة الوزراء وراس الكلك نقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تادييها حتى يملكها ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثاني كلمات حكيمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارترد اعجازها على صدورها فلا يتعين طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتخفظي صورتها مع الورق الذي عندك في الدولاب

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين . الاولى الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضاً لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها . الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو ان يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك وهذه ايضا تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان يكون الملك مقيداً بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى هوى نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي من ذلك يحكم برايه ويتصرف بهوى نفسه فيكون . رايه شرعية المملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

ولا بد لكل دولة من ايرادٍ كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم وارضيتهم او على ما يتجرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالمكوس والجمارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدان ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادئ احوالهم قبل اختلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الا عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبددة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالباً على شواطئ الانهر والبحار وتارة في المواضع المرتفعة من الودية وفي النادر فوق الجبال وازدياد التمدن اتصلت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولاً في المواضع المنخفضة من الودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق مقاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الا اخيراً ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الخيجان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وضار

توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة أحواض تعمل في محلات تقاطعها  
وأتصالها بغيرها ( وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف  
حوض ) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للأرض بسبب اختراع  
الطرق القاطعة لها نتج أعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود  
والفصل بين المتجاورين من الأمم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود  
الطبيعية أحسن فائدة لان بها يتم شروط الأمن والملكية وأحسن  
الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالأجر ثم ما كان بالجبال  
ثم الأنهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل  
الأمن بين الأمم المختلفة اضطرت الناس إلى تكميلها بموانع صناعية  
فشاء من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسمان  
ثابتة وغير ثابتة فالأولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة  
ومؤنة كبيرة وتكون على رؤس الأودية وسواحل البحار والأنهار  
ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية  
أو فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سواء كانت صناعية  
أو طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب إلا إذا استكملت شروطها من  
الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلاء  
عليها من غير أن يكون عرضة للأسر والتلف والخطر والثانية  
أعني غير الثابتة هي السفن البحرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة  
وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والحماية عن الدولة والأمة بل  
لا بد من طائفة من رجال الأمة يقومون عليها ويدافعون عن

المملكة واهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون  
عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل  
جهة تؤمر بالمسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية  
واما ان تكون رديفًا يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا  
مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في  
البحر وتلجى البرية في نقلات احوالها الى القلاع والحصون  
الارضية وتلجى البحرية الى الميناء المحصنة قال ولذلك تفاصيل  
شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وسنصل  
ان شاء الله بالتدرج للغاية



## المعامرة السادسة والعشرون

خنام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه عليّ من هذه المسائل كتبتّه لئيتفع به اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك واتحاي في بريق لفظك ولا تكتمني عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والذي مع صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والذي بعض دروسه وانتقل ما اجده في كراريسه واما الخواجا فانه رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه ما يخل بشرفنا الفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الا جابها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجنبها أحلّ والذي في رأيه وغرضه محل سنته وفرضه فشكر الله مسعاه ووقفه لطريق الصواب وهده وان سألت عن اقامتنا في السفينة فاقول ان القمرة التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزنة صغيرة تزيد في

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء  
بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات  
متفولة خوفاً من دخول الماء وبكل قهرة فرش للجلوس والنوم  
على حسب عادة القوم وفيها اباريق وآنية معدة لما عساه يحصل  
من القيء وما يعترى الانسان في بعض الاوقات من الشئ  
ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان الجرح مدة السفر كاد ان  
يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة  
فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين  
وذلك في ابتداء الامر وكانتا خيفتين وعند دخولنا السفينة  
وصعودنا على ظهر الجرح شمننا له روائح مائية رديئة اعدمت منا  
شهوة الاكل فتركناه بالكليّة الى ان قال لنا الانكليزي على وجه  
النصيحة بسبب ما تعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب  
السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية  
اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى  
للانسان ان يتحايل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه  
ليشتمد ويقوى على حركة الجرح واضطراب السفينة فامثلنا وفعلنا  
واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القهرة تضايقتنا وترتيب  
فراش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شيء شبيه بالدرج على  
قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل، والذي  
وكت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والذي حفظه الله



الا ان انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما  
الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للاكل في  
اليوم والليله خمس مرّات وكانت الاطعمه حسنة نظيفة الا انها  
قليلة الملح والنعج فكانا نعافها لعدم اعنيادنا على مثلها في بلادنا  
وكان ائتمادنا في اغلب الاحيان بالمجن والزيتون والسّمك  
المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا  
ادري اهو من الحنطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما اكلناه وكثيراً  
ما سمعت والدي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا  
خبزاً غيره من الاسكندرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار  
يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها  
والدي وانا اتولى طبخها بيدي وأكثر لنا من المريات  
فكنا نأتمم بها في بعض الاوقات وبالجملة فقد انتضت ايام  
السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والان وصلنا نغر  
مرساليا وبعد ثلاثة ايام تقوم ونركب عربة السكة الحديد  
وتتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيين فاذا  
وصلنا الى هناك بعون الله ومشيتته سطرت لك خطاباً غير  
هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الآن ورجائي ان يدوم لي حسن  
رضاك في جميع المحال والاحوال فهو لي نهاية الامال وراس مال  
القبول والاقبال وارجوايضاً ان تبلي اذكي التحيات الى اخواتي  
وعماتي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

ولقاءه وارجو منه ان يقر لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى  
يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن  
الاحوال امين والحمد لله رب العالمين

ثم انه ختم الجواب وظرفه واذا بالخواجا دخل عليه وسأله  
عن الوالد فقال له ان عنده بعض فتور وقد اضطجع في فراشه  
ليستريح فان شئت ذهبت اليه لانيه فمنعه عن ذلك وقال  
اني متظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك  
ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى  
والدتي بمصر باذن والدي واريد ارساله اليها فارجو ان تفضل  
بتوصيله الى البوسطة فقال حبا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله  
وانصرف

انتهى الجزء الاول



# فهرست الجزء الأول

من كتاب

## علم الدين



صفحة	المسامرة	في
٠٠٣		مقدمة الكتاب
٠٠٦	الأولى	المنفر
٠٢٢	الثانية	المنفر والعودة
٠٢٨	الثالثة	الزواج
٠٤١	الرابعة	العيلة
٠٤٤	الخامسة	محاورة
٠٦٩	السادسة	السائح الانكليزي
٠٨٨	السابعة	المكة الحديدية
١٢٢	الثامنة	طنطا
١٤٩	التاسعة	الموالد والاعباد والمواصم
١٦٤	العاشر	شنى
١٨٥	الحادية عشر	الخانات واللوكندات
١٩٩	الثانية عشر	النساء
٢١٥	الثالثة عشر	البوستة

ب	المعامرة	صفحة
	الرابعة عشرة المكتوبة	٢٢٠
	الخامسة عشرة الملاحظة	٢٢٧
	السادسة عشرة التعلم والتعليم	٢٤١
	السابعة عشرة البحر وعجائبه	٢٥٨
	الثامنة عشرة البراكين	٢٨٥
	التاسعة عشرة شذور	٢٠٢
	العشرون العرب	٢٢١
	الحادية والعشرون كتاب برهان الدين	٢٤٧
	الثانية والعشرون برهان الدين وصاحب (نممة من الكتاب)	٢٥٢
	الثالثة والعشرون الجغرافية والتاريخ (نممة من الكتاب)	٢٦٢
	الرابعة والعشرون العبادات (نممة من الكتاب)	٢٦٩
	الخامسة والعشرون الانسان وهياة الاجتماع (نممة من الكتاب)	٢٧٦
	السادسة والعشرون ختام كتاب برهان الدين	٢٨٢



## تفريظ الكتاب

ما تنسج الأيدي بيدي وإنما يبقى لنا ما تنسج الأفلام  
 الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين  
 وبعد فاني تصنعت هذا الكتاب بل العجب العجيب الذي نسبت للشيخ علم  
 الدين روايته وأسندت للأصحح الإنكليزي حكايته فوجدته نزهة للناظر وسلوة  
 للناظر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وأنشراح تعرب مبانیه عن لطف  
 معانيه وتفسح روائع المناظر الرائقة عن بدائع مضامينه النافقة وبشهاد لمولاه  
 بعلو المندار ولما صنفه بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب الفنون ونفائض  
 الجد والمجون الضب والنون وقرن الى اسنى المقاصد اشرف المطالب فصح  
 انه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن  
 وجه مخدرات العلوم البراقع واطاف الى ذلك من حكم المحكماء ما اغنائه  
 القدماء. وشحه بلطائف النوادر وما تفردت به الأواخر واظهرته في هذا  
 الدور الاخر فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني  
 المبتدعات نافع يتنقل من فصل الى ضد وبحكم الوصل بما ابداه من عند  
 فكان مولاه الفضال يقول فيه بلسان الحال

تصدت في اتعاب فكري لجمعه فجاه كتابا في البها لا بشارك  
 وكنت بحمد الله فوه موفقا فإسمي علي في الانام مبارك  
 فله در من انشاء وبطراز احسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك  
 طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكبت حاسد  
 وشانيه ولا زال متواصل البقا دائم الارتقا بهجة لليالیه وإيامه بزین الوجود  
 بانثار افلامه مغنما للثناء الجميل والاجر الجزيل بجرمة سيد الانام الذي  
 بحسن بذكره البدء والختام

وكتبه الفقير المعترف بالنقص تراب اقدام العلماء عبد التحليل بن  
 عبد السلام زاده المدني في اواسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين  
 والى بالمحرسة حامدا مصليا















# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثاني

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢





بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والعشرون

التيارات

ثم قام برهان الدين وتوجه الى والده فوجده استيقظ  
من النوم فاخبره بما كان فقام وتوضأ وادى الفرض كعادته ثم  
توجه الى الانكليزي فحياه وبالسلامة هناء وقال له كان توجهي  
لجنابكم لادعوكم في هذه الليلة الى التفرج في التيارات  
فقال الشيخ كان بودي ان ارافقك ولا افارقك ولكني ارى  
ان لا اخرج في هذه الليلة فاني اجد في جسми بعض فتور  
فقال الانكليزي لا باس عليك واطن ذلك من اثر مشقة  
السفر فاذا نمت الليلة واسترحت اصيبت ان شاء الله في عافية

ونشاط وإلا ان اذالم تردان تكون معنا فارجوك ان تاذن لبرهان  
الدين ان يكون بصحبتى ليتفرج على التياتر وكيفيته  
قال الشيخ ذلك اليك ولكن احب منك ان تصف لي  
بعض امر هذا التياتر

فقال الانكليزي التياتر عندنا عبارة عن محل تجمع فيه  
جملة من الخلق مختلفة في الثروة والافتقار لاجل التفرج على  
انواع مختلفة من العاب منتخبة من آثار بعض المشهورين من  
العلماء والشعراء والعقلاء والبلغاء فيتشكل بحسب الالعب التي  
يراد اجراؤها فتارة تكون عبارة عن تصوير بعض وقائع حربية  
ومبارزات شخصية وقين ملية وتارة تكون عبارة عن عوارض  
حدثت في بعض الجهات اولى بعض الناس من الامراء والملوك  
وغيرهم كالعشق والفرق والفقر ونحو ذلك مما يجدثه الزمان في  
تقلباته وقد تكون هذه الالعب مؤسسة على تمثيل بعض امور  
وردت في الكتب الدينية كوصف يوم القيامة وما يكون فيه  
من الاحوال ووصف الطوفان وما جرى فيه على الوجه المذكور  
في الكتب المقدسة وتارة تكون مخصصة بالصفات النفسية والشهوات  
الذاتية كالكرم والنجل والحلم والعدوان والكبر وما اشبه ذلك  
وقد يتعاقب في بعضها جملة من انواع الالعب كالمجد والهزل  
والفرح وغير المفرح وقد يكون مخصصاً بنوع واحد ولكل علامة  
يعرف بها وفي بعض الالعب لا يستعمل الا اللسان المتعارف

والانفاظ المعتادة وفي بعضها يستعمل النثر مع الشعر وفي البعض لا يستعمل الا الشعر وتارة يكون النفاذ الكلام فيها على وجه التغني مع موافقة اصوات الآلات الموسيقية وتارة يكون على وجه النفاذ المخطبة او على هيئة المخاطبة والمخاورة واذا كان للعبة احوال جعلوا لها فصولاً بقدر الاحوال التي تعترضها وتراهم يصورون الملعب في كل حالة وواقعة بهيئة تناسبها وتليق بها على وجه المحاكاة لمحل وقوعها فان كانت الواقعة في ارض ذات انهار واشجار وبيوت وقناطر مثلاً صوروا المحل بهذه الهيئة بعينها وهكذا اذا كانت في صحراء بها جبال وصخور ووحوش وطيور او في بحر له امواج كثيرة وسفن صغيرة وكبيرة او في وادٍ كثير المسالك وهم جراً الى غير ذلك وفي كل نوع يظهر اللاعبون بالهيئة التي كان عليها الناس حين كانت المحادثة من ذكور واناث وصغار وكبار بملابسهم وهيئاتهم واحوالهم وكنفياتهم واشكالهم فان كانت الواقعة حربية مثلاً هيئوا احوال الحرب والضرب والقتال والنزال وصوروا الكر والفر والاقدام والاحجام والزحف والادبار والغلبة والفرار واشهروا السلاح وهزوا الرماح وصفوا الصفوف وضربوا بالسيوف ورموا بالمدافع والبنادق كاشال الصواعق وزفَعوا البيارق والسناجق وعبروا الخنادق حتى يتخيل المحاضرون من حسن السبك ان ذلك حقيقة بلا شك اذ يرون الخيل وهيئاتها والرجال وكنفياتها وينظرون فيرون سماء تارة

نظهر وتارةً تغطي باذيال الدخان او ستور السحاب وتارة  
تظهر الكواكب بها للعيان وتارة تتوارى بالحجاب وينظرون  
الى ارض الملعب فيرونها في بعض المواضع غاصة بالشجر  
والغابات وغير ذلك من الهيئات والخلق في خلالها بين قتيل  
وجريح ومتماسك وطريح الى غير ذلك ما تتعصيه حال الوقائع  
وتستدعيه محاكاة صورة الواقع

فقال الشيخ الى اي وقت يمتد اللعب في التياتر . قال  
يمتد في العادة الى نصف الليل ومن العادة ان يكون اللعب  
على عدة فصول تفصل عن بعضها ببرهة خفيفة تخلل بين كل  
فصلين منها لاجل استراحة اللاعبين وتجدد نشاط المتفرجين  
وعلاوة ذلك الانفصال ، سقوط ستارة تحول بين اللاعبين  
والمفرجين وهناك محلات للاستراحة وشرب القهوة والدخان  
وغير ما ذكر وفي اثناء ذلك يستعد اللاعبون للفصل اللاحق  
فان كان هناك لعبة جديدة هيئوها وهيئوا ادواتها واستعدوا  
واعدوا المحل لها وفي تلك المدة ايضاً يذهب كل من المتفرجين  
الى ما احب فمنهم من يذهب الى محل الشرب ومنهم من يقوم  
للمحادثة مع بعض الاحباب ومنهم من يخرج ثم يعود اذا كان معه  
ورقة الباب وعلامة الاجتماع ضرب جرس يسمعه المتفرجون  
فيعودون لمحلاتهم ويجتمعون فترفع الستارة فيرون المحل على  
الهيئة التي يراد تصويرها



وكان التياتر عند المتقدمين عبارة عن ارض متسعة يحيط  
 بها درابزين وعمد وهي مسقوفة بأقمشة للوقاية من العوارض الجوية  
 وكان يسع نحو عشرين الف نفس يجلسون على درج يعلو بعضها  
 بعضاً منفصلة عن بعضها لسهولة المارين من بينها وبها سلام  
 للعود والهبوط وشكله عبارة عن جزئين جزء مستطيل يجلس  
 عليه ارباب الموسيقى وجزء مستدير وهو المخصص باللعب وكان  
 يشتمل على بعض محلات لتغيير اللاعبين ملابسهم وتحضير ما  
 يلزم للعب

وفي هذه الاعصار المتاخرة زاد الاعناء بمحلات التياتر ودخل  
 فيها كثير من التحسين والزخرفة والتزيين حتى صارت معدودة  
 من العمارات الشهيرة في الرونق والزينة والزخرفة واللطافة  
 والطرافة داخلاً وخارجاً ولذلك عدة مبان شهيرة صرف على بنائها  
 وزخرفتها اموال كثيرة فمنها ما صرف في انشاءه قريب من مائتي  
 الف كيس كالأوبره بباريس ومنها ما صرف عليه اقل من  
 ذلك وكانت عادة اللعب عند المتقدمين مدة النهار فقط وقد  
 غيرت تلك العادة الان وجعلت في الليل وهو اوفق لانه وقت  
 التفرغ من الاشغال العمومية والاسباب المعاشية فيجب الانسان  
 ان يتروح بالتلذذات الدنيوية والملاهي ليستريح من الآلام التي  
 اعترته نهاراً من الاشغال الضرورية ولم يكن اوفق لذلك من  
 الليل ولم يشتهر امر التياتر ببلادنا الا من ابتداء القرن السادس

عشر من الميلااد وبسبب ما وجد فيه من اللذة للامراء وعموم الناس مالت اليه الملل الاوروبية كل الميل واحدثوا فيه انواعاً مختلفة حتى تقدم تقدماً عظيماً وصار من ضمن اسباب الرزق لكثير من العلماء والشعراء والمشتغلين بتركيب الحكايات والنوادر والامثال ومن مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق والطباع وعلى حسب درجة التياتر وعظمه يزداد عدد الموظفين به فيكونون قريباً من مائتين وخمسين نفساً من النساء والرجال وذلك كما في الاوبره واقل من ذلك في غيره واذا توقفت ادارة المشهور منها على المساعدة ساعدت الحكومة اربابه على حسب ما يلزم من الهيئة والاهبة باموال عظيمة ربما تبلغ نحو الالف كيس سنوياً فترتب على ادارته والاعناء به اشتغال افكارهم حتى كاد ما اخترع والف في هذا المعنى من الكتب والحكايات يزيد على ما هو مكتوب في باقي العلوم والفنون وكما يوجد من التياتر عدد كثير في المدن الكبيرة كذلك يوجد في المدن الصغيرة وفي قرى الارياف خصوصاً البلاد المعتاد بها نصب اسواق او ما يوجب اجتماع الكثير من الناس كالاعبياد والموالد وقد تكون في القرى داخل خيم او في محلات مستورة بالاخشاب ولا يمنع احد من دخول التياترات فيدخل الغني والفقير والعظيم والحقير وانما يدفع كل انسان مبلغاً مقدراً على حسب الدرجة التي يرغب فيها فان رغب في الدور الاول دفع اكثر من الثاني او في الثاني اكثر من الثالث او في

المحجرات المخصوصة دفع أكثر من على الدكات وتفاوت الاجرة على حسب تفاوت الدرجات من نصف فرنك الى عشرين فرنكاً فقال الشيخ لولا ما ذكرت من كمال انتظام التياتر وحسن احواله وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق لخطر في البال ان ما يحصل به من التقليد والتمثيل والالعاب المتنوعة من قبيل ما يكون في بلادنا من العاب الطائفة المعروفة باولاد رايه وما يكون فيه من الاعاني والالحان ايضاً من قبيل ما يكون عندنا من غناء المغنين والمغنيات فاما اولاد رايه فانهم يدخلون في تقليد بعض احوال حاضرة او امور ماضية ياخذون في تمثيلها وتصويرها وبرزها في معرض المحسوس المشاهد سواء كانت اموراً اختراعية وهمية لا مستند لها سوى الخيلة ام كانت اموراً حقيقية حصلت في الواقع ونفس الامر وقد يكون لهذه التقليدات في بعض الاحيان نفع في الجملة بان يدخل فيها تعبير واقعة سيئة حصلت في الزمن الحاضر او الغابر من بعض الناس فيبرزونها في معرض التشنيع والتفضيع مفرغة في قوالب الهزل والسخرية فيضحك منها من يراها وقد يراها من كانت حصلت منه او من هو على حال مثلها فيستنكف ان يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت مثلاً وضحوكة لاعالي الناس واسافلهم وتكره نفسه بالضرورة ان يكون معروض تقليد هؤلاء القوم وموضوع اضاحيكم فيكف عن تلك الحالة القبيحة ويرجع عن معاودتها وياخذ نفسه بالاقلاع

عنها فهذه غاية ما يلتمس لهم من المزية والفائدة الا انه قليل نادر  
 كالمعدوم وغالب احوالهم على ما سمعته عنهم ورايته في بعض  
 الاحيان منهم مبني على الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس  
 وتجهه الطباع من الافعال الفظيعة والاقوال الشنيعة التي ينفر  
 منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء  
 والحشمة وقد يطلع على هذه الاقوال والافعال بعض الاغرار  
 من الرجال والصبيان والاطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد  
 اخلاقهم وتغيير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا يعزل  
 عنه من فحش القول وشنيع الفعل وقد قال الله سبحانه وتعالى  
 ( لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ) فلو خلا اللعب عن هذه  
 التبايح لكان ما لا ضير فيه اما على تلك الصورة فهو مذموم منكر  
 مضر ولهذا ترى اهل الورع والتقوى عندنا يتحامون مواضع هؤلاء  
 الجماعة ويكرهون غشيانها وقد رايتهم انا عند بعض الجيران  
 فنفر منهم طبعي ومجهم بصري وسمعي

واما الغناء عندنا سواء كان من الرجال او من النساء فلا  
 يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة وانما هي في الغالب  
 كلمات غرامية من الشعر او غيره من الفنون يرددها المغني ويترجم  
 بها مع رعاية تحسين الصوت واجادة الاداء والاتيان بما يستعذب  
 من الالحان علي قدر الامكان فيقصد فيها الى رخاوة الصوت  
 ورخامته وجودة الاداء وحسن الانغام وقد يقطع النظر بالكلية

عن معاني الكلام حتى اننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغني ولا السامع بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها وترى المغني يعيد الكلمة الواحدة مثل يا ليل يا عين مرات كثيرة يكررها من تلقاء نفسه او باستعادة من السامع لا لاجل لفظها ولا لمعناها ولكن استجابة للحن واستحساناً للنغمة وما تتأسف عليه انا نرى فيما نقل الينا من اغاني القدماء في كتب الادب كلمات تحث على الكرم والفتوة والنخوة ولا نرى الاغاني عندنا في هذه الاعصار الاً مقصورة على العشق واللذة والشهوة فلا نرى لها اثرًا يحمي في التربية وتهذيب الاخلاق بل ربما كانت في بعض الاحوال ما يضر بذلك كما قلناه في لعب اولاد رايه والذي اظنه بحسبنا سمعته منك ان ما وصفته من التياتر ليس بهذه المثابة

فقال الانكليزي لا مناسبة بين الامرين فان الجماعة المعروفين عندكم باولاد رايه انما هم اشخاص مجردون من حسن الخصال والعلم والكمال مجتمعون من طعام الخلق وعوام الناس لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً بخلاف طائفة التياتر عندنا فأكثرتهم ممن تعلم وتادب وترجي وتهذب وحصل على فنون كثيرة ومن آداب التياتر ان لا يقال في مجامعهم الاً ما يؤخذ من تأليفات متفق على موافقتها لتهذيب الاخلاق والطباع والعادات والتمييز بين الحسن منها والقبيح والفاسد والصحيح للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها وكل ذلك بانفاذ عذبة وعبارات رقيقة

مستحبة ولا يفعل ولا يقال ما ينحل بالادب والكمال وإن الجأت  
الضرورة في بعض العبارات الى وصف حادثة من الحوادث  
السرية تحايل المؤلف او اللاعب في القاءها والتعبير عنها بكناية  
لطيفة لا يشعر بها إلا الحاذق المتيقظ العازف بما للحادثة من

### الاحوال

واما الاغاني عندنا فهي في الاغلب عبارة عن واقعة مخصوصة  
وحادثة معلومة يراد تذكراها ويستجد تكرارها وقد يكون المراد بها  
تهيج سورة الحماس وتحزب الناس الى غير ذلك من الاحوال  
وقد تكون عبارة عن غراميات واغزال وربما لا يتصد من السماع  
في بعض الاحيان غير جودة الاداء وحسن الالقاء وموافقة قواعد  
الموسيقى وممازجة ما يكون موجوداً من آلات الطرب من غير  
نظر الى الالفاظ والمعاني فقد يكون الغناء بغير لغة السامع وهو  
يطرب منه لمكان الصنعة وحسن الالقاء كما يطرب من تغريد  
الطيور وآلات الطرب وعلى كل حال فالاغاني في التياتر انما  
تكون بحسبها تتظم في سلكه من محاكاة واقعة او تصوير حادثة او  
غير ذلك وعلى الجملة فليس التياتر عندنا من قبيل ما ذكرت من  
العاب اولاد رابية ونحوها بل هو كما ذكرناه عبارة عن امثال  
علمية على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية وهو بهذه  
الكيفية ما يساعد على تقدم الامة وتمدينها ويوسع دائرة فخرها وثرورتها  
وفوائده كبيرة ومزاياه كثيرة منها اجتلاب الانس وتنشيط النفس

وتروج المحاضر بتسريح الناظر في المرئي المختلفة والمناظر المحسنة اللطيفة والأشكال المتنوعة والأوضاع المتغيرة فان الانسان يميل بطبعه الى المستغرب والمستحدث من الأشياء والمستطرف المستظرف منها ومعلوم ان الانسان اذا طال اشتغاله بالتفكر في الامور العقلية وانها كما في الاعمال الشاقة البدنية فترت قوته وضعفت همته وكلت فكرته فيحتاج ان يتخلى عن ذلك في بعض اوقاته ريثا يستريح ويجم نشاطه وتراجع اليه قوته فاذا طال في النهار كده وجده وجهده وانها كما في الاعمال البدنية والاشغال الذهنية لم يات عليه الليل الا وقد كل بدنه وملت نفسه وفتر ذهنه فاذا مضى الى التياتر واشتغل بصره وفكره بما يراه وما يسمعه به تحول ذهنه عما كان فيه واستراح ما يعاينه وتسلى بما يتقلب عليه من الاشكال المتنوعة والأوضاع المختلفة وطابت نفسه بما يراه من الصور المحسنة والمناظر الجميلة فاذا عاد في غده الى اعماله الذهنية والبدنية عاد بنشاط جديد ونفس مقبلة وهمة متوفرة

ثم هو في اثناء تسريح طرفه فيما يروقه من تلك المناظر ونفسه في مستلذاتها من تلك الهيات والكيفيات يستفيد كثيراً من الفوائد العلمية والاخلاق المرضية فيكون ما في التياتر من الاحوال لذة في الحال وثمره في الاستقبال وهذا هو السر الذي حمل عقلاء الملوك والحكام ونبلائهم على اتخاذ التياتر فانهم رأوا ان النفوس بالطبع مائلة الى اللذات منجذبة لجانب الشهوات ورأوا ان صدها

عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرّة يتعسروا يتعذروا فاختاروا ان يستخوذوا على تلك الشهوات والمستلذات ويتخذوها كآلات تستعمل فيما يراد من الامور النافعة المحمودة في الشرع والعقل ويفرغوها في قالب تصير به من اسباب الفوز والسعادة فلم يجدوا احسن من التياتر للوصول الى هذا المقصد فانه مع موافقته للاغراض والذات والشهوات يبيء النفس للتخلي بحسن الثمائل وصفات الكمال والاستكثار منها والتمكن فيها والتباعد عن ذميم الاخلاق وردية الطباع فهو بهذه الحالة كالخادم للشيعة التي تامر بالخير وتنهى عن الشر

ومن المعلوم ان اقوى شي تمسك به الامة وتقوم عليه هو امر دينها اذ بدونها لا تنجح القوانين البشرية ولا تظهر اثارها ونتائجها فاذا كان التياتر خادماً للشيعة كما ذكرناه مرغباً فيما تدعو اليه وتامر به منفراً عما تنهى عنه كان بذلك من اعظم الملاحم بل من اهم الامور واولاها بالاعناء والرعاية

وانت تعلم ان كثيراً من الناس انما يمثلون امر الشيعة ويتبعون احكامها خوفاً من الآخرة وما يكون فيها من الاهوال والامور المخيفة والسؤال والحساب والنار والعذاب فهذه الاهوال والخاوف متصورة في اذهانهم منطبعة في مخيلاتهم وان لم يروها بالفعل ومن اعظم ما يقوي ذلك في اذهانهم ويمكن تأثيره من قلوبهم هذا التياتر لانه يصور جميع تلك الصور للعين ويجلوها



للعيان ويخرجها من قوة التخيل الى حيز المحسوس المشاهد فيمثل  
 للرأي النار مثلاً في صورة هائلة وهبئة مزعجة ولهب ساطع مرتفع  
 وشرر كبير منتشر الى غير ذلك من اهلها وسلاسلها واغلالها  
 وافاعيها وحشراتهما وعظائم آفاتهما وهو يراها ويرى المجرمين فيها  
 تلغيم نارها وتنهشم افاعيها ويقاسون انواع العذاب الاليم والعقاب  
 الشديد ما ترق لرويته الاكباد القاسية وتضطرب لهول منظره  
 القلوب الساكنة فما ظنك بمن قرأ اوصاف تلك الاهوال في  
 كتب الديانة وتخيلها في ذهنه ثم رآها في التياتر على تلك الحالة  
 المنكرة والمنظر الفظيع وهو يعلم ان التي تكون في الاخرة اكبر  
 واخطر وادهي وامر لما يعرفه من انه لا يمكن مضاهاة افعال الحق  
 جل جلاله بافعال الخلق وتثيلها للعين الا بوجه التقريب وعلى  
 قدر الامكان فاذا انتقل ذهنه من تلك الصورة المشاهدة له الى  
 تلك الهيئة المطبوعة في مخيلته وتصورها في نفسه بما لها من الهول  
 العظيم والخطب الجسم أفلا يرق قلبه ويقشعر جلده ويتمكن  
 خوف العذاب منه بما يحمله على ان يتباعد عن موجباته واسبابه  
 من الظلم والعدوان والفجور والشور وكذلك اذا رأى تمثال  
 الجنة بما يكون فيها من الانهار والاشجار والازهار والثمار والقصور  
 والديار وسائر المستلذات والمشتهيات افلا تحرك رغبته وتميل  
 نفسه اليها بما يحمله على ما يقربه لهذا النعيم من فعل الخير وانواع  
 البر

فهذا من جملة خدمة الشياطين للديانة وتأبيده لها وإعاقته على مقاصدها

فقال الشيخ من اين لم صورة الجنة والنار والثواب والعقاب ولم يروا شيئاً من ذلك وكيف يصورون ما لم يروه وكيف يصدقهم الناس

قال الانكليزي انما يصورون ذلك على وجه التخيل والتفريس وعلى حسب ما ورد في الكتب المقدسة وسائر كتب الديانة من الاوصاف تقريباً للاذهان واخراجاً للشيء المعلوم من صورته الذهنية الى الصورة الوجودية

فقال الشيخ نحن لا حاجة لنا بهذه الصور فان ما عندنا من اليقين باحوال الآخرة يغنينا عن هذه الصور والتماثيل خصوصاً ونحن نعلم ان جهد الادبي ووسعه لا يمكن ان يصل الى محاكاة ما يكون في اليوم الآخر من الاحوال والاهوال بل لا يمكن ان يصل الى ما يصل اليه الوصف الوارد فيه فهل يبلغ التصوير والتثيل مبلغ قوله تعالى في صفة النار انها ترمي بشرر كالتصر كانه جمالات صفرويل يومئذٍ للمكذبين . فقال الانكليزي ليس كل الناس في ذلك سواء

وعلى الجملة والتفصيل فللشياطين في تأديب النفوس ومهذيب الاخلاق وتربية الامة مدخل عظيم وانت تعلم ان سلطان الدرهم والدينار له قوة عظيمة عند

الناس وفعل في عقولهم يعارض به قوة القوانين الموضوعية والاحكام  
المشروعة ولذلك ترى كثيراً من اصحاب الثروة والمال من اهل  
البغي والزيف يستميلون قلوب القضاة والحكام الى ما يخالف  
مقتضيات الشرع والقانون فيردعهم التياتر بروادعه ويقرعهم بقوارعه  
فانه يضع يده على المتمردين واهل الفسق والفجور من الخلق  
ويكلمهم في قيوده ويعرضهم على الاعين في ميدان حكمة الضنك  
ويفضحهم على رؤوس الاشهاد ويجعلهم عبرة للمعتبرين وتبصرة  
للمتبصرين ثم لا يقتصر حكمه على الوقت الحاضر بل يسري ايضاً  
الى الزمن الغابر فيجول في تواريخ الامم الماضية ويستخرج منهم من  
ذكروا بفعل قبيح او حسن فيستحذو عليهم ويكلمهم لرجل من رجاله  
يكسوهم ملابسهم ويبرزهم في صورهم ويهيمهم بهيئاتهم التي كانوا  
عليها واسمائهم التي كانوا يذكرون بها حتى كانهم نشروا من  
قبورهم قبل اوان نشورهم فيعرضهم كذلك على اعين الناس مع  
ما كانوا عليه في زمنهم من فعل خير مدوح او عمل شر مذموم  
ومكرمة تبقى اثارها وافتخارها او معرة يخلد عارها وشنارها فيكون  
ذلك من اعظم البواعث على تربية النفس وتأديبها وحسن  
تهذيبها

لا سيما ان التياتر لا يقتصر على امر من الامور ونوع من  
الافعال وطائفة مخصوصة من الناس بل يستحذو على جميع  
الامور وكل اجناس الناس فلا يخرج من قبضته الجبايرة المتمردون

الذين كانوا آفة أيامهم وداهية أزمانهم ببغيم وعدوانهم وظلمهم  
 وطغيانهم بل ينظمهم في سلكه ويجبرهم في قبضة ملكه ويجبرهم في  
 ميدانه تحت نظر الناظرين من اهل العصر الحاضرين ليروا  
 بابصارهم كيف تزول عظيمة العطاء الطاغين وكيف يفعل الله  
 جل جلاله بالمجبرة الباغين الذين ضلوا واضلوا غيرهم عن  
 مسالك الرشد والهدى ووقعوا واقعوا من تبعهم في مهالك الردى  
 فيأخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة  
 والعبرة على قدر استعداده وقابليته فتضعف وتسكن عند كثير من  
 الناس شهوة الشر وتقوى وتتحرك رغبة الخير والبر .

فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى  
 فعل قاتل النفس عند القتل واي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك  
 وجلد لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول على  
 بعض الاغراض والمفاسد واي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل  
 كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله واي عقل لا يستفزه  
 حب الفضل واهله وكل متمسك بجله عند مشاهدة تجرد الافاضل  
 من الرجال من حياتهم ومالم وعيالهم لتخليص وطنهم واهله من  
 سطوة الاعداء المفسدين وقهر المجبرة التمردين

كل هذه الاحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس  
 وليس لها غير التياتر ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها فانه هو  
 الذي يضعها موضعها وينزلها منزلها ويوفئها حتمها ويكسوها ما

يليق بها من ثياب المحسن والكرامة والنعمة او التعج والمهانة والنفمة حتى يرى الرائي حالة العظماء المتكبرين والاشقياء المتخبرين والكبراء المشهورين كيف تغلبت بهم حادثات الليالي وتصرفت بهم صرف الاليام وكيف طحتهم رحى الدهر ودارت عليهم دوائر القهر وما الذي اورثتهم مساويء افعالهم ومفاسد احوالهم وكيف استنزلتهم عن درجاتهم الشامخة وحطتهم عن رفعتهم الباذخة وجردتهم من قدرتهم القاهرة فاصبحوا بعد قوتهم مستضعفين وبعد قهرهم مهورين ويرى اصحاب الهمم العالية والافكار الشريفة والافعال المحسنة والاحوال المستقيمة كيف توصلوا الى طرق المجد وارتقوا درج العز وركبوا صهوة الشرف وتسلموا ذروة الفخر

لاجرم ان كل ذلك يوسع دائرة العقل ويقوي ملكة الفهم ويوجه النفس الى طرق الخير ثم لا يخفى ان كثيراً من امور الناس واحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيئات الناس ويخلو عن المكافأة كثير من حسناتهم ومن شأن النيات ان يستخوذ على كل ذلك فيدخله في بابه وينظمه في سلك العابه ويكشف عن قبح الشر وشؤمه لتتكف عنه نفوس اربابه ويظهر فضل الخير وينوه به لتقوى فيه رغبة طلابه فهو بهذه الحالة اعظم باعث بيعث على الخير والصلاح والرشد والفلاح ويحث على التحلي من ذمم الافعال والتخلي بصفات الكمال

ثم لا شك في ان مصائب الامم ليست كلها حاصلة من  
 المساوي والكبائر فقط بل كثير منها ينشأ عن خلل العقل ونقص  
 الادراك وسوء التدبير وتعلق النفس بما لا ينفع او بما يضر ومن  
 تأمل في حال كل امة وما حل بها من المحوادث سابقها ولاحقها  
 ونظر في اسبابها وحقائقها علم ان معظم الاسباب التي اودت بها  
 وادت الى خرابها سوء التدبير ومتابعة هوى النفس والغرور  
 المحاصل عن الجهل

ولذلك قل ان نجد في كل عشر حوادث يضحك منها  
 حادثة يهيننا اصلها او تهولنا صورتها ومن يقارن بين عدد  
 اصحاب الكبائر والجرائم من امة من الامم وبين عدد من لحقهم  
 المخرف او الذهول او الجنون منها كان كمن يقارن بين حبة  
 رمل صغيرة وصخرة كبيرة ومن الغريب انك ترى الناس كلما  
 زادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدد اهل الطيش والسفه  
 والجنون فلا ينفع في مداواة دائهم واستئصال شافة اهوائهم  
 وردعهم عن شرورهم وتجريدهم من ثياب غرورهم الا بالاسهم ثياب  
 الهزل وتأديبهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الاهانة ليفيقوا  
 من غفلتهم ويهبوا من رقدتهم ويتخلص الخلق من مضرتهم اذ لا  
 عقوبة على الانسان اشد من عرضه في ميدان الهزل والسخرية  
 وجعله للناس اضحوكة ومثلا وعبرة ولما كان حكم القوانين الدينية  
 والديوية لا يدخل هذا المدخل كان التياتر بسبب تأديته لهذا

الغرض معيناً لها على تكميل الجمعية البشرية بهذه الصورة ايضاً  
كما هو مساعد لها بغير ذلك

وللتياتر غير ما ذكر مزية كبرى قد اخص بها دون غيره  
وهو انه مدرسة علمية لجميع الاحوال السرية ومصباح يستضاء  
به في الاحوال الباطنة ومفتاح يفتح به جميع الخفايا الكامنة حتى  
تظهر خطرات السرائر واوهام الظنون واحاديث النفوس فتبدو  
من خلال ستورها ويطلع الناس على خفيها ومستورها مفرغة  
في قوايلها موضوعة في مواضعها منزلة منازلها

فان لم يحصل منه تهذيب جميع المحاضرين فلا اقل من  
كونه في كل مرة يؤثر في بعض افراد منهم فمع التدرج والاستمرار  
في الازمان المتوالية تهذب اخلاق الجميع او الاغلب وتحسن  
احوالهم فان قيل انا نرى كثيراً من يحضر التياتر لا يتجه افكارهم  
الى تحسين امورهم وتهذيب نفوسهم بل تشتغل حواسهم بما يرونه  
من المناظر الظاهرة من غير ان تتأثر نفوسهم باثر يوجب لهم ان  
يرجعوا عن فساد نياتهم ومساوي افعالهم بل ربما كان ذلك  
موجباً لازديادهم في الشر واقتباسهم بعض وسائله للتمكن من  
الفساد واضرار العباد

قلنا ان كان ذلك فانما يكون للبعض لا للجميع ومن لم  
يتأثر من صورة فلا بد ان يتأثر من غيرها ومن لم يرجع من مرة  
فربما يرجع من مرتين ومن لم يهتدي في الحال لا بد ان يهتدي في

## الاستقبال

وعلى كل حال فله تأثير عظيم في عقول الشبان من الرجال والنساء فيكشف لهم عن حقائق الامور فيتمخرون من الوقوع في شباك الغي ومهاوي الغرور واقل فضائله الكشف عن العيوب والمساوي وتمييزها من الفضائل والمحاسن وهو بتخييره للاولى وتزييفها وتعظيمه للثانية وتشريفها بجملنا لا محالة على توجيهه انظارنا وازدياد ميلنا للحسن المدوح واعراضنا وازدياد نفرتنا عن السيء المذموم فمتسع دائرة معلوماتنا وتستقيم طرق فهمنا وترسخ الامور في نفوسنا بصورها الحقيقية وهياتها الصحيحة فتتميز عن اضدادها ولا تلتبس بغيرها فتمتى وقعت تحت حواسنا عرفناها وعرفنا اصحابها فناخذ ما يوافق لحالنا بالنظر لتحصيل المنافع ودفع المضار وتباعد عن الاشقياء والمفسدين او ندارهم باللسان على قدر الامكان ونتقرب من الافاضل والصالحين بحسن المعاملة والود والمجاملة ونعرف ايضاً المنافقين والكذابين والناميين والخائنين والمخادعين وطرق حيلهم وكيفيات خداعهم ومكرهم ومداهنتهم فلا يغرنا حالهم وفعالهم ولا يروج علينا غشهم وحيلهم بل نضحك من افعالهم ولا نقع في شرك احتيالهم فان التياتر يرسم لنا في وجوههم وعلى سيماهم صورة ضمائرهم وهيئة سرائرهم فنضحك من خداعهم ونهزأ بمكرهم ونبطل بقوة خيال سحرهم ونسلط عليهم وعلى شياطينهم نور العلم والمعرفة ونار الانتقاد فتسود وجوههم



وتحرق حتى يصبحوا بسوء فعلهم بين الناس اضحوكة ومهزاة  
وسخرية وربما انتهى بهم ما يلقونه من الخزي والفضيحة والذل  
والمهانة الى ان يرتدعوا ويتوبوا لله ويرجعوا ففخلص الامة من  
شرهم وسوء كيدهم ومكرهم

وكما ان التيار يشتغل باحوال الخلق وصفاتهم وسرائرهم  
ونياتهم يشتغل ايضا بتمثل سعد الطالع ونحسه وحسن النجته  
وسوءه ونعيم العيش وبؤسه فيرشدنا للصبر والتجلد على ما يكون  
من سوء النجته وقلة الحظ وللشكر على مقابله من حسن النجته  
وسعادة الطالع وانت تعلم ان كل ما يقع فيه الانسان اما ان  
يكون مسببا عن تدبيره وعمله او لا يكون مسببا عن شيء  
من ذلك . فالاول ينسب اليه ويذم او يحمده عليه والثاني هو  
الذي ينسب في متعارف العامة للنجته والطالع والدهر وهذا  
ليس له فيه شيء فلا يتجه عليه فيه ذم ولا مدح ولا شكر ولا لوم  
فيلزمنا الاستعداد لتلقي ضربات النجته ونكبات الدهر لتجد في  
انفسنا ما يساعدنا على التجلد لها والصبر عليها من دون ضجر  
ولا جزع والتيار يصور لنا انواع الاحوال الدهرية والاحطار  
الملازمة للجمعية البشرية فنعتاد عليها ونستعد لهجومها وتدرع لها  
بدروع التجلد حتى نكون في حصن من الصبر والثبات يقينا من  
سطواتها ولا نكون عرضة للفرع والروع والجزع بل تقوينا  
التجربة والدربة وتحملنا على ان لا نكل ولا نمل ولا نضجر بل

نصبر حتى يخلصنا الله منها ويعوضنا الخير والراحة عنها ومتى  
 نظرنا الى الفقراء والمساكين وثقلهم في الفقر والقلّة والجوع والذلة  
 نجذب قلوبنا اليهم وتمتليء بالرافة والشفقة عليهم وتأخذنا الرحمة  
 والرفقة لاقبل مشقة وشدة تحصل لواحد من خلق الله تعالى  
 فيمكن من طباعتنا الرفق بالناس ومواساة الفقراء ومساعدة الضعفاء  
 واعانة المضطر واغاثة الملهوف وبذل البر والمعروف والرغبة في  
 العدل والانصاف وليس باقل ما ذكرناه تأثير التياتر في توسيع دائرة  
 المعلومات البشرية والاعمال الفكرية فان اصحاب العقول الفاتحة  
 والاذهان الرائقة يتسابقون في مضماره ويتبارزون في ميدانه  
 يتفاخرون بتأج افكارهم ويتظاهرون بمحاسن اثارهم من محاسن  
 الثرولطائف الشعر فتدب فيهم نار الغيرة والحمية فتذكو القرائح  
 وتوقد الاذهان وتسيل الخواطر وتوسع دائرة الاطلاع غاية  
 الاتساع فتحيط بجميع الاعمال البشرية والاحوال السرية والجهرية  
 فلا تذر عظيمة ولا حقيرة ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة حتى تنزلها  
 منزلها وتحلها محلها وتفرغها في قلبها وتكسوها من الثياب ما لاق  
 بها وكل ذلك من بواعث الاجتهاد في طلب العلم وكشف  
 الحقائق واظهار الخفايا وازالة اللبس وابرار الشيء من عالم الخيال  
 الى عالم المحس حتى يدركه قليل الادراك وكثيره وناقص التأمل  
 وكامله فتنتفع اذهان الناس وتنفع بصائرهم وتستنير ضمائرهم ويرون  
 في حيز العيان والمشاهدة اموراً كانت في عالم الوهم والخيال

او كانت منكرة او مجهولة بالكلية وبعذر ان كان سلطان الوهم متحكماً عليهم تتخلص من ربقته رفاهم وينكشف ستر الجهل عن بصائرهم فيرتفع حجاب الغفلة عن ابصارهم فينظرون في حوادث الايام الخالية والام الماضية فتبدو لهم اسباب السعادة والشقاوة والتقدم والتأخر والعز والذل والحراب والعمارة ويقفون على اصل ذلك وكيفيته وحقيقته فيأخذون ما ينفع ويتركون ما يضر ويسعون سعي من فازوا في ايامهم بالخير والسعادة ويقفون اثرهم فيحظون بالخيرات والمبرات ويفوزون بالنعم والمسرات

فكان التيار قناة ممتدة بين افراد الامة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الاعلى الى الادنى ومن العلماء والخواص الى الجاهل والعوام فتزداد العلائق التانسية وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتم الفائدة فاذا كان التيار بهذه المثابة فهو احسن المتبذعات البشرية واجملها واعظها فائدة واكملها

وقد اطلنا الكلام في هذا المعرض حتى كدنا نخرج فيه عن الغرض وفي المثل الحديث شجون والكلام يجرب بعضه بعضاً وكنت ظننت اننا تتوجه جميعاً الى التيار فاستحضرت لكما هديتين يتتبع بهما فيه احداها لسيدنا الاستاذ والثانية لبرهان الدين ثم انه اخرج من صندوقه علتين اعطى احداها للشيخ علم الدين والثانية لبرهان الدين وقال انه يحتاج الى مساعدة النظر في تحقيق الاشياء البعيدة خصوصاً في التيارات لانها تكون غير تامة الانكشاف

إذ زاد بعدها عن حد النظر فعند ذلك تستعمل هذه الآلات  
 المعروفة بالنظارات تقرب البعيد وتساعد النظر وقد اتيت لكما  
 بهاتين النظارتين على حسب قوة بصر كل انسان فشكراه على  
 ذلك وفرح برهان الدين بالنظارة فرحاً شديداً وصار ينظر بها  
 من شبابيك المحل تارة الى المدينة فيرى البيوت والمحارات والمارين  
 في الطرقات كأنهم تحت قدميه وتارة الى المينا والمراكب فيرى  
 الملاحين والوان ملابسهم وما يتقلونه من البضاعة كأنهم بين  
 يديه فيتعجب ويستغرب لانه كان لا يرى ذلك بغير تلك الآلة  
 ولو امكن النظر وكان اذا نظرها الى البحر يلوح له فيه صنادل  
 وزوارق للصيادين يرى فيها ما اصطادوه من السمك فاذا نظر  
 بدونها لا يرى من ذلك شيئاً فكانت عنده اجل شيء اهدي له  
 واحب شي اليه وصار يقلبها ويتامل في تركيبها ويحاول الوقوف  
 على كيفيةها فعلم الانكليزي منه ذلك فقال اراك متحيراً في شأنها  
 قال نعم اريد ان اعلم حقيقتها فقال يكفى في هذه الليلة بمعرفة  
 فائدة استعمالها في التياتر فتتنظر بها الى صورة الالهاب فتحققها  
 وتنظر الى ملابس اللاعبين وان شئت نظرت بها الى المتفرجين  
 وفي غد ان شاء الله اصف لك كيفيةها وباقي فوائدها فقال  
 برهان الدين ومتى يكون الذهاب قال بعد ساعتين من غروب  
 الشمس حيث تكون الساعة ثمانية بالاعتبار الافرنكي . فقال  
 برهان الدين ان لكل قوم عادة في مجالسهم ورسماً في ملابسهم

فلا تواخذني ان سالتك عما يلزم لذلك وما يقتضيه الحال والمحل فقال  
لا يخفى عليك ان التيار محل جامع فيطلب فيه النظافة والتجمل  
كما في سائر المجامع وعادة رجال الافرنج في الملبس الانفاق على  
هيئة واحدة واما نساؤهم فملا بسهن قد تختلف في اللون وان  
كانت في الكيفية متحدة وسترى ذلك ثم انفصلا وصار برهان  
الدين يتردد فيما يلبس ولحظ والده منه ذلك فقال له فيما تفكر  
قال قد ذكر الانكليزي ان من عادة الافرنج التجمل في الملابس  
فانا افتكر فيما البسه فقال له اختر ما في صندوق احسن ملبس  
لتظهر في هيئتك بزي اهل بلدك وملتك . فذلك بك البق  
وفيه لك زيادة رونق وهو يميزك من بينهم ويدل عليك ويجذب  
اعينهم وقلوبهم اليك وانما يلزمك ان تجعل الادب لحنك طرزا  
والوقار لهيئتك حصنا وحرزا فتكسى حلة فوق حلة وتحترمك  
الاصاغر والاجلة واحذر من الاعجاب بنفسك والتعالي في لبسك  
فاحسن الملابس واعظمها التنظيف الطاهر الزكي الرائحة  
وعندك اربع بدل جديدة كلها لائقة فاختر منها ما تحب فقام  
ودخل حجرتة واخرج صرة فتحها فاذا فيها جبة نينه وقفطان  
شاهي مقلم وزبون ابيض وقميص ولباس وعمامة بيضاء معلمة  
بطراز اصفر وطربوش مغربي وحزام حرير طرابلس محبوك فلبسها  
واصلح عمامته وارخى لها عذبة حجازية ونظر في المرأة ثم توجه الى  
والده فلما نظره في هذه الهيئة المحسنة سر به وشكر الله سبحانه وقال

له يا بني قد حسنت هيئتك وثيابك فحسن ايضاً شمائلك  
 وآدابك واذا سرت مع صاحبنا هذا فمازجه وسأيره واستجلب حبه  
 واجذب قلبه فاناً في دار غربة ليس لنا من اهلها غيره فضلاً عن  
 كونه قد ابدى لنا من المجاملة وحسن المعاملة ما يستوجب ان  
 نجاريه فيه وانت تعلم انك تمضي معه الى محل لم يسبق لك  
 بمثله عادة ولا باحواله معرفة فانظر لما يعمل وافعل كما يفعل  
 تسلم من الوقوع فيما يوجب الانتقاد عليك وتوجه اللوم اليك  
 واستعمل الوقار والسكينة واذا نظرت الى شيء فانظر اليه بنوذة  
 وكال واذا سألت عن امر شيء فاسأل عنه بلطف وادب وخالق  
 الناس بخلق حسن وابذل وسعك في ارضاء من صحبتك لكن بما  
 لا يسيئ ريبك وتجاوز عن الهفوة واقل العثرة واقبل المعذرة  
 بحبك اصحابك ويكثر احبابك

فقد سئل بعضهم اي اخوانك احب اليك قال الذي يسد  
 خلتي ويغفر زلتي ويقبل عثرتي واعلم ان من لا يواخي الامن لا عيب  
 فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بائثاره على نفسه  
 دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عنه وكثر تبعه  
 اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مراراً على الاذى

ظمت اوي الناس تصفو مشاربه

وإذا رأيت من صاحبك امرأً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع  
 حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وأبقه وإبراء من  
 عمله قال تعالى (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يؤمر  
 بتقطعهم وإنما امر بالبراءة من عملهم وهكذا صار يعظه بامثال هذه الكلم  
 النافعة وينشر عليه لأبي الحكم حتى حضر الخادم يدعوها الى  
 الطعام فاعنذر الشيخ بانحراف المزاج وطلب لنفسه بعض المرق  
 والزيتون والمرببات وأمر برهان الدين ان يذهب الى الانكليزي  
 ليتوجه معه الى السفرة ثم الى التيانر ففعل فلما رآه الانكليزي  
 اعجبه شكله وهيئته ورآه قد ازداد لطفًا وظرفًا وبهجةً وحسنًا  
 وكان برهان الدين جميل الصورة حسن المنظر متناسب الاعضاء  
 حلو الشمائل معتدل القد اسيل الخد ادعج العين فحبي اللون  
 مقرون الحاجبين قد اظهر تورده خديه بياض العامة وبرز حسن  
 شمائله اعتدال القامة وفرح به الانكليزي وقال هلم بنا يا بني  
 وأحلني اليوم محل والدك وسلني عن كل ما كنت تسأله عنه  
 ولا تكتم عني امرأً تريده وكن معي كما تكون معه فان لم تفعل  
 كان نقصاً في حبك وخللاً في ادبك فقال سمعاً وطاعة وشكراً  
 لله فقد اوليتنا منناً لا نخصيها فشكرنا لك غير منقطع وحبنا لك  
 في قلوبنا منطبع كيف لا وقد اصبحتم في وجه الزمان خدًا  
 وامسيتم في خده ورداً فكنتم حسنة من حسنات دهرنا لا نحبي  
 بمرور الايام من صدرنا وقد طلعت لنا بكم طواع السرور وكانت

أفلة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لا سيما بودكم الصاي في  
 الأبريز وجوه لفظكم النفيس العزيز فلا تقترح على الدهر غير  
 صحتكم وقطع حاضر الوقت في صحتكم ولا نعد أيا منا معكم إلا مفتاح  
 السرور ومطالع السعود والمحبور . فشكره الانكليزي على ثنائه  
 واثني على حسن وفائه ثم قام واخرج علبة لطيفة وقال له اني  
 قد اعددت لك هذه الهدية من وقت خروجنا من القاهرة فتقبلها  
 مني تزدي سروراً لقبليها منه برهان الدين شاكرًا مسرورًا وفتح  
 العلبة فاذا فيها ساعة ظريفة لها ظروف وعلاقة من  
 الذهب فوضع برهان الدين الساعة في جيبه واظهر علاقتهما  
 الذهبية على العادة فكملت خيلته وتمت زيتته ثم اخذه الانكليزي  
 من يده ودخل به محل الطعام واجلسه بازائه وقد سبق لبرهان  
 الدين تناول الطعام على السفرة العامة مرارًا فكان عارفًا بجميع  
 الرسوم المعتادة فاكل بالشوكة والسكينة مع غاية اللطافة والكمال  
 بسهولة وكان الى جانبه فتاة افرنكية بارعة الجمال قد كساها المحسن  
 والدلال ما تفتن به الرجال تشفي السقيم بكلامها الرخيم فارة  
 الطرف لينة العطف كحيلة العين حمراء الوجنتين

بيضاء فيها اذا استقبلتها دحج \* كأنها فضة قد شابها ذهب  
 فقال اليها برهان الدين واخذت بلبه واستولت على مجامع  
 قلبه فكان نظره اليها يتردد ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد  
 وكذلك هي كانت تسارق برهان الدين النظر فها وان لم يكلمها



لكن في الاشارة ما يعني عن الكلم فكان بين قلبيهما مسامرات خفية  
 نمت بها بين المحاضرين وجنات الحدود ونطقت بها من قرائن  
 الحال الشهود وكان برهان الدين قد بلغ حد التكلم بالانكليزي  
 في الجملة فكان يتكلم مع الخواجا تارة بالعربية وتارة باللسان  
 الانكليزي ولما لم تعلم الفتاة هاتين اللغتين كانت تتكلم مع الخواجا  
 باللغة الفرنسية فكان غالب كلامها السؤال عن برهان الدين  
 وبلده واهله وعمره وما اشبه ذلك وكان برهان الدين يرى ذلك  
 ويلحظه ويتمنى معرفة لغتها ليتكلم معها لانها ملأت فواده وملكت  
 قياده وفهم الانكليزي ذلك لكنه اخفاه لئلا يخجلها وانما كان تارة  
 يترجم له ما تقول وتارة يترجم لها ما يقول وكان برهان الدين  
 متوجهاً بكليته لحسن صفاتها وشماثلها ويتمنى ان لا يفارقها لكون  
 انقضى وقت الطعام فقامت وقام فكانت عند نهوضها تعتدل  
 وتميل كانها المعنية بما قيل

وتيس بين مزعفر ومعصر \* ومعتبر وممسك ومصدل  
 هيفاء ان قال الشباب لها انهضي \* قالت روادفها اقعدى وتملي  
 فما زال يتبعها بصره حتى غابت عن عينه وفي قلبه من فراقها  
 حسرة لكنه تحايل على اخفاء هذا الامر واقندى بقول من وجد  
 سبيلا الى الصبر

ولقد قنعت من اللقاء ساعة

اذ لم يكن لي للدوام تطرقُ

قد ينعش العطشان بلة ريقه

ويغص بالماء الكثير ويشرق

ثم انه بعد تناول القهوة قام وركب مع الانكليزي في العربة وتوجها الى التياتر فوجدا على التذاكر ازدحاماً كبيراً وخلقاً كثيراً من نساء ورجال فقال له الانكليزي لو كنت اعلم حصول هذا الازدحام لارسلت من ياخذ لنا التذاكر من قبل فالأوفق لنا الان ان نقف خلف الناس في اخر الصف فوقنا وصارا يتقدمان شيئاً فشيئاً خلف السابقين الى ان وصلا الى الطاقة التي تفرق منها التذاكر فاخذنا تذكرتين من بعد دفع ثمنهما ثم سارا الى باب التياتر فاظهراهما للحاجب ودخلا فوصلا الى فسحة مزينة في جميع جهاتها وبها جماعة يودع الناس عندهم ما يستغنون عنه داخل المحل من عصي وملابس زائدة كالتي تعرف بالساكو وكذلك فعل الانكليزي وبرهان الدين واخذوا ورقة عليها علامة سنداً على ما سلماهم اياه كما هي العادة ثم صعدا من سلم الى اول دور فوجدا هناك نساء تدل على المحال بحسب الدرجات فاجلستهما احدهن في بعض مدرجات الدرجة الاولى وقد شغل برهان الدين منظر المحل لهجنه ورونته وحسن زخرفته فصار يسرح نظره الى جميع جهاته ويتامل شكله وزينته فوجده في غاية من الطرافة والاعتقان ووجد في سطح قبته صوراً مختلفة ورسوماً متنوعة وقد علق في وسط القبة نجفة (ثريا) عظيمة ملأت المحل انواراً وصيرت ليله نهراً وانضم

لنورها كثير من الاضواء موزعة في دوائر المحل وطرقه وسائر مرافقه ووجد المحل المخصص لجلوس المتفرجين منقسماً الى عدة ادوار يعلو بعضها بعضاً وبكل دور سلم يتوصل به الى ما هو اعلى منه وبين كل دور والذي فوقه دائرة وباب الى الدرجة الاخرى وفي الارض دكك منفصلة عن بعضها بسهولة المرور بينها وخلف الدكك محال صغيرة مفتوحة بقدر عرضها والدور الاول عبارة عن مدرج بثلاث درج يفصل كل واحد منها طرقة صغيرة عرضها ثلثا ذراع للمرور يعلوه حاجز يشبه الدرابزين وفي هذا الدور محال صغيرة كما في الدور الارضي المتقدم وجميع سطح الدور الارضي مكسو من الداخل وبه كراس للجلوس ورأى امام الدكك الموجودة بالارض كرسي مرتفعة لجلوس رجال الموسيقى وامامهم شموعاً مصفوفة على خط مستقيم ورأى بعد هذه الدكك محالاً مستديراً وهو محل اللعب وفي كل من طرفيه محال صغيرة بعضها فوق بعض ورأى اشجاراً بكثرة يرى من خلالها ما يشبه الجبال والوهاد وفوق الجميع السماء والسحاب وكأن المطر ينظر ورأى في زاوية من هذا المحل مكاناً شبيهاً ببيت صغير وفيه امرأة وبتان فسمعن يتكلمن مع بعضهن فظن ان المحل متصل بالفضاء فتعجب من ذلك فقال له الانكليزي لا تظن ان هذا الذي تراه فضاء وان هذا الذي يعلوه سماء ولا ان هذه الاشجار حقيقية وإنما كل ذلك رسم وتصوير اعطى حقه من الاتقان والاجادة حتى

صار بخال انه حقيقي كما تراه والذي يراد تمثيله الليلة في الملعب  
 هو واقعة تعشق شاب من ذوي البيوتات الشهيرة لبنت فقيرة  
 ليس لها حسب ولا نسب وقد اخذ جمالها بلبه فتعلق بها وتعلقت  
 به وقد اراد ذلك الشاب التوجه للحرب فاتي اليها ليودعها وتحالفا  
 على ان يبقى معها على الحب وتبقى هي معه عليه الى ان يعود فيتزوج  
 بها واخذها بذلك على بعضها العهود والمواثيق ثم افترقا ولما انقضى  
 زمن الحرب وعاد الشاب سالماً طلب اهله ان يزوجه فاني فاغلاظ  
 عليه والده وساله عن اسباب تمنعه والح عليه فاخبره بجلي امره وما  
 وقع بينه وبين معشوقته من الايمان والمواثيق فغضب عليه ابوه  
 لخروجه عن طاعته وميله لواحدة من رعا الخلق غير مستقيمة  
 الاحوال ونصحته فلم يقبل فبلغ امه عدم امثاله ثم توعداه على حرمانه  
 من ميراثها ان لم يمتثل فلم يرتدع فعلا عليه حيلة وهي ان يتما  
 البنت بعشقتها لغيره فلم يصدق ذلك واراد ان يعلم ذلك بنفسه  
 فاحضر اهله البنت خفية وخوفوها بالتعذيب وهددوها واعلموها  
 مقصدهم فصارت تضطرب وتبكي وتتحب واخبرتهم انها اتت منه  
 بمولود فكيف تكون لها المعيشة بين اقربانها فتعهد لها ابوه بان  
 يزوجهما بغيره ويمهرها من عنده ويهب لولدها مبلغاً من ماله  
 لتربيته به واكثروا عليها اللوم والتدح والذم ونسبوا اليها سبب  
 خروج ولدهم عن طاعتهم وترك ما يجب عليه لنفسه ولاهله  
 وانها هي السبب في سوء محظته وعدم استقامة حاله وانه بذلك

يعيش في اسوء الاحوال وانه لو كان حبك له صحيحاً لم ترضي له  
لانتا لامحالة مصممون على حرمانه من ميراثنا واخراجه من دفتر  
عائلتنا فانتهى بها الحال من اللوم والتعنيف الى ان قبلت منهم ما  
قبل لها فاخذوا عليها الموائيق على ذلك حتى انها لما تقابلت مع  
معشوقها على حسب عادتها خاطبته مع التأسف وتكلف الاعراض  
عنه بسبب ما خوفوها به ولم تملك نفسها من كثرة البكاء فتكرهه  
وحضرايه فاخذه ولامه على ذلك وبعد محاورات بينهما انتهى  
الامر بان وعد اباه بالتسلي عنها وانه متقاد لامره راض بما يرضى  
به فخطب له بنت امير معروف كان الشاب يعرفها حق  
المعرفة ومع كثرة مالها كان لا يميل اليها اصلاً لتجردها عن الجمال  
لكنه وعد بالامثال فلما كان يوم الزفاف دخلت البنت الفقيرة  
الدار مخفية في ملبس غيرها من دون ان يشعر بها احد وكان  
هناك جمع عظيم من الناس فدخلت في غارهم واستترت في زاوية من  
بستان الدار واقامت تنتظر الفرصة في اجراء ما هي عازمة عليه  
واذا بالشاب قد مرو بيده عروسه وخلفه اناس كثيرون فنهضت  
من مكانها وقبضت بيده وقالت له ان كان ما فعله اهلك لي من  
حق الاغنياء فحق على الفقراء ان تصنع بنفسها ما تخلص به من  
سوء معاملتهم واخرجت مديّة ضربت بها نفسها فوقعت في الارض  
ميتة من وقتها فصاح الشاب وطلب الحكيم وهاج الحاضرون  
واجتمع كل من بالمنزل من الاهل وغيرهم ولكن مضى الامر وتم.

ولا حيلة في رد القضاء المبرم ثم انهم وجدوا مجملها طفلاً صغيراً ملفوفاً في بعض خرق ومعه ورقة مضمونها انها على ما هي عليه من الحب والشوق اليه لا تغيرها حوادث الزمن ولا ينهبها ترادف المحن لكن اهله لشدة باسهم وغناهم وانتسابهم لاصول عريقة خوفوها بانواع العذاب ونسبوا اليها ما يشين عرضها بين الاهل والاصحاب وانها قدمته على نفسها وتركت له الدنيا بنعيمها حتى لا تكون سبباً لتفريط معيشتها وقلة صفاء فكرته

هذا ملخص اللعبة فالبيت الصغير هو بيت الشابة واهلها والمرأة والدتها وهذه البنت التي تراها اختها وسترى الشاب العاشق وتنظر جميع هذه التقلبات مفصلة وفي اثناء الكلام روعي الغلام العاشق أتياً من وسط الأشجار يتكلم مع البنت واهلها وبعد قليل انفصلت الام وبناتها الصغيرة وبقي هو مع معشوقته يتكلمان ويتناشدان الاشعار على عادة العشاق ثم أرخيت ستارة حجب بيت جهة الملعب عن اعين المتفرجين فخرج اكثر الناس من محلاتهم قال برهان الدين وخرج الانكليزي وانا معه فدخلنا ديواناً كبيراً فوجدنا الناس مجتمعين فيه من نساء ورجال منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك وكانت النساء مختلطة بالرجال البعض في مسامرة والبعض في تروض بالمشي فاحاط بنا اناس كثيرون فما من احد الا سال تني وعن بلدي وسبب هجبي ونحو ذلك ومن الغريب ان كثيراً من

المحاضرين كان يسأل هذه الاسئلة بعد ان رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها فلا يكفني بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً ويسمع الجواب ثانياً

واما النساء فكانت الواحدة تكرر السؤال المرة بعد المرة فعبئت غاية العجب من ميل اهل هذه الملة اليّ وسؤالهم عني ثم سمعت ضرب ناقوس فقام الجميع فعلمت انه علامة على الرجوع فعدنا الى موضعنا وبعد برهة رفعت الستارة فرأيت الصورة تغيرت ولم ار اشجارا ولا انهارا ولا غيرها مما كان سابقاً بل رأيت منزلاً صغيراً من داخله حجرة فيها طرايزة وكراسٍ ورأيت الشاب مع البنت يتكلمان ويبيكان ويتناشدان الاشعار في الوجد والاشتياق ويتشاكبان الأمر الفراق والزفات متصاعدة والعبرات منحدرة والانفاس مترددة والعيون شاخصة وعلائم الوجد والوله بادية فعلمت انها حالة وداع ثم ارخيت الستارة فخرج الناس كالاول وهكذا الى ان انتهت اللعبة وكان ذلك في اربع ساعات ونصف قريباً من نصف الليل وفي اثناء الفصول كانت تتجه نحوى من جميع جهات التياتر ابصار المحاضرين من النساء والرجال والكثير كان يستعمل النظارة وتكرر ذلك منهم مرارا وكنت انا كذلك انظر اليهم بنظارتى فارى انهم بالقرب منى وارى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والراس والذراعين وارى نصف نهديها من الاعلى فلم اتمالك ان نظرت اليهن ونزهت

طرفي في حسنهن وتذكرت قول من قال

يا دمية شرعها ضرب النواقيسـ

ما بين قرب مزاري والنوى قيسي

هذي ثناياك قد لاحت بوارقها

ام اشرفت في الدجى انوار برجيسـ

ام ثغر كأس الطلا يقتر عن حبيبـ

ام ذا ضياء نبي الله جرجيسـ

وعذرت من هام بحب الغواني واباح التمتع بروية الوجوه

الحسان وتمثلت بقول من قال

ايها العاشق المعذب صبيرا

فخطايا اخي الهوى مغنوره

زفرة في الهوى احط لذنب

من غزاة وحجة مبروره

وما رايت واحدة منهن الا ويدها مروحة تروح بها على

نفسها وتوجه نظارتها الى غيرها وتنامل في ملابسها وكانت

الرجال ايضا تفعل ذلك وبينما نحن واذا بالفتاة التي كانت

معنا على السفرة قد برزت!

ولها سرائر في الضمير طويتها \* نسي الضمير بانها في طبه

فتشاغت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واخلاف

الصور لكن لما وقع بصري عليها ووجدتها موجهة نظارتها نحوي



لم امتلك ان وجهت نظارتي نحوها فكنت كما قيل  
 لم يكن المجنون في حالة \* الاً وقد كنت كما كانا  
 لكنه باح بسر الهوى \* وانني قد ذبت كتمانا  
 فاشتغل فكري بها وقصرت نظري عليها وتوجهت بكلماتي  
 اليها وقام بي من الشوق ما لا اقدر على دفعه ولا حيلة لي في رفعه  
 فهاجت ضمائري واضطربت سرائري واشتغلت بها عن رؤيـة حوادث  
 الـتيـاتر وغيرها حيث وجدتها تفوق الجميع حسناً ودلالاً وظرفاً  
 ولطفاً وكالاً وكان يظهر لي انها تهتف باسمي وتشير بطرفها الي  
 رسي وكثيراً ما رايتها تشير اليّ بالبنان اشارة متم بالحب ولهان  
 فكان بصري مراقباً جميع حركاتها وقلبي مشغولاً بمجمل صفاتها  
 وغرقت في بحار الافكار لكـي كـتـمـت عن الحاضرين تلك الاسرار  
 وخشيت هتك الاستار وهمت من حبها وجداً ولا هيام عاشق ليلي  
 وسعدى فما راغني الاً سرعة قيامها والنفاتها اليّ بحسن قوامها  
 وكانها تقول

بنا فوق ما تشكون نصيراً لعلنا \* نرى فرجا يشفي السقام قريباً  
 فغشيني من المم ما غشي فرعون من اليمّ فا نظرت اليّ  
 نظرة الاً اورثت قلبي الف حسرة فذهبت وذهب قلبي معها  
 وكدت ما بي اقوم كي اودعها وصرت اردد في نفسي عندما  
 غاب شخصها الجميل عني

يارائحاً بعد ما سباني \* حسبك رب السما تعالى

واجتهدت في صرف صورتها عن وهي فما استطعت وامرني  
 أمر الورع والتقوى بسلوانها فما اطعت  
 وقد كنت من قبل الهوى ائني الهوى  
 زماناً ولكنّ الهوى غلب التقوى

فبقي خيالها نصب ناظري وجهالها قيد خاطري حتى انصرفت  
 مع الانكليزي بعد ما تم اللعب وانقضى وبقي من فراقها جمر  
 الغضا واما ما كان من حوادث اللعب وقتل البنت لنفسها  
 فجدير بان يذهل نفس من رآها عن حسها وذلك لان اللعب  
 كان مستوفياً شروط التقليد وكأن الواقعة حقيقية وان ما بها من  
 البكاء والاقوال والحوادث والافعال صادر من نفس اصحاب  
 الواقعة فكان قلبي يتنقل على حسب ثقلات الحوادث حتى بكيت  
 وسقطت من عيني العبرات وما افقت من ذلك الا بانقضاء اللعب  
 وكانت النظارة التي اهداها اليّ الخوجا هي المعينة على انكشاف  
 ذلك كله فمع ان محل اللعب كان بعيداً عنا فكنت ارى حركة  
 شفاهم وكاني في وسط المكان فعميت لهذه الآلة وانتظرت الفرصة  
 في سوال الانكليزي عنها وفي اثناء الطربوس سألتني عن حال  
 التياتر فذكرت له جميع ما خطر لي من الخواطر وما تأثرت به من  
 الحوادث فضحك وقال ايها الطف وادق التياتر ام اولاد رابه  
 فقلت له شتان ما بين ذا وذاك واين الثرى من الثريا والتقدم من  
 المحيا

قال الحماكي لهذه الحكاية فلما وصلا الى محلها دخل الانكليزي  
مخدعه وتوجه برهان الدين الى والده فوجده قد نام فنام هو ايضاً  
وعند الصباح قام على حسب عادته وتوضأ وادى ما عليه من  
فريضة ثم ذهب الى والده فقبل يده وقعد بجانبه فسأله عما راي في  
ليلته فذكر له الواقعة واطنّب وبين له ما كرهه من ذلك وما  
احب ووصف ما عاينه من الزخرفة والزينة وآلات الطرب  
والتصوير والتمثيل واللهو واللعب وقال لقد رايت الليلة ما فيه  
العجب العجيب ولكن لينك يا والدي ما اذنت لي في الذهاب قال  
ولم ذلك فذكر له ما رأى من حال النساء واخلاقهن بالرجال  
وكشفهن لوجوههن وصدورهن ونهودهن اظهاراً للجمال وانه راي  
ذلك مبيناً للحياء والكمال ومضراً بحال النساء والرجال وداعياً  
الى تعلق البعض ببعض لسهولة الاختلاط المؤدي الى الميل  
واشتغال البال وترك الانسان ما يجب عليه من الاعمال اذ لا  
يجفى ان اول الحب نظرة كما ان اول الحريق الشرر فما اسوء هذه  
العادة في هذه البلاد وما اضرها على العباد

فقال الشيخ يابني لكل بلاد عادة يستحسنها اهلهما ويستقبحون  
ما يخالفها وان كان غيرهم على عكس ذلك ولن تستطيع تغيير  
عادة جارية في مدينة كبيرة مثل هذه بازرائك عليها وانتفاصك لها  
فلا يحصل من الاعتراض عليهم غير التعرض لمعاداتهم على انا لا  
فائدة لنا في تغيير عادتهم واستمراهم عليها اذ لنا بصلا معانرتهم

وسكنى حاضرتهم وإنما نقيم بين اظرفهم مدة يسيرة ونرحل عنهم فما علينا من اخلاقهم وعاداتهم مليحة كانت او قبيحة وإنما علينا اذا راينا في اوضاعهم وطباعهم واحكامهم ومبانيهم وغير ذلك شيئاً فيه لبلادنا مزية ومنفعة احصيناه وحفظناه حتى نجتهد في نقله الى جهتنا بالتنويه به بين اهل ملتنا واظهار محاسنه وبيان منافعه وترغيب الناس فيه بشرط ان يكون هذا مع التحقق من نفعه بعد امعان النظر وجودة التأمل ومراجعة اهل النظر والبصيرة فيه لا بادية الرأي والنظرة الحمقاء فقد راينا كثيراً من الاغرار الحمقاء حين يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة ويرون ما فيها من الزخرفة والزينة والابهة وعلامم العز والثروة واليسار ما لا يجدون نظيره في بلادهم تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر المعجبة على ان يستحسنوا كل ما راوه ما يخالف ما عندهم ويظنوا انه سبب الغنى والثروة لاهل تلك المدينة مع انه ربما كان في نفس الامر قبيحاً مضراً وإنما غطي على ضرره انه مصحوب بامور نافعة غيره وربما ظهرت مضراته بعد حين فعلى العاقل ان لا يتسرع الى الحكم بل يتثبت ويتأمل حتى تظهر له حقيقة الشيء على ما هو عليه ويجتهد في نقل النافع لاهل وطنه وملته والكف عن غيره وإما ما ذكرت من خوف الفتنة من تكشف النساء كما رايت بالامس فكان عليك يا بني ان تغض البصر عما لا تحل لك رؤيته وما يخاف عليك تبعته وقد قال الله جلت كلمته

( قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم )

وبينا هما في هذا الكلام دخل الانكليزي عليها واخذ يسمع  
نصائح الشيخ لولده فاتم الشيخ كلامه وقال . واعلم يا ولدي ان  
لكل امة من الناس عادات الفوها واستمروا عليها لا يتحولون عنها  
بل لكل واحد من الامة عادات واخلاقاً تخص به ويتميز بها  
وقد قلت لك فيما سلف ان الخلق وان كانوا من نفس واحدة  
الآن ان اخلاقهم وطباعهم متغايرة وعاداتهم واوضاعهم منفرقة فمنهم  
من اعتاد حجب النساء وحجزهن في المنازل ومنهم من اعتاد  
ارازهن واخلاقهن بالرجال وكذلك منهم النخيل والسخي والشجاع  
والجبان والغبي والزكي والصالح والطالح الى غير ذلك كما ان  
منهم الاسود والاشقر والابيض والاشقر ومنهم من لغته العربية  
وغيرها وليس من نوع الانسان الا وفيه خلق من اخلاق غيره  
من الحيوان فاذا رأينا الرجل جاهلاً في خلائفة غليظاً في طباعه  
قويّاً في بدنه لا تومن ضعائنه الحفناه بعالم النور لان العرب  
ضربت بالتمر المثل فقالت اجهل من تمر واذا رأينا الرجل هجماً  
على اعراض الناس الحفناه بعالم الكلاب فان داب الكلب ان يخفق  
من لا يخفوه ويؤذي من لا يؤذيه واذا رأينا انساناً جيل على الخلاف  
ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم الحفناه بعالم الحمير  
فان دأب الحمار ان ادنيتة بعد وان ابعدهتة قرب فلا تتفع به  
ولا يمكنك مفارقتة وان رأينا انساناً يهجم على الاموال والارواح

الحقناه بعالم الاسود فخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد  
 واذا رأينا انسانًا خبيثًا كثير الروغان الحقناه بعالم الثعالب لان  
 العرب ضربت به المثل فقالت اروع من ثعلب واذا رأينا من  
 يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة الحقناه بعالم الظربان  
 وهي دويبة قدر الهرة منتنة تقول العرب عند تفرق الجماعة  
 مشى بينهم الظربان اي تفرقوا واذا رأينا انسانًا لا يصغي الى  
 الحكمة والعلم وينفر عن مجالس العلماء ويألف اخبار اهل الدنيا  
 الحقناه بعالم الخنافس فانه يعجبها اكل القاذورات وملامسة  
 النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذا اشتمت ربيعة الطيب  
 ماتت لوقتها واذا رأينا الرجل يصنع بنفسه ما تصنع المرأة لبعلمها  
 فيبالغ في التزين وينظر في عطفه الحقناه بعالم الطاووس لان  
 العرب ضربت به المثل فقالت ازهى من طاووس واذا رأينا انسانًا  
 حتمودًا لا ينسى المفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات  
 الحقناه بعالم الجمال فتجنبنا قربه لان العرب تقول احقد من  
 جمل فخذ من الناس حذرك وجد فيما تحسن به امرك  
 التصح ارخص ما باع الرجال فلا

تردد على ناصح نصحا ولا تلم

ولقد ذكرت بما انساق اليه الكلام من طبائع الحيوان نادرة  
 لطيفة عن الامام علي رضي الله عنه وكرم وجهه حكى انه دخل  
 عليه اعرابي فقال له اني رأيت كلبًا وطيء شاة فولدت فيا تقول في

ولدها . فقال كرم الله وجهه اعنبره في الاكل فان اكل لحمًا  
فكلب وان اكل علفًا فشاة . فقال الاعرابي رايته يفعل هذا  
تارةً وهذا اخرى . فقال اعنبره في الشرب فان كرع فهو شاة  
وان ولغ فهو كلب . فقال الاعرابي وجدته يبلغ مرة ويكرع اخرى  
فقال اعنبره في المشي مع الماشية فان تاخر عنها فكلب وان  
تقدم او توسط فهو شاة . فقال وجدته مرة هكذا ومرة هكذا فقال  
اعنبره في الجلوس فان برك فشاة وان اقعى فكلب فقال يفعل  
هذا مرة وهذا اخرى . قال اذبحه فان وجدت له كرشا فهو شاة  
وان وجدت له امعاء فكلب وما ذاك الا من سعة علم الامام  
كرم الله وجهه ومعرفته بالطبائع

قال الانكليزي اظن ان الذي جر هذا الكلام بينكما حكاية  
ما رآه برهان من امر التياتر فاني اظنه حدثك بما كان  
فقال الشيخ نعم شرح لي صورة الحال وكيف قتلت البنت  
وحكى لي انه تأثر من معاينته ذلك حتى كأن الامر حقيقي لا مجرد  
تصوير وتمثيل

فقال الانكليزي ما كنت اظن هذا الامر يوثر في برهان  
حتى رأيت في اثناء الواقعة بيكي فحملت ذلك على رقة قلبه  
فقال الشيخ هذا لا يستغرب من مثله فانه صغير السن قليل  
الممارسة للامور فهو سريع التأثر بعيد عن القسوة

قال الانكليزي فكيف به لو رأى تصوير الحوادث المحسمة

والوقائع المحرّبة العظيمة حيث يرى القتلى صفوفاً والمدرجين  
في دماءهم الوقاً والمقطعين أرباً أرباً والمدبرين عن القتال رهباً  
وهرباً

فقال برهان اعوذ بالله من ذلك لست ممن يميل لرؤية  
هذه الامور وانما اميل لما يجلب الى النفس السرور ومالي ولما يورث  
الحزن ويبعث على الشجن

فقال الانكليزي الشيء لا يعرف الاً بصدده ولا تخلو روبة هذه  
الامور من فائدة

قال برهان ولكن هذا امر لم تألفه طباعتنا ولم تسبق لنا به  
عادة واذا رايت شيئاً من ذلك تكلمت فيه بما اراه والذي ارجوه  
منك الان ان تعرفني كيفية هذه النظارة ولاي شيء يرى البعيد  
بها قريباً والصغير كبيراً فلا بد لذلك من حكمة





المعامرة الثامنة والعشرون  
النظارات

قال الانكليزي العلم بحقيقة ذلك متوقف على قواعد علمية  
مذكورة في علم الطبيعة في باب الضوء وستنف عليه ان شاء الله  
عند تلقي هذا العلم بالمدارس وبعض هذه الخواص قائم بشكل  
الزجاجة الموضوعه في النظارة وبعضها ناشيء من تعددها وبعدها  
عن بعضها فلا ندخل في ذلك الان ويكفينا الاستدلال بها  
على استكشاف الانسان لامور اتسعت بها دائرة معلوماته وقد  
زعم بعض المؤرخين من الاورباويين انها لم تكن موجودة الى  
القرن الثالث عشر من الميلاد وانما اخترعت بعده على يد رجل  
تلياني وليس كذلك لانه تحقق لنا الان ان استعمالها سابق على  
هذا التاريخ وان هذا التلياني انما احدث فيها بعض تحسينات  
فقط ومع ذلك كله فاطن ان استعمالها بالديار الاروباوية لم  
يكن الا بعد استعمالها بالمشرق فان ابتداء علمي الملاحه ورصد  
الكواكب اللذين هما اشد احتياجاً اليها من غيرهما كان بتلك  
الديار وقد نسب المؤرخون اختراعها الى المصادفة حيث قالوا

اتفق ان بعض اطفال الصنّاع من اهالي هولاندة في بعض العاهم  
 قربوا عدستين من الزجاج الى بعضها وكاتتا من جنسين مختلفين  
 ثم نظروا من خلفها فوجدوا الاشياء الصغيرة البعيدة كانتا قريبة  
 كبيرة فاخبروا معلمهم بذلك فامتحنه فوجده حتمًا فاخذ في عمل  
 نظارات بعدسات من اجناس مختلفة بعد ان كان يجعلها من  
 جنس واحد فكانت تسمى هذه النظارات بالهولاندية نسبة الى  
 ذلك المعلم وكانت ترى بها الصور غير تامة الوضوح بسبب ما  
 كان يرى فيها من التلون بالوان العدسات فاشتغل اهل الفن  
 بازالة هذا الامر وذلك ان احد الفرنسيين ادخل مادة جديدة  
 في المواد التي تتركب منها العدسات فامتنع ظهور الالوان  
 المذكورة وكان ذلك في القرن السابع عشر من الميلاد  
 وهو القرن المحادي عشر من الهجرة فمن ذلك الوقت صارت  
 الصور ترى بلونها الاصلي وبحسب تقدم الناس في المعلومات  
 الفكرية واتساع دائرة العلم والصنّاع العملية تحسن امرها  
 شيئًا فشيئًا حتى تنوعت الى انواع كثيرة وصلت في الاتقان الى  
 غاية كبيرة

وجميع النظارات المستعملة الان بين الناس بالنسبة لتعدد  
 العدسات الزجاجية وعدمه منحصرة في قسمين بسيطة ومركبة  
 فالبسيطة هي التي تشتمل على عدسة واحدة كالتى  
 تمسك باليد او توضع على الانف وهي مختلفة الشكل والقيمة

بالنسبة لمحسن المعدن والمادة الداخلة في تركيبها ولاختلاف شكل اعين الناس اخلف تركيبها فان من الناس من لا يرى الاشياء الا اذا كانت على بعد منه ومنهم من لا يراها الا اذا كانت قريبة جدا فما يوافق الاولين لا يوافق الاخرين وبالعكس والغالب ان من يرى الاشياء على بعد يكون شكل عينه مقعرا فيناسبه نظارات محدبة وان من يراها من قرب يكون شكل عينه محدبا فيناسبه نظارات مقعرة ولتفاوت اعين الناس في التحديق والتعير كانت العدسات ايضا متفاوتة فيها وبالتجارب وجدوا التفاوت لا يزيد عن اثنتين وعشرين درجة واكبرها قوة الدرجة الاولى فلا يستعملها الا من كان بصره ضعيفا جدا كالهرم ومن اضر ببصره المرض فسبحان من علم الانسان من مكنون علمه ما اودع في مخلوقاته من الحكم الربانية حتى استعاض ما ضاع من قوة ابصاره التي هي اصل لتلذذ حواسه وغذاء افكاره

والمركبة هي التي تشتمل على عدستين فاكثر مثبتة في قضيب اسطواني فتوضع احدى العدسات في نهايته ما يلي الرائي وتسمى الباصرة او العينية والثانية في النهاية الاخرى وتسمى الشئية او الشخصية لانها في جهة الشيء المرئي وشخصه وقد يكون القضيب مركبا من قضيبين او قضبان يدخل بعضها في بعض لسهولة الاستعمال وتقرّب الاشياء وزيادة ظهورها للعين فتكون خبيثا

نافعة لجميع الناس لسهولة تنقيص الطول وزيادته على حسب قوة الرائي وفي هذا النوع اذا كانت العدسات من جنس واحد اي محدبة فقط او مقعرة فقط تكون الصورة المرئية مقلوبة اي ان المرئي لو كان رجلاً مثلاً لنظرت صورته منعكسة رأسه لجهة اسفل ورجلاه الى اعلى فان كانت العدسات مختلفة بان كان بعضها محدباً والاخر مقعراً رؤيت الصورة كما هي واما النظارات التي يستعملها العميون فيوجد بها عدسات اخرى بين الباصرة والشبكية (اي الشخصية) موضوعة بقوانين حسابية وبسبب ما علم من فوائد هذه الالات لم يزل اهل الفن مشغولين بها حتى توصلوا الى عمل نظارات تكبر الصورة عن اصلها الف مرة والفين وثلاثة الاف واكثر والى عمل نظارات لنظر الاشياء الدقيقة جداً كاعضاء بعض الحشرات كالنمل والذباب والبراغيث ونحو ذلك مما لا يمكن رؤيته بدونها وهذه ايضاً اما بسيطة كالتى عند الساعاتية والجوهرية واما مركبة في قضبان تتداخل في بعضها وتكون عادة موضوعة راسية مثبتة في قائم من معدن لتسهيل الاعمال اللازمة ويكون التعظيم المحاصل منها حينئذ محصل ضرب تعظيم كل من هذه العدسات في الاخر فاذا كانت العدسة الشخصية او الشبكية تعظم قطر الجسم خمس مرات والعينية عشر مرات كان التعظيم الاخير خمسين قطراً اي الفين وخمسة عشر سطحاً حاصله من ضرب الخمسين قطراً في نفسها وقد

يكون التعظيم الاخير الف قطراً اي مليون سطح كما اذا كان  
 التعظيم من الشخصية مائة ومن العينية عشرة او من الشخصية  
 اربعين ومن العينية خمسة وعشرين مثلاً وسأطلعك على هذا  
 كله واريك بعض غرائب الصور التي تراها بها اذا دخلنا المدينة  
 فان بها دكاكين مخصوصة ببيع النظارات لانها على الحجر وجميع  
 القباطين لا بد لهم منها فلا تسير سفينة الا وبها عدة منها اما بيد  
 القباطين او بيد البحرية



### المسامرة التاسعة والعشرون

#### العادات

ثم امر الانكليزي باحضار الفطور فاكلوا على العادة ثم قاموا  
 يتفرجون على المدينة ولاجل وقوف الشيخ على كيفية المدينة واهلها  
 استحسنوا ان يبدأوا بالتفرج على اصلها القديم ثم على الجديد وفي  
 اليوم الاخير يذهبون الى خارجها ليطلع الشيخ على اطرافها  
 وضواحيها ويقارن احوال الزمن الماضي باحوال الزمن الحالي

ويرى كيف تتغير احوال البلدان بتغير اهلها واستحسن الشيخ  
الذهاب على القدم وان كان اكبر الثلاثة سناً ليمكن مزيد تمكن  
من الاطلاع على ما بها من الاماكن والبقاع والاحوال والطباع  
فاخذ بعضهم بيد بعض وابتدأوا من المينا (اي المرسى) فداروا  
حولها وراوا بها مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومحلات  
الكهرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع اشكالها  
واجناس ملاحبيها وملابسهم والوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة  
في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر الى جهات مختلفة  
ووجد المرور بالطرق عسراً جداً لكثرة العربات المعروفة في  
مصر بعربات الكرو ومقابلتها عربات الركوب والحمالين والمارين  
فكان سيرهم متقطعاً غير مستمر وظهر للشيخ وولده عظم تمويل الامة  
الفرنساوية واتساع ثروتها ومعرفتها بطريق الاسباب المعاشية  
ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر واهلها  
وثغر الاسكندرية وحالها فوجد بينها وبين مرسيليا فرقا كبيراً وان  
ذلك ليس الامن تفاوت احوال التقدم ونظر الى المارين بالطرق  
وقارن احوالهم بما يعلم من احوال اهل بلاده فوجد ان لا نسبة  
بينهما الا في الصورة فقط لانه رأى الكلك يسعى مع الاجتهاد  
والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعلمهم اثار اليسار والثروة  
والنعمة وما زاده تعجباً ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم  
صوتاً ولغظاً كما هي عادة المصريين واهل المشرق بل كل مشغول

بامر نفسه سائر في طريقه محترز من اضرار غيره او تغيير خاطره  
ومع تنوع الاشغال والاعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب  
فكانهم اجتمعوا للصلاة او لسماع منشور من احد الولاة فلا يسمع  
بينهم الا الفاظ لا بد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ  
حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بازقة القاهرة والاسكندرية ونحوها  
من مدن الممالك المشرقية فانا نرى الناس بها سيما في الموالد  
والمواسم والمحافل لا تكاد تمر بهم ساعة من الساعات الا ويحصل  
فيها تشويش خاطر المارين وازعاجهم من كثرة الصياح والصراخ  
والسب وسماع الالفاظ الفظيعة ثم تأمل في اصل ذلك وسببه  
فوجده ناشئا من قوانين الضبط الابتدائية وطرق التربية الاولية  
فتعود كل على ما نشأ عليه ثم انهم بعد الاطلاع على المينا وما بها  
من المباني والغرائب دخلوا المدينة فبدؤوا بالجزء القديم منها  
فوجدوا بناءه وحرارته وطرقه مثل ما يوجد في المدن المشرقية  
سواء بسواء الا ان طرقه مبلطة وغالب حرارته يخرج منها روائح  
كريمة وما بها من الدكاكين والمخانات ليس كالذي رأوه في  
الشوارع الجديدة الموصلة الى اللوكاندة حيث هم نازلون ووجدوا  
المارة قليلة بالنسبة لما رأوه في تلك الشوارع وما زالوا سائرين  
من محلة الى محلة ومن جهة الى غيرها والشيخ وابنه يتاملان فيما  
يمران به ويقع تحت نظرها ويقابلان حاله بحال ما في مصر  
وجهاتها من نوعه وينظران في الفرق بين المحليين والترجيج بين

وكان غالب نظر الشيخ منعطفاً الى عادات الناس وإدابهم في معاملاتهم وسائر حالاتهم وما يراه بهم من علائم الغنى والفقر والراحة والتعب وكثرة الكسب وقلته وسهولة امر المعاش وصعوبته ونحو ذلك من الاحوال واسبابها وكان نظر برهان الدين كعادة غيره من الشبان قاصراً على المناظر والظواهر فنظر في مباني المدينة وتأمل فيها فرآها مرتفعة ورأى غالب البيوت من اربع طبقات الى سبع بعضها فوق بعض فتعجب من وضع المباني وكثرة تعدد طبقات المنازل مع ان اعظم بيوت مصر في العلو طبقتان خلاف الطبقة الارضية بل الكثير منها طبقة واحدة فوق الارضية

فقال له الانكليزي اراك تردد النظر الى هذه المباني والتأمل في ارتفاعها واراك كالتعجب من كثرة طبقاتها . فقال نعم . قال الانكليزي لا غرابة في ذلك فهذا كله ناشيء من امور طبيعية واسباب جووية لان هذه البلاد باردة فلا يناسبها الغرف الواسعة ولا المرتفعة وإنما يناسبها القليلة السعة والارتفاع فاذا لزم عندكم ارتفاع الطبقة ستة امتار مثلاً كفى عندنا نصفها لان غالب اوقات السنة عندنا باردة فمحتاج اصحاب المساكن لاستعمال الة مخصوصة لتولد الحرارة ودفع البرودة كأفران من حديد توضع في المحلات وقت الشتاء وحمامات تعمل داخل البناء كما رأيت في محلات اللوكاندة فكلمنا كبر المحل احاج لزيادة الوقود في الفرن وفي ذلك



زيادة في المصرف ولذا اضطر الناس عندنا الى تقليل ارتفاع  
المحجرات فكثرت الطبقات في الدور مع كون الدار لا يزيد  
ارتفاعها عن ارتفاع دوركم الا بشيء يسير بل ربما كان ارتفاعها  
سواء الا انها عندنا منقسمة الى عدة طبقات تسكنها عائلات  
متعددة اذ كانت العادة عندنا ان لا ينفرد صاحب الدار بسكنائها  
بل يسكن منها فيما يكفي عائلته ويؤجر باقيها بخلاف ما عدكم  
من تعود كثير من الناس ان ينفرد صاحب الدار بسكنائها مستقبلاً  
ان يساكنه غيره ولو كان من اقاربه فلما ذكر من الاسباب  
اختافت اوضاع المنازل عندنا وعندكم وكما اقتضى اختلاف احوال  
الاقطار اختلاف اوضاع المساكن كذلك اقتضى اختلاف هيئات  
الملابس وتنوع المأكول والمشرب وعلى ذلك جرت عادتهم ووقع  
عليه استحسانهم حيث كان مرجعه الى اقتضاء الطبايع الا ترى  
العرب في البادية يكفي الواحد منهم بقميص واحد ورداء ابيض  
من الصوف وهو المعروف بالمحرم وما ذاك الا لان حرارة قطنهم  
تمنعهم من الزيادة على ذلك فالثوب لستر العورة والمحرم لزينة  
النهار وغطاء الليل ولم يكن اختيار اللون الابيض خالياً عن  
الحكمة بل لانه الموافق للاقطار الحارة فيبرد الحرارة عن البدن  
بخلاف باقي الالوان فانها تجذب حرارة الجوالها ومن اجل  
ذلك اعتاد الناس لبس الابيض في الصيف وغيره في الشتاء  
وكذلك يستحب في البلاد الحارة الثياب الواسعة كملابس اهل

الارياف وكالمجبة والتفطان عند اهل المدن واما البلاد الباردة فيطلب فيها ضيق الملابس لتكون ماسية للجسد لاصقة به لان الجسد له درجة في الحرارة لها مع حرارة الجو نسبة تتعادل معها بحسب الفصول فهما كان الثوب محكما على الجسد حفظ حرارته ولو نظرت الى تفصيل المنازل عندنا وعندكم وتاملت صورتها الخارجة والداخلة لرأيت ان القطرلة دخل عظيم في اختلافها مثلا سطوح المنازل عندكم مستوية وفي بلادنا لا يناسب هذا الوضع لان المطر عندنا كثير وفي بعض الاحيان يتجمد فيكون ثجبا فلو كان السطح مستويا لتسارع اليه الخلل خصوصا لطول مدة الامطار وكثرتها فيسري الخلل الى المنازل وتمتنع راحة سكانها وتكلف امتعتهم ويؤدي ذلك الى ضرر عظيم لتراكم الثلج فوق الاسطحة واذا ابتدا الجو في الحرارة ائناع وسال وبسيلانه يفسد بناء المنازل ولذلك تجد جميع سقف المنازل عندنا عبارة عن سطحين يرتفع طرفاها عند التقاها على الهيئة المعبر عنها في اصطلاح المصريين بالجمالون فهذا الشكل من ضروريات قطرنا لما علمت بخلاف ما عندكم فان الامطار في الاقاليم الشمالية المعروفة بالجهة البحرية في مصر قليلة جدا وفي الجهة الجنوبية منها المعروفة بالقبلية نادرة ولا ضرورة للاحتراس من شيء لو وقع كان قليلا او نادرا او غير مضر وهذا قانون عام في جميع جهات الارض فكل سكان بقعة من مبداء اتخاذها مقرًا ووطنًا قد تخيلوا حتى اهتدوا الى ما

يوافق احوالهم بالنسبة لهذه البقعة ومن ثم كانت الطباع والاخلاق  
والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة واما ما زاد فطاري من  
اخلاط سكان كل بقعة بمن جاورها



### المسامرة الثلاثون

#### القهوة

وهكذا كان يتكلم مع برهان والشيخ يسمع الى ان وصلوا الى  
محل قهوة يزيل الاتراح ويحلب الافراح للطافته وحسن زخرفته  
وكثرة ما به من المرايا وسائر المزايا والتقوش اللطيفة والاشكال  
الظريفة والادوات النظيفة والآلات المطربة والمحلات المعجبة  
فدخلوا بقصد الاستراحة فاخاروا ركناً بعيداً عن الزحام فقعدوا  
حول طرايزة فحضر الخادم فامر الانكليزي بتهوة للشيخ ولولده  
وبليمونية لنفسه فذهب واتي له بما طلب ثم اخذ ورقة من اوراق  
الحوادث ليطلع على ما فيها من الاخبار وكان الوقت اخير النهار

ومن عادتهم التفسح في هذا الوقت فمنهم من يأوي الى محلات  
 القهوة ليطلع على الاخبار او ليتسلى مع بعض الاخوان ومنهم من  
 يذهب الى خارج المدينة للفسحة والتروض ومنهم من يمشي مع بعض  
 حرمه من النساء فكان في محل القهوة في هذا الوقت زحام كثير  
 يدخلها فوج من الناس ويخرج اخر والجميع في هيئة تدل على  
 الثروة فاستغرب الشيخ هذا المحل واستعظم امره وراى فيه عدة  
 محلات متداخلة وراى الناس تخرج من محل الى اخر بدون ماع  
 ينعم وراى في المحل كثيراً من الكراسي المحسنة والترايبزات الثينة  
 وكثرة المرايا وتقابلها ببعضها كانت صور الجالسين والمخارجين  
 والداخلين تنعكس فيها وتضاعف مراراً فكان يترآى في المحل  
 سعة اكبر واكثر مما هو عليه في نفس الامر وكان المنظر الحادث  
 من هذا التكرر غريباً يلذ الناظر ويسر الخاطر فرغب برهان في  
 التفسح في ارجاء المكان فقال له الانكليزي قم ولا حرج وانظر الى  
 ما تحب وتفرج فراى مكاناً كبيراً فدخله فوجد في وسطه ترايبزة  
 كبيرة عليها ثلاث كرات من سن الفيل وحوها ناس من جملتهم  
 اثنان بيد كل واحد منهما عصا يضرب بها احدى الكرات الثلاث  
 المذكورة فتضرب احدى الكرتين الاخرتين او كليهما وربما ضرب  
 بها حافة الترايبزة فتنعكس عنها الى الكرة الثانية ثم الى الثالثة  
 وربما لم تصب الا واحدة وفهم من الناس ان هذه اللعبة تعرف  
 بالبللارد وان الواحد اذا اصاب بالكرة التي يضربها كلتا الكرتين

الباقيتين حسب له واحد في اللعب ولعب ثانياً فاذا لم يصب  
 كليهما لم يحسب له شي ويلعب قرينه وهكذا حتى يستكمل احدها  
 العدد المتفق عليه بينهما فتكون له الغلبة ثم خرج من ذلك  
 المكان الى حجرة اخرى فوجد بها قوماً جلوساً وامامهم طرايزات  
 عليها الصحف الخبرية واوراق الحوادث الشريفة وهم يقرأون فيها  
 وفي غيرها واخرين يأكلون ووجد محلات التهوية والمشروبات في  
 غاية النظافة والظرف والخدمة في هيئة الكمال واللطف ووجد  
 شابة ظريفة الملبس جميلة الصورة امامها مكتبة ودفترا تكتب فيه  
 ما يطلب فرجع وذكر ما رأى لوالده وكان قد رأى هو ايضاً قريباً  
 من المحل الذي هم به اناساً يلعبون القمار واخرين يلعبون بالنرد  
 وهو المعروف بالطاولة واخرين يلعبون بالشطرنج والدومينو

فقال الشيخ تنبيهاً لولده واحكاماً لرشده قد رايت ما بهذا  
 المكان من بدع الاثقان وغريب الاحسان ما يدلك على تسابق  
 الافكار في توصل بني نوعك الى محاسن الاثار فهذا الموضع كما  
 تراه يبلغ كل داخل فيه مناه فالناس ما بين اكل وشارب ومتفرج  
 وللاعب ومطلع على الاخبار الوقتية وسائل ومحيب عن الاحوال  
 التجارية والناس مع اخلاف هذه الشئون على اكمل هدى واجل  
 سكون الى سلامة ابدان ولطافة اذهان ونظافة ثياب وملاحة  
 ذهاب واهاب فاين من هذا غالب محلات التهوية في مصر حيث  
 يجمع المرفقة من الناس ولا يرمى ما يقر الناظر ويسر الخاطر ولا

شي فيها غير القهوة وراها لضيقها يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون وكذلك دخان النرجيلة والعود ونحو ذلك حتى يراهم من يربهم كأنهم في حريق أو محل سجن مضيق فهي منبع لكثير من الامراض والعلل وماوى لاهل البطالة والكسل خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الخشيش فلا يسمع فيها إلا الفاظ يعجبها السمع وينفر منها الطبع وقلماء خلت عن السب والضرب فهي بهذه الكيفية لا تليق بالامراء والاعيان والنضلاء

فقال الانكليزي ان اصل ما جعلت له هذه المحال عندنا وعندكم واحد ولكن بسبب ازدياد الثروة والتوسع والعمران اكتسبت هذه المحال عندنا هذه الهيئة شيئاً فشيئاً حتى صارت كما ترى يرد اليها جميع الناس من رجال ونساء وافاضل وامراء ومع هذا فما هنا ليس شيئاً بالنسبة لما في مدينة باريس كما ستره فليس الخبر كالعيان وقد رايت عندكم بالموسكي وجهة الازبكية والاسكندرية بعض محلات للقهوة تشبهها وان كان غالب المترددين اليها من الاوروبويين فهذا ربما يشعر بان قطركم قد اخذ في مبادي التوسع في العمارة والرفاهية فيوشك ان تكثربه هذه المحلات ويزداد اتقانها وتحسينها. أما رايت في ازقة مرسيليا القديمة محلات للقهوة لا فرق بينها وبين ما في القاهرة فهذا ما يدل على ان هذه الحالة لم تكن في القرون السابقة كما هي الان ولكن لا تكون الامور إلا

تدریجاً فكلما ازدادت أمة من الأمم تحولت عن حالتها الأصلية الى ما يقتضيه ما صارت اليه ولا يخفى عليك ان الانسان وان كان يصرف في القهوة هنا اضعاف ما يصرفه عندكم الا ان ذلك ليس لذات القهوة بل لها ولما يتبعها من نظافة المكان وما فيه من المحاسن التي رايتها فانكم تعلمون ان النظافة من ضرورات حفظ الصحة التي رعاها الشرع والعقل ولذلك يتعين على ضباط البلاد والقرى والمدن دوام تفقدها والتنبيه عليها حتي تصير عند الاهلين طبعاً وعادة من جملة العادات المألوفة كما انهم يلزمهم زيادة عن ذلك شدة التضييق على المواد المضرّة بالعقل والجسم كالحشيشة فيلزم مزيد التاكيد في ازلتها والتوعد بالعقاب الشديد على استعمالها وكثيراً ما سمعت عندكم بنشر اوامر من الحكومة بمنع تعاطيها وعدم زرع شجرتها في شي من ارض مصر ولكن لم تمنع بالكلية وليت شعري من اين عرف المسلمون هذه الشجرة وكيف استعملوها ولم تكن مشهورة الاستعمال بين قدماء المصريين



## المسامرة الحنادية والثلاثون

## الحشيش

فقال الشيخ انها لم تكن من مستنبات مصر واشتهرت نسبتها الى طائفة من الاعاجم تسمى الحيدرية نسبة الى رئيسهم حيدر قال الحسن بن محمد في كتاب السوانح الادبية سالت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري ببلدة (تستر) في سنة ثمان وخمسين وستائة عن السبب في الوقوف على هذه العقار يعني الحشيشة ووصوله الى القراء (يعني الدراويش) خاصة وتعيده الى العوام عامة فذكر لي ان شيخه حيدر طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه الى الصحراء ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله قبل فدخل محله واذن لاصحابه في الدخول عليه واخذ يجادهم ويوانسهم فلما راوه على هذه الحالة من الموانسة بعد اقامة المدة الطويلة في الخلوة والعزلة سالوه عن سبب ذلك فقال بينما انا في خلواني اذ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفرداً فخرجت فوجدت كل شي من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القبيظ ومررت بنبات له ورق



فأرأته في تلك الحال يميس ويتحرك بلطف كالثلث الشوان فجمعت  
 اقطف منه اوراقاً واكلها فحصل عندي من الارتفاع ما شاهدتموه  
 فقوموا بنا حتى اوقفكم عليه لتعرفوا شكله قال فخرجنا الى الصحراء  
 فاوقفنا على النبات فلما رايناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب فامرنا  
 ان نأخذ من ورقه وناكله ففعلنا فوجدنا في قلوبنا من السرور  
 والفرح ما عجزنا عن كتابته فلما رأنا على الحالة التي وصفنا امرنا  
 بصيانة هذه العقار واخذ علينا الايمان ان لانعلم بها احداً من عوام  
 الناس واوصانا ان نخفيها عن الفقراء وقال ان الله تعالى قد  
 خصكم بسر هذا الورق ليذهب باكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله  
 افكاركم الشريفة فراقبوه بما اودعكم وراعوه فيما استرعاكم

وعاش الشيخ جدير بعد ذلك عشرين سنة ثم توفي سنة ثمانى  
 عشرة بزأوته في الجبل وعظمه اهل خراسان وزاروه وكان  
 قد اوصى اصحابه عند وفاته ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم  
 على هذه العقار فاستعملوها فلم تزل هذه الشجرة شائعة ذائعة في بلاد  
 خراسان وفارس ولم يكن يعرف اصلها اهل العراق حتى ورد اليها  
 صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك  
 سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك الامام المستنصر بالله  
 وذلك في سنة ثمانى وعشرين وستائة فحملها اصحابها معهم واظهروا  
 للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى اهل الشام  
 ومصر والروم فاستعملوها وقد نسبها لحيدر المذكور محمد بن علي

بن الاعشى الدمشقي في قوله من ابيات  
 دع الخمر واشرب من مدامة حيدر  
 معتبرة خضراء مثل الزبرجد  
 يعاطيكها ظبي من الترك اغيد  
 ميس على غصن من البان املد  
 فتحسبها في كفه اذ يديرها  
 كرقم عذار فوق خد مورد

وقال الشيخ محمد الشيرازي القلندري لم يأكل الشيخ حيدر  
 المحشيشة في عمره البتة وإنما عامة اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار  
 اصحابه بها وكان اظهارها قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه  
 كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو اول من اظهر لاهل الهند اكلها  
 ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع  
 خبرها ببلاد اليمن وما جاورها ثم فشا الى اهل فارس ثم ورد  
 خبرها الى اهل العراق والروم والشام ومصر في السنة  
 التي تقدم ذكرها وبيررطن هذا يزعمون انه كان في زمن  
 الاكاسرة وادرك الاسلام واسلم وعاش بعد ذلك طويلاً وذلك ما  
 لا اصل له وقد نسب اظهارها للناس الى اهل الهند علي بن مكّي  
 في ابيات له يقول فيها

فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا  
 بهندية امضى من البيض والسمير

بهندية في اصل اظهار آكلها

الى الناس لاهندية اللون كالسمر

وقد قيل في هذه الشجرة الملعونة كثير من الشعر وان لم يبلغ

ما قيل في اختها الخمر ويقال ان اول ما نظم فيها من الشعر قول

ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الحنفي

وخضراء كافورية بات فعلها \* بالبانافعل الرحيق المعتق

اذا نفخنا من شذاها بنفحة \* تدب لنا في كل عضو ومنطق

غنيت بها عن شرب خمر معتق

وبالدلق عن لبس الحديد المزوق

فقال الانكليزي ما المناسبة في نسبتها الى الكافور في قوله

وخضراء كافورية

فقال الشيخ ليس المراد نسبتها الى الكافور المشهور وانما اراد

نسبتها الى بستان كافور وكان مشهوراً به وكان هذا البستان

موجوداً بمصر قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لدير مصر

انشأه الامير ابو بكر محمد بن طنج الملقب بالاخشيدي فلما قدم

جوهر القائد الى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة

وعرف ببستان كافور وقيل له في الدولة الفاطمية البستان

الكافوري قال بن عبد الظاهر البستان الكافوري هو الذي

كان بستاناً لكافور الاخشيدي وكان كثيراً ما يتنزه به وبنيت

القاهرة عنده ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستائة فاخطت

المجربة والعزيزية به اصطبلات وأزيلت أشجاره قال ولعمري ان  
خرابه كان بحق فانه كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء  
والتي تطلع به يضرب بها المثل في المحسن قال شاعرهم ابو المحسن  
علي بن عبد الله الينبي

رب ليل قطعته ونندي

شاهدي وهو مسمي وسهيري

مجلسي مسجد وشربي من خضراء -

- تزهو بحسن لون نصير

قال لي صاحبي وقد فاح منها -

نشرها مزرياً بنشر العبير

أمن المسك قلت ايست من المسك -

- ولكنها من الكافور

فلم يرد انها من الكافور وإنما اراد انها من البستان المذكور

ومن ذلك قول ابي المعز بن ابي المحسن بن احمد الصائغ

المغربي

قم عاطني خضراء كافورية

قامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير اذا تناول درهماً

منها له تبه على الامراء

وامر السلطان الملك الصالح نعم الدين ايوب الاخير جمال

الدين بن يغموران يمنع من يزرع في الكافوري من الحشيشة شيئاً فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً كثيراً فامر بان يجمع فجمع واحرق فنظم في ذلك ابو العباس احمد بن يوسف ابياتا مطلعها

صرف الزمان وحادث المقدور

تركا نكير الخطب غير نكير

وكان ذلك في سنة ثلاث واربعين وستائة فهذا وجه تلقبها بالكافورية وقد عرفت اصل تلقبها بالهندية والحيدرية والصحيح ان هذا النبات قديم معروف من قبل الشيخ حيدر المنتقدم ذكره بازمان طويلة يدل على ذلك ما نقله الاطباء في كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذه العقار وخواصها واما حكمها في الشرع فهو التحريم لما يجدر العقل منها قال بعضهم شر سكر سكر الحشيشة وان قال من غلب على عقله هواه وهوى به الفساد الى مضيق مهواه

هي البكر لم تنكح بقاء سخابة

ولا عصرت يوماً برجل ولا يد

ولا عبس القسيس يوماً بكاسها

ولا قربوا من دنها كل متعدي

ولا نص في تحريمها عند مالك

ولا حد عند الشافعي واخذ

## ولا اثبت النعمان نفيس عينها

فخذها بجد المشرقي المهندي

قال المقرئ في الكلام عليها دع نزاهة القوم فما يلي  
 الناس بافسد من هذه الشجرة لاخلاتهم ولقد حدثني القاضي  
 الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومي  
 قبل اخلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس انه سئل  
 عن هذه الحشيشة فقال اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة  
 والردالة وكذلك جربنا في طول عمرنا من عاناها فانه يخط  
 في سائر اخلاقه الى ما لا يكاد ان يبق له من الانسانية شيئاً  
 وقد قال ابن البيطار في كتاب المفردات ومن القنب نوع ثالث  
 يقال له القنب الهندي ولم أره بغير مصر ويزرع في البساتين  
 ويقال له الحشيشة عندهم ايضاً وهو يسكر جداً اذا تناول منه  
 الانسان قدر درهم او درهين حتى ان من اكثر منه يخرج الى  
 حد الرعونة وقد استعمله قوم فاخذت عقولهم وقد ادى بهم الحال  
 الى الجنون وربما قتلت ورايت الفقراء يستعملونها على انحاء شتى  
 فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً ويدعكه باليد دعكاً جيداً حتى  
 يتعجن ويعمل منه اقراصاً ومنهم من يجففه قليلاً ثم يجمسه ويفركه  
 باليد ويخلط به قليل سسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه  
 فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً وربما اسكرهم فيخرجون به الى  
 الجنون او قريب منه وهذا ما شاهدته من فعلها قال فانظر كلام

العارف فيها واحذر من افساد بشرتك وتلاف اخلاقك باستعمالها  
ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الا اراذل الناس ومع ذلك  
فيا نفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة وكان قد تتبع الامير  
سودون الشخوني رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجنيبة من ارض  
الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق واتلف ما هنالك  
من هذه الشجرة الملعونة وقبض على من كان يتلعبها من اطراف  
الناس وردلائهم وعاقب على فعلها بقلع الاضراس فقلع اضراس  
كثير من العامة في نحو سنة ثمانين وسبعائة وما برحت هذه  
الخبينة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد احمد بن  
اويس فاراً من تيمورلنك الى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعائة  
فتظاهر اصحابه باكلها وشنع الناس عليهم واستعجوا ذلك من فعلهم  
وعابوه عليهم فلما سافر من القاهرة الى بغداد وخرج منها ثانياً واقام  
بدمشق مدة تعلم اهل دمشق من اصحابه التظاهر بها وقدم الى  
القاهرة شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيه  
عدة اجزاء مخيفة كعرق اللقاح ونحوه وسماه العقدة وباعها بخفيفة  
فشاع اكلها وفسا في كثير من الناس مدة اعوام فلما كان في سنة  
خمس عشرة وثمانائة شاع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر امرها واشتهر  
اكلها وارتفع الاحشام من الكلام بها حتى لقد كادت ان تكون  
من تحف المترفين وبهذا السبب غلبت السفالة على الاخلاق  
وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس وجهروا بالسوء من

القول وتفاخروا بالمعائب وانحطوا عن كل شرف وفضيلة وتحلوا  
 بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية  
 ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية وقد بدا المسخ في الشمائل  
 والاخلاق المنذر بظهوره على الصور ( انتهى المراد منه )  
 فقال الانكليزي وقد تكلم الافرنج ايضا على هذه الشجرة  
 الخبيثة واطنبوا في ذمها وذكر مضارها ومفاسدها



### المسامرة الثانية والثلاثون

يوم العطلة

ثم انهم ارادوا الانصراف فطلب الانكليزي خادماً المحل  
 فأتى له بورقة مكتوبة فيها اصناف ما اخذوه فدفع الثمن وارضى  
 الخادماً ثم خرجوا يتفرجون على المدينة الجديدة وازقتها وشوارعها  
 الى ان وصلوا الى ميدان من ميادينها المعدة للفسحة فوجد الشيخ  
 به غالب اهل البلد من ثني وفقير وكبير وصغير في احسن



.لا بسهم كل على قدر حاله . فقال الشيخ هل هذا اليوم عندكم  
 يوم عيد فقال الانكليزي لا بل العادة في جميع بلادنا التفرغ والتخلي  
 عن الاشغال كل يوم في هذا الوقت واما يوم الاحد فيعطل  
 الناس فيه اشغالهم ويخرجون بعد الظهر للتنزه فهو عندنا  
 كيوم السبت عند اليهود ويوم الجمعة عند المسلمين غير ان  
 عاداتهم في يومهم تغيرت عما كانت عليه في صدر الاسلام فان  
 بعضهم قد يشتغل فيه كباقي الايام ولم يبق له من الاحترام الا  
 صلاة الجمعة واما اليهود فعلى اصل عاداتهم لا يشتغلون في  
 يومهم بشيء وكذلك طائفة البروتستانت من النصارى خصوصاً  
 الانكليز لا يشتغلون بشيء في يوم الاحد واطن انك لا تجد في  
 هذه العادة باساً اذ في ذلك اليوم تفرق كل امة لقضاء لوازمها  
 كل بحسبه فالتقير يتفرغ لقضاء لوازمه المنزلية وتنشيط قواه  
 البدنية وتنظيف ثيابه وجسده وصاحب الوظيفة يقيم بمنزله  
 لمؤانسة عائلته او لتنهيم اشغال نفسه مما يتعسر عليه في غير  
 هذا اليوم فضلاً عما يحصل فيه من المزايا كتزاور الاصحاب  
 وعيادة المرضى وغير ذلك من الأمور اللازمة لدوام الجمعية

فقال الشيخ نعم العادة ولكل امة عادة على حسب شرائعهم  
 ومقتضيات احوالهم وليوم الجمعة عندنا اعمال تطلب فيه كصلاة  
 الجمعة والاغتسال لها والتبكير لصلاتها والصلاة على النبي صلى  
 الله عليه وسلم فيه والصدقة والنظافة والطيب بالروائح الحسنة

ونحو ذلك واظن ان لكل امة في يومها خواص تشبه هذه وان كان لا يحضرنى الان ما هي . وقد حان وقت الطعام فقاموا وركبوا عربة ورجعوا الى مقرهم وفي اثناء الطريق قال الانكليزي للشيخ ان البوسطة الى مصر ترسل غداً وعن قريب نساfer فان كان عندك مکتوب تحب ارساله فاعطني لارسله مع خطاباتي

فقال الشيخ نعم اريد ان ارسل بعض كلمات للاولاد في داخل مکتوب برهان وسأكتبها ان شاء الله في اللوكاندة . قال فكيف وجدت هذه المدينة . قال حسنة لطيفة وانما ارجو منك ان تخفني ببعض انبائها لآكون على علم بها وباحوالها فقال الانكليزي هذا بعض ما يجب عليّ وسأقص عليك ما اعلم من امرها بعد وصولنا الى مستقرنا فلما وصلوا دخل كل منهم حجرته وازال ما به من غبار الطريق وغير ما لزم تغييره ثم حضروا الى المائدة فاكلوا ثم قاموا الى حجرة الشيخ وقد حضر برهان ومعه يعقوب الذي كان اصطحب به في السفينة وقد تكلم معه الانكليزي بعض كلمات ففهم منها لياقته للخدمة وانفق معه على شروط الخدمة وما يلزم اداؤه وكان فيما قاله له ان برهان الدين صغير ويحتاج لدليل بدله ومرشد يرشده فاعظم واجب عليك العناية به والملازمة له ففرح برهان بذلك ثم ان الانكليزي قال للشيخ قد طلبت مني بعض اخبار هذه المدينة وانا متفكر

فما التيه اذ لا يخفى انه مضى عليها قرون عديدة وما من قرن الا وتقلبت فيه حوادث لو جمعت لملاّت مجلدات فكيف لو جمعت حوادث القرون كلها لكن لا يخفى ان نتيجة الحوادث في جميع البقاع والقرون متقاربة فتاريخ كل امة كتاريخ غيرها وكذا كل بلدة لا فرق في ذلك بين المدن والقرى اذ النتيجة لا تخرج عن احد شيئين خير وشر ومن الاول تكون اللذة ومن الاخر يكون الالم وتسلط الاثنين لازم لكل فرد من افراد الخليقة فلا يدوم احد على حالة واحدة وكذلك البقاع فكل حالة مقترنة بضعها

الدهر لا يبقى على حالة \* لا بد ان يقبل او يدبر  
فان تلتاق بمكروهه \* فاصبر فان الدهر لن يصبر



## المعامرة الثالثة والثلاثون

## مرسيليا

ومن ذلك هذه المدينة واهلها فقد ثقل عليها كل من  
الامرين وشربت من الكاسين واعتراها من الخبز وضده ما اعترى  
غيرها كالاسكندرية وغيرها وملخص ما اعلمه من امرها انها قبل  
المسيح بستمائة سنة اي قبل تاريخ الهجرة النبوية بالف ومائتين  
واربعين سنة تقريباً كانت لقوم يعرفون باسم ليجور او (ليغور) وكان  
لم جزء عظيم من خليج ليون واغلب ارض خليج جينوا فهاجر اليها  
بعض الاروام اعني سكان اسيا الصغرى او الاناطول من مدينة  
يقال لها فوسيه محبت اثارها الان فنزلوا بهذه البقعة وسكنوها  
وكانت ارض فرانساً اذ ذاك لقوم يقال لهم الجملوا ( او الغالية )  
وكان لهم ملك يقال له نانوس فطرد قوم الليغور من هذه البقعة  
الى ان تولى واقم مكانهم اولئك المهاجرين لمساعدتهم له واتحادهم  
معه فاستوطنوها واستمروا بها واخذوا في اسباب التقدم فانتسعت  
شهرتهم وعظمت ثروتهم فحسدتهم من جاورهم وحاربوهم مراراً ولكن  
لم يهزوا منهم بطائل ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من

قيائلهم واهلهم فاستقبلوهم واسكنوهم معهم فزادت قوتهم وقويت شوكتهم وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد واحدثوا عدة من المدن والثغور مثل نيث واوينب واتسعت دائرة تجارتهم وسارت في جميع البحار خصوصاً بمساعدة الرومانيين ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة وبقي الامر على ذلك الى ان اسست القسطنطينية فاخذت منها شهرتها وتحولت التجارة اليها وذلك في حدود ثلاثمائة سنة من ظهور المسيح ومن ذلك الحين اخذت مدينة برسيليا في الانحطاط والاضمحلال وبعد ان كانت منفردة بالشهرة في سياحة البحار والتجارة اصحبت كغيرها من الثغور آخذة في التنازل وفي تلك الايام كان امر القوم مفوضاً الى ستمائة من رجالهم يقيمون مدة حياتهم في تدبير احوال جمهورهم وكان الشرط في انتخابهم لهذه الوظيفة ان يكونوا من اهلبا المولودين بها وان يكون لهم اولاد ذكور وكانت الدعاوي والقضايا مفوضة الى خمسة عشر شخصاً منهم ينظرون فيها على مقتضى قوانين موضوعة وكان بت الحكم مفوضاً لثلاثة من المعتمدين وكانت عادتهم ان تكون قوانينهم المجاري على مقتضاها فصل الدعاوي مشهورة ومعلقة بمحيطان المجال الشهيرة من المدن ليمكن كل واحد من الاهلين من الاطلاع عليها ومعرفتها بنصوصها وموضوعاتها وتلك القوانين كانت لا يخالف قوانين اليونان في شيء

وفي سنة ٤٢٦ من ظهور المسيح اي قبل الهجرة بمائتي سنة حصل لهذه المدينة من ملوك فرنسا كثير من النصب والشدة حتى انحط قدرها انحطاطاً بالغاً وبقيت الازمان الطويلة في اضمحلال وسوء حال خصوصاً لما تغلب عليها العرب في سنة ١١٧ بعد الهجرة فهدموا اكثر مبانيها واذلوا اهلها وخرّبوا عمارتها فصارت بهذه الاسباب في اسوء حال واخذت في التنازل الى زمن شرلماني فجعلها في حمايته من سنة ثمانمائة من الميلاد وهي سنة ١٨٤ من الهجرة فاخذت في الارتقاء والتقدم من ذاك الوقت ونمت علائقها التجارية مع غيرها واشتهرت بالسياحة في البحار كما كانت اولاً وجلبت من جهات اسيا واسبانيا اهل الصنائع والحرف وغيرهم فسكنوها فعاد اليها فخارها وشهرتها في التجارة والصناعة واستمرت على هذه الحالة الى سنة ١٨٨٥ من الميلاد اعني سنة ٢٧٢ من الهجرة ثم اضيفت في هذا التاريخ الى مملكة فرانس فقويت شوكتها وحسن امرها بمساعدة ملوك الدولة فاخذت تجارتها في النمو والتقدم حتى صارت اعظم الثغور الفرنسية وفي سنة ١٨٠١ من الميلاد و١٢١٦ من الهجرة كان عدد اهلها تسعين الفاً وخمسمائة فقط والان بلغ مائتين وخمسة وثلاثين الفاً اعني ان اهلها زادت في تسع وستين سنة مائة واربعة واربعين الفاً وخمسمائة فهذا دليل على تقدمها ورفاهية اهلها واعندال هوائها فلم يكن البرد فيها شديداً جداً ويندر ان تنزل درجاتها في الشتاء عن الصفر اكثر من ثماني

درجات ولا تزيد درجة حرارتها عن ست وثلاثين درجة ففي  
من هذه الحثية لا تخالف الاسكندرية من اعمال مصر الا قليلا  
واما من حثية التجارة فكل من هذين الثغرين يخرج منه من  
اصناف التجارة نحو اربعمائة تونولاته ( والتونولاته عبارة عن ٨٠٠  
اقعة تقريبا ) الا ان السفن الواردة الى ثغر مرسيليا اكثر من السفن  
الواردة الى ثغر الاسكندرية فان عدد ما يرد في السنة الى  
مرسيليا نحو خمسة الاف وما يرد الى الاسكندرية نحو ثلاثة وفي  
الايام السابقة كان المانع من زيادة تقدم مرسيليا قلة المياه العذبة  
بها فكان اهلبا واصحاب السفن الواردة اليها ياخذون ما يلزم  
لشربهم من الماء العذب اذ ذاك من نهر صغير قريب من موضع  
المدينة لكنه كان يجف في غالب اوقات السنة فكان يلحق اهل  
البلد والوافدين عليها من الاغراب من ذلك ضرر عظيم ولم  
يزل الحال على ذلك الى ان عمل لها خليج طوله سبعة وثمانون  
الف متر بلغت مصاريفه نحو مليونين من الجنيهات المصرية فتمت  
بذلك لم اسباب الرفاهية والراحة وتلذذوا بانواع التلذذات التي  
كانوا محرومين منها من قبل كالتمتع بكثرة البساتين والمحدائق  
وفساقى الماء في الميادين وحصل للناس من ذلك مزيد الراحة  
بسبب تقسيم المياه على المنازل وايصاله الى جميع طبقاتها مع السهولة  
ومن هذا الخليج جزء عظيم يبلغ طوله خمسة وعشرين الف متر يمر  
في جوف الجبال من تحت الارض فلا يراه احد ومنه جزء يبلغ

طوله اربعائة متر بوادٍ يسمى وادي دو كفاور يمر فوق عقود من  
البناء عالية شاهقة يبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين متراً وكمية الماء الوارد  
الى حوض التصفية الذي يقسم منه الماء على جهات البلد تبلغ في  
الثانية الواحدة عشرة امتار مكعبة وهي نحو مائة وست عشرة قربة  
من قرب مصر اعني القرب الكبيرة المعروفة في مصر بالحمازي اما  
بالقرب الصغيرة المعروفة بالكنافي فتبلغ نحو مائتين وعشرين قربة  
وبما ذكر صارت هذه المدينة الى ما ثراه من العمارة والبهجة  
وحسن الحال

فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تنتقل فيها الاحوال ودوام  
الحال من المحال وقد قال تعالى وهو اصدق القائلين ( وتلك  
الايام نداؤها بين الناس ) والبقاع كالناس تشقى وتسعد كما قال  
القائل

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن  
والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد كما انه لا يخلو من  
التغير والتقل احد

هي المقادير تجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال



يوماً تريض خسيس التدر ترفعه

الى السماء ويوماً تخفض العالي

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مرسلية وتقلب حالها  
تاريخ الاسكندرية وتغيراتها والشيء بالشيء يذكر فان مدينة  
الاسكندرية ايضاً قد توالى عليها احوال كثير وتقلبات كبيرة من  
سعد ونحس ونعيم وبؤس فقد جرعتها الدهر كؤوس صابه وشهده  
واذاها من حلوه ومره وقلبها بين خصبه ومحلّه فما من قرن مرّ  
عليها الا وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله فسبحان من له  
الدوام والبقاء ولا يعتريه التغير والفناء

### المعاصرة الرابعة والثلاثون

شذرات

من تاريخ مصر والاسكندرية ومراملة الاسكندر ودارا وارسطاطاليس

فقال الانكليزي نعم قد اصاب الاسكندرية ومصر ايضاً من  
ذلك ما اصاب سائر البلاد وقد نقل الينا من سير الاقدمين  
واخبار السالفين ان مصر قبل انشاء الاسكندرية بعدة قرون  
كانت في احسن خالة واوفر نعمة فكانت العلوم والصنائع بها

في اقصى درجاتها واحوال التقدم والتمدن فيها واصلة الى غاياتها  
وكانت حيثئذ اهلها في عيش رغيد وطالع سعيد وخير مزيد  
مشتغلين بجدهم وجهدهم في ازدياد عزمهم ومجددهم والاستكثار من  
اسباب سعادة الحال ونماء الارزاق والاموال وما زالوا كذلك الى  
ان خانها الزمان فسلط عليها الفرس فاغاروا عليها تحت قيادة  
ملك من ملوكهم يقال له كمبيشاش او كمبيز فدمر مبانها وغير  
مغانها وخرب معابدها ومعاهدها واسر اهلها وانهم وقهرهم وبسط  
فيهم يد الظلم والجور والعدوان حتى تركوا اعمالهم وتخلوا عن  
صنائعهم ومساعيمهم واضطر كثير منهم الى الفرار والتغرب عن الديار  
ومن ذلك الحين اخذت مصر في التقهقر واحوالها في التغير وكان  
ذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين وخمسمائة عام  
وكانت قبل ذلك قلة يَوْمها الناس من جميع الافاق لطلب  
العلوم والفنون والارزاق حيث كان ما عداها من البلاد في  
ظلمات الجهل وهي من بينها مضيئة بانوار العلم والفضل فاصبحت  
بعد ذلك تشكو لغيرها مادهمها وازال نعيمها ونعمها وسلبيها ما كانت  
فيه من رغد العيشة وحرمتها بسبب سطوات هذا الجبار الظالم  
القدار الذي لم يكن ظلمه قاصراً على الاحياء بل تعدى ايضاً الى  
الاموات فاخرج اجسامهم من قبورهم فاحرقها وذرى رمادها في  
الهواء

وفي ذلك الوقت كانت مملكة الرومانيين في ابداء نشأتها

واخذت مملكة الروم ايضاً في ابتداء عزها وشهرتها وهذا بسبب من هاجر اليها من المصريين الذين رحلوا عن اوطانهم فراراً من مظالم الفرس وعدوانهم فاستوطنوا بلادهم ونقلوا اليهم كثيراً ما كان عندهم من صنائع مصر وعلومها وفنونها وكان مجل الاسكندرية بلد صغير في محل مرتفع على البحر يقال له راقوفي اورقوده

قال الشيخ يويد هذا ما قرأته في كلام بعض مؤرخي الاسلام قال بنيت الاسكندرية غير مرة وكان اول بنائها بعد الطوفان في زمن مصرايم بن بصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقوده ثم بنيت بعد ذلك مرتين (هـ)

قال الانكليزي آيا ما كان هذا المحل في الازمان العتيقة فقد آل امره قبل بناء هذه المدينة الموجودة الان الى ان صار به على ما نقل الينا من علمه قرية صغيرة تعرف بالاسم المذكور يسكنها جماعة كانت تقبهم به فراغته مصر لمنع من يطوفون في البحار من ان ينزلوا بارضهم وكان الفراغته يكرهون الملاحة واهلها كراهة شديدة ولذلك اقاموا هولاء المحافظين بهذا المحل لمنع من عساه يريد النزول به ممن يحب الملاحة وكان المحافظون الذين يسكنون هذا المحل من اعراب البادية النازلين في الصحراء خلف الجبل الغربي فان هذا المحل كان منقطعاً عن الناس بعيداً عن العمارة محجراً عن المزارع والمراعي فلم يكن يرضى بسكناه غيرهم

وقال بعض المؤرخين كانت راقوتي هذه جعلت في قديم الزمان  
محطة عسكرية لمنع اليونان من دخول مصر وكانت الفراغنة قد  
اعدت ما جاورها من الارض لرعي الماشية واقامة الرعاة بها لاعانة  
العسكر عند الحاجة اه . ثم لم يزل ظلم الفرس بمصر حتى كثرت  
بها الفتن وتوالت عليها المحن ونزع كثير من اهلها ايديهم عن  
الطاعة والاتياد وفزعوا للسلاح واستعدوا للحرب فنشب الشر  
بين الفريقين وحصل من ذلك مصائب كثيرة وخطوب عظيمة  
اضرارها باهل البلاد واضعفت الحكومة وهنت قواها ومنه نشأ  
تمزق اجزائها وتفرق كلمتها وتبع ذلك غلبة الروم في جهات  
متعددة اتصروا فيها فكان في ذلك ازدياد شهرتهم وقوة كلمتهم  
واتصار العلم على الجهل بنصرتهم ولكنهم جرت عليهم عادات  
الايام في تنقلها وتداولها بين الناس وتحولها فتتهجروا بعد تقدمهم  
حتى غلبه المقدونيين ومن ذلك الوقت اتسع صيت المقدونيين  
وعظمت دولتهم وقويت شوكتهم ووصولهم بظهور الاسكندر الاكبر  
بين اظهرهم فجاب بهم الاسكندر بلاد الفرس وتسلط عليهم ودوخهم  
واستولى على ممالكهم في مدة دارا ملكهم ودخلت مصر تحت قبضته  
وكان ذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد اي بعد مرور قرنين من  
استيلاء كبيشاش على مصر وقد قرأت في بعض الكتب العربية  
بعض مكاتبات ظريفة دارت بين دارا والاسكندر وبين  
الاسكندر وارسنطاطاليس في ذلك قد شد عني عبارتها وكت

اود لو كان عندي صورتها فهل في حفظك ايها الاستاذ شيء  
منها

فقال الشيخ نعم قرأت في بعض التواريخ ان الاسكندر لما  
ولي مكان ابيه قطع ما كان يرسله ابوه كل سنة الى ملك الفرس  
من التغطية ويقال انها كانت الف بيضة من الذهب فلما قطعها  
كتب اليه دارا يتهدهه وبعث اليه بكرة وصولجان وخرقة فيها  
سمسم وقال له انت صبي فالعب بهذه الكرة فان ادبت الاتاة  
والابعث اليك بجنود عدد هذا السمس واتيت بك في الوثاق

### فكتب اليه الاسكندر

اما بعد فقد تيمنت بالكرة والصولجان فان الدنيا مثل  
الكرة وسألعب بها واضيف ملكك الى ملكي واما السمس فقد  
تيمنت ايضا به لانه بعيد عن الحرافة والمرارة واما البيض  
فان الدجاجة التي كانت تبيض قد ذبحتها واكلت لحمها  
فغضب دارا وسار اليه بمجموعه وسار الاسكندر بمجموعه فالتقيا  
على نصيبين فلما هم دارا بالتقال بعث اليه الاسكندر ينصحه  
ويقول له ايها الملك لا تفعل فان دماء الملوك لا تجوز اراققتها  
وهدم البيوت القديمة غير محمود والبغي ذميم العقبى والحرب غير  
مأمون العاقبة واصحابك قد ملوك وكرهوك لسوء سيرتك فارجع

فانك محمد قولي فلم يلتفت اليه دارا واقاما بنجار بان مدة ثم ان الاسكندر دبر حيلة وهو انه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الاسكندر فقال يا معشر الفرس قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا ومكاتبتنا لكم من الامان وقد طال القتال فمن كان منكم على غير قتال فليعتزل وله الوفاء بالعهد فاتهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا فكان من اسباب خذلان دارا ثم وثب على دارا رجلان من اصحابه قطعناه من خلفه وكان الاسكندر نادى من ظفر بدارا فلا يقتله فجاء به الرجلان الى الاسكندر فنزل عن فرسه وقعد عند رأس دارا وبه رمق فقال والله ما همت بقتلك ولقد نهيت عنه واني ليعز علي مصابك فاسألني حوائجك فقال تقتل فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني فاني كنت محسناً لهما فقال سمعاً وطاعة واحضر الرجلين فقتلها وقال هذا جزاء من يتجراً على ملكه وتفرق ملك فارس ثم صار الاسكندر الى بابل وجلس على سرير دارا واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه وشرع في هدم بيوت النيران وقتل الموابذة

وكتب الى استاذة ارسطاطاليس يستشيره فيمن بقي من عظام الفرس بما معناه

اما بعد فان دوائر الاسباب ومواقع الفلك وان كانت

اسعدتنا بالامور التي اصح لنا بها الناس دائنين فانا مضطرون  
 الى حكمك وغير جاحدين لفضلك والاجنباء لرايك لما بلونا من  
 جدى ذلك علينا وذقنا من جنى منفعتة حتى صار ذلك بتجرعه  
 فينا وترشيجه لعقولنا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه  
 استمداد الجداول من الجبار وقوة الاشكال بالاشكال وقد كان فيما  
 سبق الينا من النصر وبلغناه من النكاية بالعدو ما يعجز القول  
 عن وصفه والشكر على الانعام به وكان من ذلك ان جاوزنا  
 ارض الجزيرة وبابل الى ارض فارس فلما نزلنا باهلها لم يكن  
 ريثا تلقانا نفران منهم يقتل ملكهم طلبا للحضوة عندنا فامرنا  
 بصلبها لتجرعها وقلة وفاءها ثم امرنا بجمع من هناك من ابناء ملوكهم  
 وذوي الشرف منهم فرأينا رجالا عظيمة اجسامهم واحلامهم يدل  
 ما ظهر من روئيتهم على ان وراه من قوة بأسهم ما لم يكن معه  
 سبيل الى غلبتهم لولا ان القضاء ادالنا منهم ولم نر بعيدا من  
 الراي ان نستأصل شافتهم ولتختم بين مضى من اسلافهم لتسكن  
 بذلك القلوب الى الامن من جرائرهم ورأينا ان لا نعجل ببادرة  
 الراي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم فارفع الينا رايك  
 فيما استشرناك بعد صحننه عندك وتقليبه على نظرك على عادة  
 اراءك المسعفة والسلام على اهل السلام فليكن عليك وعلينا

فكتب اليه ارسطاطاليس  
المؤيد المهدي له الظفر من اصغر خوله ارسطاطاليس

اما بعد فقد نقرر عندي من مقدمات فضل الملك وبين  
تقيته وبروز شأوه وما ادى الى حاسة بصري صورة شخصه ووقع  
في فكري على تعجب رايه ايام كنت اودّي اليه من تعلبي اياه ما  
اصبحت قاضيا على نفسي بالحاجة الى تعلمه منه وقد ورد كتاب  
الملك بما رسم لي فيه وانا فيما اشير به على الملك كالعدم مع  
الوجود ولكني غير ممنوع من اجابته

فاقول ان لكل تربة لا محالة قسا من كل فضيلة وان  
ل فارس قسمتها من النجدة والقوة وانك ان تقتل اشراقهم تخلف  
الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب ادنياءهم على  
مراتب ذوي اخطارهم ولم يتبل الملوك قط ببلاء هو اعظم عليهم  
من غلبة السفلة وذل الوجوه واحذر المحذر كله ان تمكن تلك  
الطبقة من العلية فان نجم منهم ناجم على جندك واهل بلادك  
دهمهم ما لا روية فيه ولا منفعة معه فانصرف عن هذا الراي الى  
غيره واعمد الى من قبلك من العطاء والاحرار فوزع بينهم مملكتم  
والزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على راسه  
وان صغر ملكه فان التسي بالملك لازم لاسمه والمعتقد له لتاج



لا يخضع لغيره ولا يلبث ذلك ان يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالبا على الملك وتفاخراً بالمال حتى ينسوا بذلك اضعافهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ثم لا يزدادوا في ذلك نصرة الاّ احدثوا هنالك استعانة بك فان دنوت منهم كانوا لك وان نأيت عنهم تعزروا بك حتى يثب كل منهم على جاره باسمك وفي ذلك شاغل لم عنك وامان لاحداثهم بعدك ولا امان للدهر وقد اديت للملك ما رايته حظاً وعليّ حقاً والمملك ابعد روية واعلى عيناً فيما استعان بي عليه والسلام الابدي على اهل السلام فليكن على الملك . اه . قال الشيخ فهذا ما علق بخاطري من ترجمة تلك المكاتبات فهل تعلم كيف كان بناء هذا الثغر وسببه

قال الانكليزي يقال ان الاسكندر لما استولى على ارض مصر في جملة ما دخل تحت حوزته من الممالك اخذ يدبر فكره فيما يتأتى له بواسطته ارتباط علائق المعاملة بين الامم المختلفة التي استولى عليها في جهات متفرقة من الارض فرأى انه لا بد له من اتخاذ مركز معين متحد به علائق هذه الامم ورأى ان يكون هذا المركز بساحل البحر المتوسط اعني بحر الروم فاختر لذلك محل رقوده المتقدم ذكره فبنى به الاسكندرية ووسمها باسم نفسه رغبة في تخليد ذكره وان يبقى اسمه ببقاءها ويذكر كلما ذكر اسمها ولما انشأها جعل تقسيم الدور والازقة بها على حسب وضع

ارضها فكانت على شكل البرنس المقدوني وكان يشتمها شارعان  
عظيمان متقاطعان احدهما يشتمها من الشرق الى الغرب طوله  
فرسخ وفي احد طرفيه باب كانوب وهو مضاف الى اسم مدينة  
كان الى جهتها وهي التي يقال لها الان ابو قير وفي الطرف  
الآخر باب نكروبوليس وهذه كلمة يونانية بمعنى المقبرة والشارع  
الثاني يشتمها شمالاً وجنوباً وطوله ثلث فرسخ وفي احد طرفيه  
باب الشمس على البحيرة وفي الطرف الآخر باب القمر على المينا  
وكانت سعة كل من هذين الشارعين مائة قدم وعندها كانت  
المعابد والهياكل والمباني الفاخرة والعمارات العظيمة وكانت المدينة  
منقسمة اربعة ارباع اعظمها واهمها الربع الذي كان بين الشارع  
الكبير والبحر وكان فيه المدفن الذي كان يسمى صوما وبه اودعت  
جثة الاسكندر حين مات فوضعت في تابوت من الذهب ودفنت  
فيه ومحل الان تل يعرف بكومر الديماس وكان فيه ايضاً دار  
الكتب (الكتبخانة) العظمى وبيت التحف ودار الملوك والملعب وكان  
هناك قطعتان من الصخر عظيمتان من الاحجار المعروفة بالمسلات  
من اقدم الاثار المصرية وها باقيتان الى الان وقد وقعت احدهما  
ولم تزل الثانية قائمة بمكانها ويسميا الناس مسلة كلوبطرة ومسلة  
فرعون وفي محل رقوده القديمة (السيرابيوم) وهو مدفن الحيوانات  
التي كانت مقدسة في دينهم وهناك عمود سوير وهو مضاف الى  
اسم الملك سوير الروماني الذي وضعه ويعرف عند الافرنج

بعمود بومبيوس وهو قائد روماني مشهور وهذا العمود هو الذي يقال له عندكم عمود السواري ولعل لفظة السواري هذه من لفظة سوير المذكورة

وفي غربي اسكندرية اعني جهة باب العرب والتباري يرى الانسان ابواباً منحوتة في الصخر وهي ابواب قبور ومعابد للنصارى استحدثوها عند ظهور الديانة النصرانية ولما كان موضع الاسكندرية بعيداً عن مجرى النيل ليس به من الماء العذب ما يستطاب الشرب جعل لها خليج يتصل بالنيل ويوصل اليها ماءه في اوان ارتفاعه وقد جعل فيها صهاريج واسعة يخزن فيها الماء لاوان انحطاط النيل ولم يكن على ساحل بحر الروم مينا اعظم سعة من مينا الاسكندرية فانها تكفي كثيراً من المراكب ويمكن ان يكون فيها مائتان وخمسون سفينة وعند اتصالها بالبحر سلسلة من الصخر تمتد من الشمال الشرقي من عند الصخرة القائم فوقها المنار المعروف بالفنار الى الجنوب الغربي حتى تنتهي الى جزيرة المرابط وهي مغطاة بالماء تضرب فوقها الامواج وفي طول هذه المسافة ثلاثة مداخل تعرف بالبوغازات تمر منها السفن الواردة والصادرة اولها البوغاز الشرقي وهو منحصر بين صخرتين احدها الى جهة الشرق وتسمى الجوانية والثانية الى جهة الغرب وتسمى صخرة الحوت وعرضه نحو اربعة الاف متر وعمق مائه نحو ستة امتار وبعده البوغاز المتوسط ثم القبلي وكانت هذه المينا في القدم

متصلة بالمينا الشرقية المعروفة بالمينا القديمة وكان بينهما جسر يمتد من رأس التين الى المدينة وكانت السفن تنقل من احداها الى المينا الاخرى من فتحات كانت في ذلك الجسر وقد هجرت الان تلك المينا القديمة وصارت غير صالحة لوقاية السفن والامن عليها فلا يوجد بها الان الا قليل من السفن الصغيرة ويشاهد الفئار السالف ذكره لاهل السفينة في لجة البحر على بعد عشرين ميلاً منه فاذا رأوه احتسوا على سفنهم من ان تقع على الصخور التي عند ساحل البحر ولهذا الغرض جعل هذا الفئار للدلالة على مدخل المينا كما هو الشأن في غيره من امثاله في سائر الممالك وانما يكون الدخول الى المينا من البوغازات المذكورة بدلالة جماعة من اهل الاسكندرية يعرفون برؤساء البوغاز يأتي احدهم للسفينة وهي مسافرة فيلزمها بالارشاد والدلالة حتى تخرج الى متسع البحر وكذلك وهي داخلة حتى تلتقي المراسي وهذه عادة جارية من قديم الزمان لكثرة ما في البوغاز من الاعوجاجات والصخور المعترضة في اثنائها

ولما انشأ الاسكندر هذه المدينة استوطنها ونقل مقر السلطنة اليها وكان قبل بمدينة منف القديمة التي يقال انها اول مدينة عمرت بعد الطوفان وقد خربت وبني عند اطلالها قرية يقال لها ميت رهينة عند مدينة الجيزة ومدينة منف هذه من اشهر المدن القديمة ذكراً واعظها فخراً وكثيراً ما ذكرت في الكتب الافرنجية

ولم تخلُ ايضاً من ذكرها الكتب العربية

قال الشيخ هي كما ذكرت عظماً وشهرةً وقدماً وقد زعم بعض المؤرخين ان كلمة منف في اللغة القبطية بمعنى ثلاثين وان سبب تسميتها بذلك هو ان يبصر بن حام بن نوح عليه السلام خلف ثلاثين نفساً منهم اربعة ذكور وهم مصرايم وفارق وماج وياج فتزوجوا وتناسلوا وكثروا وكان مصرايم اكبرهم وكانوا قبل بناء منف يسكنون بسبخ المقطم فلما بنوها انتقلوا اليها وسكنوها وسميت بهذا الاسم بعددهم كذا زعم ولكني سمعت من بعض من يعرف علم اللسان المصري القديم ان لفظة منف اصلها باللسان المذكور (منفر) وهي مركبة من كلمتين احداها من ومعناها المحل والثانية (نفر) ومعناها العظيم او الخصب فركب اللفظان تركيباً مزجياً وجعل مجموعها على هذه المدينة وكان يقال لها عند اليونانيين منفيس ثم قيل لها منف وكانت مقر الفراعنة من قديم الزمان فكانت من اعظم المدن المصرية ابهة ورواقاً وسعة حتى قيل انها كان لها سبعون باباً من الحديد والصفرة وكانت الانهار تجري من تحت منازلها واقنيتها فيجسبون الماء كيف شاؤوا ويرسلونه كما ارادوا قيل وفي ذلك يقول الله جل ذكره حكاية لقول فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون

فقال الانكليزي قد بقيت هذه المدينة على ما ذكرت ايها

الاستاذ من عظمها وفخرها ورفعت قدرها حتى انتقل تحت السلطنة الى الاسكندرية فهرع الناس اليها وكثرت عمارتها وانخط من قدر منف وعزها واهبتها بقدر ما زاد في عز الاسكندرية وروعتها واستوطن الروم في مدة الاسكندر مدينته هذه الاسكندرية فكانوا اكثر سكانها اذ كان منهم معظم جنوده وغالب رجاله ثم كثر عددهم في مدة من خلفه من البطالسة حتى دخلوا جميع بلاد مصر ولم تخرج البطالسة في ايامهم عن النهج الذي نهجه لهم الاسكندر من عدم التعرض لاهل البلاد التي دخلت تحت طاعنه في شيء من عاداتهم وما هم عليه وكان اول هذه البطالسة بطليموس لاغوس فلما ولي الحكومة بعد الاسكندر سنة ٢٢٤ قبل الميلاد سار في المملكة سيرة حسنة ورتب امورها ترتيباً عاد عليها بعظم الفائدة واستوجب لاهل البلاد ومن عنده من الاغراب مزيد الامن والاطمئنان على ما بأيديهم من الاملاك والاموال مضافاً ذلك الى امنهم على الانفس والاهل والعيال فعمت الامنية وكثرة العارة والثروة والمدنية وكان بطليموس لاغوس المذكور محباً للعلم واهله محبداً في تعليمه وتعميمه فانشأ في الاسكندرية مدرسة عظيمة شاع صيتها بين العباد فقصدتها الناس من اقاصي البلاد وجعل فيها خزانة للتخف جمع اليها ما قدر عليه من النوادر والطرف وانشأ بها دار كتب عظيمة جعل فيها قدراً وافراً من الكتب النفيسة مما جمعه من اكثر المعابد المصرية وما غنمه من

البلاد التي اغار عليها وحاربها فصارت من احسن خزائن  
 الكتب واعظها واشهرها ومن كثرة رعايته للرعية وتمسكه بالعدل  
 والانصاف في ايامه ومجانبته للظلم والحيف في احكامه كثرت  
 البركة في محصول الارض واتسعت دائرة الزراعة والتجارة  
 وكثرت الارزاق والمكاسب ثم لما قضى نحبه وخلفه في الحكومة  
 ولده سار سيرته في الرعية فكثرت العمارة والتجارة وصارت  
 الاسكندرية مقصداً لجميع التجار يقصدونها من المشرق والمغرب  
 فكان يرد اليها التجار من الهند وبلاد المغرب وآسيا وبلاد الصين  
 وجزائر البحر المحيط والبحر الاحمر وسواحل بحر الروم والبحر  
 الاسود وغيرها ومنها تفرق البضائع وتوزع على جميع البلاد في  
 معمورة الارض فكانت الاسكندرية في تلك الاوقات منفردة في  
 ذلك لا يشاركها فيه غيرها وتقل اليها من الاثار القديمة  
 والتحف العظيمة من مصر وغيرها كل غريب وعجيب وجع لها  
 المعلمون والاحبار من جميع الاقطار فصار اهلها قدوة للناس في  
 العلم والفنار وصارت مركز التجارة لجميع التجار الا ان من ولي  
 الحكومة من البطالسة بعد بطليموس الاول وابنه لم يسروا  
 سيرتها فحدث في ايامهم الظلم والجور والاجحاف والغدر فهاجر  
 كثير من الناس من ارض مصر الى غيرها من البلاد فراراً من  
 ظلمهم وبغيهم ووقع باسهم بينهم ايضاً فاكثروا من سفك دماء  
 بعضهم فكانت الاسكندرية في كثير من ايامهم عرضة للحمية والفتنة

وأدى طول نزاعهم ومغالبتهم لبعضهم الى ان التجاء بعضهم الى الرومانيين فتوسطوا بينهم في امورهم ودخلوا بينهم حتى آل امرهم الى ان تمكنوا من مصر وطردوا منها البطالسة واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد بثلاثين سنة فانزلوها عن درجتها وسلبوها ثوب نعمتها وجعلوها احدى مدنها و اضافوها مع باقي مملكة مصر الى متسع ملكهم فاخذ قاطر مصر من ذلك الوقت في الاخطاط عما كان عليه من درجات العز والنخوصاروا بجنقرون اهلها ويؤخرونهم ويقدمون غيرهم عليهم ولا ينظرون بعين العناية والرعاية اليهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة ادت الى حروب متتابعة سفك فيها دماء كثير من العباد وخرب بسببها اكثر البلاد حتى امتدت يد التعدي الى دار كتبها العظيمة فانلفت معظم كتبها ودرست شهرت مدرستها التي كانت وحيدة المدارس في تلك الايام واخذ العلم في التفتقر خصوصا عند انقسام مملكة الرومانيين الى مملكتين شرقية وغربية وكان تحت المملكة الشرقية استانبول وتحت المملكة الغربية روما وصارت مصر في هذه القسمة تابعة لمملكة المشرق وذلك في حدود ثلاثمائة واربعة وستين بعد الميلاد وفي ذلك الوقت كانت درجة مدينة الاسكندرية في التجارة والعمارة تلي درجة رومة التي هي تحت المملكة الغربية من الملكتين الرومانيتين وفي هذا العصر اخذت الديانة العيسوية في الظهور وتصدي نشرها قياصرة الروم وقومهم ولكون هذه الديانة ظهرت



بقرب ارض مصر دخلتها من غير معارض ولا ممانع فنشاء بها عدة  
كنائس وديور وظهر بها عدة من البطارقة والاساقفة المشهورين  
وجعلوها محلاً لجميع اعمال المدينة ومظهراً لاقوالم الخلافية فقامت  
بينهم نار الشقاق وانقطعت باختلافهم حبال الوفاق ودخلت  
الحكام بينهم في تلك الامور ولم يكن في العادة من شانهم الدخول  
في مثلها وترتب على الاخلال وفساد الاحوال ان غنمت هذه الفرصة  
الملكة زنوبية المتسلطنة وقتئذ على مملكة تدمر التي كانت مقر  
سليان عليه السلام في قديم الايام وهي في صحاري الشام فاغارت  
هذه الملكة على مصر بجنودها واستولت على سرير الاسكندرية وذلك  
قبل الهجرة بنحو خمسين وثلاثمائة سنة ولكن لم تلبث قليلاً ان  
طردت منها ثم امدتها مملكة تدمر بالعساكر والذخائر فارادت  
الرجوع الى مصر لاختها ثاني مرة وكان ذلك في زمن القيصر  
ادريانوس فسار اليها من رومة فكسرها واسرها وبقيت مصر في  
قبضة الرومانيين كما كانت وفي مدة هذا القيصر حصل في مصر  
بعض اصلاح لامورها وتنظيم لاحوالها ولكن لم تلبث ان جر اليها  
طمع من ولوا من قبل القياصرة عليها بعض مصائب عظيمة  
وخطوب جسيمة اضررت بمصر واهلها ولا سيما اسكندرية فانها  
عادت بكثر المضره عليها وعلى من فيها واخذت بتجاريتها فاعتراها  
من هذه التقلبات الضعف العام وزال عنها رونقها فهاجر منها  
الى الروم كثير من كانت تفخر بهم من اهل العلم والثروة ولكن

بقي بها بقايا منهم كبطليموس الفلكي الشهير وديوكانت وسورابوس  
وغليان فحفظوا ما بقي عن الاوائل من آثار العلم والفنون ولولاهم  
ما عثر المتأخرون بشيء من اثار المتقدمين وامتدت هذه الاحوال  
مدة مأتين وسبعين سنة لم تزد فيها الاسكندرية الا تفهقراً وتاخراً  
ومع كل هذا كانت مملكة الروم الشرقية المحقة بها الاسكندرية  
احسن حالاً من المملكة الغربية فان شدة الجور والظلم والفجور  
والقسوة في المملكة الغربية المذكورة كانت اكثر وادى وامر  
ولذلك قام اهل تلك الجهة على ملوكهم مراراً وما من مرة منها الا  
صرفت فيها المملكة اموالاً عظيمة وسفكت فيها دماء كثيرة من  
غيران يحصل من ذلك كله ادنى فائدة بل كان عاقبة كل مرة  
منها زيادة ضعف الاهلين واضمحلالهم وسوء احوالهم وفي تلك  
المدة كثرت المناقسات الدينية واتسع الخلاف بين اهل الديانة  
النصرانية وكثرت الدبور بجهات الاسكندرية وما جاورها وانقطع  
بها كثير من المترهبين الذين هاجروا الى مصر فراراً من جور  
حكام البلاد الاخرى لكنهم لبغضهم لدين من تقدم من المصريين  
هدموا مبانيهم القديمة وهياكلهم الجسيمة وخرّبوا الكثير من البلاد  
وهدروا دم من كان بها من العباد حتى اننا لو نسبنا ما فعله ملك  
العجم وخلفاؤه بمصر واهلها لم يبلغ معشار ما فعله النصراني بها  
وبهذه الافعال الشنيعة تغيرت احوال الامة وتحولت عن بعض  
عادتها وطباعها ومعتقداتها وكرهت الروم والرومانيين وتمت

انقضاء حكومتهم وزوال نعمتهم واستمر الحال على ذلك الى سنة ٦٤٢ من الميلاد وهي سنة ٢٢ من الهجرة فجاءت جيوش امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقودها عمرو بن العاص فحاصر الاسكندرية اربعة عشر شهراً ثم افتتحها ودخلها بن معه من العسكر وضرب على اهلها الجزية فرحل عنها كثير من الاغراب الى بلادهم وانتقل بعضهم الى مدينة مصر التي اتخذها المسلمون قاعدة المملكة وعاصمة البلاد وسموها الفسطاط وهي في موضع بابلون القديمة ومن اثارها التلال الكثيرة الموجودة الى الان بين العيون وباب السيدة وسور القاهرة فكان كما اخذت مدينة الفسطاط في الشهرة اخذت مدينة الاسكندرية في الخمول والانتضاع وصارت تتلاشى تجارتها ويفارقها اهلها ويضحل حالها بعد ان كانت اعظم مدينة في هذه الديار ومركزاً للتجارة جميع الاقطار ثم صارت كل سنة تتاخر وتثقل واستمرت على ذلك قروناً عديدة ومدداً مديدة فلما كانت سنة ١١٦٧ من الميلاد وهي سنة ٥٦٣ من الهجرة هجم عليها الفرنسيس واستولوا عليها ودخلوها ولكنهم لم يلبثوا بها الا زمناً قليلاً ونهض لاستخلاصها من ايديهم الملك الناصر صلاح الدين فاخلاها منهم واجالهم عنها واستردها الى الاسلام سنة ٥٦٤ كما كانت

وفي سنة ٥٩٩ من الهجرة استولى عليها الجنويون وفي مدتهم حصل بعض رواج في التجارة وتقدم في العمارة وصارت تنوارد

عليها الاغراب وتسكنها التجار ثم تخلصت منهم ووقعت في يد ملك  
 فرس سنة ٦٤٨ من الهجرة حين كان الملك لوزير التاسع اسيراً  
 بمصر وكان يتكلم مع سلطانها في تعيين ما يفدي به نفسه من  
 الاسر ويقال ان ملك فرس لما استولى عليها هدم مبانيها وسلب  
 اموالها ثم لم تقم من هذه الورطة حتى وقعت في ادهى منها واعظم  
 فان الفرنسيين اغاروا عليها في سنة ١٢٦٧ من الميلاد وهي سنة  
 ٧٦٩ من الهجرة ثم خرجت من ايديهم ولكنها لم تخرج من سوء الحال  
 ونكد الدنيا وحوادث الدهر فانها كانت عرضة لظلم المالك  
 الذين كانوا حاكمين في مصر

فقال الشيخ ان كل ما حصل فيها من التقلبات الكثيرة  
 والاحوال العسيرة لا يصل الى ما اصابها في مدة المالك الذين  
 استولوا على الحكومة بعد انتضاء دولة الفاطميين ودولة صلاح الذين  
 وذريته فان بعض من ولي السلطنة من اعتقابه اتخذوا منهم خدماً  
 وعسكراً وجعلوا منهم معظم رجالهم فكانوا يقدمونهم على غيرهم من  
 المستحقين حتى استخذوا على رتب عالية ومناصب جليلة ليسوا لها  
 باهل فمن شدة غيهم وسوء بغيهم داخلهم الطمع في ملك ساداتهم  
 فزاحوهم في حكومتهم واحقروهم واخرجوهم عن سلطنة اجدادهم  
 واغضبوا لانفسهم فتأسست سلطنتهم وامتدت زماناً اكثر فيها  
 الظلم والجور والفساد فكانت مصر في ايامهم كسفينة في طوفان  
 او جيش احاط به العدو من كل مكان واتقطع ذكر الاسكندرية

وشهرتها وتناقضت كثيراً عمارتها ولكنها لم تنقطع بالكلية تجارتها فكان يأتي من البلاد الافرنجية بعض بضائع الأ أنها كانت قليلة لعدم اعتناء المحكام بما يوجب الامن على التجارة وانضم الى ذلك ما ضرب عليها من المكوس والجمارك على غير قاعدة مضبوطة ولا قانون منتظم فلم يزل يتناقص الوارد من البلاد الافرنجية بجر الروم وهكذا كان الوارد من جهة البحر الاحمر يتناقص حتى يتنازل الى قدر يسير ولكنها مع كل ما ذكر كانت حين دخلها عبد اللطيف البغدادي المورخ الشهير في سنة ٧٨٥ من الهجرة قد بقيت فيها بقية ولم تضحل بالمرّة فرأى بها ما حكاه من اثار العارة ووجد اهلها مشغولين بالاخذ والاعطاء والتجارة

وهذه كانت حالها حين استولى عليها السلطان سليم سنة ٩٢٢ من الهجرة ثم اخذت بعد ذلك تفقد بقايا ما كان لها من الصيت والشهرة والتجارة والعمارة بما كان يتوالى عليها من ظلم المالك واتباعهم واشياعهم فكانت تجارتها وعمارتها كل يوم تنقص عما قبله ولم تنزل تنهقر واحوالها تتغير الى ان جعلت كالسجن لمن يغضب عليهم الباشا بمدينة القاهرة ويرسلهم اليها

ثم اغار عليها نابليون بونابارت بمجنود الفرنسية سنة ١٢١٢ من الهجرة فدخلوها واستولوا عليها ولكنهم لم تطل بها مدتهم فخرجت من يدهم ولكنها عادت لما كانت عليه من الظلم والشر وفساد الاحوال حتى اخذل امرها وضجر اهلها لكثرة تعدي حكامها

عليهم وظلمهم لم فتركوا اسباب الكسب والثروة والتقدم واعرضوا  
 عن العلوم والفنون فكثرت الخراب بمصر واعمالها وهاجر منها من  
 تخلص من ايديهم من اهلها ووقعت العداوة والبغضاء بين هؤلاء  
 المحكام ايضاً كما وقعت بين الاهالي وبينهم وكثرت ما بينهم الفتن  
 والمحن والشرور وكثرت قتلهم لبعضهم وعاد ذلك بزيادة الخراب  
 للبلاد والضرر لاهلها فما كان يرى السائر بها الا ما يسؤه ويجزئه  
 من سوء اثارهم وقبيح اطوارهم فكم من اثر قديم اعدموه وقصر مشيد  
 هدموه وارض صالحة افسدوها وبلدة عامرة اصحبت خراباً وكانت  
 حارات القاهرة في ايامهم ميادين لقتنهم وقاتلم وصدور الاهالي  
 اغراضاً لنيلهم فعظم الشر واشتد الامر ولم يزل الحال على هذا  
 المنوال الى ان قبض الله هذه البلاد دولة افندينا الاكبر محمد علي  
 المرحوم اول هذه الدولة الخديوية فشمير عن ساعد الجهد والاهتمام في  
 عمارة ما خرب منها واعادة ما نزع من العلم والمعرفة عنها واخذت  
 الاسكندرية من ذلك قسطها كغيرها من البلاد فحسن امرها وكثر  
 سكانها وزادت تجارتها زيادة عظيمة بعد ان كانت تلاشت  
 واضمحلت فان التجارة ايضاً يعترها ما يعترى السياسة والادارة  
 والعمارة من التقل والتبدل والتحول

فقال الانكليزي نعم هذا صحيح لا مرأء فيه فكل الناس الان  
 يشهدون لمحمد علي المرحوم بما ابداه من الهم العالمة في اعادته  
 لمصر ما كانت فقدته قبيل ايامه من حركة التجارة فانها قبله كانت

كما ذكرتم قد اصبحت تجارتها وتلاشت بالكلية وكادت تكون كما كانت عليه في الاعصار العتيقة المتقدمة العهد فانها في اوائل الزمان كانت تجارتها داخلية منحصرة بين اهلها لا حظ فيها للاجانب فكانت مسدودة عليهم لا يدخلونها بشي من التجارة واول فتح ابوابها لتعاطي التجارة الخارجية ودخول تجار الاجانب ومعاملتهم كان في عهد فرعونها المسى ايسامايكوس فانه اول من رخص للاغراب في دخول مصر والاختلاط باهلها وذلك قبل الميلاد بستائة وست وخمسين سنة وكانوا من قبل لا يؤذن لهم بدخولها فلما فتح بابها للاجانب اخذوا يتواردون من كل جهة عليها وينسلون من كل حذب اليها فانسعت بها دائرة التجارة وازدادت اسباب الثروة وكانت الامة الكنعانية هي المتسلطة على التجارة في تلك الحقبة كما هو شان الانكليز الان وبقي الامر على ذلك الى دخول الفرس مصر فدخل معهم الفقر والقلة وزال الامن لشدة الظلم والجور فاخذت التجارة في الانحطاط والتقهقر ولم تنزل كذلك الى وقت البطالسة ففتحوا لها طرقاً جديدة وروابط متينة فانسعت اتساعاً عظيماً امتدت شهرته في افاق البلاد فهرعت لها الناس من كل واد وصارت مينا الاسكندرية مركزاً عظيماً للتجارة يرد اليه محصول الجهات القريبة والبعيدة من كل جانب فزادت عمارتها بهذا السبب وكثر سكانها حتى بلغ عدد اهلها نحو ثلثائة الف نسمة ولا مبالغة في ذلك فقد نقل انه كان فيها حين افتتاحها

المسلمون أربعة الاف من الحمامات ونحو اثني عشر الف نفس من باعة الخضراوات ولم تنزل يزداد حسن حالها وتنتقل في درجات الثروة واليسار والعز والفخار الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد وهي سنة ٩٠٢ من الهجرة

وفي التاريخ المذكور عرف الناس طريق راس العشم الصالح فسلكته السفن التجارية الى الهند بعد ان كانت تمر من مصر فاخذت التجارة بعد ذلك تتناقص في الاسكندرية وتناخر وصارت احوالها تتغير وتتهقر الى ان جاءت دولة محمد علي الاكبر فصارت تتراجع اليها التجارة وتزداد وتكثر وذلك بما حصل في مدته ومدة من خلفه من عائلته على الحكومة من تسهيل النقل وتأمين الطرق واستمالة قلوب الاجانب فاتسعت بها موارد الثروة واليسار وقصدتها التجار من جميع الاقطار فازدادت التجارة والعمارة بها ازدياداً عظيماً وبلغت مبلغاً جسيماً حتى بلغ عدد سكانها الان نحو مائتي الف نفس فيهم نحو اربعين الفا من الافرنج وكان عدد سكانها حين استولى عليها نحو ثمانية الاف نفس

وقد بلغت قيمة الوارد والصادر من البضائع في ميناء الاسكندرية سنة ١٢٧٢ من الهجرة نحو ستة ملايين وسبع مائة وعشرين الف جنيه ومعظم ذلك مع الانكليز فان اكثر التجارة في مصر الان بيدهم وكانت قبلهم مع الجنويين في مدة المالك وقبل ذلك مع الكنعانيين كما مر ذكره



ومما اوجب كثرة التجارة بمصر وازدياد المنافع لاهلها الاكثر فيها من زراعة القطن وقصب السكر ونحوهما وما وضع فيها من القوانين المفيدة والترتيبات السديدة وما حصل من ترتيب المعاملة وعلائق التجارة بين المصريين وغيرهم من الامم الاجنبية بما اوجب كثرة ورود الاجانب على ارض مصر للتجارة حتى وصلت الى ما وصلت اليه بحيث اذا وقف احد بساحل مينا الاسكندرية تاكد له ذلك بما يراه على السفن الراسية فيها من كثرة الاعلام المتنوعة للامم المختلفة وما يدل على حالة التجارة بمصر في هذه الايام المحاضرة الاطلاع على مقدار ما يباع بها في السنة من اصناف البضاعة ففي سنة ١٨٥٤ للميلاد و ١٢٧١ للهجرة كان مقدار ما بيع فيها من صنف القطن خاصة اربعمائة وثمانية وسبعين الف فنطار بيعت بتسعة عشر مليوناً من الفرنكات وكثرة الرغبة في تجارته لما فيه من زيادة الربح زاد المقدار بعد ذلك فبلغ في سنة ١٢٧٢ للهجرة مقدار ما بيع منه خمسمائة وتسعة وعشرين الف فنطار بثلاثة وعشرين مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات وثن ما ورد الى مصر من الاقمشة في تلك السنة من بلاد الانكليز خاصة نحو سبعة عشر مليوناً وخمسمائة الف من الفرنكات سوى ما ورد من سائر الجهات وكان مقدار السفن الواردة الى مينا الاسكندرية والصادرة عنها نحو اربعة الاف واربعمائة واربع وستين سفينة نحو ربعها

من سفن الانكليز والباقي من سفن غيرهم ولا شك ان كثرة  
مقدار هذه السفن يدل على كثرة حركة التجارة

المسامرة الخامسة والثلاثون

كتاب علم الدين

قال ناقل الحديث فلما وصلا الى هذا الموضع من القول  
كان قد انصرم جزء من الليل وطاب المنام فانقطع الكلام  
واستأذن الانكليزي للقيام وانصرف الى حجرته فقام الشيخ وتوضأ  
وصلى ما عليه سنة وفرضا وشرع يحرر خطاباً لزوجته وأهل بيته  
هذه صورته بعد العنوان والسلام

اما بعد فقد قطعنا للحج البحر الاسكندري بحمد الله تعالى في  
مدة خمسة ايام قضيناها في صحة ورفاهية وراحة ولم يشغلنا عن  
ذكر الله شاغل بل شاهدنا فيها ما يدل على عظيم سلطانه فكنا  
اناء الليل واطراف النهار نتضرع اليه وتامل في عجائب مخلوقاته

المدالة عليه ولم نر في اثناء السفر الا ما يسرنا ويصفو به سرنا وقد  
 حصل لنا في السفينة من الاكرام شي زائد على المرام كل ذلك من  
 فضل الله علينا ولطفه بنا واحسانه الينا واما ما كان من صاحبنا  
 الانكليزي ولطفه فلا يستطيع القلم استيفاء وصفه وفي الجملة لم  
 يكن منه الا ما يسر الخاطر ويقر الناظر وقد انقضت ايام السفر  
 ونحن في سرور وانشراح وكأنها كانت بيننا ايام افراح وقد وصلنا  
 نغر مرسيليا وهي اول مدينة لفرنسا وهي بالنسبة للاسكندرية واقعة  
 في الساحل الغربي من البحر المتوسط ( بحر الروم ) فاقطنا بها يومين  
 وعن قريب نرحل عنها قاصدين مدينة باريس تحت مملكتهم ومقر  
 سلطنتهم وكان حصل لي امس بعض توعك خفيف وزال  
 وعادت الصحة بجهد الله الى احسن حال وقد طفت مع صاحبنا  
 ونجنا في البلد فراينا مبانيها القديمة كمصر واحسن منها ما استجد  
 ورايناها مراسي عظيمة يحف بها ارصفة جسيمة فاعجبني حسن  
 احكامها ومزيد انتظامها ودهشت من كثرة سفن التجارة فيها  
 واخلاف السنة ملاحيا ففيهم من العرب والعجم وغيرهم من جميع  
 الام ومن كثرة السفن ميناها وانضمامها لبعضها لا يكاد يرى الماء  
 من خلالها واعجب من ذلك انهم لا يحتاجون في اخراج البضائع  
 من السفن الكبيرة الى زوارق كالتي رايتها بالاسكندرية بل  
 يقربون السفينة الى الرصيف حتى تتصل به فيربطونها بحلقات  
 مثبتة فيه رباطاً محكماً ويرفعون منها البضائع كما هي الى البر بواسطة

عبارات عظيمة ترفع بها الاثقال على غاية من السرعة والسهولة  
 فلا يمضي على أكبر سفينة بعض دقائق او درجات الأ وقد صار  
 جميع ما بها على البر وقد اخبرني الانكليزي ان مساحة هذه المينا  
 على وجه التقدير مائة وسبعة وعشرون فدأنا من فدادين مصر  
 وان نصف هذا القدر للمينا القديمة ونصفه للمينا الجديدة وان محيط  
 الارصفة سبعة الاف متر وثمانمائة وخمسة عشر متراً وان التجارة  
 تشغل منها نحو اربعة الاف وثمانمائة متر وهناك مينا ثالثة أحدثت  
 منذ عهد قريب سعتها قدر مجموع الاثنتين وطول رصيفها ثلاثة  
 الاف متر واربعمائة وتسعون متراً فتكون سعة المينات الثلاث  
 بمرسيليا نحو مائتين وخمسين فدأنا تقريباً ورايت لم لطيفة عند  
 ارادة ارساء السفينة ذلك انها اذا قربت من البر يدخلونها في  
 خليج يؤمن به عليها من تائير الرياح عليها واصطدام السفن  
 ببعضها وقد وضعوا للسفن في طريقها اربع منارات تهتدي بها وهي  
 عبارة عن مبان عالية في راس كل واحد منها فانوس عظيم  
 يضيء في الليل وفي اسكندرية ايضاً منارة تعرف هناك بالفتار  
 وقد عرفت ان احدى هذه المنارات الاربعة وهي أكبرها يظهر نورها  
 على بعد عشرين ميلاً من المينا وارتفاعها اربعون متراً وارتفاع  
 الثانية خمسة وعشرون والثالثة اثني عشر والرابعة تسعة وهذه  
 ترى على بعد تسعة اميال من المينا ورايت على الارصفة مخازن  
 اخبرني صاحبنا انها قد بناها باذن الحكومة جماعة من مشاهير

القوم واغنياءهم اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشترك على راس مال  
قرروه للصرف على انشاءها يدفع منه في كل سنة جزءاً على التدرج  
الى اتمام تسع وتسعين سنة

واخبرت ان معظم اعمالهم الجسيمة تعمل بهذه الكيفية وان  
اصل مال الشركة المذكورة عشرون مليوناً من الفرنكات تعدل  
( ٨٠٠.٠٠٠ ) جنيه انكليزي من النقود المصرية وانهم قسموا  
ذلك المبلغ على اربعين الف سهم فخص كل سهم خمسمائة فرنك  
وكذلك رأيت بمرسلياً معامل لاصناف متعددة كعامل الصابون  
وتكرير السكر وطرق الحديد ودباغة الجلد وعمل الشمع واستخراج  
النيبذ والزيت وقد ترتب على وجود هذه المعامل بعض معامل  
اقل منها اهمية الا انها تابعة لها مثل معامل الصور الصناعية  
اللازمة لعمل الصابون ونحو ذلك

وقد اخبرني صاحبنا ان عمل الصابون لم يحدث بهذه  
المدينة الا في القرن السادس عشر من الميلاد الموافق للقرن  
الحادي عشر من الهجرة وانه كان ياتي اليهم قبل ذلك من مدينة  
يقال لها جنوا وفي سنة ١٧٨٩ من الميلاد وهي سنة ١٢٠٤ من  
الهجرة بلغ الحاصل منه نحو مائتين وخمسة وعشرين الف قنطار  
وقد بلغ الان نحو ثلاثة امثال هذا المقدار بسبب استعمال زيت  
الابذار واكثر ما يصنع منه يستهلك في ارض فرنسا وقريب من  
سدسه يرسل الى الخارج وعدد المعامل الموجودة الان لعمله نحو

خمسة واربعين فيها نحو خمسمائة من العمال واما معامل تكرير السكر فخمسة وقد بلغ ما دخل مرسيليا من السكر الخام في سنة الف وثمانمائة وثلاث واربعين للميلاد وهي سنة ١٢٤٩ للهجرة نحو ستة وعشرين الف اوقية مصرية ثم زاد بازدياد التقدم في التمدن والرفاهية فبلغ ما يرد لها الان منه نحو خمسة وخمسين مليوناً

واما معامل الحديد فكان لا يوجد منها بمرسيليا قبل الان بنحو عشرين سنة الاّ معملان لسبك الحديد خاصة والان فيها معامل متعددة منها ما هو لازابته ومنها ما هو لعمل الآلات والابورات البرية والجرية وغير ذلك وفي هذه المعامل من العمال نحو الفين وخمسمائة والمنحصل منها يومياً نحو الفين (بتتو) وبها ايضاً معامل متعددة لعمل الرصاص وسكبه في اشكال مختلفة وكذا معامل النحاس والتصدير ويوجد بها من معامل الشمع ثلاثة عشر منها لعمل الشمع المعروف بمن السمك ثلاثة فيها مائتان وخمسون عاملاً ولعمل شمع الدهن عشرة فيها خمسمائة عامل

واما معامل الدباغة فقد ذكر لي ان عددها الان قل عما كان سابقاً وانها كانت في سنة ١٨٤٨ للميلاد اثني سنة ١٢٦٥ من الهجرة نحو الخمسين منها لدبغ الجلود الكبيرة اربعة عشر ولدبغ الجلود الصغيرة ستة وثلاثون وكان في كلا النوعين نحو الف وسبعين عاملاً واما الان فهي اربعة عشر معملاً منها لدبغ الجلود الكبيرة تسعة ولدبغ الجلود الصغيرة خمسة وكذلك ذكر لي ان بها

من الطواحين ثلاثة واربعين خمسة منها تدور بالهواء والباقي منه ما يدور بالنجار ومنه ما يدور بالماء وبها نحو سبعمائة من العمال وفي هذه المدينة ايضاً سبعة معامل لعل ( الالوميت ) وهي كلمة فرنساوية جعلت على ذلك الكبريت الذي يقال له في مصر كبريت بلا نار وفيها سبعة معامل لعل الصوفان واثنان وسبعون محلاً لعل الحلي بانواعه وبها غير ذلك كثير من المعامل كعامل المشروبات بانواعها والحلويات باشكالها والمخللات باجناسها حتى ان بها معامل مخصصة بما يرسل الى الجهات البعيدة من المواد القابلة للتعفن من الاطعمة كانواع السمك واللحم والفاكهة فيحفظونها في ظروف محكمة بطرق مخصوصة تمنع عنها التلف والتعفن مدداً طويلة فلا يعترها شيء من ذلك

وكذا معامل الفخار والطوب والحرز وغير ذلك ما يضيق عنه النطاق ولا تسعه الاوراق وما دعاني الى هذا التطويل والاكثار الا علمي برغبتك في الوقوف على ما شاهدناه لتخفيفه بحاشية الكتاب الموسوم بغرائب الاخبار وعجائب الامصار ولا احب ان اطيل عليك بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفجور وما ارتكبه على خلاف امر الله سبحانه من مذموم الامور ولكن اذكر لك بعضه عنواناً يكون لما لم اذكره قانوناً وميزاناً وهو اني لم اسع احداً من جميع سكان هذه البقعة بذكر اسم الله تعالى بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون الا بامورهم

الدينوية وفي الليل لا يأوون إلا الى محلات الملاهي ومن الغريب انهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل احد منهم الماء في ازالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الأكل ومن عاداتهم انهم لا يلتزمون ابقاء لحامهم على حالة واحدة فربما ارى الواحد منهم ذا لحية طويلة عريضة ثم اراه قصرها كثيراً او حلقها رأساً فلم يبق الا شاربيه وتارة يبق الشارب والعنفة وما اذاها ويحلق ما عداها وتارة يحلق ما حاذى العنفة ويرسل ما عدا ذلك حتى يكون قريباً من الصدر وتارة لا يبق الا شعر العارضين وتارة يجعلها على شكل عريض من اصله ضيق من نهايته ومنهم من يتركها حتى تطول طولاً مفرطاً ومنهم من يحلق شعره بتمامه حتى يصير كالامرد واما ما يضعونه على رؤوسهم ما يعرف عندنا بالبرنيطة فشيء يطول شرحه وقد نظرت بعضه في مصر وله هنا انواع كثيرة فتارة يكون طويلاً مرتفعاً نحو نصف ذراع وتارة يكون قليل الارتفاع وتارة يكون ضيقاً من اعلاه واسعاً من اسفله نازلاً قريباً من الجبهة الى غير ذلك ومن عادات هذه الجهات ان نساءها يالفن الكلاب كثيراً ويستتبعنها حيث سرن وتكون معهن حيث كن ففي هن من اعز الاصحاب والاحباب حتى ان الانسان في محلات الفسحة يرى في الجمعية كثيراً من الكلاب وتحفل النساء بهذه الكلاب حباً منهن ويحفل بها الرجال تقرباً اليهن واكراماً هن لما يعلمونه من منزلتها عندهن



فحب المرأة منهم لكلها ربما يعدل حبها لولدها فتجعله جلسها  
وضجيعها وانيسها ينام ويقوم معها لا تفارقه وتقبله في فمه وتعانقه  
وانواع هذه الكلاب عندهم كثيرة منها ما هو قدر القط فأقل  
ومنها ما هو اكبر ومنها ما شعره طويل يقولون انه متولد بين الشياة  
والكلاب ومنها ما ابوه ذئب وغير ذلك وهناك نوع تقتنيه الرجال  
وتألفه يقولون انه يأتي اليهم من الارض الجديدة المسماة بالامريكا  
ولكن لا باس بهذا النوع لان فيه على ما يقال مزية عظيمة وهي  
اهتداه لاخراج الغريق من قاع البحر يقولون انه يشم رائحة الغريق  
فيغوص في الماء حتى يخرج به الى البر وقد رأيت رجلاً اعى يسحبه  
كلب في رقبته مرجونة صغيرة فاذا رأى انساناً ترك صاحبه  
وذهب يستعطي له صدقة وقد صادفنا في مرورنا وحين رأنا ترك  
صاحبه واتانا فوقف امامنا وجعل يبصص بذنيه وينظر الينا  
ويحرك راسه كحالة غيره من الكلاب حين يرى من يأكل شيئاً  
فيقوم بين يديه طامعاً في ان يلقي اليه شيئاً ما يأكله ففهمنا الغرض  
ووضعنا له بعض دراهم في المرجونة التي في عنقه فذهب الى صاحبه  
وحرك يده فاخذها من المرجونة وكذلك رايت بمنزل قريب من  
منزلنا امرأة اشارت لكلب من الشباك فصعد اليها فاعطته دراهم  
فاخذها منها ونزل واعطاها لصاحبه والامور التي شاهدناها هنا  
كثيرة يطول سردها وتعدادها وقد قيدتها في اوراق عندي  
اتلوها عليك عند عودنا ان شاء الله تعالى وقد ذكرت ما ذكرت

انموذجاً لما ادخرت وارجوان تبليغي سلامي لحضرة اخيك  
 ولحضرات من يسال عنا من المشايخ اخواتنا وقبلي لي الاولاد  
 والاخوات وارجومنك اتصال المكاتبة في كل بوسطة لاجل  
 الاطمئنان عليك وعلى كل من لديك ولا مشقة عليك في ذلك  
 اذ ما عليك الا تسليم خطابك لمن تستلمين منه خطايي او ارساله  
 مع الخادمة الى محل وكيل صاحبنا الانكليزي

المسامرة الماذسة والثلاثون

الارق والصلاة

ثم ختم الخطاب ووضعه في ظرفه وقرأ على حسب العادة ما  
 تيسر من القرآن العظيم وتلا اوراده ثم اضطجع في سريره فلم يغمض  
 جفنه بنوم وزهب فكره نحو وطنه ومقر اهله وسكنه وتذكر الاحبة  
 والاولاد وما هو فيه من الغربة وبعد البلاد فضاع بتلك الخواطر  
 لذيد نومه واشتغل قلبه باحوال اهله وقومه فقام من فراشه مكتئباً

حزينا وصار يتردد في حجته شمالاً ويمينا وبقي علي هذه الحال من  
 الارق وهجم عليه جيش الخواطر والقلق ولما لم يجد للنوم طريقاً  
 وصار في مجرافكاره غريقاً عمد الى شباك حجته ففتح عساه يتسلى  
 بروية المارة في الطرق وصار ينظر منه وينصت بسمعه ولكن كان  
 انقضى جزء عظيم من الليل واتقطع المرور من الطرق ودخل  
 كل احد مضجعه فلم يجد احداً يمر من الطريق الا القليل النادر  
 وكانت تلك الليلة من اخر الشهر فلم تكن من ليالي القمر بل كانت  
 سوداء الاهداب حالكة الجلاب قد ارخت على المدينة ذبول  
 ظلمائها وغطت على جميع اطرافها وانحاءها ثم نظر الى السماء فلم ير  
 الا الكواكب وكأنها تبعث اليه مع اشعتها سلام الحبايب وكان  
 النسيم يلاطفه ويسليه برقته ويذكره بليال مرت له مع احبته وايام  
 تقضت باهل مودته فصار يستعمل النسيم اليهم السلام ويجعله  
 واسطة بينه وبينهم في الكلام فلما لم يسمع من يجيبه زاد انينه ونحيبه  
 ورفع للسماء اكف الدعاء وقال اللهم يا من تنزه عن المكان وابدع  
 بقدرته عوالم الامكان الهى انت الذي رفعت السماوات وزينتها  
 بنجوم تجري في بحار الظلمات فدهشت من نورها ابصارنا وتحيرت  
 في ادراك حقيقتها افكارنا انت اعلم بجالي ونهاية امالي الهى انت  
 الذي حولتني من وطني وصيرتني بين اهل هذه الديار بعيداً عن  
 سكني فلك الحمد على ما قدرت ولك الشكر على ما اردت اعوذ  
 بك من زوال النعم وموجبات التعم انك على كل شي قدير الهى

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي  
 يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمنني في غربتي واذا قدرت  
 عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهني الصبر على ما قدرت والرضى  
 بما قضيت وثبتني على ديني وقوّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي  
 واهلي ومن يلوذ بي في عبادك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني  
 من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل  
 الضلال والفساد ولا ترخ قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون المحجّم  
 على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير  
 واجعل عظمتك ملء قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا  
 نسمع الاّ ذكرك ولا نتمثل الاّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك  
 المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى  
 الله عليه وسلم وبحق من اصطفينه من عبادك الصالحين واصفيائك  
 الطيبين الطاهرين ( ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى  
 الاسحار حتى خضعه بقوله ) اللهم امرن روعاتنا واستر عوراتنا  
 واذهب غيظ قلوبنا وجبننا وساوس الشيطان واعذنا منه يا رحمن  
 حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى  
 نفوز بنعيم جنتك ثم تزمّل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول  
 سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدياً ما فرض  
 عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند  
 ذلك دعا ولده. برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

فجلسوا يتحدثون وتناولوا ما تيسر من الطعام وحكى الشيخ ما  
اصابه في ليلته من الارق والقلق

### المسامرة السابعة والثلاثون السكر

فقال الانكليزي ان استحسنتم فقم بنا تمشى في البلدة ونطوف  
في طرفاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح  
النفس فواقفه الشيخ على ذلك وقاموا فطافوا في شوارع المدينة  
يجمون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات  
واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة  
للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة  
هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانتهم  
ما مجزرتهم من الخلق المتخلقة حول دوائر الممر وعليها الاشربة  
الملونة بالالوان المختلفة في الاواني المصنوعة على الاشكال الغربية

وللناس غوغاءً واصوات منكرة كما هو شأن اهل المنادمة والمقامة  
قال الشيخ عجبت من انهماك اهل هذه البلاد في استعمال هذه  
الاشربة وما يتبعها من الملاهي والملاعب وتأتمهم في انواعها وانبيها  
وقد نشاء من ذلك افناء كثير من الاموال وشغل معظم الاوقات  
فيما يعود على الابدان بالمضار وعلى العقول بالاختلال وعلى الاعراض  
بالاهمال حتى ان ذلك كثيراً ما يكون سبباً لاتلاف الانفس  
والخروج من الشرف والعزة ولذة الحياة الى الخمسة والذل والم  
العيش مع ما هم عليه من توجه الافكار وانبعث العزائم من  
رجالهم ونسائهم واطفالهم الى ما يعود على وطنهم وسكان ارضهم  
والمحميين بهم بالشرف الاكبر والمحظ الاوفر والالفة التامة والرئاسة  
والمملك الثابت حتى انهم تخطوا ذلك الى ارادة تنبيه الامم لما تصلح  
به احوالهم وتذا مروا على ذلك وظهرت مساعيمهم فيه فلقد كانت  
جاهلية العرب في ذلك اسد رأياً واحسن حالاً فان حلماءهم  
وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الاشربة والملاعب من  
تهيج الشرور وفساد المعاملات واخراج الاموال عن صورة  
الصالح تناهوا عن ذلك واخذوا على ايدي الشبان فيه فصاروا  
ثلاث فرق الفرقة الاولى اولو الاحلام والنهي ومنهم الذي يقول  
لا اشرب ما يشرب عقلي والذي يقول وقد قيل له الا تشرب ما  
يزيد في جراتك وساحك لا اصبح سيد قومي وامسي سفيرهم الفرقة  
الثانية الشبان المتهورون وهؤلاء كانوا يتباعدون عن ابائهم وذوي

الولاية بعلة الاصطياد والنظر في احوال الاموال العازبة في  
مراعيها فيميلون الى بعض الغياض لتحصيل اهوائهم على وجه  
الاستخفاء الفرقة الثالثة الفتيان الذين وجدوا من انفسهم التوة  
والنخوة والنجدة فهولاء كانوا يتجاهرون. بذلك اعتماداً على قواهم  
واحتماءً بشدتهم والالسة آخذة فيهم بالملامة وهم لا يعتبرون حتى  
جاء الاسلام ومضى شطر منه وهم على تلك الحال لم يزعمهم عنها  
حكم صريح بات حتى انزل قوله جل ذكره ( ومن ثمرات النخيل  
والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ) فاقصر بصفة الحسن  
على الرزق ليفهم السامعون قبح السكر ثم قال اناس منهم عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أفتنا في الخمر المذمبة للعقول  
المتلفة للاموال فاوحى اليه صلى الله عليه وسلم ( يسئلونك عن  
الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس فكف قوم وبقي  
اخرى حتى قام بعضهم يصلي اماماً في صلاة جهرية فقرأ قل يا ايها  
الكافرون اعبدوا ما تعبدون فنزل قوله تعالى ( يا ايها الذين آمنوا  
لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ) فكانوا  
لا يشربون في وقت ثاني عليهم فيه صلاة وهم سكارى ثم نزل قوله  
تعالى بالحكم البات والتحريم الصريح يا ايها الذين امنوا انما الخمر  
والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ( الايات )  
فانتهى جميع المسلمين عن استعمال ما ذكر وشرعت فيه العقوبة  
الحديدية في الشرب والتعذير في غيره ثم اختلف المجتهدون في تقرير

الاحكام الشرعية في مسمى الخمر واحكام الاشربة فقال قوم كلما  
 خامر العقل وخالطه وغيره عن حاله الاولى فهو خمر وحممه حرمة  
 شرب قليلة وكثيره وفساد بيعه وشرائه وحرمتها وقال قوم مسمى  
 الخمر عصير العنب يترك في الاواني حتى يغلو ويشتد ويقذف  
 بالزبد وغيره يسمى سكرًا والحكم حرمة قليل الخمر وكثيرها نيئة  
 فاذا طبخت حتى ذهب ثلثها حل ما دون السكر منها كما هو  
 الحكم في بقية الاشربة فاتفقت كلمة المسلمين على حرمة السكر والحكم  
 عليه لما فيه من الفساد الذي لا يخفى دون ما فيه الاختلاف السابق  
 لرعاية مصالح العباد حسب اختلاف البلاد

فقال الانكليزي ان ما قلته حق والتقد به حسن اذ لامزية  
 لعاقل ان كل ما يؤدي الى فساد في الجمعية وخلل في نظامها  
 توجب السياسة والانظار الصحيحة المنع منه والاخذ على ايدي  
 الناس فيه فليت اهل بلادنا اقتصروا على موضع الحاجة منه ولم  
 يتجاوزوه الى السرف هذا واسأل حضرة الشيخ تفسير الميسر  
 والانصاب والازلام والامام بما دار بين مقرري الشريعة المحمدية  
 من القول في احكام ذلك والسامع واستعمال الات الملاهي



المسامرة الثامنة والثلاثون  
الميسر والانصاب والازلام

قال الشيخ الميسر لعبة كانت لهم يلعبونها في مجلس الشراب صورتها انه يجتمع عشرة فتيان هم اللعبة ومعهم رجل يستامنونه يسي الياسر في يده جراب يسي الربابة قد وضع فيه قطعاً من الخشب مسواة تسمى القداح الواحد قدح على واحد نقطة وعلى اخر تقطان وهكذا الى السابع ويغفلون ثلاثة منها ولكل قدح اسم يخصه وهي الفذ والتوم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنج والسفيج والوعد وبنحرون جزوراً ويمزئونها ثمانية وعشرين جزءاً بعدد النقط التي على القداح ثم يخرج الياسر القداح على اسماء الاشخاص قدحاً قدحاً فكل من خرج له قدح اخذ من الجزور بعدد ما على قدحه من النقط ومن خرجت لهم القداح الغفل يغرمون ثمن الجزور

ثم انهم يعطون اللحم لمن حضر من فقراء الحي لا ياكلون منها كان ذلك منهم على وجه التفتي والتكرم وكثيراً ما كان يتولد من ذلك شر بسبب ان الذين يغرمون ربما ادركهم الشخ والندم

والاسف على عدم النجت ويجسدون من تخرج له الانصبه لكونهم  
استاثروا بالمحظوظ والنجوت دونهم فهذا صنف من الميسر هو اكرم  
الاصناف واخفها ضرراً

ثم ان العرب كانوا يلعبون بلعب كثيرة كشطرنج الهند ونرد  
الفرس والمسابقة على الخيل والابل والترامي بالنبال الى اغراض  
وهو النضال في اشياء كثيرة وكانوا يتراهنون في ذلك باخطار  
كبيرة كمائة من الابل مثلاً يجعلونها خطراً في الرهان فربما اصبح  
الواحد صعلوكاً معسراً وامسى شريفاً ذا ثروة وافرة ولذلك كانوا  
يسمونه الميسر لما فيه من يسر قوم وان كان فيه عسر اخرين

يحكى ان تماضر المشهورة بالخنساء اخت صخر دخلت يوماً على ام  
المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى صدرها منسوج من شعر صنعته  
من شعر راسها عند فقد اخيها على عادة نساء الجاهلية اذ كانت المرأة اذا  
فقدت عزيزاً لها حلفت شعرها ونسجته صداراً فقالت لها عائشة  
رضي الله عنها الم ينهك الاسلام عن ذلك فقالت الخنساء يام  
المؤمنين تزوجت فتى من فتيان قومي ذا يسار فقامر حتى اعسر  
واملق فشكوت ذلك لصخر اخي فاخذ بيدي وقام الى ابله فصدعها  
نصفين وخيرني فذهبت بنصف ماله فقامر به زوجي حتى انفده  
فرجعت الى اخي ففعل فعلته الاولى وقامر زوجي حتى رجعت  
الثالثة وانا فيما يعلم الله من الاستحياء فانا من وراء البيت وصخر  
اخي مضطجع واضع راسه في حجر امراته فلحنني المرأة وسمعتها تقول

هذه اخذك وما اظنها تاركك حتى تملق فلم يجبها وقام فاستقبلني  
وحياي واخذ يصنع بي صنعه السابق وهو يقول  
وكيف لا امتحها خبارها \* وهي فتاة قد كفني عارها  
وان امت تمزقن خمارها \* وتجعلن من شعرها صدارها  
فما عشت لانزعه كما لا يفارقني الحزن على صخر فحرم الشارع  
المخاطرة بالاموال

واما نفس اللعب فقد ندب الى السباق والنضال وفعلا  
بين يديه واناب الغالب لما في ذلك من الجد والمنفعة وقد عمد  
لها في الفقه باب السبق والرمي

واختلف الائمة فبعض اجاز النرد وحرم الشطرنج وبعض  
اجاز الشطرنج وحرم النرد واما الانصاب فهي حجارة او اشيا اخر  
كالصفر يصورونها في اشكال مختلفة وبعضها كان مصورا قديما  
موروثا للاخلاف عن الاسلاف كانوا ينصبونها ويتقربون عندها  
بانواع عباداتهم ويقولون ان هذه الانصاب تشهد لنا باعمالنا عند  
ربنا وتشفع لنا فحرم ذلك وكفر فاعله ومعتقده واما الازلام فهي  
ثلاثون قطع من الخشب مكتوب على واحد امر وعلى واحد ناه  
والثالث عطل لا كتابة عليه فكان الرجل اذا عزم عزما خلط  
تلك القداح في جراب ثم اخرج منها واحدا فان كان الامر فعل  
وان كان الناهي ترك وان كان العطل اعاد العمل فنهى عنه ذلك  
في اشياء كثيرة من جنسه كزجر الطير والحيوانات والاحوال

التي يشاهدها العازم عقب عزمه فيستشئهمون ببعض ويتبنون  
ببعض فقال عليه الصلاة والسلام اذا تطيرت فامض وقبل ذلك  
تنبه كثير من العرب لبطان تلك الاشياء فان بعض الناس  
كان يرى المشائم فيقدم فيصيب ما اراد على اتم وجه حتى قال شاعرهم  
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال اخر

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه

ويقضي اله الخلق ما كان قاضيا

واما السماع واستعمال آلات الملاهي فاجازها بعض بشرط  
امن الفتنة بالوقوع في محظورات الشرع وعدم اللهو والاشتغال عن  
الواجبات في اوقاتها ومنعها بعض لما يغلب فيها من السهو والغفل  
عن اداء الواجبات والنظر في المصالح والسعي لها في اوقاتها  
قال الانكليزي ان ميل الانسان بطبعه الى ما يجدد نشاطه  
ويعود على فكره بالراحة من الاشتغال بما يكدر قواه من استماع  
الاصوات الحسنة والنظر الى المناظر الجميلة والاشتغال بالامور  
الملمية هو الذي بعث الافكار على اصطناع الات الطرب وتحسينها  
وانتجان ما يناسبها وكان ذلك من الاعمال العائدة على كثير من  
اهل هذه البلاد بالثروة حتى نظمت في الاعمال التي يبني الناس  
عليها امور معاشهم ولا غرو ان يشتغل الانسان بما فيه كسبه

وارتياح اهل ارضه ونزهتهم وتسليمهم عن كثير من الهموم المكدة  
والاعمال المتعبة فلذلك ترى اطباق اهل هذه الارض ولا سيما  
النساء على تلك الاشياء حيث وجد فيها الكبار واهل العجز والهرم  
تعويض ما فقدوه من ملاذ الشباب وهي من تحائف الشباب  
وجملة آياته التي يحصل بها على تمام ملاذه الداخلة تحت قدرته  
الحاضرة بين يديه

---

المسامرة التاسعة والثلاثون  
حكاية المصري الغريب

قال الناقل وبينما هم كذلك اذا بانسان هرم دخل عليهم فسلم  
بلسان عربي فصيح فرد عليه الشيخ وولده وحياه الانكليزي على  
حسب العادة واذنوا له بالجلوس فجلس ثم تاملوا في هيأته ولغته  
فعرفوا انه ليس من اهل البلدة فقال الشيخ لعلمكم من اهل مرسيليا  
قال لا وانما انا ساكن بها منذ مدة طويلة وانا من جهة مصر

ومسقط راسي القاهرة ولي بها اقارب ولا اعلم الان ما فعل الله بهم  
وكانت اقامتي معهم بمصر في خط الازبكية ولي حكاية غريبة في  
سبب مفارقتي لهم فقال الانكليزي اظنك ممن كان حضر مع نابليون  
بونابرت حين خرج من مصر فقال نعم فقال له كيف تبعته وتركت  
عائلتك واهل بيتك قال الرجل في مدة اقامة الفرنسيات بمصر  
كان قد اخلط بهم بعض اهلها حتى دخلوا تحت طاعة الفرنسيين  
وانضموا اليهم فثمنهم من كان في خدمتهم ومنهم من دخل في عسكرهم  
وقليل منهم شاركهم في التجارة فكنت ممن دخل في العسكرية  
فاثمت فيها مدة الى ان حصل الصلح بينهم وبين المصريين وكان  
في من كتب اسمهم في العسكرية كثير من القبط المصريين ونصارى  
الشام ومن بقي من المالك الذين كانوا بها قبل دخول  
الفرنسيين اليها ولما وقع الصلح وتاهب جيش الفرنسيين للرحيل  
خرج من العسكرية من خرج وبقي من بقي فكنت ممن بقي وكان  
عمري اذ ذاك قريباً من ثلاثين سنة وكان السبب في بقاء من  
بقي مع الفرنسيات ان اهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل  
في زمرة الفرنسيات بالقتل وبغيره فلذلك اخترت البقاء معهم  
والمهاجرة الى بلادهم وعلى اى حال فالقسمة غلبت وخرج معهم  
من خرج الى ان وصلنا مرسيليا فثنا من اقام بها ومنا من بقي في  
العسكرية وسار مع نابليون فكنت ممن اقام بمرسيليا فرتب لنا من  
جانب الحكومة مرتبات لكنها لم تكن كافية فاخذنا في الاسباب

كل على حسب اقتداره وتزوجنا من نسائهم وتخلقتنا باخلاقهم  
وتهيأنا بهياتهم واكتسب كل منا على حسب سعيه وكده واعاننا  
على الكسب في هذه المدينة انهامينا واشغالها كثيرة وامور السعي  
والعمل والكسب فيها متيسرة وبهذه الكيفية تيسرت معيشتنا  
ورضينا بقضاء الله وقدره وان كان حب الوطن لا يبرح من  
بالنا وافكارنا لا تفر عن ذكر اهلنا وبقينا على هذه الحال الى ان  
تعصبت الدول على دولة فرنسا واتفقوا على خلع الامبراطور  
واشخاصه الى جزيرة الب للاقامة بها وردّ الحكومة الى الملك لويز  
الثامن عشر من ملوكهم فعند ذلك حصل لنا ولكل من كان قد  
انتمى اليه من الذل والاهانة ما كان سبباً في مفارقتنا لمرسيليا ولو  
كنا نعلم الغيب لكنا جميعاً هاجرنا من هذه البلاد قبل ان ينزل  
بها ما نزل من المقدور وما هو في علم الله مستور ومسطور فكنا  
نحوار بعائة نفس بعيالنا وكانوا يسوموننا كل يوم من العذاب ما  
لا قدر على وصفه الى ان حصلت الحادثة التي رجع فيها بونا برت  
الى السلطنة مدته الاخيرة المعروفة عند اهل هذه البلاد بمحكومة  
مائة يوم لانه لم يتم بها الا هذه المدة فلما انقضت حصل لنا وللجميع  
من انتسب اليه غريباً كان او غير غريب ما يعجز عن استيفائه  
اللسان ويكل في حصره البيان وحاصل الامر ان جميع المالك  
والمهاجرين الذين كانوا معنا وعايهم واولادهم قتلوا في وسط  
حارات مرسليليا وشوارعها بكيفيات يشمئز منها الطبع ويحجها السمع

ولولا اني كنت غائباً في ذلك الوقت لقتلت فبين قتل ولما عدت وجدت عيالي جميعاً قتلوا مع والدتهم وشرح ما حصل في تلك الايام طويل ولو مكثت طول عمري اذكر لك من اخبارها لكان ما اذكره بالنسبة لما اتركه اقل من القليل

فقال الشيخ اودان اعلم كيف كان قتل المساكين الاغراب وكيف سلمت الحكومة في ذلك فان مثل هذا لم يسمع به في بلاد البربر ولا بين سكان البادية فكيف يكون في الملل المتمدنة ام كيف يحصل من ملة يقال فيها انها بلغت من التمدن غايتها

فقال ذلك الرجل ان طباع هذه البلاد غريبة جداً لانهم دائماً في فتن ومحن ويودون دائماً تغير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم فان شئت وتفضلت عليّ انت ومن تحب بالزيارة في منزلي فهناك تروح بذكر البلاد وتلو عليك شيئاً مما وقع في هذه الحادثة من الصلاح والفساد فسكت الشيخ فنظر ذلك الرجل الى الانكليزي فقال اما انا فقد دعيت عند بعض الاحباب ووعدته في هذا اليوم بالذهاب واود ان اخذ معي برهان الدين وان اراد حضرة الشيخ ان يتوجه معك ويصطحب يعقوب معه فالراي له فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعاً فذهب الشيخ ويعقوب مع الرجل الى منزله فقابلتهم زوجته احسن المقابلة وحيثهم تحية الاكرام والمجاملة واجلستهم في المكان المعد للضيغان وامرت باحضار القهوة والدخان فشرّبوا ثم شرعوا في التبسط بانواع الكلام الى ان



وصلوا الى ذكر حوادث الايام فقال الشيخ للرجل ارجوك ان تفي بما وعدت به انفاً من حكاية ما حصل في قتل اولئك المساكين الاغراب وما حصل بهم من انواع العذاب والعقاب فتنفس الرجل الصعداء وقال ان اهل مرسيليا وما جاورها من البلاد بل اهل فرنسا على الاطلاق منقسمون فرقا فثمنهم في السلطنة الملوكية ومنهم من يميل الى الامبراطورية ومنهم من يحب الجمهورية ولكل قوم كلام في ترجيح رايهم ليس هذا محله وكل فرقة من هذه الفرق مع الاخرى في فرنسا كسعد وحرام في مصر والقيسية واليانية في بلاد الشام فمتى كانت الحكومة امبراطورية كانت الغلبة لمن يتبعها والعكس بالعكس فمن ذلك لا ينقطع من بينهم عرق الشقاق ولا تزال الدماء بينهم تراق في الحارات والاسواق ومن ذلك مسألة الاغراب التي سمعتها فانها انما نشأت من تلك التعصبات وذلك ان اهل مرسيليا كانوا اول من نصب لواء العصيان في القومة الاولى على بونايرت فلتجها مدة حكومته ما لحقها من الذل وضياع المزايا التي كانت ميناها زمن الحكومة الملوكية لانها كانت وقت ذاك معافاة من الكمارك والعوائد وكان ذلك من اقوى اسباب ثروتهم وسعة تجارتهم فلذلك كانوا يثمنون عود الحكومة الملوكية حتى انهم من شدة كراهتهم له ولما اتبعه لما شاع الخبر بانخطاطه في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر لهيلاذ وهي سنة ١٢٢٠ للهجرة قاموا جميعاً وقام معهم اهل البلاد والمديريات التابعة لها ففعلوا باتباعه افعالاً

شنيعة وقتلوا كل من كان له ميل اليه بالقوة وشاع ذلك حتى كان امراً مشهوراً وتاريخياً على طول الزمن المذكوراً وهجموا على محلات رجال الحكومة وقتلوا واتباعهم ولم ينجُ مدير المديرية من ايديهم الاً بالفرار الى ميدان الفسحة وهجموا على هيكل الامبرور الذي كان منصوباً في ميدان المدينة فكسروه ورموه واقتلعوا جميع ما كان في ذلك الميدان من الاشجار والنبات والازهار وحرقوا ما كان به من انواع الزينة والزخرفة وبالجملة فلم يحترموا تربة كانت هناك وان كانت لاحد مشاهير رجالهم بل حفروها ودمروها حتى لم يبق لها اثر هذا والسبب في تغالي اهل هذه المدينة في الميل الى الملك ان عائلته كانت دائماً تعدهم برد المزايا التي فقدوها وتشوقهم برجوع مزايا اخرى كانت لهم من قبل وسلبتها منهم حكومة بونابرت فلما خلع من الملك اول مرة جمعوا من رجالهم حزباً عظيماً عينوه لترغيب من يريد الدخول في العسكرية فانضم اليهم اهل الشقاوة والمفسدون واخلاق من العملة والفعلة واستمروا على ذلك نحو احد عشر شهراً من خلعه ولهذا لما بلغ هولاء الاشرار خروجه من جزيرة الب ودخوله ثانياً ارض فرنسا خافوا على انفسهم من عاقبة فسادهم وايقنوا بجلول العقاب بهم دفعة واحدة ورفعوا لواء العصيان ورجعوا اها الي المدينة ومن حولها وخصوصاً العمال في المعامل وفي المخازن العسكرية وكذلك كل من وجدوه من الفقراء والمساكين فتجمع

من هذه الجموع المختلفة الاف مؤلفة وانتشروا في المدينة وشبوا في طرقاتها نار الفتن التي احلت بهم القضاء وهجموا على فريق العسكر واكرهوه على ان يقوم معهم لمنع الامبرور من دخول ارض فرنسا فخرج معهم بعسكره وساروا لتعطيل الامبرور عن الخروج من البحر لكن الله قدر خروجه من البحر قبل وصوله اليه فلم يبلغوا مقصدهم ورجعوا الى المدينة خائبين فصاروا يقوون جموعهم فعظمت قوتهم وازداد كرب الاهالي المتقطعين لاشغالهم من تعديهم وظلمهم لهم وكانوا يزعمون ان الملك اذا قام بجيوشه يقاوم حزب الامبرور نابليون ولم يخطر ببالهم ان الامبرور متى وضع قدمه بارض فرنسا اجتمع حوله خلائق كثيرة من عساكره القديمة والمجددة وغيرهم استالم اليه ما كان له من الشهرة وكثرة الفتوح والنصرة فكان الامر على خلاف ما زعموا ولم يقاومه حزب الملك بل فرّ بعائلته ودخل نابليون ارض فرنسا واخذ بعنان الحكومة كما كان فتضعع راي هولاء الاشرار وتفرق شملهم وترتب على نزول الملك عن سرير الملك وخروجه من باريس تغيير جميع حكام الجهات والمديرين ومن جملتهم حكام المديرية التي مركزها مرسيليا فتغير حاكمها وحضر لقيادة العساكر بها رئيس غير الاول وكان يجب الصلح والاصلاح فاجتهد في منع اسباب الفساد وقمع اربابه بطريق الانصاف والمساواة وتسكين الفتن حتى انحسرت الامور ومع هذا كان المفسدون كلما وجدوا للفتنة فرجة اوسعوها او فرصة للشر

ابتدروها فكانوا يوقدون نيران الفتن خفية ويلقنون كل من  
وجدوه كراهة الحكومة الامبراطورية واتباعها حتى انهم اكثروا من  
الطعن في حق راس العساكر المحافظين بمرسيليا حيث كان هو  
المانع لما يقصدونه من الفساد وكثيراً ما اخبر باقوالهم ومقاصدهم  
وانهم يثمنون حيلة لسفك دمه وهو مع ذلك لا يخرج عن الطريق  
الذي الزم نفسه بسلوكة من الرفق في المعاملة وحسن الخلق والمجاملة  
بل استمر على استعمال ما يوجب الصلح والاصلاح لاطفاء الفتن  
وحصول الامن بين الرعية وكثيراً ما راي بعينه تعدي بعض  
هؤلاء الاحزاب وفطم ابواب الشر بالنزاع والمحاصرة مع عساكره  
من غير مقتضٍ لذلك فكان لا يستفز الغضب ولا يغير طبعه  
معهم ما يقع منهم ظناً منه انه على طول الايام اذا تمهدت قواعد  
الحكومة على اصول من العدل متينة تخلي قلوب الاحزاب ويزول  
ما في نفوسها من الضغينة فانهم جميعاً امة واحدة وابناء وطن واحد  
فلا بد ان يصفوا الببال وتحسن الاحوال قال ولم يعلم بما خفي  
في خبايا الغيب فاخطأ ظنه وخاب امه وضاع عليه تدبيره وعمله  
وذلك انه لما وقعت الواقعة المشهورة بجهة (واترلوا) انهم فيها  
جيش نابليون فانتشرت الاخبار في جميع نواحي المملكة ومن الجملة  
جهة مرسيليا فشاع فيها الخبر يوم الاحد لعشر بقيت من شهر جونيوس  
سنة ١٨١٥ لليلاد وهي سنة ١٢٣١ للهجرة وذلك بعد ستة ايام من  
تاريخ الواقعة فخاض في حديثها الناس واشتغلوا بها فكنت لا تجد

احداً منهم إلا رأيتهم مهتماً بهذا الأمر مشغولاً به فلا يجتمع منهم  
اثنان فأكثراً على الخوض في حديث هذه الحادثة سواء كان  
ذلك في محلات النزهة والفسحة ومواضع التهوية أو الكنائس والدور  
والازقة والميادين بحيث لم يبق فيها اظنه احد من الفرنسيين إلا  
تكلم في هذه المادة وما يترتب عليها من النتائج المؤلمة والعواقب  
الوخيمة فغلب الوهم على قلوبهم لاعتقادهم جميعاً انه لا بد من  
دخول العدو باريس وتصرفه في أهلها بالغبلة والتهر وهذا  
الخوف كان عاماً لجميعهم ما عدا حزب الملك ومن اتبعه فانهم  
وجدوا فرصة لظهار ما في نفوسهم وبأباً للوصول الى اغراضهم فهبوا  
من نومهم وقاموا من مهد خمولهم واجتمع عليهم كل من اراد الانتماء  
والانضمام اليهم اورغب في السلب والنهب معهم فاجتمع بهم اهل  
الشر والفساد جميعاً فلم يبق قاتل ولا لص ولا قاطع طريق إلا  
انضوى اليهم واختلط بهم وانتشروا في ارجاء المدينة فكان اول  
ما فعلوه انهم هجموا على العساكر ورموهم بالرصاص وقابلهم العسكر  
بمثل ذلك بحكم الضرورة فقتل من الفريقين خلق كثير واخر  
الأمر انهزمت شردمة العسكر فخلا الجو لاولئك الثائرين ولم يبق  
لهم مانع وهجموا على البيوت وعلى الدائرة البلدية فجرى منهم من  
الردائل والفساد ما لا يدخل تحت حصر واخذوا يبرق الجمهورية  
وحرقوه في ميدان كان منصوباً به هيكل نابليون الاول ثم سطوا  
على ذلك الهيكل فكسروه وداسوه تحت ارجلهم ثم داروا في الازقة

متجاهرين بالاقوال الفظيعة والتحريض على قتل كل من يتشي الى نابليون او عائلته او ميل للجمهورية وهجموا على مواضع كثيرة من جملتها محل كان به نحو ثلثائة من الضباط الضعفاء المعروفين بالسنتط اصحاب المعاش فاخذوهم عن اخرهم وذبحوهم ذبح البقر وكذلك فعلوا بنحو اربعمائة من طائفة المالك فقتلوهم عن اخرهم ولم يرقوا لاطفالهم ونساءهم بل الحتوهم برجالهم وابائهم ولم يكن لذلك من سبب سوى ان هولاء المساكين كانوا اظهروا الفرح عند عودة نابليون فبقي ذلك في نفوس القوم وحقده عليهم حتى بطشوا بهم في هذه الواقعة وفعلوا معهم اموراً شنيعة واحوالاً فظيعة نشعر منها الجلود ويكاد برق عندها الجلود فمن ذلك انهم كانوا عند قتلهم للواحد منهم يقطعونه ارباً يلقونها في الطريق وكانوا ياخذون الواحد فيوثقونه بالحبال ويضربونه بالعصي والخناجر فلا يموت حتى يذوق انواع العذاب واشد العقاب

ثم قال ذلك الرجل وكان في جملة من مات الاولاد ( يعني اولاده ) وامهم قال وكان من ير في اي طريق من طرق المدينة وما حولها حيثئذ انما يربين ريم القتلى ويخوض في دماء المحرعى حتى اخلطت ريم الرجال بريم النساء وكان اولئك المفسدون في خلال ذلك يتكلمون بكل ما تشتمز منه النفوس وفعلوا ما لم يفعله المحوس فكانوا يطوفون حول القتلى راقصين مسرورين فرحين مستبشرين رافعين اصواتهم بالاغاني والاشعار

المتضمنة للمباهاة والافتخار بما فعلوه من القبائح وأرتكبه من الفصائح ومع ذلك لم تكن هذه الأهوال خاصة بمرسيليا وأهلها بل كانت في جميع جهات المملكة بأسرها فكم من بلدة حرقت وضيعة خربت وقرية نهبت قال فما كان أحد يسمع في تلك الأوقات عن جهة من الجهات إلا ما يسوء الفؤاد ويحرق الأكباد

فلما وصل الرجل من حكاية حديثهم الى هذا المحل قال يعقوب ( وكان مع الشيخ ) سبحان الله العظيم قد قدر الله على طائفة الممالك بهذا العقاب فاصابهم في كل جهة من الأرض فان ما حصل لهؤلاء بمرسيليا حصل مثله لآخوانهم بمصر وأمثالهم البينجيرية بالتسطنطينية سواء بسواء وكان ذلك في أوقات متقاربة فان ما وقع بمصر كان في سنة ١٢٢٦ من الهجرة وما حصل بمرسيليا كان في سنة ١٢٢١ منها كما مر والذي حصل في التسطنطينية كان سنة ١٢٤١

فعند ذلك قال الشيخ هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله قال الله تعالى ( ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم ) وقال ( وسيعلم الذين ظلموا اى متقلب يتقلبون ) قال بعض الحكماء من سلب نعمة غيره سلب غيره نعمته والحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه والله لو ان الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لاوشك ان تخرب حكى ان بعض الوزراء جلس يوماً للمظالم فلما انتضى

المجلس رأى رجلاً جالساً فقال له ألك حاجة قال نعم ادني اليك فاني مظلوم وقد اعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال انت ولست اصل اليك فاذا ذكر حاجتي قال وما يحجيك وقد ترى مجلسي مبدولاً قال يحجيني عنك هيبتك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية اخذها مني وكيلك غصباً بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج ادبته باسي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك ياخذ غلتها وانا اودي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم فقال هذا كلام تحتاج معه الى بيعة وشهود واشياء فقال ذلك الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب قال نعم قد امتك قال البيعة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شي اخر فما معنى قولك بيعة وشهود واشياء واي شي هذه الاشياء ان هي الا الجور وعدوك عن الحق فضحك الوزير وقال صدقت والبلاء موكل بالمتطرق واني لا ارى فيك مصطنعاً ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من اصحابه وكان من امر ذلك الرجل قبل ان يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له انا قيل له يا فلان كيف الناس يقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا يتصرفلما صار من اصحاب الوزير وردت عليه ضيعته وانصفه قال له الوزير ليلة كيف الناس الان قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاحجاف ورددت عليهم



المغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا ارجو لهم ببئائك نيل كل  
مرغوب والفوز بكل مطلوب

### المسامرة الاربعون

#### المحار

قال ناقل الحديث وبينما هم في هذا الكلام از حضرت  
صاحبة المنزل وأشارت بالقيام للطعام وكان الاتفاق على ان  
يكون الاكل على عادة المشرقين فوضعت الاطعمة دفعة واحدة  
واكلوا جميعاً بايديهم من كل صحفة ولم يخصص احد دون اخر  
بشيء الا انهم وضعوا امام الشيخ طبقاً فيه محار من المعروف بالمدينة  
فعافته نفسه وارجى ان يتعاطى منه لعدم تعوده على تعاطيه فاكلوا  
وشربوا ثم ارادوا ان يتحدثوا فيما بينهم من اخبار تلك الحوادث لكن  
لضيقت الوقت تعجل الشيخ بالانصراف فاستأذن وقام وتبعه يعقوب  
فركبا العربة وسارت بهما

فقال الشيخ يعقوب لقد عجبت من تقديم ذلك الحار بين يدي مع وجود غيره من المأكـل الشبيهة فلم اعرف لذلك من مزية فقال يعقوب انما فعل الرجل ذلك تطييباً لحاطرك واحفظاً بامرك ودلالة على العناية بشانك فان الافرنج قاطبة يجبون اكل هذا الحار حباً زائداً واكثر من يتعاطاه الامراء والاكابر من اهل المدن الاوروباية

فقال الشيخ كنت اسمع ان اهل اسكندرية ياكلون شيئاً يشبهه يسمونه بام الحلول وانهم يصنعونه بالتوابل والافاويه والبهارات ويحملون منه المـلحـات وكذلك بلغني انهم يتعاطون نوعاً يسمونه بلج البحر يطبخونه مع الارز فيكون عندهم لذيذاً ولكني لم اذق شيئاً من ذلك فلا اعلم طعمه وهل هو ماخوذ من هذه البحار او غيرها وما كيفية صيده

فقال يعقوب ان الصيادين يصطادونه من البحر الملح بشباك مخصوصة وطرق معروفة لم غير الطرق المعتادة في صيد السمك وفي كثير من جهات اوروبا ترى اقواماً من الاهلين يشتغلون بتربيته وتنميته في معامل مخصوصة قد اصطنعوها بسواحل البحر يربونه فيها كتربية المصريين للفراريج في معاملها وان كانت الكيفية مختلفة فان العامل التي نحن بصدها عبارة عن احواض واسعة مصنوعة بالقرب من ساحل البحر ينالها الماء في وقت المد وينحسر عنها في وقت الجزر وقد جعلت لها ابواب تقفل وتفتح لامسك الماء

في الاحواض وصرفه عند الحاجة بالاخييار وفي قاع الحوض احجار  
من الصخر موزعة في جهاته وحول كل من الاحجار قطع من  
الخشب مثبتة حوله ثم حول كل جملة من الصخر خشب غيرها  
وكلها متصلة ببعضها بواسطة حبل مربوط فيها محيط بجميعها  
ويربط في هذا الحبل حزم من الحطب وفروع الشجر تدلى في الماء  
فعند حصول القس يجتمع البيض على الصخور وعلى الاخشاب  
ويتعلق بالحزم المدلاة في الماء ويبقى كذلك الى ان يكبر وعند  
ذلك يكون اخذه باليد سهلاً فياخذون منه ما ارادوا مما يجدونه  
قد بلغ حد الانتفاع به وما وجدوه لم يصل الى تلك الغاية ابقوه  
حتى يصل اليها

فقال الشيخ اريد ان اعرف تفصيل احوال هذا الحيوان بقدر  
الامكان وكيف اهتدى الانسان الى معرفة ما ذكرت من طريقة  
تكثيره وهل هذه الطريقة حادثة ام قديمة

فقال يعقوب هذه الطرق كانت معلومة من قديم الزمان  
وكان الرومانيون وغيرهم يستعملونها وقد عرفها المتأخرون منهم  
ولكثرة سفري في البجار صار بيني وبين اربابها الفقه وبعض  
حيواناتها معرفة حتى عرفت هذا الحيوان وكنت اظن قبل ان  
اعرفه انه لا شي في جوفه وان كان فيه شي فانما هو خرف او مواد  
صلبة الحاقاً لما بطن منه بما ظهر هذا ما كنت اظنه فيه الى ان اتفق  
لي في بعض الاسفار ان اجتمعت باحد الطبيعيين وكنت اذ ذاك

بجبهة الامريكا فرأيتُه يوماً وقد جمع من هذا النوع شيئاً كثيراً  
فسألته عن فائدته وعما في جوفه وأصل مادته فاخذ منه واحدة  
ففتحها وصار يريني ما في جوفها ثم قال لي اعلم ان الله سبحانه وتعالى  
قد اتقن كل شي خلقه لا فرق بين كبير الحيوان وصغيره حتى  
المضغة والعلقة واودع فيه ما يلزم لبقاء شخصه ونفسه وخص كل  
نوع بمزايا تميز بها عن غيره من انواع جسسه ومن ذلك حيوان  
المحار فان لحمه بارد رطب مخاطي ليس فيه عظام من الداخل  
ولكونه على هذه الحالة جعل الله له وقاية نقيه من جميع العوارض  
وتحفظه من آفات البحر وحيواناته وهذه الوقاية وهي المحارة او  
الصدفة تارة تكون شكلاً مخروطاً على هيئة البرج وتارة تكون  
شكلاً مستديراً كالدرقة وتارة تكون كدرع المحرب وغير ذلك وتارة  
تكون قطعة واحدة كما في الحلزون وتارة تكون قطعتين فاكثر  
وهي الميديا وبحسب هذه العقود في القطع وعدمه اتقسمت الى  
ثلاث رتب اصلية

الاولى ذات الصدفة

الثانية ذات الصدفتين

الثالثة كثيرة الصدف

وهذا الذي وضع بين يديك على المائة يعرف بالميديا وهي  
في الرتبة الثانية ومسكنه في الغالب قاع البحر في مواضع يتخذها على  
صورة الجزائر والتلال واذا نظرت الى الواحدة منها وجدت

محاربتها مركبة من فلتتين احداها كبيرة وهي التي يلتصق بها ما في  
الباطن والغالب فيها ان تكون محدبة ذات سمك وهي السفلى  
والثانية العليا وهي اصغر وارق سمكاً من اختها واقل تحديداً وها  
ملتصقتان ببعضهما بعصب متصل بالحيوان فيه مرونة يتيسر معها  
للحيوان فتحها واطباقها باخنياره فيرى في وسط المحارة من الداخل  
بقرب اتصال الفلتتين ببعضهما نفرة بيضاء فيها عصب سميك ابيض  
اللون متصل بالحيوان هو الآلة له في تحريكها كما مروباطن المحارة  
املس ذو لمعان كالمعان اللؤلؤ واما ظاهره فذو طبقات او ثنيات  
متراكبة بعضها فوق بعض وهذا الحيوان مجبول على السكون  
والاستقرار وعدم الانتقال عن محله بالاخنيار فينشأ من صغره على  
الصخور في قاع البحر ويثبت عليها حتى يرى كأنه قطعة منها وانا  
تاملت في هذا الحيوان عند فتح محارته وجدته قطعة لحم متجمعة  
قليلة الشفافية سنجابية اللون بيضية الشكل مظروفة في غشاء رقيق  
ناعم قابل للانقباض والانبساط ذي طيات متعددة وله فلتتان  
مفتوحتان في معظه وهو شبيه برأس البرنس ينتهي دقيقه عند  
مجمع فلتتي المحارة وفي دائر كل فلتة من هذا الغشاء زوائد فيها  
شعور يدها الحيوان ويقبضها باخنياره ويظهران بها نوع احساس  
وبواسطة هذا الغشاء يمتص الحيوان بعض المواد الجيرية من المحارة  
وفي مجمع طرفي الغشاء من جهة انفتاح المحارة يوجد فم الحيوان  
مستعرضاً وهو فم كبير قابل للتمدد عدم الفكين اي عد

الاعضاء المضغية له شفتان غشائيتان رقيقتان وفيه اربع زوائد  
 كل واحدة منها مثلثية الشكل ذات ثلاثة اسطحة مستوية وهي  
 بمنزلة الخرطوم يتناول بها غذاءه ويدخله في فمه فيخدر منه الى  
 معدته وهذه المعدة على شكل الكثرى ويتصل بها معاء رفيع  
 معوج ينحني بالميل الى جهة الامام ثم ينخفض قليلاً ثم يرتفع وير  
 بعد ذلك خلف المعدة بحيث يكون قريباً من الفم وينعطف الى  
 الخلف في طريق تقاطع طريقه الاولى حتى يكون في الجهة الخلفية  
 من العصب المتصل به الحيوان بالحارة كما مر وهناك ينتمي ذلك  
 المعاء بفتحة في ظهر الحيوان يقال لها الخاتم ويحيط بالمعاء وبالمعدة  
 ايضاً الكبد وهو اكبر اعضائه كلها حتى انه وحده يعدل معظمها  
 ولونه مسود وفيه مائع مصفر اللون هو البلغم وفم هذا الحيوان  
 ينطبق على معدته وقلبه لحمي مغزالي الشكل موضوع تحت كبده  
 محيط بجزء من اخر المعاء احاطة تامة وهو كما في الحيوانات الكبيرة  
 مركب من جزئين احدهما الازين والآخر البطين ومن البطين  
 يخرج عرق يتفرع ثلاثة افرع احدها يوجه الدم الى الجزء العلوي  
 من الحيوان اي الى الفم وما به من الزوائد المتقدم ذكرها والثاني  
 يوجهه الى الكبد والثالث يوجه السائل الغذائي الى سائر الجسد  
 وليس الدم في هذا الحيوان احمر كما في غيره من الحيوانات الصغيرة  
 بل هو شفاف عديم اللون وهو يمر من اذين القلب الى البطين  
 ومنه الى العرق الغليظ الذي تتفرع منه الفروع الثلاثة التي قدمنا

الكلام عليها ثم منها تتوزع في جسم الحيوان  
ومن هذا يعلم ان هذا الحيوان له دورة دموية لكنها ليست  
كالدورة في الحيوانات الكبيرة وإنما هي كالدورة في السمك  
وبعض حيوانات غيره

وهذا الحيوان يستنشق في الماء ما يحتاج اليه من الهواء كالسمك  
فله خياشيم يفصل بها من الهواء الذائب في الماء ما يلزم له من  
الأكسجين ومحل هذه الخياشيم تحت الغشاء وهي ذات طفتين  
فيهما شعوب شعرية رقيقة أشبه بأسنان المشط وتجرد هذا الحيوان  
عن الرأس لا يوجد له مخ كما في غيره من الحيوان وإنما يكون أول  
عصبه بقرب الفم فيرى هناك عصب غليظ يتفرع منه فرعان  
أحدهما يتجه الى المعدة والآخر الى الكبد وينتهيان بعصب واحد  
يكون خلف الكبد فالفرع الأول يوجه الاحساس الى الفم وما فيه  
والثاني الى الخياشيم

ويظهر ان لهذا الحيوان حاسة اللمس ومستقرها الفم وليس له  
سمع ولا بصر

ومن غريب خواص هذا الحيوان انه يجتمع في الواحد منه  
اعضاء التناسل الذكورية والانثوية فيكون الواحد لنسله أباً وأماً  
معاً ونسله في أول اطواره بيض مصفر اللون كثير العدد الى الغاية  
حتى ان اهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق الى ان  
قدروا للحيوان الواحد منه نحو الف بيضة ومدة تربية هذا الحيوان

في البيضة كثرة الدجاج في البيض الى ان يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة اشهر من بؤته الى اخر مسري وفي هذه المدة يكون البيض في طبات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الام فيتغذى منها ويكون في طبات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة حين ترقد عليه وتحضنه وحينئذ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ولا ترى افراده از ذلك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون في اول اطواره مصفراً كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون اخر الامر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في طبات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تذفه الام في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط ابيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء وحينئذ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت اليها الا المشتغلون بامرها المعانون لتربيتها ومن الغريب ان هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن اصله محاطاً بمادة تتكون منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون اذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز افراده الا بالنظارة المعظمة ويكون له حينئذ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حول اصله وينزع اليه متى



دهته اي حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالارجل فيتعلق ببعض الصخور والاحجار فيستقر بمكانه وينبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه اذ ذاك لا يكون الا قدر خمس ميلي متر واحد اي بقدر جزء واحد من خمسة الاف جزء من المتر وبعد ثمانية اشهر يصل طوله الى نحو ثمانية ميلي مترات او عشرة وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الاسواق الا اذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو المعتبر بين ارباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها الا اذا بلغ هذا السن

وعالم المحار عالم كبير وعدده كثير حتى قيل انه اكثر الملكة الحيوانية عدداً وقد اختلفت اقوال الناس في ظاهره وباطنه فزعم بعضهم ان هذه المحارة او الصدفة الظاهرية التي تشاهد من الخارج هي عظم الحيوان والذي في داخله لحمه يعني ان هذا الحيوان يكون عظمه خارجاً وقد جعل وقاية للحمه ولحمه من الداخل على خلاف باقي الحيوان وقال اخرون وهو المرجح عند الاكثرين ان الحيوان انما هو اللحم وليس هذا المحار جزءاً من جسمه وانما يتكون من فضلات يبرزها الحيوان فتتراكم على بعضها وتختلف في الكبر والصغر بحسب كبره وصغره ومن النعم الالهية والاحسانات الربانية عموم وجوده في بحار الدنيا وانهارها ومحار كل جهة اوصاف وخصائص يتميز بها تخالف صفات ما يوجد في غيرها من الجهات

كما ان الذي ينشأ منه في البحار يخالف ما ينشأ منه في المياه العذبة  
والانهار وقد صار هذا الحيوان مما يستدل به على عمر الارض وما  
مضي عليها من الزمن بحسب ما يوجد في طباقها واعماقها من اثاره

### المسامرة الحادية والاربعون الودع

فقال الشيخ كم لله في الكون من اسرار عظيمة وبدائع غريبة  
لا يفقهها كثير من العالم فهذا المحار يراه كثير من الناس من غير  
ان يتأملوا فيما فيه من عظيم صنع الصانع الحكيم وحسن تديره  
وعجيب حكمته وانما يشتغلون بما يقع تحت نظرهم من شكله ولونه  
وهيئته من غير ان يعرفوا فيه حيوان ام لا وان كان فيه حيوان  
فما حاله وما كيفية معيشته فعادة عامة الناس ان لا يوجهوا افكارهم

الألما يظهر لهم فيه فائدة خصوصية او تضطرم اليه حاجة وقتية ولا يلتفتون الى ما ذكر ومن ذلك مسألة الودع مثلاً فان كثيراً من العالم يتخذونه زينة ويضعونه على رؤس اولادهم زعماً منهم ان في ذلك حفظاً لهم من بعض الامراض فتراهم يميزون بعض انواعه على بعض وبهذا التمييز تعلو القيمة وترخص من غير ان يلتفت البائع ولا الشاري لحاله وخلقته وكيفية معيشته وما فيه من عظيم الخلقعة وعجيب الصنع وبعض الناس يزعم ان فيه سرّاً وان به يمكن ان يطلع على ما في الغيب بواسطة جمعه بين الكفين ونثره والتامل في اوضاعه عند وقوعه على الارض ويستنبطون من ذلك بزعمهم اموراً من المغيبات يعتقدون صحتها ويصدق العامة بعضهم بعضاً في ذلك بل كثير من ضعفاء من يدعي العلم وبعض اصحاب المظاهر يتوهمون صدق ذلك وهذا كله ما لا يعلم له اصل ولا يعرف له وجه فان الله سبحانه وتعالى كما خلق عالم البر وجعله انواعاً كذلك خلق عالم البحر وجعله انواعاً ومن عالم البحر نوع هذا المحار ومن هذا النوع الودع كل ذلك لحكم ازيلية واسرار على عوام المخلق خفية فحق على كل ذي نظر سليم وعقل مستقيم ان ينعم نظره ويمعن فكره فيما يراه من مصنوعات الله ليعرف مزيتة وسره ويطلب من خالقه الهداية الى الوقوف على سر ما اودع فيه من الحكمة الباهرة والصنعة الزاهرة ليزيد علمه ومعرفته ويكمل به منفعتة ولا يغتر بما علمه وحصله لانه كالعدم بالنسبة

لما جهله ولا يقف عند علم الظواهر فانه حجاب يمنع من معرفة  
السرائر كغائص البحر لاخراج الدر يكتفي بمعرفة نفاسته وغلو ثمنه  
وعزته ويغفل عن معرفة اصل خلقتة والاسباب التي نشأ عنها  
والمواد التي تولد منها مع ان معرفة ذلك ربما ادت الى معرفة  
امور يقوى بها ايماننا ويتسع بها معاشنا

المسامرة الثانية والاربعون

اللؤلؤ

فقال له يعقوب ان ما ذكرته حق ومعرفة الاصل في كل  
شي احق ولذلك لما وقف الهنود واهل الصين على كيفية تكوين  
اللؤلؤ في بطن المحار تحابلوا في تكثيره بكل حيلة حتى كثرت  
التجارة فيه عندهم وزادت عما كانت عليه في الازمان السابقة

فحصل لهم بسببه فوائد عظيمة حصلوا منها اموالاً جسيمة حتى كانت اعظم اسباب غناهم وكان السبب في ذلك انهم رأوا في داخل بعض اللؤلؤ اشياء دقيقة مثل رملة او بيضة سمكة فاستنبطوا من ذلك ان اللؤلؤ يتكون في داخل المحارة من حدوث عارض خارجي مثل ما ذكر فتحميلوا على ادخال شي من هذه الاجسام واشباهها بين فلتقي بعض محار لم يكن حدث فيه لؤلؤ ثم نظروا فيه بعد ذلك فراؤوه قد صار فيه لؤلؤا فعملوا صحة ما ذهبوا اليه واستعملوا ذلك في كثير من انواع المحار فنجحت اعمالهم وكثر اللؤلؤ عندهم وعظمت تجارتهم وزاد انتفاعهم وقد حقق اهل الفن ان اللؤلؤ يحدث في المحار من مرض يعرض لحيوانه عند دخول جسم غريب في جوفه فيضر بصحنه ويتراكم حول هذا الجسم الغريب في كل سنة مواد صدفية يتكون منها اللؤلؤ فتارة يكون كبيراً وتارة صغيراً ومنه ما يوجد ملتصقاً بالمحارة وما يوجد في داخل غشاء الحيوان نفسه

فقال الشيخ رأيت في بعض الكتب ان هذا اللؤلؤ يتكون من مطر ينزل في شهر نيسان فتتلقى بعض قطراته الحيات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحيات صار سماً ناقعاً وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤاً وعلى هذا قول الشاعر  
ارى المعروف عند الحرّ دينا \* وعند النذل متعصه وزما

كتقطر الماء في الاصداف در \* وفي جوف الافاعي صار سما  
وقيل غير ذلك

فقال يعقوب الصحيح المحقق الان هو ما ذكرته لحضرتكم  
ويوجد محاره في عدة مجار في جهات مختلفة مثل البحر الاحمر في  
سواحل العرب وفي سواحل مملكة بابونه بجزيرة الهند وفي سواحل  
الكاليفورنيه بامريكا ومعرفة كيفية استخراجها من الامور المهمة في  
جهات وجوده

وهذا الصدف في العادة يوجد على الصخور في المحلات العميقة  
من البحر بعيداً عن الشاطئ والعادة في استخراجها بجهة سيلان ان  
تجتمع المراكب المعدة لذلك وتسير الى ان تقرب من موضعه ويكون  
في كل مركب عشرون رجلاً عشرة لخدمة المركب وعشرة  
يتناوبون في الغوص عليه خمسة فخمسة وكيفية ذلك ان يشد  
كل منهم في احدى رجليه حبلًا فيه حجر لسهولة نزوله الى قاع  
البحر بسرعة ويجعل في رجله الاخرى حبلًا اخر فيه شبكة كالمخلاة  
وياخذ بيده اليمنى حبلًا ثالثًا قد شد طرفه الاخر بالمركب ليصعد  
به بعد انتهاء عمله ويسد انفه بيده اليسرى حين يلقي نفسه في  
البحر فانما وصل الى قاع البحر حول المخلاة التي في احدى رجليه  
الى عنقه ثم يجمع ما يجده من المحار ويضعه في تلك المخلاة فاذا  
ضاق نفس الواحد منهم في اثناء الغوص هز الحبل الذي بيده  
فيشدونه الى سطح الماء وغاية ما يمكن للغطاس ان يكث تحت الماء

نصف دقيقة فيغطس الواحد منهم بهذه الكيفية ثلاث  
مرات متوالية وان كان الجو موافقاً ربما غطس الواحد منهم نحو  
خمسة عشر مرة على التوالي وكثيراً ما يخرج من انوف الغطاسين  
وافواهم واذانهم بعد خروجهم من البحر ماءً مختلط بدم وربما تغتالم  
حيوانات الماء خصوصاً الحيوان المسمى بكلب البحر فانه يتربص  
نزولهم ليفترسهم

فانظر كيف يجعل الانسان نفسه عرضة للتهلكة لاجل  
الحصول على معيشته ويرى النساء والبنات يتجملن بهذا اللؤلؤ  
ويتجملين به ولا يبالين بان الحبة الواحدة منه ربما فقد بسببها  
واحد من الناس فهذه كيفية استخراج المحار من البحر

فقال الشيخ ذكرت بما حكيتنه من صفة استخراج هذا المحار  
قصيدة للاعشى ميمون مدح بها قيس بن معدي كرب الكندي  
تغزل في اولها محبوبته الى ان شبهها بالدرة ثم استطرد فوصف  
الدرة وحسنها ومن استخراجها من محلها وكيف عانى الشدائد في  
تحصيلها فقال وقد ذكر محبوبته

كجمانة البحرى جاء بها \* غواصها من لجة البحر  
صلب الفواد رئيس اربعة \* متخافي الالوان والنجر  
فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا \* القوا اليه مقالداً الامر  
وعلت بهم سحجاء خادمة \* تهوي بهم في لجة البحر  
حتى اذا ما ساء ظنهم \* ومضى بهم شهر الى شهر

التي مراسيه بتهلكة \* ثبتت مراسيها فماتجري  
 فانصب استقف راسه لبد \* نزع ت ربا عيناه للصبر  
 اشفى بيج الزيت ملتمس \* ظمان ملتهب من الفقر  
 قتلت اباه فقال اتبعه \* او استفيد رغبة الدهر  
 نصف النهار الماء غامره \* وشريكه بالغيب ما يدري  
 فاصاب منيته فجاء بها \* صدفة كفضيئة الجمر  
 يعطى بها ثمنا ويمنعا \* ويقول صاحبها الا تشري  
 وترى الصواري يسجدون لها \* ويضمها بيديه للتجر  
 فلتلك شبه الماء لكنها \* طلعت ببهجتها من الخدر

قال يعقوب لقد اجاد هذا الشاعر في حسن اسلوبه ولكني  
 قد استعجم عليّ فهم بعض هذه الايات فارجوان تم فضلك عليّ  
 بشرح ما يحتاج الى الشرح منها

قال الشيخ نعم قوله كجمانه الجري الخ اراد به تشبيه محبوبته  
 بالجمانه التي استطرد في صفتها والجمانه بضم الجيم واحده الجمان  
 وهو اللؤلؤ وقيل حبات تصاغ على شكله من الفضة والمراد هنا  
 الاول وقوله جاء بها غواصها من لجة البحر يوافق ما مر في كلامكم  
 من ان صدف الدر يوجد في المحلات العميقة من البحر بعيداً عن  
 الشاطئ وصلب الفواد بضم الصاد اي قويه وشديده وهو صفة  
 الغواص وقوله رئيس اربعة يوافق ما ذكرته في صفة الغواصين  
 من انهم يتناوبون الغوص خمسة فخمسة وقوله متخالي الالوان



صفة الاربعة والاضافة لفظية والنجر بفتح النون وسكون الحميم  
الاصل يعني ان هولاء الاربعة اصلهم مختلف والوانهم مختلفة وقوله  
القوا اليه مقالدا الامر اي ملكوه زمام امرهم والمقالد جمع مقلد وهو  
الفتاح وكذلك يجمع على مقاليد والاقليد المفتح ايضاً معرب  
ككيد الفارسي وجمعه مقاليد على غير قياس والاقليد ايضاً برة  
الناقة وهي حلقة تحبل في انبها والسحجاء بتقديم الحميم على الحاء هي  
الطويلة الظهر واراد بها السفينة وقوله فانصب استقف الخ اراد به  
انه التي نفسه في البحر غائصاً ليستخرج الدر والاسقف بفتح الالف  
والقاف من السقف بفتحين وهي طول في انحاء ولبد بكسر الباء  
اي متلبد وقوله اشفى فعل ماض يقال اشفى على الشيء اذا اشرف  
عليه ويح الزيت يقذفه من فيه كما هي عادة الغائص قال  
المسعودي غاصة هذا البحر (يعني البحر الذي فيه صدف الدر)  
يكون معهم دهن له في الماء بريق فاذا راوا حيواناً مؤذياً ارسلوا منه  
شيئاً فارتج في البحر صاعداً فتراه تلك الحيوانات فتفزع منه وتنفر  
عنه وكل من قوله اشفى وقوله يبع فاعلمها ضمير استقف وملتص  
وما بعده من الوصفين نعوت لاسقف وقوله قتلت اباه الخ اي ان  
اباه هلك في حب هذه الدرة او في تحصيلها فتال هذا الغائص  
اتبعه في الهلاك او استفيد مالا كثيراً والرغبة ما يرغب فيه وقوله  
نصف النهار روي بفتح النون والصاد والفاء ونصب النهار من  
قولهم نصفت الشيء اذا بلغت نصفه وهو بهذه الرواية يذكر في النخوت

هذا على محبيء ضمير صاحب الحال في اخر الجملة الحالية فان  
الماء مبتدا وغامره خبره والجملة حال من ضمير نصف العائد الى  
الغائض وهذا ضعيف قليل وروي برفع النهار والجملة حال منه  
ولا رابط فتقدر الواو وقوله وشريكه بالغيب ما يدري وفي رواية  
رفيقه اي لا يعرف رفيق هذا الغائض حاله لكونه يغيب تحت  
الماء ومنيته هي ما يتمناه وصدفية حال من الضمير في قوله بها  
وقوله الا تشري اي الاتيها والصواري الملاحون وسجودهم لها  
لعزتها ونفاستها والتجر مصدر تجر يتجر تجراً وتجارة من باب نصر  
فهذا بعض ما يتعلق بهذه الايات من الشرح اما ما ذكرت من  
كيفية استخراج الصدف من البحر فقد رايت في بعض الكتب  
العربية ككتاب التيفاشي في الاحجار نحواً منه ولكني لم اجد فيما  
رايت منها كيفية استخراج اللؤلؤ من ذلك الصدف بعد اخراجه  
من البحر

قال يعقوب العادة في ذلك ان يفرز ما استخرجه كل واحد  
منهم على حدته ويترك حتى يموت الحيوان ويتعفن فيفتحون  
الصدف ويخرجون اللؤلؤ من جوفه وبعد ذلك يضعون اللحم  
في قدر ويوقدون عليه بالنار لتذوب مواده فيخرجون ما يجذونه  
في داخله من اللولو وجميع ما يؤخذ قبل الغلي له اناس ينظفونه  
في سمط او اكثر ثم يجلونه بترابه او بتراب الصدف ولاجل ترتيب  
اللولو على حسب تفاوت درجاته ينزلونه من غرايل من نحاس

عيونها متفاوتة في القلة والكثرة والضيقة والسعة وقد جعل لكل واحد من هذه الغرابيل نمرة على حسب ما فيه من العيون فما كانت عيونه عشرين كانت نمرته عشرين وما كانت عيونه ثلاثين كانت نمرته ثلاثين وهكذا

فاللؤلؤ الكبير الحبات الذي لا يمر من شي من هذه الغرابيل يقال له من الدرجة الاولى والذي يمر من غربالٍ نمرته مائة فاكثر الى ثمانمائة يطلق عليه اسم الدرجة الثانية والذي يمر من نمره الف يطلق عليه اسم الدرجة الثالثة

واما الصدف الذي يخرج من محار اللؤلؤ فهو الطبقة الباطنة للحجارة لا الظاهرة وهو ثلاثة انواع فضي وابيض واسود فالاول يجلب من الهند والصين والبيرو والثاني يكون من صخور مخضرة او حمراء والثالث من صخور زرقاء مشوبة بسواد ويكون فيه عروق حمراء او زرق او خضر

واوان استخراجه من البحر في جهة سيلان شهر فبراير او شهر مارث ومدة استخراجه شهر واحد والمشتغلون باستخراج بهذه الجهنة قريب من مائتي مركب وقد تحصل منه في سنة ١٧٩٧ من الميلااد وهي سنة ١٢١٢ من الهجرة ثلاثة الاف الف وستائة الف من الفرنكات وزاد في السنة التي بعدها نحو ثمانمائة الف فرنك ثم في ابتداء سنة ١٨٠٢ للميلااد الموافقة لسنة ١٢١٧ من الهجرة اعطي من قبل الحكومة الانكليزية لمن تعهد به في مقابلة ثلاثة

## الاف الف فرنك التزماً

وليس هذا النوع مخصصاً بجزيرة سيلان بل يستخرج أيضاً في  
 جهات متعددة مثل جهة بنجال وجمهورية الصين والهند واليابان  
 وغيرها وبلغ مقدار ما يتحصل في الجهات الهندية في السنة الواحدة  
 من اللولو والصدف نحو العشرين الف الف فرنك

ومن يجز في اللولو والصدف اهل السواحل المقابلة للعجم  
 اعني سواحل بلاد العرب قال بعضهم ان الذي يتحصل من جهة  
 البحرين خاصة في كل سنة يقرب من ستة الاف الف فرنك وان  
 اخراجه في هذه الجهات في شهر يولييه وشهر اغسطس وما زال  
 اللولو في جميع الازمان عند جميع الامم مستعملاً في حلي النساء  
 وزينتهن وكان الرومانيون يكلمون به بعض ملابسهم وتيجانهم  
 وبعض فرشهم ويقال ان كلوباتره وضعت مرة في قدح الشراب  
 لولو قيمتها الف الف فرنك وخمسمائة الف فرنك

ثم سرى اتخاذه والافتخار به من الرومانيين الى المشرقين  
 ثم الى الاوروبيين وفي كتب التاريخ انه في سنة ١٥٧٢ للميلاد  
 وسنة ٩٨٧ للهجرة اهدي الى فيليب ملك اسبانيا لولو في حجم  
 الكمثرى وانه وجد سنة ١٦٠٥ من الميلاد وهي سنة ١٠١٤ من  
 الهجرة عند امرأة من اسبانيا لولو بلغت قيمتها احدى وثلاثين  
 الف بنديقي وان البابا ليون العاشر اشترى من بعض جوهريه  
 البنادقة لولو بلغ ثمنها ثلاثمائة الف وخمسين الف فرنك وفي

القرن السابع عشر للميلاد والحادي عشر للهجرة اشترى ملك العجم لؤلؤة بالفي الف وسبعمائة الف فرنك ويوجد عند ملك العجم الان سبعة كل حبة منها قدر حبة الجوز لا يقدر لها قيمة وكذلك عند امير مسقط لؤلؤة لا نظير لها على وجه الارض والذي يوجب للؤلؤ ارتفاع قيمته وزيادة ثمنه كبر حجمه وحسن لونه وقد كنت سمعت في ما يسمى به الكبير والصغير منه تفصيلاً لا يحضرني الان

قال الشيخ يطلق على الكبير والصغير منه اسم الجوهري ويخص الكبير باسم الدر والصغير باسم اللؤلؤ ويسى ايضاً الحب واللولو اللق ولولو النظم

قال يعنوب فهل للكبر والصغرية حد معين قال الشيخ نعم قال التيفاشي في كتاب الاحجار كل ما زاد عن وزن درهين ولو حبة واحدة في الجوهرة المفردة سمى في اصطلاح الجوهريين دراً فاذا نقصت في الوزن عن درهين ولو حبة ايضاً سميت في اصطلاحهم حبة بشرط اجتماع سائر الاوصاف الجيدة في الدرّة فان كانت زنتها اكثر من درهين ولو ثلاثة مثلاً او اكثر الا ان فيها عيباً من عيوب الجوهري فانها تسمى ايضاً في اصطلاحهم حبة ولا يعتبر وزنها مع عدم اجتماع الاوصاف الجيدة فيها والجودة في الجوهري تكون استكمال خواصه المطلوبة فيه اما من حيث الكمية فبالعظم وكثرة الوزن واما من حيث الكيفية فبشدّة

البياض وكثرة الماء والاشراق واستواء اللون واستواء استدارته  
وشكله واكتنازه وما لم يكن كذلك فالآفات افسدته منها انه  
ربما كانت الدرّة لم تتم تربيتها وربما لصق بها شي من لحم الحيوان  
فصار كالصدي والوسخ فافسد لونها وربما كانت كدرة او كان  
فيها ماء او دودة او كانت محجوفة غير مصمتة وكل هذا من آفات  
دخلت على الدرّة في ممر التربية لها واما فساد شكلها فمن قبل ان  
الحبة تقع في موضع من اللحم الذي في الصدفة غير مستو فتجسد  
الدرّة على صورة الموضع الذي ضمها فحيد الجوهري في الجملة هو  
المدحرج اي المستدير من جميع جهاته الصافي الشفاف الكبير المحرم  
الكثير الوزن النقه اللون الضيق الثقب وجيد اللولو الدق هو  
الابيض النقي من الوسخ ثم ذكر تفصيل اثنائه على حسب ما كان  
قبل فقال اذا كان وزن الجوهرة مثقالاً وهي مستوفية لشرائط  
الجودة كانت قيمتها ثلاثمائة دينار فاذا كانت جوهرتين كل واحدة  
منها زنتها مثقال وهما بهذه الصفة وبشكل واحد لا يفرق بينهما  
في الشكل والصورة كانت قيمتها اكثر من سبعمائة دينار لاجتماعها  
وتناسبها في النظم واذا كان وزن الاثنتين مثقالاً وهما بهذه الصفة  
كانت قيمتها مائة دينار واذا كان وزنها ثلثي مثقال كانت قيمتها  
خمس مائة دينار ورأيت في بعض النسخ نيفاً وعشرين ديناراً واذا  
كان وزنها نصف مثقال كانت قيمتها عشرين ديناراً فاذا كان  
وزنها ثلث مثقال كانت قيمتها خمسة دنانير والدرّة وهي التي

وزنها درهان و حبة مثالا او حبتان كما مر اذا اجتمع فيها شرائط  
الجودة كانت قيمتها سبعمائة دينار فان كانتا اثنتين على الصفة  
المذكورة كانت قيمتهما الفي دينار كل واحدة منهما بالف دينار  
بشرط اجتماعها بالاخرى والعقد المتعارف عند اهل بغداد خمس  
وثلاثون حبة اقل ما يكون وزنه سدس مثقال وهي اربعة  
قراريط قيمة عشرة عقود من هذا العقد ثلاثة ارباع دينار عقد  
ربع مثقال عشرة عقود بدينار عقد ثلث مثقال عشرة عقود بدينار  
وربع عقد نصف مثقال عشرة عقود بدينارين عقد ثلاثة ارباع  
مثقال عشرة عقود باربعة دنانير عقد مثقال عشرة عقود بعشرة  
دنانير عقد مثقال وربع بخمسة عشر العشرة عقد مثقال ونصف  
بعشرين العشرة عقد مثقال ونصف وربع بخمسة وعشرين العشرة  
عقد مثقالين بخمسة وثلاثين العشرة عقد مثقالين وربع باربعين  
دينارا العشرة عقد مثقالين ونصف بخمسين العشرة عقد مثقالين  
ونصف وربع بسبعين العشرة عقد ثلاثة مثاقيل بثمانين العشرة  
عقد ثلاثة وربع بتسعين العشرة عقد ثلاثة ونصف بمائة وعشرة  
العشرة عقد ثلاثة ونصف وربع بمائة وخمسين العشرة عقد اربعة  
مثاقيل بمائتي دينار العشرة فان كان نهاية في الجودة والصفاء  
والمائة كانت قيمة العقد الذي زنته اربعة مثاقيل كل عشرة عقود  
ثلاثمائة دينار لكل عقد ثلاثون دينارا ويخرج بعقوده حيثئذ من  
باب العشرات الى باب الاحاد فتكون قيمة العقد الواحد الذي

زنته اربعة مثاقيل ونصف اربعين ديناراً وعقد اربعة ونصف  
 وربع بخمسة وخسين ديناراً وعقد خمسة مثاقيل بخمسة وستين  
 ديناراً وعقد خمسة وربع بخمسة وسبعين ديناراً وعقد خمسة  
 ونصف وربع بتسعين ديناراً وعقد ستة بمائة دينار وعقد سبعة  
 بمائة وخمسين ديناراً

ويتضاعف بهذه النسبة الى اعظم ما يوجد منه في الوزن  
 والغبطة فيه بحسب جودة اوصافه التي تقدم ذكرها وخلوه من  
 العيوب وعبويه التصديف وعدم الاستقرار (اي عدم الاستدارة)  
 والصفرة والانبراص وهو فتح البياض وحصته وعدم روثه وسعة  
 الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن (اه مع تصرف واختصار)

وقد سمعنا بكثير من هذه الاحجار الثمينة كانت للموك في  
 الازمان الخالية قومت باموال كثيرة على نحو ما ذكرت وقد اورد  
 الشيخ محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي اشياء من ذلك في  
 كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر فمنها درة حملها مسلم بن  
 عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين الف دينار  
 وعرفت بالدرة اليتيمة لانها لم يوجد لها اذ ذاك في الدنيا نظير  
 وكان للتوكل سجة فيها مائة حبة اشترت كل حبة منها بالف  
 مثقال قال وكان فيما اهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت  
 احمر فتحه شبر مملوء دراً قيمة كل درة الف وخمسمائة مثقال وكان  
 لانوشروان بساط الشتاء مرصع بازرق الجواهر واحمره واصفروه



وابيضه واخضره وانواع الجواهر فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة الفارسية حمل اليه في الفئ فلما رآه قال ان امة ادت هذا الى اميرها لامناء ثم فرقه فوقع منه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه قطعة في قسمة مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر الف دينار



### المسامرة الثالثة والاربعون

#### الدينار

فقال يعقوب الحديث شجون ارجوك ايها الاستاذ ان تمنّ بشرح لفظ الدينار ومعناه فكثيراً ما اسمعه في العربية ولا اعرفه قال الشيخ لفظ الدينار قال صاحب القاموس وغيره انه معرب اصله دنار بتشديد النون فابدل من احدى النونين ياء

لثلا يلتبس بالمصادر ككذاب وها هنا مباحث

الاول قد ذكروا انه معرب ولم يذكروا من اي لغة عرب  
وقد وقع في البرهان وغيره من كتب اللغة الفارسية بالياء كما هو  
في العربية فيظهر كما في الاوقيانوس انه مركب من لفظتين  
احدها ( دين ) والثانية ( آر ) الاولى بمعنى الطاعة والمحشمة  
والاسلوب والدولة والسلطنة والثانية بمعنى المحضر والمحصل بصيغة  
اسم الفاعل من احضر وحصل فيكون معنى دينار محصل ما ذكر  
لانه سبب تحصل ذلك

الثاني قالوا ان اصله دنار ثم قلبت النون ياء والذي في  
الكتب الفارسية دينار بالياء كما مر على انه فارسي وقد وجد في  
كتب العربية بالياء ايضاً فالظاهر انهم توهموا فيه انه عرب على  
دنانر بابدال الياء نوناً ثم استعملوه بقلب نونه ياء للتخفيف او اصله  
عربي برأسه اصله دنار ثم خفف بالابدال المذكور

الثالث الدينار قطعة مضروبة من الذهب للتعامل بها  
والمعتبر في مقداره شرعاً مثقال من الذهب كما هو مذكور في  
الكتب الفقهية في باب الزكاة وغيره وترى الفقهاء تارة يقولون في  
نصاب زكاة المال انه عشرون مثقالاً وتارة يعبرون بالدينار  
ومرادهم بالدينار والمثقال شي واحد والمثقال المعتبر شرعاً درهم  
وثلاثة اسباع درهم قال الخطاوي في حاشية على شرح الدراعم  
ان الدراهم كانت في عهد عمر رضي الله تعالى عنه مختلفة

فإنها عشرة دراهم على وزن عشرة مثاقيل وعشرة على ستة مثاقيل  
وعشرة على خمسة مثاقيل فاخذ عمر رضي الله عنه ثلثاً كيلاً تظهر  
المخسومة في الاخذ والاعطاء فنلت عشرة ثلاث وثلث ستة اثنان  
وثلث خمسة واحد وثلثان فالجموع سبعة وان شئت فاجمع المجموع  
فيكون واحداً وعشرين فنلت المجموع سبعة ولذا كانت الدراهم  
العشرة وزن سبعة وهذا يجري في كل شي حتى في الزكاة ونصاب  
السرقه والمهر وتقدير الديات (انتهى)

ورأيت للشيخ مصطفى الذهبي الشافعي المصري رسالة في  
تحرير الدرهم والمثقال حررها سنة ١٢٧٢ من الهجرة قال فيها  
اما الدرهم والمثقال فقد نصوا على انها لم يخلفنا جاهلية واسلاماً  
يعني ان مقدارها في الاسلام لم يتغير عما كان في الجاهلية ما حرره  
اليونان فقد تعامل الناس به حين ورود الاسلام مع سكوت  
الشارع على ذلك فالدرهم والمثاقيل الواردة في الزكاة وغيره  
محمولة على ذلك وليست مبهمه خلافاً لما توهمه بعضهم ونقل ابن  
الرفعة في التبيان والسروجي في شرح الهداية والسيوطي في قطع  
المجادلة والمقرئزي وعبد القادر الصوفي وغيرهم ان اليونان قدروا  
الدرهم باربعة الاف ومائتي حبة من حب الحمردل البري وقدروا  
المثقال بستة الاف حبة من ذلك فالدرهم سبعة اعشار المئقال  
اي نصفه وخمسه والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم فالعشرة دراهم  
سبعة مثاقيل وذلك على قياس نسبة الذهب الصافي لمثل مساحنه

من الفضة الصافية فان الذهب حيثئذ يكون اثقل من الفضة بثلاثة اسباعها كما هو معلوم . هذا كلامه والذي اعلمه من كلام ما قدمنا ذكره ان الثقل النوعي للذهب الصافي بالنسبة للماء المقطر تسعة عشر وربع وثلث الفضة الصافية ايضاً عشرة ونصف وعلى هذا يزيد وزن الذهب عن مثل مساحته من الفضة ثلثي مرة وثلث مرة تقريباً لا ثلاثة اسباع فلو اخذنا كرة من الفضة الصافية ووجدنا وزنها مثقالاً مثلاً ثم اخذنا كرة من الذهب الصافي مثل مساحتها ووزنها لوجدنا وزنها مثقالاً وثلثي مثقال وثلث مثقال تقريباً لا مثقالاً وثلاثة اسباع فلينظر

ثم قال الذهبي وانما قاسوا على هذه النسبة لغلبة استعمال الدرهم والمثقال في التقدين مع اشتهاار المثقال في الذهب والدرهم في الفضة وانما قدروا بالخرجل البري لكونه نوعاً واحداً لا يختلف خفة ووزانة كما نقله المثيرزي وغيره فالتقدير به منسق مطرد بخلاف باقي الحبوب فانه مختلف فلا يصح التقدير به نعم اذا كان الحب متوسطاً في نوعه خفة ووزانة صح التقدير به كما صنع المتأخرون روماً اقله العدد حيث قدروا الدرهم من الخردل البستاني الاحمر المعتدل المتساوي بالف حبة ومن الششم الهندي الاسود البالغ المعتدل المتساوي بمائة واربع واربعين حبة ومن الشعير الاعزل الملائن المعتدل بخمسين شعيرة وخمسين ومن حب الخرنوب الاصم المعتدل المتساوي بستة عشر حبة واربعة

اخماس وقاسوا المئقال على الدرهم بالنسبة السابقة وجعلوا ذلك  
 على وزن ما قدر به اليونان لكن لا يخفى ان المتوسط في الخفة  
 والرزانة انما يعلم بمراعاة اوقات الاستنبات من الفصول الاربعة  
 الزمنية وماكنه كما افاده ابن ابي الفتح الصوفي في رسالته تحفة النظار  
 في انشاء العيار وذلك قد لا يتيسر فالاقرب بل العدة على  
 التحرير بالخردل البري فيؤخذ منه خمسون خردلة ويحمر بها  
 صنجة لخمس حبة الخرنوب ويحمر بالمجموع صنجة للخمسين وبالمجموع  
 صنجة لاربعة اخماس وبالصنجة الاولى والثالثة صنجة للحبة وتسمى  
 قيراطاً فمجموع الصنج الاربع قيراطان وخمسان وذلك سبع درهم  
 وعشر مئقال فيركبان على هذه النسبة كما مر فالمئقال اربعة  
 وعشرون قيراطاً والدرهم ستة عشر قيراطاً واربعة اخماس قيراط  
 والقيراط مقدار مائتين وخمسين خردلة وجعله السادة الحنفية  
 مقدار ثلثمائة خردلة حيث قالوا المئقال عشرون قيراطاً والدرهم  
 اربعة عشر قيراطاً وهو اصطلاح روعي فيه النسبة بدون كسر  
 فنديروقد حدث في عرف مصر جعل الدرهم الشرعي ستة عشر  
 قيراطاً والمئقال درهما ونصف درهم فيكون القيراط المصري مقدار  
 مائتين واثنين وستين خردلة ونصف خردلة ويكون المئقال  
 مقدار ستة آلاف خردلة وثلثمائة فيزيد عن المئقال الشرعي قيراطاً  
 مصرياً وسبع قيراط فالمئقال الشرعي من القيراط المصرية اثنان  
 وعشرون قيراطاً وستة اسباع قيراط كما هو مقتضى النسبة الشرعية

ويوجد في بعض البنادقة ما هو بهذا المقدار ويسمى الشخص وقالوا انه معيار للمنتال الشرعي كما افاده الشيخ الصوفي فالمنتال المصري منتال شرعي ورابع خمسه فالعشرون من المتاقيل المصرية واحد وعشرون بالمنتال الشرعي واما الدرهم فقد علمت انه شرعي وقد حررناه على درهم الملك الاشرف المخبوم بختمه المحرر على الدرهم الشرعي فوجدناه مثله (اه المراد منه)

واما عيار الدينار وقيمه فقد كنت تكلمت في ذلك مع رجل من نهباء الصيرافة وكان يعرف باثقان لغة الفرنسيين وكثرة الاطلاع على كتبهم فقال لي نقلاً عن بعض مؤلفهم كان عيار الدينار في الاصل عند جميع الامم عالياً جداً يكاد يكون ذهباً خالصاً فقد عثر على دينار مضروب في مدينة دمشق سنة ٩٧ من الهجرة وحرر عياره في دار الضرب بمدينة باريس فوجد في عيار ٩٩٧ بالنسبة للالف يعني  $\frac{22}{23}$  قيراط ٢٢ ويقرب منه الدينار الذي ضرب في زمن ابن طولون فانه كان عياره ٩٩٦ وكان يعرف بالاحمدي فيين هذا العيار وعيار صنف المحبوب الذي كان يضرب بمصر مدة استيلاء الفرنسيين عليها تفاوت كبير وفرق ظاهر لانه كان عياره  $\frac{24}{23}$  قيراط ١٦ يعني ٦٩٨ بالنسبة للالف وقيمة الدينار الذي كان التعامل جارياً به الى القرن الثالث من الهجرة اربعة عشرفرنكاً وواحد وخمسون ستيماً وذلك يساوي بالعملة الديوانية الميرية المعروفة بالصاغ (وهذا باعتبار

عياره في تلك الاوقات وهو ٩٨٧ بالنسبة للاف ووزنه بالجرام  
 ٤٢٨٢ جراماً وهو اصغر من المئقال الشرعي بجزء من سبعة  
 وثلاثين تقريباً فان وزن المئقال الشرعي الذي هو درهم وثلاثة  
 اسباع درهم يساوي علي حسب ذلك ١٦ باره و٥٧ غرشاً بالعملة  
 الديوانية المذكورة (هـ)

وقد وجدت هذه القيمة قريبة ما يستنبط من رسالة الشيخ  
 الذهبي المتقدم ذكرها فانه بين فيها مقدار نصاب الزكاة من كل  
 نوع من انواع النقود المتداولة في مصر فقدر النصاب من الجنيهات  
 المصرية باحد عشر ونصف وربع وهي بمبلغ ١١٧٥ غرشاً والنصاب  
 عشرون مثقالاً من الذهب فيخص كل مثقال باره ٢٠ وغروش  
 ٥٨ وكذلك من العملة الفرنسية المعروفة ( بالبتو ) فان النصاب  
 منها بمقتضى الرسالة المذكورة خمسة عشر وثلث فالمئقال فيها  
 يساوي نحو ٨٩ غرشاً وكلاهما قريب ما مر ذكره وقس عليهما  
 غيرها قال وقيمة المئقال من ذهب البتو بما فيه من الاضافة  
 تساوي الان في مدينة باريس خمسة عشر مثقالاً ونصف مثقال  
 من فضة الريال المعروف بالشنكو بما فيها من الاضافة ايضاً  
 والاضافة عندهم في كل من الذهب والفضة تكون بقدر العشر  
 وقد صدر منشور من جانب الحكومة المصرية في اوائل شهر  
 ربيع الاخر سنة ١٢٧٥ في تعيين مقدار الدية الشرعية فقدر فيه  
 للدinar وهو المئقال اربعون غرشاً وثلثون فضة وخمسة جدد

وللدرهم قرش وتسع وعشرون فضة باعتبار الدرهم وهو قيراط ١٦  
 يزيد قيراطين عن الدرهم الشرعي وذكر فيه ان حضرات العلماء  
 المنوطين بالافتاء في مجلس الاحكام المصرية قرروا بعد المخابرة مع  
 ناظر دار الضرب وتحقيق الاسعار والاوزان بحسب اسعار الذهب  
 والفضة الغالين على المضاف ان الواجب في الدية الشرعية  
 باعتبار الاسعار الجارية وقتئذٍ بالنظر لقيمة الغالب في الفضة اي  
 باعتبار الثلثين من الفضة والثلث من المضاف خمسة عشر الف  
 قرش وثلاثة وتسعون غرشاً وثلاثون فضة بالعملة المعروفة بالصاغ  
 الديواني وذلك قيمة عشرة الاف درهم شرعي واذا اعتبرت الدية  
 من الذهب الغالب على غيره بالمعنى المذكور في الفضة تبلغ اربعين  
 الف قرش وسبعائة واثنين وستين غرشاً وعشرين فضة بالعملة  
 المذكورة وذلك قيمة الف دينار والدينار هو المثقال كما مر  
 ( اه المراد منه )

وذكر المقرضي ان قيمة النقود في السبعة القرون الاول من  
 الهجرة اعتبرت تغيرات كثيرة ومنها الدينار فكان في سنة ٣٦٣ من  
 الهجرة يساوي خمسة عشر درهما ونصف درهم وفي زمن الحاكم بامر  
 الله ابي علي المنصور بن العزيز كثرت الدراهم كثرة عظيمة وكثر  
 فيها الغش فصار الدينار يبادل باربعة وثلاثين درهما وعلت  
 اسعار الاشياء وضجر الناس من ذلك فامر بجمع الدراهم الموجودة  
 فجمعت وضربت جديداً بعيار اعلى مما كانت عليه ونقل من دار



الضرب ٢٠ صندوقاً مملوءة دراهم جديدة ومنعت المعاملة بالقديمة  
وامر بردها في ثلاثة ايام فكان الناس يستبدلون الدرهم الجديد  
باربعة قديمة وجعلت قديمة الدينار ١٨ درهما من الدراهم الجديدة  
قال ولم يزل التعامل بالدينار مستمراً بمصر وسائر البلاد الاسلامية  
الى مدة السلطان صلاح الدين فكانت اجرة الاجير وثن البضائع  
وخراج الارض تقدر بالدنانير وكانت الدنانير المتداولة بمصر  
مختلفة فمنها ما كان من ضرب مصر ومنها ما كان وارداً من بلاد  
الروم وكانت الدنانير الواردة من الروم تعرف بالهرقلية

وكان يتعامل الناس ايضاً بالعملة المعروفة بالبندقي نسبة الى  
مدينة البنادقة ( ونديك ) من بلاد ايطاليا

وقد وجدت دنانير مضروبة في مصر باسم احمد بن طولون  
سنة ٢٥٤ من الهجرة وضرب القائد ابو الحسن جوهر الصقلي بمصر  
في زمن المعز لدين الله سنة ٣٥٨ دنانير كانت تسمى المعزية نسبة  
الى المعز

وضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٨ من  
الهجرة دنانير بعيار اقل مما قبله كانت تعرف بالناصرية  
وكانت العرب في الاصل تتعامل بقطع من الذهب والفضة  
غير منتظمة الشكل بين مربع ومستدير وغيرها ثم اخضت بالشكل  
المستدير في زمن عبد الله بن الزبير ايام خلافته بمكة وذلك سنة  
٦٤ من الهجرة

وكان قطر الدينار القديم قدر ١٩ من الميللي متر وهو مساوي  
 لقطر البندقي القديم الوارد من بلاد البنادقة والروم وبلاد  
 الفلمنك ويساوي أيضاً قطر الفندقلي والزر محبوب

وكان يوجد على النقود من قديم الزمان صور مرسومة عليها  
 وقيل انها بقيت كذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وإبي بكر وعمر ثم الى سنة ١٨ من الهجرة بدون ان يحصل فيها  
 تغيير ما وكانت تشابه النقود الكسروية على ما ذكره المقرئ ثم  
 اضاف اليها عمر لفظ الحمد لله في بعضها ولا اله الا الله في البعض  
 ومحمد رسول الله في البعض واثبت اسمه في بعضها ايضاً

وضرب في زمن معاوية دنائير فيها رسم انسان متقلد سيفاً  
 وكذلك ضرب في زمن عبد الملك بن مروان دنائير مؤرخة في  
 سنة ٧٦ عليها صورة ورسم عليها في مدة الظاهر ركن الدين  
 بيبرس في سنة ٦٥٨ من الهجرة صورة سبع وكانت تعرف  
 بالظاهرة

ويقال ان اول من استحدث المعاملة الخالية عن الصور عبد  
 الملك بن مروان وان الذي اشار عليه بذلك خالد بن يزيد ابن  
 معاوية وقال له ان الملوك الذين عظموا اسم الله جل ذكره على  
 النقود متعمم الله بطول الحياة وقال بعضهم كان السبب في ذلك  
 ان عبد الملك المذكور كتب اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 في كتاب ارسله الى ملك الروم فانغناظ ملك الروم من ذلك

وارسل يلومه ويقول له ان لم ترجع عن مثل هذا كتبت اسم  
 نبيكم على النقود بصورة تغتاز منها فغضب لذلك عبد الملك  
 واستشار خالد ابن يزيد فاشار عليه باستحداث نقود اسلامية  
 للتعامل بها بدل نقود الروم (اه)

وقال في حياة الحيوان في ترجمة عبد الملك بن مروان وهو  
 اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدينار  
 نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية قال ولهذا سبب وهو اني  
 رأيت في كتاب المحاسن والمساوي للامام ابرهيم بن محمد البيهقي  
 ما نصه قال الكسائي دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه  
 وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وامر بتفريقه في  
 خدمه الخاصة ويده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً  
 ما يحدثني فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب  
 والفضة قلت ياسيدي هو عبد الملك بن مروان قال فما كان  
 السبب في ذلك قلت لا علم لي غير انه اول من احدث هذه  
 الكتابة فقال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان اكثر من  
 بمصر نصرانياً على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان  
 طرازها اباً وابناً وروحاً فلم يزل ذلك كذلك صدر الاسلام كله  
 يمضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك بن مروان فتنبه  
 له وكان فطناً فبينما هو ذات يوم ازمر به قرطاس فنظر الى طرازه  
 فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وامر بالكتاب الى عبد

العزیز بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يامر صناع القراطيس ان يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله انه لا اله الا هو قال وهذا طراز القراطيس خاصة الى وقتنا هذا لم يتقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعا بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شي منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل الى بلاد الروم منها اتشخر خبرها ووصل الى ملكهم وترجم له ذلك الطراز فانكره وغلظ عليه واستشاط غيظا فكتب الى عبد الملك ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم الى ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبحت فقد اخطأت فاختر من هاتين الحاليتين ايتها شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تشبه محلك واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الاعلاق حاجة اشكرك عليها وتامر بتقبض الهدية وكانت عظمة القدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما وافاه ضعف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال اني ظننتك استقلت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني على كتابي فاضعفت الهدية واني

ارغب اليك الى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز الى ما كان عليه اولاً فقراء عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه ويقول انك قد استخفنت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقلت الهدية فاضعفتها فحجرت على سبيلك الاول وقد اضعفتها ثالثة وانا احلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز الى ما كان عليه او لا أمرن بنقش الدنانير والدرهم فانك تعلم انه لا ينقش شي منها الا ما ينقش في بلادي ولم تكن الدرهم والدنانير نقشت في الاسلام فينقش عليها شتم نبيك فاذا قرأته ارفض جبينك عرفاً فاحب ان تقبل هديتي وترد الطراز الى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها وتبقى على الحال بيني وبينك فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الامر وغلظ وضاق به الارض وقال احسبني اشأم مولود ولدني الاسلام لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب اذ كانت المعاملة تدور بين الناس بدنانير الروم ودرهم فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به فقال له روح بن زبيح انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكمك تتعد تركه فقال ويحك من فقال عليك بالباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ولكن ارتج علي الرأي فيه فكتب الى عامله بالمدينة ان اشخص الي محمد بن علي ابن الحسين

مكراً ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلثائة ألف درهم لنفقته  
وحبس الرسول عنده الى موافاة محمد بن علي فلما وافاه اخبره  
الخبر فقال له محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس  
بشي من جهتين احداها ان الله عزوجل لم يكن ليطلق ما تهدد  
به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخرى وجود  
الحيلة فيه قال وما هي قال تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون  
بين يديك سككاً للدرام والدنانير وتجعل النقش عليها صورة  
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احدها في وجه  
الدرهم والدينار والاخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم  
والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك  
الدرام والدنانير وتعد الى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الاصناف  
الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن  
سنة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعاً  
واحداً وعشرين مثقالاً فنجزئها من الثلاثين فتصير العدة من  
الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل  
الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير  
على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت انما هي  
الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمر  
رضي الله عنه بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة  
الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوس خور) اي كل

واشرب وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالاً والدرهم التي  
 كان وزن العشرة منها ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل  
 هي السهرة الحفاف والتقال وتقسها نقش فارس ففعل ذلك عبد  
 الملك وامره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ان يكتب  
 السكك في جميع بلدان الاسلام وان يتقدم الى الناس في التعامل  
 بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم  
 والدنانير وغيرها وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد  
 الى السكك الاسلامية ففعل عبد الملك ورد رسول ملك الروم  
 اليه بذلك يقول انه عزوجل مانعك ما اردت ان تفعله وقد  
 تقدمت الى اعماي في اقطار البلاد بكذا وكذا وباطال السكك  
 والطرور الرومية فقبل ملك الروم افعلم ما كنت تهددت به  
 ملك العرب فقال لا انا اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لاني  
 كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الان فلا افعلم  
 لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذي قال وثبت  
 ما اشار به محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الى اليوم ثم  
 رمى يعني الرشيد الدرهم الى بعض الخدم (اه مع يسير تصرف) |  
 قال وفي مرآة الزمان وجد عبد الملك بن مروان في سنة  
 ٧٥ من الهجرة دنانير مضروبة من مدة اربعمائة سنة من قبله  
 مكتوب عليها اسم الاب والابن والروح فضرها دنانير جديدة  
 ضرب عليها اسم الله ورسوله وبعض آيات من القران ومن ذلك

الوقت صار الذي يكتب على النقود عبارات من القرآن او الحديث  
او غيرها من العبارات الاسلامية وقد وجد دينار اسلامي قديم  
فوجد في احد وجهيه ثلاثة اسطر تحت بعضها هذه صورتها



وعلى الوجه الآخر هكذا



ولم يذكر اسم البلدة التي ضرب فيها ولا الملك الذي ضرب



في مدته وذلك التاريخ يوافق مدة سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهكذا كانت الدينانير المضروبة في مصر الى القرن الثالث من الهجرة ولم يزل ينقش على الدينانير اسم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى القرن السابع من الهجرة ثم بطل ذلك وصار لا يرسم الا أسماء الملوك والقاهم واسماء البلاد ويقال ان ذلك كان في زمن السلطان مراد بن اورخان سنة ٧٦١ من الهجرة ولعل هذا كان بالنظر الى ان الدينار او الدرهم ربما يقع على الارض او يقع في يد من يتهاون بصيانة ما عليه من الاسماء الشريفة والآيات القرآنية فاخثير تنزيها عن نقشها على النقود ويقال ان اول من وضع اسمه على النقود هو ابو جعفر المنصور العباسي في سنة ١٥٢ من الهجرة

فهذا ما حضرني الان ما يتعلق بالدينار الذي جرننا اليه مجت اللؤلؤ والمحار وهو مجت ظريف قطعنا به معظم الطريق من غير سامة ولا ملل فان كان عندك فيه مزيد فاتحفنا به لتقطع فيه ما بقي من مسافة الطريق



## المسامرة الرابعة والاربعون

### دود الخشب وغيره

فقال يعقوب الآلام على المحار طويل حتى انه افرد بالتأليف  
وانواعه كثيرة جداً وقد رايت ذات يوم بساحل البحر شيئاً مغروراً  
في الرمل على هيئة المثبر الذي تضع فيه النساء الابرفسالت عنه رجلاً  
من اهل تلك الجهة فاخبرني انه نوع من المحار من عادته ان  
يجفر حجره في الرمل ويعتمه بقدر مترين فاكثر وله رجل مخروطية  
غليظة في اخرها استطالة تيسر له بواسطتها ان يرتفع الى قم حجره  
مع كمال السهولة فاذا احس بادنى شي رجع في الحال وكمن في  
حجره بحيث لا يظهر منه شي البتة

ومن غريب امره انه عند جزر البحر (اي انحصاره) عن  
الشاطئ يعرف حجره بحروق صغيرة في الرمل يخرج منها فتاقيع  
من الماء فاذا نزل في البحر واراد العود الى حجره اهتدى اليه بها  
واذا اراد الصيادون ان يخرجوه من حجره ليصطادوه وضعوا فوق

فم الحجر قبضة من الملح فيخزق ذلك الحيوان الرمل ويخرج من  
 محل اخر فيسارعون الى التقبض عليه فانه ان افلت منهم وفاتهم  
 لا يقدرّون عليه بهذه الحيلة مرة ثانية وشكل هذا الحيوان كشكل  
 محار اصطواني وله في نهاية غشائه فتحة احداهما يمتص بها الماء  
 اللازم لاستخراج ما فيه من اكسجين الهواء المتخالل بين جواهره  
 والثانية يقذف بها ذلك الماء بعد استخلاص الاكسجين منه ومن  
 هذا الجنس من المحار نوع يحفر حجره في الارض في ابي موضع اراد  
 منها سواء كان في الطين او الحجر او الصوان او الرخام لا يبالي  
 بصلابة الارض مهما كانت ولهذا يسمونه لغني الاحجار تشبيهاً له بمن  
 يقطع الاحجار بالبارود بالكيفية المعروفة باللغم وهذا الحيوان يمكث  
 طول حياته في ظلمة حجره ولم يعلم احد كيفية حفره ولا رضاه بهذا  
 المحبس مدة حياته

وفي هذا النوع بعض طول وغلظ وله في غشائه فتحة  
 ايضاً احداهما دقيقة يخرج منها قصب ذو شعبتين احداهما يمتص  
 بها الماء اللازم لاستخراج اكسجين الهواء المتخالل بين جواهره وهي  
 مادة غذائه والثانية يقذف بها هذا الماء بعد اخذ خواصه كالذي  
 قبله واما الفتحة الثانية وهي اغلظ من الاولى فيخرج منها رجليه وهي  
 قصيرة غليظة واهل تلك الجهات ياكلونه نيئاً من غير كراهية  
 ويعدونّه من مستلذات ماكلهم ولهذا النوع في الظلمة لمعان وضوء  
 كبرياي يشاهد في الليل حتى اذا اكله احد من الناس ليلاً شوهد

على فمه هذا الضوء الكهربائي وبالجملة فحيوانات البحر تجل عن الحصر فمنها نوع يعرف عند البحارة بدود الخشب لانه يالف الخشب الذي يكون في الماء فيأكله كما يأكل دود البر خشب البر وقد شوهد هذا الحيوان يحرق الخشب المغطى بالماء ايا كان لا يبالي بصلابته بالغة ما بلغت ويسلك في داخل هذه الاخشاب في طرق مختلفة فتارة تكون تابعة لاتجاه الياف الخشب وتارة تكون مقاطعة لها على انحاء مختلفة ومع كل ذلك لا يرى على ظاهر الخشب ادنى تلف ولا تغيير

وقد شوهد ان الواحد من هذا الحيوان متى عارضه في طريقه مانع يمنعه من التادي والاستمرار فيه عدل الى غيره بحيث لا يخلط طريقه بطريق غيره وبهذه الكيفية يتلف باطن الخشب ويفرغ جوفه بالكلية مع بقاء سطحه الظاهري سليماً لا يرى فيه اثر فان كان ذلك الخشب حاملاً لشيء من الانتقال كالعمد والنخازيق التي توضع في اس المبانى المائية كالقناطر والارصفة ضعف بحكم الضرورة عن حملها ومقاومة ثقلها فيندق ويستقطبما عليه وقد شوهد تلف كثير من السفن بسبب هذا الحيوان

وفي القرن العاشر من الميلاد كادت مملكة الفلمنك تتلف بسبب فعل هذا الدود فانه اكل الخشب الموضوع في الجسور المعمولة لمنع ماء البحر الملح عن ارض الزراعة حتى كادت تضجج وتزول بالكلية ويحل بالبلاد واهلها الحرَب والويل والعطب

فترتب على ذلك صرف اموال كثيرة في تقوية الجسور وتجديد  
الخشب

وقد راوا في هذا النوع كراهة طبيعية لصداء المعادن كالحديد  
والنحاس فمضى كان في الخشب شي ما ذكر لم يؤثر فيه فلما علم  
الناس ذلك منه صاروا يضعون في الخشب الذي يكون في الماء  
مسامير غليظة ويكسون السفن بالنحاس احتراً منه وهذا الحيوان  
ايضاً من جملة انواع المحار وهو كدودة طويلة في داخل محارة  
ذات فلتتين تكسو جميع بدنه ويتناسل هذا النوع بالبيض كباقي  
المحار ويضه كروي الشكل ولونه اصفر يضرب الى الخضرة ويكون  
في اول امره كديدان صغيرة وبعد قليل من الزمن يظهر له شعر  
دقيق يسبح به في الماء فاذا عثر بنخشة تعلق بها وثقبها ودخل في  
جوفها فيكبر فيها شيئاً فشيئاً ويكسى بالمحار فبلوغه الى غايته  
واستكمال آلاته يكون في داخل الخشب لا خارجه ولهذا النوع  
كغيره خصائص وكيفيات يطول شرحها ويتسع القول في عدها  
وهناك نوع من الحيوان المائي غريب له عادة عجيبة وذلك انه  
يتجامل على المحار بكل حيلة حتى ياكل ما في جوف المحارة من  
الحيوان ثم يسكن فيها ويسير بها الى حيث يشاء ويتقي بها شر  
عدوه كما يتقي المقاتل بدرعه ويتحصن بمحصنه وهناك نوع اخر  
كالدود ايضاً لطيف الطبع ذوا احساس ومن شأنه ان يجعل  
لنفسه وقاية تقيه عوارض الجو فيعبد الى الاقشعة فيجعل له في

سكنها مسكناً يحيط به مع كمال الاحكام والضبط وكلما كبر وسع في مسكنه وستر جسمه من غير ان يشعر احد به فاذا اراد احد كشفها وازال عنها ما صنعت من بيتها صنعت غيره في الحال مع كمال السرعة

ومن عجيب امر هذا النوع انه لو وضع على قطعة من القماش ذات اللون مختلفة عمل بيته بلونها فيكون مركباً من قطع ذات اللون كالوان اصله وهذه الدودة هي المعروفة بارضة الجوخ واذا ماتت خرج منها حيوان ظريف الشكل بهيئ المنظر ذو جناحين يطير بها وهو من انواع الحيوان الذي يقال له عند العامة ابو دقيق وهناك ديدان مائية لا تكفي بثوب رقيق كما اكتفت الارضة بل تعمل لها مسكناً من مواد صلبة كالرمل والخزف وتبنيه بمواد معروفة لها وقد تبنيه من صغير الحار او من بعض حشائش تقطع اطرافها وتلفها على نفسها لفاً محكمًا وتسير بها في قاع مجاري المياه العذبة

واغرب من هذا كله دودة الرصاص وهي دودة صغيرة لتقب الرصاص حتى اذا وصلت من عمقه الى ما يكفي لسكنها سكنت وسكنت وكثيراً ما وجدت هذه الدودة ساكنة في الرصاص الموضوع في خراطيش البارود العسكرية وقد تاكل الصفائح المعدنية التي توضع على السقف في البلاد الباردة وبالجملة فانواع الحشرات الصغيرة واصنافها وطبائعها

وإشكالها شي كثير وشرحه يطول

وكان قد وصلا الى محلها فقال يعقوب وها نحن قد وصلنا  
 وإظنك تريد ان تستريح فان شئت اخرنا الكلام في هذا المقام الى  
 وقت اخر فقام الشيخ الى محله فرأى ان الانكليزي وولده لم يحضرا  
 بعد فجلس برهة ثم قال ليعقوب لقد قطعنا المسافة في عجائب  
 درسناها وغرائب سردناها وهو اولى من التكلم في ما لا يعني من  
 امرزيد وعمرو وقد اتخفتني بما شرح خاطري وسرني كثير السرور  
 فاني اميل بمجامع قلبي الى النظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع  
 قدرته الباهرة وعجائب صنعته الزاهرة اذ بذلك يعيش الانسان  
 عارفاً بربه مفوضاً اليه جميع اموره بقلبه وقلبه فيرضى عنه ربه  
 ويعطف عليه قلب كل من رآه فيحبه وقد تذكرت بما ذكرت لي  
 من دود الخشب دابة الارض التي اكلت منساة نبي الله سليمان عليه  
 السلام فانه حين توفاه الله كان متوكئاً عليها فبقي كذلك حتى  
 اكلت هذه الدابة منساته فسقط على الارض فعلم موته

فقال يعقوب ما معنى المنساة وما هذه الدابة وما فعلها

فقال الشيخ المنساة العصا والدابة في الاصل كل ما دب على  
 الأرض ولكن لما كان فعل هذه كله في الارض اضيف اليها فقيل  
 دابة الارض والمراد بها الارضة وهي دوية صغيرة قدر نصف  
 العدسة تاكل الخشب والورق فاذا مضى لها من العمر سنة نبت  
 لها جناحان تطير بهما والنمل عدوها وهو اصغر منها فيأتيها من

خلفها فيحملها ويمشي بها الى حجره واذا اتاها مستقبلاً لا يقاومها لانها تغلبه ومن شان هذه الدابة انها تبني لنفسها بيتاً حسناً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخروطاً من اسفله الى اعلاه وله في احدى جهاته باب مربع ومنه تعلمت الاوائل وضع النواويس لموتاهم

### المعامرة الخامسة والاربعون

#### دود القز

ومن عجيب هذه الحيوانات الصغيرة دودة القز وهي ايضاً في اخر عمرها تصير طائراً اذا جناحين على نحو ما ذكرت في ارضة الجوخ ويقال لدودة القز المذكورة الدودة الهندية ايضاً ومن بديع امرها انها تكون اولاً مثل بزر التين ثم تكون دوداً والظاهر ان هذا البزر بيض في داخله هذا الحيوان فاذا جاء ابانه تحرك وخرج



من البيض ودب على الارض وذلك في اوائل فصل الربيع ويكون هذا الدود عند خروجه شبيه الذر في قدره ولونه ويخرج في الاماكن الدفيئة انا كان مصوراً في حق بغير حضان وربما تاخر خروجه فتجعله النساء تحت تدين فيخرج فاذا اخرج اطعم ورق التوت ويقال انه احسن غذاء له واحسنه ورق التوت الابيض وقد عرف بالتجربة ان مقدار عشرة دراهم من البزر يخوي على اربعين الف دودة وعند اول خروجه من البزر يكفيه من ورق التوت من ١٦ درهما الى ٢٠٠ درهم ثم انه ينمو جسمه ويعظم بالتدريج حتى يصير قدر الاصبع وكلما كبرت الدودة وازداد حجمها زاد اكلها حتى يصل ما ياكله في اخر الامر الى نحو مائة وسبعين اقة في اليوم الواحد وفي اثناء ذلك يغير هذا الحيوان جلده اربع مرات في نحو اربعين يوماً وعند تغيير جلده في كل مرة منها يمرض ويقل اكله ويكون في حالة خدر وضنك وضجر وكاننا ضاق عليه جلده وصار لا يسعه فاذا اراد نزعه اخرج من جوفه طرف خيط من الحرير يثبت في شي ما بجانبه ويتسك به فينزع جلده ويخرج منه كما يخرج الانسان من ثوب ضيق عليه وحينئذ يفيق ويستريح ويعود لحالة النوم والاستكثار من الغذاء حتى ياتي وقت نزع الجلد الثاني بعد نحو اربعة ايام فيعاوده الضعف ويفعل فعله السابق حتى ينزعه ويخرج منه وهكذا حتى ينزع جلده الرابع وحينئذ يكون قد بلغ اشده وامتلا جوفه من

مادة الحرير فيأخذ في النسج على نفسه بما يخرج من فيه وفي هذا الوقت يكون لونه ابيض وجسمه عبارة عن عدة حلقات يرى في الاخيرة منها شي يشبه القرون ولا يزال يلف خيطه على نفسه في نحو ثلاثة ايام او اربعة الى ان ينفذ ما في جوفه ويكمل عليه ما بينه حتى يصير كهيئة الجوزة ويبقى فيه محبوساً قريباً من عشرة ايام ثم يتقب عن نفسه تلك الجوزة بواسطة مائع يخرج به ويصيب به طرف الخيط من الداخل فيلين ويسهل عليه قطعه فيقطعه ويخرج من الجوزة في صورة فراش ابيض او ازرق له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وقد يكون ما ينسجه على نفسه نحو ثلثائة متر وعند خروجه يهيج الى السفاد فيبحث الذكر على الانثى ويسافدها فيلصق موخره بموخرها ويلتجان مدة ثم يفترقان وعند ذلك يكون قد فرش له خرقة بيضاء فتنتشر الانثى عليها البذر الذي تقدم ذكره وهو بيضا وتبيض منه الواحدة نحو خمسمائة بيضة وفي عقب ذلك يموت كل من الذكر والانثى ويفعل بالبذر كما تقدم وهكذا

هذا اذا اريد البذر فان اريد الحرير ترك في الشمس يوماً او بعض يوم وذلك بعد فراغه من النسج بعشرة ايام فيموت وهو سريع العطب ويقال انه يخشى عليه من الفار والعصفور والنمل والوزع وكثرة الحر والبرد وقد الغز فيه بعض الشعراء فقال  
وبيضة تحضن في يومين \* حتى اذا دبت علي رجلين

واستبدلت بلونها لونين \* حاكت لها خبا بلا نيرين  
 بلا سماء وبلا بايين \* ثقبه من بعد ليلتين  
 فخرجت مكحولة العينين \* قد صبغت بالنقش حاجبين  
 قصيرة ضئيلة الجبين \* كأنها قد قطعت نصفين  
 لها جناح سابغ البردين \* ما نبتا إلا لترب الحين  
 ان الردى كحل لكل عين

قال ابو طالب المكي في كتابه قوت القلوب وقد مثل  
 بعض الحكماء ابن آدم بدود الفزلا يزال ينسج على نفسه من جهله  
 حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير الفزلا غيره وربما  
 قتلوه اذا فرغ من نسجه لان الفزلا ينف عليه فيريد الخروج منه  
 فيشمس وربما غمز بالايدي حتى يموت لئلا يقطع الفزلا ليخرج الفز  
 صحيحاً فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي اهلكه اهله وماله وتنع  
 ورثته بما شقي هو به وقد اشار الى ذلك ابو الفتح البستي بقوله

ألم تر ان المرء طول حياته

معنى بامر لا يزال يعالج

كدود كدود الفز ينسج دائماً

ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وقال اخر

بفني الحريص يجمع المال مدته

وللحوادث ما يبقى وما يدع

كدودة القز ما بنيه يهلكها

وغيرها بالذئب تبنيه يتفعل

قال ناقل الحديث فاضهر يعقوب علامة الاستحسان لما سمعه  
ثم قال قد انتشر في اقطار الارض مادة تربية هذه الدودة وصارت  
متداولة عند كثير من الامم وان كانت كفياتها مختلفة وقد اشتهرت  
صناعة الحرير في بلاد اوروبا اشتهاراً كبيراً واتسعت اتساعاً وصل  
الى غاية عظيمة وتنوعت كيفية عمله تنوعاً كثيراً وصار يصنع خالصاً  
ومخلوطاً بغيره من القطن والصوف وغيرها ومطرزاً بالصب  
والفضة والذهب في انواع من التحسين والنقش والتزيين وكثرت  
الانوال لعمله كثيرة مفرطة حتى انه يوجد في مملكة فرانسة من  
الانوال مقدار مائتين وخمسين الفاً ويبلغ قيمة المتحصل فيها من  
الحرير منسوجاً وغير منسوج نحو ( ٦٤٠ ) مليون من الفرنكات  
ويبلغ في بلاد الانكليز نحو مائتين وخمسين مليوناً فاذا اضيف الى  
متحصل بلاد الانكليز ما يتحصل في غيرها من ممالك اوروبا كان  
مجموع ذلك قريباً ما يتحصل في مملكة فرانسا من هذا الصنف  
فهي اعظم الممالك في صناعته وان كانت لوندرة اكثر منها في تجارته  
واول تربية هذه الدودة كان عند اهل الصين قبل ميلاد  
المسيح بنحو الف سنة وعندهم اخذ غيرهم من سائر الناس واول من  
اخذ عنهم اهل الهند ومنهم انتشر ولعل هذا هو السبب فيما ذكرت  
من تسميتها بالدودة الهندية ثم اخذها العجم عن اهل الهند فحسبونها

وانقنوا صناعتها ووسعوا دائرتها ثم تعلمها اهل القسطنطينية وذلك في اواسط القرن السادس من الميلاد ثم اهل ايطاليا في القرن الثاني عشر منه ولم تعلم كيفيتها لاهل فرنسا الا في القرن الثالث عشر

### المسامرة السادسة والاربعون

ابو دقيق

قال الشيخ قد بلغني ان في حشرات الارض غير ما خضنا في حديثه من دودة القز وارضدة الجوخ حيوانات اخر تتقل من صورة الى صورة وبودي لو عرفت كيفية ذلك فان كان عندك في هذا المعنى مزيد شرح فهاته غير مامور فاني كثير الشغف بمعرفة امثال هذه الامور

فقال يعقوب اني مثل حضرتكم اميل بكليتي لمعرفة احوال افراد المخلوقات ولذلك قضيت اكثر عمري في قراءة كتب التاريخ الطبيعي ورسائل كثيرة من هذا القبيل لاستفيد نتائج مشاهداتهم واجني من ثمرات معلوماتهم فوجدت في ذلك فوائد كثيرة وتخلصت به من ضياع الوقت في الكسل والبطالة والقبيل والقال والنزاع والجدال

وغاية العلم في هذه المادة ان الحيوان يخلق اولاً في صورة ثم يتغير وينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغير خاصاً بالصورة بل يعترى الطبايع والاحوال ايضاً حتي لا يبقى فيه شي من احواله وطبايعه الاولى فتراه يكون في اول مرة كدودة قدرة قيحة المنظر راسية في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة واراد الانخراط في سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتخلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الالوان ذات اجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها في الهواء الى حيث يشاء فانظر كيف خرجت هذه الدودة المائية عن ذاتها الاولى الى صفة الحيوانات الهوائية وتغير صورتها كما ذكر نتغير جميع طبايعها واحوال معيشتها واحياجاتها وسائر حالاتها وبعد ان كان غذاؤها ما في قاع البحر من الحشيش ترعاه دائماً ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تنهوا

ولا تقر به كما انها بعد ان قضت مدة حياتها الاولى تحت الماء في الطين صارت لا تحب الا فضاء الجو ونسيم الهواء ترح فيه وتعيش به ولا تالف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلفت ان تقيم تحنه لحظة لهلكت في الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الاولى وكذلك امثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها واشكالها فان الحيوان ذا الاجنحة اليرمزية الذي تسميه العوام بالجعران وكان المصريون يعظمونه اصله من دودة تدب في بطن الارض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه وكان الاقدمون يجهلون ذلك الى زمن ارسطو وهو اول من فتح باب البحث في هذه المسألة الا انه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الامر على ذلك الى هذه القرون الاخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر ان الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردا عن الاجنحة في هيئة دودة صغيرة ثم ياخذ في الكبر وازدياد الحجم يأكل بعض الحشيش وغيره من المواد الارضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار في مقره كأنه قد مات ودفن في قبره فيبقى كذلك مدة تتعدم فيها جميع الاحوال الدودية بتدبير الهي لا علم لاحد به ثم يظهر بعد ذلك في صورة اخرى ذات جناحين كالحيون المعروف عند العامة بفرقع لوز وقد شوهد ان الدودة في حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ممتفة

في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرم الموتى التي ترى في قبور  
الاقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا  
الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة ومن الغريب  
ان هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير  
ان يحصل لاعضائه الدقيقة ادنى خلل

وكثيرا ما يكون هذا القبر مركباً من ثلاث طبقات الاولى  
مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزل المطر من فوقها والثانية من  
مواد الطف من الاولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم  
من العوارض الجوية والثالثة هي الثوب او الكفن الذي تقدم  
ذكره

ومن نظر في الحيوان المعروف بالبي دقيق وثنيع احواله  
واشكاله وجده يتغير ثلاث مرات يتقلب فيها الى ثلاث حالات  
ليس بين واحدة منها وبين الاخرى مشابهة البتة حتى يظن انه  
يموت ويحى ثلاث مرات مع انه في الواقع ونفس الامر ليس كذلك  
وانما يعتره سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من  
الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلياتها الخفية بالانتقال  
من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من اصل خلقتها  
مشملة على جميع ما يلزم للصور التي تتحول لها وتتقلب اليها فكأنما  
هي في ثلاثة اثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق  
الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ما نخبه فتبقى فيه ما شاء الله ثم



تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الأخيرة فتبقى عليها الى ان تموت بها وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغيير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغيرات والتبديلات وإنما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد اعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها ينتقل الى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير ان تظهر عليه حالة السكون المذكورة وإنما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الاجنحة وذلك كالحیوان المعروف بالبق

ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورم الاسماك فاذا تحول الى الصورة الأخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش الاّ زمناً قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد ان تبيض الانثى منه بيضها

فمن تأمل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها او رآها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد اشكالها والوانها وصورها واخلافها في كبرها وصغرها وانعم النظر فيما تظهر به وتجلي فيه من المنظر البهج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برويق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالالوان العجيبة اذعن بالربوبية لحالها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه

وحوله وقوته فما معلومات الانسان ولو امتد به الزمان بالنسبة  
 لمعلومات الله سبحانه الا كسبة المعدوم الى الموجود فكيف يطلع  
 علي كنه هذه الاسرار او يستخرج جوهر هاتيك الحجار الا ان امده  
 الله باعانه وشمله بحسن عنايته



### المسامرة السابعة والاربعون

#### النحل

ومن قبيل ما نحن بصدده من الحيوانات المذكورة النحل  
 الذي نشاهده ونحبي منه الشهد فانه كذلك في اول مرة يكون  
 دودة صغيرة ثم يكبر وبعد ذلك يتقلب الى الصورة المعلومة وله  
 في ترتيب بيته وتدبير معيشته ونظام اموره ما يقضي بالعجب العجيب  
 وهو انواع منها ما يالف الاجتماع على بعضه فيتألف منه جموع

كثيرة تشترك في المأوى والمعيشة وقد يجتمع في الخلية الواحدة نحو ثلاثين أو أربعين ألفاً ولا يزيد عن ذلك إلا نادراً ومنها ما يالف الانفراد والاعتزال فيكون متفرقاً منعزلاً بعضه عن بعض ونحلة العسل يكون جسمها أزرق اللون كأنه مركب من ست حلقات أو عقد في الأخيرة منها حمتها ( وهي الابرة التي تلسع بها المعروفة في لسان العامة بالزبان ) وفي فمها خرطوم طويل تمتص به من الأزهار ما تحتاجه لعمل العسل وعند سكونها تغطيه براسها وفي رجليها شي يشبه الفرشة تاخذ به من نبات الأرض ما يلزم لبناء بيت العسل وهو الشمع

وإذا نظرت الى النحل في تدبير احواله المنزلية واحكامه السياسية تراه كرعية سلطنة تامة النظام كاملة السياسة نافذة الاحكام

فمنها واحدة من الاناث هي اكبر الجميع واعظها جثة وهي لها كالمملكة المحاكمة ويقال لها العسوب وعليها مدار عمارة الخلية واكتثار النسل بكثرة بيضها وبقية الاناث لا تطلب السفاد ولا تبيض وانما هي عملة عليها العمل والخدمة والمدافعة عن الوطن والمسكن وسلاحها حمتها المركبة في ذنبيها تناضل وتقاتل بها وليس للام ولا للذكور حمة كما سيدكر وطائفة الذكور عليها تلقح الامر ووطؤها

فوجود هذه الاصناف الثلاثة اي الام الملكة والاناث العملة

والذكور لازم ضرورة في بقاء هذا النوع وتناسله وتربته فلو فقد احد هذه الثلاثة لحربت الخلية وفي ما فيها بخلاف غيره من انواع الحيوان فانه يكفي فيه ذكر وانثى

وسبب لزوم هذه الثلاثة في هذا النوع ان الام التي هي كالملكة لا يتانى لها تحصيل قوتها وقوت ما يتناسل منها من الذرية الكثيرة ولا يمكن لها عمل ما ياويها جميعاً من المساكن ولا شغل لها سوى انها تبيض بيضها وتلزم خليتها مدة عمرها وهي نحو خمس سنين فاحاجت الى عمال وخدم تحصل لها رزقها ورزق ذريتها وتبني المساكن لها ولذريتها وكذلك ليس لها حمة تدافع بها عن نفسها فهي كثيرة الخوف قليلة الجرأة بحيث لو وقع بها نحلة غريبة لجينت عن ملاقاتها وهربت منها داخل الخلية فراراً من سطوتها فلا يقيمها ويدافع عنها سوى بقية الاناث فهي لها من جهة بمنزلة الخدم والعمال ومن جهة بمنزلة الجنود والابطال ومع كونها مع الغريب الاجنبي بتلك المثابة تراها بين قومها في غاية العظم والمهابة واما احتياجها للذكور فهو من اجل السفاد لحصول النسل وتكثير الاولاد فهذا وجه الضرورة في وجود الاصناف الثلاثة المذكورة

ويتميز الذكر عن الانثى من هذا النوع بكبر عينيه وتقاربها وليس له فرشة في رجليه لجمع الشمع ولا له حمة يلسع بها ولهذا يكون لين العريكة حسن الاخلاق كحال غيره من ضعاف الخلق ومن شأن النحل انه اذا كان الوقت غير موافق والهواء غير معتدل

شدة البرد في الشتاء مثلاً فلا يخرج من خليته بل يلزمها ويقيم فيها ويأكل من العسل الذي بها فاذا اتى فصل الربيع واكتسى وجه الارض بالخضرة والزهور خرج للرعي واكثر من اللوي والطين حول خليته وقد قالوا ان الذكر منه لا يعيش زيادة عن ثلاثة اشهر وان الانثى قد تعيش الى ثمانية عشر شهراً وهي اصغر من الذكر وقد اعتبرت بالوزن فوجد ان كل عشرة الاف منها تزن اربعة اخماس افة مصرية وطائفة الاناث هي العملة والمخدام كما مر وعملها كثير فمنه جمع العسل والشمع من النبات والازهار وجلبه الى الخلية وتوزيعه على عيون الاقراص وادخاره فيها وتعد البيض الذي تبيضه الام وتوزيعه على تلك العيون ووضع كل واحدة منه في محل يليق بها وتربية ما يخرج من ذلك البيض من صغار النحل حين تخرج في هيئة الدود الصغير فتغذيها وتعتدها حتى تكبر وتقوى على الخروج من الخلية للرعي بنفسها فاذا وجدت درجة الحرارة قد تغيرت واشتدت بحيث صارت ربما تضر بهذه الصغار اقبلت عليها ترفرف باجنحتها حولها وتروح لها بها لتعديل درجة الهواء بتحريكه في الخلية وتجديده ومن هذه العمال طائفة تقوم بامر الحراسة والحفارة وقت سكون باقي الجماعة في الخلية فان رأيت ما لا قبل لها به من العدو نهبت الجماعة فيستعد الجميع لقتاله وصدده وردده ومنها طائفة تلتزم بعمل الاقراص وما فيها من العيون وهي البيوت من مادة لزجة هي مادة الشمع

تستحضرها لذلك فانها حين تخرج للمرعى تخضر معها من تلك  
المادة ما يلزم لعمل الاقراص والبيوت ومن مادة العسل ما يلزم  
للغذاء والتوت فتضع اولاً الشمع وتصنع البيوت منه لتكون كالوعاء  
للعسل وتجعل بعض تلك البيوت كبيراً ومعظمها صغيراً وجميعها  
مبنية على الشكل المسدس وهو انفع الاشكال في عدم ضياع شي  
من الفضاء الذي يتخذ فيه اذا انضم الى امثاله فألم الله سبحانه  
وتعالى النحل ان يبنيه بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا  
مخمساً بل مسدساً لخاصية في هذا الشكل لا توجد في غيره وذلك  
ان اوسع الاشياء واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج  
منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى  
لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لقيت خارج البيوت  
فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراسة  
وليس في الاشكال زوايا شكل سوى المسدس يقرب  
من المستدير في الاحشاء ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد  
اجتماعها فرجة وهذه خاصية هذا الشكل الذي ألم النحل ان يبنيه  
فهو يبني بيوته عليه ويضعه تماماً محكمًا لا يخرف كأنما استنبط  
بقياس هندي

ويوجد في كل قرص طبقتان متلاصقتان من البيوت  
وبعض هذه البيوت مخازن للعسل يدخر فيها الى وقت الحاجة  
ويسد عليه بسداة من الشمع وياقيها التربة البيض فيجعل في

كل بيت منها بيضة على انفرادها تضعها فيه طائفة العمال من النحل كما مر وتكون البيوت التي يوضع فيها البيض المشتمل على الذكور اكبر من التي يوضع فيها المشتمل على الاناث لما علمت من ان ذكران النحل اكبر من اناثه ويوجد في اطراف الاقراص بعض عيون كبيرة تسع الواحدة منها من العسل قدر ما يسع غيرها مائة وخمسين مرة الا انها قليلة وهي التي اعدت للبيض الذي يخرج منها اليعسوب

ومن اللطائف ان العمال تعلم عدد البيض وكيفية توزيعه بقوة ادراك غريزية اودعها الله فيها فتبني البيوت على حسبه من قبل ان تراه وعمل العمال يختلف باختلاف الاوقات قوة وضعفاً فيضعف في الصيف ويقل فاذا جاء فصل الخريف ازداد شغلها وكثر اجتهادها فتملأ البيوت بيضاً وتعهده الى ان يخرج كما مر وتخرج منه ذكور كثيرة في وقت معين فان ظهر فيه ام جديدة اجتهدت الام الاصلية في قتلها والّا خرجت وتبعها كثير من العمال حتى اذا وجدت غصناً او خامة زرع تعلقت به واحنف بها ما خرج معها من هجمعتها فان اخذت حيثئذٍ ووضعت في خلية استوطنتها وعمرتها والّا ذهبت الى فجوة في شجرة او حائط او جبل فاقامت بها مع توابعها

واما الام التي بقيت في الخلية الاصلية فبعد ثمانية ايام من ظهورها تخرج وتدور حول الخلية كأنها تكشف امرها وتنظر ما

حولها ثم تعلقو فوق طبقات الجو ذاهبة وعائدة في الهواء برهة من الزمن وبعد ذلك تعود الى الخلية وتمكث فيها طول عمرها الى ان تطردها منها احدى اولادها كما طردت هي امها وتبتديء في البيض من ثاني يوم من ظهورها فيخرج من بعضه ذكور ومن بعضه اناث ولكنه في وقت الشتاء اذا كان الهواء لطيفاً لا يخرج منه الا اناث

وفي مدة البيض يحف العمال بالام فيلحسونها بالستهم ويجعلون في فيها ما يلزم لغذاءها من العسل ويرتبون البيض ويوزعونه على البيوت في كل طاقة بيضة ويخرجون ما زاد او فسد ويرمونه خارج البيوت وكلما وضعوا بيضة في طاقة سدوا عليها بمادة لزجة فانا مضى عليها ثلاثة ايام صارت دودة فيفتح لها حينئذ العمال السدادة ويغذونها مدة ستة ايام في كل يوم عدة مرات ومادة الغذاء وان كانت عسليه الا ان درجة حلاوتها تدبر بالنقص والزيادة على حسب تقدم الدودة في العمر وما يناسبها في كل سن وبعد تلك المدة يسد على كل دودة بغطاء فيه تحديب ليس كغطاء العيون المعدة لادخار العسل فانه مستوي وعند ذلك تقوم الدودة في بيتها وتعمل لنفسها ثوباً كالححرير تحيط به حروف البيت وقاية لجسمها من خشونة مادته ويتم هذا العمل في يوم ونصف ثم بعد ثلاثة ايام تنقلب الدودة ذبابة صغيرة ملتفة في ثوب ابيض شفاف يرى منه ارجلها واجنحتها وباقي اعضائها فتبقي في هذه الصورة



سبعة ايام في هده وسكون بلا حركة ثم تمزق ثوبها وتخرج منه فعند ذلك تخنط بها العمال وتمسح جسدها وتمد جناحيها وتأخذها معها الى حيث شاءت من اعمالها تمرنها على العمل معها والمساعدة لها في اشغالها

ولكثره مادة الغذاء في الصيف يكون بين الذكور والاناث صلح فيغدون ويروحون سواء فاذا قرب الشتاء وقلت المراعي تحرك من العمال عرق الغضب على الذكور لعدم الفائدة فيهم فيتفقون على قتلهم فعند ذلك تقف طائفة من العمال امام الخلية تقتل كل من مر بهم من الذكور وليس لذكور هذه الطائفة حمة تلسع بها وتدافع عن نفسها فتبطش بها العمال كما شاءت فتلتفها ونفني عدادها وهكذا تفعل بالذكور التي تحدث فتقتلها وترميها خارج الخلية وعند حلول فصل الشتاء يقل البيض ويقطع المرعي فياكلون ما في الخلية فانا حل فصل الربيع وتفتحت الازهار ابداً البيض والتناسل كما مر والعادة في البيض الذي يخرج منه الذكور ان يكون فقسه وتفريجه في مدة ثلاثة ايام ثم بعد ذلك يكون دودة فتغذيها العمال سنة ايام بمثل ما مر وتضع الغطاء عليها وبعد وضع الغطاء تسج ثوبها في ثلاثة ايام اخر وتقلب ذبابة وتقيم على ذلك اثنا عشر يوماً ثم تخرج فيكون خروج الذكر في اربعة وعشرين يوماً بخلاف الانثى فانها يكون خروجها في اثنين وعشرين يوماً والبيض الذي يخرج منه اليعسوب يكون

ففسه وتفرجه بعد ثلاثة ايام فيخرج من الواحدة منه دودة كسائر  
الاناث التي هي العمال الا ان لها في الغذاء كيفية مخصوصة  
تعرفها العمال فيكون غذاؤها في اول الامر حامضاً ثم يزداد في  
حلاوته بالتدرج ويجعل بتربيتها منه في بيتها اكثر مما يعطى  
لغيرها فتعظم وتكبر عن غيرها ويوجد فيها خاصة التناسل وتكون  
اماً ويعسوباً ولا تمكث في عمل ثوبها الا يوماً واحداً وذلك لما  
اكتسبته من القوة بسبب جودة غذائها وكثرته وخاصة مادته ثم  
تقيم بعد ذلك في الراحة والهدوء والسكون مدة يومين ونصف يوم  
ثم تكون ذبابة وتقيم على تلك الحالة خمسة ايام فقط وتخرج من  
ثوبها بعد ستة عشر يوماً فقط هذا اذا اراد العمال ذلك والا  
زادوا في سمك الغطاء وحبسوها مدة من اربعة ايام الى ثمانية على  
حسب مقتضيات الاحوال وفي هذه المدة يرسل لها الغذاء من  
ثقب يجعل في الغطاء المذكور فاذا انفتح الغطاء خرجت يعسوباً  
واماً تتميز عن غيرها بخاصية البيض والنسل وعظم الجسم وذلك  
بخاصية هذا الغذاء المخصوص بالام وهذه الخاصية في ذلك الغذاء  
ثابتة محققة حتى انه اذا وقع منه في بعض الاحيان جزء في بيت  
واحدة من العُمَّة واطعمت منه نما جسمها وزاد حجمها وحصل لها  
خاصية البيض والنسل وحصل منها البيض بالفعل وربما وصلت  
الى نصف درجة الام وحيثئذ تكون معرضة لاذى الام الاصلية  
وطائفة العمال تعلم ما في ذلك الغذاء من هذه الخاصية ولذا

اذا ماتت الام اخزاروا في الحال دودة من الدود الذي يكون منه  
العمال فيغدقون عليها بالغذاء المذكور حتى تصير اماً ويعسوباً  
وذلك لما ثبت عندهم من ان الخلية لا تعمر بدونها وانهم ان  
خرجوا من الخلية قبل ان يتخذوا لهم اماً بدلا بدد الدهر شملهم  
واحباط بهم نحل الخليات الاخر وقتلم

وقد قدمنا ان انواع النحل كثيرة لكن ليس منه في بلاد  
الاوروبابوين الا نوعان احدهما ازرق البطون وهو ما يوجد  
بالبلاد المركزية والثاني تميل بطونه الى الصفرة وهو ما يوجد  
بجهاث سيسليا وايتاليا وجزيرتي كريد والروم ويوجد منه في باقي  
بلاد الدنيا القديمة اثنا عشر نوعا واما الدنيا الجديدة وهي الامريكا  
فلم يوجد بها الا في زمن قريب واصله من نحل اوروبا نقل اليها  
فكثر بها الا انه توحش وصار يهوى الجبال والغابات مع ان  
ذلك لا يحصل باوروبا وقد شوهد هذا التوحش كذلك في  
غير النحل من سائر الحيوانات التي نقلت الى تلك الجهة

وقد كان العسل معلوماً عند سكان الامريكا من قبل  
ورود الاوروبابوين عليهم الا انه كان اقل حلاوة وازكى نكهة  
واصفى لونا واكثر ميوعة ولما دخل الاسبانيول هذه الارض وجدوا  
فيها نحلاً صغير الجنة قد اتخذ له بيوتاً في فجوات الاشجار ومغارات  
يصنع فيها اقراصه ويجمع بها عسله وكله ليس له حمة يلسع بها  
سواء في ذلك ذكره واثناه ويعسوبه ولذلك يمضي اليه الناس

ويجمعون غسله من محاله بالسهولة وبغير احتراس وبيوته مسدسة  
كغيره من النخل ومغطاة بطبقات من الشمع وبعضها للذكور  
وبعضها للاناث وحول هذه البيوت بيوت اخر اكبر منها قد اعدت  
للعسل شكلها غير شكل بيوت الذرية وديان هذا النوع من النخل  
تصنع ثوبها بالطريقة التي قدمنا ذكرها ومن المخمّل ان يتحد  
ذكوره وانائه في العمل ولا مانع من ذلك حيث كانت كلها  
مجردة عن الذبان والحمة كما ذكر فهذا السبب يكون الجميع  
بعضها مع بعض في الثمام وراحة واطئنان ويختمل ان يكون  
العمل على حسب راي الامهات

وتكثر هذا النوع سهل لا صعوبة به اذ يكفي فيه ان يؤخذ  
قرص او بعض قرص من اقراصه ويوضع في فجوة من شجرة او  
نحوها فعند ذلك يتولد منه عدد كثير ويتزايد على طول الايام  
وفي كثير من جهات الامريكا امكن للاهالي تأليف هذا النخل  
وجعله في حفاق من فحار وصناديق من خشب وقطع مجوفة من  
جذوع الاشجار فنجح الآ ان ما تقل منه الى بلاد اوروبا لم ينجح في  
تلك البلاد لانه في فصل الشتاء يمتنع عن الزاد

وهناك نوع منه لا يعيش الا سنة واحدة ثم يموت ولا يبقى  
منه الا بعض اناث تخمد في فصل الشتاء فاذا انتهى البرد  
وانتشرت حرارة الشمس في طبقات الجو تنبت من سكرتها وقامت  
من رقدتها ودارت في الغيطان والفلوات لترى محلاً لائماً لبناء

بيتها فاذا عثرت به ذهبت من عروق النبات ومواد الارض الطينية بما تحتاج اليه وبنث لها بيتاً وفرشته مجزير تخرجه من جوفها ثم تسكنه ووضعت فيه من الشمع والعسل ما يلزم لحاجتها وغذائها وغذاء اولادها ثم تجعل فيه ثقباً صغيراً لتبيض فيها فتجعل في كل ثقب بيضة ومن هذا البيض يخرج دود صغير يتغذى بما ادخرته الام في تلك الثقوب من المادة الغذائية ولا تزال الام تستكثر من تلك المادة وتزيد فيها وتجلب لاولادها ما يلزم للغذاء منها ثم تسح كل واحدة من هذا الدود لنفسها ثوباً كالذي من ذكره نقيم به المدة المعينة ونخرج منه لمساعدة امها في جمع المونة وتوسيع القرص باستخدام بيوت جديدة فيه وتوزيع ما يلزم من العسل في البيوت للمونة واكثر بيض الامر يخرج منه اناث وقليل منه يخرج منه الذكور ويوجد في قليل من الاناث خاصية البيض والنسل كالام ولكن لا بقدر الامر بل على قدر النصف منها وانما تخرج في الاخر ثمانية مثلها تشابهها في الكيفية والجسم والخاصة وفي اخر السنة يخرجون ولا يقن مع الام بل يتفرقون في سائر الجهات ومنهن يحصل البيض والنسل كما حصل من الام الاولى ثم تموت تلك الام الاولى والذكور وباقي الاناث

قال ناقل الحديث فلما انتهى يعقوب من الكلام الى هذا الموضع قال الشيخ كانه يريد ان يرجع يعقوب ويستخرج ما عنده كما هو عادة المسامرة اذ كراني كنت مرة افاوض بعض الانصار

الحديث في امر النحل واحواله ومجسرتنا رجل من الحبشة يسمع فلما  
انتهينا الى ذكر انواعه وحكيما ما اطلعنا عليه قال ذلك الحبشي  
ان انواع النحل في بلادنا كثيرة والظن بها نوع في حجم الذباب  
يسكن في الارض المنبسطة من الصحاري يصنع له بيتا اجوف على  
هيئة الكرة املس كالنحاس قد فتح منه ثقبه صغيرة يدخل منها  
ويخرج فانما خرج خرج متتابعاً واحدة اثر واحدة كانه حب نظم  
في خيط الا ان الواحدة السابقة والواحدة الاخيرة اكبر حجماً من  
البقية فكانها الامر والاب فاذا حصل في الهواء تلوى ذلك الخيط  
حتى يرسم اشكالا كثيرة فتارة يكون دائرة وتارة يكون قنطرة وتارة  
يكون عموداً متصباً الى غير ذلك وعسل هذا النوع ليس له  
شمع بل يكون في ذلك البيت كالماء في الصهر يج ولونه اصفر احمر  
وطعمه كطعم مربى الزنجبيل كانه لم يتخذ الا حكاية له وذلك  
النوع قليل يخرج الناس في طلبه فرما غابوا في البحث عنه اياماً ولم  
يعثروا به ويعثرون به عند شروق الشمس حال خروجه  
فيقصدون الجهة التي راوه فيها فيفتشون حتى يعثروا بالثقب  
فيخفرون منه فتارة يجدون العسل قدر نصف البيت او زاد  
وربما وجدوه قريب الامتلاء وذلك البيت قدر قعدة انسان  
صغير ثم اطرق الشيخ اطراق من اخذ الفكر بجواسه برهة واتبه  
فراى يعقوب كالمعجب من حاله فقال كانك عجبت من اطراقي  
فاشار ان تم فقال ذكرت اية من كتاب الله تعالى فقلت في

نفسى لا والله لا يقدر كتاب الله قدره الا من اطال البحث  
 بالنظر في اسرار مخلوقاته وعلمت ان الله جل ذكره قد ارشد عباده  
 الى ذلك حيث جعل الكلام في بعض الحشرات قرآناً يتلى  
 ويدرس فقال يعقوب اسالك تلاوة تلك الآية وتفسيرها وكان  
 الشيخ مضطجماً فاستوى جالساً واخذ هيئة وقاره وتلا ( واوحى  
 ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما  
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج  
 من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ) واتبع التلاوة  
 بالتفسير فقال ( اوحى ربك الى النحل ) اعطاها الهداية لاعمالها  
 المختلفة والهمها اسبابها واخار لفضة الرب من بين اسمائه و اضافها  
 لكل من يخاطب لان هداية النحل من وظائف التربية و اشارة الى  
 ان تربية الانسان بجهة تربيته لسائر الاشياء لا تفاوت في ذلك  
 فلا فضل لشي على شي فيه ومنه يقول الله تعالى ( ان الله لا يستحي  
 ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ) فنسبة العالم لما اشتمل عليه  
 من صغير وكبير في فعله كنسبة البعوضة فالبعوضة وحدها عالم  
 يعلم المتأمل فيه عظمة قدرة صانعه سبحانه ما اعظم شأنه ثم فسر  
 تعالى الموحى بقوله ( ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما  
 يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ) السبل  
 الطرق الواحد سبيل والذل جمع ذلول وهو السهل اللين الذي  
 لا صعوبة فيه و اراد بالطرق مسالكها التي تسرح فيها بابدانها

والوسائل المرتبة التي تحصل بها على مقاصدها ثم يبيّن على منافع  
العسل فقال ( يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء  
للناس ) وكانه ارشد باختلاف الالوان الى اختلاف الخواص فعلى  
من اراد استعماله في الادوية ان يدقق النظر في طلب خاصة كل  
منها وقوله ( فيه شفاء للناس ) معناه نوع من الشفا فعلى العقلا  
ان ينتبهوا لذلك ايضاً





## المسامرة الثامنة والأربعون

## الحشرات

وكل خلق الله سبحانه عجائب وغرائب شاهدة بعظمته وكمال قدرته وحكمته ونحن لو نظرنا الى اصغر ما خلق الله كالنمل مثلاً كيف احكم خلقه واتقن تركيبه ويسر له رزقه وشق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر وكيف دب على الارض وسعى في مناكبها لطلب رزقه وكيف ينقل الحبة الى حجره ويجمع في حره لبرده وفي ورده لصدرة او فكرنا في مجاري اكله في علوه وسفله وما في الجوف من شراسيف بطنه وما في الراس من عينه واذنه لتفضينا من خلقه عجيباً وللقينا من وصفه نصباً فتعالى الذي اقامها على قوائمها وبنائها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا اله الا هو ولا معبود سواه

وتراها انا خافت على حبيها ان يعفن اخرجنه من حجرها الى

ظهر الارض ليحف وتفلق الحبة نصفين خوفاً من ان تنبت فتفسد  
 الا الكزبرة فانها تفلقها اربعا لانها من دون سائر الحبوب ينبت  
 نصفها وليس كل ارباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من الههبا  
 ذلك وكذلك تراها تشم رائحة الشي من بعيد وان كان لو وضعته  
 على انفك لم تجد له رائحة واذا عجزت عن حمل شي استعانت  
 برفقتها الى باب حجرها ويقال انها في اول الامر تكون كاللدودة ثم  
 تصير الى حالتها المعهودة فاذا كبرت وكمل سنهنا وقرب حينها  
 ظهر لها جناحان تطير بهما وفي ذلك يقول الشاعر  
 اذا ما اراد الله اهلاك نملة

سمت بجناحيها الى الطيران

قال ناقل الحديث ثم احس الشيخ فتور يعقوب فانن له في  
 الانصراف الى موضع نومه وقام هو ايضا فادى ما كتب عليه  
 واخذ مضجعه وبرهان وصاحبه لم يحضرا بعد فغلب النوم حتى  
 اصبح وصاحت الطيور فاتبه يسبح مولاه ويشكره على ما اولاه وقضى  
 وظائف صباحه راجيا من الله تمام نجاحه وقبيل طلوع الشمس  
 اتبه برهان فاجز صلاته وحضر عند والده وعليه اثار النوم  
 فانبسط اليه واجلسه عن يمينه واخذ يساله عما راي في تلك  
 الدعوة ومتى حضر وطفق برهان يخبره عن ذلك شيئا فشيئا الى  
 ان حضر الانكليزي فدار الكلام بينهما يصف كل ما شاهد حال  
 غيبته عن صاحبه فكان من كلام الشيخ ان قال ان مما قصه ذلك

الرجل ما وقع للمالك الذين هاجروا من مصر مع الجيش الفرنسي وان ذلك الوقت كان وقت فتن وانتقام ومحن فقد هدمت قصور وخلت من سكانها قري ودور وكم تشتت فيها عيال واسرت رجال ونهبت اموال وكم هتكت اعراض واستبيحت نساء وازهقت نفوس واريقت دماء وكم الفت في ذلك مولفات لو تليت على حجر لتصدع او على جبل لتزعزع وانخلت اذ ذاك عروة الحكومة واخل نظامها وتضعضت احكامها وضعت حكامها فكان المخلق كالبحر وقت هيجانه او القدر عند غليانه الاقوياء منهم كالاسود والذئاب والضعفاء كالفريسة بين الانياب ولم يكن للعقل حينئذ سطوة بل غلب على عقلم جميعاً حظ النفس والشهوة فكان ينال الناس في اليوم الواحد ما لو وزع على سنين لكفاها فنعوذ بالله من تلك الاوقات واهوالها ومن احزاب السوء واعمالها ولم يكن هذا التعدي قاصراً على المالك بل عم الامة جميعاً خصوصاً جماعة الامراء والفضلاء وارباب الوظائف والعلماء فمنهم من قتل ومحي اثره ومنهم من فر بنفسه وانتطع خبره فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم وصار البلد خراباً وتفرق من بقي به احزاباً كل يدبر ولاية يتوهمها ويلتق لها قوانين لا يفهمها ولم يتفقوا على طريق يسلكونها ولا قوانين يتمسكون بها فبقيت الحكومة من ذلك في اضطراب ومدت حوادث الزمن عليها يد الانقلاب فداخلني من استماع ذلك بمقتضى الطبيعة ما يعلم الله من الغم وعجبت من هذا

النوع. بينما هو على اتم استقامة الاحوال التآسية المدنية اذ طراً عليه ظاريء فخرج الى احوال لا يصدر مثلها عن الحيوانات العجم غير ان يعقوب ازال ذلك عني باحاديث تعجب الالباء في وصف بعض الحيوانات الصغار بما اعطيته من محاسن الاشكال ولطف الاهتداء الى غرائب الاعمال وسبب ذكره لذلك انه قدم لنا على السفرة اناء فيه محار فلم تقبله نفسي فسألته عن كيفية صيده وتسويته فشرح لي حاله واطرب وزادني من اخبار بعض الحشرات ما اعجب واطرب

فقال الانكليزي من لم يتامل في خلق الحشرات او يخترها ويتهاون بامرها فقد جهل واخطاء فان الله سبحانه خلقها لحكم واسرار علمها وان جهلها الانسان او فهمها وقد خصها الله سبحانه كما خص غيرها بامور كلفها بها وسخرها لها في هذا العالم لا قدرة لغيره على ادائها ولو وقف الانسان على ما فيها من النفع له ولغيره لما احقرها وانزلها من دركات الدنات والخسة الى حيث انزلها بل لو عرف حقيقة ما اعدت له وما تؤدي عمله لكان ذلك داعياً له ان يتنازل عن العظمة والسلطان ويخضع لرداء الكبرياء والعدوان ويخضع لمولاه جل شاناه ويشكره على ما جعل له من الخير والنفع وما دبر له من عجائب الصنع اذ لم تكن هذه الحشرات مجرد اجسام متمتع بالحياة الى المات عارية عن الادراك بالكلية كما يزعمه كثير من الناس بل لها ادراك كغيرها ومن وفق للنظر في احوالها

وتقلباتها في اعمالها وجد لها ادراكاً غريباً واحساساً بما يضرها وينفعها  
عجيباً وافعالاً محكمة واعمالاً مرتبة منتظمة تدل على انها جارية  
على قانون متظوم ساعبة في مقصود معلوم وامر مخنوم وذلك من  
غير ان تقتدي بمثال تحاكيه وتعمل على شكله الا ترى الى الفراش  
المعروف بابي دقيق حين يخرج من قبره في فصل الخريف في  
هيئته التي تراه بها فانه حينئذ لم يكن سبق له رؤية غيره من  
جنسه حتى يقتدي به ومع ذلك تراه مقبلاً على عمله جاداً في  
تحصيل امله فاذا جاء فصل الربيع رأته يجتهد في الاستعداد  
لتناسل غيره منه ويموت من غير ان يرى ذريته البتة

وهكذا الدودة التي تعيش في قرار الماء زمناً طويلاً من مدة  
حياتها مغمورة بما فيه من الطين والحماة متغذية بما فيه من الاغذية  
حتى اذا جاء الوقت المعين لخروجها من الما الى الهوا التقت ثوبها  
الرث الدودي ولبست الثوب المزخرف الطيري وبقيت كذلك  
مدة حياتها فمن ذا الذي علمها ذلك ولقنها وهي في الما والطين  
كيفية معاشها في الفضا والهوا ولم تكن فارقت قرار الما من قبل  
ولا تعود لسكنائها من بعد ولا شبه بين حالتها الاولى والثانية ولا  
مناسبة بينهما

فكل ذلك دليل على ان الله قد خص كلاً من هذه  
الحيوانات من الادراك بما تحتاج اليه في معيشتها وتتهدي به في  
امورها لتسعى فيما اعدت له بتدبير خالقها

قال الشيخ نعم هو كما تقول وهذه هي الهداية العامة المذكورة في قوله تعالى (الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى) اي اعطى كل شي من الاشيا صورته وشكله اللائق بما ينيط به من الخواص والمنافع ثم هداه الى طريق الارتقا والانتفاع بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقاءه وكهاله فلكل نوع منها حظ من الادراك يتففع به في امور معيشته قل اوكثر كما لا ينكر

قال الانكليزي قد اعنى علماء الطبيعة بمعرفة ما في الحيوانات من هذا فوجده مختلف بحسب عظم المخ واتساع الزاوية الوجهية فلو نسبت جباه الديدان والحشرات ورؤسها الى بقية جسمها بالقياس على جهة غيرها من الحيوانات لوجد رأسها كبيراً ومجموعها العصبي عظيماً وذلك بالنسبة لباقي جسمها وبالقياس على غيرها من الحيوان كما ذكر حتى ان بعضهم امتحن ذلك فوجد في النملة والعنكبوت ادراكا اضعاف ادراك غيرها من الحشرات وقد فعل بعض المشاهير من الطبيعيين تجارب كثيرة على عدة عديدة من الحيوانات القارية من الانسان الى الاوز فظهر له ان زاوية الجهة اذا كانت حادة جداً كانت قوة الادراك قليلة جداً وبالعكس اذا كانت منفردة جداً كانت قوة الادراك حادة جداً فزيادة الادراك بقدر زيادة الانفراج وعكسه بعكسه كما مر وعلم ان الاوز اقل ادراكا من غيره لصغر راسه بالنسبة لجسمه

وكثيراً ما يوجد عند بعض الحشرات من قوة الادراك ما يعينها على طرق الحيلة والتدبير والمكر والمخداع وامثلة ذلك اكثر من ان تحصر فمن ذلك ان بعض الحيوانات لا يأكل الا ما كان حياً ويعاف ما وجده ميتاً فتره في قرار الماء دائماً يسعى في تحصيل ما يتصيده ليتغذى منه فتمت عثر بدودة ما يطلبه اسرع اليها واقض عليها وفي الدود ما يعرف ذلك ويجنال له فترى الدودة اذارات عدوها هذا تركت الحركة بالكلية وتماوتت وصارت كأنها لا حياة بها فتدخل هذه الحيلة على غريمها فيتركها ويمضي لسبيله فتمت راته ابتعد عنها نهضت بغاية ما يمكنها من السرعة وهربت وجدت في الفرار وذهبت

ومن الحشرات ما تعودت الاطفال على صيده واللعب به فاذا حل في ايديهم تماوتت وتهاوت حتى يرونها كالميت فيطرحونه لقرارته فاذا طرحوه فر ونجا بنفسه

وبعض الحشرات يتحيل على التخلص من التعرض له والرغبة فيه بان يكسو جسده بثوب رث قدر كربه الرائحة فيبع المنظر تجبه العين وتعافه النفس فيبقى فيه فاذا امن على نفسه خرج منه في هيئة لطيفة وصورة بهجة

وبعضها تخرج من بطونها مادة قدرة فتجعلها على ظهورها لتعافها الطيور التي تحب اصطيادها واكلها فاذا كبرت التفت تلك المادة فتعلق بما يليها من فروع الأشجار فتسيل على الاوراق وتكسبها

لونا احمر يضرب الى الخضرة

وبعضها اذا وقعت في يد احد اخرجت من بطنها بخاراً  
ابيض ذا رائحة كريهة مع دوي مفرع وصوت مزع فيرميها من  
يده فتنجو بنفسها وكذلك اذا احست بطالب يقتفي اثرها فعلت  
ذلك مراراً لتهرب به طالبها وترده عنها وهي مولية على عقبها  
مسرعة في هربها ومن الغريب ان بقية بنات جنسها متى سمعت  
صوتها فعلت مثلها كأنها تساعدها على عدوها فيجتمع من اصواتها  
المرتفعة ودويها الهائل ما يرد طالبها عنها فتنجومنه

ومن هذا القبيل الحشرات التي تأكل العنكبوت فانها تتحائل  
حتى تجعل لها ثوباً من بيت العنكبوت وتعفر جسدها بالتراب حتى  
لا تميز منه فياتي العنكبوت فتاخذه وهو لا يشعر بها ثم تخلع ذلك  
الثوب وتعود الى حالتها الاولى

ومن ذلك النحل فانه اذا دخل بيته بعض اعدائه انقض  
عليه بعض العمال في الحال فيلدغه ويقتله ثم يرمي به خارج  
الخلية ويعود لعمله وما كان فيه بغاية السرعة والنشاط فان كان  
العدو كبير الجثة شديد البطش والقوة بحيث لا تقدر عليه التي  
تصادفه من النحل تراها في الحال اسرعت بائذان بقية اخواتها من  
العملة بامرهم واستدعائهم لقتاله فتثال عليها من كل جانب وتنسل  
اليها من كل حذب وتحذر عليه الخدار السيل فتتهجم عليه وقاتله  
مع غاية الاقدام والبسالة والجرأة فتلدغه كل واحدة منها بحميتها



وتفرغ فيه سبها حتى يموت لوفته وحيثئذ تشتغل بمواراته لعجزها عن حمله ونقله الى خارج الخلية بسبب كبر جثته فينخط رأي الجميع على دفنه خوفاً من افساد الخلية بنتنه فتنتقل الى الخلاء وتاني ببعض مواد صمغية تستخرجها من النبات بما اودعها الله سبحانه من الآلات فتكسوه به تلك الجثة الميتة وتغطيها بطبقة سميكة ثقيا من التعفن وتلفها تلفاً محكمًا كما كان قدماء المصريين يفعلون بموتاهم ثم تودعها في حفرة مخصوصة تواربها بها في داخل الخلية فتتخلص بذلك من اذى هذا العدو في الحيوة وضررتنه بعد المات

فهل مع ذلك يقال انها مجردة عن الادراك والتمييز حاشى لله ما هكذا خلقت بل جميع اعمالها مرتبطة بحسن التقدير والاحكام والتدبير لوقاية نفسها وبقاء جنسها ألا ترى ما يفعله النحل بالحيوان المعروف بسرنجوس وهو نوع من الحمار يعيش في البر ويتغذى من نبات الارض واغصان الأشجار فانه يدخل الخلية في بعض الاحيان فاذا احس بالنحل ورأى هجومها عليه انكش في محارته ونترس بها وتحصن فيها فلا يأتي اليها التوصل الى لدغه والفتك به ولكنهما مع ذلك لا تدعه حتى تجعل جلد له حده ومحاره قبره فتاتي بمواد صمغية تسد بها عليه محارته فلا يمكده خرقها ولا النفوذ منها فيموت بمكانه أفلا ثبت للنحل بهذه الحيلة شي من الادراك والتفكير يقال ان هذا الفعل منه اتفائي من غير تبصر ولا تدبر ومن لطائف بعض الحيوانات انها عند سيرها تكون منتظمة

انتظام العسكر سواء كانت سائرة للانتقال او لتحصيل الثوت او للقتال فتراها سائرة سير فرق منتظمة وجيوش مرتبة يقودها رئيس يسوسها وقد جعلت امامها وخلفها افراداً تكشف لها طريقها وتخبرها بما يعرض من حادث تحذره او عدو يخاف ضرره

ولا شي اعجب من عمل النخل في اتخاذ يعسوب لها اذا اقتضى الحال ذلك فقد علمت ان جميع الاعمال على الاناث التي هي العمال وانه لاشي على الذكور سوى تلقيح الام التي هي البعسوب وانه لا يبيض ولا يميل للسفاد من الاناث الموجودة سواها واما بقية الاناث في داخل الخلية فكالمترهبة لا تميل الى ما تميل اليه نفس الانثى من سائر الحيوانات وانما تؤدي ما يلزم من الاعمال وتجهد في تربية ما وكلت به من العيال ولا تعطى الاناث من حال تربيته الاغذاء قليلاً جداً على قدر الاحتياج الضروري كما كانت تربيتهن في الاصل بهذه الصفة ولذلك يضم جسمهن ولا يعظم حجمهن ولا يكون فيهن ما في البعسوب من خاصية الميل الى النسل

فاذا فقد البعسوب من الخلية اخترن من بينهن واحدة يؤهلنها لان تكون يعسوباً وذلك لعلمهن بما فيهن من اصل الجنسية والقبول لتلك الصفة والخاصية فيخترن بيتاً من البيوت يكبرنه ويزدن في سعته حتى يصير في قدر الواحد من البيوت المعتادة خمس مرات ثم يذهبن الى تلك التي اخترنها فياتين بها من

محلها فينزلها بذلك البيت الفسيح فتستقرت به احاطت بها جميع  
 العملة يخدمها ويغذيها باحسن ما يستخرجنه من الشهد العظيم  
 الذكي الرائحة فتكبر سريعاً لحسن المواد الغذائية التي يغدقن بها  
 عليها وتحرك عليها شهوة النسل والميل الى الفحل والرغبة في  
 اكثار جنس النحل وتكون اليعسوب لم والاميرة عليهم فتامروتنه  
 وتتصرف على حسب ما تقتضيه قوانين السلطنة ويعظم عندها  
 حب اولادها الى حد لا غاية فوقه

وشققة الحشرات على اولادها تفوق شققة غيرها من الحيوان  
 بتراتب كثيرة كما يعلمه من عني بتتبع امورها ومقارنتها بغيرها فان  
 كان في غيرها من الحيوان ما يتف شعربطنه ليحمله فرساً لاولاده  
 كالارنب مثلاً ففي الحشرات ما يفعل اعظم من ذلك بدرجات  
 كثيرة فانها تتف جميع شعرها لاولادها ولا تكتفي بجزء منه دون  
 جزء ومتى باضت الحشرة نمت بيضها في عدة اثواب تصنعها لوقايتها  
 من العوارض الجوية ثم تموت هي

وهناك حشرات اذا باضت ضمت بيضها الى بعضه وغطته  
 بنفسها واحاطته من كل جهة بجسمها فتكون له كالكبس والوقاية  
 ثم تموت فاذا خرجت الاولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما  
 فعله بها اصلها وهكذا

وهناك نوع قد تؤديه شققتة على اولاده الى استعمال طريقة  
 هي خبيره من قتل نفسه من اجل اولاده وذلك انه يعدو على

غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به لحاجة ذريته  
ثم ان اغذية الحشرات كغيرها من الحيوانات مختلفة باختلاف  
انواعها فمنها ما لا يتغذى الا من حيوان حي ولا يذوق شيئاً من  
الحيوانات بعد خروج روحها ومفارقة الحياة وذلك دأبه وطبعه  
من حين ظهوره في حيز الوجود وابتدائه في تناول الغذاء وحيث  
كان في وقت صغره وزمن طفولته لا يتأني له صيد ما يتغذى  
به من الحيوانات الحية ولا يمكن للام صيدها وقيدها بقربه لياخذ  
منها ما اراد في اوقات الحاجة فلذا تحال الام لذلك بان تعدو  
على بعض الحيوان فتلقي على جسمه جزءاً من السم بخدره ويعدمه  
الحركة مع بقاء اصل الحياة فيه وتأتي به على هذه الحالة لتجده ذريتها  
عند خروجها من البيض حاضراً عندها فتتمشقه وتتغذى منه متى  
ارادت وهذه حالة بعض الذباب فانه يحفر ليضه حجراً في الارض  
يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت او دودة يعج فيها جزءاً من السم  
فتسكن حركتها ثم يحملها الى حجره ويلقيها عند البيض ويسد عليه  
فاذا خرجت الاولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها ومن  
اضطرار الذباب الى الغذاء من لحم الحي كان عنده جراً على  
الحيوان فتراه بعد الى الدودة الكبيرة مثلاً فيخرق جلدها بخرطومه  
ثم يضع بيضه على كثرته ووفرته موضع الخرطوم وتحت الجلد فاذا  
حصل الفقس وخرجت الاولاد تغذت مما في ذلك الخرق من  
اللحم والدهن ولا تقرب الاعصاب المهمة للحياة الا عند تهيئتها للخروج

فترى حب هذا الذباب للاكل من الحبي حمله على حسن التدبير في الاخذ من الجثة مع استبقاء حياة الحيوان وعدم ازهاق روحه بالكلبة ومتى حان الاوان لخروج تلك الذرية من تحت الجلد الى الفضاء ولم يبق لها حاجة الى استبقاء حياته فعند ذلك تأتي على ما فيه من الاعضاء المهمة وتبادر الخروج من خروق تثقبها في جلده ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكمًا تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها بحيث لا ترى العين منها شيئاً

ومن الحشرات التي لها مزيد اعتناء بحفظ نسلها الجمل (وهو ابو جعران) الذي كان يعظمه المتقدمون من المصريين وان كان لا يجنفل الاً بواحدة من بيضه في المرة الواحدة وذلك انه اذا باض عمد الى روث دابة من الحيوانات الاكلة للنبات كالبقير والغنم مثلاً فياخذ منه قطعة يضع بيضته في وسطها ثم يلفها ويدرجها الى جهات مختلفة حتى يجعلها كروية الشكل فاذا صارت بهذه الصورة لف عليها رجليه الخلفيتين لان فيهما انحناء وقابلية لهذا العمل ثم يدرجها ويجرها معه الى اي جهة ذهب فتكتسب صلابة وملاسة بكثرة دحرجتها ومرورها على التراب والرمل الناعم ولا يفارقها العروض مانع يمنع وقاطع يقطع بل يغالب بها الموانع والقواطع ولا يزال يجرها حتى يبلغ بها حيث شاء فاذا صادف ارضاً ذات ميل وانحدار كسفن جبل او نحوه يذل ما عنده

من الجهد ودفنهما بالقوة والبأس فان تفلتت منه بحث عنها بغاية  
 الجهد والاعناء والهمة وهو في حال من الكآبة والحزن تلوح عليه  
 اثارها وتظهر سماتها ولا يزال كذلك حتى يجدها ويعود بها لما كان  
 عليه فان اضلها او اخذها انسان ويؤس هو من العثور بها باض  
 غيرها وصنع بها كما صنع بالاولى فاذا تمت صلاحيتها واستدارتها  
 حفر لها حفرة في الارض ودفن فيها وتركمها

وبما له من هذا العمل والجهد ومزيد الكد والجهد احترامه  
 المصربون وجعلوه علماً ودليلاً على الخصب والبركة وحسن  
 السعي والحركة

فقال الشيخ هذا كله من جملة ما انعم الله به على انواع  
 مخلوقاته حيث خلق في كل نوع ادراكاً لتحصيل ضرورياته  
 والتحيل على قضاء حاجاته والسعي في وقاية نفسه وبقاء نوعه  
 وجنسه فرأفته سبحانه عمت سائر المخلوقات لا يستبد بها قوي على  
 ضعيف ولا يفرق فيها بين وضع وشريف بل الكل مغمور في  
 بحار احساناته ورحمته العامة لجميع مخلوقاته ومن تأمل احوال  
 عالم الحشرات والهوام وجد فيها من الادراك والالهام ما لا تحيط  
 به العبارة ولا تصل اليه الاوهام فمنها نوع لا يتعيش الاً باكل  
 الصيد فيستعمل طرقاً تكاد تجعله لا خيالاتها انواعاً فمنها ما يقبض  
 خلف ما يصطاده فلا يتركه الاً اذا ظفر به ويقبض عليه ومنها ما  
 ينصب شباكاً ليقع عدوه في خباياها وقد صادفت ذات يوم حشرة

صغيرة تعرف عندكم باسد النمل رايتها تحفر حجراً في الرمل ووجدت على البعد من حجرها نملاً كثيراً ميتاً يظنه من لم يتامله انه اثر دم فاحسبت ان اعرف كيف تفعل فقعدت اتقعد احوالها فوجدتها تحفر حجراً كامل الانتظام في رمل جاف ناعم جداً ورايتها تحفره براسها فتضع راسها في المركز ثم ترفعه فيرتفع التراب معه فتلقيه بعيداً عن الحجر بسرعة وقوة ثم ترفع غيره براسها وتذفه كما فعلت اولاً وهكذا على التوالي والاتصال بحيث ترى التراب يمر من السحاب على التعاقب والتتابع حتى اكملت تعميق حفرتها كما ارادت وجعلت في سطوحها وحوافها من الميل والانحدار ماشآت ثم رايتها دخلت فيه واخفت به بحيث لم يكن ظاهراً منها سوى رجلها فعميت لذلك ومكنت اترقب ماذا تفعل واذا بنملة قد اتت حتى اذا وصلت الى حافته انزلت رجلاها فوقعت من اعلاه الى اسفله فاطبقت عليها تلك الحشرة برجليها وقتلتها ولم تتمكن النملة من الصعود ثانياً لما في حوافي الحجر المذكور من الميل والانحدار مع تهائل الرمل

ثم وجدت ايضاً دودة كبيرة اتت على حافة الحجر فوقعت فيه كذلك فاجتهدت في التخلص منه بكل قوتها فلم تمكنها تلك الحشرة من غرضها بل صارت تلقي التراب عليها لتعوقها وتعطل حركتها حتى كلت وضعفت قوتها لكثرة صعودها وسقوطها وما كابدته من التعب والعناء فوقعت في مركز الحجر ساقطة لاحراك بها

فتلقفها الحشرة وهي لها بالمرصاد فتقتلها ومصت دمها ثم انها رات  
ان بقاء الجثث في الحجر يضربها ويخشى عليه من ننتها وخبث  
رائحتها وان رويتها منفرة لما عساه ياتي من الحيوانات الطارئة  
داعية للاحتراس والتحرز من الوقوع في مثل ما وقعت فيه هذه  
الاجساد من العطب فرايتها بعد ان امتصت دمها الذي هو  
غذاءها وبغيتها وتم غرضها منها ولم يبق لها ارب في بقائها  
احتملتها على راسها بنشاط وسرعة وطرحت بها بعيداً عن الحجر  
بجاس وقوة ثم عادت الى حالتها الاولى ترتقب ما ينساق اليها من  
رزق جديد يقع في حبالها فقضيت العجب من حالها

وقد سمعت ان في بلاد امريكا حيوانا كبيراً يعرف بأكل  
النمل منه ما يبلغ طوله نحو سبع اقدام فاكثر وارتفاعه نحو قدمين  
وله فيما سمعت انواع كثيرة كلها متشابهة في ان لها فها صغيراً ولساناً  
طويلاً يسد مسد الاسنان قد يبلغ طوله نحو ثلاثين اصبعاً وهو  
حريص على اكل النمل واهلاكه وليس في اعداء جنس النمل ما  
هو اشد فتكاً به واكثر اساءة اليه ونكاية فيه من هذا الحيوان وما  
علم من احواله ان مقدار منقاره يكون غالباً ربع طول جثته وطره  
غليظ ولسانه في الغالب ذو طاقين وهو وسيلته الوحيدة التي  
يتعيش بها ومن طبعه ان يجعل مأواه في الغياض والجبال الخالية  
ويخفي احياناً تحت الاوراق اليابسة وذلك لعجزه عن المحاماة عن  
نفسه بالقوة والحيلة حين يدهم ما هو اشد منه بأساً ولذا تراه لا



يكاد يخرج من مأواه إلا إذا دعاه داعي الجوع والسغب وإذا خرج  
فكد ساعة واحدة كفته المؤنة أياماً إذا كان النمل في تلك البلاد  
كبيراً وفي غاية الكثرة وحين يشعر بسحل فيه نمل يبادر إليه ويبدأ  
سائكاً حتى إذا استقر في موضع ملائم مد له انه على الأرض وتلقف  
به ما شاء وكلما نال به قدراً بلعه وأعاد ما بدأ به حتى يتجم فيرجع  
إلى مأواه ثم أنه وإن يكن يجذر أعداءه من زوات الأربع ويتقي  
بأسها غير أنه إذا اقتهم ووقع في المععة دافع عن نفسه بخفاليه بأشد  
عداوة فيغالب الكلب بل النمر الأمريكاني

وهذا الحيوان وإن لم يكن من الحشرات الصغيرة إلا أنا  
ذكرناه بالذي قبله والشئ بالشئ يذكر

فقال الانكليزي من حذاق الحشرات في الاصطياد والتجمل  
على بلوغ الغرض حيوان العنكبوت فمنه ما يد حباله في الغيطان  
بين اغصان الأشجار ومنه ما يدها في زوايا الأماكن وأركانها  
فيجعلها كالشبكة المصنوعة والحبال المنصوبة وفيها طبقة سفلية عليها  
شي من التراب والغبار بحيث تشبه بالأرض فإذا وقعت فيها  
الغنيمة من زبابة أو نحوها ما يغتذي به ويصطاده علق بها  
حبال متصلة بتلك الطبقة من شبكة فوقها تلتف عليها فترتبك  
في أمرها ولا تجد للخلاص سبيلاً ولا للنجاة حيلة وحيوان العنكبوت  
مخبيء في مخدع له هناك أشبه بالفنطرة المعقودة أسطواني الشكل  
له بابان أحدهما أفقي والآخر عمودي على فوهته من أسفل الشبكة

ولكل منها غرض مخصوص قد اعد له فمن الاول ينقض العنكبوت على قنبيته فيقتربها والثاني يلقي منه ما فضل عنه بعد مص دمه حتى لا يستقر في بيته شي مما يقع فيه فيقذره ويكون منبهاً لما عساه يقع فيه فيجذره فلو تأمل الانسان في اسفل المكان الذي فيه العنكبوت لوجد به كثيراً من الذباب مقتولا ولا قاتل له غيره ومن العنكبوت نوع مضر لدغه شديد الاثر لكثرة سمه وهذا لا يوجد الا في البلاد الحارة واما الذي في البلاد الباردة فلا يضر لقلته سمه ولا يخفى ان السم كما يكون في نوع الثعبان والافعى كذلك يكون في هوام الارض وحشراتهما ولا يختلف الحال الا بالقله والكثرة فان لكل منها اسناتاً في فوهات سمية فاذا عضت احداً قذفت السم من تلك الفوهات في الحراج التي تحدثها باسنانها

ومن هذا القبيل الشبث اعني الحيوان الذي يقال له عند العوام ابو شبت فان سمه يكون في الجهات الحارة قاتلاً حتى انهم راوا تاثيره في الحيوان الكبير في الزمن اليسير ومنها ما يعدو على الدجاج والحمام فيقتلها ويشرب من دمها ولذا بسمي في بعض الجهات بمخناق الفراخ

ومن يتأمل الحشرات يجد عند بعضها شدة شهوة وشرة فيكون شديد العدوان والغضب كثير الحب للغنيمه والتكسب ولذا تراها لاجل الحصول على شهواتها واغراضها دائماً النزاع والمقاتلة

مع بعضها فيكون بينها حروب تسيل فيها الدماء ويزهق كثير من  
الارواح وقد تغير على غيرها وتخال على سلب ما صادفته عنده  
من دخائره وموجوداته



### المسامرة التاسعة والاربعون

#### النمل

ومن هذا القبيل النمل فانه يكون بينه حروب كبيرة  
ومناوشات كثيرة غير ان طوائف النمل عند تجهزها للحرب  
ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الانسان لحروبه من العدد  
والالات والادوات بل تسهر للقتال بانفسها غير مستحبة شيئاً  
من ذلك معها وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الانسان عنه من

## المكر والحيل والمكائد

ومن النمل نوع يأسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويتخلص بواسطته من الكد والكدر والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعاً من النمل يحمل نوعاً آخر في فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه الى ان ظهر الان ان بعض النمل قد يحتاج الى خدم فيحجم على غيره فيسترقه ويستخدمه في اعماله وسائر احوال مسكنه ومعيشته ومن يراقب النمل ايام الصيف في بعض الجهات يجده يغير على بعضه فيأخذ الغالب منه اولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالباً الا في الليل فيخرج ويصطف صفوفاً متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها فلا يرجع الا وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن وياخذ ما احب من الذرية ولا ياخذ الكبار لعله انها لا تنقاد لحكمه فانا رجع بالذرية حملها بافواهه وانا خاب احد من الحزب الغالب ولم يجد اسيراً يسترقه اخذ معه من رم القتلى ما قدر عليه ليتنفع به في غذائه وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها الى مساكنها تسير خلف بعضهاً واحدة خلف واحدة حتى انها قد تشغل مسافة من الارض يبلغ طولها نحو اربعين متراً وبهذه الصورة تعود الى مساكنها بالظفر والغنيمه في حال مسرة وطرب فانا وصلت الى منازلها بهذه الاسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربها مع الصدق والامانة والحذق وتحفظها من كل

ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ أشدها  
وهذا النوع الحارب المحب للسلب والنهب لا يجب ان  
يشتغل بشي سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته الى  
ما عنده من الارقاء والخدم حتى انه اذا احتاج للانتقال من مسكن  
الى اخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بافواهها كما  
تفعل الهرة باولادها

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن احوال الحيوانات  
بعض النمل الذي تخيل فيه التراس والامارة والرفاهية والاحتياج  
الى خدمة الغير له فاخذ جماعة منه واخردها عن خدمها ثم احضر  
لها شيئاً ما يتغذى النمل به ويتمالك في طلبه فوجدها غير طالبة  
لما احضر لها حتى مات اكثرها جوعاً ثم انه نقل اليها واحداً من  
النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها  
فاكلت ما احضره اليها ما كان بمرأى منها ولم تكن تحركت اليه  
من قبل فاكلت وشبعت وانتعشت فعلم من ذلك ان هذا  
الصف الغالب الحارب بعد ان يبلغ في حروبه ما شاء من  
النصر والظفر والغنمة ويحصل على ما اراده من العز والثروة  
والسعة قد يستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فياخذ في  
الكسل والبطالة ويكل جميع اموره الى ما عنده من الخدم والحشم  
والاتباع ولا يشتغل هو بشي من الاشياء فيخل عند نظام الجمهور  
وتدور عليه صفوف الممدود بالويل والثبور وتفسد الامور

وظباع هذا النوع مختلفة باختلاف الاماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها فترى الارقاء في بلاد السويس هي التي تبني المساكن وتقف على ابوابها بمنزلة البوابين فتفتحها في اول النهار وتغلقها عند دخول المساء او ظهور علامات تدل على المطر وقد شوهد في بلاد الانكليزان الاتباع والارقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط وفي بلاد السويس عليها بعض الخدم الخارجية ايضاً بسبب كثرتها

وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق فان هناك نوعا صغير الجثة لا يقبل الضيم والنذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاوم اعداءه بشدة باس وشهامة فتحشاه وتمابه وتجنبه حتى انها لا تقرب عائلته ولا تسلط على اولاده بل يرى بعضه ساكناً بالقرب من مساكن جيوش النمل المحاربة مع الامن والاطمئنان من غير ان تناله بمكروه تعلمها بشجاعته وباسه

ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربه على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك ان يتخلل النبات فيجد في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها نديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منها مادة سكرية يجيها النمل حباً شديداً فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبق الحلوب بالنسبة للانسان فيصعد اليها فوق اطراف النبات والاعشاب ويركب كل واحد واحده وفي بعض الاوقات قد يجتمع النمل وعبده ويتحزب الكل ويسطو

عليها دفعة واحدة وياخذها ويحبسها في منزله كما يحبس الادي  
البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدا بالطعام  
والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة

واغرب شي ان هذا النمل يعمل حول بيته جسوراً منيعة  
اولها عند بيته واخرها بعيد عنه محنط بالخشائش التي ترعى فيها  
الحشرات المذكورة وقد يتخذها اماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص  
منها فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما اعد لها من المرعى وتعطي لبنها  
للنمل متى اراد وفي بعض الاحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات  
عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر  
منشاؤها عداوة طبيعية او حوادث وقتية وقد وصف بعض  
المشاهير من علماء هذا الفن وقعة رآها بين قبيلتين من جنس  
واحد من النمل فقال كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد  
وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم اعلم السبب الذي  
اوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وانما رايت عدد المحاربين  
من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاً عظيماً جداً بحيث يتعذر على  
دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر قال ثم  
رايت الفريقين اخذا في الزحف على بعضهما الى ان التقى الجمعان  
في قدر قدمين من الارض في منتصف المسافة التي بينهما ورايت  
خلف كل جيش عدداً معداً للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من  
اتخاذ المدد في الحروب ثم حميت الحرب والتهمت الصفوف والتقت

الالوف بالالوف والتفت الساق بالساق وصار كل من الفئتين يتتبع بما صادفه امامه في الارض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس به ويتحصن خلفه من عدوه وكان البعض يقاتل ويضرب والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الاسرى وكان يرى على الاسارى علامة الحزن والكتابة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو قال ورايت محل المعركة قد تغطى برم القتلى ودماء الجرحى وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للاخر فتماسكا بالارجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه الى جهته ثم اتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه الى ناحيته حتى صار الاولان مع ما انضم اليهما من المدد اشبه شي بمجمل طويل يشد احد طرفيه الى جهة والطرف الاخر الى الجهة المقابلة لها حتى يغلب احد الطرفين فياخذ غريمه الى جهته او يحصل الانفصال من غير ان يغلب احد ثم يعود القتال فاذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب الى الصباح ثم يعود كل الى ما كان عليه وهكذا وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست اقدام طولاً وقدمين عرضاً

فقال الشيخ كنت فيما سلف اجتمعت برجل من اهل السودان فاخبرني ان ببلادهم نوعاً من النمل ابيض اللون يتجمع جموعاً كثيرة ويكون منه طائفة كالجند والعسكر وطائفة كالعمال



وللذكران منه اجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والانات  
اجنحة وتخص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالمحفظ والضبط  
والحراسة واما الاناث فعليها البيض واكثر النسل وتربية الذرية  
والقيام بامرها وهي كثيرة البيض الى الغاية حتى كانها كيس مملوء  
بيضاً فان حجبها مملوءة بالبيض قدر حجبها فارغة الف مرة ومتى  
ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة وقد  
يبلغ مقدار ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين الف بيضة كذا  
قال والعهد عليه

فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من  
النمل في جهة رأس الرجاء الصالح وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه  
مما يقضي منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الارض قد يبلغ نحو  
عشرين قدماً وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الحجم واسع  
اسفله ضيق اعلاه فمن رأى هذه المساكن على بعد ظنها كفرّاً من  
الكفور او قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث  
لا يمكن كسرها لشدة صلابتها ودخلها فسيح جداً حتى ان الواحد  
منها يسع اثني عشر رجلاً يقيمون به وقد يتخذها صيادو الوحوش  
ماوى يكمون فيه لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه  
المدافع الكبيرة ممتدة في الارض الى عمق ثلاث اقدام او اربع  
فلو نظرنا الى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من  
المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه

يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة فلو كان ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة لكان ارتفاعه قدر اكبر هرم من اهرام الجيزة اربع مرات او اكثر

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها سرايب يتوصل منها الى اكل ما فيها من الخشب ولا يزال حتى ياتي عليه ولا يبقى منه الا ظاهره فتسقط البيوت باقل حركة فيفقد الانسان بيته في زمن يسير وكثيراً ما تسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فانلقها وخربها عن اخرها واضطر اهلها الى الرحيل عنها الى جهات بعيدة لتسكنها وتبني بها بلادها ومدائنها

والعجب ان ذلك النمل لا يحتاج في مثل هذا العمل الى مدد طويلة بل يقضيه في مدة قصيرة وايام يسيرة وقد حكى بعضهم انه راه اكل سلماً كبيراً من الخشب في مدة خمسة عشر يوماً وياكل مثل الكرسي والمائدة والدولاب في اقل من ذلك فيرى الانسان هذه الاشياء واقفة بهيئتها على اصل صورتها ومتى مسها بيده صارت تراباً مذروراً وراحت هباءً منثوراً

قال الشيخ رايت في بعض الكتب ما هو اخف من ذلك فكنت استغربه فالان زال استغرابي حكى الجاحظ في كتاب الحيوان انه في بعض الايام كثر النمل في بعض ضروب بغداد حتى ارتحل عنه اصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وان بعض الناس

قال لاحد الفارين من النمل كيف اخرجكم النمل من دياركم  
 فاخذ بيده وقال هلم معي لاريك ذلك وحمل من طريقه راس  
 حمل مشويًا فلما انتهيا الى بعض تلك الدور اكلا ذلك الراس  
 وامر صاحب المنزل خادمه باحضار طست كبير منصف بالماء  
 ووضع عظام الراس الى جانبه فسعى النمل اليها وصار ياخذ  
 النمل وينفضه في الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطست  
 فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال فسبحان من  
 خلق الاشياء وعرف الانسان قدره بتلك الايات فهذا جيش من  
 النمل اخرج قومًا من ديارهم وابطل حيلهم وقواهم واعجزهم ليفهموا  
 قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفًا ويقفوا بانفسهم على مواضع  
 الاعتبار وتكون مساعيم فيما له خلقوا وكل ميسر لما خلق لاجله  
 على حد الادب مع الخلق وخالقه

قال الانكليزي ومن النمل نوع اذا بنى له بيتًا لا يجعله  
 هرميا بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل يصنعه من  
 مواد صمغية واجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل في داخله  
 ضروبًا وطرقًا كثيرة تفوق الوصف ويكون في العادة بين فروع  
 الشجر

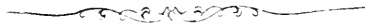
وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديرية  
 الجنوبية من فرنسا فخرّب بسببها بيوت كثيرة وسقطت اسقف  
 وحيطان متعددة ولم يبق في (روشفور) شي من الكتب ولا

الحشَب حتى انهم الان يضعون اوراقهم في علب من التوتيا خوفاً  
عليها

ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضرراً بيناً وربما حفر له  
فيها بيوتاً ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج  
منها خمسة عشر او عشرين قدماً فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها  
وربما احرقت اماكن هذا النمل بالنار او ضربت بالمدافع لتخريبها  
ان امكن وقد يستعمل اللغم في تخريبها اذا كانت عميقة ممتدة في  
جوف الارض فقد تبلغ في العمق الى عشرين قدماً في داخل  
الارض

والكلام في هذا المبحث طويل والذي ذكرته لحضرتكم اقل  
من القليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل وعما قريب ان شاء الله  
يتوسع الاستاذ في اللغة الافرنجية فيطلع بنفسه ان اراد على ما  
شرحه اهل التاريخ الطبيعي في هذا المعنى وغيره بالاطناب  
والتفصيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه  
المحشرات بل هي منبثة في جميع افراد الخليقة فقد منح الصانع كل  
جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وامور غريبة تجدها  
في الاشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة وتراها في حيوان البحر كما  
تبصرها في حيوان البر ومن اعجب العجب احوال حيوانات دقيقة  
جداً امكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا  
ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند ارباب الفن

الحيوانات النعوية والفطرية وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية وفي الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الامم السالفة ولم يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض اسرارها الا منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لانها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت اعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت رؤيتها وامكن للانسان ان يمتحن احوالها ويعلم كفياتها فان اردت اطلعتك على ذلك عند وصولنا الى باريز واريك النظارة واحضر لك بعض عصارات نباتية وغيرها لتخبرها بنفسك وترى ما فيها من الحيوانات بحسك



المسامرة الخمسون  
الانسان والحيوان

قال الشيخ من نظر في افعال الحشرات وغيرها وقارن  
بينها وبين افعال البشر وجد بينها قراباً ومناسبة ظاهرة تحمله على  
ان يقول ان احدها اخذ من الاخر فانيهما كان المعلم وايها المتعلم  
الظاهر ان المتعلم هو الانسان وان المعلم هو الحيوان وان اكثر  
معلومات الانسان ومعارفه التي بنى عليها اعماله ماخوذة من  
الحيوانات صغيرة وكبيرها وهي اساتذته في ذلك فمن اطلع على  
احوال الحيوانات وما لها من لطائف الصناعات علم ان من حكمة  
صانع العالم سبحانه ان ضرب له المثل بها ليحذو حذوها ويسلك  
في تحصيل اغراضه الطرق التي سلكتها وقد حكى لنا الكتاب  
العزير ان احد ابني آدم قتل اخاه فلم يعرف ما يصنع بجيفته فبعث

الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يوارى سواة اخيه وان  
ابن ادم قال يا ويلتنا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري  
سواة اخي فاصبح من النادمين

قال الانكليزي لا شك في ان الانسان تعلم من الحيوانات  
واخذ عنها واقتدى بها فانها خلقت قبله وتقدمت عليه فانه لما  
كان محتاجاً اليها من جهة المساعدة والمؤنة اقتضت الحكمة الربانية  
ان تسبقه في الخلق فلما جاء بعدها تعلم منها واخذ عنها فلم تكن  
اعمال الانسان كلها من مبدعاته وانما نقلها من الحيوانات والحشرات  
وقلدها فيها بل ربما لم يتقن التقليد في بعضه وظهر عجزه فيه مع ما  
له من العقل واللفظة

ولقد عاش مدة في الادواح والاجام كما تعيش الضبي والمها  
وعاش قبل ذلك مدة في الحجرتحت الارض كما تعيش الجرزان  
ومضى على ذلك مدد طويلة واجيال كثيرة ثم قلد بعدها النمل في  
اتخاذ البيوت المنتظمة التقسيم والشكل

وتعلم عمل الجسور والفتاخر من الحيوان المسمى بالكستور وهو  
المعروف بالجندبادستر الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر او  
بركة ويتخذ له من اغصان الاشجار جسراً متيناً على هيئة سد يمنع  
عنه قوة السيل بان ينضد تلك الاغصان بعضها فوق بعض  
ويلصق احدها بالآخر الصاقاً محكمًا لا يتقصه شي مما يحتاج اليه  
من هندسة البناء

واخذ الانسان علم الملاحة عن الدب الذي يوجد في المنطقة  
الشمالية من الكرة الارضية فانه يسافر في البحر على قطع من الثلج  
الى حيث يقصد

وتعلم الصيد والتقص من الثعلب الجري البري ومن بعض  
الحشرات الصيادة

واخذ الاسلحة كالسيف والحرية والمنشار والبلطة وغيرها من  
تامله في السمك

واخذ صنعة الشباك من مشاهدته لبيت العنكبوت وقد

تقدم

واخذ صناعة الدروع والكماشات والملاقيط عن السرطان

واخذ صناعة احتماق الشوق عن الاستريديا وام الخلول

واخذ علم الفلاحة عن الخنزير فانه اول حيوان شق الارض

بخرطومه فاخذ عنه الانسان صنعة حراثة الارض ولعله كان

ايضاً اول معلم للانسان في كيفية استخراج المعادن كالذهب

والفضة من الارض

واخذ عن الهرة التوقي من الروائح الكريهة التي تتصاعد من

الفحم

واخذ الطب عن الكلب حيث رآه يتعاطى اسهلات عند

انحراف مزاجه

واخذ تجنيد الجنود وتعبئة الجيوش من النحل



وتعلم تدوين الدواوين والمشاورة في المصالح من التلق واخذ  
 التياتر والالعاب المضحكة عن القرّة  
 واخذ الحذر عن الغراب واتخاذ الجلساء للملوك عن الكلاب  
 وكذا لثم اليد التي يخاف سطوتها  
 واخذ الجور والمجرأة عن السبع والكبر والخيلاء عن النمر  
 والجهورية عن النمل

قال الشيخ الانسان وان قلد الحيوان في بعض احواله  
 وبرع في كثير من اعماله لكنه الى الان لم يصل الى تقليد النمل  
 في طريقة ادخاره لاقواته الازمان الطويلة من غير ان تلتف والظاهر  
 انه اخذ عن الحشرات فن الرسم والنقش وهندسة العمارات  
 وصب المعادن في قوالب مختلفة وعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم  
 الرياضية ولان لم يصل الى استيفاء جميع ما عندها من الاسرار  
 ومن نظر في امور الانسان والحيوان وما لها من الاحوال والاعمال  
 علم ان الانسان لولا مجته واستكشافه لاحوال جيرانه في الارض  
 من الحشرات وغيرها لكان في العجز عن تحصيل منفعه واستكمال  
 اسباب راحته اقل من كثير من الحيوان

## المسامرة المحادية والخمسون

## دعوة انس

قال ناقل الحديث وحين انتهى بها الكلام الى هذه الغاية استأذن الانكليزي صاحبه الشيخ في المضي الى الوفاء بوعد بينه وبين رجل من اصحابه كان لقيه بالامس واخبره انه يريد لقاءه والتحدث معه ساعة فشكره الشيخ على ذلك وظهرت في وجهه بشائر المسرة وخلا حينئذ ببرهان ابنه فقال الان تخبرني بجميع ما شاهدت في الدعوة التي كنت بها امس

فقال له برهان حاصل القضية ان حضرة الخواجا عرفني ونحن في الطريق انه زاهب الى بعض اصحابه ليذهب معه الى دعوة عند احد الاغنياء وان هذه الدعوة يحضرها اعيان البلد ووجوهها واننا ننتهز منها فرصاً جيدة اقلها معرفة اخلاق هذه الامة

الى ان قال وليت الوالد كان معنا ليرى ما نراه فربما لا تفي العبارة  
اذا نحن عدنا واخبرناه الى ان انتهت بنا الطريق الى باب عال  
داخله ميدان واسع فاستقبلنا الخدم من الباب بغاية التعظيم والتكريم  
ومشوا معنا الى ان دخلوا مكاناً فسيحاً غاصاً بالناس فيه نحو  
خمسائة نسمة من رجل وامرأة فاستقبلتنا صاحبة المنزل بغاية  
الترحب والتاهل ثم اتى بعلمها وفعل مثل فعلها واخذ بيدي الى  
المجلس وذكر لم اني من مصر فحيوني جميعاً ورحبوا بي وقدموا لنا  
كراسي جلسنا عليها وكان بالمجلس رجل تلوح عليه هيئة الهيبة  
والوقار يتكلم بالعربية كأنه ليس من ابناء هذه الديار فسألني عن  
بلدي وعشيرتي ومحمدني وعن امور كثيرة منها ما اعلم ومنها ما لا  
اعلم حتى سألني عن الاهرام وبعض المعابد والهياكل التي بمجبة  
الصعيد فكنت تارة اجابوه مع الخجل وتارة استر بالصمت فيبادر  
صاحبنا برد الجواب وربما يزيد فوق ما يريد فما اتقذني من  
ورطة هذا المجلس ومضايق تلك الاسئلة غيره ولولاه لكنت  
اضطرت الى الاعتراف بالجهل لما علمه الاغراب من امور بلادنا  
وما بها من الاثار العظيمة والمباني القديمة فقد وجدت ذلك  
الرجل يذكر اموراً ليست في علمنا ولا اطلعنا على نص لها في  
كتبنا وكان باقي اهل المجلس يتكلمون في انواع مختلفة من امور  
الدنيا فمنهم من يتكلم في اسباب كساد التجارة ورواجها ومنهم من  
يتكلم في محصول الارض وخراجها ومنهم من يتكلم في النواذر

والغرائب ويصف ما في الارض من العجائب الى ان جاء وقت  
القيام الى الطعام وقام صاحب المنزل وزوجنه ودعوا الناس الى  
القيام فكان اول من دعي رجل نحيف البنية متوسط القامة يظهر  
على وجهه اثر الحزن ورايت اهل المجلس جميعاً يعظمونه زيادة عن  
تعظيم بعضهم بعضاً فسالت صاحبنا عنه فقال لي انه من امرأ  
ايتاليا المعتبرين

ولما ان وصلنا الى السفرة وقعد كل منا في المحل المخصص له  
كان ذلك التلياني في الصدر وعن يمينه صاحبة المنزل وعن  
يساره صاحب الخواجا وانا بجانبه فمكثنا على السفرة نحو ساعتين  
قضاها القوم في مدام وندام وشراب وطعام ثم قاموا وكان اول  
من قام صاحبة المنزل فمد التلياني يده اليها ليقوم معها ثم قام  
الناس جميعاً فمن كان له منهم حرم اخذ بيدها ومن لم يكن حرم  
قام منفرداً ثم مضوا جميعاً الى حجرة اعدت لشرب القهوة والدخان  
وتلك من عادات القوم حجرة للطعام وحجرة لجلوس الفرجة والنزهة  
والابتهاج بما يحضرونه من الالعب وحجرة للاشربة وانواع  
المكيفات كل موضع لشي لايفعل فيه غير ما له اعد فاخذ الناس  
مجالسهم وكنت الى جانب صاحبي واستقروا قدر ما شربوا القهوة  
ثم اضطرب المجلس فرايت رجالاً اخذوا بايدي نساءهم وجعلوا  
يترددون في محادثة وموانسة ورايت رجالاً كالمعتوه يقوم مرة ويثعد  
مرة ويمضي لهولاء ويعطف على آخرين ويتحدث بكلمات يضحك

بها من يكون عندهم فكانه سخرية المجلس يظهر ذلك في اقواله وافعاله ورايت رجلاً متبذراً ناحية عليه سكينه ووقار في ملابس مخالفة للملابس الناس يظهر عليه انه قسيس وقد احاط به جملة من النساء وهو يتحدثهن فيلتفت لهذه ثم يلتفت لهذه وكأنه يقرأ لمن درساً او ييدي لمن نصائح فكنت باهتاً متعجباً فالتفت اليّ صاحبي وقال مالك شاخص البصر كأنك متعجب من هذه الاحوال فقلت اي وحياء مولاي وكيف لا تعجب وهذه امور ما رايت مثلها في بلادنا فان حال الناس هنالك اذا كانوا في مثل هذه الدعوة انهم يحضرون اما فرادى وهو الغالب واما انسان وصاحبه فاذا دخلوا دار الوليمة جلسوا او سلم عليهم صاحب الدار وحياتهم ودعاهم بالقهوة فشربوا يفعل ذلك مع كل من حضر فاذا شرب احدهم القهوة اخرج كيس الدخان من جيبه وملاء شبكه وصرخ يطلب جمرة من رجل اعد لتفريق النار على شبكات الحاضرين وان كان لاحد منهم خادم ملاء الشبك وناوله لسيدته ثم لا يزالون على تلك الحال حتى اذا نصبت الموائد قاموا اليها فتناولوا جماعة جماعة ان كانوا كثيراً الكون المدعويين يحضرون في اوقات مختلفة يعينها صاحب الوليمة في الاوراق التي يرسلها لهم قبل يوم الدعوة فاذا فرغوا من الطعام عادوا الى مجالسهم التي كانوا بها قبل الطعام ودارت عليهم القهوة الغينة بعد الغينة واخذوا شبكاتهم على الرسم السابق وتحدث كل مع من يليه لا يجاوزه الى غيره لانهم اما

متعارفون فغالبًا تكون بينهم عداوة للاشتراك في صناعة او التزام على وظيفة او غير متعارفين فم لذلك السبب لا يتردد بعضهم لبعض لتعميم المسرة والتشارك في البهجة وتواصف محاسن ما هم فيه والمكاملة في امور يطلبون صلاحها ويدفعون فسادها الى غير ذلك من الاحوال التي تقتضيها صحة الحياة في بيت واحد عند اجتماعهم سيما في اوقات السرور والبهجة والصفاء وانما يكون حديثهم اما في الانتقاد على صاحب الدعوة بتسفيه رايه ورميه بالاسراف ان كان بذل جهده وتبحيح امره ورميه بالنذالة ان اقتصد او قصر واما في اغتياب بعض الحاضرين واما في الشكاية والتألم من بعض المشاركين له في صناعته في اشياء صدرت بينهم قديمًا او حديثًا ذلك دأبهم وحالم حتى اذا انتقضت ثلاث ساعات من الليل حضر ما اعده صاحب المنزل من الامور التي جرت عادتهم ان يتلوهوا بها ويحلبوا بها انس الحاضرين وسرورهم فاذا كان كذلك تعبر الوضع فبعض يسمع وبعض يتحدث في امور مختلطة واحوال غير منتظمة وربما وجدت الواحد منفردًا يتحدث مع نفسه او يستمع او ينظر الى الناس ميمناً وشمالاً كأنه يتاملهم ويتعخن مقدار عقولهم حتى اذا مضى خمس ساعات من الليل اخذ الناس في الانصراف الى منازلهم شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى الا من حضر من الغوغاء وهؤلاء ربما اصبحوا ولم ينصرفوا حتى يبيض النهار فهذا وضع بلادنا قديمًا وان كان الان اخذ في التغيير لان حب المودة والتالف والاقبال

على لطائف الاحوال قد دب فيهم وربما درج بين بعضهم وارجو ان يبلغ كاله وارى هولاء الناس على هذه الاحوال وذلك سبب فكرتي في حال اهل بلدي حتى انا الان متاسف غير منبسط المخاطر لبعد ما بين الحالتين فهذا ما رايت من ذهولي وشخص بصري واني لارجو ان تعرفني بما استخبرك عنه وسالته عن الرجل الذي احاطت به النساء فاخبرني انه من طائفة القسيسين الذين وظيفتهم ان تجتمع اليهم النساء ويفضين اليهم باسرارهن فيأخذون في تعريفهن حقوق الرجال على النساء وحقوق النساء على الرجال وازالة ضغائن النفوس والحث على استبقاء الصحة والوصلة وطرح التماسد بالتفاوت في الخلق بالجمال وعدمه والامن باتخاذ الزينة واستعارة الحسن وتفهيمهن ان المقصود الاصلي من اجتماع نوع الذكور والاناث انما هو النسل واستبقاء النوع وتقوية العائلات بالتكثير والتعاون في اصلاح الوطن خصوصاً وعموماً الى غير ذلك من الاشياء التي ياخذ بها الانتظام بين الرجال والنساء حد كاله وغاية تمامه وسالته عن الرجل الذي يقوم ويقعد ويجيء ويذهب فاخبرني انه احد الشعراء الذين حللم ان يحضروا في الولائم ومواضع الانس لالقاء نوادر مضحكة حفظوها وانشاد اشعار في امور نخيلوها تتراح اليها النفوس وتميل اليها الطباع في اوقات الفراغ ولهذا الرجل خصوصية بصاحبة هذا المنزل فانه كان صنع لها في ايام صغرها وفقرها تاريخاً يخبرها فيه باستقبال السعادة والغنا

حسباً تعطيه قيافة وجهها والفراسة فيه بعلم ادعى ان مهرة الشعراء  
مخصوصون بمعرفته فوافق ذلك ان استقبلتها الايام بالسعادة والغناء  
حتى آل امرها وامر زوجها الى ما ترى بعد ان كانا فقيرين ربما  
لا يدركان القوت وعهدي بموضع هذا المنزل مطرحاً للقمات  
وملقى للكناسات وكأن صاحبه كان ورثه عن اهله وكان لفقره  
خرباً لا يقدر على عارته فازال هو وزوجه بدأبان في طلب الغنى  
بمباشرة اسبابه والتردد في الطرق الموصلة له حتى اقام هذا المنزل  
من اساسه بعد سنين غير كثيرة فهل في بلادكم من يكون له مثل  
هذا فقلت له ربما ساعد النجى والحظ من امسى فقيراً فاصبح غنياً  
وغدا خاملاً فراح نبيهاً على حسب القسمة وتحول الاقدار ثم اخذ  
الرجل في مدح الثراء واطراء الغنى وذكر فوائد المال والثناء على  
المشغلين بتحصيله والاجتهاد فيه وتمنيته وحسن القيام عليه والتعهد  
له حتى غض من اهل الورع والزهد وازرى احوالهم وعاب افعالهم  
وقال ان كلامهم بين الناس هو الذي اوجب لهم الخمول والكسل  
وخشونة العيش وضيق الحال بما ارتكز في قلوبهم من الجهل  
وعداوة العلم وطلبه من حيث وجدوه والنظر في اصلاح الحال  
والمال حتى ادعى ان الارزاق غير مجهولة وبين ذلك ومثل له  
فقال

تعلم ان مطالب الناس منحصرة في اربعة اشياء الاغذية  
والادوية والاكسية والاخية لحفظ الحياة واتحرز من ذهابها



والمحصول على لذاتها والتصون عن آلامها المدة المعينة للحيوان حسب اقتضاه حكمة صانعه فلذلك توزع الناس الاشغال ما بين زارع وصانع وطبيب الى غير ذلك فلو فرضنا ان صناع النعال مثلاً عرفوا المقدار الذي يحتاجه اهل بلدهم في السنة ولا بد لهم من اخذه واتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها فهم لا شك جازمون بانه يطلب منهم في وقت الضرورة اليه وياخذون مقابل اعمالهم فيه فهم واثقون بمحصول رزقهم في وقته امر قضت به طبيعة الخلقة وفرغ منه القدر على هذا جميع الاعمال غاية الامر ان جهالة الرزق انما هي في زرع يزرع او حيوان يربي فتصبيه آفة سماوية قبل بدو صلاحه واثبات اخذ ثمرته هذا هو موضع جهالة الرزق على ان الناس ربما يخجلوا عن اسباب تلك الافات فتحرزوا عن كثير منها ونحن مامورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الاشياء واسبابها وعللها وموجبات صلاحها وفسادها واجراء السنن الالهية في مجاريها يرشد الى ذلك ما رايته في بعض كتب الاحاديث المنقولة عن نبيكم (صلم) وهي في ايديكم تقرأونها وتحاولون العمل بمقتضاها وهو انه مريوماً على اصحاب نخل المدينة وهم بلقحونها فقال لو تركتم ذلك فتركوه فشاقت سنتها فقال لهم ما بال نخلكم في هذه السنة فقالوا الم ثقل لو تركتم التلقيح فقال لم اقل لكم اتركوه وانتم ادرى بامور دنياكم فنبههم على وجوب مباشرة الاسباب والمحافظة على العادات الكونية وارشدهم الى ذلك باقوى المرشحات من ظهور

الخسارة واستحكام الفساد المؤدي لسرعة زوال حياتهم ومن كلامه الشريف الذي رايته في تلك الكتب ايضاً ان الله يحب من عبده انا عمل عملاً ان يتقنه فتحيرت من كلامه وتغير خاطري من قدحه في اهل الورع والزهد وضمرت في نفسي ان اسالك عن هذا لتبين لي الحق فيه

فقال الشيخ يا بني انا مخبرك بذلك ومرشدك لحقيقته بعد ان تتم الحديث في نعت ليلتكم وما انتهت عليه

قال برهان ثم قمنا الى موضع اللعب فرايت مكاناً يأسر الطرف ويملا الصدر ويشغل اللب باحكام وضع وزينة وزخرفة قد اتخذ على شكل مواضع التياتر علفت فيه الواح مرسوم فيها غرائب اشكال على غاية ما يكون من الاتقان والملاحظة وقد وضع في وسط المكان على دائرة عظيمة من الرخام الثقيل اللماع مرتفعة على كرسي اصناف الازهار والرياحين في اوان مختلفة الاشكال والالوان انبثت عليها اشعة الانوار فكان هناك منظر عجيب يكاد يخطف الابصار ثم اظهرت الالاعيب وكانت عبارة عن صور نساء على اتم ما يكون من الحسن والجمال فاخذت تلك الصور نتقلب من شكل الى اخر فتقارب وتباعد وتنام واحدة وتقوم واحدة كأنها نوات ارواح لا يشك من رايها ولم يعرف حقيقتها في انها نساء قواصد لتلك المحركات كل ذلك والناس اليها ناظرون ولحاسن ما يصدر عنها متواصفون غير اني كنت في

حرج عظيم وضيق صدر لعلمي ان ذلك لا يحل نظري اليه وتاملي  
 فيه فذهب سروري واسفت على حضوري غير اني انكره بقلي  
 وارجو مغفرة ربي وقلت هذه اشياء احكيها وان كنت لا اشتبهها  
 وما كان يخجلني هناك ان النساء كانت تحيط بي وتحقق النظر  
 اليّ وتكرر الاسئلة عني وعن حالي ويتواصفن وجهي ويظهرن  
 استحسانه وربما تمت الواحدة ان تكون عينها مثل عيني والاخرى  
 تقول ليت هذا الانف انفي فلم يكن لي فرج الا ان قننا وتحولنا  
 الى موضع معد للفواكه والاشربة وانواع الثقل فتناول كل حسب  
 رغبته ثم انصرفنا ومضى كل الى سبيله واستنجز برهان اباه العدة  
 بان يخبره بما ساله وهم الشيخ ان يحدثه به واذا يعقوب يخبره بحضور  
 الانكليزي وصاحبه الذي كان ذهب اليه فقال يا بني في غير هذا  
 الوقت نتكلم ان شاء الله تعالى ثم دخل الانكليزي وصاحبه فتلاقوا  
 تلاقى الاحبة وتهادوا تحية المحبة واخذ كل في السؤال عن حال  
 صاحبه وتناولوا اطراف الحديث فكان من كلام الضيف ان قال  
 بمناسبة الحال ان مصرًا في سالف الازمان كانت منبع العلوم ومنها  
 انتشر التمدن في البلاد تشهد بذلك الاثار القائمة على مرور الدهر  
 كالاهرام والبرابي ومصارف المياه ومواقع المدن والقرى فقال  
 الشيخ هل سبق لحضرتكم سياحة في مصر فقال نعم واقت بها ثلاث  
 سنين وثمانية اشهر اتردد ما بين القاهرة واقصى الصعيد وقد ضمنت  
 جميع ما رايت كتابًا اطالعك عليه عند التقائنا بباريز في دار اقامتي

ولي هنا شغل متى انتضى لختكم ثم توادعوا ومضى الشيخ وابنه  
وصاحبها ويعقوب الى محطة البواخر متوجهين الى باريز

المسامرة الثانية والخمسون

ذم الدنيا ومدحها

(قال ناقل الحديث) فلما استقر الشيخ وابنه وصاحبها  
الانكليزي في عربة سكة الحديد وسارت بهم العربة اخذ الشيخ  
يحدث ابنه فيما كان قد ساله عنه بعد ان اعلم صاحبه بما جرى  
بينها من وصف تلك الليلة وحديث برهان مع صاحبه الذي بالغ  
في مدح الدنيا والثناء على طلابها وازراء من سواهم والطعن فيه

فقال علم يا بني ارشدك الله ان الانسان وسائر الحيوان بحسب خلقته مضطرا الى تحصيل ما يحفظ به حياته وقد مكنته الله من ذلك وراه طريق السعادة وطريق الشقاوة فقال عز ذكره ( انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً ) فدواعي الطلب قائمة في طبيعته ونفس خلقته من وقت خروجه للدنيا . سئل حكيم متى عقلت فقال حين ولدت فقيل له وكيف ذلك فقال جعت فطلبت واطعمت فسكت فهل ترى ان احداً يذم هذا الطلب غير ان الانسان لا يقتصر على موضع الحاجة بل يجب الاستكثار من الخير وجمع المال والتبسط في الانفاق وحيثئذٍ اما ان يسلك الطريقة المثلى التي نهجها الله واوضحها ونصب علاماتها على السنة رسله واهل الحكمة من خلقه واما ان يسلك غيرها وهذا موضع الحمد والذم والثواب والعقاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدنيا فعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر فانظر كيف نهى عن سبها واثني عليها وعلى طالبيها الذين صرفوها في وجوهها غير ان ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة الى عمليين عمل بالابدان وعمل بالارواح وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكىاء والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضاً فكان اشتغال اذكىاء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم فلم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية ان يخدمهم بقية الناس

بإبدانهم ويرجحهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم فظهر الفقر والغناء وبموجب ذلك نجح بينهم التحاسد والتباغض والتعادي نقل عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال عداوة الضعفاء للاقوياء والسفهاء للحكماء والاشرار للاخيار طبع لا يستطيع تغييره فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجنود ووضع القلاع والحصون وتصوير آلات القتل لتحايز الناس بعضهم عن بعض ونزوم كل عمله الذي استعد له ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا الى شي من ذلك كما قيل

لو انصف الناس استراح القاضي

وبات كل عن اخيه راضي

ولكن الحال على خلاف ذلك ولم تكن القوانين الحكيمة كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً لكونها انما تتعلق بظواهر الاحوال ومشاهداتها فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمطالب الدنيا وعيوبها ويهدون فيها وينهون عن شدة التزام عليها لثبوت اهل القلة فيها على اشغالهم الشاقة التي لاجلها خلقوا ولا يبذلوا قواهم في معارضة المكثرين ومضاربتهم فتبين من ذلك ان اعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم لا يصح ان يفاضل بين اهل وظيفة وغيرها وإنما المفاضلة بين اشخاص كل وظيفة فمن قام بوظيفته حق القيام بها مقتصدًا دون افراط وتفريط كان محموداً ومن مال الى احد

الطرفين كان مذموماً بقدر ميله كما قيل  
فلا تغلُ في شي من الامر واقتصد

كلا طرفي كل الامور ذميم

وهو عقد لقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوساطها فلا  
مساغ اذا لاطلاق المدح والذم كيف وعقلاء الناس الذين لاسبيل  
الى تجهيلهم وتسفيه احلامهم قد توزعوا تلك الخدم قديماً وحدثاً  
لا تنكر طائفة على طائفة الا الخروج عن الحدود المتوسطة وها انا  
احكي لك حكايات تجلبوك الحال وتستاصل شافة الاشكال هذا  
نبي الله ايوب عليه السلام كان صاحب ثروة عظيمة من الزراعة  
وتربية الحيوانات فكان له خمسمائة حمار مصرفة في اشغاله

وامر داود وسليمان ابنيه عليهما السلام مشهور وكان ابنا  
الحالة يجي وعيسى على خلاف ذلك من الزهد في الدنيا والتقلل  
منها والاقصرار على موضع الحاجة هكذا كانت رسل الله كل  
سالك طريقة لا يعاب بها ولا يفضل احد منهم على احد من  
تلك الجهات حتى كانت النبوة الاخيرة الجامعة على صاحبها  
افضل الصلوة واتم التسليم فذبح المناهج كلها وبين الطرائق وحدودها  
ومشت علماء امته بعده في تلك الطرق فكان ابو بكر رضي الله  
عنه على سيرة يحيى وعيسى عليهما السلام وكان عمر رضي الله عنه  
على سيرة موسى عليه السلام من الشدة وايفاف الناس على الحدود  
وضبطهم عن الزيف والميل حتى انه لما قدم الشام لاستكشاف

الحال ولقيه اميرها معاوية رضي الله عنه في المراكب المزينة والاسلحة  
المحلاة والملابس المتخيزة والموكب المحافل كلمه في ذلك فاعنذر  
بكونه لازماً لسياسة ناجيته فسلم له وترك الاعتراض عليه وكان  
عثمان رضي الله عنه على سيرة ايوب عليه السلام من التبسط في  
الانفاق وتعميم اهله بالمبرة والتوسيع على الناس فبنى داراً وشيدها  
وجعل اخشابها من نفيس الخشب كالساج وغيره وفي ايامه بنى  
الزبير بن صفية عمه النبي صلى الله عليه وسلم عدة قصور بالمدينة  
والبصرة ومصر ومن الصحابة من صولحت احدى زوجاته وكن  
اربعاً على ربع ثمن تركته الذي تستختمه منها على اثنين وثمانين الف  
دينار الى غير ذلك من امور يطول استقصاؤها ودخل رجل من  
المتشفة على الحسن البصري رحمه الله وبين يديه خبيص فدعاه  
اليه فقال الرجل اخاف ان لا اشكر نعمة الله فيه فقال له الحسن  
كل فنعمة الله عليك في الماء البارد اكبر وقال رجل لابي حنيفة  
رحمه الله وقد رأى عليه حلة قيمتها خمسمائة مثلك يلبس هذه  
فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس الحلة قيمتها  
الف وما سمعت تعلم انه لا اعتراض على من تناول من طيبات  
الدنيا ما تناول اذا كان بوجه الحق واتل قوله تعالى قل من  
حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وإنما العيب  
والمشتمة على من اخذها بوجه الباطل كالتلصص والغضب  
والنهب والظلم وهؤلاء ان لم تهلكم الحدود المشروعة فلا بد ان



يهلكوا من نفس اعمالهم وسوء تدبيرهم وسوء بغيرهم كما يحكى ان جماعة  
 من اللصوص توافقوا مع يهودي على ان يربح لهم جميع ما كسبه  
 وتشارطوا في ذلك وتعاهدوا وتحالفوا على عدم الخيانة ومضوا على  
 ذلك برهة من الزمان الى ان شعرت بهم اهل الضبط والسياسة  
 فارسلوا عليهم الجواسيس يتلمسونهم فكانوا يعثرون بالواحد والاثنين  
 حتى قبضوا على كثير منهم وافنوه فلما رأى رأس اللصوص ذلك  
 غير منقطع والطلب دائم والبحث عنهم متتابع دبر في نفسه ان يعمل  
 الحيلة في قتل اليهودي واستخلاص جميع المال لنفسه وخطر هذا  
 الخاطر باليهودي ايضاً فلنفاذ القضاء ودوران دائرة السوء على  
 اهل البغي والخيانة تحيل اليهودي في اشعار الحاكم باسماء اللصوص  
 ومواضع اجتماعهم فكتب ذلك في صحيفة وعلقها في الصندوق  
 المرصد لالتقاء الناس فيه صحائف المظالم وعروض الاحوال وانفق  
 ان جاء كبير اللصوص لانفاذ ما دبره قبل اطلاع الحاكم على صحيفة  
 اليهودي وخلا باليهودي وتحدث معه حديث المودة والصفاء وعرفه  
 انه يريد الاستئثار بهذا المال وقسمته بينها وحرمان اللصوص منه  
 حتى امن اليهودي ودخل معه الحجرة التي فيها صناديق المال فلما  
 عرفها واستكشفتها تغفل اليهودي فضربه بمختر احسن منه بالموت فلما  
 علم اليهودي انه ميت لا محالة جرى الى الباب فقفله وكان باباً  
 محكمًا من حديد صفيق يمنع نفوذ الصوت ولا يمكن فتحه الا بحيلة  
 لا يعلمها غير اليهودي فاخذ اللص يتحيل على اليهودي ويتذلل له

ويلم جرحه ويشوقف جريان الدم ويكمده والدم يتشخب لبلاغة  
 الجرح ومصادفته الكرب حتى فاضت نفس اليهودي وقعد اللص  
 الى جانبه يتظر الحمام حتى جاءه بعد معاينة الاهوال ومقاساة  
 الالام ينظر الى المال بالندامة ويعود على نفسه باشد الملامة  
 وهيمات نغد القضاء وحل به اتبع اعماله وسوء تدبيره وخيم البلاء  
 ثم ان الشيخ لما فرغ من هذا الكلام اطرق اطرق المتفكر وزفر زفرة  
 المتذكر فقال له صاحبه مالك يا مولاي فوالله لقد نظرت الى  
 الدنيا بعين ربانية وتكلمت على احوالها بما هو مراد خالقها منها  
 فهل لك في ان تروح خاطرك بالاستماع الى حكاية يعقوب تاريخ  
 نفسه ووقائع ايامه فقال الشيخ لا باس فساله الخواجا ذلك فاعنذر  
 بقصور عبارته في العربية فقال له لا عليك ما عجزت عن عربيته  
 فاحكه بلسانك وانا اترجم عنك فاقبل يعقوب يمدحهم فقال



## المسامرة الثالثة والخمسون

## حكاية بعنوب

حاصل قصتي اني مذ درجت وجدتي واخناً لي أكبر مني  
 بقليل في حضانة ام ذهب اطيب عمرها تجمعنا حجرة لا يظل ستنها  
 غير اشخاصنا واشياء حقيرة بالية من اثاث المنازل لا نزور ولا  
 نزار غير انه كانت لنا جارة عجوز فقيرة حالها احسن من حالنا قليلا  
 فكانت تتردد البنا وتتردد اليها وربما افضلت علينا ببعض ما يفضل  
 عنها فلم تطل الايام حتى مرضت امنا ولم يكن لنا حيلة الاّ الجلوس  
 الى جانبها والبكاء فكانت تلك الحجرة نتمهدنا وبذلت المجهود في  
 تريض امنا وطلب الشفاء لها حتى قضت نحبها فبقينا منفردين ليس  
 لنا الاّ الله وتلك العجوز فعرفتنا كيفية السؤال وطبقنا تكفف الناس  
 فعشنا على ذلك برهة فبينما نحن في بعض الايام جالسين الى

جانب جدار في الطريق اخذ النوم بروسنا وطرحننا هنالك فمر بنا  
 العسس فحملنا الى مدرسة اليتامى فاقمنا بها مدة حتى تعلمت صنعة  
 الحزم وتعلمت اخي الخياطة والخدم المنزلية فلما عرف مدير المدرسة  
 منا ذلك اطلقنا لتكسب بانفسنا فحتمت انا برجل من اهل تلك  
 الصناعة وكنت في صناعه وخدمت اخي في بعض المنازل فلبثنا  
 ما شاء الله ازيد عند صاحبي محبة وتقريباً وتميزاً على الاخوان  
 لما رأى بي من المهارة في الصنعة وبذل الوسع في الخدمة وكذلك  
 اخي عند سادتها كل مقبل على شغله وصارف همنه في تحصيل  
 رزقه خائفين ما كان يلحتمنا من نل السؤال وروعة الحرمان  
 وكلاحة الوجوه وسوء الصبح والمسي حتى اخنطت بناس هم اكبر  
 مني سناً واكثر مالاً وادرى بامور الدنيا فسمعتهم يتجادثون في  
 اسباب الغنى من التجارة وانواعها والزراعة واصنافها والصناعة  
 واقسامها متنازعين فيما هو الاسهل منها مسلماً والاقرب غاية  
 والاشرف اهلاً والاجل اعمالاً فرايت اكثرهم مصرين على انه  
 التجارة محتجين لذلك بامور معقولة وحكايات عن السلف منقولة  
 مثبتين ان صنف التجار امرآ على الصنفين الاخرين وسمعت منهم  
 ايضاً ان اعلا انواع التجارة ما كان بالاسفار في اقاصي اطراف  
 الاقطار فحدثني النفس الهاربة من الذل والشقا الطالبة للعز  
 والسعادة ان افكر في الحيلة التي اصير بها تاجراً فكنت لذلك  
 اذهل وفي عملي اكسل ويظهر ذلك علي شيئاً فشيئاً حتى انكر علي

من انا عنده حالي واستخبرني عن سبب تغيري عن عادتي فكنيته  
امري وما زال يلطف بي في السؤال وادافعه حتى اطلمته على  
مكون سري وباطن امري فتبسم عجباً واعتبه عبوساً وغضباً وقال  
يا بني هذه وساوس لا تعقب لك خيراً والاشتغال بها ضياع لما  
بيديك وحرمان ما يستقبلك من الرزق فاقبل على عمك تكن  
عن قريب مثلي صاحب دكان وعندك صناع يصرفهم رايك وامرك  
واني مضر ان ازوجك ابنتي وابسط يدك في مالي فضعف ذلك  
الخاطر واقبلت على عملي بياض نهاري وفي اخر اليوم تقيت اولئك  
الاصحاب وسمعت منهم تلك الاحاديث فقوي ذلك الخاطر واستحکم  
وكان سبباً في دخولي معهم ومشاركتي اياهم في الحديث متعرفاً منهم  
اسباب وصول مثلي الى التجارة والسعي في اهلها وكان في القوم  
انسان عازم على التوجه في مركب له الى سواحل افريقية فعرض  
عليّ الصحبة وتكفل لي بالموثنة والتزم لي بالمعونة وسألني عما بيدي  
من الدراهم فاخبرته فتوافق معي على ان يشتري لي بها من بضاعة  
بلادنا وعرفني انها تريح تسعة اضعافها فبت ليلتي في حساب اموالي  
افرح بنجاح اعالمي فما هو الا ان انكشفت ظلمة الليل بعض  
الانكشاف حتى جئت الى الموعد وسلمت دراهمي لذلك الصاحب  
ورجعت الى صاحب الدكان التي كتبت بها فاخبرته بتصميم العزيمة  
ولم اقف لاستماع كلمة منه ومضيت الى المنزل الذي فيه اختي  
فاخبرتها بنيتي وودعتها ولم التفت الى بكائها وعدت الى صاحبي

فرايته قد حزم بضاعتي الى بضاعنه وكان قد شحن السفينة ببضاعة  
الناس وعزم على السفر فقلعنا المراسي في اصيل نسيهه يحيي الروح  
ويوجب شكر نبي الله نوح والجو على احسن ما يكون من صفاء  
الاديم والبحر في اضطرابات لطيفة كانتها رقص تعلم فبتنا بلبلة  
قاربت اطرافها احاديث ممزوجة بمجلاوة الاماني الى ان استقبلنا  
النهار ونحن في نشاط وسرور فما مضى كثر من النهار حتى راينا  
الريح بدت فيها قوة بعثت موجة صدمت السفينة فهزتها وخالفت  
حركتها فرايت الملاحين قاموا وتنادوا وتحاذروا وتواصفوا امرأ ما  
خطرت لي ببال ورايت اهل السفينة في هرج فقلت لمن يجاني ما  
للناس تغيرت هيئتهم وتبدلت حالتهم فقال الم تر هذه الريح كيف  
اشتدت وهذا الموج قد اقبل وهذه المركب قد اضطربت قال  
يعقوب فغيبت خلفه ما هو كائن والجهالة بما يكون فلم نلبث الا  
قليلاً حتى نتابع الموج واشتد الريح واظلم الجو واشتد اضطراب  
السفينة وماج الناس وتصارخوا واخذ بعضهم ببعض فاشتد جزعي  
لهول ما لم يسبق لي به شعور وقلت في نفسي اخرج انت لتصير  
من التجارام لتكون من دفائن البحار وذكرت من قول معلمي حين  
كان ينصحن يابني داخل البحر مقفود والخارج منه مولود فاحاطت  
بي الهموم وتذكرت فرقة اختي وندمت على ما فعلت من اهل  
النصيحة وركوب هذا الخطر فكنت الوم نفسي تارة واعذر لها تارة  
ثم ان الريح لانت وتهادأ البحر واخذت السفينة في انتظام الحركة

فنظرت الى القوم وقد اصفرت الواهم وتخاذلت لشدة الرعب  
 اركانهم وللملاحون كالغفاريت يترددون في المركب طولاً وعرضاً  
 ويصعدون على السواري ويهبطون بغاية السرعة كأن لم يروا شيئاً  
 ما اخاف الناس وكاد يخلع قلبي فتمت لصاحبي ودموعي تسيل  
 على خدي ونفسي يتقطع في حلقي وقلت له ما هذه الحوادث البحرية  
 وكيف يتجرأ الناس على هذه الشدائد وهل كان بين السفينة  
 والغرق والناس والموت الاً شي يسير فاغرب في الضحك ثم قام  
 اليّ فسمح دموعي واخذ في تسكينني وتقوية قلبي وتشديد عزمي وهو  
 يقول ان هذا الشيء الذي عاينته ليس بالخطب الكبير وان للبحر  
 احوالاً ذات احوال فوطن نفسك على استقبال ما استقبلك منها  
 فان الامور لا تنال الاً بالصبر وما رأيت ائتموزج شدائد البحر  
 وانظر الى هولاء الملاحين هل تراهم تغيروا او عن وظائف اعمالهم  
 تاخروا واما هولاء الناس فانهم يخافون على انفسهم واموالهم وقد  
 شاهدوا العظامم فهم يذكرون الكبير عند مشاهدة الصغير ومع  
 ذلك فقد اقدموا ولم يتفكروا في موت ولا غرق لعظم لذة الكسب  
 وحب نماء الاموال فعند ذلك سكن اضطرابي وذهب ما بي  
 وتفكرت في بلوغ الامنية وانتهائي لان اكون من اشراف بلدي  
 ويجتمع شلمي وشمل اختي واغنيها واغني عن خدمة الناس حتى  
 وصلنا الى ميناء برموت فالتقينا فيها المراسي وطلعنا الى البر وقراره  
 وامنه وراحته فائناً اياماً وبعث بعض بضاعتي واشترت غيره

فظهر لي الرجح وهاجت بي الاطماع وهان عليّ امر البحر وفي هذه  
 الاقامة صاحبي بعض الملاحين وتوافقت قلوبنا ونشأت بيننا  
 مودة واخذت في النمو فاشار عليّ يوماً ان يعلمني صنعة الملاحة  
 لاكون معهم علي كسب اضيفه لكسي وليقل رعي وخفقان قلبي  
 عند معاينة الشدائد وقال لي اذا رغبت في تعلم صنعتنا ودخلت  
 في زمرتنا كان لك ان تحمل في السفينة ما تشتتره من بضائعك  
 من غير اجرة ولا مقابل ولا يعسر عليك ان نتعلم علومنا وتعمل مثل  
 اعمالنا وتكون كواحد منا وربما فقت علينا في مدة يسيرة وما زال  
 بي حتى مالت نفسي الى الدخول معهم في تلك الصناعة فوافقته  
 وتلقيت اشارته بالتبول وشكرته على حسن رايه فلما قضينا حاجتنا  
 من البلد وزلنا الى السفينة ذهب بي الى القبطان وعرض عليه  
 قصتي فرحب بي وفرح وشار عليّ بملازمته ووعد بان يتولى تعليمي  
 بنفسه وامر بكتابة اسمي في ضمن الملاحين من ذلك الحين فاخذت  
 بهم وصرت معهم واخذت في تعلم الصناعة ووطنت في السفينة  
 ما معي من البضاعة وصرت كلما رست السفينة علي ساحل من  
 السواحل اخرجت من تلك البضاعة شيئاً وبعته على اهله واستعوضته  
 بغيره واخذت في التقدم والترقي في تعلم فنون البحر من القبطان  
 الملازمي له واثملافي به فعرفت منه علم الملاحة وحساباتها الهندسية  
 وكيفية تحويل السفن وطي قلوبها وتوجيهها في انحدارها واقلاعها  
 وحساب سرعتها في سيرها فلم تنقض هذه السفرة الا وانا مستعد



لان اكون رئيساً بين الملاحين وحصل لي من التجارة شي كثير  
من الذهب والفضة وجملة من التبر بعثها بمبلغ عظيم فاجتمع عندي  
من المال ما اوقعني في شبكة الطمع واغراني بالاستمرار في الملاحة  
والتجارة وكان من اقوى الدواعي الى ذلك شدة رغبتني في اتساع  
دائرة المعرفة والاطلاع فكنت اترقب كل غريبة فالتفتها فان  
اشكلت عليّ سالت عنها من يعرفها ولم اقتصر في الاستفادة على  
هذا القبطان بل كنت اسال عن الشي كل من اتوسم فيه معرفته  
وكان القبطان المذكور رجلاً متقناً واسع المعرفة والاطلاع ولم  
يكن يكتم عني شيئاً مما يعلمه ولا يضجر من كثرة ما اساله

المسامرة الرابعة والخمسون

كلب البحر والديورا

( من الحكاية يعقوب )

واذكر اني كنت ذات يوم جالساً على جنب السفينة انظر الى  
البحر فرايت سمكة عظيمة الجسم غريبة الخلقة ملازمة للسفينة تتبعها  
في سيرها لا تتاخر عنها ولا تتقدم عليها فسالت القبطان عن اسمها  
وشانها فقال هذه سمكة تعرف عند الصيادين وغيرهم بكلب البحر  
وتكبر حتى يكون طولها عشرة امتار وفيها عظيم جداً تبلغ سعته عند  
فتحها نحو الثلث من طولها فيكون محيطه ثلاثة امتار وقطره متراً  
واحداً وكلما كبر هذا الحيوان تزايدت اسنانه حتى يكون له عند  
بلوغه ستة صفوف في كل فك من فكيه ولم يكن له في صغره غير  
صف واحد في كل فك وليست اسنانه ثابتة في محلها بل هي

متحركة فتارة تنطبق على سطح الفك وتارة تتصب فيه على حسب  
 الاعراض ومقتضيات الاحوال واذا انكسرت منها واحدة نبت غيرها  
 في محلها وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص وله من القوة وشدة  
 السرعة ما يمكنه به ان يقطع محيط الكرة الارضية في ثلاثين  
 اسبوعاً لو استمر على سرعة سيره ليله ونهاره ومن شأنه ان يتبع السفن  
 في البحر ويقتفي اثرها حيث سارت لا يبالي بشدة اضطراب البحر  
 وهياجه وكثرة عواصفه وامواجه وكثيراً ما رآه الملاحون تبع  
 السفينة ولازمها من حين خروجها من سواحل اوروبا الى ان  
 تدخل في سواحل امريكا لا يفارقها في اثناء ذلك بل يدور حولها  
 من كل جانب كأنه خفيز عليها يتولى حراستها وهو نهم آكول  
 لا يكاد يشبع وفيه قوة القلب وجرأة الاسد وقسوة النمر وجميع السمك  
 يهابه ويخشاه ويخافه

فقال الانكليزي هذا الحيوان يوجد في جميع جهات الارض  
 لا يختص بجهة دون غيرها واما اقتفاؤه لأثر السفن فلا تظنر ما  
 عساه يقع به من جيف الموتى ورم الغرقى وهو يجب حرب البحر  
 بين الناس ليشبع من رمم القتلى لكثرة ما عنده من النهم والشره  
 فقال يعقوب نعم سمعت من القبطان ما يدل على ذلك في  
 جملة حكاية ذكرها وذلك ان رجلاً من الملاحين رأى صاحباً له  
 بركب قرية منه وكان غائباً عنه منذ سنين متعددة فنزل من  
 سفينته واراد ان يسبح في البحر ليصل اليه ويسلم عليه فيصادفه عند...

نزوله حيوان من هذا النوع فاحتزرجله وذراعه امام الناس لا ينفر منهم ولا يبالي ثم احتزرجله وذراعه الاخرين ولم يدرك اصحابه منه غير ما بقي من جثته فمات الرجل فالتوه في البحر فالتهمه ذلك الحيوان الخبيث وكانا كان له بالمرصاد

قال الانكليزي ويتغذى هذا الحيوان بجميع انواع السمك صغيره وكبيره لا يغادر منه شيئاً وسمعت ان اهل مرسيليا مرة اصطادوا حيواناً من هذا النوع فراوا في جوفه كثيراً من السمك ووجدوا رجلاً بشيابه ولولا ان الله سبحانه وتعالى جعل فتحة الفم في هذا الحيوان داخلة عن الشفة العليا بقدر ثلثي ذراع لكان لا يفتي ولا يذر لانه لا يتمكن من مصيده وهو بهذه الصورة الا اذا دفعه الى امام او كان من جانبه وقد علم ذلك من خلقته سودان بعض الجهات فتراهم اذا ارادوا صيده اغتموا فرصة تحوله والتفاته الى جهة من جهاته فيغطسون بجانبه ويشقون بطنه في الحال ثم ياخذونه

فقال يعقوب الجزء من جنس العمل وكثيراً ما يكون شره ذلك الحيوان سبب هلاكه فانه لا يرى شيئاً امامه الا التعمه والتهمه وان كان شعبان فاذا اراد الصياد اصطياده التقي اليه سنارة قوية مثبتة في سلسلة محكمة وجعل في السنارة شيئاً من اللحم فتى راها كلب البحر اقبل عليها يشتمها ويدور حولها فيجذبها الصياد بالسلسلة قليلاً فعند ذلك يظن الحيوان انه براد استخلاص هذه الاكلة منه فيسرع

ويتمتها فتتشب في حلقه السنارة فتمى احس بذلك صار يعد  
ويضطرب ويخبط ويتلب في البحر بقصد التخلص ولا يزال كذلك  
حتى يكل ويضعف وتضعل قوته فعند ذلك يجذبه الصيادون  
الى الخارج ويجهزون عليه ويتصيد الناس هذا الحيوان في جهات  
كثيرة ويستعملون اجزائه في اغراض مختلفة فيطعمون دوابهم من  
لحمه ويستخرجون من شحمه زيتاً يستضيئون به واهل (جواند)  
يتخذون من جلده نعالاً واغشية لسروج خيلهم وربما عملوا منه  
قوارب صغيرة

فقال الانكليزي رأيت مرة في مخزن الاثار القديمة بناحية  
(روان) سناً من اسنانه طولها عشر متر ومن طولها هذا يعلم ان الحيوان  
الذي كانت فيه كان طوله نحو ثلاثين متراً

فقال يعقوب وهذا الحيوان مع ما له من القوة وكبر الجسم  
والسطوة قد ذلله الله لسمكة صغيرة تعرف بالديورا فتتخذة مركباً  
لها وتسير به حيث شاءت وتستغني به عن العوامه التي لغيرها من  
السماك (وهي كالمنفخة للسماك تتلىء بالهواء فيعوم بواسطتها في  
الماء فهي له بمنزلة القربة التي يعوم عليها الانسان) وليس للديورا  
هذه عوامه كما لغيرها من السمك وانما لها في جانبي راسها صمامات  
مستديرات في صورة الشكل البيضي فتمى ارادت الانتقال الى جهة  
تريدها عمدت الى حيوان كبير من حيوان الجرايا كان فتلتصق  
به بواسطه صماماتها المذكورة فلا يمكنه ان يتخلص منها بحال من





المعامرة الخامسة والخمسون

النوء والفرق

( من حكاية يعقوب )

فقال ان هذا القبطان بعد ايام قليلة مات فحزنت عليه  
 وحفظت له جميله وخلفه الرئيس فاقمت معه كما كنت مع القبطان  
 قبله وكان قد اجتمع عندي من النقود ثلثمائة جنيه اودعت منها  
 مائتين عند اهل القبطان الاول وكنت قد تعرفت بهم لكثرة  
 ترددي عليه ثم اشتريت بالمائة الثالثة بضاعة وسافرت بها مع  
 الرئيس فكانت تلك السفرة انخس اسفاري واشقاها وكنت اذ  
 ذلك قد مضت علي في البحر مدة قاسيت فيها من احواله وشدائده  
 وعظائم اموره ما كنت ازعم انه لا يمكن ان يحصل اكبر منه حتى  
 تحقق لي في السفرة المذكورة اني كنت في قلقى عظيم وجهل كبير



وان كل ما فاسيته ليس بشيء بالنسبة لما تجدد بعده فقد حل لي في تلك السفرة بين سواحل أفريقيا وجزيرة كناريا ما انساني كل شيء قبله وغطى على كل شيء غيره

وذلك انا حين كنا بذلك الموضع ظهرت ريج شديدة من ناحية الشمال الغربي خرجت مرة واحدة فتكدر منها الجو واظلم الافق فانزع القبطان وصار يصرخ على جميع الملاحين ان يتهبأوا ويستعدوا لوظائفهم وياخذوا حذرهم وسمعت بعضهم يقول لبعض مع الفزع والجزع ها هي الريج ظهرت في الافق من بعد و اشاروا الى شيء كالسحابة البيضاء وكانه علامة عندهم على ذلك فنظرت فرايتها تسع شيئاً فشيئاً وتأخذ في الامتداد حتى غطت الافق وحميت السماء وكان ذلك ليلاً فاستترت بها النجوم واظلم الجو وصرنا لا نرى شيئاً مما حولنا وانا بالريج هبت دفعة واحدة ثم سكنت فظننت ان امرها قد انتهى فنظرت الى القبطان فوجدته هو وسائر الملاحين في جهد جهيد وكرب شديد فسألت بعض الملاحين فقال لي ان هذا السكون علامة على حركة شديدة تعقبه و اشار باصبعه الى السماء ثم قال ستري ما يحصل بين السفينة والبحر والهواء فلم يتم كلامه الا وقد اشتد الهواء وزمجر الرعد ولمع البرق واضطرب البحر وهاجت الرياح وظهرت في الجو قطع من السحاب فماتت الجوامع ولم تلبث ان تجمعت مثنى وثلاث ثم تضاقت وصارت كلها قطعة واحدة سوداء كلون الفئار مهبية الهيئة تهول

الناظر وتروع المخاطر ثم سكن الهواء وانضمت الشراعات الى عيدانها  
والنصفت بها بعد ان كانت مملوءة هواء فكان ذلك عندهم علامة  
ايضاً على امر مخيف وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج  
روحه ورايت جميع الملاحين واقفين شاخصين بابصارهم باهتين  
مستعدين لما يامر به القبطان وعليهم سراويل مشمعة لا ينفذ منها  
الماء ولا اعلم ماذا يامرهم به وماذا يريدون ان يصنعوه وداخلني من  
الهم والوهم ما لا غاية فوقه وكان سكون الهواء عند ذلك من العجب  
شيء وظهر على وجه الماء رغوة وزبد ولم تشعر الا بدوي ظهر من  
جوف البحر كانه ينعي من سيموت فيه ثم خرجت ربح شديدة دفعة  
واحدة فامالت القلوع حتى صارت ماسية لسطح الماء وان كانت  
الامواج لم ترتفع الا قليلاً لان الهواء ضاغط عليها ثم اتت زوبعة  
فصرنا في جوفها فما كنا نسمع غير اصوات مختلفة بين تمزيق  
وتكسير ودوي وصرير وكانت السفينة حيثئذ في تصرف الريح  
كاللعبه في يد الطفل يديرها كيف اراد ويقلبها كيف شاء واستمرت  
مدة يسيرة وهي مائلة الى الامام ثم اعندت وعادت الى حالتها  
الاولى مدة ثم تمكنت منها الزوبعة واجرتها على وجه الماء بسرعة  
وخفة تخرج عن حد التصور وكان عند ذلك يسمع بين الحبال  
والاخشاب صرير مهول واصوات مفزعة والسفينة حيثئذ تسير  
على حالة عجيبة كأنها تمس الماء من غير ان تتمكن فيه فكانت تمر  
مر السحاب فوق رؤس الامواج فامر القبطان بالشراعات فطويت

كلها إلا جزء من واحد منها وقبض على الدفة الرئيس بنفسه مع كال الانتباه واليقظ والاحتراس وكنت انا حينئذ لشدة ما نالني من الخوف والفرع طائش العقل طائر القلب لا انطق بحرف وإنما اتحرك وانتقل كالحيال المتقل بلا تعقل ولا قصد وفي اثناء ذلك سمعت بعض الناس يشير على القبطان بانه يوجه المركب الى البر لانه لم يكن بعيداً فقال ان هذه الزوبعة لم تترك لنا اختياراً وفي اثره اشتد عصف الريح وهياج البحر وزاد الخطب عما كان عليه اضعافاً مضاعفة وصرنا لا نسمع بعضنا بعضاً من شدة صوت الريح وصوت تلاطم الامواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة فلم يكن صوت الادوي يتميز بين تلك الاصوات المزعجة وعند ذلك رايت الملاحين تركوا اشتغالهم بامر السفينة واظهروا اليأس واشتغل كل واحد بنفسه ورايت كلاً منهم ربط نفسه بمجمل من حبال السفينة وكان الموج يعلو على جوانبها وتارة يدخلها من جميع جهاتها حتى يظن انها غرقت وتارة كنا نرى السفينة كأنها تقطع الموجة وتنفذ من جوفها بدل ان تعلوها وتمر فوق ظهرها فان الهواء كان يلجئها الى ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها وتارة تكون على اعلا الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعنق فتسقط بينها وبين التي تليها فيظن انما خسف بها وعند ذلك تمر عليها الموجة من اولها الى اخرها فتغمر في مرورها جميع من بها او تمر من فوق رؤسهم فكنا جميعاً مترقبين ووقع الغرق في كل دقيقة فما من لحظة تمر الا

ونحن نراها اخر الاجل وتوقع بعدها الخطر وجزمنا بالهلاك وانتقع  
رجاؤنا من النجاة وخاف اعظنا جسارة وجزع اشدنا تجلداً وطاش  
اثبتنا جاشاً وحر اكثرنا تجريباً وتعوداً وبقينا شاخصي الابصار  
غائري العيون باهتي الالوان فاقدى الحركة كاشباح موضوعة  
وصور مصنوعة وفقد كل منا قوة اعصابه وتغيرت هيئته وصورته  
فان مياه البحر فعلت في المجلد فعلها واقت به اثارها فاحالت اولاً  
لونه وبدلته به لوناً اخر ثم لما تمدى مرورها عليه ومباشرتها له  
وضربها فيه احدثت فيه استرخاءً وانتفاخاً واضعفت الكيموس  
الحجوي ونقصت منه والهواء في اثناء ذلك يساعدها في اعمالها  
ويضيف افعاله الى افعالها ويحملها الى الروس ويضرب بها العيون  
والوجوه حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف الى ذلك ان اضطراب  
السفينة واخلال حركتها وكثرة ثقلها احدث اضطراباً في المعدة  
واخلالاً في الاعصاب ودواراً في الراس وضعفاً في مجموع الجسم  
فاحاط بنا من الخطب والكرب ما لا تتسع له العبارة ولا يفني به  
التمثيل واستمر الامر علي ذلك نحو ست ساعات ثم حصل بعده  
هدء وسكون فاذا بالتيطان يقول ها قد ظهرت علامات فور تونة  
اعظم مما قبلها فكان سكون الجبر في تلك اللحظة كأنه سكون هدنة فلم  
نشعر الاً وزوبعة كالريح العقيم كانت الاولى بالنسية لها كالنسيم  
فكسرت جميع السواري وقطعت الحبال وضغطت السفينة حتى  
كادت تنزلها الى قرار الماء ثم خفت عنها فارتفعت واعادت ضغطها

فنزلت وما زالت تلعب بها ترفعها وتضعها وتقلبها من جنب الى جنب ومن جهة الى جهة بحيث صغرت الاولى وهونت امرها عندنا واستمرت كذلك نحو اربع ساعات ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الامن فلم نشعر الاّ والماء ينبع من بطن السفينة فلم تهتدي الى منبعه الاّ وقد اتسع الخرق وطفح الماء واخذت السفينة تنزل بالتدرج الى جهة قاع البحر فحيث ذل خلع الناس ما عليهم من الثياب والقوا انفسهم في البحر ففعلت مثلهم وصرت اعوم من غير تعقل ولا روية ولكن كان الشاطي غير بعيد فسبحت حتى وصلت بعد اللثيا والتي فلم تستقر قدي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل زاهب الشعور عديم المحس والحركة لا فرق بيني وبين الميت وكاني غلبي النوم هناك من شدة ما فاسيت من العناء والتعب فمت ولم استيقظ حتى ضربني حر الشمس فقت فوجدتني عاري الجثة بايدي العورة ضعيف القوة خامد النفس وكان قد مضى عليّ نحو اليومين لم اذق شيئاً فتحاملت على نفسي وقت انظر امامي وخلفي واتلفت يمينه ويسرة فلا اري احداً من خلق الله تعالى ولا يقع بصري الاّ على احجار يابسة وصخور عالية وارض موحشة فلا اعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين ام نجا منهم احد الى ارض غير هذه الارض ام خرج منهم احد الى البر فاهلكه بعض الوحوش الضارية او الامم المتوحشة ثم ادركتني وحشة كبيرة وخوف على نفسي عظيم

وصرت اتفكر فيما صرت اليه وما كنت فيه وقلت في نفسي ويحك  
 يا يعقوب ما اشقاك واقل حظك فوالله كانك ما تخلصت من  
 ورطة الألتع فيما هو ادهى منها فاذا تصنع وما هذه الحال واين  
 مالك الذي كنت اكتسبت وبضائعك التي اشتريت وارباحك  
 التي املت وثروتك التي فارقت لاجلها الاحباب وعصيت عليها  
 النصاح وزايلت البلاد وركبت هذه الاخطار هذه نفسك قد  
 سلمت من بين نفوس هلكت رقيت وحدك لا معين ولا انيس وقد  
 نجوت هذه الدفعة من البحر فما يؤمنك من مهلكات البروعاديات  
 الوحوش ومتوحشي الآدميين



## المسامرة السادسة والخمسون

## الوحدة

( من حكاية بعنوب )

ثم اني سرت اتمشى قليلاً قليلاً على ساحل البحر فرايت  
السفينة التي كنا فيها يلوح جزء منها ظاهراً من الماء على مسافة غير  
بعيدة من البر بقدر كثير ورايت بعض براميل قد ساقتها الامواج  
الى الشاطئ فنزلت في الماء واخذت بعضها فوجدته مملوءاً من  
البسماط والخبز ففرحت به وان كان البحر قد افسده وكذلك  
وجدت بعض قطع من قماش القلوع التي مزقتها الريح وبعض  
ثياب من ثياب الملاحين فاخذت من ذلك ما قدرت عليه  
ونشرته في الشمس حتى جف وسترت عورتي واكلت ما يمك  
الرومق وقلت في نفسي اتردد على الساحل لعلني ارى مغارة او حجراً

اوي اليه خوفاً من الوحوش واستعمالاً للحذر والتحذر بقدر الطاقة  
وغداة غدٍ انا سكتت الريح واطمان البحر اذهب الى السفينة واخذ  
منها ما اجدته مما يلزمني وعلى ذلك صرت اتمشى على الساحل واتلفت  
حتى وجدت فجوة اشبه بحجر حيوان فقعدت بعيداً عنها مستترا  
ببعض الصخور انظر هل يدخلها او يخرج منها شي من السباع او  
الهوام فلم اجد شيئاً دخلها ولا خرج منها فدخلتها خائفاً متاملاً  
مستعملاً للاحتراس والحذر ونظرت في ارجائها فوجدتها خالية  
ففرحت بها وقلت اجعلها سكني وماواي حتى يحكم الله بحكم ثم  
ذهبت وقلت اليها ما جمعته واقبل الليل فاويت اليها وكنت فيها  
واكلت بعض الثياب من البسماط ولم يكن يعوزني الا الماء  
فوطنت نفسي على الظاء وكان البسماط شديد الملوحة لما خالطه  
من ماء البحر فتمكن مني الظاء فبت اكابد الله الى الصباح فلما  
اسفر الفجر خرجت وسرت على ساحل البحر فوجدت عين ماء  
يحف بها بعض شجر فقصدتها وشربت منها فوجدت فيها بعض  
ملوحة ولكني مع ذلك فرحت بها لشدة ما قاسيت بالليل من  
الظاء ثم نظرت فرايت على مسافة منها غابة اشجار كنت اسمع من  
جهتها تغريد الطير من بعد فدلني ذلك على ان فيها كثيراً من  
الطيور وسخ لي ان اتخذ مسكناً بالقرب من تلك العين فجعلت  
اجيل النظر في ذلك وكنت احب ان اكون بالقرب من الساحل  
رجاء ان ارى سفينة تمر فاشير الى من فيها عساها تاتي فانزل فيها



واتخلص مما انا فيه ولكن لم اجد بالقرب من تلك العين فجوة  
 مثل الفجوة التي بت فيها فخطر بيالي اني ان فعلت ذلك لا آمن  
 على نفسي من الوحوش خصوصاً اذا كنت لا سلاح لي فاستخسنت  
 البقاء في المكان الاول الى ان ادبر حيلة في الوصول الى المركب  
 وآخذ ما يمكنني اخذه منها ثم اتبع الشاطئ سائراً لعل اعثر بمحل  
 أهل بالناس فوق هذا التدبير عندي احسن موقع فنهضت ومشيت  
 على الشاطئ الى ان حاذيت المحل الذي غرقت فيه السفينة  
 فنظرت اليها فوجدت بعض اعواد شراعتها ظاهرة وبينها  
 نخوميل فهبت العوم وخفت ان تنقطع قوتي في اثناء المسافة فلا  
 اصل الى السفينة ولا الى الساحل وقد كان في جسي بقايا التعب  
 والفتور مما قاسيت من المتاعب والمصاعب السابقة فعدت الى قطع  
 من خشب كان الموج الجهاها الى البر وعمدت الى بعض اشجار  
 فاخذت قشورها وعملت منها ومن بعض الثياب التي قذفتها  
 الامواج للساحل حبلاً وربطت بها تلك الاخشاب الى بعضها في  
 البحر على هيئة الرمث ( الرومس ) وانزلتها الى البحر وركبت عليها  
 وقد اتخذت لي مجدافين من بعض الاخشاب صرت اعلم بهما  
 قاصداً جهة السفينة حتى وصلت اليها وكانت قد غرقت عند شط  
 جزيرة فبقي جزء منها ظاهراً وباقيها مغموراً بالماء فنزلتها وانغمست  
 في الماء ودخلت محل السلاح فاستخرجت منه ثلاثة ازواج من  
 الطنجيات وبنديتين وبرميلا صغيراً مملوءاً باروداً واخذت ايضاً

بعض ثياب عثرت بها واستخرجت ايضاً سريراً ارقد عليه وبرميلين  
ملوئين من البقسماط وبرميل قديد ( بصطرمه ) وبعض مشروبات  
وغير ذلك مما بدا لي لزومه مثل قدوم ومنشار وسيف وسكين  
وهكذا كلما عثرت بشيء ارى انه ينبغي واحناج اليه اخذته فان  
وجدته ثقيلاً اربطه بجبل ثم اظهر على سطح الماء واسحبه حتى اخرجه  
من الجروان وجدته خفيفاً أمسكته بيدي ورفعته

ثم وضعت ذلك كله على الرمث ( الرومس ) الذي صنعته  
وركبت فوقه وصرت اعمل بالمجذافين قاصداً الى الجهة التي كنت  
بها في البر حتى وصلت الى الساحل فنقلت جميع ذلك في الموضع  
الذي كنت قد اخترته لسكناي ثم ذهبت الى الغاية فاتيت منها  
ببعض اخشاب فحوطت بها على جميع منافذ المحل وانما اقيت لي  
منفذاً صغيراً كالباب اخرج منه وجعلت له باباً من بعض قطع من  
الخشب ضممتها الى بعضها واحكمتها عليه واعدت لي خشبة متينة  
امكنها من الداخل حتى لا يمكن فتحه من الخارج ثم ادرت على  
المحل كله جسراً عظيماً عملته من تراب واحجار نقلتها ووطنتها  
وجعلت من وراء ذلك خندقاً عظيماً حفرتة فصرت كاني في حصن  
حصين وحرز منبع فيه كل ما احتاجه من الزاد والذخيرة والالات  
والادوات وكنت اود لو عرفت حال اصحابي وما حل بهم واتمنى  
ان اعثر بواحد منهم ولهذا كنت دائماً اتلفت واتطلع الى جهات  
الساحل لعلني ارى واحداً منهم يخرج مثلما خرجت فاجعله انيسي

في وحشتي ومعيني على وحدتي فلم اصادف احداً مطلقاً وبعد يومين  
الفت الامواج الى الساحل بعض الجيف فاحنرت لها حفرا واريتها  
بها وبقيت على هذه الحال خمسة عشر يوماً لا ارى من يزاخني ولا  
اجد من ينغص على عيشتي سوى الوحدة ووحشتها والفرقة وحرقتها  
والتفكر في اختي ووطني ومن كنت معهم ولم يكن سوى ذلك شيء  
يهمني او يغني وكت اخذت من السفينة ما يكفي لمؤنة سنة كاملة  
وكان عندي ايضاً من البارود والسلاح ما يكفي للمدافعة عن  
نفسي وصرت كل يوم ازيد شيئاً في تحصين المكان وجعلت فيه خروفاً  
صغيرة خرقتها في مواضع متعددة من اعلاها لنفوذ الضوء والهوا  
ولكي ارى منها ما لعله يطرأ في الخارج وجعلت في الجسر مزاغل  
لاستعمالها في المدافعة عن نفسي اذا دهني عدو اخافه واجتهدت  
مع ذلك في ابقا ظاهر المحل على اصل هيئته كي لا ينتبه له من يمر  
به ومكثت مدة من الزمان على ما انا عليه لا ارى احداً وكت كل  
يوم اصطاد شيئاً من السمك والطيير فاشتوي منه واطبخ كما اشتوي  
حتى وجدتني تمهرت في اصطناع الاطعمة ووجدت في الغابة كثيراً  
من انواع الفاكهة والخضراوات والبقول فكنت اخذ منها كل ما  
احب

المسامرة السابعة والخمسون

العود

( من حكاية يعقوب )

وفي بعض الايام دخلت الغابة على العادة ثم اوغلت فيها فلما  
 اردت العود رايت على البعد قوماً على خيل فحفتهم حين رايتهم  
 وقلت في نفسي هل اخفي منهم فانجو من شرهم ام اظهرهم لعل  
 خلاصي من الوحدة يكون على يدهم ولبثت برهة في ارتباك وحيرة  
 اتردد بين الامرين ثم اخترت المواراة منهم وصعدت على شجرة ذات  
 اغصان واوراق كثيرة فاخفيت فيها عن اعينهم وصرت انظر من  
 خلالها اليهم فما زالوا يقربون من الشجرة التي انا عليها شيئاً فشيئاً  
 حتى وصلوا اليها فاحناطوا بها فتيقنت انهم قد لمحوني وكان معي  
 اذ ذاك بندقية وزوج من الطنجات فحدثني نفسي برميهم بالبندق

ثم قلت في نفسي انهم جمع كثير فان رميتهم فلا بد ان يسلم بعضهم  
 فاقع في يدهم فيقتلونني او يأسروني ثم يعذبوني فرايت الصواب ان لا  
 احدث شيئاً مما هممت به وبقيت انظر اليهم وانتظر ماذا يفعلون  
 فرايتهم قوماً سود الوجوه عليهم ثياب سود وبايديهم نبال ورماح  
 فنظروا اليّ وأشاروا بالنزول من فوق الشجرة فاشرت اليهم بالي  
 خائف منهم ان يقتلونني فاوماً احدثهم باصبعه الى السما ففهمت انه  
 يعاهد الله ان لا يصيبني مكروه ثم فهمت من اشارة اخرى ان  
 قصدهم ان يعاملوني معاملة الاخوة فتحيرت بين ان انزل اليهم  
 اعتماداً على اشارتهم او ابقى بمكاني احياطاً لنفسي وتحرزاً من غوائلهم  
 ثم قلت ان كل ما حصل من اول الامر الى اخره انما نشأ من  
 طاعة النفس في رايها ومتابعة هواها وعدم التفويض فيما اشكل  
 عليها لربها وهذا كان السبب في كل ما اقسامه خصوصاً انهم في  
 امكانهم اذا لم انزل اليهم بالطوع والاخيار ان ياخذوني بالقهر  
 والاضطرار ولو بان يتظروني حول الشجرة يوماً فيضطرني الجوع  
 الى النزول اليهم والمصير في قبضتهم وذلك قد يغريهم باسأتي  
 فالاولى التسليم لله وترك اللجاج ثم نزلت اليهم فاجلسوني بينهم  
 وصاروا يرضون معي ولا انهم ما يقولون واكلمهم فلا يفهمون ما  
 اقول فاشرت لهم نحو البحر ففهموا اني كنت في مركب وغرقت باهلها  
 ولم ينج منهم الا انا ثم افهمتهم بالاشارة اني اتخذت لي مأوى بقرب  
 الموضع الذي نحن به واشرت لهم الى جهته فقاموا معي حتى وصلنا

منسوج بسبور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار  
على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من  
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طنجرات  
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اخضوني به واتخذته  
لي مأوى ومسكناً فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي  
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي  
غاية الاتقياد وصرت ممثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني  
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت  
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأباً وعادة  
مستمرة عرفت بها بين التوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على  
نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفت بها في مدة قريبة  
وصرت اتكلم بها معهم واعندت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة  
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان  
تمكنت من الخلاص من ايديهم

## المعامرة الثانية والخمسون

### الفيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهلهما وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليزية والبرتغاليةن وبسبب اخلاط اهل السواحل الان بالاوروباوين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

منسوج بسيور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار  
على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من  
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طنجرات  
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اخنصوني به واتخذته  
لي مأوى ومسكناً فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي  
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل واتقدت لسيدي  
غاية الاتقياد وصرت ممثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني  
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت  
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأباً وعادة  
مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على  
نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفت بها في مدة قريبة  
وصرت اتكلم بها معهم واعندت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة  
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان  
تمكنت من الخلاص من ايديهم



## المعامرة الثانية والخمسون

### النيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهله وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليزية والبرتغاليةن وبسبب اخنلاط اهل السواحل الان بالاوروباوين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

والاهوال وما شاهده من العجائب والغرائب وكلمهم متفقون على ان الذهب في تلك الجهات كثير وان مواد تجارتهم الذهب والصنع والرقيق والعاج اعني عظم الفيلة وان كانت هذه الاصناف في بعض الجهات متفاوتة قلة وكثرة فقد يكون بعضها في جهة اشهر منه في جهة اخرى كالعاج مثلاً فانه قليل بالسواجل التي تقطعها مياه السيول وتكثر فيها الوحول والجهات التي فيها اسلحة نارية لان الفيلة لا تهوى تلك الاماكن بل تنفر منها وتفر الى الغابات وغيرها من الجهات التي ليس بها ذلك فيكون العاج فيها كثيراً

فقال الشيخ لا يشك عاقل في ان الانسان بسبب شدة فطنته مع صغر جسمه وضعف قوته يمكنه ان يستحوذ على الفيل وغيره من الحيوانات الكبيرة التي تزيد عليه في الجسم والقوة والبأس بدرجات كثيرة ولكن ليت شعري ما الطريقة المستعملة في اصطياده والقبض عليه وكيف يتوصل اليه

فقال الانكليزي قد بلغنا عن ساح في الاقطار واثبت ما شاهده فيها من الاثار ان اهل الارض التي بها الفيلة اذا ارادوا صيدها تجمعوا واخذوا اسلحتهم وذهبوا الى محالها التي تالها في اوقات معلومة عندهم وللفيلة اوقات تجتمع فيها افواجا وتتقل من محلاتها الى جهات اخرى لطلب الماء او المرعى ومن عادتها ان تسكن الغابات المنقطعة ما دامت تجد فيها الماء فاذا نشفت ما بها من البرك والمنافع اخذت في الانتقال الى شواطئ الانهار ولا تزال

بها الى اوان نزول الامطار واهل تلك الجهات يعرفون ما ذكر من عاداتها واوقات تغلاتها ومن العادة عندهم في اصطباها ان يجتمع عندهم الخمسة والستة وياخذون معهم من البارود والرصاص والنبال والمؤنة ما يكفي لسته ايام فاكثر ويذهبون الى محال الفيل وياخذون في البحث عنه مع كمال التحرز والاحتياط ويتعرفون محال وجوده باثاره كاغصان اشجار متكسرة بخرطومهم وكرجيعه واثر قدميه وما اشبه ذلك وقد صار لهم في اقتصاص اثره ومعرفة امره بطول المزاولة وكثرة التكرار ما لا مزيد عليه من المعرفة والخبرة بحيث متى راى الواحد منهم اثر قدم الفيل في بقعة من الارض امكن له ان يقول على سبيل القطع والتحقيق في اي زمن مر من تلك البقعة والى اين سار واين يوجد فتره متى راى اثره كأنما ابصره فتمى علموا محل القبلة بااعداده من العلامات كمنوا لها في محل مناسب حتى اذا راوا قطعاً منها على البعد تبعوه بغاية ما يمكن من الاحتراس وانتظروا انفصال احدها من القطيع فعند ذلك يتفنون اثره ويتبعونه على البعد مع الحذر والتحرز بحيث يزحفون على بطونهم بين الحشائش حتى يتمكنوا منه فاذا تمكنوا منه رموه دفعة واحدة ثم احتجبوا عنه بين الحشائش مخافة ان يراهم فيطش بهم فاذا احس الفيل بجروحه ذهب الى الشجر وحك جسمه به فاذا لم يجد لذلك فائدة امتلاً غيظاً وهام لوجهه الى ان يتعب من كثرة جريه وما يسيل من دمه فيكل وتسقط قواه ويقع

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه و يسلخونه و ياخذون  
جلده فيتخذون منه نعالاً يلبسونها و لحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم  
قطعاً رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديداً ( بصطمة )  
يدخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت مؤنة بعضهم أكثر ايام السنة  
منه و يقلعون اسنانه و انيابه بالفاس و ياخذونها مع سائر عظامه  
ليبيعوها للتجار و هي العاج المعروف فان اصابوا صيداً كثيراً فربما  
اقاموا في الغابة شهراً و أكثر يقتاتون من لحم الفيل و من عسل  
يستخرجونه من بعض الاشجار و يقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه  
في الطعم لحم البقر فاذا كبر ريس لحمه و عسر هضمه

و للعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم و قد يجلب  
مع الرقيق و يباع بالساحل فيشتره الاوروبيون للتجارة و ذكر  
كثير من السياحين ثقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها  
في كل ثلاث سنين مرة و ذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض  
انياب ملقاة على الارض و قد يقع بين الفيلة و بعضها معارك فتقع  
منها انيابها و انياب الفيلة عادة تكون مصمتة و انما تكون رؤسها  
مخوفة

فقال يعقوب العادة في اصطياد الفيلة عند اهل البلاد التي  
كنت بها كما رايته مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت  
عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج و معه جميع من في القرية  
من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل و فارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحرايب والنشاب والنفاس وغير ذلك  
فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيخناطوا بجزء  
منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون  
في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم  
من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعاً بالاسلح دفعه واحدة حتى  
اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار  
الفرسان يضربونه بالاسلح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما  
تقدم وقد يصاب في الحلقه حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش  
وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسراباً تبلغ افراد  
السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة  
ومن عاداتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له  
بسوء الا اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او  
قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت  
بعجل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى  
العلي فارفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدماً فوقعت ميتة  
وقد اخلف في مدة حمل الفيلة فقيل انها ستة وثلاثون  
شهرًا وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام  
ويتبدى في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين  
سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها  
بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

فقال الشيخ قرأت في جملة من الكتب العربية المؤلفة في طبائع الحيوان قديماً وحديثاً ان مدة حمل الانثى من الفيلة نحو سنتين وهذا كالموسم بين القول بانها ثمانية عشر شهراً والقول ستة وثلاثون شهراً ويقال ان الذكر ينزوي على الانثى اذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع واذا حملت الانثى لا يقربها الذكر ولا ينزوي عليها الا بعد ثلاث سنين وقال عبد اللطيف البغدادي انه لا ينزوي الا على فيلة واحدة وله عليها غيره شديدة فاذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها خوفاً عليه ان يستقط على الارض لانها لا تلد الا وهي قائمة فتلد والفعل عند ذلك يحرسها ويحرس ولدها من الحيات وقد اجمع المورخون على ان الفيل اذكى جميع الحيوانات فطنة وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب ويفعل ما يامره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالة السلم والحرب غير ان النظر الى ظاهر هيئته وشكله يحكم عليه بالبلادة فحشده الضخمة وجلده الامعط العاري عن الشعر وقوائمه الغليظة التي كانت لم تخلق للحركة وصغر عينيه وسعة اذنيه المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافه بزيادة بلادة عن المتعارف ولكننا اذا اعتبرنا خصاله وجدناه بخلاف ذلك والفيل اكبر جميع الحيوانات واعظمها قوة وليس من طبعه الفتك والاذى بل هو مع كمال جرأته حلیم سليم الطبع وغاية الامر انه يعمل ما عنده من القوة في الدفع عن نفسه او عن

صاحبه ومن طبعه الموالفة والموانسة وإذا اجتمع سرب منه كان أكبر الجماعة سنًا هو المدبر والقائد لها وكان من دونه في السن وأزعمها وإذا سرن على هذه الحالة اقتصرن اغصان الشجر في طريقهن وإذا دخلن مزرعة لا يلبثن ان يفسدن الحرث ولا يكاد يصرفنهن وهن مجنوعات عدد وإفر من العسكر المتسلحين إلا انه لا يندران يطارد القناصون منها ما كان منفردا ولكن القناص اذا اخطاه ولم يمكنه الهرب منه هجم عليه في الحال جرياً فيضربه اولاً بناه ثم يتناوله بخروطومه ويرمي به الجوّ ويرقب سقوطه حتى يدوس عليه فيقتله وكثيرا ما وقع مثل هذا على ما اخبر به المسافرون ومن طبع الفيلة انها تكدر الماء قبل ان تشربه وكثيرا ما توعبه في خراطيمها ثم تشبهه اما للعب او لاخذ الثار من يسوها فينطلق انطلاق ماء الميزاب وقد كان مرة فيل سائرا وحده في مدينة فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه احد الصناع بآبرة ليعجب نفسه واصحابه فكظم الفيل غيظه ثم سار الى محل ذي قدر وملا منه خرطوموه ورجع الى الدكان واطلق ذلك القدر على من كان قد ساءه ونفى عنه بذلك ما لحقه من العار ووجود الفيلة في افريقية على ما يظن اكثر مما سواها غير ان الموجود منها في اسيا أكبر واعظم وأكثر نفعاً لبني آدم اما في الهند على الخصوص فانها تدرّب على الشغل والحركة في حالتها الحرب والسلام بترتيب حسن وتباع على حسب ضخامتها واحياناً على حسب الوانها

والابيض اكثرها قيمة وقد تعبدها اهل الهند في بعض المحال ويقال ان الفيل اذا اتقاد كان اطوع جميع الحيوانات والينها جانباً وكانت محبته لسائسه احدى العبر فيرى منه حينئذ ان غاية حياته انما هي لخدمة صاحبه وطاعته ويتودد الى من له به معرفة ويستعمل خرطومهم كاليد والذراع مساعدة لما يراد من تحبيله ويعنو لمديبره ان يركب على عنقه ويسوقه بعود من حديد وكلمة واحدة من راكبه اذا عرفه تكفي في الغالب لحركته اما الغريب فهيهات ان يطبعه وقد حدث ان فيلا هاج مرة هياجاً شديدا لسوء معاملته فيما ظن فقتل سائسه ولكنه ظهر منه بعد ذلك تاسف والتبايع شديداً وقد كانت ملوك الشرق قبل احداث البنادق والمدافع تحمل لوازم الحرب على الفيلة المضراة وتحارب عليها واما الان فانما تتخذ عند من يقتنيها للتفاخر او لحمل الاتقال العظيمة اذ ليس في الحيوان ما يطيق الحمل اكثر منه فان له قدرة على ان يجر ما لا يكاد يقبله ستة افراس وذلك دون كثير معاناة ويحمل على ظهره من ثلاثة الاف رطل الى اربعة الاف وعلى خرطومهم وحده الف رطل وانا حث على السير سار في اليوم مائة ميل تقريباً والاف فخمسين او ستين واهل الهند يعلمون الفيلة الفلك بالمجرمين والانتقام منهم فتهزقهم بخرطومها او تنفذ فيهم انيابها ولكنها ليست تميل لذلك بالطبع فهي انما تفعل بالرغم والاجبار

قال ناقل الحديث وكان برهان يسمع ما جرى من الحديث



في امر الفيل فلما انتقطع القول فيه سال اياه عن حكم اكله  
فقال قد اختلف العلماء فيه فاباحه البعض وحرمه  
البعض والتحریم اشهر قولي الشافعي وعلي القول بجرمته يكون  
عظمه نجساً لا يطهر بمجال عند الشافعي كما هو رايه في  
عظم كل حيوان غير ماكول ويكون طاهراً عند ابي حنيفة  
كما هو رايه في كل عظم وشعر وقال مالك انه نجس يطهر  
بالصقل

المسامرة التاسعة والخمسون

المخلص

( من حكاية يعقوب )

ثم قال الانكليزي ليعقوب قد ذكرت ما حصل لك من  
ابتداء امرك الى ان وقعت في يد هؤلاء القوم ولم تذكر كيف تخلصت  
من ايديهم

فقال اني بعد ما تعلمت لسانهم وتكلمت بكلامهم صرت كاني  
واحد منهم لا يفرق بيني وبينهم الا مجرد اللون حتى انهم كانوا  
لا يسموني الا بالابيض فصار هذا الاسم علما عليّ عندهم وان كان  
لوني قد تغير عن حالته الاصلية بسبب طول مكثي في تلك  
البلاد وكثرة تعرضي لحر الشمس وكان لوني الابيض في اول  
الامر اعجوبة عندهم يستغربه كل من راه ولكن لما طال مكثي

عندهم اعتادوه وصار لا يستغرب لديهم وكنت مدة اقامتي بينهم نافعا  
لسيدي في الصيد والقتص وجميع ما يناط بي من الاعمال فاحبني  
حبا شديداً استتبع محبة جميع اهل البلد لي واقبالهم عليّ وكنت اسمع  
من بعضهم انهم في بعض الاحيان يحضرون الى ارضهم اناس من  
جنسي للسياحة في بلادهم فكنت انتظر حضور بعض السائحين  
اليهم عسى اتخلص منهم بواسطته وبقيت على هذا الانتظار مدة  
اربع سنين الى ان اتفق حضور السائح الشهير (بوسمان) الى تلك  
البلاد وكان معه عدة من الحرس لحفارته وحفظه في الطريق فلما  
مر بهذا البلد اجتمعت به وكلمته بالانكليزي وذكرت له قصتي وما  
جرى لي من وقت الفرق الى حين لقبته واثبتت له على الشخص  
الذي اخذني وذكرت له ما صنعه لي وكان ذلك بحضوره وكان  
مع السائح المذكور ترجمان له من جنس التوم فعرف سيدي بما  
قلته من مدحي له ففرح بذلك ثم ان السائح المذكور طلب من  
سيدي اخلاء سبيلي فامتنع واخبره اني عنده بمنزلة ولده وان فراقي  
يعز عليه فما زال ذلك السائح به يستعطفه ويلج عليه حتى تم الامر  
على اخلاء سبيلي في نظير جملة من الاقشة والحرز دفعها السائح  
المذكور لسيدي ومن ذلك الوقت فارقتهم وصرت في خدمة  
ذلك السائح الى ان ركبت البحر ورجعت لهوله القديم وعذابه  
الايام وكنت عرفت ان الارض التي كنت بها تعرف بارض الذهب

او ساحل الذهب وانها من جملة جهات السانغامبيا وان البلدة  
 التي كُنت بها تسمى (نابو) وحوها بلاد كثيرة منها (اوينه) و(اجويرا)  
 و(الكسان) و(انكاسيا) و(اجينا) و(ادوم) و(ومونبا)  
 و(فساه) و(انكى) و(ابرامبويه) و(كينورا) وغير ذلك من  
 البلاد لا يحضرني اسمها الان وهذه البلاد يوجد فيها الذهب بكثرة  
 ولاهلها عادات عجيبة وعقائد غريبة

المسامرة السنون  
الذهب واستخراجه  
( من حكاية يعقوب )

فقال الشيخ قد ذكرت مواضع الذهب ولم تذكر كيف يستخرج  
وعلى اي هيئة يوجد في اول امره وبودي لو عرفت ذلك  
فقال يعقوب ان الذهب يوجد في هذه البلاد خالصا نقياً  
على هيئة حبوب دقيقة متشرة يكون الكبير منها في حجم الحمصة  
واما كيفية استخراجها فانه اذا انحسرت مياه الانهر وذلك في وقت  
فراغ الاهالي من زراعتهم اعني في اوائل شهر ديسمبر ينهب كبير البلد  
على الاهالي بالاستعداد لجمع الذهب وغسله ويعين لهم يوماً بسميه  
لم فتستعد له الرجال والنساء ومعهم الآلات المختصة بذلك وهي  
عبارة عن مساحي ومجارف لفتح الارض وتقليب التراب وبعض

قضع من خشب لغسل الذهب وتنظيفه من الاتربة وريش لاجل  
 وضع ما يوجد من الذهب في انايبها ويذبح لهم في يوم التوجه  
 ثوراً او بقرة ويجمع اهل البلد ويقرأ مشايخهم ادعية وعزائم سحرية  
 بقصد نجاح غرضهم وعلمية الغسل سهلة جداً والقائم بها النساء  
 لانهن قد اعندن عليها من الصغر كتعودهن على غريلة القمح  
 والارز واما ثليب الاتربة واستخراج التراب المظنون وجود الذهب  
 فيه فذلك موكل الى الرجال وكيفية تصفيته ان تاخذ المرأة جانباً  
 من ذلك التراب وتضعه في قصعة من خشب ثم تصب عليه  
 مقداراً من الماء وتحركه به حركة دورية حتى يمتزج ببعضه ثم تقلل  
 في الحركة شيئاً فشيئاً ثم ترجع الى تحريكه ثانياً وتزيد الحركة شيئاً  
 فشيئاً حتى يسيل من حرف القصعة جزء من الماء المختلط بالاتربة  
 الناعمة المختلطة بالمادة الاصلية ثم تتركه حتى يرسب ثم تريق الماء  
 وتطرح الحصى وتبقي ما رسب في اسفل الاناء من الرمل ثم تصب  
 عليه ماءً جديداً وتعاود العمل مراراً حتى يصفو الماء ويصير في  
 غاية الصفاء ولم يبق في القصعة الا الرمل والذهب ثم تاتي بقصعة  
 اخرى فتقل اليها جزءاً من الرمل وتبقي في الاولى ما رسب في  
 قاعها من الرمل المظنون ان الذهب فيه اكثر وتضع عليه ماءً  
 صافياً وتحركه في القصعة وتنظر الى اسفلها مع الدقة والتأمل  
 وتاخذ ما وجدته في خلال الرمل من الذهب وكذلك تفعل بما  
 في القصعة الثانية وغاية املهم ان تجد المرأة في كل قصعة من الذهب

اربع حبات او ثلاثا ولم تكن معرفة النساء بهذه الصنعة سواء بل  
 منهن من لها معرفة اكثر من غيرها لكثرة تجربتها حتى انها تعرف  
 الاثرية التي يوجد فيها الذهب وتميزها بلونها وكيفيتها وتستخرج  
 الذهب منها مع ان غيرها ربما مرت عليها ولم تلتفت اليها وكل ما  
 يجده من قطع الذهب يضعه في انايب الريش ويسدون عليه  
 بقطن او نحوه ويعلقنها بشعورهن ويفخرن بكثرتها والسعيدة منهن  
 من تجمع في اوان جمعه اوقيتين والمحلات التي يبحث فيها عن  
 الذهب هي مجاري المياه ولكنها اذا استمر عليها الماء مدة طويلة ولم  
 يتحول عنها الى غيرها لا يوجد بها شيء من الذهب لان الماء بشدة  
 جريانه وقوة انصابه يحدث بها فيها من الرمل والتراب ثقلبات  
 كثيرة فلا يعثر البعث فيه بشي من الذهب لذلك السبب

ومن الناس من يتساهل ويعمد الى مجاري المياه ويبحث فيما  
 في اثنائها من الرمل ومنهم من يصعد الى اعلا المجرى ويبحث فيما  
 به من الاحجار والحصى متجشما لما فيه من المشقة فان تيار الماء عادة  
 ياخذ ما في طريقه من الرمل والتراب بسبب قوة انحداره وشدة  
 جريانه ويترك ما يتعاصى عليه من الاحجار وكبار الحصى فيكون  
 البعث فيها شاقا صعبا وكثيرا ما يضر بالاصابع ويجرحها ويدمها  
 بخلاف الرمل والتراب ولكن من يبحث في تلك الاحجار والحصى  
 قد يعثر فيما بينها ببعض قطع كبيرة من الذهب تعوض عليه الالم  
 والتعب ولكن ما كل وقت ينجح الطلب واما المجاري التي تحول

عنها الماء فيحفرون بها ابارا عميقة<sup>١</sup> ويغسلون ما يستخرجون من  
طبقاتها من الرمل بالطريقة المتقدمة فيجدون فيها كثيراً من  
الذهب

### المعامرة الحادية والستون

بلاد سنغاميا

فقال الانكليزي ان وجود هذا المعدن بارض افريقيا كثير  
وقديم واهل تلك الارض من السودان معتادون على تجارته من  
قديم الزمان فتراهم يجلبونه الى بلاد السواحل ويبيعونه لبعض تجار  
العرب والافرنج وغيرهم واحسنه ما يوجد بالمجهاث التي ذكرها



يعقوب في ولاية على شاطئ نهر السينجال يقال لها ( بامبوك )  
وامتدادها من الشمال الى الجنوب نحو ستة وثلاثين فرسخاً وعرضها  
ثمانية وعشرون فرسخاً فيكون مربعها نحو الف فرسخ وهذه الولاية  
منقسمة الى ثلاثة اقسام لكل قسم منها ملك او حاكم واعظمها قسم  
( بامبوك ) لكثرة الذهب به وكون ذهبها احسن واصفى من ذهب  
التسمين الاخرين ولذا سمي مجموع الاقسام الثلاثة باسمه مع ان  
لكل قسم منها اسماً خاصاً به وفي تلك الجهة جبل عظيم يشغل  
معظم ارضها تسميه اهالي تلك الجهة طبأورا

وفيه منابع مياه كثيرة ويصب في الاقسام المذكورة نهران  
عظيمان احدهما يجري في غربي هذه الارض الى ان يصب في نهر  
فيليميه والاخر يجري في شرقيها ثم يصب في نهر السينجال وجميع  
هذه المجاري يوجد بها ذهب لكن المعادن المشهورة فيها اربعة  
وكها بسفح الجبل المذكور ببلاد عرفت معادنها باسمائها والذي  
يتولى حفر ابار الذهب في الغالب العبيد فينزلون فيها الى عمق  
ثلاثين او اربعين قدماً ويخصص لكل بئر اثنان احدهما للحفر  
والاخر لتعبئة الزنايل وامرأتان لنقل التراب ويغير الجميع في كل  
ثلاث ساعات ومدة اشتغال الجميع بهذه الاعمال ثمانية اشهر لا  
يستغلون فيها بغيرها ويختلف ما يستخرج من الذهب قلة وكثرة  
باختلاف معادنه وقد علم من تجربتهم ان اعظم تلك المعادن  
واكثرها ذهباً يستخرج منه في كل ثمانين اوقه من التراب قدر

مائة وأربع وأربعين فحمة ونصف فحمة من الذهب النقي ومن عاداتهم في تلك البلاد أنهم لا يخرجون اليه ولا يستخرجونه إلا باذن الحكام وأهل البلدة التي بها المعدن الذي يريدون الاخذ منه وبعد استخراجة وتصفيته يعملون منه حلياً لسائهم كالخواتم والقلائد والحلقان ويستعملون بعضه في نفقات السفر ثم يبيعون باقيه مبادلة ببعض بضائع يجلبها اليهم تجار من الغرب وغيره كالمح والذرة والقماش وغير ذلك ويرج فيه التجار رجحاً عظيماً يساوي غالباً ضعف ما يعطونه من البديل ولكل واحد من السودان ميزان يزن به الذهب وعندهم فول اسود يزنون بحبه ما يعادل ست حبات منه يقال له عندهم (متقالي) وقيمة المصنوع وغيره عندهم واحدة وقد تبلغ قيمة ما يستبدل بالتح من الذهب لاهل البلدة الواحدة نحو مائة وثمانين الف جنيه انكليزي وللح في هذه الجهات من ارض افريقية قيمة عظيمة فقد يبلغ ثمن كل قالب من المح طوله قدمان ونصف بالقدم الانكليزي وعرضه اربعة عشر اصبعاً في سلك اصبعين نحو جنهين ونصف وثمنه المعتاد قدر جنيه انكليزي وثلاثة ارباع جنيه الى جنهين وكل اربعة قوالب منه تعتبر عندهم حمل حمار والسته حمل الثور واما البضائع الاوروبية فمختلفة الثمن باختلاف كثرة الورود وقلته وقد تقع المبادلة فيها بالرفيق وقيمتها ايضاً مختلفة فقد رأيت الراس الواحد منه يساوي بالمتقالي السابق ذكره من تسعة الى اثني عشر وكانت اثمان البضائع

الأوربية حين كنت هناك ما ساذكره لكم فكانت قيمة كل ثمان واربعين ورقة من الدخان منقالي واحد وكل ثمانية عشر شطفه من الصدف كذلك وكل عشرين تعبيرة بندقية من البارود كذلك وقيمة البندقية ثلاثة من المنقالي فاكثر الى اربعة واما الاشياء الضرورية كاللوازم المعيشية والامور المنزلية فكانت قيمة ما يلزم لمؤنة يوم واحد قطعة من الذهب توازن حبة من الفول وقيمة الدجاجة الواحدة كذلك وقيمة النعجة الواحدة ثلاث حبات وقيمة الثور منقالي واحد وقيمة الفرس الواحد عشرة من المنقالي الى سبعة عشر وعلى الاشياء واعزها عندهم الملح فن ذكر عنه فيما بينهم ان عنده ملحا وانه يطبخ به كان كمن قيل في حقه عند غيرهم انه غني ومن اعظم تجارهم واهمها عندهم الحديد للزومه في عمل السلاح والآت الحث والزراعة ولهذا يقدرون به اثمان البضائع فيقولون قدر كذا من صنف كذا يساوي قضييا او قضييين من الحديد او نحو ذلك حتى شاع بين التجار اطلاق لفظ قضييب على مقدار معين من بعض البضائع كالدخان مثلاً فان كل عشرين ورقة منه يسمونها قضييا وربما قالوا قضييب من صنف كذا يساوي قضييا او قضييين من صنف كذا وهكذا وكانت قيمة القضييب سنة الف وسبعمائة وخمس وتسعين من الميلاد وهي سنة ١٢١٠ من الهجرة تساوي قطعتين من الشلينات والشلن معاملة انكليزية ومقداره خمسة غروش صاغ الأ خمسة فضة والحجبه

عشرون منه فاذا كان ثمن العبد مثلاً خمسة عشر جنبها انكليزيا قالوا ان قيمته مائة وخمسون قضييا وجميع سكان ارض السانغيبيا تنقسم الى اربع عشائر واكثرهم لا دين له وعقائدهم بعقائد الوثنيين اشبه والمسلم فيهم نادروان وجد فلا معرفة له الا ببعض قواعد قليلة لا يعمل بها ولم ائمة يسوسونهم على قدر عقولهم ومنهم قوم يسكنون ساحل البحر ويتدينون بدين النصرانية ولكنهم قليلون في القدر ومن ينسب الى الاسلام اكثر منهم ومع ذلك فلم تنزل في الجميع عقائد ابائهم واوهام اسلافهم ولكل فرقة منهم احوال تميزها كالفلو مثلاً فان في طبيعهم حب الانتقام من عدوهم زيادة عن غيرهم ولا يتركون ثارهم فاذا قتل منهم قتيل اخذ اكبر اولاده او اقرب الناس اليه نعله وحفظه ويلبسه كل سنة في مثل اليوم الذي قتل فيه قتيله الى ان ياخذ بثاره ويندر ان يسلم القتال عندهم من القتل

ورايث في البلدة التي كنت بها جارية يعظونها ويحترمونها اكثر من غيرها فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انها كان لها زوج قتلته شخص من بلد بقرب بلدهم فاضمرت في نفسها ان تاخذ بثاره فصارت تزين نفسها باحسن ما يكون عندهم وتعطر وتزهر بقاتل زوجها وتستميله اليها ولم تنزل كذلك حتى احبها وشغف بها فاقامت عنده مدة حتى تمكنت من غرضها فقطعت راسه واتت به الى بلدها فشهدوا لها بالدهاء ولطف الحيلة واحترموها لذلك ومن

عاداتهم انه متى وقع بين اثنين منهم عداوة واستمرت وبقيت فلا تزول ولا تحول فاذا ابتدأت العداوة بين اثنين منهم اخذا ورقة من شجرة معروفة عندهم فيجذب كل منهما بطرف منها فتمزق الورقة بينهما ومن ذلك الوقت يستعد كل منهما لتدمير كل مكيدة لصاحبه ويبدل الجهد في اساءته والعبيد والاحرار عندهم في هذه العادة سواء

ودخلت بلاد قوم منهم يقال لهم المندنج فرايت حول كل بلد وقرية لهم زربية من القصب (البوص) تحيط بها والاحرار منهم نحو الربع وهم السادة والباقي ارقاء لا مخلص لهم من الرق وعليم خدمة الارض وغيرها وهناك ولاية تسمى كجاءعا نهايتها من جهة الشمال من نهر السينيجال هوؤها معتدل واهلها معروفون بالصدق والامانة في المعاملة ودأبهم التجارة مع الاورواباويين فيبيعون لهم الذهب والرفيق ولهم على جمع المال حرص زائد واكثر ربحهم من بيع الملح وثياب القطن ومن عاداتهم انهم اذا سافر منهم احد في تجارة ثم رجع لا بد ان يستصحب معه بعض هدايا لبعض احبابه فاذا اتى الى بلده اخبر بربحه وتجارته فاذا تبين انه لم يربح في تجارته ولم ينجح في سفرته عيروه وأسأوه وهدموا بيته وصار فيما بينهم حقيراً ذليلاً مهاناً فلا يخلص من لسانهم وائذائهم الا بالفرار من بينهم وعلى شمال هذه الجهة ولاية تعرف بولاية (يوندو) وهي شرقي ولاية (بامبوك) بين جاينا والسينيجال تمر منها القوافل

الواردة من داخل افريقيه بالرقيق متوجهة الى السواحل وكذلك القوافل التي تجر في الملح وهذان الصنفان من التجارة يتداولها اهل المندنج وكذلك القطن والحديد ولم ايضاً متاجر يذهبون بها الى بلاد المغرب ومن عروض التجارة عندهم صنف عطري يشبه الصمغ يضعونه في اكياس يجعلون في كل منها قدر الاوقه منه ومن خاصة هذا النوع انه اذا وضع جزء منه على النار فاحت له رائحة طيبة ويخر به اهل المندنج ملابسهم ومساكلهم ولم رسوم ياخذونها من كل من يمر بهذه الولاية من التجار بالبضائع الاوروبية فياخذون على كل حمل حمار قضيب بضاعة فان مر بالمدينة التي بها الملك لزمه اعطاء ثوب من قماش او بنديقية وست زجاجات مملوءة من البارود ومن اهل تلك الجهات ( الغولاه ) ولونهم يقرب من لون الحبش وهم اكثر ولايات هذه الجهة عدداً بعد طائفة المندنج ويزعمون انهم اصل لما عداهم ويعدون نفسهم من البيض والكل يتمون لدين الاسلام ما عدا الملك والامراء وعندهم مكاتب لتعليم الاطفال من اي امة كانوا ويتعلمون في هذه المكاتب القرآن الشريف والقواعد الدينية الاسلامية ويتكلمون باللغة العربية منذ دخل الاسلام بلادهم وكانت لهم قبل ذلك لغة غير العربية وفي طبيعهم حب البهائم وخدمتها فيجلبونها صباحاً ومساءً ويشربون من لبنها حليباً وحامضاً ويستخرجون منه زبداً يستعملونه في دهن اجسامهم وشعورهم ووجوههم الا ان البان اوروبا اكثر زبداً من

لبن بقرهم ومع اعنائهم بالبقر وحبهم للبنها وكثرته عندهم لا معرفة  
 لهم بكيفية استخراج جبنه اصلاً ويقولون ان المانع من عمله عزة الملح  
 وشدة الحر وكثرة ما يصرف في عمله وقلة ربحه وعندهم خيل من  
 الجياد وهي من نتيجة اخلاط الخيل العربية بالافريقية واهل هذه  
 البلاد يعتقدون ان التمر يتغير في كل شهر وان لكل شهر قرناً  
 جديداً فاذا راوا الهلال اجتمعوا ودعوا بدعوات سرية يقصدون  
 بها الشكر لله على ما اولاهم من النعم في مدة التمر الماضي ورجاء  
 دوام ذلك في مدة التمر الجديد وعندهم ان الارض ذات امتداد غير  
 محدود فلا يصل احد الى نهايتها لاحاطة السحاب والضباب بها  
 وفي ظنهم ان احسن البلاد بلادهم وانهم احسن انواع الانسان  
 فيتأسفون على من عداهم من الخلق حيث لم يكونوا في ارض خصبة  
 كارضهم وقطر معتدل الهواء كقطرهم ويعترفون بوجود الخالق  
 سبحانه ويقولون بوجود الجنة والنار لجزاء المحسنين بالجنة والمسيئين  
 بالنار ولهم معرفة بخدمة الارض ومزيد رغبة في الزرع ولكنهم انما  
 يزرعون من الارض بقدر ما يكفي لموتهم جميع سنتهم لانهم لا يتأني  
 لهم اخراج ما زاد عن لوازمهم الى الخارج ويشغلون بالزرع وخدمة  
 الارض في فصل نزول الامطار واما فصل الصيف فيشتغلون  
 فيه بالصيد والتنص فتأخذ سكان السواحل اقفاصاً او شباكاً  
 يصطادون بها من البحر وما يصطادونه من السمك يجففونه في  
 الشمس ويدخرونه لوقت لزومه مدهوناً بشيء من الزبد وغيرهم

يشتغلون بالتقنص واصطياد بعض الحيوانات البرية والالات  
 المستعملة عندهم في ذلك هي القوس والنشاب ولم في الرمي حذق  
 عجيب بحيث يرمي به الواحد منهم الوزغة على الشجرة او الحائط  
 فلا يخطئها ولجميعهم معرفة بصناعة الحياكة والصباغة والخياطة  
 ويتعلمون هذه الصنائع من صغرهم وترى الحداد منهم يعرف صوغ  
 الذهب والفضة ولم في الذهب صناعة بارعة يعجز عن بعضها كثير  
 من مهرة الاوروبيين

فقال الشيخ كذلك يوجد في بلاد النوبة التابعة لحكومة مصر  
 من لم مزيد براعة وحذق في صياغة الذهب والفضة وقد تذكرت  
 بما ذكرت من قصة المرأة التي اخذت بشار زوجها ما فعلته الزباء  
 مع جذية الابرش واخذها منه بشار ابوها

فقال الانكليزي اما الزباء فغاية علمي بها انها كانت من  
 ملوك العرب القديمة ولكن لا ادري نسبها ولا الارض التي كانت  
 بها ولا ما فعلته مع جذية



المعامرة الثانية والسنون

الزباء وجذبة الابرش

وقصير ويهس

فقال الشيخ اما نسبها فهي على ما ذكره ابو الفرج الاصبهاني بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن اذينة بن السميدع بن هوبر العاملي من عاملة العاليق وكان ابوها ملكاً على الجزيرة جزيرة ابن عمروهي في شمال الموصل يحيط بها نهر دجلة فقتله جذبة الابرش ملك الحيرة والانبار وطرده الزباء ابته الى الشام فلحقت بالروم وكانت عربية اللسان كبيرة الهممة ما عرف في زمانها اجمل منها وانما سميت الزباء لانها كان لها شعرا اذا مشت سحبتة وراها واذا نشرته جللها والزيب كثرة الشعر الوصف منه ازب للرجل وزباء

للانثى ومنه سميت الزباء لكثرة شعرها فلما اجلاها جذية من ملك  
 ابيا وطردها بذلت الاموال وجعت الرجال فلما استجمع امرها  
 عادت الى الجزيرة فاستردتها الى ملكها واستولت عليها وهي معدودة  
 في ملوك الطوائف ثم انها قصدت الى الاخذ بنار ابيا والانتقام  
 من جذية فلم تجد عندها من القدرة ما يمكنها من ذلك بالقوة  
 والحرب فعولت على التديب والمكيدة فهادنت جذية وكنبت اليه  
 تقول . اني لم اجد ملك النساء الا قبيحا في السماع وضعفا في  
 السلطان ولا ارى للملكي موضعا ولا لنفسي كفوا غيرك فاقبل اليّ  
 لاتزوج بك واجمع ملكي على ملكك واصل بلادي ببلادك .  
 تريد بذلك غدره فلما اتى كتابها اليه طمعت نفسه فيما عرضته عليه  
 فجمع اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بتلبية دعوتها واجابة خطبتها  
 الا رجلا فيهم يقال له قصير ابن سعد فخالقهم فيما اشاروا به عليه  
 وقال ( رأي فاتر وغدر حاضر ) والرأي ان تكتب اليها فان  
 كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك والا فلا تمكنها من نفسك  
 فتقع في حبالها وقد وترتها وقتلت اباه فلم يوافقته جذية فيما اشار  
 به عليه وسار اليها في وجوه اصحابه فاخذ علي شاطي « الفرات من  
 الجانب الغربي وقبل وصوله اليها استقبلته رسلها بالهدايا والالطاف  
 فلما رأى جذية ذلك قال لتصير كيف ترى فقال ( خطب يسير  
 في خطب كبير ) وستلتاك الجيوش فان ساروا امامك فالمرأة

صادقة وإن اخذوا جنبتيك واحاطوا بك من خلفك فاقوم  
غادرون بك فسار جذية وقد احاطت به الخيل حتى دخلوا به  
علي الزباء فلما صار عندها دعت بالسيف والنطع وامرت بطست  
من ذهب كانت قد اعدته له وقالت ان دماء الملوك دواء من  
الكلب ثم امرت براهشيه فقطعنا والرواهش عروق اليدين فلما  
ضعفت يده سقطنا فطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت  
لا تضعوا دم الملك فقال جذية (دعوا دماً ضيعه اهله) واستنزفه  
الدم حتى مات هذا ما كان من امر الزباء وتحيلها في اخذ ثار  
ابها واما قصير فانه لما احاطت الخيل بجذية وعلم الغدر به نجأ  
بنفسه ورجع الى بلاده فتحيل على قتلها فجدع انفه ورحل اليها فلما  
رأته قالت ما الذي ارى بك يا قصير ومن جدع انفك فقال لها  
زعم قوم جذية اني قد غررتك وزينت له المصير اليك وغششته  
وما لأتلك عليه ففعلوا بي ما ترين فلما رايت ذلك منهم اقبلت  
اليك وعرفت اني لا اكون مع احد اثقل عليه منك فصدفته  
واكرمه واصابت عنده من الحزم ما ارادت فلما عرف انها اطمانت  
اليه ووثقت به قال لها ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائف وثياباً  
وعطراً فابعثني الى العراق لاحمل ما لي واحمل اليك من بزوزها  
وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك ارباحاً عظيمة وشيئاً  
ما لا اغني للملوك عنه فلم يزل يزين لها ذلك حتى اذنت له

ودفعت له أموالاً فسار قصير بما دفعته اليه حتى قدم العراق واني  
الى المحيرة وهي بلاد جذيمة متنكراً ودخل على قوم جذيمة وقال لهم  
جهزوني بصنوف البر والامتعة لعل الله يمكننا من الزباء فنصيب  
ثارتنا فاعطوه حاجته فرجع بذلك الى الزباء فاعجبها ما رات وسرها  
وازدادت به ثقة وجهازته ثانية وثالثة فرجع الى بلاده وجمع ثقات  
رجالهم وشجعانهم وهياء لهم الغرائر والسلاح وحمل كل رجلين على  
بعير في غرارتين وسار يمشي النهار ويسير الليل فلما صار قريباً من  
مدينة الزباء تقدم فبشرها واعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف  
وسالها ان تخرج فتتظر الى ما جاء به فخرجت فابصرت الابل تكاد  
قوائمها تسوخ في الارض من ثقل احمالها فقالت يا قصير

ما للجمال مشيهاً وئيداً

اجندلاً بمحملان ام حديداً

فلما توسطت الابل المدينة اناخوها وخرجت الرجال من  
الغرائر وصاحوا باهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ولم تمكن الزباء  
من الهرب فمضت خائماً بيدها وكان فيه السم وقالت بيدي لا بيد  
قصير فماتت وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام والى هذه القصة  
يشير المتألمس في قوله من قصيدة له

الم تر ان المرء رهين منية

صريع لعافي الطير او هو يرأس

فلا تبلىن ضماً مخافة ميتة

وموتن بها حرّاً وجلدك املسُ

فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه

قصير وخاض الموت بالسيف بهيسُ

نعامة لما صرع القوم رهطه

تبيين في اثوابه كيف يلبسُ

فقال الانكليزي اما قوله فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه قصير

فقد فهم ما ذكر من حكاية الزياء واما قوله وخاض الموت بالسيف

بهيس الى اخره فالمرجو بيان المراد منه

قال الشيخ نعامة لقب بهيس المذكور وهو بهيس بن خلف

بن هلال ابن غراب بن ظالم بن فزارة الفزاري وكان سابع سبعة

اخوة فاغار عليهم وهم في ابلهم ناس من اشجع كان بينهم وبينهم حرب

فقتلوا منهم ستة وبقي بهيس وهو اصغرهم وكان يوصف بالحقيق

والبله فارادوا قتله ثم قالوا وما تريدون من قتل هذا يحسب

عليكم برجل ولا خير فيه فقال دعوني اتوصل معكم فلما كان من

الغد نزلوا فحروا جزوراً في يوم شديد الحر فقالوا اظللوا لحمكم

لا يفسد فقال بهيس ( لكن بالاثلاث لحمًا لا يظلل ) يريد اخوته

فذهبت مثلاً فلما قال ذلك قالوا انه لمنكر وهو ان يقتلوه ثم

تركوه وظلوا يشتوون من لحم الجزور وياكلون فقال احدهم ما

اطيب يومنا فقال بهيس ( لكن على بلدح قوم عجفي ) فارسها مثلاً

ثم انشعب طريقهم فأتى أمه فاخبرها الخبر فقالت فإنا جاءني بك من بين اخوتك وكانت لا تحبه مثلهم لما يوصف به من الحمق فقال (لو خبرت لاخترت) فذهبت مثلاً يعني لو كان الاخيار لك لاخترت ان اموت ويبقى منهم واحد غيري لكن الامر ليس باخيارك ثم ان امه عطف عليه وورقت فقال الناس احبته امه فقال (نكل أرامها ولدًا) اي عطفها على ولد فارسلها مثلاً ثم ان امه جعلت تعطيه ثياب اخوته فيلبسها فقال (يا حبذا التراث لولا الذلة) فسارت مثلاً ثم اتى على ذلك ما شاء الله تعالى ثم انه رأى نسوة من قوم يصلحن امرأة منهن يردن ان يهدينها الى بعض قتلة اخيه فجعل يهيس يلبس السراويل مكان القميص والقميص مكان السراويل وقيل كان يغطي راسه ويكشف استه فقلن ما تصنع يا بهيس فقال

البس لكل حالة لبوسها

اما نعيمها واما لبوسها

فارسلها مثلاً ثم انه امر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعاماً فجعل يأكل ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فارسلها مثلاً فقالت امه لا يطلب هذا بئراً ابداً فقال (لا تامن الاحق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه اخبر ان انساناً من اشجع في غار يشربون نبيذاً فانطلق للحال له يقال له ابو حنش

فقال هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى هل  
لك في غنمة باردة ( فسارت مثلاً فانطلق بيهس بخاله حتى أقامه  
على فم الغار ثم دفع ابا حنش في الغار فقال ضرباً ابا حنش فقال  
بعضهم ان ابا حنش لبطل فقال ابو حنش ( مكره اخاك لا بطل )  
فارسلمها مثلاً فقتلهم جميعاً فضرب به المثل في ادراك الثار فهذا  
حديث بيهس وبه يفهم قول المتلمس في الايات المتقدمة  
نعامة لما صرّح القوم رهطه  
تبين في انوابه كيف يلبسُ



## المسامرة الثالثة والستون

## الرفيق

قال الانكليزي اذا نظر الانسان في احوال افريقة وما يفعله  
اهلها في ضرب الرق على بعضهم من غير نظر الى من يستحق  
الاسترقاق ومن لا يستحق وما يقاسيه فيها الارقاء من الذل  
والاهانة وما يكلفونه من الاعمال ادركه الاسف والرقه على هولاء  
المساكين المستضعفين ومن قرا كتب السائحين الذين طافوا بتلك  
الارض علم ان تجارة الرقيق عامة في جميع جهات افريقة وفي كل  
سنة ينقل من اهلها الى جهات الامريكا وجزائر البحر المحيط وبلاد  
العرب والترك والعجم عدد كثير وقد اخذت هذه التجارة في الازدياد  
والسعة منذ استقل بها الاوروبيون وقد بلغ عدد الرقيق المنقول  
بمراكب الانكليز من سواحل ارض الذهب سنة ١٨٢٢ للميلاد



وهي سنة ١٢٢٨ للهجرة ستين الف راس وبمراكب الفلمنك عشرين  
الفاً وبمراكب الدينيرقة والسويد والبرتغال نحو ثمانية عشر الفاً فكان  
المجموع نحو ثمانين وتسعين الف راس ما بين ذكر وانثى وهو امر  
جار من قديم الزمان الى الان وقد تعرض بعض الدول الغربية  
لمنعه وتشددوا في ذلك واقاموا الحرس والمتنشين لابطال تجارته  
ومنعه ومع ذلك فلم يمكن منعه بالكلية ولم تنزل تجارته جارية  
متداولة وان لم يكن اجراؤها في بعض المواضع او بعض الاحيان  
جهرًا جرت خفية وسراً ولم ينقطع وروده من جهاته فان اهل  
تلك الجهات لفقروهم وتجردهم من المعارف وتوحشهم في الصحاري  
المتفرقة والفيافي الموحشة واعنيادهم على استرقاق بعضهم واخطفاف  
من عثروا به من جنسهم قد صار عندهم هذا الامر كالحيلة  
والطبيعة الثابتة ولهذا لم يترتب على منعه الا علوانته والتدقيق  
في بيعه فلا يزول ذلك من طبعم ولا يتحولون عنه الا اذا  
انتشرت فيهم العلوم الدينية والاداب التمدنية وتالفت قلوبهم  
وزالت الضغائن من بينهم واتى ذلك وقد اتخذوه كالميراث عن  
ابائهم فقد مضى على سكان هذه الارض القرون العديدة والازمنة  
المديدة وهم على ذلك جيلاً بعد جيل وامة بعد امة نعم قد يقال  
ان فعلهم هذا اخف من غيره اذ لا يخفى ان توحشهم وجهلهم وجفاء  
طباعهم وكون ملوكهم وامرائهم وذوي الكلمة فيهم نشاوا مثلهم في  
حال الجهل والتوحش بمعزل عن الانسانية وحسن الاداب كل

ذلك موجب لقيام الحرب بينهم فاذا انتصر بعضهم على بعض فلا يخلو الحال من وقوع بعض المغلوبين اسرى في ايدي الغالبين فاذا لم يتصرفوا فيهم بالبيع ويتفعلوا باثمانهم قتلهم والبيع اخف من القتل اذ الرقيق اذا انتقل من بلاده خرج عن المحالة الاولى والطريقة التوحشية وربما اكتسب بحسن التربية علماً وعقلاً وصار بين الذين انتقل اليهم كانه واحد منهم فلو كان حال الرقيق عند جميع الناس على الصفة التي يقتضيها دين الاسلام من معاملته بالرفق والشفقة واللطف والرقعة لم يكن في الرق ضرر خصوصاً ان الرقيق ربما يناله العتق ويلتحق بسائر الاحرار فليس الكلام في هذا وإنما الذي يجب التنبه له وشدة الاجتهاد في منعه هو ما يجلب على ايدي الاورباويين الى جزائر البحر المحيط والامريكا فان اهل تلك الجهات لا يفرقون بين الرقيق والداية في سوء المعاملة فالرقيق والحميوان عندهم بمنزلة واحدة سواء بسواء فكم فرق بين معاملته في هذه الجهات ومعاملته عند اهل الجهات الاسلامية الذين يكون عندهم الرقيق بمنزلة الولد ويتخذون عتقه والاحسان اليه قرينة عند الله

وما يزيدنا اسفاً ان هذه الجهات يتعسر تمدنها جداً كما يعلم من كتب السائحين اذ لم يترتب على توطن بعض الاوروبيين في سواحل افريقية الغربية الى الان نتيجة حسنة لاسيما وهم هناك عرضة لامراض شتى بسبب التغيرات الجوية وكثرة الانجزة المتصاعدة من

الأرض خصوصاً في فصل الأمطار فلا يمكن أن تطول إقامتهم بها وقد أجرت الحكومة الانكليزية عدة تجارب علم منها أن من يموت من العسكر الأغرأب في كل سنة قريب من النصف وهذا في السواحل التي يمكن فيها الحصول على اللأزم فما بالك بغيرها من الجهات المتباعدة التي لم يتيسر كشفها إلى الآن

فقال الشيخ أن تفاوت الناس في العقل وجودة النظر في صلاح الأمة والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان أوجب استيلاء بعض الناس على بعض وسريان القهر فيما بينهم حتى نشأ من ذلك التميز باسم المحاكم والمحكوم والملوك والملوك وغاية الأمر أن القهر إذا داخله العدل كان قهراً لذيذاً وضعف الشعور به ولم تكن الأنفس شديدة الإباء منه لحفاء الذل فيه ولم يكن لشريعة من الشرائع أن تبطل ذلك الأمر وتبعث على أهاله لما في تركه من الفساد العظيم وكان الاسترقاق فرعاً من فروع ذلك الأصل فمن شريعة إبراهيم عليه السلام ضرب الرق على السارق ولم يزل هذا الأمر فيما بين الناس حتى جاء الإسلام فكان الطريق إلى الاسترقاق واحداً وذلك أن الإسلام شريعة تامة والدعوة إليه عامة لأنه يدور أمره على عموم الأمن والسلامة في جميع الأرض فان امتثل الناس بسبب معرفة الصواب والخير الذي يدعو إليه الإسلام فذلك ما أريد والأهينوا وقهروا حتى يحصل مقصود الإسلام فكان استعمال السيف لحسم الفتن وتسهيل

اخلاط الناس بعضهم ببعض واشتراكم في تحصيل المنافع وانطلاق  
 افكارهم في ذلك فسبب الاسترقاق حرب المعاندين الذين همهم  
 الافساد ودأبهم العناد وليس مخصوصاً بامة دون امة بل متى  
 استخفت امة من الامم المحاربة والضرب حتى ترجع الى حد الاعتدال  
 كان كل من اسر منهم في الرق وكانت ذريتهم ايضاً ارقاء تحت  
 ايدي المسلمين وربما كان ذلك سبباً لتأديب قوم آخرين فان  
 سبي الذرية والنساء اشد على الانفس من القتل فالاسترقاق  
 طرف من الاهانة المقصود بها تاديب الناس ومشيهم تحت قوانين  
 جامعة وامامات فعله الامم السودانية فتلك عادة جاهلية بهيمية الاعتماد  
 فيها على القوة والتسلط كما هو شان بعض الحيوانات والغرض لهم  
 من ذلك حظ الانفس واستفراغ الوسع في الشهوات والاستئثار  
 باسم السيادة ومثل ذلك يجب على الناس منعه والاهتمام بالكف  
 عنه وبالاطلاع على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء وما  
 امر به في حقه وشدد فيه يعلم ان الاسترقاق على ذلك الوجه من  
 الامور المستحسنة في العقول فقد قال عليه الصلوة والسلام ابعاداً  
 وتحاشياً عن ادخال الانكسار على انفس الارقاء ( لا يقولون احدكم  
 عبدي وأمتي ولا يقول الملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي  
 وفتاتي وليقل الملوك سيدي وسيدتي فانكم المملوكون والرب الله عز  
 وجل ) وقد استوجب استحكام الطيش والغباوة في طباع السودان  
 فשו الرق فيهم وظهور الاستيلاء عليهم حيث ابعدوا باعمالهم بينهم

عن التميزات الانسانية ألا ترى ان من تعقل منهم وظهرت عليه  
اثار النجابة كيف بلغ به نصيبه من ذلك الدرجة التي يستحقها .  
هذا الشاعر المشهور بعبد بني الحساس رفعه علمه وشعره حتى  
قبل فيه

اشعار عبد بني الحساس قن له

يوم الفخار مقام الاصل والنسب

وهذا نصيب احد شعراء بني امية قد بلغ بعلمه وشعره درجة  
عظيمة يحكى انه دخل مصر في رحلة من رحله وهو على هيئة جميلة  
وشارة عالية في ملابسه وركابه واتباعه فاطاف به السودان فرحين  
مسرورين برويته فقال اسررتكم قالوا نعم فقال ما يسوءكم من اهل  
جلدتكم اكثر وهذا الامتاز كافور الاخشيدي تولى نيابة ملك  
مصر وكان في التدبير والرزانة وعمل الخير غاية . يحكى انه طرب  
يوماً من السماع فحرك كتفه واستشعر النقص في ذلك فاتخذ تحريك  
كتفه عادة يعاودها الوقت بعد الوقت من ذلك الحين الى ان  
مات يوم من يراه ان ذلك لعله اصابته وكان في ليلة العيد يخرج  
بعد المغرب ويجلس على سلم الركوب ويبعث الناس بالعطايا الى  
منازل عرف احتياج اهلها بالبحث والتفتيش السري ويستقبل  
الاوراق التي يكتب فيها الوصول ويبقى كذلك حتى يركب الى  
صلاة العيد ويجمع ذلك يبين ان خروج الشيء عن الحسن  
سبه مجاوزة الحد الذي له

فقال يعقوب هذا هو الانصاف والحق وقد قدر السائحون في ارض افريقية مقدار من يوجد بها من الارقا على وجه التقريب فوجد ان الاحرار على قدر الثلث من الارقا وليست معاملة جميع الارقا على حد واحد فان معاملة السيد للعبد المولود عنده الطف وارفق من معاملته للعبد المشتري بالثمن واذا اراد السيد بيعه لزمه المرافعة معه على يد قاضي الجهة ليثبت جنايته ثم يبيعه ويباح للسيد في زمن القحط بيع عبد وجملة من عبيده لمشتري لوازم مؤنته وان كان مديوناً ولم يكن في امكانه دفع الدين تؤخذ عبيده في دينه وللاررار على العبيد في الحرب مزية وهي ان الاحرار تكون اكثر سلاحاً واحسن خيلاً فيتأني لهم بذلك اغتنام الفرصة في حالتي النجاح والهزيمة بخلاف العبيد فانهم في الغالب مكلفون بحمل الذخيرة ولم يكن لهم سلاح غير الحربة والنشاب ولهذا تجدهم يقعون في قبضة الغالب مع السهولة بحيث لو نسبنا من يضبط من الاحرار في الحرب الى من يضبط من العبيد لكان كسبة واحد الى خمسة عشر واذا ضبط احد الاحرار اقتدته اصحابه او عائلته بخلاف العبد فلا مخلص له وتجار الرقيق تفضل من تربى في الرق على غيره وترجمه عليه في الثمن بخلاف من كان حراً وطراً عليه الرق في عهد قريب لان الاول اعتاد المشقة والتعب والصبر على الجوع والعطش بخلاف الثاني فانه كان في رفاهية بالنسبة للاول فلا قدرة له على السفر الطويل في الجبال والادوية ولتجار الرقيق من

الأوروبيين وغيرهم من القسوة والجفاء ما يضرب به المثل فتراهم اذا  
 مرض رقيق لم مرضاً اوجب عدم بيعه او تقدم في السن لا يتظرونه  
 حتى يقضي الله عليه بل يقتلونه فان وقعت في يدهم جارية ذات  
 اولاد رموا باولادها الى الوحوش تتخلى الام من الرضاع ويبيعوها  
 واسباب الاسترقاق عندهم في العادة هي الحرب والتحط وسداد  
 الدين والجنايات ومن عاداتهم ان الرجل الحر ان اسر في الحرب  
 صار رقيقاً وهناك نوعان من الحرب عند الافريقيين الاول يكون  
 بعد الاعلان من الطرفين قبل الخروج وربما كان من غير سبب  
 موجب له ومن اول وقعة ينتهي بينهم النزاع والغالب منها يضبط  
 ما قدر عليه من المغلوبين ويبيعه فان كان في الاسرى ضعيف  
 او مريض او ذو عيب قتلوه في الحال حتى لا يتحملوا مؤنته  
 وكذلك يفعلون بالروساء ومن كان سبياً في هيجان الفتنة ومن  
 يخشى باسهم وفي مثل هذه الوقعات لا يكون عدد القتلى كثيراً  
 لانه متى علم احد الفريقين انه مغلوب اتقاد لقرينه او فرمنه ولهذا  
 ترى البلد التي تخرب بمثل هذه الوقعة وان انهدمت بيوتها عن  
 قريب تعمرو وتعود الى احسن مما كانت عليه من اول الامر وايضاً  
 فان غاية امنية الغالب الاستحواذ على جملة من الاسرى لاجل  
 بيعها واخذ ثمنها فلا حاجة له في طول زمن الحرب وكثرة القتلى  
 النوع الثاني يكون خفية لاسباب واهية تقع بين القبائل كشتاق  
 ومنازعة في شي من الاشياء ربما كان واهياً فنجتمع القبيلة العادية

بجملها ورجلها بعد جمع حاصلات الزراعة وتسير خفية الى ان تحل  
بساحة القبيلة التي تريد غزوها فتحمل عليها ليلاً علي حين غفلة  
حملة واحدة فاذا انهزمت اخذت القبيلة الغالبة ما قدرت عليه  
سواء كان رجالا او نساء كبارا او اطفالا لا يميزون بين شريف  
ووضيع وكبير ورضيع ومن حينئذ يصير الغالب سيدا والمغلوب  
عبدا ولم يكن لهم في ذلك قانون يبع الا مجرد الشهوة والطمع ومن  
وقع في يده واحد منهم فهو مخير فيه بين ان يقيه لخدمته وبين  
ان يبيعه فمن ظهر عليه علامات الامثال والاتياد ابقاه ومن توسم  
فيه علامات النفور والشجر من الخدمة باعه في بلاد بعيدة ومن  
هنا يعلم ان اقوى الاسباب لاتساع دائرة الاسترقاق انما هو الحرب  
وان كان له اسباب اخرى كالتحط والحجوع وحلول المصائب  
والجنايات وحب التسلط على بلاد الغير والاستيلاء عليها

وغالب اسلحتهم على الهيئة القديمة كالقوس والنشاب والنبال  
والحرباب واما الاسلحة النارية فلا توجد فيهم الا عند سكان  
السواحل المختلطين بتجار الاوروبيين وعندهم شي كالبلطة يخرجون  
به عند ارادة الحرب يعتقدون انه حرز لهم فيحتمونه ولا يملفون  
به كذبا وعادتهم عند الحرب ان يتستروا بجلود بعض حيوانات  
كالتمور والسباع ونحوها او بجلود زرقاء او بيضاء

وذخيرتهم اذا ارادوا السفر للحرب او غيره قليل من الدقيق  
ياخذونه معهم وتارة لا ياخذون شيئا ويعتمدون على ما يجذونه



في طريقهم من الاعشاب والبقول وما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية وما ينهبونه من البلاد التي يبرون بها ولا يستحبون في سفرهم خياماً بل لا وجود لها عندهم فاذا اضطرتهم كثرة الامطار الى الاستتار صنعوا لهم زرابي من اغصان الاشجار وقد يكون لبعض امرائهم شمسيات تسع الواحدة نحو عشرين نفساً وقد يقع في بعض جهات السواحل مناوشات بحرية لاجل استيلاء بعضهم على ما في مراكب البعض او لامور اخرى ولمهارتهم وتمرهم على السباحة في البحر تكون محاربتهم فيه من اعجب ما يرى ومن عاداتهم ان الفرقة الغالبة تعامل المغلوبين بانواع من التعذيب لا تقتصر فيها على فعلها بالاحياء بل تفعله ايضاً برم القتلى كأن ياخذ القاتل فك المقتول معتقداً ان في ذلك طول عذابه او يقطعها قطعاً يرمي بها الى الوحوش وربما يضربون الطبول على رمة المقتول يزعمون ان في ذلك ازعاجه وسلب راحته ومن عاداتهم عند الخروج الى الحرب ان ياخذ كل واحد منهم قطعة ذهب او صورة وجه انسان او وجه حيوان او زبل حيوان يشابه الخنزير يرون ان استحباب ذلك معهم ناصر لهم على اعدائهم وليس لهم في الحرب قانون متظم بل حربهم مع بعضهم هجوم وحملات وقتية تنقضي في زمن يسير وازا اطلقوا بنادقهم اخفى كل منهم خلف اي شي يصادفه حتى يعم بندقيته ويعود ثانياً والهجوم دفعة واحدة نادر بينهم جداً ومن عاداتهم وقت الحرب ان لا ينظروا لقتيلهم حين

يقع على الارض ميتاً ويقولون ان مع كل فتيل ملكاً فيخافون لو  
 نظروا له ان يجذبهم فيموتوا مثله ولهذا متى اطلق احد منهم بندقيته  
 انكب على الارض او ادبر او اخفى بمعنى انهم لا يستقرون على  
 حالتهم التي كانوا عليها وقت الضرب

فقال الشيخ كثيراً ما كنت اسمع وانا بمصر من ياتي بالرفيق  
 ومن سبق لم الاقامة بذلك القطر انه يوجد بتلك النواحي كثير  
 من الناس يشتغلون بالبحر وما ذكرته من استصحابهم لتلك الصور  
 في حربهم يدل على اشتغالهم بهذا الامر

## المسامرة الرابعة والستون

## السودان بافريقيا

فقال يعقوب جميع طائفة السودان بتلك الاقطار في جهل  
عظيم لا علم لهم بشيء ولا وقوف لهم على حقيقة وانما عندهم بعض  
عادات وعقائد فاسدة اخذوها عن سبهم خلفاً عن سلف ولم  
شغف بكل ما يجدونه من عادات بلادهم كل على حسب بقعته  
التي ولد بها طبيعة نشأوا عليها فهم متمسكون بها لا يتحولون عنها  
ومن هذا القبيل ما يدعونه من السحر فهو عبارة عن اوهام كاذبة  
يدعيها اشخاص معروفون بها عندهم يدخلونها على عقول العامة  
وغيرهم بما يوهون به من اقوال واهية وحكايات مخترعة تسير بين  
الناس بما ينضم اليها من المبالغات والتهويلات فتزيد بذلك  
شهرتهم وثروتهم واهل جهات اكثراً يقولون بوجود الخالق سبحانه

وتعالى ويعتقدون ان جميع افعاله انما تكون بواسطة الملائكة ويقولون ان الله سبحانه وتعالى وملائكته يظهرون لهم في الرعد والبرق والصواعق لتخويفهم ويقولون بان الشيطان من الملائكة وانه اقوام ويتضرعون للتمر ببعض ادعية يتوجهون بها اليه وان كانوا لا يقولون بعبادة الكواكب وفي الليلة الرابعة عشرة من كل شهر يكثر الشرب والرقص وضرب الطبول

ويعترفون بالاخرة ولكن لا يعرفون الجنة ولا النار وانما يزعمون ان جميع مستلذات الانسان في الدنيا تكون له في الاخرة فاهل الشجاعة والثروة واليسار في الدنيا هم عندهم اهل النعيم في الاخرة اما العبيد فلا سعادة لهم الا اذا التحقوا بسادتهم للتعلم في نعيمهم ولهذا الاعتقاد يدفنون مع اغنيائهم نفائس اموالهم من ذهب وقماش ونحو ذلك ويعتقدون ان الميت يهدي بعض ما يدفن معه الى عجوز موكلة بنهر لا بد لكل احد ان يعبره بعد الموت ومن عاداتهم انهم لا يدفنون ميتهم الا بعد اربعة عشر ساعة من موته يساله فيها اقاربه واحبابه واحدا بعد واحد عن سبب موته وفراقه لاهله ونحو ذلك فاذا ادلوه في حفرته اجتمع احبابه واقاربه والقول عليه التراب لاعتقادهم انهم ان لم يفعلوا به ذلك رجع الميت الى اهله وآذاهم ومن عاداتهم ايضا انهم يدفنون في بيوتهم من يعز عليهم فراقه ويضعون بجانبه وعلى قبره بعض ماكولات ومن قبيح معتقداتهم انهم لا يجب عليهم العدل والانصاف الا لابناء جنسهم

دون غيرهم فيستبيحون اسر الاغراب وقتلهم وبيعهم واخذ ما لهم  
ويقولون ان كل ما يليقه البحر بالساحل حق لهم لا يشاركم فيه  
غيرهم وانه مرسل منه اليهم فلذلك تراهم يخصونه بنوع عبادة واهل  
هذه الجهات يقدرّون الزمن بتغير القمر ويعدون السنين بتجدد  
الفصول ولا يحفظون التواريخ وكلمهم مجهلون مقدار ما مضى من  
اعمارهم وانما يحفظون بعض الحوادث العظيمة ويتحدثون فيها فاذا  
ذكروا امرا وارادوا ان يعينوا له وقتاً ارخوه بمحادثة منها فيقولون  
كان كذا عام حادثة كذا وفي طبيعهم الميل الى التغني سواء كانوا  
في حالة سرور او حزن ولا اعتقادهم ان السعادة المعتبرة انما تكون  
في الاخرة تراهم لا يجزعون من الموت ولا يخافون وانما يخافون من  
المرض والالم فان عرض لهم مرض تخلصوا منه بقتلهم لانفسهم ويعدون  
من فعل ذلك بنفسه من اشرافهم والمعتبرين فيما بينهم وربما افردوه  
وحده بقبر مخصوص يضعون معه ما كل كثيرة مما كان يحبه في  
دار الدنيا لا اعتقادهم انه لم يستوفِ زاده منها ومن عاداتهم اذا امر  
احد اعيانهم عبدا من الاهلين بامر خطر قال له العبد افعل  
وعليك الضمان يعني بذلك انه ان مات كان على الامران يعطي  
اهله دينه وهي ثمن عبد يدفعه لهم وجميع هذه الامة تقول بان ارواح  
الاموات تتشكل في صور مختلفة وتظهر للاحياء اما لتخويفهم او  
لموانستهم وقد بلغني ان رجلاً اوروبياً كان له جارية مات فادعت  
انها رأتة بعد موته يعنفها ويلومها فمضت من شدة خوفها وادعى

اهل الميت انهم سمعوه وهو يتكلم معها فغلب الوهم عليها فاشند مرضها حتى ماتت

ومشائهم يوافقونهم على ذلك ويصدقونه ويقولون لهم ان الشيطان والملائكة تظهر بين العالم في صورة الادميين او البهائم او غير ذلك ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرك والانهار والجبال والصخور والغابات والاشجار وبيوت النمل وبعض الاحجار المنفردة عن غيرها وما اشبه ذلك ويحترمونها احتراماً عظيماً كاحترام غيرهم من الامم لمقامات الاولياء والصالحين ويعمل لهم مشائهم تماًم وتعويدات على اشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الامراض والعايات وتاخذ منهم في مقابلتها جعلاً عظيماً وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر اهلها للشمس مطلقاً ولا يمشون الا بالليل ومنهم من يعيش طول عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها واهل تلك الارض لا يفرقون بين دين واخر وكل الاديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقدتهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم ولم طرق لا يسلكها الا اولياؤهم ويميزونها باوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها على جانبي الطريق فاذا راوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقاً بعيداً عنه

واما العادة في الزواج عندهم فمختلفة باختلاف الجهات ففي جهة (اكارا) تختب البنت من ابها وامها فاذا اتفق الزوج معها زفت الى زوجها من غير نظر الى رضاها وعدمه ومن حين

الزواج تصير الزوجة في ملك الزوج وتصرفه فله بيعها اذا اراد وتاديبها اذا اساءت وقتلها اذا زنت وللزوج في (آكارا) على من زنى بزوجه عبد واحد وفي غيرها من الجهات عبدان الى سبعة فاكثر وفي بعض الجهات اربعة ريات وفي بعضها اثنا عشر وفي بعضها لا حد لذلك بل المدار على ما تطيب به نفس الزوج فان كان الزاني معسراً فللزواج بيعه واخذ ثمنه هذا كله اذا لم تشتهر الزوجة بالزنا فان اشتهرت به وعلم بها زوجها فلا وجه له على الزاني ولا لوم عندهم على مصاحبة الذكور للاناث غير المحظايا ومن عادات اهل (آكارا) ان بنت الغني منهم اذا ارادت ان تتزوج بحيث تبقى على حريتها ولا تكون في اسر الزوج فعلت ما يقال له زواج المحائط وذلك ان تجري الافراح وسائر رسوم الزواج كأنها طلبت للزواج بالفعل ومن ذلك الوقت يكون لها ان تعاشر من تشاء وتستبدله بغيره في اي وقت تريد وتتكفل بتربية ما يكون لها من الاولاد وهذا كثيراً ما يحصل في جهات (آكارا) وهناك عادة اخرى في غيرها وهي ان تجتمع الشواب والشبان بشاطيء البحر وينزعون ثيابهم وينزلون في البحر مختلطين مع بعضهم فمن اعجبه صاحبه خطبه

وعندهم لا يمتنع تزويج الذكر باي انثى الا اذا كانت اخنا الا انهم يحقرون المرأة العاقر ويحترمون الولود خصوصاً اذا كانت تلد ذكوراً ومن كثرت اولادها يعمل لها زفاف عظيم ويكون لها

عندهم مزيد اجلال وتكريم

ومن الغريب انهم اذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة او بعدها فانها تدفن ومن اوهاهم ان روح الولد الذي يموت تنتقل الى جنة اخيه الذي تلده بعده امه فاذا لم يميت المولود وبلغ وان الحلم اجتمعوا وعملوا له فرحاً ومهرجائاً فان كان الولد ذكراً اظهر للناس ما عنده من القوة والشجاعة وان كانت انثى تنزين وتجمل وتلبس احسن ما عندها ثم تقوم وترقص بينهم وتبدي زينتها وجمالها وبراعتها في الرقص

وهناك قوم على ساحل نهر السيستوس على بعد اربعين فرسخاً من راس ( ميزورادوا )

ومن عاداتهم انهم اذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما اخبر بذلك احد السائحين قال في اثناء عبارة له ان تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممنوع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر ان كانت المخطوبة حرة او القيمة ان كانت أمة فتمت اتفقوا على ذلك اخذ الزوج زوجته وذهب بها الى نساءه فتنخلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعاً بتهيئة الوليمة وبعد الدخول بها اول ليلة تكون مع سائر نساءه في خدمة المنزل ومن عاداتهم ان من تلد من الزوجات اولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل الا ان هذا التقدم لا يثمر لها الا التندم لانها هي التي تدفن



مع زوجها لومات في حياتها

قال وقد حضرت جنازة لرجل مات في قرية من القرى وكان شيخ القرية فلما مات ارتفع الصياح من جميع من في البيت من النساء فاجتمع اليهن نساء البلد ورفعن اصواتهن مثلن فكان جزع الحظية من بينهن اعظم وصوتها اعلى من اصوات جميع من في المآتم فكان بالضرورة بكاءؤها في ذلك الوقت على نفسها لاعلى بعلمها لعلمها انها هي التي ستدفن معه وكان باقي النساء وقتئذ مع بكائهن وصياحهن مجتمعات حولها ينظرن اليها من طرف خفي حذراً من فرارها وقد اتفق ان بعض المحظايا في مثل هذه الحال هربت وتخلصت من الدفن مع زوجها فكان محذقات بها لكيلا تتمكن من الهرب وهن مع ذلك يظهرن الاسف على فقدها والتوجع لمصابها ثم ان اقارب الميت حضروا فعزوها في بعلمها وودعوها وداع الموتى وبعد ذلك أتى رجل في هيئة فقيه ومعه بعض اتباعه فوضع يده على الميت كما يفعل الحكيم وقال ان موته طبيعي لا سبب له سوى انقضاء اجله ثم غسله ودهن جسمه بدهن معروف لهم يدهنون به موتاهم ثم انه بعد ان دهنه من راسه الى قدمه حوله من مكانه الى حصير مفروش في وسط المنزل والناس حوله ينظرون اليه وحضر النساء فاحطن به وكانت الحظية عند راسه وجميع النساء ناشرات شعورهن بنخن ويصحن ويضربن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وكن في بعض الاحيان يسكنن ثم

يعدن لما كنّ عليه وكان بينهن جماعة منهن يندبن الميت ويذكرن فضائله فاستمر الحال على ذلك نحو ساعتين وإذا بعبدین قوبین حضرا فاحتملا الميت وربطاه على خشبات من فروع الشجر وطافا به نواحي القرية مع الهرولة والسرعة في بكاء ونحيب وحركات متنوعة واصوات مفزعة غطت على كل صوت في البلد حتى صار لا يسمع غيرها ثم انصرفوا به ليدفنوه فلما وصلوا الى المقابر وضعوه على الارض وارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء ثم بين فقيهم موضع التربة فاحفروها واسعة على قدر اثنين ثم اتى بعنز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم اعطاهم امعاءها واطرافها فطبخوها واكل منها مع بعض من حضروا واعطى الحظية شيئا منها واما ما بقي من اللحم فقطعه قطعاً صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين واتى منه بقية والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا ينقطع فلما اكلوا قام ذلك الفقيه الى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها الى اثنين من العبيد فاوثقوا يديها وجعلوها خلفها وطرحوها على الارض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يتكىء على الاخر حتى تمشمت عظامها ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم اتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبها ثم اهلوا التراب عليها وعند ذلك اتقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم الى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء

وكل سكان هذه البقاع من غير استثناء مغرمون بشرب

المسكروحب النساء فيصرفون في ذلك معظم اوقاتهم ولو ترتب عليه نقص في اوقاتهم

ومن العادات الجارية في بعض الجهات ان الزوج قبل اجتماعه بزوجته يبعث اليها بثلاث هدايا واحدة فواحدة الاولى من خرز مصنوع من زجاج ونحوه والثانية من جنس ما يلبس والثالثة صندوق تضع فيه امتعتها وكذلك اهل الزوجة يهدون الى الزوج عبيدين فاكثر على حسب الثروة واليسار وكذلك يرسلون له كسوة تليق به وسيفا مجائله وبعض سهام وشيئا من ارز ونحوه

وطريقتهم في تربية اولادهم ان تربية الذكور على الاباء والامهات على الامهات ولا مزية للبكر عندهم على غيرها في الزواج واذا حملت المرأة وعلم بها الزوج لا يقربها حتى تلد ويصنع للمولود ما سنذكره وهوانه اذا كان المولود ذكراً جمع ابوه عائلته وخدمه بعد مضي يومين من ولادته واخذوا نبالمهم وقسمهم ورامحهم وعصيمهم ودارهم في البلد مظهرين الفرح والطرب مكثرين من الغناء والرقص والطبل والزمر فيجتمع عليه احبابه واصحابه ومعهم الات الطرب من الطبول والمزامير والنقلات وغيرها فيجتمعون في ميدان واسع وعند ذلك يخرج رجل من بينهم كالخطيب فياخذ الولد من امه ويضعه على ترس بين الحاضرين ويضع في يده قوساً او نشاباً او نحو ذلك ثم يخطب خطبتين يذكر في الاولى سبب اجتماعهم ثم يلتفت نحو المولود مخاطباً له بالخطبة الثانية ويدعوه بطول العمر

وحسن الحال والغلبة على الامثال والتوسعة في الرزق والمال وان يكون خلفاً ساعياً مساعياً ابيه محباً للخير مانعاً عن نفسه الضيم والضرير معيراً لداره مدوحاً في اثاره وان تكون نفسه عفيفة وهمته عالية شريفة ونحو ذلك مما يناسب المقام ثم يسميه ويعطيه لامة او ابيه وينصرف الحاضرون بعد ذلك وان كان المولود انثى عمل لها ايضاً مثل ذلك ولكن يضعها الخطيب على حصير بدل الترس الذي يوضع فيه الولد ويعطيها عصا بدل النشاب ويدعو لها بان تكون حافظة لعرضها امينة على متاع زوجها ماهرة في طبخها وخبزها مقدمة عند زوجها على باقي نساءه معينة له في اشغاله واعماله ونحو ذلك

ومن عادات الكوجاش ان الرجل اذا مات ورثه اولاده الذكور في جميع مختلفاته من نساء ومال فان مات الرجل ولا ذرية له من الذكور كان الوارث له اكبر اخوته فان خشي الفقر على بقية اولاده اعطى لهم في حياته بعض ماله كل على حسبه فان مات ولا وارث له من اولاده واخوته الذكور وله ذرية من البنات كان ميراثه لأكبر اولاد اخيه من الذكور فان مات ولا وارث له من ذكر كان الوارث الحاكم فحيثئذ يلزمه تربية بنات الميت وفي جنازهم ودفنهم لموتاهم وتجهيزهم لم عاده فظيعة يحافظون عليها ولا يتحولون عنها ذلك انهم بعد ان يغسلوا ميتهم يلبسونه احسن ثيابه وسلاحه ويسندونه الى شي حتى يستوي قائماً على قدميه ثم

تجتمع حوله اقاربه واحبابه ومن يلوذ به ومعهم التسي والنبال  
والات الحرب والقتال ويهبتون صورة محاربة تستمر مدة طويلة ثم  
انهم يولونه ظهورهم ويحنون على ركبهم ويذكرون كلاماً معناه انهم  
مستعدون لقتال من يطعن في ميتهم او يتفوه في حقّه بما لا يليق  
به فان كان الميت قتيلاً اعلنوا بانهم مستعدون لاختاره وبعد  
ذلك يقومون وياخذون من عبيده بقدر ما يناسب مقامه فيطعمونهم  
من احسن ما عندهم ويوضونهم بالقيام بخدمة سيدهم ثم يذبحونهم  
ويدفنونهم معه في قبر واحد ويدفنون معهم ما كان لهم في الدنيا  
من الفرش والاولاي والنياب وجميع ما كانوا يستعملونه في حياتهم ثم  
يضعون عليهم حصيراً ويردون التراب عليها وبعد ذلك يصنعون  
على القبر عشة يدقون في احدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون  
بها بعض سلاح الميت ان كان ذكراً فان كان انثى وضعوا معها  
جميع ثيابها وما كانت تحبه في حياتها وبعد دفن الميت ياتون  
بطعام وشراب فيضعونه على قبره ظناً منهم ان ذلك تغذى به  
روح الميت ويكررون ذلك حيناً بعد حين الى تمام ستة اشهر من  
دفنه

ثم قال يعقوب ولم كثير من امثال هذه العادات الفظيعة  
يطول تعدادها

المسامرة الحامسة والستون

العرب الجاهلية

فقال الشيخ منشأ هذه العادات القبيحة وامثالها إنما يكون من  
الجهالة فلا يزيلها إلا حسن التعليم وانتشار المعارف بين الامة وقد  
كان لامة العرب في الجاهلية كثير من امثال هذه العادات والاهام  
فزالت بما اتشر بينهم من شريعة الاسلام ببعثة محمد عليه الصلاة  
والسلام

فمن عادات العرب في الجاهلية انهم كانوا اذا مات واحد منهم  
عقلوا ناقته عند قبره وشدوا عينها حتى تموت يزعمون انه اذا بعث  
من قبره ركبها

ومنها انهم كانوا اذا اصاب ناقه احد هم داء العرّ كوى الناقة  
السليمة يظنون ان ذلك يبري المعيبة

ومنها انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الشرب  
يزعمون ان الجن تركبه فتصد البقر عن شرب الماء

ومنها الهامة كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يوخذ  
بثاره يخرج من راسه طائر يسمى الهامة فلا يزال يصيح على قبره  
استقوني استقوني الى ان يوخذ بثاره

وكان لهم في النفس مذاهب فمنهم من زعم انها الدم وان الروح  
هو الهواء الذي في باطن جسم الانسان

ومنهم من زعم ان النفس طائر ينشط من جسم الانسان اذا  
مات او قتل ولا يزال يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك  
يقول شاعرهم

سلط الموت والمنون عليهم \* فلم في صدى المقابر هام  
وقال ان هذا الطائر يكبر حتى يكون كاللبوم واكثر ما يوجد  
في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى حتى قالوا ان الهامة  
لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبّر الميت  
ومنها الصفر يزعمون ان الانسان اذا جاع عض شرسوفه  
الصفر وهو حية تكون في البطن

ومنها ثنية الضربة يزعمون ان الحية تموت لاول ضربة فاذا  
ثبتت الضربة عاشت ونحو ذلك من الاوهام الفاسدة والاراء  
الكاسدة فلما جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام هجر  
العمل بذلك كله وبطل القول به من اصله

ومنها انهم اذا اجذبوا بسبب انجاس المطر عنهم وارادوا  
 طلب السقيا من الله جمعوا حزمًا من النباتات التي يبست كالسليح  
 والعشور ورتبوها باذئاب البقر واوقدوا فيها النار واصعدوها في  
 الجبال وفرقوا بينها وبين اولادها حتى يكون ضجيج عظيم ومناظر  
 هائلة يستجلبون بذلك رحمة الله واستمر ذلك فيهم الى ان تنبه  
 كثير اتبع تلك العادة وسماجة ذلك التوسل وكثرت الاشعار فيه  
 فمنها قول بعضهم

شفعنا بيقور الى هاطل الحيا

فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا

فعدنا الى رب الحيا فاجارنا

وصير جذب الارض من عنده خصبا

ومنها قول شاعر اخر

لا در در رجال خاب سعيهم

يستطرون لدى الاعسار بالعرش

اجاعل انت يقورا مسلعة

وزيعة لك بين الله والمطر

قال عبد الحميد بن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عند

ذكر بعض المذاهب التي كانت عليها العرب قال بعض الاذكياء

كل امة قد اتخذوا في مذاهبها مذاهب ملة اخرى وقد كانت الهند

تزم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الارض وان لها



عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان باخائها ويفسلون الوجوه  
ببولها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبركون بها في جميع احوالهم فلعل  
اوائل العرب حذوا هذا الحذو واتهجوا هذا المسلك

وكان البقر عند قدماء المصريين ايضا على نحو من هذه  
المثابة ومن عادات جاهلية العرب ان الانسان اذا لدغه لادغ  
علقوا عليه حلياً وكانوا يعتقدون انه اذا علق عليه حلي الذهب  
برىء واذا علق عليه حلي الرصاص مات وكانت طائفة اخرى  
منهم تعتقد ان تعليق الحلي على اللديغ لاجل ان يسهر ولا ينام  
بسبب قعقعته وكانوا يرون انه اذا نام سرى فيه السم فمات واذا  
لم ينام سلم وقيل لبعض العرب ا يكون تعليق الحلي سببا للسهر  
فقال لا ولكنها سنة توارثناها عن اوائلنا ومن خيالهم ان الرجل  
اذا بلغت ابه الفأ فقأ عين الفحل كانه يحترز بذلك من اصابة  
العين لما له قال شاعرهم في الافتخار بالغناء والتعبير بالقتر مكنياً  
بذلك

فقأنا عيوناً من فحول بهازر

واتم برعي الهم اولى واجدر

والبهازر الجمال العظام والبهم الغنم الصغار

ومن خرافاتهم انهم اذا ارادوا ان يدخلوا قرية لطلب الميرة  
وخافوا وخامتها واصابة وبائها وقفوا خارجها ونهقوا نهيق الحمر  
وعلق كل منهم كعب ارنب عوزة وتميمة ويسمون هذا النهيق

تعشيراً وانفق لعروة بن الورد الشجاع المشهور احد صعاليك  
العرب المضروب بهم المثل في الشدة والجرأة انه خرج في رفقة الى  
خير يمتارون فلما دنوا منها نهتوا على عاداتهم فانف عروة من  
ذلك وقال

لعمرى لئن عشت من خيفة الردى

نهاق حمير انى لمزوع

فلا وألت تلك النفوس ولا اتوا

قفولاً الى الاوطان وهي جميع

وقالوا الا انهق لا تضرك خير

وذلك من فعل اليهود ولوع

فتصادف ان عروة رجع لاهله سالماً غانماً لم تشكه شائكة

وجميع من كان معه وعشروا كانوا بين موتى ومرضى ومنها ان

الرجل اذا كان مسافراً فاخطأ الطريق قلب ثيابه وصفق بيديه

وحركها كانه يومى الى انسان يرى انه يهتدي بذلك الى الطريق

قال اعرابي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي

وترمي برجلي نحو كل سبيل

فلا يا بلابي ما عرفت جليتي

واصبحت قصداً لم يصب بدليل

ومنها اعتقادهم ان القلاة وهي التي لا يعيش لها ولد اذا تحظت

الشريف الذي قتل غدراً سبع مرات وطافت حوله عاشت  
اولادها قال الشاعر  
تظل مقاتل النساء يطأنه

يقلن الا يلقى على المرء مئزرُ

ومنها ان الصبي اذا نزع اسنانه او ان تبديلها رمى بها الى  
الشمس وقال ياشمس ابدليني بها احسن منها وذكرته الشعراء في  
اشعارها من ذلك قول طرفة

بدلته الشمس من منبتها \* بردا ابيض مصقول الاشر  
ومنها اعتقادهم ان دماء الملوك والاشراف اذا شربها من عضه  
الكلب برىء من داء الكلب قال الشاعر يمدح قومًا من الاشراف  
احلامكم لسقام الجهل شافية \* كما دماؤكم تشفي من الكلب  
والكلاب تعثرها حالة هياجية كالجنون فلا تاكل ولا  
تشرب فتصير ضئيلة هزيلة سريعة العدو جداً فاذا لقيت في  
طريقها حيواناً انساناً او غيره عضته والغالب انه يموت العضوض  
ومن خرافاتهم انهم اذا خافوا على الشخص مس الجن واستهواهم  
ايه نجسوه وعلقوا عليه شيئاً من الاقدار وعظام الموتى وخرق الحيض  
قالوا ينفع التحجيس الا من العشق ومن مذاهيمهم انه اذا طرف انسان  
عين الاخر مسح عليها سبعا لذهاب الالم يقول في الاولى احدى  
من سبع جاءت من المدينة وفي الثانية اثنتان من سبع جاءت من  
المدينة وهكذا الى ان يقول سبع من سبع جن من المدينة ومنها

اعتقادهم ان من ولد في الليلة القمراء يخزنه القمرو وذلك انهم يجدونه  
قصير الغرلة ومنها تشاومهم بالعطاس كان الرجل اذا قصد قصداً  
فعطس في وجه انسان رجوع يرى انه لا يصيب خيراً قال الشاعر  
يدح من لم يعتبر ذلك

وخرق اذا وجهت فيه الحاجة

مضيت ولم يجسك عنه العواطس

وما اشتهر عن العرب احاديث الغيلان والسعالى وانها ام  
حية تسكن الفلوات والادوية ورؤس الجبال وانها ربما خالطت  
الناس وحصل بينهم تناكح وتناسل ويذكرون في ذلك احاديث  
كثيرة منها ان عمرو بن يربوع احد مشاهير العرب عثر بامرأة من  
ذلك الجنس فاحبته وتزوجها وولد منها وكانت قالت له اذا رايت  
البرق فاستره عني فاني متي نظرت طرت الى بلاد قومي وتركت  
اولادك فغفل عنها يوماً فرات برقاً فطارت الى ذلك يشير ابو  
العلاء المعري حيث يقول

اذا لاح ايماض سترت وجوهها

كاني عمرو والمطبي سعالى

ولم في هذا الباب اشياء كثيرة كخوفهم اذا قتلوا ثعباناً او حية  
ان تقتص منهم الجن فياخذون روثة ويفنونها على راس المقتول  
ويقولون روثة راث ناعرك بتحززون بذلك وخوفهم من التعرض  
لبعض الحيوانات الصغار كالقنفاذ واليرابيع لزعمهم انها مراكب

الجن وكان لم خرز يستجلبون باستعماله بعض الحوادث كالحب والبغض والمرض والبرء وغير ذلك في اشياء كثيرة من جنس هذه الخرافات يطول استقصاؤها وقد بقي كثير منها نثناقلها النساء ومن يكون على طباعهن من العامة واهل التنبه منهم يسمون ذلك علم الركة نسبة للركة التي يغزل عليها النساء لانهن اذا جلسن للغزل ليلاً تفاوضن في هذه الاحاديث ومن اشنع ما كانت عليه جاهلية العرب وأد البنات وهو دفنهن حيات كان يحفر الرجل حفرة ثم يدي فيها البنت ويطم عليها بالتراب وذلك لاحد سببين خوف لحوق العار الذي يكون من جهة العرض وخوف كثرة الانفاق خشية الاملاق روي ان صعصعة جد الفرزدق الشاعر المشهور وكان ذا مال عظيم خرج يوماً على نجيب الى البادية في طلب ناقين كريمين ضلنا له فوجد في مسيره بيتا باباه شيخ فنزل اليه واستقبله ذلك الشيخ بالتحية والاكرام وجلس يتحدث معه ثم ساله عن الناقين فاخبره بانهما عنده ثم جاءت جارية فبشرته بوضع زوجته فقال انظري ان كان ذكراً شاركنا في مالنا وان كان انثى قمت فوادتها فقال له صعصعة او خيراً من ذلك افتديها منك فقال يتحدث العرب عنا اننا نبيع الأولاد فقال له تلك فدية وهي ابنتك فقبل الاعرابي وجعل الفدية الناقين والنجيب فرضي صعصعة بشرطة ان يعود على النجيب الى اهله ثم بيعته واخذ بعد ذلك صعصعة في هذا العمل حتى فدى مائة

وئيدة وكان الفرزدق يفتخر بذلك ويقول انا ابن محبي الموتى فاذا  
 سئل عنه قال جدي احبي المؤودة والله سبحانه يقول ومن احياها  
 فكأنما احيا الناس جميعا واسلم صعصعة وسال النبي صلى الله عليه  
 وسلم عن عمله فبشره بقبوله وان له ثوابه ولم يكن وأد البنات  
 قديما في العرب ولا عاما لم وما كان عليه العرب ان الرجل اذا  
 مات ورث امراته اكبر اولاده فتزوجها كرها وكان لهم في النكاح  
 ونسبة الذرية طرق مختلفة اعظمها واشرفها ما عليه دين الاسلام  
 من الخطبة وتقدير المهر وعقد التزويج في محفل من الناس والزفاف  
 للشهرة واعتبار الكفاءة . الطريقة الثانية ان تتخذ المرأة بيتا ثم  
 تتخذ عدداً من الرجال لا يتجاوزهم يكونون اخدانها عشرة فما  
 دونها يشتركون فيها والانفاق عليها وربما اجتمعوا اليها يتحدثون  
 ويتنادمون على الشراب فاذا جاءت بولد الحتمته بمن يوجد فيه  
 شبهة ان كان ظاهراً والّا احضروا بعض القافه ليتامله ويلحظه بمن  
 عرف شبهه به وعند ذلك يكون ابناً له . الطريقة الثالثة ان المرأة  
 تتخذ بيتا وتصب عليه راية ولا تختص باحد بل يدخل عليها كل  
 من اراد وهؤلاء البغايا فان جاءت بولد الحتمته بمن شاءت من  
 المشهورين بالعهر وتيان البغايا فلا يقدر على الامتناع من ذلك  
 واذا استلخه رجل قبل ان تلحقه باحد كان ابنه  
 وكانت العرب تتجوز من غير حصر فيجمع الرجل في عصمته  
 عشر نساء واكثر واسلم غيلان بن سلمة وتخه عشر نسوة فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم امسك اربعاً وفارق سائرهن وكان  
للعرب عناية بامر العيافة والزجر والمراد بذلك الاستدلال على  
حوادث الخير والشرب باحوال يشاهدونها عند نية امر من الامور  
ولهم في ذلك مصادفات غريبة تكاد تجعل الباطل حقاً وقد اشتهر  
بعض القبائل بالمهارة في ذلك قال الشاعر  
خبير بنو لهب فلا تكُ ملغياً

### مقالة لهبيّ اذا الطير ولت

فكانت هذه الاشياء في جاهلية العرب لعدم تفكيرهم في حقائق  
الاشياء وعللها وغاياتها اذ لم يكن لهم مرشد الهى يخبرهم بفساد ما  
هم عليه من العقائد والاهام والمذاهب التي نشأت فيهم بسبب  
الجهل والغفلة والتخيلات لكن العرب بمجودة طباعهم وكرم فطرتهم  
وحسن اخلاقهم كان فيهم عقلاء حلماء حكماء كثيرة استخرجت  
افكارهم اغلب الاداب الانسانية التي ينبغي ان يكون عليها النوع  
الذي شرفه الله بالعلم والنطق والالفة والاجتماع للتعاون في تحصيل  
المنافع التي خلقت له يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعثت  
لائم مكارم الاخلاق وما اشتهر عنهم من الاشعار والمخطب والمقالات  
في فصل القضايا والخصومات واصلاح ذات البين ولا شاهد  
اصدق واعدل من النطق وحسن الابانة عن الاغراض والمعاني  
المعقولة يظهر ذلك في كلماتهم الوجيزة وامثالهم العزيزة وقد ورد  
الاسلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم اما باعيانها واما بتغييرات

يسيرة فكان الشر في الامة العربية مضحلاً مغموراً في تضاعيف  
ما لم من الخيرات الكثيرة والمآثر العلية الشهيرة  
قال ناقل الحديث ثم لما طال بهم المجلس ومالت الى الراحة  
الانفس سكت الشيخ وقال الانكليزي قد نقل السائحون في كتب  
سياحاتهم ان اهل تلك الجهات التي حدث عنها يعقوب كثيراً  
من احوال الجهل والتوحش والعادات الشنيعة والاخلاق  
الفظيعة ومن اشنعها وافظعها عادة تقريب القرابين من الادميين  
ولتجعلها حديثنا في الصباح ان شاء الله تعالى فقد طاب النوم  
وهذا برهان قد داخله النعاس فان استحسن الاستاذ قمنا لياخذ  
كل منا راحته الى الصباح فقال الشيخ لا باس وقام فقاموا  
وانصرف كل الى مضجعه فلما اصبح الصباح قاموا وتوجهوا الى  
المحطة ونزلوا في احدى العربات وساروا وفي اثناء الطريق لم  
يجد الشيخ ماء يتوضأ به فتيم صلى ما حضر من الصلاة وكذلك  
فعل ابنه برهان الدين وكانت هذه اول مرة راي فيها يعقوب  
التيم وإنما كان يراها يتوضآن فسأل الشيخ في ذلك





## المسامرة السادسة والستون

## الوضوء والتيمم

فقال الشيخ ان الله جلت حكمته لم يجعل علينا في الدين من حرج بل خفف عنا وسهل علينا ويسر لنا الطريق لعبادته وجعل لكل حال من الاحوال التي تعترض الانسان عملاً يناسبه فاذا عجز عن الصلاة قائماً صلى قاعداً وان عجز عنها قاعداً صلى مضطجماً وان عجز عنها مضطجماً صلى مستلقياً وان وجد الماء توضأ وان اعوزه الماء تيمم وصلى لكيلا يجرم في وقت من اوقاته من عبادة مولاه والتقرب الى رحمته والدخول في حضرته فان الانسان في كل صلاة من صلواته يخلو مع ربه عز وجل يناجيه بلسان الخشوع ويناديه بكمال التضرع والخضوع ويعرض فيها العبد الكامل في عبادته عن اشغال الدنيا واحوالها ووساوسها واعمالها ويخلي قلبه لربه مقبلاً عليه

بكلية قائماً على قدم عبوديته فيشرح صدره ويستريح خاطره من شواغل الدنيا وغوائلها مدة صلاته فيستنير قلبه ويقوى إيمانه ويضعف عنده حب الشهوات والمفاسد والمعاصي خصوصاً بما يتكرر على خاطره ويفعل في قلبه مما يتلوه في صلاته من الآيات القرآنية وما يتبعها من الخواطر العلية والواردات الرحمانية التي تحق من قلبه سلطنة القسوة والرعونة والغباوة وتملاه ورعاً وتقوى وإقبالاً على الله وحناناً ورافةً بخلقه ورحمةً لم فهذا شأن الصلاة الفاضلة والعبادة الكاملة التي تعود على الإنسان بالنفع في الآخرة والراحة في الدنيا والتقرب إلى الله سبحانه قد سهل لنا بفضلته السبيل إليها حتى لا يحرم العبد منها في وقت من أوقاته وحال من أحواله ولهذا رأيتني لما لم أجد ماءً اتوضأ به تيممت وصليت لقوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا

فقال برهان هل يعلم أيها الأستاذ لنزول هذه الآية سبب

يذكر

قال الشيخ روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء ( في مكان بذي الحليفة ) انقطع عمد لي فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه واقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فاتى الناس الى ابي بكر الصديق ( وهو ابوها ) فقالوا له الا ترى الى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله

صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت  
 فجاء ابوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على  
 فخذي قد نام فقال حبست رسول الله وحبست الناس وليسوا  
 على ماء وليس معهم ماء فعاتبني ابوبكر وقال ما شاء الله ان  
 يقول فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء  
 فانزل الله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة الى قوله  
 فان لم تجدوا ماء فتمسوا صعيدا طيباً فقال بعض الصحابة ما هي  
 باول بركتكم يا آل ابي بكر فهذا سبب نزول هذه الآية



## المسامرة السابعة والستون

### مملكة اشانتي

قال الناقل ثم النفط الشيخ الى الانكليزي يرجوه في انجاز ما وعده به في الليل من ذكر عادة السودان في تقريب القربان من نوع الانسان فقال الانكليزي من جملة القبائل المنتشرة في سواحل بلاد الذهب قبيلة يقال لها (اشانتي) مقبمة في ارض واسعة بعيدة الحدود يحددها طولاً من المغرب الى المشرق اربع درجات وهو من (عامان) الى (ولتا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن راس (كورس) الى ولاية (غرفان)

وملك اشانتي هو الحاكم على جميع هذه الارض ومن فيها من غير معارض لامره ولا منازع له في حكمه وجميع حكام القبائل تحت امره ونهيه سواء من يدفع منهم الخراج ومن لا يدفعه فجميع

القبائل المنتشرة في جهات سواحل الذهب خاضعة لاولامره قد  
انضمت الى حكمه بعد حرب حصلت بينهم اخيراً فصار الجميع  
مملكة واحدة تختها مدينة (كوماسي) فمنها بجهة الجنوب قبيلة  
(دينكيرا) وجبال (طوفيل) وقبائل (وصاً) وامندا . وعوفين .  
ونوزكا )

ومنجا بجهة الشرق على شاطئ نهر (قولنا) قبائل (غوفان)  
وبابوزو . وبناريوبتن . ودعجورا . وبودوي . وعكيا .  
وعكواهو . وعكيم . واكوبيم . ودعكامبويه )  
وفي الوسط قبائل (سوكو . وتلما . وكودنزا . وماسي .  
وعاسين . وفانتي . وعهنتا ) وكلها تحت حكم ملك (اشانتي)  
وهذه المملكة على اتساعها منقسمة الى ثمانية طرق تمر من مدنها  
الشهيرة كل طريق يسمى باسم الملك الذي انشئ في مدته او باسم  
المديرية التي هو فيها او القبيلة المار بها

فالطريق الاول يسمى طريق (داعوفين) وهو الموصل الى  
الساحل الغربي المجاور لمدينة (ايولونيا) وغيرها  
الثاني يسمى طريق (وصاً) وعندها ينقسم الى فرعين احدهما  
شرقي والاخر غربي الذي يتوصل به الى راس الثلاثة الشعوب  
والى مواطن الاور وباوبين بتلك الجهات

الثالث يسمى طريق غسيم وفانتي وينقسم عند بلدة صغيرة  
هناك الى قسمين احدهما يتوصل به الى حصن الفلمنك وهو قريب

من راس كوري على بعد اربعة اميال منها  
الرابع طريق (خوابتي) وهو اخذ من الجنوب الشرقي الى  
الشمال الشرقي ويمر بعدة مدن وبلاد يتوصل منها الى (اكار)  
ومواطن الانكليز وغيرهم من الاوروبيين القاطنين بهذه النواحي  
وهذه الطرق الاربعة تسلكها اهل اثناتي عند الذهاب الى الساحل  
لشراء البارود والبنديق وجميع البضائع الاوروبية واما الاربعة  
الآخر فبداها من التخت ثم تاخذ في اتجاهات مختلفة الى داخل ارض  
افريقيا وهذه الاربعة منها اثنان قديمان واثنان حديثان  
والمملك الان مجتهد في فتحها لسهولة العبور منها بتسخير العبيد  
في قطع اشجارها ونقل احجارها وهناك طرق اخرى توصل من  
التخت الى ما جاوره من البلاد ومنها الى المدن الشامية والى بلاد  
الساحل ومواطن الاوروبيين ولكن في كل سنة يتلف كثير من  
هذه الطرق وتحمى اثارها بسبب الرياح والامطار وفضان الانهر  
والخجان والحجائر وقد يتعدى ذلك الى الطرق الكبيرة ايضاً وهبئة  
الارض من جهة الساحل ترى كحصن من اشجار وخضرة وذلك  
في جهة الشرق والغرب واما من جهة الجنوب والشمال فهي بقاع  
مستوية في بعض جهاتها او غابات صغيرة والارض فيما حول نهر  
قولتا جبلية وفيها غابات قليلة ويوجد حول التخت مدن كبيرة  
كثيرة الاهالي بعضها على بعد يوم وبعضها على اكثر ومنها ما اهله  
قريب من ستين الفاً ومنهم من يتعيش من الصيد ومنهم من

يتعيش من زراعة الارض ومنهم من يتعيش منها معاً ويوجد في  
المدن من لهم معرفة بصناعة الصباغة والحياكة ونسيج الحصر وعمل  
اواني الفخار وفيهم من له معرفة بعمل السلاح

وعدد رجال العسكرية عندهم يقرب من مائة وخمسين ألفاً  
واموال الحكومة ترد اليها من عدة جهات

الجهة الاولى ما يرد من غرامات المذنبين وتركات الاموات

الثانية ما يرد من تجار الرقيق عند بيعه بالسواحل وهو

مقدار من الذهب يؤخذ على ما يباع منه

الثالثة ما يرد من معدن البضائع صادرة او واردة

الرابعة ما يرد من صيادي الفيلة

الخامسة ما يرد من معدن الذهب بناحية (سوكو)

السادسة الذهب المخبوع بالغسيل والتصفية على ما تقدم

السابعة ما يرد من كل من اراد بيع حلي الذهب والفضة

الثامنة ما يرد من الخراج المقرر على بعض الجهات فمنهم من

يدفعه ذهباً او فضة ومنهم من يدفعه عبيداً او بهائم ومنهم من يدفعه

ثياباً واما اعتقاداتهم ومذاهبهم في دياناتهم فمختلفة منها ما هو موافق

لما ذكره يعقوب ومنها ما يخالفه ومنهم طائفة تقول ان طمع من

تقدم من ابائهم كان سبباً في بعدهم عن حب الله لهم وعدم طمع

سلف البيض هو الذي كان سبباً في قربهم منه ووجه لهم فلذلك

يقولون ان اكثر نعمه خاصة بهم وما يصل منها الى السود لا يكون

الأ بواسطة مقدسين او ملائكة ويقولون ان المولى لما اراد عمارة  
 الدنيا خلق فيها ثلاثة رجال بيض وثلاثة سود وخلق لهم ازواجاً  
 مثلهم ولعدم حصول النزاع بينهم في الدنيا خلق علبة متفولة لا يرى  
 ما فيها وورقة مخنومة وجعلها على الارض وامر الفريقين ان يخنار  
 كل منهما ايها اراد وقدم السود في الخيرة فقتال اخناروا انتم اولاً  
 فطمعوا في العلبة فاخناروها لزعمهم ان في باطنها كل شي ففتحوها  
 فلم يجدوا فيها سوى قطعة من ذهب ومثلها من حديد وبعض قطع  
 من معادن اخرى لا يعلمون فائدتها ولا خاصتها واخذ البيض  
 الورقة فوجدوا فيها علم كل شي فجعل الله سبحانه السودان في  
 البراري والتفاريق والاشجار وانزل البيض بسواحل  
 البحر وصار يعلمهم كل ليلة ويلهمهم كيف يصنعون ما يلزم لهم حتى  
 علمهم صنعة السفن فعملوها وركبوها وساروا بها في البحر مدة ثم  
 رجعوا ببضائع من انواع متعددة وذهبوا بها الى السودان الذين  
 كان لهم الخيرة اولاً فباعوها عليهم وجميعهم الى الان يعتقد ان ماوى  
 المتدسين والملائكة المترين الغابات والانهر والجبال كما كان  
 ذلك في مبدأ الزمان ولم في هولاء المقدسين اعتقاد كبير فمن  
 ذلك اعتقادهم انهم اذا توسلوا بهم في امر ساعدوهم فيه واعظم مقدس  
 عندهم الان نهر يقال له نهر (تاندو) ومن جملة اعتقادهم ان ملوكهم  
 وامراءهم يكونون بعد موتهم مع المتدسين فيتمتعون عندهم بانواع  
 الخيرات ويتلذذون باصناف المستلذات ولاعتقادهم ذلك تجدهم



اذا مات لهم امير او ملك ذبحوا على قبره جملة من العبيد والجواري ووضعوهم معه في حفرة ليقوموا على زعمهم بخدمته ويعتقدون ان الرعية اذا ماتوا كانت ارواحهم في خدر وخود للاستراحة مما كابدوه في الدنيا ومن كان ذا فطنة منهم وتجربة اعتقدوا ان له خاصة الاطلاع على علم الغيب وانه الواسطة الى المقدسين وان هولاء المقدسين واسطتهم الى الله ينال بهم الناس ما يطلبونه من الله عز وجل وعندهم ان من كثرت ذنوبه او فرط فيما وجب عليه كان محروماً بعدموته من ثواب ما عمله من الطاعات والصلوات والدعوات محنوماً عليه ان يتيه في ظلمات الغابات وقد تحببىء روحه الى بيته في بعض الاوقات ومن اوهاهم ان من قصر في اعمال الماتم لمن مات من اقاربه فلا تنال ارواحهم تؤذيه وتنقص عليه عيشه فلا يزال في عناء ونكد وبلاء وقد انقسمت مشائخهم الى طائفتين

الاولى ملتحمة عندهم بالمقدسين فلا يدخلون في امور الدنيا ولا يختلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقومون في محال بعيدة عن البلد والعمران ويقولون انهم يخاطبون المقدسين ويسالونهم عن كل شي ارادوا علمه فاذا اراد احد ان يعلم حال من مات من اقاربه ذهب الى احدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها عما يريد

والثانية تختلط بالناس في اوقات اجتماعهم وليالي افراحهم فيانسون

بهم ويسألونهم عن كل ما سألهم كالذين يفتحون الكتاب او  
 يضربون الودع او يقيسون الاثر ولهم براعة في التقاط اخبار الناس  
 وتبصير احوالهم ويعرفون حيلاً كثيرة يعلمون بها كيف اخذت  
 السرقة ومن سرقتها وفي اي موضع هي ويعلمون لبعض النساء تماءً  
 لحب ازواجهن وعدم اطلاعهم على احوالهن واقفالهن ونحو ذلك  
 ووظائف الطائفة الاولى وراثية يدخلون فيها بطريق الارث عن  
 اسلافهم كما كان عليه كنهة المصريين في الازمان القديمة ولهم ان  
 يتزوجوا انا ارادوا وكذلك اموالهم والثانية لا تنضب بعدد معين  
 بل هي دائماً في الزيادة على حسب مس المقدسين لهم وتلبسهم بهم  
 كحال من نراهم بمصر كالمصروعين الذين يقولون ان الجن متلبسون  
 بهم وعندهم بعض نساء يعتقد فيهن المس ولهن معرفة بخواص  
 النبات والاعشاب في مداواة الجراح والامراض ولهذا السبب يكون  
 الاعتقاد فيهن اكثر ولا حرج عليهن عندهم انا زين قبل الزواج  
 او بعده وهؤلاء الناس نذور ومرتبات ياخذونها ممن يعتقدهم  
 يرمون نصفها في البحر ويقون لانفسهم النصف الاخر ونذر الملك  
 في العادة يكون عشر اواق من الذهب واربعة من العبيد وكثيراً  
 ما يهبون للمقدسين اولادهم وهم في بطون اهلهم وكل عبد دخل  
 محل المقدس بقي في خدمته فاذا اراد سيده اخذه دفع عوضاً عنه  
 اوقيتين من ذهب واربع شياه من الضأن وفي بعض الجهات اذا  
 دخل العبد معبد المقدس بقي عنده فلا يخرج ولكل عائلة منهم

اشياء كالاوئان تخصصها لهم مشائخهم فيقدسونها ويعبدونها فمنها صور من خشب او قطع مركبة من مراد مختلفة خالية من التصوير فيثبتونها في داخل منازلهم وتقدم لها العائلات الذور في الاعياد والمواسم وكثير من الحيوانات عندهم يعتبر اعتبار المقدس كالضبع عند اهالي اكارا والصقر في جميع البلاد لانهما لا يبقيان الرم التي تنشأ عنها العفونة وحدث الامراض حتى ان من يقتل ضبعاً يغرم غرامة عظيمة فان كان قاتله من الاوروبيين كلف بدفع صندوق وثوب من القماش يلف فيه رأس الضبع ويوضع في الصندوق ويدفن والتمساح ايضاً في جهات متعددة يعتبر اعتبار المقدسين حتى ان من الدراويز من يريه في بعض البرك ومتى اظهر راسه من الماء اعطوه من الذور ما يأكله ولذا تراهم اذا نادوه ظهر لهم ونظر اليهم وليس لاعياد المقدسين عند الاشاتي يوم معين وانما يتكون اشغالهم اياماً من بعض الاسابيع يلبسون فيها الابيض من الثياب ويجنبون شرب نبيذ النخل وبعضهم يتنع في هذه الايام من اكل لحم الثور وذلك دأبهم في يوم مولدهم وهو اليوم الثاني من الاسبوع الذي يتكون فيه العمل وان كانت الاعياد مختلفة عندهم فعيد المقدس لعائلة الملك يوم الخميس وعيد مقدس الوزير يوم الجمعة ويوم السبت هو يوم مولد الملك يجلس فيه وفي يوم مقدسه على دكة صغيرة امام تخته وفي هذه الايام يتنع الناس عن اكل لحم الثور لانه مقدس عائلة الملك وكذا الحمام

وبعض الايام عندهم سعيد يطمنون به وبعضها نحس يتشأمون  
 منه وذلك بحسب ما وقع فيها لاسلافهم من الخير والشر وقد يكون  
 في بعض الاشهر السعد اكثر من النحس وبعضها على العكس  
 وعربان الغرب يعملون لهم تائم يبيعونها عليهم باسعار غالية  
 ويعتقدون انها تقيم من سلاح العدو فتعقد يده عنهم وتمنع رصاصه  
 ونبله منهم وتسدد نبالهم لخره واسلحتهم لصدده وتقيم من الامراض  
 والعاهاات والاسواء والافات فتراهم لهذا الاعتقاد يتحمون الحروب  
 من غير خوف ولا فزع بخلاف اعدائهم لما يعلمه عدوهم من وجود  
 هذه التائم عندهم ولم اعياد غير ما ذكر اشهرها عيد يقال له بلغتهم  
 ( انيام ) وهو في الاصل اسم لنبات معروف عندهم يغرس في شهر  
 ديسمبر الافرنجى ويطيب حصاده في شهر سبتمبر فيعملون لهم عند  
 حصده عيداً يمتد الى اخر شهر حصاده ويحضر جميع الامراء وقواد  
 الجيوش وروساء العسكر ومن العادة عندهم ان لا يعاقب احد  
 من الامراء على جناية قبل هذا العيد فلذلك يحضره جميع الامراء  
 امنين مطمئنين ولا يواخذ في ايام هذا العيد احد من الناس على  
 ذنب فعله من سرقة او زنا او غير ذلك فترى فيه كل احد يعمل  
 ما بدا له من كل ما تدعوه نفسه اليه من الشهوات والاغراض  
 واللذات فاذا كان اليوم الخامس من شهر سبتمبر حضر جميع القبائل  
 مع كبارهم واهل البلاد مع امرائهم في هيات متنوعة وهم يضربون  
 الطبول والمزامير فيكون لهم موكب عظيم يمتد الى اخر النهار وفي

اليوم الذي يليه يحضر الملك بعض الزوال في ميدان المدينة فيتلقى  
الامراء وروساء العسكر فيأتيه كل منهم بزيه وزينته وموكبه الذي  
جاء به فيجدون السيفين واصحاب المشاعل واقفين في جانب  
الميدان فرقاً كل فرقة نحو مائة رجل ومعهم حجاج من قتل من  
امراء الاعداء وروسائهم وروس من قتل من المذنبين من قديم  
الزمان الى الان وقد حشوها من السعتر او نحوه لئلا يتأذى الملك  
ومن معه برمجها وبايديهم سكاكين يضربون عليها ويتكلمون بكلمات  
فضيحة ويفعلون افعالاً مزعجة شنيعة وتدور الفرق الموجودة في  
ذلك الميدان فرقة فرقة وامام كل منها ما يختص بها من الات اللهب  
كالطبل والزمر فتطوف كل منها بجميع الخيام الموجودة وكلما  
اتمت طائفة منها دورة ات طائفة غيرها ففعلت فعلها ودارت مثلها  
وهكذا الى اخر النهار وتكون الامراء مدة مرور هذه الفرق مكبة على  
فعل المنكر وسبي الاعمال وضرب البارود فاذا جاء الليل او قدوا  
المشاعل واكثروا من ضرب البارود ودق الطبول حتى يكون لهم في  
البلد ضجة وترتفع لهم في ارجائها اصوات مختلفة مزعجة فلا تخلو حارة من  
حاراتها ولا طريق من طرقاتها عن مثل ذلك الى ان يتتصف الليل  
فينصرف الملك الى سرايته فاذا طلع النهار امر بالخمور فتملاً بها  
حياض متفرقة في البلد وبياح الشرب منها لكل احد فلا يبقى في  
البلد احد من كبير او صغير ذكر او انثى حر او عبد غني او فقير  
الا شرب منها حتى سكر وقد تحصل عليها مزاحمات عظيمة

ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الاصوات فتختلط بدوي الطبول  
والبنادق فيكون مجموع ذلك امرأهائلاً وخطباً مزعجاً لا تكاد  
تبلغه العبارة ولا ترى في ازقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير  
سكران على الارض مطروح ومزمل بقاذورات تهرغ فيها كالحيوان  
المدبوح ومن عف عليه الذباب ومن تشببهه او تلحسه الكلاب  
ومن يمشي فيقع على الارض او على غيره من امثاله وهو معجب بامر  
راض بحاله ويستمرون على ذلك الى اخر النهار ثم ينقطع الشرب  
وتجتمع روساء العساكر وكبراء القبائل الذين كانوا اتوا من خارج  
البلد فينضم رئيس كل فرقة الى فرقته وكبير كل قبيلة الى قبيلته  
ويصطفون صفوفاً على حسب رتبهم ويضربون طبولهم ويهرون  
امام سراية الملك ويطوفون في البلد ويدخلون حاراتها حارة حارة  
للتعديد على اهلها ثم يجتمعون ثانياً ويقفون كما كانوا اولاً فياتي  
الملك ووزراؤه محمولين على اعناق العبيد في محامل مثل  
التختران فيهرون من وسط البلد بين هؤلاء الجموع وعند ذلك  
يكون قد تم عيدهم وفي اليوم التالي لذلك يتفرغ الملك وارياب  
دولته الى اشغال الحكومة ويرجع القبائل الى اوطانهم ومن العادة  
عندهم ان يعين مقدار من العبيد المذنبين الذين حصلت منهم  
الجنايات والجرائم مدة الحول الى هذا اليوم فيذبحونهم في جهات  
متعددة من البلدة او غيرها وبعض من يقتل من العبيد كما ذكر  
بوخذ ما يسيل من دمهم ويضاف الى بعض اشياء من الحشيش

والخضرة وغيرها موجودة في قدر من نحاس موجود بمعدنهم  
ويتحفظون عليه لزعيمهم ان ذلك يكون حرزاً لهم وسبباً في زيادة  
سطوتهم ونصرهم على اعدائهم وفي هذا اليوم يذبح كل من الامراء  
والاعيان بعض عبيده على اول خط من خطوط حرث زراعة  
النبات الموسوم باسمه هذا الموسم وهو الذي يقال له بلغتهم (اينام)  
كما تقدم ومن كان فقيراً يأخذ رأساً من روءس المذبوحين ويضعها  
في اول خط من حرث ارضه وفي مثل هذا اليوم من كل سنة  
تسبك حلي الذهب الخاصة بالملك في صور غير صورها التي  
كانت عليها وتاكل عائلة الملك اول اكلة من محصول زراعة  
العام الماضي بعد مضي عشرة ايام من يوم عيدهم ولا ياكلونها الا في  
ميدانهم ثم يركب الملك في ثاني يوم قبل طلوع الشمس ومعه اتباعه  
وروساء جيوشه فيذهب الى بلدة هناك يقال لها (سرازو) ليغتسل  
في نهر بها يسمى (داه) ومن عاداتهم في ذلك اليوم ان الملك اذا  
خرج الى ذلك النهر تبعه جميع اهل المدينة حتى تصير خالية من  
سكانها وفي ثاني يوم يمضي الملك الى بركة في الجنوب الشرقي من  
البلد ليغتسل فيها فيحيط به العسكر من كل جهة وينزل الملك  
فيغتسل وياخذ من الماء ويرش على جميع حليه وسلاحه وامتعته  
فاذا اغتسل نزل من معه من الامراء وفعلوا مثل فعله ولا يذبحون  
هناك في هذا اليوم الا عنزاً ونعجة ويغمسون في ذلك النهر نحو  
عشرين رأساً من الضأن ياخذونها معهم الى السراية عند عودهم

فيذجونها فيها ويلوثون بدمها تحت الملك وابواب محاله الخاصة به واما باقي الابواب والشبابيك ونحو ذلك حتى كراسي اعضاء المملكة فيلوثونها بمخلوط مركب من البيض ونبيد النخل فاذا تم مولد الاستحمام عاد الملك الى مدينته ويسبقه الروساء والامراء ولا يدخلها في هذا اليوم غير اعيانهم واكابرهم ويدخل الملك في موكب يتقدمه قسيس وخلفه اطفال بايديهم آنية بها ماء مقدس عندهم يرشون به على الامراء ثم من خلفهم ثلاثة خرفان بيض لتذبح عند باب حجرة الملك التي ينام فيها ثم خلفها الملك ويكون ملبسه في هذا اليوم ثيابا بيضاء وخلف الملك جميع نساءه وحاشيته وحوهن العساكر من كل جهة ولم غير ما ذكر عيد يسمى (اداي) يتكرر في السنة الواحدة عدة مرات بعضها عيد كبير وبعضها عيد صغير ويحسبون بها سنتهم واؤها يقع في اول شهر اكتوبر ولا يعرف لذلك سبب ويقول اهل تلك البلاد ان اول سنتهم يكون اذا تساقط ثمر شجر معروف عندهم تسقط ثمرته بعد تفتح ازهاره بعشرين يوماً ودائماً يكون العيد الكبير عندهم يوم الاحد والعيد الصغير يوم الاربعاء وبين كل عيدين كبيرين ستة اسابيع وكذلك بين كل عيدين صغيرين فيكون بين كل عيد والذي يليه ثلاثة اسابيع اعني واحداً وعشرين يوماً

وعاداتهم في كل عيد من تلك الاعياد الاربعة ان يعملوا به قبله بيوم فياخذون الزامير ويلقون جحاش التلى وعظامها على



طبل عندهم كبير ثم ياتون بذلك الى باب سراية الملك ويضربون  
 بها اعلاماً بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك  
 او غيرها صاح باعلى صوته فتقوم البلدة على ساقتها وتهرع السوقة  
 من اسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك الى  
 صبح يوم العيد فيركب الملك ويذهب الى المعبد ومعه خرفان  
 القربان فيذبحونها وياخذون دمها فيلوثون به تحت السلطنة زعماء  
 منهم ان ذلك يكون سبباً في حفظ المملكة مدة السنة وفي هذا  
 اليوم ثاني جميع الطوائف التي تقدم ذكرها فتصطف في ميدان  
 السراية ثم تترجم الامراء وروساء الطوائف امام الملك ويقبلون  
 الارض بين يديه تحية له يقابلها بهز راسه كانه جواب تحيتهم وخلف  
 كل واحد منهم جماعة من العبيد بايديهم السلاح يلعبون به  
 العاباً مختلفة وبعد ذلك يقوم الملك عن تخنه ويدخل سرايته فتأتي  
 خدمه وينكسون التخت ثم يخرج بعد برهة متبهاً بهيئة الابهة  
 والامارة فيعيدون له التخت كما كان فيجلس عليه وعند ذلك  
 يجدون في ضرب الآلات ودق الطبول ورفع الاصوات وتأتي  
 التراجمه وبايديهم عصي من ذهب فيامرهم بتفريق الهدايا على رؤساء  
 العساكر ومن حضر من الامراء والاكابر كل هدية عبارة عن راس  
 من الضان وزجاجة من النبيذ يشرب في الحال وعشراكيات من  
 ذهب ( كل اكية عبارة عن ستة فرنكات ) فاذا فرغوا من تفريق  
 الهدايا قام جماعة من الرجال نحو الخمسة او الستة يترنمون بكلام

يشتمل على ذكر فضائل الملك وعطاياه ومناقبه ومناقب ابائه  
 واجداده فاذا انتهوا من ذلك مرت كل طائفة امام الملك مرة  
 ثانية متشكرة له على احسانه وانعامه داعية له بالبقاء الى امثال  
 عامه ثم بعد ذلك ينشر ما استحدث من القوانين التي يراد اتباعها  
 والعمل بموجبها وينصرف الناس الى جهاتهم

وقد قدر بعض السياحين ما يعطيه الملك من العطايا في  
 كل من هذه الاعياد والمواسم فبلغ (بيريجوين) اعني تسعة الاف  
 فرنك وستمئة فرنك ولسكان (اهتا) ثلاثة اسابيع الاول يسمى اداي  
 يكثر فيه بيعهم وشراؤهم واخذهم وعطاؤهم حتى انهم يسمونه اسبوع  
 الخير والثاني لا يبيعون فيه ولا يشترون ولا يشتغلون بشيء  
 ويسمونه اسبوع الشر لاعتقادهم ان اعمالهم لا تنجح فيه والثالث يسمونه  
 اديم او الاسبوع الطيب الصغير ويكون فيه بعض التجارة والعمل  
 لكنه دون الاول

وقد وصف هوتشيزون الساح في رحلته كيفية تقريب  
 القرابين من الادميين في موسم (اداي) المذكور عند اهل الجهة  
 المذكورة فقال كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى (اداي)  
 وكان في شهر يناير الافرنجي وكان لي فيهم رجل اعرفه فدخل  
 عليّ فرايت منه ان مراده ان يخبرني بشيء في سره فاخرجت من  
 كان عندي من الخدم فقال اليّ وقال لي ايها الرجل اخترس  
 على نفسك وعيالك فان ملك الموت قد سل سيفه لتقتل كثير

من الاثنانين لان لم عيداً قد قرب ولم يبقَ عليه سوى يومين  
 فاذا سمعت صوت طبل فاعلم انه علامة على الموت فاحذر من  
 الملك ولا تقربه فهذا شي في امكانك فان فعلت ذلك فلا تخشَ  
 من شي فقبلت نصيخته وشكرته ثم انصرف فلما مضى يومان سمعت  
 صوت طبل فصرت اتفكر في هذه الاحوال وادبر حيلة للخلاص  
 من تلك الاهوال فلم اشعر الاّ ورسول الملك قد حضر يدعوني  
 اليه فحصل لي من ذلك رعب شديد لاني كنت اسمع ان من  
 عادته انه اذا اراد البطش باحد من الروساء والامراء ارسل اليه  
 من يدعوه باي حيلة فاذا حضر ودخل من باب السراية وثب  
 عليه جماعة من العبيد مرتصدة لدخوله فاوثقتة والقتته الى الارض  
 واخنلقوا له تهمة يتهمون بها وأروه انهم ما فعلوا به ما فعلوه الاّ  
 بسببها ثم ضربوه بسكين في مقتله فموت وبيته امره

فتوجهت الى الملك فرايت بعض الضباط الملازمين له  
 يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبايديهم سكاكين واسلحة  
 فارسل احدهم الى احد الامراء ليخبره ان يحضر عند قبر امه ثم ركب  
 الملك وتوجه الى القبر بعد ان امرني بالخروج من باب غير الذي  
 دخلت منه ولم اعلم سر ذلك فلما وصل الى القبر امر باخراج عظم  
 امه واخوته من قبورهم فاخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمنشف  
 من حرير وغمسوها في الروم وهو نوع من المسكر ثم نشفوها ثانياً كل  
 ذلك بغاية الاحترام والتوقير ثم قلبوها فوق تراب من ذهب

واحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة  
 ووضعوها على حافة القبر وبعد ذلك اتوا بجميع المذنبين والمتهمين  
 بعدم الرضى عن الملك فكان كل من اتى منهم ذبحوه على تلك  
 العظام حتى سالت الدماء الى القبر وفي هذه الليلة دارت سيافة  
 الملك حول المدينة فكل من وقع بصرهم عليه احضروه الى الملك  
 فيذبح وكان السبب في هذا القتل والتربان على زعمهم هو ان الملك  
 وقتئذ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك  
 على حسب عادتهم في ذلك يرى من الواجب قبل الخروج الى  
 القتال ان يخرج عظام امه وبعض اقاربه من قبورهم ويفعل بها  
 ما ذكر لاعتماده انه اذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت  
 ارواح مقدسيهم مساعدة له على اعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا  
 الامر قد يتخلص منه ناس كثير ممن يرغب الملك في قتله وكان  
 من عادتهم في ذلك العيد كباقي الاعياد ان يحضروه الى تلك  
 المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه المحادثة لم يحضروا فكانت  
 المدينة يومئذ خالية ليس بها الا الملك وعائلته واصحاب سره ولما  
 دخلت عليه اظهر لي الانبساط من حصول الامن عندي وامر لي  
 بالجلوس فجلست فرأى مني اني قد استقلت ما حوله من الروساء  
 فلم يكلمني في ذلك وكان يظهر عليه اثر القلق وعدم الاستقرار ثم قام  
 ودخل بيته فلما قرب المساء ابتدء بالذبح كما حصل بالامس  
 فلما مضى جزء من الليل امر الملك بوضع عظام والدته واهله

في مقابره ورجع في موكبه ومعهم رساوه وامراؤه واتباعهم وعليمهم  
 ملابس الحرب والآته وامام كل واحد منهم شعله من نار فكانت  
 البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الاعلام وقد  
 تقدمهم جماعة قد غلت ايديهم وعليمهم المحرس وحولمهم رجال تغني  
 بانغام حماسية وفي عصر ثاني يوم اعادوا ذلك الموكب بعينه فوقف  
 الملك في الميدان الكبير وحوله الطبول وارباب الموسيقى فامر  
 بقتل اولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والالات  
 تضرب بانغام عجيبة كأنها تقول التتل التتل وكان امامه اناء من  
 خشب ملاء نبيذاً وكلهما قطع راس رقص له ثم في اخر هذا  
 اليوم دخل الملك سرايته

فعند ذلك آمن كل من كان خائفاً منه على نفسه من الامراء  
 وغيرهم فخرجوا من مكائهم وصاروا يطوفون في ازقة المدينة فرحين  
 بالخلاص مما حصل في اليوم الماضي وان كانوا غير آمنين مما يحصل  
 في الاثني قال السامع المذكور وقد اعتقب ذلك ان اعترتني حمى  
 كان سببها اني اطلت الجلوس مع الملك بالامس وكان الوقت  
 شديد الحر فلما رجعت الى بيتي لم اجد فيه ماءً ولم يمكنني ان ارسل  
 احداً من خدمي لشراء ما يلزمي من السوق خوفاً من ان يؤخذ  
 فيقتل كغيره ولم يكن في السوق احد من الناس خوفاً من التتل  
 واستمر الذبح كل يوم على نحو ما تقدم الى ان انتهت ايام ذلك  
 الموسم المشؤم

ومن عادة الأثباتيين انهم اذا مات احدهم يضربون له باروداً على قدر مقامه اعلماً بموته فاذا سمعت عبده ذلك فروا الى الغابات والمغارات فاخفوا فيها الى ان تخرج جنازته ويدفن ومن بقي منهم ممن لم يشعر بموته توخذ منهم القرابين التي تذج على تربته يوم موته وتكون على قدر ايسار الميت واعساره ومن عاداتهم ايضاً في موتاهم ان الميت اذا مات اجلسوه على كرسي واسندوه حتى يكون كما يجلس الحي واقوه كذلك الى ان تظهر له رائحة وعند ذلك يدفنونه في منزله ويضعون عنده شيئاً من الذهب والاولاي والملايس الثمينة

ثم قال الانكليزي للشيخ ان اردت زيادة الايضاح ذكرت لك يوم موت الملكة ام (كاتشي كوفي) على حسب ما وصفه ذلك السائح وذلك انها حين خرجت روحها بادر الملك الى بنت من حاشيتها فقتلها بيده وحكمة ذلك على زعمهم ان تجد المتوفاة من يخدمها حين يضعونها في قبرها الى ان ياتوا لها بالقربان الكبير ثم جاءت من طرف احبة العائلة واتباعها والمتمين اليها هدايا كثيرة من الاشربة والذهب وثياب الحرير وارسل الملك بهدية اعظم من الجميع لكونه هو الوارث للمملكة المذكورة فبعث بشي من الذهب والاقمشة الفاخرة الا ان هذا السائح لم يعرف مقدارها وانما قدر البارود الذي ورد وتلف في ذلك اليوم باربعة واربعين كاكا فقال ان ما ورد من طرف ولدها (كاتشي كوفي)

عشرون. كماكا ومن طرف الملك اربعة ومن طرف اخي الملك اثنان ومن طرف الامراء ثمانية عشر فكان المجموع ما ذكر وهو يقرب من اثني عشر برميلاً

وهذا القدر من البارود قليل بالنسبة لها على مقتضى عادتهم وإنما اقتصروا عليه لان الملك لما هو بصدده من الحرب كان قد امر بعدم الاسراف في البارود . ولما جاء وقت الزوال توجه السائح المذكور الى جهة يقال لها (عسافوا) فوجد الطيور تحوم في الجو على جثث القتلى الذين ذبحوا فتنزل وتنهش لحومهم ووجد هناك حلقات من البنات منهن من يرقصن ومنهن من يندبن ويعددن فضائل المتوفاة ويولولن على فقدتها . قال فكانت اصواتهن حينئذٍ تسمع على بعد عظيم ووجد قوماً اخرين حاملين للاقمشة التي اهديت اليها في اشكال مختلفة منها ما هو على شكل الصليب ومنها ما شكله مخروطي ومنها ما هو كروي وغير ذلك وكانت النساء الحاملات للاقمشة ترى من بعد في هيئة الشياطين لان صدورهن واذرعتهن وشعورهن كانت ملوثة بدم القرايين ومن فاتها ذلك لوثت نفسها بطين احمر تشبهاً بمن لوثت نفسها بدم القرايين فكان لاجتماع كل من الطبل والمزامير والبكاء والوعويل صورة هائلة وراى السيفيين يرون وقتاً فوقتاً ومعهم من حكم عليه بالقتل فكان يرى على هولاء الناس هيئة فظيعة وعلى من اخذ للقتل ذهول وحالة شنيعة وكانت روساء العساكر تاتي من كل جهة وعليها

ملا بس الحرب فتضرب لكل منهم نوبة بار وتدق له آلات الموسيقى الخاصة بهم وكل من حضر انضم الى من سبق حتى اذا حضر الملك بموكبه احاطت العامة به فحالت العساكر بينه وبينهم لاجل مرور الموكب فاول من مر (كاشتي كوفي) وعائلته فكانوا جميعاً يعلنون بفضائله ومدائحهم وهو يتمايل من جهة الى اخرى كالسكران وكان يظهر على وجهه الفرح والظاهر ان ذلك لوجود القرابين المعدة لامة فكانت غرابة حالته مناسبة لغرابة الحادثة واما المأخوذون للقربان فهم وان كانوا في حالة ذل وهوان تراهم ينظرون للملك غير مباينين به ولا مخفيلين بابيته مع انه كان في قم كل واحد منهم سكين داخله من جهة نافذة من الجهة الاخرى وكان الناس يكثرون من سبهم ولعنهم كأن ما هم فيه لا يكفهم ثم جاء من بعد (كاشتي كوفي) جميع الرساء وكانت هياتهم في هذا الموكب غيرها في الموكب الاول لانهم كانوا في الاول بهيئة من يخرج للقاتلة والكفاح واما في هذا الموكب فكان عليهم ملابس الزينة والافراح على عكس ما تقتضيه الحالة الراهنة وكان عليهم تائم منها ما هو مصفح بالفضة ومنها ما هو مصفح بالذهب وكان مع الملك من الروسا من ليس لهم بابن الملكة المتوفاة الفة وارتباط وكانت خيامهم في الميدان المذكور على شكل نصف دائرة سعتها نحو ميل على وجه التقريب والعساكر في النصف الاخر وكانت القرابين من الادميين في ذلك اليوم ثلاثة عشر ومعهم الجلادون عليهم ليد



سود ذو شعر فكانت هيأتهم كصورة الدب واشنع وكان محلهم جهة شمال الملك وحوطهم الناس وكانت النساء اللاتي تقدم ذكرهن يدرن في الميدان ويعنين كما سبق وكان يفرق على المحاضرين شي كثير من النبيذ والروم وقد ارتفع من اصوات الطبل والزمر وصباح العبيد وغيرهم ما يزعج النفوس ويصدع الرؤس وبينما هم كذلك واذا بالبارود قد اطلق من جهة الملك ثم من سائر الجهات واستمروا على ذلك نحو ساعة وكان العسكر واقفين بحالاتهم لا يفارقونها والرؤساء يتواثبون خلف بعضهم في وسط ذلك الميدان ولم اشارات مزعجة وافعال فظيعة وعبدهم تعدو خلفهم حاملة للبارق يذكرون اسماء ساداتهم ويعلنون بمناقبهم وشهرتهم وبعض العبيد كان يأتي الى سيده بعد ان يضرب بندقيته فيأخذها من يده وبينما هم كذلك واذا بعجوز ناشرة الشعر كانها خرجت من قبر يقولون انها كبيرة المقدسين فدخلت وسط الرجال وصارت تجري من هنا الى هنا وهم يضربون حولها البندق من كل جهة ومن عادتهم في تعبيرات البنادق ان تكون على قدر درجة الضارب وكان غالب البنادق مربوطاً بجبال وكانت الامراء لا تضرب الا وعبدها خلفها كما تقدم اذ كان يحصل اغناء من شدة ضرب البارود فيدركه عبده عند ذلك ومن طيشهم وخفة عقولهم كان بعضهم يأتي الى ذلك السائح فيضرب بندقيته خلف اذنه ويضحك منه حين كان يراه ينزعج لما كان يراه من ان كثيراً من البنادق

ينفلق في ايدي الضاربيين اما لعدم متانتها او لزيادة العيار ولما  
فرغوا من ذلك تفرغوا جميعاً لشرب النبيذ فكان كل من اخذ منهم  
كأساً اراق على الارض منه جزء وذلك عادتهم في تلك الجهات  
كأنهم سمعوا قول الشاعر

شربنا واهرقنا على الارض فصلة

وللارض من كأس الكرام نصيبُ

وبعد ذلك كله حضر كل من له قرابة الى المتوفاة من النساء  
وصرن يرقصن وسط الجمع فكانت هياتهن في الجملة اجل من  
غيرها لان ملابسهن كانت من الحرير الاصفر ومع كل واحدة  
منهن سكين من فضة قد علقتهما في عنقها بسلسلة من فضة كذلك  
إلا ان اثنتين منهن كان معهما شي من فضة كالزمار وبأيدي  
جواربهن شمسيات تظلهن بها من الشمس مدة الرقص قال ولم  
يكن رقصهن كرقص غيرهن بل كانت الواحدة منهن تعصب  
وسطها بشيء من حرير فتاتي الى الرجل فيأخذ ذراعها على كتفيه  
وترقص وهي كذلك

وقبل ذبح القربان بعث كل من ( كاتشي كوفي ) والملك  
الى بعض هذه النسوة بشيء من الخمر والخرفان ثم ضربت الطبول  
اعلاماً بجلول الوقت لذبح القربان فقام الرؤساء وصاروا يقلبون  
اولئك المساكين المحنوم عليهم بالذبح ولم يعلم السائح ما المراد من  
ذلك لان المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة قال وإنما نظرت فرأيت

الجلادين يتنازعون في تعيين من يقدم منهم على غيره وكان المنتخب  
 لان يكون اول مذبح ينظر اليهم نظر عدم الاكتراث والمبالاة  
 مع ما كان يعاينه من المدية النافذة من شذقيه ثم اخذ احد  
 الجلادين سيفه بيده وقطع به يد واحد من العدين للقتل وهم  
 ثلاثة عشر رجلاً كما تقدم ثم انهم طرحوه على الارض وذبحوه ثم  
 اخذوا في ذبح الباقي الا ان هذا السائح لفضاعة الحال لم يمكنه  
 الصبر حتى يشاهد ما يحصل بعد ذلك فقام وانصرف الى بيته  
 فبلغه انهم بعد ذبح من تقدم قربوا قرباناً اخر من النساء في  
 الصحراء التي دفنت فيها المتوفاة ومن عقائدهم الفاسدة انه يجب  
 عند دفن مثل هذه المتوفاة ان يبل ثرى القبر بدم رجل حر  
 فلذلك تراهم اذا ارادوا الدفن ابتدأوا اولاً بتصفيف رؤس المذبحين  
 في داخل القبر امام عميد العائلة فيتحايل العبد على اصطياد رجل  
 من الاحرار يبلون تراب القبر بدمه وذلك انهم يدعون الحاضرين  
 لمساعدتهم في وضع النعش وفي خلال ذلك يتوارى احدهم في  
 داخل القبر فيثب على واحد من الذين نزلوا للمساعدة ويضربه  
 بسكين اعدّها لذلك فيقع على الارض فيتركونه ويهبلون عليه  
 التراب فلما رجعوا من دفنها اقاموا في عمل المآتم بارتكاب المآثم  
 وشرب الخمر وضرب الطبل والزمر والرقص وضرب البنادق  
 وفي كل ليلة تحضر الروساء والامراء ومن تأخر منهم أرسل نائباً  
 عنه مصحوباً بهدية من النبيذ والروم واستمروا على هذه الحال اياماً

عدة ولولا ما هم بصدده من الحرب لعل لها ثمان مآتم في الاخير  
 منها يضرب الملك السلاح بيده ومن عادتهم انهم بعد انقضاء مدة  
 المحرنة تقوم اقرب النساء من الميت وتطوف حول البلد ثلاثة ايام  
 لا تذوق فيها طعاماً ولا شرباً غير النبيذ فتشرب منه ما شاءت  
 فتندب فضائل الميت ومناقبه وتمدح من اهدوا الهدايا واعطوا  
 العطايا ومن عادة تلك الجهة انهم اذا مات ملكهم اعدوا مآتم كل  
 من مات من اعيانهم وامرائهم مدة ملكه من ابتداء سلطته ايام مدته  
 وجددوا ما تقدم من القرابين وغيرها فيحصل حينئذ من الاحوال  
 الشنيعة والاهوال الفظيعة ما يضيق عنه البيان ويعجز عن وصفه  
 اللسان وعند خروج روح الملك يقوم في الحال ابنه او اخوه او  
 ابن اخيه او جميعهم معاً فيخرجون كلهم او بعضهم يطوفون في البلد  
 فكل من عثروا به قتلوه لا يفرقون بين عبد وحر ومأمور وأمير  
 وكبير وصغير ولا لوم عليهم في ذلك ولا عتاب ولا دية ولا حساب  
 فتخفي الامراء في منازلها وربما ترسل عبيدها في الطرق والحارات  
 لعلم يقتلون فيكونون فداء لهم ويستمر الحال على ذلك مدة  
 يومين

ومن يقتل في هذا اليوم بعض خواص الملك وهم مائة رجل  
 من الارقا وغيرهم يعاهدونه على الثبات في خدمته والموت يوم  
 موته فيميزهم عن غيرهم باطواق من ذهب يضعونها في اعناقهم وقد  
 يكون فيهم بعض اقارب الملك فيتكفل لهم بمؤونتهم ويرفع عنهم

التكليف والعقاب وجميعهم يقتلون يوم موته إلا اثنين أو ثلاثة هم  
 امناء اسراره مدة حياته فهولاء يستبقونهم ويذبحون سائرهم  
 قال وسمعت ان ماتم الملك المتوفي قبل ملك ذلك الوقت يتكرر  
 كل اسبوع الى ثلاثة اشهر يذبح في كل اسبوع نحو مائتي أسير  
 ويحرق فيه من البارود نحو عشرين برميلاً واشهر هذه الماتم  
 واعظها ماتم والدة الملك عند موتها وقد كانت وليت نيابة تخت  
 السلطنة في مدة حرب جرت بين الاشائتين وجيرانهم الفتين  
 وقد احصي من قتل فيها من قبل الملك خاصة فكان ثلاثة  
 الاف نفس منهم الفان من الاسراء الذين استولوا عليهم من جيش  
 العدو وما أحرق من البارود من قبله خمسة وعشرين برميلاً  
 ومن قبل كل واحد من المحكام والامراء عشرة انفس وعشرين  
 برميلاً واتي من كل بلدة من البلاد عشرة أعبد وبرميلان من  
 البارود

واما مقابر ملوكهم فهي في محل مخصوص يعرف عندهم باسم  
 (بن تما) حتى لو مات احد ملوكهم او اعيانهم بعيداً عن ذلك  
 المحل ولو في الحرب تحفظوا عليه الى ان يدفنه فيه بعد عمل الماتم  
 المعتادة عندهم بما فيها من المخازي والفضائح وانواع التبايح وفيه  
 يدفن الذهب المعد لهم وفي تجاه المحل المدفون فيه عظيم قدر كبير  
 قد اعدوه لاجتماع دماء القتلى والقرايين فيه ولا يقطع ذلك بل  
 تراهم يواظبون عليه لاجل بل ثرية الملوك بدماء القتلى دائماً

ومن عادة ملوكهم ان يكون عدد نساء الواحد منهم لا يتقص  
 ولا يزيد عن ثلاثة الاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين لاعتقادهم ان  
 لهذا العدد سراً مخصوصاً به وهذه النساء يقيم معه في بيته ست  
 منهن وباقيهن يقمن في الخارج فبعضهن يقمن في محلتين خاصتين  
 بهن تقفل عليهن ويرسل لهن ما يلزم من الزاد والنقطة والبعض  
 منهن يكون في مبان مخصوصة في ضواحي المدينة فاذا جاء موسم  
 من المواسم اجتمعن حوله كلهن او بعضهن على حسب رغبته ولا  
 يكلمن الامرا ولا يكلمونهن الا بواسطة تراجمة وهم رجال كهول  
 من المشوهين

فاذا مررن بطريق بقصد نزهة او غيرها يتقدمن عدة اطفال  
 بايديهم سباط يضربون بها كل من رآه في طريقهم لا يفرقون بين  
 كبير وصغير وجليل وحقير فلذلك ترى الناس متى شعروا بهم  
 انزعجوا وتحووا عن طريقهم وزاحموا بعضهم وربما وقع بعضهم على  
 بعض من الزحام فيحصل من ذلك للناس اذى كثير وتعب كبير  
 ومن العادة عندهم ان لا ينظر اليهن في مدة مرورهن احد من  
 الناس بل يغطي كل احد وجهه بيده

ولا احترام الملك واکرامه لهن كان ما يصرف عليهن مصاريف  
 جسمية لان ما كلهن ومشاربهن وسائر لوازمهن مثل ما يكون للملك  
 واذا اريد اخبار الملك بامر من الامور المهمة وهو عندهن فلا يصل

اليه به الأ الخادم الأكبر وهو كبير الخدم المعروفين في مصر  
بالاغوات

ومن العادة عندهم ان اخت الملك لها ان تحب من الرجال  
من اعجبتهما صورته سواء كان اميراً او حقيراً فاذا علم به الملك  
هياً لها باحسن هيئة ووجه به اليها فاقام معها فان ماتت قبله الحق  
نفسه بها ما لم يكن من ذوي النسب

فقال الشيخ ان ادنى ما ذكرت يدل على توحش هولاء القوم  
وجهم وخشونة طبعهم وقلة عقولهم وكيف يكونون كذلك الى  
الآن مع وجود الانكليز والفرنسيين وباقي الاوروبيين بسواحل  
تلك الجهة افيجتهدون في ابطال بيع الرقيق واسره ولا يلتفتون  
الى ابطال هذه العادات الفظيعة والرسوم الشنيعة مع ان اغناءهم  
بها اهم والزم من اشتغالهم بابطال بيع الرقيق اذ لو فرض منع بيعه  
بالكلية على زعم الرأفة به مع بقاء العداوة بين هولاء الطوائف  
المتوحشة لم يكن لمن يقع في أسرهم من بعضهم غير القتل ولا شك  
ان الاسترقاق والبيع اخف منه

فقال الانكليزي ان طائفتنا وطائفة الفرنسيين وسائر الافرنج  
المقيمين بين اهل تلك الجهات لا يتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم  
في اجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجرح عليهم من عداوة الاهلين  
وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين في تلك  
الجهات من الامم الاوروبية لا يعينهم تغيير شي من ذلك اذ

المقصود لهم من الاقامة في تلك الجهات انما هو التكسب بالتجارة في ما يستخرج من ارضها من المعادن وسائر مواد التجارة وارسال ذلك الى الممالك الاوروبية واستبداله بما يرد منها الى البلاد فلا يشتغلون الا بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات اذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك فان هذه البلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للاغراب من الافرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والامراض المهلكة لا يتأني للدول الاوروبية ان تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والاجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية فلذلك ترى المقيمين منهم هناك يخنارون السكوت على هذه الاحوال والاقصار على التكسب والتجارة والبيع والشراء والاخذ والاعطاء وقد اسست دولة الانكليز عدة مواضع للتجارة في مواقع مختلفة من هذه السواحل في امتداد قدره الف وستمئة ميل انكليزي بين (سانت ماريا) (على مدينة نهر جنبي) و(كارا) (مدينة جهة رأس عشم الخير) ونقلت الى هذه المواضع مقداراً كافياً من العسكر وغيرهم اقامتهم بها وقبل ان تضع الحكومة يدها على هذه المواضع كانت ادارة امورها موكولة لشركة تعرف بالشركة الافريقية وقد بذل كل من تلك الشركة ودولة الانكليز جهده في استدامة السكنى بهذه الجهات ولكن لم يطب لاهل اوروبا العيش بها لما



اعتراهم فيها من الامراض الكثيرة فكان في كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل اليها من العسكر وغيرهم واتخذ الانكليز بها طرقاً كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين احوالها فلم ينجح الا القليل منها في بعض الجهات دون بعض وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والاناث جمعوا فيها كثيراً من اهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لان من تربى منهم ولم يمت في عهد قريب اثر الإقامة بين من تربى عندهم على الإقامة بين اهله في بلده لكرهتهم له وتبرئهم منه وعلمه انه اذا اتى اليهم مقتوه واحقروه وان تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه

وكما فعلت دولة الانكليز معهم كذلك فعل الفرنسيس والفلنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الامم مواضعها وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الامراض الى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب امل الجميع وتحققوا عدم النجاح ولذلك قل توارد الاوربيين اليها وصار المتوطنون بها من الاغراب هم المتناسلون بينهم وبين الافريقيين او الذين هاجروا اليهم من الامريكيين او اهل جزائر المحيط

وبالجملة فجميع التجار التقيين هناك اخلاط متجمعون ومن شدة اخلاطهم باهل البلاد وطول زمن اجتماعهم ببعضهم كادت تقتارب طباعهم ونشابه اخلاقهم وانما بقي في الاغراب بعض عاداتهم واخلاقهم الاصلية مع عدم التعرض لدم عادات اهل البلاد

والتصدي للنهي عنها لعلمهم بان ذلك يغري الاهلين بهم ويوقع  
 العداوة والبغضاء فيما بينهم فلماذا اخناروا السكوت عن ذلك  
 وما ذكرناه من احوال هذه البلاد واهلها ليس الا القليل  
 النادر بالنسبة لما لم نذكره فان عجائب افريقية وغرائبها اكثر من ان  
 تحصر وفيها للسائحين كلام كثير يطول تتبعه وفيها من انواع  
 الحيوان والنبات والاحجار ما لا يوجد في غيرها من الجهات فهي  
 مخزن العجائب ومعادن الغرائب وكل بقعة منها تحتاج الى مجلدات  
 متعددة فضلاً عما لم يصل اليه احد من الامم المتمدنة ففيها جزء  
 عظيم متسع لم ينكشف لنا الى الان امره ولم تعلم حقيقته وما ذكره  
 عنه السائحون في كتبهم انما هو بالنقل والرواية لا بالمعاينة  
 والدراسة وفي افريقيا انهار عظيمة كالنيل معظمها لا يدرى الى الان  
 منبعه وغالب ما قالوه فيها انما هو بالظن والتخمين لا بالقطع  
 واليقين

فلندع الكلام الان في هذا المعنى ونسمع من يعقوب بقية  
 حديثه وما جرى له الى ان صار معنا وهل رجع الى بلده ورأى  
 اخنه ام كيف كان حاله بعد خلاصه من يد هولاء السودان

فهرس

الجزء الثاني

من كتاب

علم الدين

في	المسامرة	صفحة
التيارات	السابعة والعشرون	٢٩٧
النظارات	الثامنة والعشرون	٤٤١
العادات	التاسعة والعشرون	٤٤٥
القهوة	الثلاثون	٤٥١
الحشيش	الحادية والثلاثون	٤٥٦
يوم العطلة	الثانية والثلاثون	٤٦٤
مرسيليا	الثالثة والثلاثون	٤٦٨
شذرات	الرابعة والثلاثون	٤٧٣
كتاب علم الدين	الخامسة والثلاثون	٤٩٨

في	المسامرة	صفحة
الارق والصلوة	السادسة والثلاثون	٥٠٦
السكر	السابعة والثلاثون	٥٠٩
الميسر والانصاب والازلام	الثامنة والثلاثون	٥١٢
حكاية المصري الغريب	التاسعة والثلاثون	٥١٧
المحار	الاربعون	٥٢٩
الودع	الحادية والاربعون	٥٢٨
اللؤلؤ	الثانية والاربعون	٥٤٠
الدينار	الثالثة والاربعون	٥٥٢
دود الخشب وغيره	الرابعة والاربعون	٥٧٠
دود الفز	الخامسة والاربعون	٥٧٦
ابو دقيق	السادسة والاربعون	٥٨١
الخل	السابعة والاربعون	٥٨٦
الحشرات	الثامنة والاربعون	٦٠١
النمل	التاسعة والاربعون	٦١٩
الانسان والحيطان	الخمسون	٦٢٠
دعوة انس	الحادية والخمسون	٦٢٤
ذم الدنيا ومدحها	الثانية والخمسون	٦٤٤
حكاية يعقوب	الثالثة والخمسون	٦٥١
كلب البحر والديبورة	الرابعة والخمسون	٦٥٨
النوء والفرق	الخامسة والخمسون	٦٦٤
الوحدة	السادسة والخمسون	٦٧١
السود	السابعة والخمسون	٦٧٦
الذيل	الثامنة والخمسون	٦٨١
الخلاص	التاسعة والخمسون	٦٩٠

في	المسامرة	صفحة
الذهب واستخراجه	المتون	٦٩٢
بلاد سنغامبيا	الحادية والستون	٦٩٦
الزباء وجذبة الابرش وقصير وبهمس	الثانية والستون	٧٠٥
الرفيق	الثالثة والستون	٧١٢
السودان بافريقيا	الرابعة والستون	٧٢٣
العرب المجاهلية	الخامسة والستون	٧٣٤
الوضوء والتيمم	السادسة والستون	٧٤٥
مملكة اشانتي	السابعة والستون	٧٤٨







# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثالث

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢







بسم الله الرحمن الرحيم



المسامرة الثامنة والستون

عوداً الى حكاية يعقوب

فقال يعقوب بعد ان دفع ذلك السائح ما دفعه وحصل  
التراضي بين سيدي وبينه بتنا تلك الليلة في البلد وبات يودعني  
من كنت اعرفه خصوصاً من كنت عنده وجميع اهل بيته فلما اصبح  
الصباح قمنا للسفر فركبنا قاصدين الساحل فلم نصله الا بعد عشرة  
ايام شاهدنا فيها من حر الطريق ووعره مشقات عظيمة لان جميع  
الطرق بهذه البلاد قد تخللتها الجبال والغابات والبرك والاحجام  
فكنا نبيت تارة في بعض القرى وتارة في محلات اخرى خالية عن  
القرى وكان مع السائح اوامر واعلامات من لدن الحكومة

ومأمورون من قبل الملك فكنا اذا مررنا بقرية او حلة حصل لنا من اهلها الاكرام والاحترام ولكن كان يخيف بنا اهلها يستغربون صورتنا ويتأملون في هيأتنا فكان من معنا من المأمورين بتوصيلنا بخونهم عنا واذا احتجنا الى شي بادروا به ودفع السائح ثمنه من عنده وغير ذلك كان يعطي لمسائح البلاد التي كنا ننزل بها بعض هدايا ما يجب في تلك الجهات مثل قطع من قماش وشي من الخرز واساور من زجاج وكانوا يهدون الينا بعض اشربة من الروم والنيذ ومازلنا سائرين حتي وصلنا مدينة ( بوري ) وهي محل اقامة الملك المتصرف في جهات ( سياد البونا ) ( اعني نهر جبال السباع ) وهي على بعد ثمانية فراسخ من مصب النهر المذكور في البحر وكان خبرنا وصل اليه قبل قدومنا عليه فارسل لاستقبال صاحبي السائح جماعة من امرائه وقواد عسكره فاستقبلونا بالبشر والطلاقة مع التوقير والاحترام ومزيد الاكرام وساروا بنا الى ان وصلنا اليه فوجدناه جالسا على حصير وحوله امرأه وحشمه وعلى البعد منه بعض عساكره واهل بلاده فلما رأنا قام لنا وتلقانا ومد يده الى السائح فصافحه وهز يده واجلسه بجانبه ثم سأله عني فاخبره بقصتي وشرح له قضيتي وكيف خلصني ممن كنت معهم حتى صرت معه فهأنفي الملك ببعض كلمات انكليزية وكان يعرف قليلاً من لغة الانكليز بسبب ان لهم بالقرب منه محلات للتجارة فيها حاكم انكليزي كان يزور الملك لبعض حاجاته ويזורه الملك في

بعض الاحيان فتعلم بعض هذه اللغة بسبب المخالطة  
 ثم اهدى اليه صاحبنا السائح زجاجات من نبيذ وبعض  
 اقمشة فكافأه عليها بعشر اواق من ذهب واربعة اعبد ثم استأذنه  
 ومنا فبتنا تلك الليلة بمحل قد اعد هناك للضيافة  
 وفي اليوم الثاني توجهنا الى محل حكومة الانكليز بهذه البلاد  
 فوجدنا سفينة عنيد سفرها الى بلاد الانكليز الا انها في انتظار اتمام  
 حملتها فاننا يومين الى ان تم وسقها فركبناها وحمدت المولى على  
 قرب مسافة الانتظار وتخلصي من اهل تلك الديار وكان ما عندي  
 من شدة الفرح بالعود الى الوطن والمخرج من ارض الغربة  
 والتخلص من هذه الكربة وشدة شوقي الى بلدي قد جعل عليّ  
 مدة اليومين اللذين مضيا في الانتظار طويلة الى الغاية حتى كنت  
 اتخيل انها اطول من مدة اقامتي في هذه البلاد كلها وهي اربع سنين  
 فلم اكن في هذين اليومين يهدأ لي سر ولا يهنا لي عيش حتى  
 انتقضت ونزلنا في السفينة كما ذكرت وسارت بنا فداخلني من الفرح  
 والسرور ما لا اقدر على وصفه وعزمت على اني متى وصلت بلدي  
 اقمت بها ورجعت الى صنعتي ورضيت منها بكل ما تيسر واقت  
 مع اختي الى ان يرزقها المولى بمن يتزوج بها ويغنيها عن الخدمة  
 وتعبها  
 وكان ذلك الرجل السائح الذي كنت بصحبته لحسن طاعتي

له رقيامي بخدمته احبني والفني وجعلني عنده بمنزلة ولده وهكذا كان دأبه معي برأ وبجرأ سفراً وحضراً حتى انه نفعني كثيراً بعد وصولي الى بلدي واقامتي بوطني كما اذكركم لحضرتكم وطالما افادني مدة صحبتي له في السفر اخباراً كثيرة ما شاهده في سياحته وعلمي اموراً كنت اجهلها ووصف لي كثيراً من خواص حيوانات افريقية ونباتها واشكال طيرها وعجائب الخلائق البرية والبحرية بها ولا يخفى على حضرتكم ان ارض افريقية على العموم بها من جميع انواع الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفيل ما لا يوجد بغيرها وفي الجهات التي كنت بها كثير من هذه الحيوانات ماؤها الغابات والصحاري واشدها واقساها السبع وهو في جهات ( السني غال ) و ( غمبيا ) عظيم الجثة مهول الخلقه كثير الجرأة ذو قوة عظيمة وبأس شديد فهو اعظم ما يوجد من هذا النوع في سائر الجهات كجبال الاطلس مثلاً

ولما خرجنا من الجهة التي كنت بها قاصدين جهة الساحل وجدنا في طريقنا بعد مسيرة ثلاثة ايام من قرية ( تابو ) غابة واسعة فيها اشجار عظيمة قد انطبقت اعاليها وتلاقت فروعها فكنا نراها كالقبة فوق رؤسنا وقد حجيت عنا اشعة الشمس فلم نكن نراها الا قليلاً نادراً ولهذا السبب كان داخل هذه الغابة ابرد من خارجها وكنا في مدة سيرنا بها نسمع للسبع من جميع جهاتها اصواتاً مزعجة

حتى كنا نخيل لشدة الخوف ان تحت كل شجرة سبعا وكان من  
معنا من المحرس والخفراء يسرعون ويجنون على السرعة في السير  
خوفاً من اذاهم ولكننا والحمد لله لم نر شيئاً منها وما زلنا نجد في  
السير حتى خرجنا من هذه الغابة قريب العصر ووسرنا حتى امسينا  
على عين ماء هناك للمبيت فنزلنا عندها ومن عاداتهم في تلك  
الجهة انهم اذا باتوا في الخلاء اوقدوا ناراً على البعد وتركوها للصباح  
لتنفير السباع والوحوش عنهم وكذلك فعل من كان معنا من  
الخفراء وبتنا على الخوف والخشية من الوحوش والسباع وكانت  
المسامرة تلك الليلة كلها في ذكرها فكان كل من الحاضرين يذكر  
ما سمعه او رآه من امرها وشرها

## المسامرة التاسعة والستون

## السباع

( من حكاية يعقوب )

فما جرى ذكره في تلك الليلة ما حدثنا به بعض الخفراء وقد رأينا باحدى فخذيه اثراً غائراً في لحمه فسألناه عنه فقال هذا موضع أكل السبع وذلك اني خرجت مرة مع بعض اصحابي لنصطاد فيلاً من بعض الغابات فلما دخلنا النابة تفرقنا فبعدت عنهم فقصدني سبع فجلدت ورميته بجرية كانت معي فاصابته ولكنها لم تذهب بقوته فهجم عليّ بشدة وكان معي سكين ماضية فذبحته بها بعد ان انشب مخالفه في جهات من جسمي واقتطع من فخذي هذا قطعة عظيمة من لحمي فوقعت على الارض ووقع بجاني ميتاً ثم حضر اصحابي فوجدوني جريحاً طريحاً على الارض والاسد الجاني غريق في دمه فاحملوني معهم وبقيت مدة من الزمن مريضاً الى

ان شفيت وقال اخر بينما انا سائر مرة في واد واذا باسد قد تعرض لي في الطريق وكنت وقتئذٍ لا سلاح معي فلما رأته لصقت بالارض واشرت اليه اشارة المتدلل بين يديه فلما رأى مني ذلك اتى اليّ ودار مرة او مرتين حواليّ ثم تركني وانصرف

قال يعقوب وهكذا قضينا ليلتنا في امثال هذه الاحاديث والاختبار الى ان طلع علينا النهار فرحلنا وسرنا في طريقنا الى ان وصلنا الى الساحل كما ذكرنا وكان من جملة ما افادني ذلك السائح من خواص الحيوان ان لسان السبع غليظ خشن يعلو سطحه شوك دقيق كالسل الا انه صلب مادته تشبه مادة القرن مائل الى جهة الخلف نحو الحلق وقد يبلغ طول الشوكه قدر اربعة خطوط فاذا لمس انساناً او حيواناً تخرج وسال دمه فتتحرك منه نهمه الأكل فيقتسه

قال ومن ذلك ان احد الفرنسيين كان اصطاد اسداً صغيراً فرباه حتى كبر عنده وكان لذلك الفرنسي خادم يلاعب الاسد وينام معه وتارة يعطيه يده فيلمسها فنهاه سيده عن ذلك ونصحه فلم يرجع ولم يقبل نصحه فبينما هم نائمون ليلة واذا بالشبل قد عمد الى الخادم وصار يلحس يده بلسانه على العادة فسال الدم فلما رآه لم يتمالك نفسه فهجم على ذلك الخادم واقتسه فنهب سيده فراه كذلك ففر هارباً واستغاث بمن حوله واجتمعوا عليه واطلقوا الرصاص على الاسد فقتلوه وللأسد في كل فك من فكيه اربعة

عشر سنًا أربعة اماميه وأربعة من خلفها وستة اضراس في كل ناحية من شذقيه ثلاثة وعلى رقبة الذكر خاصة شعر ينتشر اذا هاج وهو لبدته ويقال ان الانثى من هذا النوع اقوى من ذكره وفي ارجله قصر بالنسبة لتركيب اعضائه وفي كل من الرجلين المتقدمين خمسة اظافر وفي كل من المؤخرتين اربعة وذنبه طويل وشعره خشن متلبد قصير وقد ضرب المثل بمجرأته لانه لا يبالي بحيوان ولا يخشى من انسان قلّ او اكثر خصوصًا اذا اشتد به الجوع فاذا لم يرد الهجوم والافتراس مضى في طريقه من غير اكتراس ولا مبالاة وليس من طبعه الفرار من عدوه مهما كان فان الحيء الى ذلك تهقر قليلاً قليلاً مع البطء والتأني حتى يصل الى مكمن ينزوي فيه ويقال انه مصاب بحمى دائمة وان سبب ذلك التهاب دائم في دمه وزعم كثير من الناس انه لا يفترس المرأة وقال بعضهم ان ذلك لا اصل له ولكنه شوهد مرارًا كثيرة يعف عن وقع تحت قبضته وخضع له من الادميين بل ربما شارك في طعامه من عف عنه ابقاء على حياته

ومن طبعه انه يحتمل العطش ثلاثة ايام او اربعة فاذا وقع على الماء شرب كثيرًا ومن طبعه ايضًا الخوف من الثعبان ويعلم ذلك منه العرب وسكان الصحراء فاذا وقع باحدهم جعل عمامته على صورة الثعبان ومدّها على الارض فاذا رأى ذلك الاسد تركه ومضى



ويقال ان خيل العرب مع ما لها من القوة وخفة الحركة وسرعة الجري اذا رأت الاسد استولى عليها الرعب وهدمت الحركة فتثبت في مكانها ولا تقدر على السير فاذا رأى البدوي ذلك نظر الى جهة الاسد فان كان قريباً نزل عن فرسه ونام على بطنه وترك فرسه للاسد فيفترسها الاسد وينجو هو بنفسه وان كان بعيداً او قد ناراً فاذا رآها الاسد مضى لسبيله وتركه

وتلد انثى الاسود اربعة فاكثر وليس لها غير ثديين وقد اعتاد الاعراب اخذ اولادها وهي صغيرة ليبيعوها للافرنج فاذا رأتهم اللبدة هجمت عليهم فيرمون لها بواحد منها فتحمله الى موضعها وترجع اليهم لتلتقمهم وتأخذ بقية اولادها وفي هذه المدة يكونون قد نجوا بما معهم ومن طبع الاسد حفظه للود ووفاءه بالعهد فاذا صنع احد معه معروفاً لا ينساه ابداً

فمن ذلك ما اخبرني به بعض اصحابي . قال كان عند حاكم (سيار البونا) اسد ظهر على جسده بعض قروح اضرت بصحته واضعفت جسمه وكان هناك حكيم فأخذته الرأفة عليه والشفقة به فعالجه حتى برئ واندملت قروحه وتراجعت صحنه وقوته فألفه واحبه وصار يطيعه ويتقاد له ويتبعه كما يتبع الكلب المعلم صاحبه

المسامرة السبعون

ابن آوي

( من حكاية يعقوب )

قال ثم ان ذلك الحكيم مرض مرضاً مات فيه فظهر على الاسد  
الحزن حتى منعه من الطعام فمات ولم يعيش بعده الا قليلا وفي  
جهات سواحل افريقيا غير ما ذكر كثير من الوحوش والقردة  
والطيور العجيبة ذات الالوان اللطيفة والاشكال الضريفة وانواع  
الحيوانات الغريبة فلا يكاد يمر الانسان من جهة الى غيرها الا  
رأى من عجائب المخلوقات ما لم يكن رآه من قبل ومن جملة ما  
بها من الحيوانات ابن آوي وهو حيوان مفترس في جرم الثعلب  
وكأنما اصله من كلب وذئب لانه يشبهها خلقه وتركيباً ولونه اصفر  
ناصر ولهذا ساه ( فيتاوس ) الكلب المذهب وبعضهم يسميه بالكلب  
الوحشي وانيابه غليظة في طول اصبع قوي الاظفار ذو قسوة

شديدة يفترس كل ما قدر عليه من انسان وحيوان وكثيراً ما رأته في البلاد التي كنت بها يقرب من مباني البلد ويدخل في بعض الدور وياخذ ما وقع به من الغنم والخنازير ودخل ذات ليلة بيت جارية فاخطف منه بنتاً لها وحملها على عاتقه وجرى بها وكان يسندها باحدى قوائمه ويمشي على الثلاث مع السرعة والخفة فصاحت البنت فتنبهت الناس لصياحها فقاموا خلفه فرماها لم ولم يجدوا بها الا اثاراً صغيراً محل اظافره التي كان قابضاً بها عليها ويقال ان هذا الحيوان يهيم الصيد للاسد فيدور من جهة الى جهة ليبحث عن الصيد فتمى عثر به صاح باعلى صوته فيسمعه الاسد ويجاوبه ويلتخنه وقيل ان ذلك لم يصح وانما الصحيح انه اذا جرى وراء طريدته فادركه الاسد شاركه فيما اصاب

وقد يتألب من هذا الحيوان في بعض الاحيان اربعون او خمسون فتنبعث للصيد وتأخذ في عواء شديد جهير واذا اتحدت وهي على مثل هذه الحال كانت مكافئة للوحوش الضارية في اجامها وتعرضت لاقواها ويساعد بعضها بعضاً في الصيد ونيش المقابر وهي تستكن نهراً منفردة في احجارها وتجمع عند المساء سراباً وتغير على القرى للقتل والاغتيال وبين ابن آوى والكلب من العداوة ما لا صلح معه فلا يلتقيان مرة الا سطا احدهما على الاخر



المسامرة المحاذية والسبعون

النمر

( من حكاية بعقوب )

ومنها النمر وهو حيوان في جرم الكلب السلوقي ومنه ما يكبر  
 ويعظم جسمه حتى يصير كالعجل وشعره ناعم براق منقط بنقط سود  
 ورأسه كراس الهراصفر العينين حاد الاسنان خشن اللسان طويل  
 الارجل والذيل قصير الشعر حاد الاظافر الى الغاية عظيم الجراءة  
 يقدم على الفيل ويهجم عليه وهو كالهرة في غالب صفاته وافعاله  
 وحركاته مع الشدة والشهامة كما انه يشبهه في شكل الجسم وان  
 كان اكبر من القط في الحجم واكثره قوة وجراءة ما يوجد بافريقيا  
 والنمر لبساتنه وزيادة قوته لا يصاد حياً الا نادراً لانه اذا وقع في  
 حباله قل ان يسلم منه صائده ولذلك يتخذون لصيده نبالا  
 مسمومة السنان وهو يعدو على الفيل فيزق خرطوميه باظافره

وايابه فيموت لان خرطوم الفيل بالنسبة له كيده يتناول بها  
الغذاء وسلاحه الذي يدفع به عن نفسه الاعداء فاذا فقدت مات  
من عدم الغذاء وتسلط الاعداء ومع جراءة النمر وشدة قوته قد  
شوهد مرة من بعض الخنازير مقاومته بالكثرة فقد اتفق لبعض  
السائحين وكان يقني الخنازير انه اصطاد نمراً صغيراً ورباه فعمد  
ذات يوم الى خنزير من تلك الخنازير ليفترسه ففر الخنزير منه الى  
مكان ضيق بحيث لم يبق للنمر سبيل عليه الا من جهة واحدة  
فتبعه النمر وضايقه فلما لم يَرَ الخنزير الى الخلاص منه سيلاً صاح  
على اخوته باعلى صوته وكانت منتشرة في نواحي البيت فلما سمعت  
هرعت اليه واحاطت بالنمر فلم ينبج منها الا بالفرار فولى وتركها  
والنمر انواع متعددة يتميز بعضها عن بعض بالالوان والنقط وكبر  
الجثة وهو يستحب لحم ما عداه من الحيوان على لحم الادمي ثم لحم  
السودان على لحم البيض والاروبيين لكنه اذا جاع لا يفرق بين  
ادمي وغيره والسودان ياكلون لحمه كما ياكلون لحوم القبيلة  
والاسود وغيرها وكثيرا ما يقتلون من يقصد الاتجار في جلده  
ويقال ان فيه قابلية للتعليم الى ان يصير كالكلب المعلم الا انه لا  
يوثق به لانه ربما يغلب عليه طبيعه بعد حين ويقرب منه نوع  
يسمى القط النمرى وهو كالنمر في طبيعه ولونه الا انه اقل منه جسماً  
ويكون في ارتفاع القط المعتاد الا انه اغلظ منه حجماً وياكل  
الفار وابن عرس وغيرها ومنه نوع يعرف باقياس يوصف

بصفات النمر الافريقي غير ان طوله قلما يجاوز ثلاث اقدام ونصفاً  
 الا ان شعره اطول وكذا ذنبه بالنسبة الى جنته ولونه ما بين  
 الصفرة والبياض ولكن بطنه اشد بياضاً من ظهره وتقطه كالتقط  
 التي في النمر وضعاً وتوشك ان تصير على مؤخره خطوطاً وهو  
 من الحيوانات المفترسة الا انه لا يتعرض للادمي الا ان تعرض  
 له ولم يمكنه الفرار منه فعند ذلك يثب عليه وينشب مخالبه في  
 وجهه ويكرر ذلك مراراً حتى يقتله وبين هذا الحيوان والكلب  
 عداوة شديدة فمتى رآه بادر الى الهجوم عليه ليفترسه وياكل من  
 لحمه ولو مع افتحام المخاوف والتعرض للتلف وقد يدرب في بعض  
 الجهات ويغرى بالصيد ولكنه ليس له قوة شم حادة كما للكلب  
 ويقال ان بعضاً من هذا النوع ربي تربية حسنة حتى كان يؤخذ  
 باليد ويحنضن

المسامرة الثانية والسبعون

الفرْدَة

( من حكاية يعقوب )

وهناك حيوانات غير ما ذكر متوحشة كالذئب والخنزير وغيرها وكلها تشبه في شكلها وتركيب صورتها ما يوجد منها في سائر البلاد إلا أن الموجود منها في افريقيا اعظم جسماً واشد توحشاً وأكثر عدداً ويوجد في غاباتها من الحيوانات المتوحشة الجاموس والبقرة إلا أنها اقل وجوداً من غيرها وقد يكبر الجاموس عندهم حتى يصير كالنيلة وإن تعرض له احد بالاساة هجم عليه فان لحقه داسه بارجله واتلفه ومن طبعه انه يحب الماء حباً زائداً ولحمه مستطاب لذيد واما البقر فيهرب من الانسان ويسكن الغابات ويتناسل فيها فيكثر عدده الى الغاية فيأتي اهل تلك الجهة

وياخذون منه كثيراً ولولا ذلك لضاقت عنه الارض وهناك من  
نوع الظبا كثير واكثر وجوده بجهة ( امندا ) والساحل وهو انواع  
ومنه نوع يده اقصر من رجله ويشابه الجمل في ذيله ورأسه  
ووبره وحول اجفانه دائرة من الشعر سوداء كاعين الابل وصوته  
كصوت المعز ويقبل التاليف والتربية وما يكثر وجوده في تلك  
الجهات الابل وله اوقات معلومة يخرج فيها للمرعى قطائع متجمعة  
تسافر من شمال نهر ( السينجال ) الى جهة جنوبه في طلب المرعى  
واهل تلك الجهة يعرفون اوقات رجوعها فيستعدون لاصطيادها  
بان يضرمو النار في الحشيش من جميع الجهات ما عدا جهة  
النهر ويقف جماعة منهم بشاطئ النهر فاذا رأت قطائع الابل النار  
قد احاطت بها من كل جانب فرت الى جهة النهر فيقوم عليها  
الذين كمنوا لها هناك فيقتلون منها ما يقتلونه وياخذون بالحياة ما  
ياخذونه وما يذبحونه يجففون لحمه في الشمس لياكلوه وجلده  
ليبيعوه للاوربيين او غيرهم وقد اخبرني ذلك السائح الانكليزي  
انه رأى هناك حيواناً صغير الجثة في قدر خنزير مضى عليه سنة  
من عمره شعره ابيض قصير دقيق صلب ورأسه كراس الدب  
وعينه ضيقة ذات لعان وله اظافر حادة يصعد بها الشجر وياكل  
من ثمارها ويقم بين اغصانها وهو مجري بري يعيش في الماء وفي  
الهواء فلماذا يرى دائماً فوق اغصان الاشجار بالقرب من شواطئ



الانهار والسودان يصطادونه وياكلونه

وليس هناك أكثر من القردة عدداً وأنواعاً ولا اعجب منها  
طباعاً وتسرح متجمعة قطائع عظيمة قد يبلغ عدد القطيع الواحد  
منها ثلاثة الاف فاكثر ولا يمشي واحد منها الا مع ابناء نوعه  
ويقال ان لكل قطيع منها رئيسا تطيعه وتقاد له وحرسا يرتب من  
اعظها جثة وقوة وانها اذا سارت يكون الرئيس امامها والحرس  
خلفها والانثى تحمل ولدها تحت ابطنها فان كان لها اكثر من واحد  
حملت ما بقي على ظهرها وسارت بها

وفي هذا النوع من الحذق والخفة والقوة والجرأة ما يقضي منه  
العجب ولا يوجد في كثير من الحيوانات فقد رأيتها حين عودتنا  
مع السائح الانكليزي وهي فوق الشجر تثب من غصن الى غصن  
ومن شجرة الى شجرة كأنها فوق الارض ولها اصوات مختلفة منها  
الرفيع ومنها الغليظ وما بين ذلك ولكنها كانت تارة تصيح دفعة  
واحدة فيظن من لم يرها انه صوت واحد منها وقد يسمع لبعضها  
في جوف الليل صوت عال يعلو جميع اصواتها فتسكت جميعا  
برهة من الزمن ثم ترجع الى ما كانت فيه وكنت رأيت هناك بيوتا  
صغيرة كثيرة العدد مصنوعة من اغصان الشجر قليلة الارتفاع عن  
وجه الارض متجاورة فسالت عنها بعض الحرس الذين كانوا معنا  
فاخبرني انها بيوت للقردة نثقي بها حر الشمس وضرر العوارض

وكل ما رأيته من القرّدة له ذيل ولكن اخبرني بعض السائحين ان منها ما لا ذيل له والقرّدة انواع فمهما نوع صغير الجثة غير مؤذ وصوته يشبه بكاء الاطفال ونوع اكبر منه خلقة وضرره كثير وفيه بعض فطنة وله حركات وإشارات تقرب مما للادمي من ذلك فضلاً عن الايدي والارجل حتى ان السودان يعتقدون ان في امكانه النطق وإنما يمنع من ذلك خوفه من ان يكلف الاعمال الشاقة كالآدمي وضرره على المزارع كثير ومن عاداته انه اذا اراد الدخول في مزرعة من مزارع الارز او الذرة اجتمع منه نحو الاربعين والخمسين وصعد كبيرها على شجرة لينظر الى كل جهة والبقية تدخل في الزرع وتجمع ما شاءت فاذا لمح الذي على الشجرة صاحب الزرع او غيره مقبلاً الى جهتهم على بعد صاح صيحة مهولة فياخذ كل واحد ما جمعه ويصعد به الى شجرة ولا يزال يشب من غصن الى اخر ومن شجرة الى غيرها واذا كان فيه انثى ذات اولاد اخذتها وصعدت بها كذلك وفعلت فعل البقية حتى يتخلص الجميع ولا يحصل صاحب الزرع الا على الاسف ولذلك كانت كراهة السودان لهذا النوع اشد منها لغيره

وتقل بعضهم عن اهل تلك الجهة ان القرّدة كثيرا ماتتخطف بنات صغيرة في نحو تسع سنين من العمر وترفعها الى اعالي الاشجار وتبقيها عندها ويصطاد السودان من القرّدة في كل سنة عدداً

كثيراً وياكلون لحمها ومن طرفهم في اصطيادها من فوق الشجر ان يחדشوا وجوهها بعصي او رماح طويلة فاذا فعلوا بها ذلك تركت الاغصان التي هي متعلقة بها ووضعت يديها على محل الجرح فتسقط على الارض فياخذونها وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذا الحيوان على مثلي متعسر وتفصيل انواعه وافعاله وطباعه غير متيسر وما من احد الا رأى كثيراً من افراده ويعلم هيأتها واشكالها وبعض احوالها وانما اقول لحضرتكم ان الذي رأيته من عاداتها اللازمة لها ان افراد كل جنس منها تكون مع بعضها ولا تخلط بغيرها ومنها نوع يعيش في الغابات ولا يفارقها وهذا النوع اسود الوجه ما عدا الخد فانه ابيض وفي ذقنه شعرات قليلة كاللحمة ولون جسده يضرب الى الزرقة او البياض او يكون منقطعاً بنقط زرق او ببيض او حمر ومنه ما يكون هائل المنظر والسودان ياكلون لحمه فيخففونه ويدخلونه في طبخ الارز ويزعمون انه من احسن الاطعمة وانت خير بان مجرد منظره كافٍ في تغيير المعدة ومنه جنس يوجد في بعض اعضائه نوع شبه لاعضاء الأدي كالوجه والاذان والذراع وقصبة الرجل والكعب وغير ذلك وكثيرا ما يرى ماشياً على رجليه الخلفتين منتصب القامة حاملاً لا تقال عظيمة ويبلغ طول هذا النوع خمس اقدام وهو عبل الذراعين ضخم الجثة قوي البنية الا انه قليل الاذى لين الجانب ياخذ بعض

الناس صغيراً فيعوده على بعض الخدمة والعمل فيجمل آنية الماء  
على راسه منتصباً ويدبر الرحي ويملاً الأواني من ماء الأبار والعيون  
والانهار ويشوي اللحم الى غير ذلك من خدم يعود عليها ويعلمها  
فيعلم ويعود على ما يراد منه من صغره ولا يؤخذ للتربية الا في  
صغره وهو في حال توحشه صعب الانقياد شديد القوة يغالب  
الرجل فيغلبه ويقلع عينيه ويفعل به افعالاً قبيحة تؤدي الى تلفه  
وكثيرا ما يقع بين القرود محاربات شديدة تؤدي الى قتل بعضها  
بعضاً



## المسامرة الثالثة والجمعون

### سنور الزباد

( من حكاية يعقوب )

وهناك من الحيوانات قط الزباد او سنور الزباد وقد يقال له قطة المسك ويوجد كثيراً بين جبل (الاطلس) و (السينجال) وفي ولاية (ناطيا) من ارض الحبش وولاية (كوجا) فوق (سيالبونا) وقد اختلف الطبيعيون في صفة هذا الحيوان فزعم بعضهم انه نوع من الضباع وقال انه في شكل الضبع وقال آخرون انه في حجم الكلب وله خرطوم رقيق الطرف وفي عينيه واذنيه ضيق وله شوارب كشوارب القط وله ذيل غليظ يشبه ذيل الثعلب وعلى ارجله شعر طويل اسود وله في كل رجل خمسة اظافر سود مستقيمة حادة وهو من الحيوانات المفترسة وجرحه مضر

فاذا اراد الصيادون صيده حفروا له حفرةً في طريقه فيقع فيها  
 فياخذونه ويضعونه في اقصاص من خشب ونحوه ويطعمونه لحماً نيئاً  
 قطعوه له قطعاً صغيرة ومادة الزباد من هذا الحيوان تجتمع تحت  
 ذيله في غشاء كالكيس نحو ثلاث اصابع طولاً واصبعين ونصف  
 عرضاً وداخله اغشية متعددة ومن داخلها تلك المادة ويوجد هذا  
 الكيس في الذكر عند دبره وفي الانثى عند فرجها وفي الغالب  
 يصاد هذا الحيوان في صغره فيؤخذ ويربى وتؤخذ منه تلك المادة  
 وكيفية اخذها منه انهم بعد ان يصطادوه يضعونه في شي كالقفص  
 ثم يأتون اليه كل يومين او ثلاثة فيزعمونه بعصي او نحوها حتى  
 ينزوي في ركن من اركان القفص فيقبضون على ذيله ويسحبونه  
 من بين عيدان القفص بعنف وشدة فيمسك الحيوان برجليه  
 الخلفيتين في القفص بكل قوته فعند ذلك يوضع تحت بطنه شي  
 يمنعه الحركة وحيثئذٍ يسهل اخذ المادة منه فياتون بشيء كالمعلقة  
 فيدخلونها في ذلك الكيس وياخذون ما تجتمع من تلك المادة  
 بالاتكاء على غشاء الكيس وغاية ما يستخرج من تلك المادة كل  
 مرة درهم ونصف او درهمان وهذه المادة تكون في اول امرها بيضاء  
 مشوبة ببعض زرقة ثم تشتد بياضاً ورائحتها على البعد الطف  
 منها على القرب لانها اذا كانت قريبة كانت مصدعة لقوتها ولذلك  
 كان تجار الاعطار يخلطون بهذه المادة غيرها فتعتدل رائحتها ومن  
 هذا الحيوان في بلاد الفلمنك كثير ولهذا السبب كان اكثر ما

يجلب من الزباد الى بلاد الانكليز والفرنسيس وغيرهم وارداً من  
الفلمنك وغالب قوت هذا الحيوان عند من يصطاده البيض  
واللبن ويقولون انه ابي هذا القوت يصفي بياض المادة المستخرجة  
منه ولذا كان المحلوب من بلاد الفلمنك اشد بياضاً من المحلوب  
من افريقيا واسيالا ان قوته في هاتين الجهتين اللحم خاصة ويوجد  
هذا الحيوان ايضاً بكثرة ببلاد الهند الا ان ما يؤخذ منه لا يساوي  
ما يؤخذ من حيوان جهات الفلمنك لان زياد هذا اعلى وثمنه  
اعلى والمشتغلون بتجارته يرسلونه الى البلاد البعيدة فيرحمون فيه  
ارباحاً كثيرة ومن يقتني هذا الحيوان في تلك الجهات ينفق عليه  
نفقات كثيرة وذلك لانهم لا يطعمونه الا اللحم الدجاج والطير  
واوان اصطياده الصيف حين تكون اشجار الغابات كثيرة الاوراق  
ويبلغ ثمن الواحد منه نحو اثني عشر شلينا انكليزية وغذائه في حال  
صغره ثريد يعمل له من لحم طير او سمك مطبوخ مع ذرة ويستحب  
اقتناء الذكور من هذا الحيوان على الاناث لان زياد الذكور  
احسن واجود فانه في الانثى كثيراً ما يصل اليه بولها فيغيره

المسامرة الرابعة والسبعون  
الوصول الى باريس

قال ناقل الحديث فلما وصل يعقوب الى هذا الموضع من كلامه كانوا قد قربوا من مدينة باريس فقال الانكليزي انه يوجد في ارض افريقية وفي الجهات التي كان بها يعقوب غير ما ذكره حيوانات كثيرة هائلة الخلقة ومؤذية منها الافعى والتمساح وفرس البحر وانواع غيرها من الحيوان قد وصفها السائحون في كتبهم فمنها ما يسكن في البر ومنها ما يسكن في البحر ومنها ما يعيش فيها جميعا وفيها من الاعشاب والنباتات ما ليس في غيرها وكنا نحب ان نسمع منه بقية ما شاهده هناك وراه وما سمعه ممن اجتمع عليهم من اهل تلك البلاد ولكن حيث اشرفنا على باريس فنكتفي منه الان بما سمعناه ونستوفي الكلام في وقت اخر



فقال الشيخ لقد قطعنا الطريق بهذه المحادثات اللطيفة بحيث لم نشعر بطول المسافة واستفدنا في ضمنها فوائد كثيرة من معرفة احوال تلك البلاد وما فيها من انواع الخلقات وغرائب احوالها وبودي لو عرفت ما حصل لاخت يعقوب بعد غيبته عنها وكيف كانت حالتها ومعيشتها بعده

فقال يعقوب ان قصة اختي كقصتي بل اغرب وغصتها بعد فراقي لها كقصتي واصعب وسأشرح لكم ما قاسته بعدي من المشقات والمصائب وانواع المحن والشدائد حتى اضطرها الحال الى قطع النظر عما يستدعيه سنها من اللذات والشهوات الدنيوية فاعرضت عن الدنيا وما فيها ودخلت ديراً من ديور الراهبات وترهبت فيه الى ان ماتت ولم ارها وبينما هم في هذا الحديث واذا بالوابور وصل الى موقف سكة الحديد بباريس فنزلوا به وذهب يعقوب فاحضر لم عربة فركبوا جميعا وساروا الى لوكوندة قد سماها الانكليزي ليعقوب فاخبر بها العريجي فاوصلهم اليها بعد نصف ساعة فكان الشيخ مدة سير العربة ينظر الى ازدحام الناس في الطرقات وكثرة الدكاكين وحركة التجارة وهيئة المنازل وانتظامها ورونتها ونظافة الطرق وبهجتها ويتعجب في نفسه من حسن ذلك كله وكذلك ابنه كان لا يصرف نظره من شباك العربة حيث رأى بشوارع باريس احسن مما رآه سابقا بمدينة مرسيلا فلما وصلوا الى اللوكاندة نزل يعقوب من العربة واخذ بيد الشيخ فنزل وكذلك

نزل الانكليزي وبرهان الدين ودخلوا فقابلهم الخادم وذهب بهم الى حجرات لائحة بامثالهم فلما اطمانوا في مجالسهم امر الانكليزي باحضار الطعام فاكلوا وشربوا القهوة وجلسوا برهة لطيفة في محادثات خفيفة وكان ذلك قبيل الظهر فقام كل الى محله المخصص به ليزيل عنه اثر السفر ويخلع ما عليه من الثياب ويلبس ثيابا اخرى وبالجملة قام الشيخ الى حجراته فاستراح وردد برهة ثم قام فتوضأ وصلى وغير ثياب السفر وكذلك فعل ابنه واختار برهان الدين احسن ثيابه وقعد في انتظار يعقوب ليخرج للتفرج في المدينة فلما علم والده منه ذلك قال له يا بني ان خرجت الان بهذه الهيئة حقد الناس اليك بابصارهم واحناط بك كل من مررت به من رجالهم ونسائهم واطفالهم وربما كان ذلك لأدبك مانعا لك عن بلوغ اربك فالاولى ان تصبر حتى نعرف رأي صاحبنا فهذه بلاده وهو ادري باحوالها ونحن فيها اغراب فقال برهان الدين الراي ما تراه وسكت ثم حضر عندها يعقوب وهناها بالسلامة وقال لها ان الانكليزي امره ان ينظر الشيخ هل قام من النوم وهل ينشط للملاقاة فيأتي اليه ويسلم عليه ام يؤخر ذلك برهة فشكره الشيخ واثني على اخلاقه وذكر معروفه وقال له انه يجب ان يراه فليحضر على الرحب والسعة ان احب فرجع يعقوب الى الانكليزي واخبره بما قال له الشيخ فقام الانكليزي وحضر الى الشيخ فتلقاه بالترحب واخذنا يتجادبان اطراف الحديث من بعيد ومن قريب فقال

الانكليزي ان هذه المدينة من احسن مدن الدنيا واعظمها لحسن نظامها وكثرة ما فيها من المباني اللطيفة والاشياء الظريفة فان استحسن الشيخ جعلنا لنا في كل يوم وقتا للتفرج عليها والوقوف على كل شي على حدته وارىد ان احصل رخصة للدخول في المحلات الشهيرة التي لا يباح الدخول فيها الا بالاذن فقال الشيخ انت ادري ببلادك وانا على رايتك ومرادك فما وافق اتيناه وما لم يوافق ابيناه ولا ترى منا الا طاعة الرفيق الموافق للخل الصادق وعندنا من الشوق الى معرفة احوال هذه المدينة العظيمة والوقوف على احوال اهلها وتعرف ما بها من الآثار الباهرة وروائع الصنائع الزاهرة ما تشد به حاجتنا الى استطلاع ما عندك واتباع رايتك والوقوف عند اشارتك لا سيما وقد رأينا من معروفك ومحاسن اخلاقك واستفدنا من فوائدك ما تقدر قدره ولا ننسى اثره ولا نهمل ذكره ونسال الله ان يتولى هدايتنا جميعا الى طرق الرشاد ويكافئك على حسن هذا الصنيع فهو القادر على ما اراد

فقال الانكليزي اني ارى من الواجب عليّ وجوب الفروض اللازمة ان ابذل اقصى جهدي وغاية ما عندي في استجلاب رضاكم وادخال السرور عليكم حيث كنت السبب في تغربكم الى هذه البلاد ومفارقة الاهل والوطن والاولاد وتحمل متاع السفر فلا هم لي سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عليه من احوال هذه البلاد

وتحصيل ما يتعلق به اغراضكم ومقاصدكم وما يكون فيه سروركم  
وتنشرح به صدوركم فارجوكم الاّ تتعاشى من طلب شي تريد  
فذلك غاية مرادي وبغية فوادي وحيث كانت هذه بلادنا وانت  
فيها غريب فان رأيت فيها شيئاً تحبون الوقوف على حقيقته فاسئلوا  
عنه فان كان عندي فيه علم ابدية لحضرتكم والاّ سألت عنه من  
يعرفه واخبرتكم به ونحن نحتاج الى الاقامة في هذه المحاضرة مدة  
من الزمان لقضاء بعض اغراض تلزمني فنصرف اوقات الفراغ من  
هذه المدة في التفرغ في ميادين المدينة ومنتزهاتها والتفرج على مبانيها  
وعماراتها الشهيرة والمسامرة في احوالها وتواريخها وحوادثها القديمة  
والحديثة

فقال الشيخ لا عدمت معروفك وغاية مرادي ان اقضي هذه  
المدة في استفادة ما عساه يكون فيه منفعة اوطاننا وفي نيتي ان  
اكتب مجموعاً اضمنه كل ما اراه واستحسنه في هذه السياحة في  
كتاب ليكون تذكرة لي اذا عدت الى سكني وطرفة محلوبة الى  
اهل وطني

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرتكم ما حصل من اهل  
مرسيليا حين كنا بها من تجمعهم عليكم واحاطتهم بكم حين رأوكم في  
الهيئة المصرية فان كنتم تتضررون من ذلك فلا بأس بالنزير  
بزي هذه البلاد مدة الاقامة بها لتشبهوا باهلها وتخلطوا بهم  
فقال الشيخ لا ضرر عليّ من تجمعهم بل ربما كان فيه فائدة

زائدة وذلك لاني اتمكن حينئذ من رؤيتهم والتامل في ذاتهم  
وهياتهم والوقوف على احوالهم وعاداتهم على ان بقائي بهذه الهيئة ربما  
كان سبباً في الرعاية والتوقير اذ من العادة الجارية كثرة احترام  
الغريب وتوقيره والتجاوز عما عساه يحصل من تقصيره فالأوفق بنا  
البقاء على ما نحن فيه لاسيما ونحن اذا غيرنا هذه الملابس التي  
اعندنا عليها من صغرنا ولم نعرف غيرها في عمرنا احتجنا الى مدة  
من الزمن للتعود على تلك الهيئة الجديدة وإتقانها

قال الانكليزي ذلك اليك ونعم ما رأيت وما عرضت  
عليك هذا الامر الا لاني خطر ببالى ان ذلك ربما يكون من  
اغراضك فاسعى في تحصيله واذ لم ترد ذلك لنفسك فهل تأذن  
فيه لبرهان الدين

قال الشيخ امر برهان الدين اليه فنسأله عما يريد لنفسه وان  
كان بقاءه على هيئته الاصلية احب اليّ فاني كلما رأيتك تذكرت  
الوطن واهله وصرت كاني لم افارق وطني

فقال برهان انا ايضا احب ان ابقى على هذه الهيئة ولا ضرورة  
لتغييرها اذ لسنا على نية التوطن بهذه البلاد ودوام الاقامة بها  
وانما نقيم فيها مدة يسيرة لا تحوج الى ذلك ولو غيرنا ملابس بلادنا  
في هذه المحاضرة للتخلص من تزاحم الناس علينا لزمنا لهذا الغرض  
ان نغيرها في كل جهة انتقلنا اليها فان الملابس والهيئات تختلف  
باختلاف الجهات

فقال الانكليزي الامر اليكم واخبركم اني قد اكرتت عربية وجعلتها تحت امركم وخاصة بكم فمتي اردتم الخروج الى شوارع البلد او ظاهرها فمروا يعقوب ان يحضرها لكم فان لم اكن معكم لبعض موانع قد تعوفني عن الانتظام في سلك صحبتكم في بعض الاحيان فهو يلازمكم ويقوم بكل ما يلزم لكم ثم استأذن وانصرف الى حجرته وكذلك انصرف يعقوب الى محله وبقي الشيخ وابنه وكان الشيخ قد اعتراه بعض تعب من ارتجاج العربة وطول القعود بها فاحب ان يريح بدنه فقال لولده اذا جاء الانكليزي وسأل عني فاخبره اني لا رغبة لي في الخروج في هذه الليلة ثم تحول الى فراشه لينام فقام ولده واغلق عليه الباب وذهب الى حجرته الخاصة به فلم يجد له صبراً على المكث بها وحده خصوصاً وقد كان مغرمًا بسماع بقية حكاية يعقوب وبالتفرج على شوارع المدينة وما فيها فخرج من حجرته وذهب الى محل يعقوب وقال له ان الوالد كان وعد بالخروج في هذه الليلة ثم اثر الاستراحة بسبب ما وجد في نفسه من مشقة السفر فهل ترى ان نخرج وحدنا او نقيم الليلة فقال يعقوب لا ينبغي ان نخرج الا باذن فالصواب ان نصبر الى اخر النهار ثم نستأذن بعد الطعام ونوجهه اما الى التياتر واما الى البالو فقال برهان الدين اما التياتر فقد رأيتُه وعرفته حين كنا بمرسيليا واما البالو فلا اعرفه فما هو فقال يعقوب البالو محل يجتمع فيه كثير من الرجال والنساء

يلبسون فيه احسن ملابسهم ويرقصون مع بعضهم على نغم الآلات  
 الموسيقية فقال برهان الدين لا بأس برؤية هذا المحل ولكن احب  
 في هذه الليلة الاقتصار على المرور في البلد ورؤية شوارعها ومبانيها  
 وفيما بعد اذا وجدنا فرصة حملنا الخواجا على الذهاب اليه وتوجهنا  
 معه فاتقنا على ذلك وانتظرا تحصيل الرخصة وانتهاز الفرصة ثم ان  
 برهان الدين قام من عند يعقوب ورجع الى مخدعه واخذ كراسية  
 وصار يكتب ما علق بذهنه ما حكاه يعقوب في اثناء الطريق وضم  
 الى ذلك ما حضره ما كان يشاهده بنفسه عند المرور ببعض  
 الجهات واستمر على ذلك الى قبيل الغروب ثم قام وتوجه الى محل  
 والده فوجده قائماً يصلي فصلى خلفه فلما تمت الصلاة وما يتبعها  
 حكى له ما اتفق عليه مع يعقوب وطلب الاذن فأذن له واوصاه  
 ان يعود عاجلاً ليريح بدنه كذلك من تعب السفر وقال له الايام  
 بيننا وما لم نره في هذه الليلة سنراه فيما بعدها فقابل قول والده  
 بالسمع والطاعة وعزم على الرجوع سريعاً بقدر الاستطاعة وحضر  
 الطعام فاكلوا وبعد ذلك خرج مع يعقوب الى شوارع البلد  
 ونواحيها



## المسامرة الخامسة والسبعون

لمحة

في باريس

فمجب من حسن نظامها وكثرة العالم بها وسعة شوارعها وتنظيمها وحركة التجارة بها ومن زخرفة محلات التجار ونظافتها وحسن بهجتها وكان يتقل من مكان الى مكان ومن دكان الى دكان ويقف عند بعض المحلات فيسرح فيها طرفه وينظر لما فيها من انواع البضائع النفيسة ويشرح له يعقوب كل ما سأل عنه من هذه البضائع ويذكر له اسمه ونوعه وجنسه والجهة التي يجلب منها وكانا كلما وقفا على دكان او خان احناط بها كثير من الناس من نساء ورجال ينظرون لهيئة برهان الدين وملبسه وكان هو ايضا ينظر اليهم والى هيئاتهم وملابسهم ويقارن ما رآه هناك بما



كان يراه وهو بمصر فلم يجد بينها نسبة وما زالا يتقلان من دكان الى دكان ومن خان الى خان الى ان مضى عليهما من غروب الشمس نحو اربع ساعات ومع ذلك كان يرى العربات متوالية مع السرعة والكثرة بحيث كانا اذا ارادا الانتقال من محل الى غيره مكثنا زماناً طويلاً ينتظران فرجة يمرون منها ورأى ضوء المصابيح الغازية المنتشرة في الطرقات قائماً مقام نور القمر او ضوء الشمس بحيث يمكن فيه قراءة الخط الدقيق وقد الدراهم بغير عسر ولا صعوبة وكذلك رأى ضوء المصابيح الغازية في الازقة والحارات يزداد بما يصل اليها من ضوء مصابيح الدكاكين وغيرها لانه ما من دكان او محل قهوة او خان الا كان امامه عدة من المصابيح نحو الخمسة او الستة او اكثر فكانت اشعتها تنبعث امامها وتزيد البضائع الموضوعة خلف الزجاج حسناً ورونقاً وكذلك كانت اشعتها تنعكس في المرايا المركوزة في الطرق كما ان هذه المرايا كان يعكس فيها ايضاً صور كل ما قابلها او مر امامها من الناس والعربات وغيرها فيرى فيها الرائي صوراً مختلفة واشكالاً متنوعة فحسى على برهان الدين الزمن من غير ان يشعر وذلك لاشتغال حواسه بما كان يراه من الاشكال المتنوعة والصور المتجددة واستغراق خاطره في التأمل والاستغراب والاستحسان لما يراه من حسن الرونق وانتظام المنظر بحيث يتخيل الرائي ان المدينة في زينة مرتبة بالخصوص لامر عظيم او موسم حاضر وكان كلما قطع مسافة رأى

فيا بعدها شيئاً لم يكن رآه وكان يتأمل في الدكاكين وحواصل  
التجار ويعجب من حسن انتظامها وسعتها فيجد النسبة بينها وبين  
ما كان يراه في القاهرة منقطعاً والمقارنة ممتعة لانه رأى الدكان  
في باريس عبارة عن محل عظيم يشتمل على عدة محال بعضها من  
داخل البعض منها ما هو مفروش بالرخام ومنها ما هو مفروش  
بالبسط النفيسة ومنها ما بعضه من هذا وبعضه من هذا وابوابها  
محكمة التركيب مليحة الوضع مصنوعة من الخشب الثمين كخشب  
الجوز والبلوط والفرعاج ونحو ذلك مدهونة باللون تسر الناظرين  
وتجذب قلوب المارين مقسمة بالواح الزجاج او البلور حتى لا  
يحجب شي ما بداخلها عن بصر كل من يمر بها والبضائع فيها مرتبة  
حسن ترتيب مصفوفة على الرفوف مع كمال الاتساق وحسن  
الوضع بحيث تستدعي لشراؤها كل من يمر بازائها وفي كل دكان  
نساء حسان الوجوه متجهلات باحسن الملابس والطف الهيات  
مستعدات لعرض ما يلزم عرضه او بيع ما يلزم بيعه فترى الشاري  
لا يضطر للوقوف في الطريق امام الدكان واطالة الكلام بغير  
طائل بل يدخل ويطلب ما اراد من البضاعة مع اللطف  
والادب وعدم رفع الصوت فاذا وقع الاتفاق على الثمن اداه واخذ  
ما اشتراه في ورقة او ربطة لطيفة نلقه فيها احدى النساء اللاتي  
في الدكان فان بداله عدم اخذه معه واراد ارساله الى منزله فليس  
عليه الا ان يعرف البائع نمرة الدار ونمرة المحل الذي هو مقيم به

ثم يذهب الى سبيله ويصل ما اشتراه الى محله وفي هذه الحالة لا مانع من دفع الثمن في الحال او ابقائه الى ان يرسله صحبة من يذهب بالبضاعة لان ذلك امر جارٍ بينهم ومعتاد لهم وما زال برهان يسير مع يعقوب ويتفرج وهو متبهج بما يراه مشغول المخاطر بالتأمل فيه ويعقوب يشرح له ويوضح الى ان وصلا الى باب كبير فرأى امامه مصابيح كثيرة منورة بالغاز ومن داخل الباب زقاق مستطيل اسفله مفروش بالرخام واعلاه مستور بالزجاج وفي جانبيه دواليب مدهونة باحسن الالوان فيها نقوش لطيفة وصور ظريفة ورأى في كل جانب خلقاً كثيراً من رجال ونساء كلهم مشغولون بترتيب بضائع متنوعة يضعونها في صناديق وعلب كثيرة وكان المحل يضيء بمصابيح الغاز المنتشرة في جميع ارجائه فالت نفس ابن الشيخ الى دخوله فدخله هو ويعقوب فوجداه ابهج من جميع ما رأياه والطف وفي داخله طرق نافذة بعضها الى بعض فسلكا في احداهما فوجد كل منهما صورته منطبعة امامه في مرآة مستوعبة لجميع عرض الحائط وارتفاعه حتى يظن السالك انها نافذة وان هذه الصور اشخاص تسير الى جهته فرجعا واخذوا في مسلك اخر ومنه الى غيره وكان في كل جهة دخلاها من هذا المحل جملة من الناس يشتغلون بتصنيف البضائع وتنظيمها ووضعها في الصناديق والعلب وكان كل من هولاء الناس ينظر اليهما مع السكون والوقار من غير ان يفارق محله او يترك شغله ولم يريا هناك بيعاً

ولا شراء ولا اخذا ولا اعطاء فتعجبا من عظم هذا المحل وسعته وحسن زخرفته وارادا الرجوع من حيث دخلا فاخطأ الطريق وصارا يترددان من جهة الى جهة ومن طريق الى طريق ولا يعارضهما احد الى ان ظهر عليهما انها اخطأ الطريق فتقدم اليهما فتى قصير القامة فحياهما باحسن تحية وكلمهما باللغة العربية وسألها عما يريدان فقال له يعقوب ليس لنا غرض سوى التفرج وقد ضللنا الطريق ولا ندرى كيف نخرج وقد تحيرت افكارنا لما شاهدناه في هذا المكان من كثرة اصناف التجارة فانا ما سلكتنا في جهة من جهاته الا وجدنا فيها جماعة يشتغلون بترتيب اشياء من اصناف التجارة غير ما كنا رايناه من قبل فاي محل تجارة هذا

فقال الرجل هذا المحل قد بني في عهد قريب وهو خاص باثنين اخوين بني من مالها فلما اكتمل بناء سميها باسم مدينة باريس وجميع ما فيه من البضائع انما هو من مالها خاصة لا يشاركها فيه احد من الناس وفيه من جميع اصناف التجارة جليلا وحقيرها فلا يكاد يسأل الطالب عن شيء الا وجدته فيه فمن ذلك الكشميري الثمين من شغل الهند واقمشة الحرير من عمل اهل الصين والهند والفرنسيس وغيرهم واقمشة الكتان والقطن على تعدد اشكالها وانواعها والبسط العجمية على تنوع اوضاعها وانية الفضة والذهب وحلي الجواهر الى غير ذلك وهذه الانواع منها ما يباع على تجار البلد للبيع في داخل المدينة ومنها ما يرسل الى بلاد المشرق وبلاد

المغرب والترك واسيا الصغرى والكبرى وبلاد الغرب والاقطار  
 الحجازية وبلاد الانكليز وغيرها فإنا من جهة من هذه الجهات الآ  
 ويرد لها من هذه الاصناف وكذلك هذه الجهات ترسل كثيراً من  
 مصنوعاتها واصناف تجارتها الى هذا المحل وجميع من تراه هنا من  
 رجال ونساء انما هم خدم بمرتبات شهرية تصرف لهم من لدن  
 هذين الاخوين وعددهم مائة وخمسة وعشرون شخصاً وانا من  
 جملتهم وقد راكبا احد الاخوين فارسلني اليكما للازمكما واكون في  
 خدمتكما حتى تقضيا غرضكما وها هو قريب منا فان اردتما ان تجتمعا  
 عليه ذهبت بكما اليه فعجب برهان الدين من مقاله واثني عليه  
 وعلى صاحبه الذي ارسله واظهر علائم الشكر والابتهاج بصنيعه ثم  
 مشيا مع الفتى الى صاحب المحل فقام لها واكرمها واجلسها عنده  
 فشكراه واثنيا عليه وامر بالقهوة فشربوا ثم قال لها لولا ضيق الوقت  
 لقمتم معكما وطفتم بكما على جميع مخازن الخان واريتكما ما فيها وقد  
 حضر وقت انصرافنا واغلاق المحل ولكن لا مانع الآن من ان  
 نريكما ما فيه من صنف الكشميري على حسب الامكان واذا  
 حضرتما في غد اريتكما باقي مخازنه وما فيها فاعاد له الشكر والثناء  
 فقام معها وتوجه بهما الى محل عالي البنيان منتظم الشكل مزخرف  
 الاركان في سقفه صور متنوعة ورسوم مختلفة وفي مداره من اعلاه  
 الى اسفله دواليب متقنة الصنعة كلها من خشب الجوز واراضه  
 مفروشة بالبسط النفيسة وفي وسطه مائدة (طرايزه) كبيرة

مستديرة معلق فوقها شجفة من البلور الصافي النفيس موقدة بالشمع  
الابيض النقي الطيب الرائحة ثم طاف بهما الرجل على جميع ارجاء  
المحل وصار يفتح الادراج ويريهما ما فيها من قماش الكشمير  
الخفيف الوزن الغالي الثمن فرايا كك واحد منها موضوعا على  
حدثه في ظرف محكم لحفظه ولكل نوع منها دوايب خاصة به على  
حسب قيمته وجهة وروده وقد رأيا منها ما ثمنه قدر مائتي كيس  
فاكثر فاستغرب بن الشيخ من هذا الثمن وقال في نفسه اذا كان  
ثن الواحد من هذا النوع هكذا فما يكون ثمن الجميع ثم ماذا يكون  
ثن البضائع الموجودة في هذا المكان وبعد ذلك فما يكون قيمة  
البضائع الموجودة في غيره من محلات هذه المدينة ثم ماذا يكون  
قدر اموال اهلهما وما صرفوه في زخرفتها وبنائها ثم بعد ان اطلعهما  
الرجل على جملة كثيرة من ذلك اعنذر لهما بضيق الوقت ووعدهما  
بان يطلعهما على سائر ما في المحل ان حضرا بعد ذلك في سعة  
من الوقت فاستأذناه للانصراف فشيعهما خطوات وضم اليه من  
مشى معها الى باب المحل حيث دخلا فخرجا وركبا العربية ورجعا  
وكان قد مضى نصف الليل فوجد برهان الدين والده قد اغلق  
عليه باب مخدعه ونام فدخل هو كذلك حجرة ونام فيها الى  
الصباح فقام وادى ما وجب عليه ثم ذهب الى والده ليقبل يده  
فما استقر به المقام حتى اتى يعقوب وحضر الطعام فاكلوا ما تيسر  
وجلسوا يتحدثون وحكى برهان الدين لايه ما رآه في هذه المدينة

من فرط الانتظام والزينة وما يلوح عليها من علائم الفخار ومزيد  
الثروة واليسار وما حمله على العجب والاستغراب مما لم يكن له قبل  
في حساب فسر الشيخ بمقالته ورغب في ان يعلم طرفا من اخبار  
هذه المدينة وكيف كانت حالتها وتقلباتها في الازمان الماضية وما  
الاسباب التي اوصلتها الى هذه الدرجة من العز والرفعة والغنى  
والثروة

فقال يعقوب ان معلوماني في هذا الامر قاصرة والاولى ان  
يؤخذ علم ذلك من الخواجا لاتساع دائرة معلوماته وكثرة اطلاعه  
على كتب التواريخ والسير

فقال ابن الشيخ قد توجهت الى محله لاسلم عليه فوجدته  
مشغولاً بشخص عنده فلما اردت الانصراف من عنده قال لي بلغ  
حضرة الاستاذ الوالد بان عندي شغلا ربما امتد الى وقت الزوال  
فاقرأ عليه السلام مني واعذره له عنى

فقال الشيخ عذره مقبول فان كان قد بقي عند يعقوب شي  
من خبره وما حصل له بعد فراقه لاخذه فليجئنا به لتقطع الزمن  
الى ان يقضي صاحبنا شغله وينتهي عذره ويأتي فنخرج جميعاً ونتفرج  
في شوارع المدينة

المسامرة السادسة والسبعون  
 المحبوان العجيب  
 ( من حكاية يعقوب )

فقال يعقوب قد اخبرت حضرتكم اني لشدة شوقي الى اخي  
 وما حصل لي من المشاق في البلاد التي وقعت بها كنت دائماً  
 اتربق فرصة الخروج من تلك الارض واخاف ان يطرأ حادث  
 يعوقني عن رجوعي الى وطني الى ان نزلنا في السفينة وخرجنا وقد  
 تألفت برجالها والفوني وكنت اساعدهم في اشغالهم بما عندي من  
 المعرفة في صناعتهم فحصل لي منهم غاية الاكرام وكنت اخبرتهم  
 بقصتي وما جرى لي ايام كنت صغيراً الى ان صرت في يد هؤلاء  
 القوم اسيراً فعطفوا قلوبهم عليّ وغمروني باحسانهم فكنت بينهم  
 كواحد منهم كذلك مالت اليّ قلوب ضباط السفينة لما سمعوا



بما جرى لي لاني كنت تارة اقص ذلك على بعض الضباط وتارة  
 على الاحاد فلانت لي قلوب الجميع وساعدوني باموالهم من غير ان  
 يلزموني بشي من اعمالهم حتى ان القبطان الكبير لما علم بقصتي كتب  
 ورقة وصدرها باسمه ومن بعده جميع من كان بالسفينة من الضباط  
 وغيرهم ثم وضع امام اسمه ثلاثة جنبيات وكذلك جميع الضباط  
 والاحاد كل على حسبه فاجتمع لي من ذلك خمسة وثمانون جنبياً  
 انكليزياً وبعض ثياب فلما رأى ذلك السائح الذي كنت بصحبته  
 هذه الورقة وما فيها اخذها واكملها من عنده مائة ووعدني انه  
 عند وصولنا يوصلني الى بلدي على نفقته وان يكتب الى احد  
 روساء بلدي بالوصية عليّ لينظر لي طريقة اتعيش منها انا واختي  
 فشكرت الجميع على صنيعهم واقمت مكرماً بينهم لا اجبر على عمل  
 ولا ازعج من محل الى محل ولكن كنت في بعض الاوقات اذا رأيتهم  
 في ازدحام اقوم من نفسي واساعدهم ثم نجتمع فيحكي كل منا ما عنده  
 من غرائب الاخبار فبقينا كذلك ثلاثة ايام وكان الهواء فيها مساعداً  
 لنا وكان سير المركب مع سرعتها في غاية الانتظام الى ظهر اليوم  
 الرابع فما نشعر الاّ واحد الملاحين قد اتى الى القبطان وكان  
 جالساً في فرته واخبره ان احد روساء المركب رأى شيئاً على وجه  
 الماء من بعد فقام بسرعة واخذ نظارته لينظر بنفسه وحمنا نحن جميعاً  
 ننظر الى ذلك الشي فرأيناه يلوح من بُعد ولكننا اخلفنا في تعيينه  
 فمننا من كان يقول انه زورق ومننا من كان يقول انه رمة حيوان

ومنا من كان يزعم انه حشيش جمعه الموج والقبطان ناظر اليه  
بنظارته لا يتكلم بشي وبعد ذلك التفت الينا وقال انه حيوان  
بجري له ارجل بجرورها ولكن لم اتحقق ما هو وكان ذلك السائح  
الذي كنت بصحبته قد بلغه الخبر فحضر ونظر بنظارته مثل ما نظرنا  
ثم قال ان الشي الذي ترونه حيوان عجيب الشكل مهول الخلقه  
وقد بالغ في وصفه جميع الملاحين والمؤرخين والسياحين ولغرابته  
وعجيب خلقته كان بعض اهل التارخ الطبيعي ينكره ويقول ان  
جميع ما قيل فيه اوهام لا اصل لها فلما سمع القبطان منه ذلك قال  
لعله ذو الثانية الارجل الذي تخافه الملاحون فقال نعم هو ذاك  
وعند ذلك امر القبطان رجاله بتوجيه السفينة نحو وحضهم على  
الاستعداد له بالسلاح والمزاريق والكلاليب والاهواق ( الخيَّات )  
فاعد كل منهم ما عنده من هذه العدة فما استعدوا الا وقد خرج  
الريج واخلف وتموج البحر وعلا موجه ومع ذلك لم نزل نرى  
ذلك الحيوان يسبح على وجه الماء وكأنه يريد الفرار منا لاننا كلما  
قربنا منه نراه قد بعد عنا ولكن مع البطيء والتأني فلما تمكنوا منه  
ضربوه بالبارود فاصابه نحو عشرين رصاصة فلم يظهر فيه اثر ولم  
يتحول من مكانه وكانها لم تصبه ثم رموا عليه الكلاليب والاهواق  
فتعلق بعضها بجسمه فارادوا ان يزيدوا في عددها ليمكنوا من  
ضبطه فتقلبت السفينة من شدة الموج فانفلت وغاص في جوف  
البحر ولم يظهر له منه الا بقطعة من ذنبه بقيت في وهق ( خية )

من الاوهاق التي القوها عليه فعزم الملاحون على القاء الزوارق في البحر ليحيطوا به ويصطادوه فنهاهم القبطان عن ذلك خوفاً عليهم وهذا الحيوان على حسب ما شاهدته يبلغ طول جسمه قريباً من ستة امتار وكذلك كل رجل من ارجله الثمان ولونه احمر كلون الآجروجنته منتخحة من جهة وسطه وله عينان كالطبق مستويتان لا يظهر فيها تحديب ولا حركة ويظهر لهما لمعان يرى من بعيد وكان في اثناء اشتغالهم بصيده يقذف من جوفه دمًا ورغوة ومواد تشم منها رائحة مسكية وبعد ان انفلت منهم صار يغطس بجانب السفينة من جهة ويظهر من جهة غيرها فيحصل للسفينة توج اشبه بما يحصل من اشتداد الريح ولم يتقطع ذلك الا بعد ان بعدت عنه السفينة بقدر ميل في البحر وقد وزنوا القطعة التي وصلت اليهم من ذنبه فكانت اربع عشرة افة فاعتبروا بنسبتها جميع هذا الحيوان فقدروه بنحو ستين قنطاراً وقد وصفه السائح الذي كت بصحبه فقال انه حيوان كالتربة المملوءة ويتشكل في صور متعددة فتارة يكون في هيئة البيضة وتارة يكون كروي الشكل وتارة يكون مستطيلاً وله راس غليظ وعيناه متسعان في استواء يرى في اعلى راسه شي صلب محوف كالقرن هو فمه وله على سطح لسانه شبه الشوك وفكاه راسيان وله ارجل ثمان او عشر اصولها منضمة الى بعضها حول فمه في هيئة التاج وفي ظاهر كل منها صقان من الصمامات متوازيان كل صمامة كالفتحان اسفلها يتحرك باختيار

الحيوان فاذا اراد ان يقبض على شي الصق رجله او بعضها به فلا يتخلص منه وذلك لان تلك الصمامات اذا باشرت شيئاً من حيوان او غيره كان الغشا الذي في اسفلها اولاً قريباً من الحرف الاعلى ثم يستط الى اسفل فيتكون من ذلك فراغ خال من الهواء كما يحصل في قرن الحجامه فتعلق بذلك الشئ وتلصق به وتمسكه فاذا كان عدد الصمامات الماسه للشئ كثيرة كانت قوة الالتصاق والتعلق به وامساكه عظيمة بحيث لا يتأتى فصل ذلك الشئ عنها وبهذه الكيفية يتحصل على غذائه من الحيوانات البحرية فيأخذها برجليه ويوصلها للقرن الذي في اعلى راسه وهو فمه كما ذكر فيقطعها به ثم ياكلها وكأن هذه الارجل لم تكن الا آلة للتخويف وللقبض بها واما كيفية تنفسه وحصوله على الهواء اللازم له فهو ان يدخل قدرًا من الماء في خياشيمه فتقبض الخياشيم فيدخل الماء في مجرى موجود في راس الحيوان بين العينين وبعد ذلك تعود الخياشيم الى ما كانت عليه فيخرج الماء ثم يأخذ قدرًا جديدًا من الماء ويفعل به كذلك وهكذا وبهذه الكيفية يحصل له استنشاق الهواء وهذا الماء الخارج يسقط بقوة فيدفع الماء الراكد حوله فيندفع الحيوان الى جهة امامه وهي الجهة المقابلة لاتجاه الماء المقذوف فيسهل عليه بهذه الطريقة قطع المسافات البعيدة ولذلك لما رأى المتقدمون شكل هذا الحيوان وعلموا سبب اندفاعه الى جهة الامام ارادوا محاكاة ذلك في سير السفن فعملوا في بعض السفن مجاري مجوفة متسعة

يجري فيها الماء فيملأها وسلطوا عليها طلنبة تجذب هذا الماء وتذفه الى خلف فتندفع السفينة الى الامام الاّ انهم لما رأوا كثرة المصاريف في ذلك تركوا هذه الطريقة وهجروها وما يشاهد من هذا النوع بسواحل اوروبا وان تعددت اشكاله ليس شيئاً بالنسبة لما يشاهد في البحور العميقة على ما نقله السائحون والملاحون وقد ذكر هذا الحيوان بعض الاقدمين (كارسطو وبلين) وغيرها ووصفه بصفات هائلة كان المتأخرون ينكرونها الى ان عثر به الملاحون في زمننا هذا فاصطادوه ونقلوه من جهة الى جهة فصار امراً مشهوراً معدوداً من انواع المخلوقات بعد ان كان يعد الكلام فيه من الخرافات وحكى (تريبوس) في بعض كتبه ان حيواناً من هذا الجنس كان يخرج من البحر في جزيرة (كارينايا) جميع ما اصطاده الصيادون في يومهم فانهم كانوا يضعون كل ما اصطادوه في مناسر جهة البحر فيخرج هذا الحيوان كل ليلة فيأكله ويعود الى البحر وهكذا كان دأبه معهم كل ليلة حتى احرمهم ثمة تعبهم فلما اشتد ضررهم منه نصبوا حول هذه المناسر خشباً احاطوها بها فلم تغد شيئاً لانه كان يصعد على شجرة قريبة من المناسر ثم ينزل بها فاقام ذلك الحيوان معهم على ذلك الامر مدة الى ان اطلعت عليه الكلاب ليلة فهجمت عليه ومنعته من العود الى البحر وجاء الحرس فضربوه وصار هو يدافع عن نفسه ويضرب بارجله فا زالوا به الى ان مات ففاح منه رائحة كريهة فعبجوا من خلقته وغريب صفته لانهم كانوا لم يروه

قبل ذلك ثم انهم بعد قتله حزوا رأسه فكانت في حجم البرميل الكبير وقاسوا رجليه فوجدوا طول كل رجل ثلاثين قدماً وغلظها بقدر ما ميلاً حُضن الرجل ووزنوا ما بقي من جثته فكان سبع مائة أفة وهذا النوع قد يعتريه في البحار الكثيرة الصخور والاحجار ما يعوقه عن الحركة ويسوقه الى التهلكة وذلك ان تدخل رجل من ارجله بين الصخور فتعلق بها ولا يمكنه ان يستخلصها وكلما حاول تخلص رجل علقته غيرها فيقف عن السير ويبقى على هذه الحالة الى ان يموت ويتن وعند ذلك تفوح له روائح كريهة يشمها اهل تلك الجهة من عدة فراسخ فاذا شموها خافوا على انفسهم من الوباء لشدة نتن تلك الرائحة ولكنهم لا تطول مدتها فان الامواج تقطع الحيوان وتغذف بقطعه الى جهات بعيدة حتى لا يبقى لرائحته اثر وهذا النوع وان كان يوجد في كثير من الجهات الا ان اكثر وجوده بالارض الجديدة وهناك يصطادون منه كل سنة شيئاً كثيراً يدخلونه في ماكلهم واهل الجهات الشمالية جميعاً يقولون ان الصيادين عندهم اذا خرجوا للصيد في ايام الحر وبعدوا عن شاطئ البحر بعض اميال يرون في بعض الاحيان تقصان عمق الماء من تحت زوارقهم بغتة حتى ينزل الى نحو ثلاثين باعاً بعد ان كان ثمانين فاكثر فيستدلون بذلك على وجود هذا الحيوان ويتحققون انه بين الزورق وبين قاع البحر ويكون ذلك علامة عندهم على وجود كثير من السمك في ذلك المحل فعند ذلك

يلقون سنائيرهم وآلة صيدهم ويغتمون منه مغنماً عظيماً فاذا اخذ  
الارتفاع في القص علموا ان هذا الحيوان يريد ان يظهر على وجه  
الماء لاجل ان يستنشق الهواء فياخذون في الفرار منه بغاية السرعة  
فاذا بعدوا عنه ونظروا رأوه قد ظهر على سطح الماء وغطى مقداراً  
من البحر يقرب من ميل ونصف ميل ويرون كثيراً من السمك  
يتواثب على ظهر الماء وهو في هياج عظيم واضطراب كثير ويرون  
ارجله قائمة مثل اعواد الشراعات وهو في غاية الصلابة والقوة حتى  
انه يقدر ان يخوض السفينة بين رجلين من ارجله ويقلبها في قاع  
البحر فاذا اراد ان ينزل كان للبحر عند نزوله دوامات وامواج  
عظيمة حتى انها لو صادفت سفينة لاغرقتها وقد ذكروا في هذا  
الحيوان كثيراً من الغرائب والمعجائب وان كان اكثرها لا يخلو  
عن بعض الغلو حتى قال بعضهم ان الواحد منه قد يكبر حتى  
يكون كالجيزة

فقال القبطان قد حكى لي قبطان امريكاني حكاية غريبة  
تتعلق بهذا الحيوان فقال كنت ذات يوم في بعض سياحاتي في  
جهات الهند قريباً من سواحل افريقيا عند جزيرة (سنت هيلينة)  
فسكن الهواء سكواً تاماً فلم يمكن المسير فاتقنا هناك ثلاثة ايام نتظر  
هبوب الريح وكان قد مضى على المركب مدة ونحن في غفلة عن  
تنظيفها فلما طالت اقامتنا في ذلك المكان نصبنا السقايل على  
جوانبها ونزل العمال عليها لاجل تنظيفها واذا بصياح من ناحية

من نواحي المركب فذهبت لاعلم الخبر فوجدت هذا الحيوان قد  
 اخطف رجلين من فوق السقالة باحدى ارجله وانزلها الى قاع  
 البحر ومد الاخرى لياخذ بها ثالثاً كان قد صعد الى الشراعات  
 فاصابته رجل الحيوان عند وصوله الى اول القماش ولكنها تكلمت  
 في حبال الشراعات فلم يتأت للحيوان تخليصها وبقي الرجل معلقاً  
 بها وهو يصيح ويستغيث من شدة الألم فقام من في السفينة الى  
 السلاح والسنابير والفؤس والحبال وآلات الصيد وبادر بعضهم  
 الى قطع رجل الحيوان المتعلقة بالرجل فسقطت ووقع الرجل  
 مغشياً عليه فلم يمكث الا قليلاً ومات ثم حمل باقي الجماعة على  
 الحيوان بالسلاح والحراب والسنار فاصابه كثير منها وكانوا كلما  
 رأوه ينزل الى قاع البحر يطاولون له الحبال ثم يجذبونه الى اعلى  
 واستمروا على ذلك مدة ثم هبط الحيوان دفعة واحدة فانفلت من  
 ايديهم واتقطعت منه قطعة عظيمة بقيت في الحبال وقد قاسوا ما  
 قطع من رجله فبلغ طوله خمساً وعشرين قدماً في غلظ نصف متر  
 ونسب ما بقي من رجله الى ما قطع فقدرت على هذه النسبة رجله  
 باربعين قدماً تقريباً في غلظ متر عند راسها

قال يعقوب فاعتراضي ما شاهدته وسمعت به ما لا مزيد عليه  
 من التلق وبقيت طول النهار في وجل فكنت كلما رأيت موجة  
 على بعد ظننتها حيواناً من هذا النوع وانه يجري خلفنا ليدركنا  
 فاشتد خوفاً وفزعياً وكان الملاحون يضحكون مني ويسخرون لي



لكثرة اعنيادهم على احوال البحر وعجائبه وقلة معرفتي بذلك فكنت  
 اتخيل انه ليس في المخلوقات اعجب من هذا الحيوان وصورته  
 وكانت صورته مرسومة دائماً في مخيلتي لا تفارقني في ليل ولا نهار  
 وربما كنت اراه في النوم فاقوم من نومي فزعماً مرعوباً فلما رأى ذلك  
 السائح ما بي من الكآبة رثى لي واخذته الشفقة بحالي واخذني  
 بجانبه وصار يسليني ويذكر لي نوادر وحكايات ليزيل بها ما في  
 وهي الى ان قال لي الان تعلم ان عجائب البحر اعظم من عجائب البر  
 واكثر وما نظرتة او سمعت به ليس شيئاً بالنسبة لما لم تره ولم  
 تسمع به



المسامرة السابعة والسبعون

حياة البحر والهائشة

( من حكاية بعقوب )

ومن اعجب حيوان البحر وحيثانه (البال) المعروف بالهائشة  
واعجب منه حياة البحر وكل ما في البر والبحر من حيوان ليس  
باعجب من نوع الانسان حيث كان بتدبيره وقوة عقله لا يغلبه  
شي من ذلك كله مع صغر جثته وضعف بنينه فتراه يجنال على  
اعظم حيوان حتى يقع في قبضته ويدخل تحت تصرفه فيفعل فيه  
ما شاء متى شاء فقلت له ما هذه الهائشة وما حياة البحر فقال اما  
حياة البحر فقد كثر كلام الناس فيها قديما وحديثا ولغرابتها وبشاعة  
صورتها كان منهم من يقول بوجودها ومنهم من ينكرها مع انها  
مذكورة في كتب كثيرة قديمة وحديثة وقد ذكرها حكايات غريبة

ونوادر كثيرة واقدم ذلك ما ذكر في التوراة من ان ( لييفا طان ) وهو الثعبان البحري له اسنان مفزعة وعلى ظهره قشور كبيرة كالدرق بعضها فوق بعض وعينه براقتان كأنهما يرميان بالشرر وإذا فتح فمه خرج منه هب وكذلك انفه اذا تنفس ظهر منه شرر لم تكن تؤثر فيه الاسلحة التي كانت مستعملة في الازمان القديمة كالسيف والمقلع والنشاب وعند ظهوره يحدث للماء دوامات وتموج عظيم ويرى الماء كأنه يتلهب وقد وصف هذا الحيوان بعض المؤلفين بأنه يقدر على ان يتلع الفيل وأكثر وجوده في بحر الهند ويبلغ طوله عشرين ذراعاً ويعبر بحر الهند ساجاً وإذا مر في بعض سياحه على بعض الجزائر فرح أهلها منه وخافوا خوفاً شديداً ولم تشتهر معرفته والعلم بوجوده الآ في سنة ١٧٥٢ للميلاد الموافقة لسنة ١١٦٦ للهجرة بناء على ما نقله السائحون والملاحون عن اهل البلاد الشمالية كسكان (السكديناوة) وغيرهم وقد قالوا انه نوعان احدهما لا يعيش الا في البحر والاخر يعيش في البر والبحر وهذا الاخير يبقى في البر الى ان يكبر ويعظم جسمه فتعسر عليه الحركة خارج الماء لتقل جثته فاذا رأى من نفسه ذلك تحول الى البحر ليقيم فيه وعند ذلك يسمع لمشييه بين الاشجار والغابات صوت من مسافة بعيدة فيدرك كثيراً من الشجر والمباني التي يمر عليها في طريقه الى البحر وزعم بعض السائحين ان هذا الحيوان يخرج بالليل الى السواحل الصخرية ويأخذ ما يصادفه من السفن كل ما قدر عليه وحكي

بعض الملاحين انه رأى يقرب بعض الجزائر ثعبانا من هذا الجنس  
 يسبح فوق الماء كما يزحف الثعبان البري على الارض ويغير ثوبه  
 مثله وان طوله خمسون قدما وجميع ما قيل في هذا الحيوان يدل  
 على ان راسه كراس الفرس وانه يقذف من انفه ماء فيرتفع الى  
 الجو ارتفاعا عظيما ولا يرى هذا الحيوان في الغالب الا اذا كان  
 الهواء ساكنا والجو معتدلاً واهل (نرويج) يقولون ان هذا الحيوان  
 قد يهجم على السفن فيغرقها بثقل جسمه ثم يلتقط رم الغرقى من  
 الماء وبعضهم يقول انه اذا قرب من السفينة يرفع راسه من الماء  
 الى اعلى السفينة ويلتقم بفمه من اراد من يراه على ظهرها وانه يفر  
 من رائحة المسك ولذلك يضعون فوق مراكبهم شيئاً منه فلا يقربها  
 وفي شهر اغسطس سنة ١٨١٧ للميلاد سنة ١٢٣٢ للهجرة وصل  
 الخبر للمجلس العلمي بجهة (ايتازوبي) من جهات امريكا بظهور  
 حيوان بحري عظيم الخلقه بشع المنظر يشبه الثعبان في شكله  
 وحركته ظهر عندهم على بعد ثلاثين ميلاً من ناحية (بوستون)  
 فاندب من الجمعية بعض اعضائها لمشاهدة ذلك الحيوان والوقوف  
 على حقيقته وشرح ذلك في تقرير يعرض على المجلس فتوجهوا الى  
 تلك الناحية وكتبوا تقريراً بما شاهدوه يتضمن انهم رأوا هذا الحيوان  
 فوجدوا طوله مائة قدم وقطره عشر اقدام وحركته سريعة وانه  
 تارة يسير على استقامة وتارة يسير بانعطاف ويكون راسه في  
 الغالب مرتفعا عن الماء بقدر قدمين وانه يخاف من الأدمي ولم

يعهد منه اذى لاحد ولا ياتي الى البر الا للخلع ثوبه فاذا خلعه عاد  
سريعاً الى لجة الماء وفي الجهات الحارة كثير من حيات الماء غير  
هذا الثعبان الهائل وكلها شكله مستدير وله اذيال مفترشة يستعملها  
في سباحته كالحجذاف واما (البال) المعروف بالهائشة فهو اكبر  
الحيوانات على الاطلاق برّياً وبحرياً وحشياً وانسيماً وهو انواع  
منها ما جلده املس وما ليس كذلك ومنها ما له اجنحة وما ليس  
له ورأس الجميع كبير مستطيل وفمه كعجل متسع مفتوح من الامام  
منطبق من جهة الخلف وفي ناحيتي الفم من اعلاه مكان الاسنان  
صفان من صفائح فوق بعضها قرنية المادة سوداء اللون تفصل عن  
بعضها وتباع لاغراض مختلفة وطرفها الداخل ملتصق بمادة خيطية  
موجودة داخل الفم واما فكه الاسفل فمجرد من الاسنان والصفائح  
وله شفة عريضة سريعة الحركة عرضها بقدر تلك الصفائح فاذا  
كان الفم منطبقاً غطت المسافة التي بين الصفيين فاذا تدلت ظهر  
عند ذلك فتحة كبيرة فيدخل فيها جزء عظيم من الماء ومعه بعض  
حيوانات صغيرة ثم يخرج الماء من بين هذين الصفيين وتبقى جميع  
الحيوانات التي كانت بالماء عند دخوله كالسماك الصغيرة والحمار  
فيكون منها غداوه واما الحيوانات الكبيرة فانها اذا رأت تموج الماء  
الداخل في فمه هربت وبعدت عنه وانفه في اعلى راسه وفيه خروق  
فاذا اراد استنشاق الهواء دخل معه من تلك الخروق مقدار من  
الماء فيجتمع في محل مخصوص من جهة الخلف وحين يكون في

جوف الماء تضيق مجاري حلقه فلا يصل الماء الى رئته فاذا اراد اخراج الهواء الفاسد ضغط على مخزن الماء فيخرج ما فيه من الهواء ومعه بعض انجزة مائية ولهذا يرى دائماً من جانب راسه خيطان من الماء مرتفعان الى الجوّ كالعمودين ولكون غذائه لا يكون الا من حيوانات صغيرة اقتضت الحكمة ان يكون حلقه ضيقاً بخلاف فمه فانه واسع جداً ومن هذا يعلم انه لاصحة لما قيل من ان هذا الحيوان قد يتلع الرجل ولكن لا يخفى ان عادة الناس لا تميل الا لسماع المستغربات فكثيرا ما يمزجون المبالغة والكذب بالحقيقة ويخلطون بعضها ببعض ويصفون الشيء الغريب باغرب مما هو عليه وان كان لا اصل له وتارة يجعلون له مقادير فاحشة تزيد غرابته على غرابته وتمخه من الشناعة والفظاعة فوق ما يستحقه باصل خلقته اغراقاً في الوصف واغراباً في القول فان كان المتكلم ممن يوثق به اخذ الناس قوله بالقبول من غير مناقشة ولا بحث فيجري على اللسان حتى يملأ الارض ويتقل من جيل الى جيل فمن ذلك هذا (البال) فانه لما كان اكبر الحيوانات جعل له اغرب الصور واكبر المقادير فتارة جعلوا طوله تسعمائة قدم وتارة جعلوه اكبر من ذلك حتى قال بعضهم ان سفينة قد سارت بجانبه ثلاثة ايام ما بين راسه الى ذنبه وقال بعضهم ان الدنيا كلها على ظهر هائشة تتحرك بحركتها وتسكن بسكونها وجعل ذلك سبباً لوجود الزلازل التي تحدث فيها وبعضهم يزعم ان الشيطان كان لامها على تحملها هذا

الحمل الثقيل فهمت بالقاء الدنيا من فوق ظهرها فامرها المولى  
 باستمرارها على ما هي عليه ومن مبالغة الصينيين في شأنها قولهم انها  
 اذا تحركت في البحر ظهرت حركتها في اربعائة وثلاثة وثلاثين فرسخا  
 بجريا وانها اذا انتهت في الكبر وتقدمت في العمر صارت كالجبال  
 العظيمة الشاهقة وقال بعضهم انها تحب من انواع السمك الطوبار  
 والبوري والبقر الجري فتنبعها في سيرها فتقع بين تلال الرمال  
 عند نزول البحر فلا يمكنها التخلص فاذا تحركت فرقت الرمل وجعلته  
 في جنبها كالجبال فيشعر بها اهل تلك الجهة فياتون اليها فيقطعونها  
 وزعم بعضهم انها تقصد السفن فتشمها بين فكها وتاكل ما بها  
 الى غير ذلك مما لا يعول عليه ولا يصغى اليه وكذلك قول بعضهم  
 انها قد تقف في جهة من البحر مدة فيتراكم فوق ظهرها كثير من  
 الطين والرمل وزبد البحر حتى تكون كالحجيرة فتسوس عليها المراكب  
 ويقم اهلها على ظهرها اياما وليالي وهم لا يشعرون بها والصحيح من  
 ذلك كله ان طولها خمسة وثلاثون مترا ولها اجنحة فوق ظهرها تعوم  
 بها ورأسها عظيم جداً وعيناها بالنسبة لرأسها صغيرتان جداً واذنها  
 لا ترى الا قليلاً وفي فكها الاعلى من خمسمائة صفيحة الى ستائة  
 وجلدها صلب املس ليس به قشر وتحمه دهن في سمك قدم فاكثر  
 ويعمل من صفائح الفك الاعلى عمد الشمسيات والصدور التي  
 تلبسها نساء الافرنج

قال الشيخ ما ذكرت من ان طولها يكون خمسة وثلاثين متراً

على الصحيح يقرب ما قاله الديرري في حياة الحيوان فقد قال ان طولها يبلغ خمسين ذراعاً وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من اللغة الانكليزية ان طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدماً وهناك يعتادها الصيادون كل سنة ويصطادونها فاما في المحال التي تعيش مطمئة تامة الحجم فينيف على مائة وخمسين وان رأسها عبارة عن ثلث طولها وعيناها في جرم عين الثور ولكنهما في قفاها فتمكن لها رؤية الأشياء من الخلف والامام وذبها هلاكي فاما لونها فليس على نمط واحد ففيه اختلاف عظيم ربما كان سببه السم او غيره ومن طبع هذا الحيوان ان لا يطعم لغير زوجه ولا تمنعه مخالطته ومجانسته مع الغير عن الاقتصار عليها ثم انه وان يكن اكبر جميع الحيوانات الا انه اودعها واهدأها جاشاً وبسالته انما هي في الدفاع عن نفسه وعن ذويه وله اعداء كثيرة تتعرض له وتقصده فقد يلتصق به نوع من السمك صغير له جلد صدي فيرتفع في شحمه واخر يسمى السمك السائف وهو ايضاً اعظم داهية عليه بعد الانسان وربما سلم من مكر خصائه المائبة باعمال القوة او بالهرب فاما من ابن آدم المسلط على جميع المخلوقات فهيات له ذلك فانه يتبعه بجيلة وتصرف ناحج يستخنه على ذلك طمع التجارة فيه او سد خلة المعيشة وقد علم بالتحقيق انه يتأهب في كل سنة عدة سفن لصيد هذا الحيوان في شطوط ( كرتيلاند ) وفي البحر الجنوبي فينشون فيه نحو كلاب مربوط فيه حبل فاذا احس بالبحر جرى



مسافة طويلة فيتركونه ريثما يتنفس ما شاء ثم يرمونه بكلاب اخر الى ان يكل ويبلغ منه الالم ويسبح منه الدم فيؤخذ حينئذ ويقطع منه دهنه ويوضع في براميل ثم يذاب ويجعل زيتاً يدخل في عمل الشمع واجزاء الدباغة وصناعة بعض الثياب والظاهر ان له مدخلا عظيماً في التجارة

فقال يعقوب كانت التجارة فيه واسعة فيما سبق لكثرة وجوده اذ ذاك ثم لم يزل يتناقص ويغلو ثمنه شيئاً فشيئاً الى الآن وكان المتحصل من هذا الزيت سنة ١٨٥٩ للميلاد وهي سنة ١٢٧٦ للهجرة الفين وثمانية وسبعين برميلا وفي التي بعدها الفا وتسعمائة وفي التي بعدها الفا وسبعمائة فترتب على هذا النقص افلاس شركات كومبانيات عديدة كانت مقتصرة على التجارة في هذا النوع وهذا النقص انما حصل من قلة وجود هذا الصنف فقد علم من الاخبار المحفوظة ان الذي اصطاده الصيادون منه في سنة ١٦٩٧ من الميلاد نحو الف وتسعمائة وسبعة وخمسين والذي اصطيد من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٧٨ منه نحو ستة الاف وتسعمائة وستة وثمانين ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ٢٨٤٠ نحو ثلاثة الاف واربعمائة ومن هذا التاريخ الى سنة ١٨٥٦ للميلاد وهي سنة ١٢٧٢ للهجرة لم يضبط الا ثلاثة الاف فقط ومن هذا يعلم السبب في تناقص كمية هذا الزيت في كل سنة عن السنة التي قبلها وهو السبب في غلو سعره ففي سنة ١٨٢٠ كانت اقة الزيت منه تباع بستين سنتياً

واقفة صفائح الاسنان اذا كانت على حالها الاصيلي بثلاثة من صنف  
الافرنك ونصف واذا كانت مقطعة قطعاً بعشرة منه وبلغت افة  
الزيت في سنة ١٨٦٢ افرنكا واحداً وثمانية عشر سنتياً وثمان الصفائح  
غير مقطعة ثلاثة عشر فرنكا والمقطعة مثلها ومقدار ما دخل في  
سنة ١٨٦٢ من صفائح الاسنان تبلغ قيمته مليونين من الافرنك  
تقريباً ولحمه يوكل بل هو مرغوب جداً عند بعض سكان الجهات  
الشمالية وبينه وبين لحم البقر قرب في الطعم والعادة ان ينضجوه  
في الماء بعد تقطيعه وجميع اهل اوروبا يأكلونه ولكن على حسب  
ما اعتادوا في ذلك فمنهم من يضيف له الحمص او غيره حين الطبخ  
ومنهم من يقلبه في الزيت

قال يعقوب وحين كنا نخوض في حديث (البال) كان بالقرب  
من ارجل من ضباط المركب عمره يقرب من اربعين سنة وله علم  
باحوال البحر والصيد كان يسمع حديث السايح يتامه فلما فرغ  
السايح من كلامه دنا منا وقال ان اصطياد الهوائش من البحر  
اصعب شي ويحتاج الى عدد واحتراسات وقوة وجرأة وصبر على  
اهوال البحر وشدائده وكان يسافر في الزمن السالف لصيد الهوائش  
مراكب عديدة من جميع جهات اوروبا ويجمع منها في الجهات  
الشمالية المتجمدة اساطيل عظيمة وقبل وجود السفن البخارية لم  
يكن الاسفن الشراع فكانت مدة الصيد ذهاباً واياباً تبلغ اربعة  
اشهر واكثر اذا كانت سلية العاقبة وكان كثير من السفن يفقد

بين الصخور الثلجية فيموت ملاحوها وكل من فيها ولا يصل خبرهم  
لبلادهم إلا بالاشاعة واما الان فصار السفر على سفن البخار اسهل  
واسرع ولكن لا يسافر لصيد هذا النوع الا سفن قبيلة من فرنسا  
والانكليز وامريكا وهولاندة وغيرها لعدم وجوده بكثرة كالاول  
وكانت آلات الصيد رماحاً طويلاً وحرايا كبيرة وصغيرة كل واحدة  
منها عبارة عن قطعة حديد احد طرفيها مركب في نصاب من  
الخشب والطرف الاخر على شكل رقم الثانية من الارقام الهندية  
هكذا ( ٨ ) وقد جعلت على هذه الصورة لتتشب في جسم الحيوان  
فاذا دخلت فيه فلا يكاد يتخلص منها ويستصحبون مع هذه الآلات  
حبالاً طويلة يبلغ طول الواحد منها ثمانين قامة فاكثر الى مائة  
قامة وفضلاً عن هذه الآلات لا بد من وجود ستة زوارق او  
اكثر ويكون في كل سفينة نحو اربعين رجلاً غير القبطان  
والضباط والطبيب وهم منقسمون الى قسمين قسم يمسك الرماح  
والحرايا لاجل طعن الهوائش بها حين رؤيتها وقسم هم الملاحون  
فيستعملون مدة السفر في خدمة السفينة وعند الصيد في اعمال  
المجاديف لاجل تتبع الهائشة واقتفاء اثرها حين ترى في موضع من  
البحر فاذا وصلت السفينة محل الصيد ووجدت الهائشة تلتقي  
الزوارق في البحر وتنفرك الرجال بحيث يكون كل ستة او سبعة  
منهم في زورق ويسيرون باستعمال المجاديف الى ان يكونوا قريباً  
من الهائشة وعند ذلك تقوم الرجال التي بايديها الرماح والحرايا

مربوطا بها الحبال فيمسك الرجل المزارق بكلتا يديه ويهزه هزاً موزوناً حتى اذا رضيه رمى به الهائشة فيدخل في جسمها على حسب قوة الرامي وحذقه فاذا احست السمكة بالبحر غاصت في جوف البحر وقد قبض على طرف الحبل المربوط في المزارق رجل من الملاحين فيراخي لها فيه فان لم يكف ربط فيه غيره ولا يزال يطاؤها الى ان تظهر على وجه الماء في جهة من البحر وللصيادين من الحنكة والتدرب ما يعرفون به اين تظهر السمكة من الماء بعد ان تغطس ويستدلون على ذلك باتجاه ذنبها حين تنزل فيسيرون الى قرب المحل الذي يتعين عندهم انها تظهر منه فتمت ظهرت من الماء حملوا عليها بالمزاريق والحرايا فلا يزالون يضربونها الى ان تزهق روحها ولا يخفى ان الهائشة من وقت طعنها الى ازهاق روحها يحصل منها حركات عنيفة قد توجب احيانا غرق الزورق ومن فيه خصوصا اذا كان المسك للحبل غير مستعد لمطاولتها واطلاق الحبل لها بالتدرج الذي يترتب عليه ان تكون حركتها هينة وكثيرا ما تضرب الزوارق او من فيها بذنبها فانها عند مكابدة طلوع الروح يكثر اضطرابها وهياجها ويكثر ضربها الماء بذنبها ويخرج منها دم كثير يتغير به لون الماء الذي حول الزوارق ويبقى متغير اللون بعد موتها مدة من الزمن فاذا ماتت الهائشة بادروا الى قطع ذنبها ثم يربطونها بحبل الى زورق ويربطون باقي الزوارق به ويسحبونها في الماء الى ان يصلوا بها الى

السفينة وترفعها الرجال بالبكرات والحبال ثم يقطعونها ويخلصون  
الدهن من اللحم ويذيبونه على النار لاستخلاص الزيت ولم في ذلك  
طرق مختلفة

وقد اخترع في امريكا لصيد (البال) الهائشة جلة ترى  
بالآلات النارية فتدخل في جسمها فتزق في داخل الجسد فيموت  
الحيوان في الحال واخترع اخرون جلة ادخلوا فيها مع البارود  
بعض مواد سمية فمتى دخلت الجلة جسم الحيوان وتصعدت ينتشر  
فيه السم ويفعل افاعيله فيموت الحيوان في مدة اربع دقائق او  
خمس. قال وحضرت الصيد بنفسي وسني خمس وعشرون سنة  
فما رأيت في عمري هولاً اكبر منه وينبغي لارباب هذه الصنعة ان  
لا يكون للخوف سلطان عليهم بل يكونون بمكانة من الجرأة والتسوة  
وقوة القلب بحيث لا يهابون الموت ولا يخشون الاخطار ولا تزعمهم  
الاهوال ويلزم ان يكون قائد الزورق مع ذلك حديد البصر  
ماضي العزم وان يكون عنده مزيد تبصر وتدبر ومعرفة بما يلزم في  
هذه الاحوال بحيث متى نظر الهائشة بادر بمن معه الى اجراء  
جميع ما يستدعيه الحال من الحركات والاعمال لحصول الغرض  
المقصود بغير اخلال بشي من ذلك فان الهائشة لا يكفي لموتها  
حرية واحدة او اثنتان بل كثيرا ما يلزم ضربها عشرين او ثلاثين  
مرة بخاطر في كل منها بنفسه ورجاله فانها متى احست بالجرح  
والالم هاجت واضطربت فان لم يكن جرحها بليغا وفي الموضع

الموجب لموتها بالسرعة تاخذ في الطرق المخلصة لها فتغوص في  
البحر بقوة عنيفة يندفع بها الزورق بسرعة عظيمة تفوق سرعة النبل  
وقد يتكرر منها هذا الصنع مراراً عديدة فتظهر على وجه الماء ثم  
تغطس فيه وتعود وهكذا وتتجه اتجاهات مختلفة وتقطع في ذلك  
مسافات بعيدة فان لم يكن الصياد متبصراً كل التبصر متدبراً كل  
التدبر فربما انقطع الحبل فلا يتحصل عليها او غرق الزورق فانها  
قد تمر بمواضع فيها صخور من الثلج ومحال جمد ماوها فاذا مر  
الزورق بهذه الاماكن متنبعاً لها فربما وقع في خطر يؤدي الى  
تلف جميع الملاحين او ضياع ثمرات تعيهم وتختلف مقصودهم وفي  
اثناء هذه الاحوال تسمع اصوات مزعجة بعضها من الهائشة وبعضها  
من ضرب الماء بذنبها مضافاً ذلك الى اضطراب الماء وعدم استقرار  
الزورق فيكون الهول عظيماً والمخبط جسيماً فلا بد للرئيس ان  
يكون في هذه الاحوال ساكن الجاش غير مكترث بما يراه من تلك  
الاهوال ولا يشتغل باله الا يقتل الهائشة ويحتاج ان يكون رجاله  
متقادين له مطيعين لقوله متبعين لاسارته مبادرين الى تنفيذ اوامره  
على غاية من السكون والهدوء وكل منهم يشتغل بما وكل له من  
الاعمال مقبلاً عليه بكليته لا يشغله عنه شاغل سواء وكلما بدت  
لم فرصة لضرب الحيوان انتهزوها ولا يزالون كذلك حتى يروا  
شؤبوي الماء المقدوفين من خياشيمها قد تغير لونها من البياض  
الى لون الدم الاحمر فيعلمون بذلك ان الهائشة اشرفت على الهلاك

وان عملهم قرب على الانتهاء فيهبون عليها ويزيدون في جراحها حتى ترفع راسها الى السماء وتنظر اخر نظرة الى الشمس نظرة من يئس من البقاء ويخرج النفس الاخير ويدركها المات وتتقطع منها الحياة

ثم ان كثيراً من محلات صيد هذا الحيوان في فصل الصيف والخريف يرى لون الماء فيه احمر كلون الدم وسببه ظهور سمك صغير احمر اللون ينتشر في الماء بحيث يملأ فضاء تسير فيه السفن يوماً فاكثرت طول الواحدة منه نحو ميلهتين اثنتين وغلظها نصف ذلك ويتكوّن من هذا السمك طبقات كثيرة يبلغ طولها مسافات مختلفة فتارة عشرة اميال ومرة عشرين او ثلاثين ميلا وسمكها يبلغ ثلاثة امتار او اربعة والهائشة تحب هذا النوع اكثر من غيره فمتى وصلت احدى هذه الطبقات تسير الهويينا وتاخذ في صيده فتراها تفتح فاها وتنزل فكما الاسفل فيحيد فيدخل فيه ماء وسمك بقدر اتساع الفم وقدره سبعة امتار مكعبة وكلما سارت جهة امامها يدخل ماء جديد بما فيه من السمك والماء القديم يخرج من خلال الاسنان وتستمر سائرة هكذا الى ان تقطع نحواً من اربعين او خمسين متراً ثم ترفع راسها وتحرك لسانها لضم السمك الصغير وهي تنفث الماء فيخرج ويبقى السمك على شكل كرة قدر النارنجة فتبتلعها وتبتدئ في العمل كالاول

وهذا الحيوان مع كبر جثته وعظم خلقه في غاية من الجبن

والحور فلا يعتمد في طلب النجاة غالباً إلا على الهرب والفرار  
والهزيمة امام العدو

وفي اول فصل الخريف يرى الذكر منه منفرداً عن الانثى  
غالباً فيظن انه يبحث عنها وتراه كثيراً في حركات غريبة وتقلبات  
عجيبة فتارة يتمرغ ويظهر في الماء صدره وراسه وتارة يرفع فوق الماء  
قريباً من ثلثه فيتموج البحر من هذه الحركات ويضطرب ويرغي  
ويزبد وهذه الامور علامة على نداء غيره من جنسه واستدعاء ذوي  
نوعه فيجتمع كثير منها ويستمر الجميع على هذه الحركات واللعب  
زمناً طويلاً اذا لم يقطعها عن ذلك ظهور مراكب الصيد ومتى  
حصل بين الذكر والانثى ائتلاف في هذه الجمعية انفردا عن البقية  
وسارا مع بعضها فان اصاب الانثى طعنة من الصيادين ترى  
الذكر يحوم حولها ويحاول خلاصها ويكثر منه ذلك حتى انه ربما  
حل به ما اراد ان يخلصها منه فيصير كالباحث عن حنفته بظلفه  
وهذا كله في ابتداء الصحبة وحادثة المحبة فاذا تقادمت المودة  
ومضت عليهما في الصحبة مدة ضعفت علائق الحب والوفاق وصار  
ادنى الاسباب موجبا للفراق وهذا النوع يجب الذراري اكثر من  
الازواج فترى للام حنواً شديداً على ولدها وتحافظ عليه اكثر  
من محافظتها على نفسها ولهذا كان من عادة الصيادين اذا رأوا مع  
الانثى ولدها ان يبادروا لصيده اولاً لعلمهم بانها لا تفارقه فيسهل  
عليهم بهذه الوسطة صيدها ايضاً فتراها في اثناء مناوشة الصيادين



لابنها تبذل في مساعدته جهدها وتأتي باقصى ما عندها فتارة تدفعه  
 باجحتها وتارة تدفعه بصدرها فان لم تجد فيه قوة على الهرب حملته  
 على عاتقها وغاصت به في الماء فان لم يتبعها لما اصابه من الجراح لا  
 تركه بل تستمر على محاولة انقاذه باقصى وسعها وغاية ما عندها  
 فتارة تجذبه ومرة تدفعه وتارة تحوم حوله وتحنه على الفرار والهرب  
 ويرى عليها في اثناء ذلك من اثار الكآبة والحزن ويسمع لها من  
 شدة النفس والصوت ما يدل على شدة تألمها وهول مصابها وتنسى  
 نفسها في اثناء هذه الاحوال بالمرّة حتى يكون ذلك سبباً لهلاكها  
 وتقع فيما كانت تتخلص منه لولا فرط حبها لولدها وانها كما على  
 مساعدته وتخليصه وتبلغ زنة الواحدة من هذا النوع مائة وخمسين  
 قنطاراً تقريباً ان كان طولها عشرين متراً فان كان ثلاثين متراً  
 كان الوزن على حسبه وطول رأسها ثلث طولها كما ذكرت  
 ويختلف عرض فكيتها من اربعة امتار الى سبعة وطول سننها  
 يختلف من متر الى خمسة امتار بالنسبة لفمها وقوتها عظيمة  
 جداً بحيث يمكنها قذف الزورق بن فيه في الجو الى غاية عظيمة  
 ويوجد على جلدها بعض محار وحيوانات مائية صغار وتلد عادة  
 فرادى ومثنى وولدها حين الوضع يبلغ طوله ستة امتار تقريباً ومن  
 حين الولادة تنصب عليه رواق الحنو والشفقة فترضعه وتحضنه  
 وتعلمه السباحة

المسامرة الثامنة والسبعون

كاشالو او العنبر

( من حكاية يعقوب )

وفي الحيوانات البحرية نوع هائل يسمى بالافرنجية ( كاشالو ) وهو العنبر يقرب من الهائشة في الصورة الا ان بينهما في بعض الاعضاء اخلافاً لان هذا الحيوان يوجد في فكه من الجانبين انياب اسطوانية او مخروطية وفي الفك الاعلى انياب غيرها صغيرة جداً الا تكاد ترى من اللثة فاذا طبق الحيوان فمه دخلت انياب فكه الاسفل في تجاوزيف مقابلة لها في الفك الاعلى وطول راسه قريب من نصف طول جسده وارتفاعه يبلغ مترين تقريباً ويستخرج منه مادة بيضاء زيتية تجمد اذا بردت وهذه المادة في اوعية براسه متصلة باخرى في البدن متوزعة فيه فيستخرج مما في

سائر جسده أكثر مما تحنويه الاوعية التي في الراس وقدر ما يستخرج من الحيوان الواحد نحو من اربعة وعشرين برمبلا من الزيت وكل برمبيل يسع مائة واربعاً وعشرين ( نبادية ) والنبادية مكيال كانت الفرنسيس تستعمله في كيل المائعات ومقداره مائتان واربعون درهما مصريا تقريباً وهذا الحيوان يقيم على سطح الماء أكثر من الهائشة وفي جوف الماء مدة طويلة كذلك ويستخرج منه ما عدا المادة الزيتية المذكورة دهن يذاب ويستخرج منه زيت مثل زيت الهائشة ولكنه قليل وإذا كان هذا الحيوان مريضاً يخرج منه الطيب المشهور بالعنبر فليس هو الاّ من ابرازات يخرجها عند مرضه فتكون فوق الماء او على الساحل قطعاً تقرب القطعة من خمس عشرة اقة والصيداؤون يعرفون مواضعه فيخرجونه منها بمذاري طوال معدة لذلك وقد اخبرني رجل من الامريكانيين ان بعض الصيادين عثر بقطعة من العنبر بلغ وزنها خمسا وستين اقة وليس في ذلك مبالغة منه لان هذا الحيوان يبلغ طوله خمسة وثلاثين متراً ويتغذى هذا الحيوان بالحيوانات الصدفية والحيوان ذي الثانية الارجل وفيه من الجرأة والبطش ما ليس في غيره فلا يرهب شيئاً من حيوانات البحر الكبيرة ضعيفة او قوية ولا يترك شيئاً يصادفه في طريقه سواء كان انساناً او حيواناً فاذا احس بحربة الصيد في بدنه قصد الزورق مع كمال الشهامة والسرعة ويرفع راسه اليه ويحمل عليه فان لم يتحيل الصيادون في خلاص انفسهم في الحين

هشم القارب ومن فيه من الملاحين بين انيابه الخمسين ولهذا كان  
اصعب حيوان يتقرب منه الصيادون وكل من يروم صيده يلزمه  
استعمال كثير من الحيل والتدابير للسلامة من خطره ولهذا  
الحيوان في السير سرعة عظيمة بحيث يقطع في الساعة الواحدة اثني  
عشر ميلا واكثر ونفخه متتابع بين كل نفخين ثانية من دقيقة وعدد  
النفخ خارج الماء يختلف فتارة ينفخ خمس عشرة مرة وتارة عشرين  
واخرى ثلاثين ثم ينزل في الماء



## المسامرة التاسعة والسبعون

## تمة قصة يعقوب

ثم قال يعقوب فهذا ما حضرني الان مما سمعت في هذه  
الحيوانات واعود لتمام حديثي في السياحة حسب اقتراح سيدي  
الاستاذ فاقول قد اقمنا في السفينة التي قدمنا ذكرها عائدتين الى  
بلادنا ثلاثين يوماً لم يكن لنا فيها شغل سوى اشغال المركب  
وحديث بعضنا مع بعض والنظر الى الماء والجو وكنت اميل كل  
الميل لسامع ما يقال حولي من الاحاديث واذا سمعت شيئاً كتبته  
وحفظته عندي خوفاً عليه من الضياع وقد جمعت من ذلك شيئاً  
كثيراً في كراريس عديدة وهي الان عندي مصونة عندها من  
خير الذخائر اذكر بها ما مر عليّ من المحوادث ومن اجتمعت بهم  
من الناس واذكر بها من احسن اليّ ومن اساء عليّ فهي بالنسبة

لي احسن ثمر اجنيه واثن متاع افنيه لان طول هذه المدة لم  
 يساعدني الدهر فاكون من ارباب المناصب العالية ولا اكتسبت  
 مالا يقيني نكبات الايام العادية وقد بلغت خمسا واربعين سنة من  
 العمر وانا لا املك شيئا غير ما تراه علي من الثياب وثلاثين جنيا  
 انكليزيا اجرة ثلاثة اشهر كانت لي عند القونانية اخذتها حين  
 لحقت بمحضرتكم وكل ما اكتسبته في الايام السابقة ضاع وذهب  
 سدى فنه جزء ضاع في مصر وجزء عظيم كنت اودعنه عند واحد  
 من الناس فادعى انه سلمه الي بالزور والبهتان واقبت بيني وبينه  
 قضية كانت له علي فيها الغلبة لمعرفته بكثير من الناس امكن له  
 بواسطتهم غش المأمورين بالتحقيق فحكموا له علي فتخلص وضاع  
 المال علي ومع ذلك فانا احد الله على هذه القسمة ولست متأسفا  
 على ما فات ولا متكدرا بما صرت اليه من الحال في هذه الاوقات  
 ولا نيا لي اذا ارواحنا سلمت \* بما فقدناه من مال ومن نسب  
 فلما انقضت مدة هذا السفر ودخلنا سواحل بلاد الانكليز  
 احاط بجميع من في السفينة مزيد الفرح والسرور والانس والمحبور  
 لان كلا منهم كان يتوقب الاجتماع باخوته وقرابته واهله واحبته  
 وصار كل يعانق صاحبه ويهتئ بالسلامة ويعده بالاجتماع في  
 اماكن معينة وعلى ذلك وصلنا مينا لوندرة فليس كل واحد افخر  
 ما عنده من اللباس وتهيا للخروج وانا كذلك في جملة الناس  
 تهيات للخروج فاحضرت خرجي واحتملته على عاتقي واردت ان

اخرج واذا بصاحبنا السائح الذي كنت معه حضر لديّ وقال لي  
 ماذا تصنع فقلت اريد الخروج الى المدينة فقال انت رجل فقير  
 ولا تعرف الناس ولك اخت فقيرة محتاجة كل الاحتياج واخشى  
 ان تستهلك ما عندك من الدراهم في الصرف علي نفسك وتبقى  
 صفر الكف فقلت له وما الرأي فقال الراي عندي ان استحسنته  
 ان تكون معي في منزلي فهو خير لك فشكرت صنيعه وحمدت الله  
 سبحانه حيث جعل لهذا الرجل العظيم الخنو والشفقة عليّ ثم أكثرنا  
 عربة وضعنا بها مالنا من المتاع وركبنا معاً وتوجهنا سائرين وبعد  
 توطني اخذت اسأل حتى عرفت محل اقامة زوجة القبطان المتوفي  
 التي كنت جعلت عندها مائتي جنيه فسرت اليها فلما رأته قابلتني  
 بمزيد البشر والفرح والطلاقة وقالت لي بعد برهة يسيرة اني لما  
 وجدت غيابك قد طال ولم يصلي من اخبارك ما يوقني على  
 حقيقة الحال جعلت وديعتك التي استودعنيها في احد بيوت  
 الصيارفة لاجل التمولج اذا حضرت اكثر مما تركت ثم قامت  
 وفتحت خزانة عندها واخرجت منها سند الاستلام وحسبت الربح  
 فوجدته يبلغ مائة جنيه تقريباً فرحمت بذلك وشكرتها على معروفها  
 وحسن تدبيرها ودعوت لها ولما اردت الانصراف ابت الا ان  
 اتغذى معها فاجبت دعوتها وصرنا نتحدث معاً قريبا من ساعتين  
 سألتني فيها عن سبب طول الغيبة فانابأتها بقصتي وبما صار لي  
 ولمن كان معي وكيف نجوت من الغرق ووقعت في يد سكان

افريقة فبكت على ما نابني من المصائب والمصاعب وقالت هكذا  
حال الدهر ثم انها قامت واخذت بيدي وتوجهنا الى الصيرفي  
واظهرنا له السند فقال الدراهم عندي حاضرة ان شئت اخذتها  
وان شئت اقبيتها للربح فشاورتها في ذلك واخبرتها ان لي اخنا  
يتيمة فقيرة تركها في خدمة خاتون بمدينة (بورك) ومن حين  
انفصالنا لم يصلني من اخبارها ولا وصلها من اخباري شي ولست  
اعلم اأمات ام هي في الحياة واريد ان امضي اليها لانظرها فان  
وجدتها ارسلت لمحضرتك خطاباً اعلمك فيه بما يظهر لي في شان  
الدراهم فاستحسننت رايي وقالت انت عندي في مقام ولدي فلا  
تتاخر عن طلب ما يعرض لك من حاجة فستجدني المسارعة  
الى اعانتك بكل ما قدرت عليه اكراما للمرحوم فعند ذلك قبلت  
يدها وغيرت السند باسمي وتركت الدراهم عند الصيرفي وصرت  
معها حتى وصلت لمنزها ثم توجهت الى السائح واخبرته بقصة الدراهم  
واستشرته في الذهاب الى (بورك) لاعلم حقيقة خبراخي وعرفته  
رغبتي في السفر اليها فوافقتني على ذلك وقال لي ان طاب لك  
المقام ولم ترد ان تعود الى لندرة فاعلم اني لك صديق محب على  
البعد والقرب فسلي عن كل ما بدالك ولا تقطع عني اخبارك  
وان اردت الرجوع الى هذه الجهة فانا على ما تحب فشكرته على  
ذلك وبتنا ليلتنا فلما اصبح الصباح تاهبت للسفر فذهب معي الى



موقف سكة الحديد وبقي معي حتى ركبت العربية ثم ودعني  
وانفصلنا

المسامرة الثمانون

سوق في باريس

قال ناقل الحديث فبينما هم كذلك حضر الانكليزي وقرع  
الباب فقام يعقوب وقال في وقت اخر اتم لك سياق الحكاية ودخل  
الانكليزي فتلقاه الشيخ وولده بالتحية والاکرام واخذ يعتذر لهم عن  
تاخره ويشرح لهم الاسباب التي عاقته ثم سألم عن حالهم وصحتهم  
فشكروا الله واثنوا عليه ثم قال الشيخ انا قضينا هذه المدة مع يعقوب  
في حديث ما جرى له وما رآه في البحر من حين سفره الى عوده

لبلاده فقطعنا الوقت في لذة الحديث واخبره بما رآه برهان الدين بالامس وقال له انا سألتنا يعقوب عن تاريخ باريس وطلبنا منه ان يقص علينا اخبارها فاحال عليك واعذر بقله ما عنده في ذلك فقال الخواجا حباً وكرامةً وسنجعل مسامرتنا بعد العود من الفسحة في ذلك لاني احب ان تقضوا ايام الاقامة بهذه المدينة في لذة وطيب خاطر واريد ان اكون دليلكم في الذهاب والعود لاطلعمكم على بعض ما لهذه المحاضرة من المآثر الفاخرة والان وقت الطعام فان شئت تطلبه فقال الشيخ لا بأس ثم امر الانكليزي باحضار الطعام في مكانه المعد له وقاموا فاكلوا وركبوا عربة وداروا في نواحي المدينة يتفرجون فاعجب الشيخ بانتظام طرقها وسعتها ونظافتها وحسن اشكال ما فيها من البيوت وما لها من اتقان الصنعة وتناسب الاوضاع واختلاف الصور وزيادة ارتفاع الاماكن وصار كما ابصر شيئاً واعجبه سأل عنه الانكليزي فيصفه له ويذكر ما حضره من خبر يتعلق به او نادرة تؤثر عنه ويبين له ما طرأ عليه من صروف المحدثان وتقلبات الازمان وتقلباته من حال الى حال الى ان آل امره الى ما آل ولم يزالوا على ذلك حتى انتهوا الى مكان واسع فيه خلق كثير من نساء ورجال في ازدحام واشتغال ورأوا سقاييف من حديد مرفوعة على اعمدة منه وكلها في ازدحام عظيم من كثرة الناس الواردين من المدينة من كل جهة والمنصرفين بعد قضاء اغراضهم فكان الشيخ يرى الناس

في كثرة حركاتهم واختلاف تنقلاتهم وتقاطع مسالكهم اشبه شي  
بتيارات مياه مختلفة الاتجاه فاعجبه هذا الموضوع زيادة عن غيره  
فاحب معرفة امره وسأل الانكليزي عنه وعن الغرض منه فقال  
له قبل ان ندخل في شرح هذا المحل نجلس برهة في احد مواضع  
القهوة لنستريح ونزل الانكليزي ومعه الشيخ وولده ويعقوب فدخل  
بهم الى قهوة لطيفة الشكل واسعة الارزاء كثيرة الزينة والزخرفة  
في جميع جهاتها مبلطة بالمرمر وهي تشتمل على عدة اماكن يوصل  
بعضها للآخر وفي كل مكان منها موائد (تراييزات) بعضها من  
الحديد وبعضها من الرخام وحول كل واحدة منها جماعة من  
نساء ورجال بعضهم يقرأ اوراق الاخبار وبعضهم يلعب باوراق  
التمار وبعضهم يلعب النرد وغير ذلك من آلات اللعب وبعضهم  
يشرب قهوة وبعضهم يشرب غيرها من انواع المشروبات فاخذ  
الخوجا مكاناً خالياً في احد الاركان وجلسوا فيه جميعاً ثم بعد ان  
جلس كل منهم في مكانه واحضر خادم القهوة جميع ما طلبوه  
قال الانكليزي ان هذه السقائف العالية والابنية الخالية معدة  
لبيع جميع انواع الماكولات والاسماك واللحوم والفواكه والخضراوات  
ولم تكن قبل هذه الايام على ما هي عليه الان من الحسن والانتظام  
الذي تراه بل كانت في غاية الضيق والوخامة من عدم التفات  
الحكام وارباب الزعامة فكانت من كثرة العالم الذين يشترون  
ويبيعون بها يقع ازدحام يضر بالمارين لضيق دروبها وكانت احوالها

ليست مضبوطة وامور الصحة بها مهملة غير مربوطة فكانت تتراكم  
بها الفاذورات وتتعفن منها الطرقات وربما اضرت بصحة اهل  
الازقة والحارات المجاورين لها فكثير التشكي من سكان تلك  
الاماكن حتى من اصحاب البضائع ومأموري الضبط والصحة لعدم  
تمكنهم من اجراء ما تقتضيه المصلحة فلوراياته وهو على ما كان اولاً  
عليه لانفت نفسك من النظر اليه ولكن لما كانت هذه المدينة  
بسبب كثرة توارد الناس اليها آخذة في اتساع البناء تكلم ارباب  
الجالس في هذا الشأن فاستقر رأيهم على ازالة ذلك الضرر ثم  
عرضوا ذلك على ارباب الحكومة فصدقوا عليه وصدر الامر  
للمهندسين بامضائه وعمل رسم بما يقتضيه التنظيم فرسموه وكتبوا  
معه ما يلزم لمصلحة البلد وصحة اهلها في الحال والاستقبال وقدموه  
ولكن لم يظهر لذلك اثر الا في عهد قريب لانه لم يبدأ في اساسها  
الا في سنة ١٨٥١ للميلاد مع ان التشكي والامر بازالة الضرر كانا  
قبل ذلك بنحو اربعين سنة وقد تم في سنة ١٨٥٦ وهذا الميدان  
كله عبارة عن عشر سقائف مغطاة بالواح من التوتيا مرفوعة  
على عمد من الحديد ومساحتها بما فيها من الخانات والطرقات تبلغ  
ستين الف متر مسطح عبارة عن اربعة عشر فدانا مصريا ونصف  
فدان تقريبا وتحت كل سقيفة من هذه السقائف ثلثائة وخمسون  
دكانا وهي كما رأيت منقسمة الى قسمين كبير وصغير يفصل بينهما  
شارع عرضه ثلاثون متراً فالقسم الكبير تبلغ ارضه عشرين الف

متر والصغير عشرة الاف والباقي وهو ثلاثون الف متر مساحة  
 الطرق والميدان والمجينة التي رأيتها فبسبب هذا الاتساع صار  
 هذا المحل من احسن ما يرى والطفه فهو وان كان معداً لبيع هذه  
 الاصناف الاّ انه صار معدوداً من المحلات التي تهرع اليها الناس  
 وتجمع بها للتفسيح والاستئناس وتمت هذه الستة جميعها دور من  
 البناء كله مخازن في اعلا كل مخزن فتحة للاستضاءة ودخول الهواء  
 وبين تلك المخازن وبعضها طرق عليها قضبان من الحديد  
 موصلة الى السكة العمومية فترى العربات تسير في باطن الارض  
 بانواع البضاعة ولا يشعر بها احد من هناك من الباعة في هذه  
 الوسائل كثر ورود جميع اصناف المأكولات من غير ان يترتب  
 على ذلك ادنى ازدحام ولا نوع ايلام وصار اهل المدينة على ثقة  
 من وجود ما يحتاجون اليه لوروده في وقت معين من جمع  
 الجهات وكذلك اهل البضائع صاروا في امن على بضائعهم من  
 العوارض التي كانت تعرض لها قبل ذلك هذا خلاصة ما يتعلق  
 بذات المكان قديماً وحديثاً واما ما يباع فيه في كل سنة من البقول  
 ونحوها فشيء كثير وقد احصي ما يبيع فيه سنة ١٨٥٦ من الميلاذ  
 فكان مقدار ما يبيع من صنف سمك البحر خاصة ٢٢٠ ١٧٨٥  
 كيلو جرام والكيلو جرام عبارة عن اربعة اخماس اوقية مصرية اغني  
 ثلاثمائة وعشرين درهماً ومن سمك الماء العذب ٩٠٨٢١٢ كيلو  
 جرام ومن الزبد ١٧٦٠٢٢٢٢١ كيلو جرام ومن صنف البيض ما

بلغ ثمنه ٦٧١ ٨٦٠ ٨ من الافرنك ومن اصناف الخضراوات ما بلغ  
ثمنه اربعين مليوناً من الافرنك ومن اللحم ٢٨١ ٣٦٤ ٧٢ كيلوجرام  
ومن النبيذ المباع في براميله على اختلاف اجناسه مليونين من  
اللترات والتر رطل انكليزي فيبلغ ثمنه نحو خمسين مليوناً من  
الافرنك وما من سنة الا وتزيد على ما قبلها

فقال الشيخ كذلك يجب ان تكون المدن التي وضعها على  
ان تكون مسكونة باهل الصناعات واصناف التجارات يرد اليها  
التقويون والغرباء بانواع الحيوانات الموقرة بالبضائع المختلفة وهذا  
من الامور المعقولة التي تضطر اليها طبيعة الاجتماع البشري فكما  
مست الحاجة لسعة الطرق لزم ان توسع حتى تندفع الحاجة ويأمن  
الناس من الاصطدام والاصطكاك ويسلموا من اذى الازدحام  
فعند ذلك نظر الى الشيخ صاحبه كانه يذكره امر مصر فقال سألت  
بعض المعمرين بمصر عن الاسباب التي دعت اهلها لتضييق الطرق  
فقال حدثني بعض اسلافنا بما عاينت طرفاً منه وهو ان مصر كانت  
مسكونة بام مختلفة الطباع متباينة الاخلاق لا تزال العداوة بينهم  
قائمة والشورر محنمة فكان من عرف نفسه بالقوة متسلطاً على  
الضعفاء بالنهب والسلب مجاهرة بجوسون خلال الديار ويتسورونها  
فراى الناس مدافعة تلك الشورر بتضييق الطرق حيث لا يمكن  
للكثير ان يروا بها جملة واحدة واذا دخلوا اوزاعاً تمكن الناس  
ان يحدفهم بالاحجار فقتل النهب من داخل البلد وبقيت كثيرة

في الاطراف وبذلك السبب كان المصريون يتخذون ابواب الدروب صغيرة مستورة الوجه بالمسامير المنفرجة الروس لتكون لها بمنزلة الدروع فلما هدأت الفتن وعم الامن وغلبت السلامة اخذت مصر في محاسن الاحوال ولطائف الاشكال من طرق بالغة في السعة وابنية متراصفة متناسقة تؤمن فيها غوائل المرور ويطيب الهواء وتصلح للاقامة وذلك من حسنات الدولة القائمة بامرها حرسها الله وكان لها رداءً معيناً وركناً حصيناً فانها لم تنزل ناظرة في اسباب العمران واتساع دائرة الامن والرفاهية وحسن تعاون طوائف الناس بعضهم لبعض وشواهد الاحوال ناطقة بان ذلك لا يزال على احسن غاياته فالناس مقبلون على تعلم الالسنه وقرآه الكتب واجناء ثمرات العلوم ومن العادة ان الانسان اذا ترك حالة الى احسن منها بذل جهده في تغيير ما لا يرضاه فاين مصر الآن ما كانت عليه ولو بعد بقايا كثيرة من ضيق الطرق واختلاف الابنية بالدخول والمخرج وسوء الوضع الموجب لوخامة الاهوية واضطراب الامزجة وتزاحم الناس واشتغالهم بما يقل نفعه ويكثر خسراته ثم ما احسن اتخاذ مثل هذا الميدان فانه ربما كان سبباً لكثير من المراقق كسرعة عود ذوي الاشغال الفلاحية الى اشغالهم بعد فراغهم من شان منقولاتهم وكضبط الاسعار وقلة التغاين فان الفلاح يبيع بضاعته جملة ثم اهل التجارة فيها يوزعونها حسب طلب الجهات بخلاف ما اذا كان الفلاح يتولى توزيعها بنفسه

عطلته زمناً طويلاً وربما بارت عليه وبالجملة فاتخاذ الطرق  
 لتسهيل المعاملات بحسب الامكنة والازمنة امر لا شبهة في حسنه  
 فقال الانكليزي هو كما قلتم لاسيما اذا كانت الامة مراعية  
 للشركة العامة والمصالح الشاملة غير مهملة لها وقتنا ما ثمر قاموا  
 سائرين وهم يتحدثون فيما يبرون عليه الى ان وصلوا محلهم فاجتمعوا  
 جميعا في غرفة الشيخ فطلب برهان الاذن من والده بالتوجه مع  
 يعقوب الى البالد فاذن له وبقي الخواجا مع حضرة الشيخ



## المسامرة الحادية والثمانون

باريس

فقال الخواجا قد طلبتم مني ملخص تاريخ هذه المدينة واصل  
 وضعها فقال له الشيخ نعم فقال لا يخفى ان حالها الآن ليس كحالها  
 في غابر الازمان بل لا نسبة بين الحالين لان جميع ما تراه من  
 الابنية المحسنة والشوارع الواسعة المستحسنة وان كان كله من  
 نتيجة افكار المتقدمين الا انها لا يوجد بها الآن اثر من الآثار  
 الاولى لان كل جيل اتى يغير من اثار قبله فيتداول الازمان على  
 هذه المدينة وصلت الى هذه الدرجة التي صارت بها منفردة بين  
 المدن وبلغت من الفخر الناية ومن الشهرة النهاية حتى شهد لها  
 غيرها من سائر المدن انها فازت بجميع انواع اللطائف وحازت  
 اصناف الزخارف ومع ذلك فلم تنزل كل يوم تتقل من حال

الى احسن وتجدد بها من انواع الحسن في كل يوم ما لا يتجدد  
 بغيرها في زمن فهي في الثروة ليس لها مثل وما تبلغه في زمن قليل  
 لا يصل اليه غيرها في زمن طويل وهلم جرا وكل من رآها في  
 سنة ثم رآها في اخرى قال انها تغيرت الى شكل احسن مما كان  
 وليس في الامكان حصر ما بها من الغرائب ولا ضبط ما يحدث  
 فيها من العجائب فان الانسان ولو اطال بها المقام واتخذها وطناً  
 مدة من الاعوام لا يمكنه حصر بعض ذلك ولا الوقوف على ما  
 يحدث فيها كل يوم من البناء والمسالك ومع ذلك فاني اذكر  
 لحضرتكم ما يحضرنى من تاريخها فاقول لا يخفى ان بين كل مملكة  
 وكرسيا ارتباطا كارتباط الجزئيات بالكليات لان كرسى كل  
 مملكة اصل في حوادث مملكته وحوادث كل مملكة راجعة الى  
 كرسيا سواء كانت المحوادث دينية او دنيوية فن اراد التكلم على  
 احداها اضطر الى التكلم على الاخرى وشرح الكلام في هذا يطول  
 فلا نذكر الا ما هو ضروري فنقول

من المعلوم ان الجزء اصل للكل وان الفردية سابقة على  
 الزوجية وان العدم سابق على الوجود وان اصل الاعداد الواحد  
 فاذا تمهد ذلك فلا مانع من ان يكون اصل كل مدينة او قبيلة  
 ناس قليلون ثم يتزايدون شيئاً فشيئاً اما من نسلهم او من ياتي  
 اليهم طمعا في ارزاقهم او اجتمائهم فهذا هو اصل اتساع المدن  
 والقبائل وكثرة اهلها

فقال الشيخ هذا كله مقبول ومعقول وقد اصابوا فيما فعلوا  
 حيث تخيروا هذا الموضع وجعلوه مقر لهم فقد وجد فيه ما ذكروه  
 في اتخاذ المدن حيث قالوا يجب في كل موضع اريد اتخاذه مدينة  
 ان يكون مشتتلا على ما بقي من المضار وتسهل به المنافع والمرافق  
 فاما ما بقي من المضار فبان يدار حولها سياج الاسوار وان يكون  
 وضعها في ممتنع من الارض اما على جبل ليصعب على العدو  
 صعوده واما ان يحيط بها ببحر ليصعب عليه عبوره وكذلك مراعاة  
 الوقاية من العوارض الجوية بان تكون طيبة الهواء لان الهواء اذا  
 كان خبيثا بان كان ساكنا او مجاورا لمياه فاسدة او لمناقع متعفنة  
 اضربا حوله من انسان وحيوان كما هو مشاهد واما ما تسهل به  
 المنافع والمرافق فامور منها وجود الماء العذب والمرعى وقرب المزارع  
 والاشجار منها للاخطاب والبناء لان قرب ذلك يسهل على  
 الساكن مرافقه ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من  
 البلاد النائية فاذا لم تراعى هذه الامور في المدينة قبل اخنطاطها  
 اسرع اليها الخراب كما وقع في بعض مدن العرب التي اخنطوها  
 بالعراق وافريقية والكوفة والبصرة والتهيروان حيث لم يراعوا فيها  
 الاّ الأهم عندهم من مرعى الابل وما يلزم لهم من الشجر ولم يراعوا  
 الماء العذب ولا المزارع ونصوا ايضا انه يجب في المدن الساحلية  
 ان تكون في جبل او بين امة موفورة العدد والعدد للاستنصار  
 بها اذا دهم العدو لان المدينة اذا لم يكن بقرية عمران ولا طريقها

وعراً كانت طعمة لكل من ارادها واظن ان هذه الامور جميعها كانت متوفرة فيها حين وضعها

فقال الانكليزي لاشك ان معظم هذه الامور متوفرة في هذا الموضع لان النهر موجود فيه وكذلك هواؤه خالص نقي والحجر عندهم كثير للبناء به بدل الخشب فهذا هو السبب في اخيار هذه البقعة والاقامة بها وكان ابتداء وضعها حين كانت الارض كلها سائلة وتفرق الخلق عن سطحها وعذرهم في عدم استيفائهم بجميع شروط الاخطاط ما ذكره المؤرخون من ان هذه البقعة وغيرها قبل ان تسكن لم يكن بها الا اكام وصحارى مملوءة بمياه ملحة واستدلوا على ذلك بوجود اجزاء حيوانات بحرية واصداف عثروا بها خلال اجزاء الاحجار والظاهر ان محل باريز قبل ذلك وبعده بزمان طويل كان مغموراً بالماء وفي صورة خليج وان كان مدن (منت · ودروه · وفوتنينبلو · ونومور · ومونتر و) وغيرها كانت على شواطئه وكان وسط الماء اماكن مرتفعة كالجزائر وكانت سواحله خالية من النبات والمخلوقات ليس بها الا الصدف وميتة السمك ونحوه من الحيوانات البحرية وبعد انقضاء تلك الايام صار الماء ينحسر والارض تجهد شيئاً فشيئاً فكان كلما انحسر الماء عن موضع كسي بالنبات والشجر حتى كثر ذلك فاوجد الله بين تلك الاشجار انواعاً من الحيوانات فظيعة المنظر مهولة الخلقه فصارت تتناسل وتتشرف في جميع البقاع وبقيت هذه البقعة على حالها الى ان

جاء طوفان بوح عليه السلام وكان نخروجه من الجهة الجنوبية الشرقية فقلع الأشجار والنبات وغرق أكثر ما على وجه الأرض من الحيوانات ولم ينج منها إلا القليل فاخلط بعضه ببعض وتناسل حتى ملأ الأرض فلما قضى الله ما أراد من الخراب وسكنت الأرض بعد الاضطراب وعمرت بما بقي من نوع الانسان تفرق الخلق في ارجائها وعمرى نواحيها فكان منهم طائفة وهم على ما حققه المورخون قوم من اهل الصين ذهبوا الى تلك الجهة وكان مأواهم حين نزولهم بهذا الموضع الخيام كعرب البادية فلما سكنوا بها وعمرها سموا جال اي زراع الأرض وكانوا قبائل وعشائر ولكل طائفة رئيس يحكم فيها وينظر في دعاويها ويقودها في الحرب وكانوا يصدقون بوجود الخالق ويسمونه هود ومعناه الخالق الأكبر المؤثر في الكون ولكنهم كانوا يعتقدون ان معه الهة اخرى وان كل اله موكل بقوة من القوى المؤثرة في تدبير الكون وهذا الاعتقاد يشبه اعتقاد اليونان فانهم يقولون بتعدد الآلهة وان منها ما هو موكل بنار الدنيا وما هو موكل بالرعد وما هو موكل بالانهر والخلجان الى غير ذلك وكانوا يزعمون ان ديانتهم ماخوذة عن توت اي ادريس عليه السلام وانه الاصل في جميع الفنون والصنائع والمزارع وكانت اعيادهم وقت دخول الفصول في بعضها فيكثر فيها من شرب المسكر وتعاطي المنكر ويقربون من الادميين لآلهتهم قربانا ولم يزالوا كذلك الى قبيل ظهور الديانة المسيحية بنحو سبعمائة سنة فهاجر من

جهة اسيا الى حدود البحر الاسود عدة قبائل فوجدوا هناك قوماً  
يسمون كيرميس فازعجوبهم من مساكنهم وسكنوا مكانهم فرحل  
الكيرميس الى جهات نهري الطونه والرین واقاموا بارض الجول  
التي هي الان فرنسا فتدينوا بديانتهم ورفضوا الديانة القديمة ثم  
انتشروا في بلاد الانكليز وهولانده وسكان بلاد الجول اي فرنسا  
الى الان يتكلمون بلغة الكيرماسين فلما ارتحل الكيرماسيون الى  
ارض الجول تخيروا منها موضعاً وبنوا به مدينة سموها ( دروه )  
وجعلوها مركزاً لاهل ديانتهم كمدينة رومة الموجودة الآن لاهل  
الديانة المسيحية وكانت تسمى هذه البقعة بالارض الوسطى ومركز  
الديانة العامة ومقر العلماء والحجيين لازميس وما قدمناه في شأنهم  
من الاعتقاد انما هو معتقد كهنتهم ومن تبعهم

واما عوامهم فكان اعتقادهم مجرد اوهام وتليسات تلقيا الهم  
كهنتهم فكانوا يكتبون عنهم عقائدهم التي يعتقدونها ليمتازوا بها  
عنهم ومن جملتها اعتقاد وحدة الاله وانه الذي لا نهاية لعلمه وان  
كل ما اراده في الكون من خير او شر لا بد ان يكون وانه الخالق  
لكل شي الذي يهبى كل ما خلق لما خلق له فيرفع اهل السعادة  
الى الدرجات العلى وهي دار النعيم ويخفض اهل الشقاء الى الدرك  
الاسفل وهو محل العذاب المقيم والدرك الاسفل عندهم عبارة عن  
الفراغ المطلق والدرجات العلى عبارة عن المحل الذي تقيم فيه  
الارواح المنعمة وان الانسان اذا ارتكب خطيئة او ذنباً ثم مات

نزل الى الدرك الاسفل اعني الفراغ الذي خرج منه وان كان  
 جاريا في عمله على مقتضى علمه لا يرجو به حصول ثواب ولا فراراً  
 من عقاب كان مآله النعيم المقيم وان كل من فترت عن الطاعة  
 قواه اهبط الى الدرك الاسفل وكان قرينه الشيطان الذي اضله  
 واغواه واقام في دار الشقاء والندامة وحرّم من انواع اللذة والكرامة  
 واما من صعّدت روحه الى ارواح الابرار فانه لا يجد ما يؤلمه في  
 تلك الدار بل يكون دائماً في عز وصيانة آمناً من الوقوع في الذل  
 والاهانة متخلياً بمجمل الصفات كالراحة الدائمة وحسن الافعال  
 ونور الذات متخلياً عن سائر الرذائل اقلها المذلة والخوف من القلة  
 ومن الكيرماسيين قبيلة تسمى البلج ومعناها في الاصل المحاربون ثم  
 اطلقت على سكان مملكة البلجيقا وتسمى عند مؤرخي العرب بالفلمنك  
 تحولوا من شاطئ نهر الرين الى جهة الجلوانيين وهم القاطنون  
 بشواطئ نهر الوان فاذنوا لهم في المقام معهم واخלטوا بهم ومن ذلك  
 الوقت سمو بالباريزيين اي سكان الوان هذا ما يحضرنى الان  
 من خبر هذا الموضع وسكانه واما طباعهم فكانت وقت ذاك وحشية  
 واجسامهم عارية وعوراتهم بادية وكانوا يسمون اجسامهم ويتركون  
 شعر رؤسهم حتى يصل الى اكتافهم وكانت القبائل التي حولهم  
 تشهد لهم بالقوة وتخشى باسهم وكانوا اذا خرجوا للحرب وقتلوا احدا  
 علقوا راسه في عنق الخيل للفخر وجعلوها آنية يشربون بها الماء  
 والنخمر وكانت الارض التي نزلوا بها اذ ذاك ضيقة لان الجوليين

محيطون بها من كل جانب فلما استقروا فيها اخذوا يرتادون محلا  
 يجعلونه مركزاً لحكومتهم فاخاروا موضعاً جهة نهر السين كان به  
 سبع جزائر يقرب بعضها من بعض فبنوا فيه مدينة جعلوها مقر  
 التخت وسموها لوتيس وكان ذلك قبل هجوم الرومانيين على ارض  
 الجول واستيلائهم عليها بمدة كبيرة فهذه المدينة التي تراها ويعجبك  
 ما فيها من المباني الفاخرة وزيادة ثروة اهلها قد عوضت لوتيس  
 القديمة بعد استيلاء الرومانيين عليها وكان بناء لوتيس من خشب  
 واغصان شجر ومساكنها ضيقة منخفضة ليس بها منافذ ولبرودة ارضها  
 كانوا يستعملون تنانير كاهل ريف مصر وكانت خالية من المعابد  
 فاذا ارادوا ان يجتمعوا وقت الاعياد والمواسم خرجوا الى صحراء  
 قريبة منهم فيجتمعون بها وكانت معائشهم من الزروع وكانوا  
 يزرعون فيدخرون مؤنتهم ويتجرون فيما فضل عنها ولخصوبة  
 الارض وحسن منبتها كانوا في ثروة وطيب عيش ثم حصل لهم بعد  
 ذلك اضطراب فتضعع حالهم وآل امرهم الى الخراب وسبب ذلك  
 ما قرأته في بعض الكتب وهو ان الرومانيين في تلك المدة بعد  
 تخريبهم لبلادهم واستيلائهم على لوتيس مقر تختهم كما قدمنا كان  
 تحت قبضتهم قبائل من الجبال خرجوا عن طاعتهم ورفعوا لواء  
 العصيان عليهم فلما رأى الروم ذلك وكانت عساكرهم متفرقة في  
 الحرب الى جهات متعددة وليس فيهم كفاية لمقاومة الجميع دبر  
 فيصبرهم في اتماع الفتنة بين تلك القبائل وقال لاهل مشورته انا



لا تتمكن منهم الا اذا وقع الخلف بينهم فارسل اولاً اليهم يطلب منهم مددا فابوا جميعاً فطلب منهم خيلاً فبنهم من اجاب ومنهم من امتنع ووقع الخلف بينهم فتمت حيلته وتوجه بعسكره اليهم فخرّب مدينتهم لوتيس مع جزائرها السبع وقتل من قتل وأسر من أسرو من ذلك الوقت غيروا اسم لوتيس بباريز واشتهرت بهذا الاسم الى الان وهذه الحادثة كانت قبل ظهور المسيح بخمسين عاماً ومن ذلك الوقت اخلط الرومانيون بالباريزيين وصارت ديانتهم واحدة ومكث الباريزيون واهل فرانس تحت حكم الرومانيين نحو الف سنة فكان القياصرة يتوارثونها قيصرًا عن قيصر ولم ينازعهم احد منهم في ديانتهم فبنوا بالمدينة معابد وهياكل واعلوا بنيتها ونظموها شوارعها ووسعوا اسباب متاجرها ومزارعها وما زالوا كذلك الى سنة ٢٤٥ ثم لما ظهرت بها الديانة العيسوية كان كلما كثر اهلها نهقتر حالهم ولكن بقيت اهل الديانة العيسوية الى القرن الثامن من غير رئيس ومع ذلك فكانت الديانة العيسوية هي الغالبة فلما حصل القول بباريز بربوبية عيسى عليه السلام حدثت الكنائس ورتبت القسس فتفرقوا في مواضع كثيرة فكان العيسويون بشاطيء نهر السين ووان واما المتمسكون بالديانة القديمة فكانوا متفرقين في مواضع كثيرة ولكل طائفة رئيس منها يسوسها ويحكم فيها الا ان طائفة الفرنج وان كانت قليلة العدد كانت تميل الى السلب والنهب فكانت الحرب بينها وبين من جاورها من الباريزيين وغيرهم لا تنقطع

وكانت جميع القبائل تحسب حسابها وتهاب حربها وذلك لانها التقت مرة مع جيش الرومانيين فهزمتهم وكانت لا تبلغ اربعة الاف وجيش الرومانيين اكثر من ذلك باضعاف فمن ذلك توهوا شجاعتهما وهابوا سطوتها الا ان الباريزيين عرفوا كيف يتخلصون من شرها ويامنون من ضررها وذلك انهم استمالوا قلوب الفرنج حتى ادخلوهم في ديارتهم وزوجوا اميرهم بتنا من بنات ساداتهم وملكوهم عليهم فعدل فيهم واحسن سياستهم وذب عنهم من ناولهم حتى خلصهم من ذل الفرنج وقبضة الرومانيين وحكمهم عليهم وكان ذلك سنة ٤٧٥ من الميلاد فامنوا على انفسهم واموالهم وزادت ثروتهم وحسنت عيشتهم وملأت العمورة شهرتهم ولاجل تاكيد الائتلاف والائتلاف ودفع توهم العود الى ما كانوا عليه من الخلف بنى ذلك الملك كنيسة باسم الحواريين اي انصار عيسى وهم بولس وبطرس واوصى ان يدفن فيها اذا مات ففعلوا وكان اسم من زوجته بنتهم كلوفس وهو الذي قتل جميع اقاربه وكانوا ملوكاً فاستحوذ على ممالكهم وخلف من الذكور اربعة فلما مات قسموا المملكة بينهم فتملك اقدمهم على باريزو والثاني على ستير والثالث على سواسون والرابع دليان ثم مات ملك دليان وخلف ثلاثة من الاولاد فاتفق ملك باريزو وملك سواسون على قتلهم وقسمة مملكة ابينهم بينهما فارسلا الى والدتهم رسولا يخبرها بان ترسل الاولاد الى عماتهم ليربوهم ويعلموهم السياسة الملوكية لانهم سيصبرون ملوكاً

فتوجه اليها الرسول واخبرها بما قالوه فصدقته وارسلت الاولاد الى اعمامهم ثم ارسلوا اليها رسولا ومعه سيف ومقص وقالوا له مرها ان تختار ايها شآت ويخبرها انها اذا اخذت المقص فلا حق لاولادها في الملك واذا اخذت السيف فلا بد من قتلهم فلما وصل اليها واخبرها بما قالوه قالت اخذت السيف وقتلهم اسهل عندي من بقاءهم محرومين من حقوقهم فرجع الرسول واخبر اعمام الاولاد بما قالته اهم فقام احد اعمامهم وضرب احد الاولاد بخنجر فخر ميتا والتجأ الثاني الى عمه الثاني فلم يمكنه حمايته من اخيه وخلي بينه وبينه فقتله واما الولد الثالث ففر من بينهم ولم يوقف له على خبر ويقال انه دخل ديراً ولم يخرج منه حتى مات وفي ايامهم حسنت حال اهل هذه المدينة وتقدمت الملة العيسوية الا ان ملكهم مات ولم يعقب الا ولداً واحداً فتملك بعده ولم تطل مدته بل مات ايضاً ولم يخلف سوى بنتين فاتفق عمه على ان يقتسما مملكة باريزوان لا يجملها مقرأ وان لا يدخلها احدها الا ومعه الاخر فضى الامر على ذلك وهجرت باريزو ولم يبق فيها الا اهلها ولما كانت سنة ٥٨٤ من الميلاد خطب ملك الاندلس لابنه ابنة ملك سواسون فاجابه وجهزها له وارسلها في موكب عظيم جمع فيه اولاد امراء باريزو واعيانها وامران يبروا بالموكب من وسط المدينة ففعلوا ومات اكثرهم في الطريق لبعده المسافة الا انه لم تطل ايامه بل عجل له حمامه ولم يعقب الا زوجة وولداً رضيعاً وكانت

امه مالات قوما واغرتمهم على قتل ملك ميتر فلما لم يتم ذلك خافت  
 على نفسها منه فاخذت ابنها وذهبت به الى باريز وكان رئيس  
 الديانة بها يومئذ رجل من ذوي المروءة والقوة المشهورين بالشجاعة  
 والقوة واجتمعت به فانزلها عنده واكرم نزلها وكانت الحرب في ذلك  
 الوقت قائمة وعيون الفتن مستيقظة غير نائمة والفرنج منقسمة قسمين  
 كل قسم منعزل بموضع والعدوان من بينهم لا يتقطع لكن كان  
 القسم الغربي يميل الى السلم ويغلب عليه طبع الحلم لما عنده من  
 عوائد التمدنين حتى كان يعد من الرومانيين واما القسم الشرقي  
 فكان يغلب عليه طبع الخشونة والتوحش ثم ان تلك المرأة بعد  
 ذلك ذهبت بابنها الى ملك البرجون واستغاثت به في ابقاء ابنها  
 في ملك ابيه فشر ذلك الملك عن ساعد الجمد وشد منها العضد  
 واخذها وذهب بها الى باريز فصادف دخوله يوم الاحد وهم  
 مجتمعون للصلاة فدخل الكنيسة وتلا عليهم مقالة حثهم فيها على ان  
 يساعده على ملك ميتر وان يمنعوه عن باريز اذا قصدوا فاجابوه الى  
 ذلك فلما جهز ملك ميتر جيوشه واتى بها الى باريز لم يتأخر من اهلها  
 احد بل قاموا جميعا عليه وقتلوه حتى ارتد بجيوشه خائباً وصار مطلوباً  
 بعد ان كان طالبا وامنت باريز من ذلك الوقت من طروق  
 الحوادث ولم تمتد اليها يد عادٍ ولا عابث الى سنة ١٢١١ انما كان  
 يحصل بها احياناً بعض حوادث كقحط ووباء ومرض وغلاء ومع  
 ذلك كان اهلها يتزايدون الى ان كانت سنة ١٢٤٥ للميلاد فاغار

الجرمانيون عليها وهي اول غارة اغاروها على فرنسا فقتلوا رجالها  
 ونهبوا اموالها واستولوا على ارضها وكان ملكها وقتئذ شارل الاصغر  
 فلما عجز عن مقاومتهم ويئس من الخلاص من يدهم طلب الصلح  
 معهم فصالحوه على ان يدفع لهم ٧٠٠٠ ليرا فاعطاها لهم فاخذوها  
 ورجعوا الى بلادهم ثم بعد عشر سنين رجعوا ثانيا فاعطاهم كذلك  
 فلما علم الجرمانيون ضعف الفرنسيين وعدم مقاومتهم لم لم يقنعوا  
 بالمال بل طمعوا فيهم فصاروا ياتون كل عام لنهب اموالهم وسي  
 ذرارهم وقتل رجالهم وهدم معابدهم وهتك حرمة مقدسيهم ولكن  
 لحفاظة الفرنسيين على حرمة مقدسيهم كانوا اذا استشعروا بتقدم  
 الجرمانيين يقدمون مواراة المقدسين على محافظتهم لانفسهم وفي سنة  
 ١١٥٠ اغاروا على المدينة غارة كبيرة فدافع عنها اهلهامدة ثم حاصرها  
 الجرمانيون وضيقوا على اهلهام وقتلوا من عثروا به في ضواحيها من  
 نساء ورجال واطفال والقول رحمهم في الخنادق وطال الحصار  
 فحصل لاهل البلد ما لا مزيد عليه من الكرب لقللة الزاد وتعذر  
 وصول الميرة اليها فجاء الملك شارل ودخلها بعد محاربة جرت  
 بينه وبين الجرمانيين ولكنه رأى من الصواب ان يصطلح معهم على  
 ان يدفع لهم مبلغا فاخذوه وانصرفوا ولكن كان النهب في البلاد  
 الاخرى لم يزل واقعا واذا سالوهم عن فوائد الصلح يقولون لهم ان  
 ما اخذناه وجرى عليه الصلح انما هو عن باريز خاصة فزاد كرب  
 الاهالي من هذه الافعال الشنيعة التي هي من اثار توحشهم

وخشونتهم وقسوة قلوبهم ولما رأى اهل باريس ان ذرية مينار وهم  
 ابناء ملك مينار قد غلب الجبن على طباعهم ونزلوا في المهمة الملوكة  
 عن اوضاعهم وتغير شعارهم وكادت ان تخرب من القتل والسلب  
 ديارهم وان استمرار الجرمانيين على هذه الحال مما يزيد في امرهم  
 الاختلاف اجتمعوا امرهم على ان يجعلوا لها ملكا وان تعود باريز الى  
 ما كانت عليه من الاستقلال فولوا عليهم رجلا يسمى اود ورضوا  
 حكمه فعمل لهم قوانين مشوا عليها ثم ان الثورال الاكبر المسمى اشيل  
 وكان مقره اذ ذاك مدينة ايكس انكر على الباريزيين امراً حصل  
 منهم فخرج اليهم بجيوشه وقتل رجالهم ونهب اموالهم وتغلب على مملكة  
 باريز ولكن لم تطل مدته ولم يوجد من يقوم مقامه في مملكته من  
 ذريته واهل دولته فولوا مكانه رجلا اسمه هوج كابي فسار فيهم  
 احسن سير ودبر لهم كل ما فيه خير وجدد لهم مصانع ومعالم ظهرها  
 بها بعد خمولهم بين العالم وقويت في ايامه شوكة الدولة الفرنسية  
 وصار لها شهرة بين الامم وشهد لها جميع الدول التي حولها من  
 انكليز وعجم وجدد بها مدارس وورد اليها من اصناف التجارة ما  
 لم يرد في ايام من قبله وضم اليه من اهل المعارف من ساعده  
 وقوى في تدبير الملكة ساعده وكانت بيوتهم دوراً واحداً من  
 خشب فلما اتسعت عليهم الارزاق وانتمم التجارة من سائر الافاق  
 بنوها بانواع الاحجار وجعلوها ثلاثة ادوار الدور الاول معقود  
 كالتبة والذي فوقه مسطح ومرصص بالخرزف واللبن وفتحوا في

الثالث شبابيك ووجد بالمدينة كل ما يلزم لاهلها من سلاح وملبس وطعام وكثرت بها العارات والحوانيت في تلك الايام وثار في ايامه فتنة بينه وبين الامراء القاطنين بالارياض وكان من حزب الملك الاشراف فحسم امرها واطفأ شررها وكانت احكام الديانة في ايامه تؤخذ بالتقليد المحض والنقل المجت سواء كان المنقول صحيحاً او غير صحيح ومعقولاً او مخالفاً للعقل

واستمروا على ذلك الى ان بنى بطرس ابيار وهو احد اغنياء الامراء اذ ذاك مدرسته بجبل المتدسة ودرست فيها الفنون فانطلقت السنتم واتسعت دائرة معارفهم وكان اهل هذه المدينة في ذلك الوقت يبيعون ما كولاتهم في اماكن متعددة غير منتظمة ولم يكن بها معرض عمومي كالذي رايتيه وكانت عرضة للحوادث السماوية كالطمر والشمس الى ان كانت ايام الملك فيليب اوغست فامر بعمل سائف وعين لكل سقيفة نوعاً يباع تحتها ويستظل اهله بها وهو الذي بنى سراية اللوفر وفرش شوارع المدينة بالحجر واول من بنى خانات للفقراء وابناء السبيل وعمل اسواراً حول المقابر وتقدمت في مدته الفنون والصنائع فكانت ايامه كلها منافع لكن كانت ادارة البلاد محالة على مشائخها فظلموا اهلبا وامتدت ايديهم الى اخذ الرشوة في الحكم وكانت المناصب تباع وتشري ولا يولي فيها الا من بذل لاجلها المال او كان من اقارب شيخ البلد او اهله فحصل لاهلها من الذل والاهانة ما لم يسمع بمثله وخربت البلاد وتفرق

اهلها الى ان هلك فيليب وتملك بعده سنلويز وكان يميل لاهل  
الديانة والانصاف ويحب عمارة البلاد وينفر عن الظلم واهله فنشر  
علمهم الوية عدله وامر بابطال ما فيه شائبة ظلم من اصله ورتب  
للمأموري الاحكام مرتبات من طرف الدولة وانتخب من اهل كل  
بلد رجلا معروفاً بالصادقة وواه عليها فعمرت البلاد وتراجع اهلها  
وزادت عدتهم ورجحت في ايامه تجارتهم وعمل قوانين ونشرها في  
مملكته فيها بيان ما يجب على المحترفين في حرفتهم جزاء ارباب  
الجنائيات ومن احكامها ان يكون اداني الناس واسافلهم في جهة  
مخصوصة وقد كانوا منتشرين في البلد لا يميزون الشرف من  
الوضيع ولا الدعي من ذي النسب الرفيع ورتب مجلساً للنظر في  
تتظيم البلد وجعل على ارباب الحرف اموالاً تصرف في ذلك  
وقدر للباريزيين اوقاتهم بضرب الدفوف فكانت تضرب وقت  
الفجر لا يقاضهم من نومهم ووقت الزوال لغذائهم واستراحتهم من  
اعمالهم وجعل في الكنائس نواقيس تضرب وقت العشاء فاذا ضربت  
امتنع عليهم الخروج من منازلهم الا من كان معه اذن من ضابط  
البلد او شيخها ووضع على ابواب الدروب سلاسل باقفال فكانوا  
اذا جاء الليل قفلوها فلا تفتح الى طلوع الفجر ورتب على ارباب  
الصنائع خفراً يدور بالليل حول البلد وداخلها وعلمهم مفتشون  
فاذا حدث امر كتبوه وعرضوه على الملك والمأمورين واصدر امره  
ان لا يعانى من الخروج الى الخفر الا ارباب الديانة وذووا



العاهات والزمانه وطائفة المعمار والضربخانه وروساء الحرف وجعل  
على كل من لزمه الحفر ولم يخرج له مائة وخمسين فرنكاً في كل  
سنة إلا أن بعض الناس كان يجني بيع بعض الامراء فيتخلص بهم  
من اداء ما يجب عليه وربما وزعوها على غيرهم فاشتكت الفقراء  
ذلك اليه فصرفها عنهم والزم بها اهل الحرف خاصة وقتئذٍ وكان  
عدد اهالي باريز ٢١٥٨٦١ نفساً وعدد كنائسها ٣٦ لكن لم يبقَ  
الان منها واحدة على حالها بل منها ما هدم وبني ثانياً ومنها ما  
ازيل بالكلية وفي زمن فيليب اشتدت رغبة الناس في سكنى باريز  
فاشترط انه اذا اراد احد درج اسمه ضمن عدادها لا يجاب الى  
ذلك إلا اذا توجه الى شيخ البلد واشترى قطعة من ارضها وان  
يتم بناءها في سنة وان لا يتقص قيمته عن ثلاثمائة فرنك ويشهد  
عليه بذلك شاهدين ويشترط عليه ايضاً ان يحضر اوقات الاجتماع  
كالمواسم والاعياد ومن ذلك الوقت صار اهله درجات  
الاولى اهل الديانة وهي التي لها الكلمة على اهل الملة ورئيسهم

منهم

الثانية الامراء ووجوه الناس والاغنياء

الثالثة اصحاب الاملاك والمتوسطون من الاغنياء ورئيس

هاتين الدرجتين الملك

الرابعة الاغراب

الخامسة رعاة الناس واحادهم ودرجة هاتين الطائفتين

كدرجة الأرقاء فلا يخرجون من يد الأتق وعملوا في أخرى وحدث في ذلك العهد شقاق بين الملك والبابا في شان ارض فرنسا لان البابا كان يقول ان جميعها من حقوق الكنيسة والملك يمنع ذلك فاجتمع ارباب الحكومة واجمعوا على حسم هذه المادة واتفقوا على عقد مجلس مشتمل على ثلاثة عشر من الاشراف ومثلهم من رؤساء الديانة ومثلهم من اعضاء مجلس المدينة وسماوا ذلك المجلس مجلس النواب لان كل صنف من رجاله نائب عن طائفة وعينوا لهم موضعاً يجتمعون فيه ووضعوا على بابه صورة اسد رافع راسه الى اعلى وباسط ذراعيه اشارة الى انه يلزم كل من يريد الدخول في هذا المكان الاذعان للحق كيف كان وكان عقد هذا المجلس في سنة ١٢٠٢ والذي انخط عليه رأهم هو ان الارض وما عليها لله سبحانه وتعالى وان الخليفة عنه فيها ملكها وان لا حق للبابا فيما يدعيه فلما اعلنوا ذلك كثرت المنازعات الدينية واختل امر الحكومة ودخل بين رجالها الغش والنقص فيما يتعاملون به من النقود حتى ضجر الاهالي وشكوا فلم يسمع منهم فقاموا على رجال الحكومة ووقع بين الطائفتين قتال شديد مات فيه كثير منها واسرت العساكر بعض الاهالي وقبضوا على نحو عشرين رجلا منها وقتلواهم وصلبوا على ابواب المدينة وكان في هذه المدة ضربت نقود جديدة فامر بابطالها والمعاملة بالتقدمة فتوقف الباعة وارباب العقارات في اخذها وحصل بين الناس ورجال المملكة مثل ما حصل

اولاً وكثرت الجرائم وتفتحت ابواب المظالم وغلت القنود غلواً لا  
 يطاق وضجت الخلق واشتد الامر واتقد في قلوبهم الجهر لاسباب  
 اعظيها الانكباب على الترفه والزهو والاكثر من اللعب واللهو  
 حتى قامت الاهالي على الحكومة سنة ١٢١٢ من الميلاد فرفعت  
 عنهم المظالم فلم يكفهم ذلك بل طلبوا اخراج اليهود من المدينة  
 لانهم السبب في فقرهم وذهاب اموالهم فلم تتمكن الحكومة من ذلك  
 فقاموا جميعاً دفعة واحدة على بيوت الصيرافة واليهود ونهبوها  
 وقتلوا من وجدوه فيها وحرقوا دفاترهم وصاروا يتبعون اثر اليهود  
 فلم ينج منهم الا من الحق نفسه بالعسكرية او آوى الى ركن شديد  
 وبعد ان اخمدت نار هذه الفتنة عمل الملك لولده فرحاً زينت له  
 المدينة واوقدت الشوارع بالشموع وفرشت الطرق وساق اهل  
 المدينة الى الملك هدايا جسيمة واوقدت الشموع نهراً في محلات  
 الولاية وكانت براميل الشراب على عربات والناس يشربونه من  
 حنفيات ومكث الفرح كذلك اياماً وبعد انتهائه امر بموكب ضرب  
 لاجله من النواقيس ثلاثون الفاً حتى تعجب الناس من وجود هذا  
 القدر في مدينة واحدة وفي سنة الف وثلاثمائة واربعة عشرة  
 اتهمت الملكة واختها وامراً معها بالزنا فحكم على الملكة بالحبس  
 سبع سنين وقتل الاخرين وكذلك ادعي على كثيرين بان لهم  
 دخلاً في هذا الامر فقتلوا جميعاً ولم يكن اشد على الامراء والاهالي  
 من ايام فيليب السادس لانه من حين جلوسه على التخت انفتح

عليهم من المصائب ابواب وضائق عليهم الرحاب فمن قسوته وعنفة قتلته للامراء والاعيان سنة ١٢٤٢ واعقب ذلك وباء عظيم مات فيه اكثر اهل المدينة فلما اتت سنة ١٢٥٠ الزم اهل المدينة باموال حسية ليستعين بها في حرب الانكليز فادوها اليه بالرغم ولما خرج لحرب الانكليز لم ينجح له سعي بل غلب واسر كما هو شان مثله من اهل البغي فولي الحكم من بعده ولي عهده فكان اقبح منه سيرا واعظم ضرراً وشرّاً ووقع بينه وبين اهل المدينة اخلاف في الاراء فقدمت اليه صكوك من جميع الامراء يرجون فيها رفع المظالم وكل مستخدم في وظيفته لا يليق بها فلم يلتفت الى ما قالوه بل جمعهم وتلا عليهم مقالة تمّتها على حسب عقله فلم يقبلوا شيئاً منها وقاموا جميعاً الى بيوت الامراء ونهبوها وقتلوا من وجدوه منهم وكذلك فعلوا باتباعهم وكل من ينسب اليهم فعظم الخطب واشتد على ولي العهد وحاشيته الكرب فكان تارة يلين جانبه ان راي حزبه مغلوباً وتارة يرجع الى طبعه وعادته ان رآه غالباً ولم يزل الخلاف بينهم وبين اهل البلد يزداد لا الاهاالي تمتثل لحكمه ولا هو يتقاد لرايهم ولما لم يدرك منهم ارباً فرّ هو ومن تبعه هرباً وكان راس العصبة التي قامت عليه شيخ المدينة فقال في نفسه اني لا يسعني الا الصلح مع ولي العهد والانتماء اليه وارسل له سرّاً يعده بفتح باب من ابواب المدينة ليدخل منه هو ومن معه وعين له الباب والليله والساعة فلما وصل الرسول الى ولي العهد واخبره بذلك صدقه وجاءه بن

معه في الوقت الذي عين له فلما احس شيخ البلد بغيثته امر رئيس  
 الحرس أن يفتح الباب فامتنع وقال له انت تريد خيانة الاهالي  
 فاغلاظ شيخ البلد عليه في الكلام فضربه ببلطة كانت بيده فخر ميتاً  
 وشاع الخبر في المدينة بان شيخها كان مقصوده الخيانة فكانوا لا  
 يرون احداً من اصحابه الا قتلوه فقامت البلدة على ساق وتعطلت  
 فيها الاسواق ودخل الناس بيوت الاغنياء فتهبوا ما فيها ولولان  
 ادركهم اهل المجلس هللك الاغنياء جميعاً وبقيت باريز محاصرة تدافع  
 ولي العهد الى ان دخلها عنوة لكنه لأن لم بعد ذلك جانبه وعاملهم  
 بالانصاف وتبع اهل التعصب فقتلهم واعطى بعض اهل المدينة  
 علامات شرف واحتمهم بالديوان وانشأ بالمدينة مباني فاخرة  
 ورخص لشيخ البلد وارباب المجلس في الحضور الى مجلس النواب  
 لسماع ما يتعلق باستحقاق ولي العهد للملك اذ بلغ عمره اربع عشرة  
 سنة وكان رشيداً ولما اتسعت التجارة وكثراهل المدينة امر بتوسيع  
 الدروب وكان الناس يصورون منازلهم بصور حيوانات ويكتبون  
 على ابوابهم بعض كلمات وكثر في ايامه اللعب بالنرد والكرة  
 والمنقلة وسائر الملاهي ما عدا الورق فانه لم يظهر حين ذاك فكانوا  
 يصرفون في ذلك دراهم كثيرة فامر بابطال ذلك كله وقال انها  
 تفسد الاخلاق وتضيق الارزاق ورخص في اللعب بكل ما فيه  
 صحة للجسم وفائدة ولما مات حل بالاهاالي ما ساءهم لان جميع ما  
 كان مدخراً في خزائنه ما كان حصله ايام ظلمه وعدوانه واسائه

وطغيانه لم يف بمصروف ولده الذي خلفه في الملك وهو شارل السادس الذي استولى بعده لانه كان مكبا على السكر وانواع الملاهي في جميع اوقاته صارفاً ليله ونهاره في لذاته لا يخلو مجلسه من الرقص والغناء والانت الطرب ولا يلتفت الى الحكومة وبالجملة كانت اوصافه كلها مذمومة وكان قائماً حينئذ بتدبير الملكة وكان امر الملكة في ايامه بيد امرائها فمدوا ايديهم الى واردات الحكومة وتصرفوا فيها بما يعود على الناس بالضرر وكثرت المظالم وزادت الجرائم وعلا من الاهالي الخيب واستغاثوا فلم يجدوا من يجيب فلما رأوا انهم لم يسمع لهم شكاية قاموا على الملك ورفعوا ألوية العصيان ودخلوا بيوت اليهود فنهبوها فلما رأى الملك منهم ذلك عاملهم بالحلم ورفع عنهم الظلم حتى خمدت نيران فتنتهم وهمدت شوكة صولتهم ثم رجع الى سيره الاول وعاد ظلمه الى ما كان فقاموا ثانياً فقبضت الحكومة على بعضهم فسجنوا اياماً ثم وضعوا في غرائر واخرجوا ليلاً ورعي بهم في نهر السين والزمت الاهالي بغرامة باهظة فازدادوا ضنكاً على ضنك وكان لهذا الملك افعال لا تليق بالملوك بل لا يقبلها على نفسه صعولك منها انه لم يتنع بسراريه وحسان جواربه بل تهتك وعريد وثبع لنساء البلد فما اعجبه منهن حازه ولم يقتصر على ذلك بل كان يطوف البلاد وكلها حل ببلدة فعل بها مثل ذلك حتى اخنل عقله وجفاه رجاله فخللا الجوز ووجنه واتحدت مع النساء اللاتي كن في حوزته وخرجت عن حدها وارنكت ما

اوجب هنك عرضها ومكنت الامراء من اغراضهم فساروا في المملكة  
 اقبج سير لا يصدر عنهم الا ما يعود على الرعية بالخير وتقاسموا  
 ايراد الحكومة قسمة الغنائم ولم يولوا فيها الا من كان معينا لهم على  
 المغارم والمظالم وتطلعت اعين بعض عائلة الملك للملكة وتطلع  
 لها اخرون كل ذلك والملك في مرض الجنون فكان اذا افاق  
 وبلغه شي من هذه الامور ندم على ما فعل وربما بكى بكاء الاطفال  
 فلما اشتد ضرر الاهالي اجمعوا رايمهم على ان يولوا رجلا منهم وعينوه  
 ثم قاموا على محل الملك فوجدوه جالسا مع زوجته واخيها وبعض  
 الامراء المتحدين معها وطلبوا ان يسلموهم زوجة الملك وخمسين رجلا  
 عينوا اسماءم ليقصوا منهم فطلبت زوجة الملك مهلة ثمانية ايام فلم  
 يجيها احد منهم فلما لم يجد اخوها حيلة غير التسليم قام وسلم نفسه  
 لهم فغضبت اخنه مما فعل ثم هلكت بعد ايام قليلة ثم انهم تحصلوا  
 بعد ذلك على امر من الملك برفع عوائد الاملاك وما كان عليهم  
 من المغارم وكانت السنة الثالثة عشرة بعد الاربعائة والالف ايام  
 شارل السادس مشتملة على حوادث فظيعة من قتل ونهب وافعال  
 شنيعة ومات في ذلك عريف البلد فنصب بدله الكونت بيديار  
 واحيل عليه نظارة المالية فسلك طريق الظلم واكثر من الجرائم  
 وضاعف على الناس المغارم حتى ضاق بهم الحال وحل بهم  
 الويل فاضمروا قتله فلما بلغه ما اضمروه قبض على كثير منهم فمهم  
 من صلبه ومنهم من احرقه ومنهم من قطع راسه ومنهم من اغرقه

فاخذ الكرب عند ذلك نهايته واشتد البلاء بالناس فعول كثير  
 منهم على ان يكونوا من حزب الدوك دوبرجونيا فانضموا اليه  
 وصارت البلد فرقتين فقامت كل فرقة على الاخرى فمن وجدوه  
 ليس منهم قتلوه ثم حضر الدوك دوبرجونيا بعسكره فقابله الحزب  
 الذي كان التجاء به وذهبوا جميعا الى منزل عريف البلد فقتلوه  
 مع جميع قرابته وحزبه واحبته وقطعوهم قطعاً ورموا بهم في  
 الدروب فكانت تحوم عليهم الطير وتعبث بهم النساء والصبيان  
 ويلعنهم اللاعنون على سوء سيرتهم فاستقامت احوال البلد بعد  
 ذلك وافاق اهلهام مدة غير طويلة ثم عاد عليهم الجور والذل بما  
 نعص عيشهم وازعج نفوسهم حتى كادوا يهاجرون من وطنهم  
 خصوصاً وقد كتب ولي العهد في ذلك الوقت الى ملك الانكليز  
 يعزم عليه ان يجيء باريس ليفوض زمام المملكة اليه فلما اتى اليهم  
 عملوا له يوم قدومه مهرجاناً عظيماً زينوا فيه البلد واخترعوا لعبة  
 لم تكن معروفة قبل ذلك وذلك انهم اتوا بخشبة اطول ما يكون  
 وطلوها بالدهن والصابون حتى صارت ملساء وجعلوا في احد  
 طرفيها مبلغاً من النقود مع بعض طير غالي القيمة حسن المنظر ثم  
 رفعوها واباحوا ذلك جميعه لكل من وصل اليه فاستمر الناس  
 يوماً كاملاً يعانون صعود تلك الخشبة واحداً بعد واحد لاخذ  
 ما عليها فلم يصل اليه الا واحد اخذه ونزل به ومن ذلك الوقت  
 صار الباريزيون تحت حكم الانكليز فلم يخرجوا عن حكمهم الا على



يد جان دارك المعروفة بالبكر وكانت اميرة على جيش فما خرجت  
في حرب الاّ عادت منصوره مظفرة فبي التي اخرجت الانكليز  
واجلست شارل السابع على التخت وذلك سنة ١٤٤٦ من الميلاد  
فسار فيهم سيراً حسناً الى ان أمن شرهم وتمكن منهم ثم بغى عليهم  
واصدر اوامر ظلمه اليهم فالزمهم باموال يؤدونها اليه لا يستثنى منها  
احد وجعلهم ثلاث درج

الدرجة الاولى من اربعة الاف فرنك الى الف وخمسة

والثانية من ستمائة الى مائة وخمسين

والثالثة من عشرين الى عشرة

ولم يقتصر على ذلك بل طمع نظره الى ما في الكنائس من القود

والحلي فاخذه جميعه وصرفه في لذاته وقضاء اوطاره الفاسدة

وبسبب انكبابه على حظوظ نفسه وغفلته عن تدبير امر

الحكومة امتدت ايدي عساكر الانكليز الى البلاد فوقعت بينهم

حروب تعطلت بسببها المزارع وكثر عندهم القحط والوباء فكان

من مات من المدينة خمسة واربعين الفا وخرب من البلاد ما لا

يعد ولا يحصى ومع هذا كله لم يتحول الملك عن سبيء حاله بل

ازداد سفهاً وترك المملكة للمتصرفين فيها بالفساد

وبالجملة لو اردت حصر احوال هذه الاهوال وما لحق المدينة

واهلها من الاضغلال لطال الشرح واتسع مجال المقال ولم يزالوا

كذلك الى ان هلك الملك فملك بعده لويز الحادي عشر سنة

١٤٦١ فزيت له المدينة وعملت اللوائم وفرح الباريزيون به فرحا شديدا وعملوا له موكبا لم يعمل مثله لمن قبله من الملوك فكان مما ابتدعوه في ذلك الموكب ان صوروا رجلا امام الملك على صدره صورة مركب من فضة يعنون بذلك باريزو خلف ذلك الرجل خمس نساء هدية للملك على صدر كل واحدة منهن حرف من حروف باريزو وضعوا على الباب الذي دخل منه الموكب مركبا فيها ثلاثة الوية لون كل لواء غير لون الاخر اشارة الى طوائف الملة الثلاث ورسوموا صورة الملك بين عمودين متساويين في البعد اشارة الى العدل ورسوموا امامه صورة ملكين يقودانه الى الحق ويحفظانه من كل امر ذميم وجعلوا في صدر الموكب رجالا ونساء عليهم ثياب المتوحشين كأنهم يقتتلون ومن خلفهم ثلاث بنات متجردات يغنين بالحن الآلات وخلفهن عربات عليها شي كثير من المشروبات يشرب منها كل من اراد وما كان في هذا الموكب صورة المسيح وامه وصورة روح القدس والشهوات النفسية وطائفة في هيئة الصيادين بشباكهم وكلابهم وكأنهم يعانون الصيد وقوم في هيئة الانكليز كأنهم يجاربون رجال الملك وكأن رجال الملك غلبتهم واسرتمهم وبعد ذلك كله طير مختلفة الانواع متشكلة باشكال غريبة الابداع ولم يزل الموكب سائرا امامه حتى ادخله الكنيسة على العادة ليؤدي ما يجب على امثاله من العوائد والعبادة ولم تحضر الملكة زوجته الا في سنة ١٤٦٧ وكان سيرها في البحر فلما

بلغ اهل المدينة قدومها خرج لملاقاتها الامراء والاغنياء في زوارق  
واكرموها غاية الاكرام وصنعوا معها ما لا مزيد عليه من الاحترام  
وادخلوها بموكب عظيم وعملوا لها فوق ما يليق مثلها من التعظيم  
وكانت سيرة هذا الملك جميلة وهمته عالية جليلة ومحبة الباريزيين  
له صادقة والستهم بالثناء عليه ناطقة يبذلون في رضاه انفسهم  
واموالهم ويتركون لرأيه اراهم واعمالهم ولذلك لما وقع بينه وبين ملك  
الانكليز ما وقع سنة ١٤٦٧ خرج معه منهم سبعة وثمانون الف  
مقاتل بسلاحهم ومؤنهم فلما رأى الملك منهم ما رأى شكر فضلهم  
وامر بشراب لهم سروراً بهم ومن مبتدعاته المحسنة مدرسة الطب  
التي بالمدينة فانه اول من احدثها وكذلك النور الذي بالشوارع  
حتى انه امر اصحاب البيوت والحانات ان يضع كل واحد منهم على  
باب خانه او بيته قنديلا وكان رؤوفاً بالضعفاء شديداً على الامراء  
يجلس للناس من غير حجاب ولا يمنع من الدخول اليه احد وكان  
حميد السيرة الا انه كان اذا امر بشي لا ينزل عنه وكان مولعاً بحب  
الطير والحيوانات الغريبة ومن شغفه بها كان اذا اعجبه شي منها  
كتب اسمه وخاصته والمجهة التي جلب منها والكلمة التي يحكيها  
بصوته ومع ذلك لم يغفل عن تدبير الحكومة ولم يرتكب لسببه خصلة  
مذمومة بل عافى الناس من عدة ضرائب واعان ارباب الصنائع  
فما يعود نفعه اليهم فمن ذلك ترخيصه في فتح دار الطباعة ولم تكن  
موجودة من قبل واول من فتحها باريز جماعة من الالمانيين سنة

١٤٦٦ فلما فتحت اضرت بالمخطاطين والنساخين فشكوا الى المجلس  
وساعدتهم ارباب الديانة بقولهم انها من افعال الشيطان فصدر امر  
المجلس بابطالها وضبط الكتب التي بها فلما بلغ الملك ذلك امر  
بفتحها الا ان الناس لما زالت عنهم بعدله الاكدار وامنوا مما كانوا  
يقاسونه من الظلم وظهرت عليهم الرفاهية تشبهت النساء البغايا  
بالحرائر فصرن يلبسن جميعا ملابس الاحرار ولا تعرف البرية  
منهن من الفاجرة وسكنت البغية بجوار الحرة وانتظت الصدفة  
في سلك الدرّة فلما كثرت ذلك صدر امر الحكومة ان لا يتزوّج احد  
بزوي غيره لانه كان عين لمن ما يلبسنه كالا حزمة القصب  
والفساتين ذات الذيل الطويل وارسال الياقة الى خلف الظهر  
وكان يكثر من ذم الامراء والاعيان الذين يميلون الى التغالي  
بالزينة والزخرفة وكان خطيب ذات يوم يحض الناس على التباعد  
عن الزخارف التي تأبأها الديانة والمرورة فاشيع عنه انه سب الملك  
فقاموا عليه وكادوا يقتلونه فلما بلغ الملك ذلك سكن الفتنة وامر  
بابطال الخطبة وان يخرج الخطيب من البلد وينجو بنفسه وللم  
الملك ولين طبعه كانت اسافل الناس في اخر مدته يهزأون باهل  
الديانة حتى صوروا البابا والمحاريبين في الملاعب وكثر ذلك منهم  
في مدة من تولى بعده ولكن كانت الحكومة محافظة على ناموس  
الديانة فكان لا يرفع اليها احد طعنًا في الديانة الا عاقبته فمن  
ذلك ما حصل لبعض الطباعين حين تجرأ على طبع كتاب فيه

ذم الديانة فضبطت كتبه واخذ وشنق ومن ذلك انهم حين اخذوه ليشتموه صار الناس في اثناء الطريق يسبونونه ويؤذونه فقال لهم رجل ان قتله كافٍ في جزائه فضره به ضرباً مبرحاً وادعوا عليه انه نسب الى العذراء والمسيح ما لا يليق بهما فحكم عليه ايضا بالقتل والقائه في النار ومن ذلك الوقت صارت الديانة في اضطراب وادخل فيها بعض القسس اكاذيب من كل باب ونسوها الى المسيح وادعوا انها من الكتب المقدسة وتمادى بهم الحال الى ان اشتبه الصواب بالحال واقتروا ما بين مانع ومدافع ومجادل ومنازع فظهرت الديانة البروتستانية فافتتن الناس بها وكثر الراغبون فيها حتى ادعى اهلها ان ديانتهم هي ديانة المسيح ودموا الكنيسة الرومانية ورجالها وصارت كل فرقة تبيح ذم الاخرى وتدعي ان طريقها اولى بالاتباع واخرى حتى قام بعضهم على بعض ونشبت الحرب بينهم فقتل من الفريقين في ليلة واحدة زهاء الف الف وسبب هذه الفتنة ان امرأة يقال لها (ماري دوميديسي) دست على الملك ان الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الا اذا قطع البروتستانيون عن اخرهم ولم تنزل به حتى خدعته وصرفت همه الى ما اليه دغنه ثم ذهبت الى البروتستان وغرتهم حتى ادخلتهم باريزواستوطنوا بها ثم اتفقت مع ووجيزان بحصي اسماء الدوكات من دفاتر الفرقة ويعلم منازلهم بالطباشير وان يجمع الحرس ويفرق فيهم السلاح وان ينتشروا في شوارع البلد وحاراتها

وان يستعدوا لتنفيذ امر الملك بقتلهم ففعل جميع ذلك من غير ان يشعر به احد من البروتستانتين فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من شهر اغسطس الا فرنجي سنة ١٥٧٢ ارسل الدوك ووجيز الى اصحابه واتباعه فايقظهم من نومهم وجمعوا له العسكر والحرس وعرفهم بالعلامات التي جعلت على ابواب المنازل وامرهم انهم متى سمعوا ضرب الناقوس هجموا عليهم دفعة واحدة فقالوا سمعا وطاعة وانصرفوا فلما كان نصف الليل ضرب الناقوس فهجموا على بيوتهم وقتلوه عن اخرهم ومن شدة كراحتهم لم كانوا يشقون بطن المحبلى فيخرجون جنينها فامتلات من رهم الدروب واتن من رائحتها شمأل وجنوب وكان عدد من قتل من امراءهم واعيانهم خاصة في هذه الواقعة ستائة فاصبحت منازل الجميع خراباً وقام حاكم كل بلد من بلاد باريز على من ببلده من البروتستانتين ففعل بهم ما فعلت باريز بمن بها منهم واصل هذه الفتنة امرأة فانظر كيف اعتقت الخراب واليين وابدت العداوة بين الطائفتين

فقال الشيخ هكذا فن النساء فانهن يضرمن نار الشر حتى يصل لهبا الى عنان السماء فكم هن مثل ذلك وكم اوقعن رجالا في مهاوي المهالك

فمن ذلك القتال الذي استمر بين بكر وتغلب اربعين عاماً حتى ضرب به المثل في الشر وليس سببه الا امرأة تسمى هيلة ويقال لها البسوس وهي خالة جساس ابن مرة وكان لها ناقة

يقال لها سراب وكان من عادة كليب ان يحمي اوديته فلا يرعى  
فيها غير ابله حتى انه كان يحمي مواقع السحاب ويقول وحش  
كذا في جوارى فلا يهاج فمريوماً برعى كان قد حماه وفيه قبرة  
قد باضت فلما رآته صرصرت وخفتت بجناحها فقال لها من  
روّعك وانت في ذمتي وانشد يقول

يا لك من قبرة بمعمر

خلالك الجوفبيضي واصفري

وتقري ما شئت ان تقري

فما جسر صاحب بعير ان يدخل ذلك المرعى فانفق ان مرت  
ابل كليب على ناقة البسوس فعركت الناقة عقلاها حتى قطعته  
وتبعته ابله فلما وردت الماء مع ابل كليب عرفها وظن ان جساساً  
اطلقها مغايضة له فانف وغضب ورمها بسهم فاصاب ضرعها  
فصارت الناقة تعدو والسهم في ضرعها حتى اتت الى فناء صاحبها  
وضرعها يشخب دمًا ولبنًا فلما سمعت البسوس عجب الناقة طرحت  
خمارها واقبلت اليها فاذا السهم معترض في ضرعها فصكت وجهها  
وقالت واذلّاه فلما سمع جساس قولها اسكنها وقال والله ليقتلن  
غداً فحل هو اعظم من ناقتك يعني كليباً ثم اتبع الحي فمروا على  
نهر يقال له شبيث فنهاهم كليب عنه وقال لا تردن منه قطرة ثم  
مروا على نهر اخر يقال له الأحص فنهاهم عنه فمضوا حتى اتوا  
الذئائب ونزلوا فر جساس بكليب وهو واقف على غدبر الذئائب

منفرداً فقال طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً فقال  
كليب والله ما منعناهم من الماء الاً ونحن له شاغلون فقال له  
جساس هذا كنعلك بناقة خالتي فقال او قد ذكرتها اما اني لو  
وجدتها في غير ابلي مرة اخرى لاستحلت تلك الابل فعطف عليه  
جساس بفرسه فطعنه بالرمح فارداه ووجد الملك فقال يا جساس  
استغني فقال هيات تجاوزت الأحص وشيئاً ثم اجهز عليه  
وعطف الى اهله فلما رأته اخذه من بعد قالت لابيها ان لجساس  
شأناً قد جانا خارجة ركبناه فقال ابوها والله ما خرجت ركبناه  
الاً لامر عظيم يعني انه كان بركبته وضع لا يظهره فلما جاء قال له  
ابوه ما وراك يا بني قال طعنت طعنة لثتغلن بها شيوخ وائل  
زماً فقال أقتلت كليياً قال نعم ثم نظر جساس الى اخنه وكان  
اسمها نضلة فقال لها

واني قد جنيت عليك حرباً \* نغص الشيخ بالماء القراح  
مذكرة متى ما يصح منها \* فتى شبت لآخر غير صاح

فاجابته تطيب نفسه وقالت

وان تلك قد جنيت عليّ حرباً \* فلا واه ولا رث السلاح  
ثم هرب جساس وقام مهلهل في طلب نار اخيه ووضع  
الحرب بين الحيين فاستمرت اربعين عاماً حتى ضرب بها المثل وكم  
لذلك من امثال ونظائر واغرب منه ما كان من الزباء الى ان



وضع قصير من قتلها في الغرائر فحدثنا كيف كان حال الملكة بعد هذه المعركة

قال عم الخراب ضواحيها وسرى منها الى سائر نواحيها وصار من بقي من البروتستان يتربص فرصة للقيام واهل الديانة الاصلية تحزب احزاب الانتقام وتغريمهم بمن بقي من البروتستان وكان الرئيس على المدينة وقت ذاك الدوك ووجيز فاراد الملك هنري الثالث الاستبداد والاستقلال فتنازعا وصار الناس قسمين واريقت بينهما الدماء حتى وصل غبار الحرب عنان السماء واخذ امر الحكومة اي اختلال وتمادى الامر على هذا الحال الى ان عقد مجلس الستة عشر وانما سمي بذلك لان اعضاءه كانت اولا كذلك ثم زادوا وبلغوا اربعين فكانت امور المدينة مسندة اليهم لا يبالون بملك ولا غيره فحتمت الملك من ذلك وامر بابطال المجلس فلم يلتفتوا الى قوله ولم يعول احد من اهل المدينة على رأيه فاغلظ عليهم في ابطاله فقام عليه اهل المدينة وقتلوا معظم رجاله واما هو ففر هارباً ثم وجدوه مقتولا فدفنوا رمنه وعدوه من المقدسين

فقال الشيخ يحكى انه في زمن الملك قباد والد كسرى انوشروان حدثت فتنة من هذا القبيل وكان سببها ان ظهر في ايامه رجل زنديق يقال له مزدك فادعى النبوة وحدث مقالات في اباحة الفروج والاموال وقال ان الناس في ذلك سواء لانهم جميعاً اولاد آدم وحواء وحرمة سفك الدم واكل اللحم فاتبعه خلق

كثير فكان قباذ من تبعه فدخل مزدك عليه ذات يوم فوجد عنده زوجته أم كسرى وكانت من اجمل النساء فاعجبته فقال لقباذ اني اريد ان اتكفها فان في صلي نبياً واريد ان يكون منها فاطاعه قباذ لكونه على مقالته وعقيدته فلما هم مزدك بها دخل عليه كسرى وكان صغيراً فقبل قدميه وتضرع اليه ان لا يفعل بها فوهبها مزدك له فلما مات قباذ وقعد ابنه كسرى انوشروان على التخت مكانه جمع جميع خواصه ليعاهدهم فكان مما قاله لهم اني اشهدكم على اني لا ادع احد من المزدكية الا قتله لانهم اباحوا نساء الناس واموالهم وجعلوها مشتركة بينهم لا يختص احد بامرأة ولا مال حتى اخلط اسافل الناس بعناصر الكرماء وسهل سبيل الفواجر والفاجرات الى قضاء الشهوات واتصلت السفلة اللثام بالنساء الكرام اللآئي ما كان مثل اولئك ان ينظروا اليهن اذا رأوهن في طريق

فقال له مزدك الزنديق هذا فساد في الارض والله ولاك

اتصلح لا تفسد

فقال له انوشروان اذكريابن الحبيثة حين سألت والدي ان ياذن لك في المبيت عند امي فاذن لك فمضيت نحو حجرتها فلتقت بك وقبلت رجلك وان تنن جواربك ما زال في انفي الى الان وسالتكها فوهبتها لي قال نعم فامر به فقتل واحرقت جيفته ونودي باباحة دماء المزدكية والمناوية المحوسبة واظهر الديانة القديمة

وكتب بذلك الى عمال الولايات فقتل منهم خلق كثير وقسم  
اموالهم على الفقراء ورد الاموال التي لها اصحاب الى اصحابها والمحق  
كل مولود اخلف فيه بمن يشبهه وان كان من المزدكية جعله  
عبداً لمن حملت به منهم وامر بالنساء اللائي تبرأ منهن اهلن او  
مات من يقوم بهن فجمعن في موضع واجرى عليهن ما يلزم لهن  
وان يزوجن من مال والده وازاف البنين الذين لم يوجد لهم اب  
ولا شبيهه الى مماليكه ثم قال الشيخ فغالبا ما يحصل بين اهل  
الديانات من مثل هذه الحوادث الفظيعة سببه اكاذيب واوهام  
تلقيا اهل الباطل فيما بينهم ثم يدخلونها على العوام فاما ان يقبض  
الله لها من يدحضها والاعدت حكما من الاحكام

فلما سكت رجع الانكليزي الى بقية حديثه وقد علم رغبة  
الشيخ في سماعه فقال ثم انه بعد هذه الحادثة وموت هنري الثالث  
قام هنري الرابع وكان بروتستانيا واراد دخول المدينة فقفلت دونه  
الابواب وقالوا له لا نملك علينا الا من كان منا فحاصرها ومنع  
دخول كل ما كان يرد اليها فاشتد في المدينة الغلاء وحل باهلها  
القحط والوباء ومع هذا كانت القسس تحثهم على القتال وتحذرهم  
من التسليم له فكان بعضهم وهو في اخر رمق يأخذ سلاحه ويخرج  
مع المقاتلين ويقول ان لم يكن في ذلك صلاح في الدنيا ففيه  
حفظ للدين فلما طالت مدة المحاصرة وعجزوا عن المقاومة وخلت  
المدينة من القتل والنفير والحبة والقطير ورأوا القسس تبيع شيئا

كثيراً من الغلال ولا تُرثي لما هم فيه من القحط لم يسعهم إلا أن قاموا دفعة واحدة على بعض الديورة فوجدوا فيها شيئاً كثيراً من برٍّ وخبز وإدام ولحم قديد فاخذوه وتقايموه ثم امر المجلس بتوزيع الفقراء وذوي العاهات على الديورة كل دير بحسبه وقدّر لكل شخص شيئاً معلوماً من الخبز والادام فلما علم القسس ان لا مفر من امر المجلس صاروا يصطادون كل ما عثروا به من الحيوانات ويطبخونها لهم بدهنهم وامعائهم ويأتون مكان الخبز بعظام الموتى فيستخفونها ويلتونها بتراب وماء ويعملون منه خبزاً فلما تدامى الحصار وراوا ان حالهم آل الى الهلاك والدمار فر منهم خلق كثير وذهبوا الى الملك وطلبوا ان يأذن لهم بالخروج لاجل ان يتحصلوا على ما يقتاتون به فاذن للفقراء والعجائز والساء فخرج منهم نحو ثلاثة الاف نفس ثم امر بال منع من الخروج ثم لما رأى ان حصارهم قد طالت مدته ولم تحصل به امنيته دبر في نفسه انه لا يتمكن من المدينة واهلها ما دام على المذهب البروتستاني واهل المدينة كاثوليك وان الراعي والرعية لا يستقيمان الا اذا كانت ملتها واحدة ودعوتها متحدة ثم اخبر خواصه بذلك فقالوا الراي ما رأيت فلما علم انهم وافقوه ارسل الى المدينة يخبرهم بدخوله في دينهم وذلك سنة ١٥٩٥ ففرحوا به وفتحوا له الابواب وكانت مدة الحصار نحو خمس سنين فلورأيتهم حين دخلها لرأيت منهم شيئاً عجيباً وقد قويت منهم العزائم واكثروا لاجله الولائم ولما تملك ودخل المدينة لم يكن له غرض

سوى عمارتها وانتظام امورها فاول شي بدأ به ان عمل قوانين للعدل بين اهلها ثم اتخذ في اسباب انتعاشهم واتساع دائرة معاشهم فنظم طرقا وفتح شوارع ووسعها الا انه عانى في فتح هذه الشوارع مشقة عظيمة حتى ارضى اصحاب الاملاك لاسيما القسس منهم لانهم كانوا يتعرضون للبناءين والفعلة لعدم سابقة لمثل هذا ومع ذلك فقد تم مراده واصبحت المدينة كثيرة الميادين والشوارع خصوصا الميدان الذي هو داخل السراي المملوكية الآن ومن حبه لنظافة المدينة واهلها خص قوماً بكس قماماتها ودفع وحلها وفي ايامه وايام من بعده وهو لويز الثالث عشر كثرت العربات وترتب على ذلك كثرة العربية فكثرت حركاتهم بالليل ووقعت بينهم المنازعات حتى سرت منهم الى ابناء الامراء وسبب ذلك كله النساء فنضرو الاهالي ولم يزل الحال على هذا الى ان عمل ريشيليو قوانين العقاب فنقص بعض نقص ثم لما تغيرت احوالهم وانتقلت الى درجة الرفاهية غيروا هيئة بيوتهم فبنوها بالحجر بدل الخشب وزخرفوها بالرسوم خصوصا اعينهم واغنياؤهم ولم يزلوا في تقدم الى ان تولى لويز الرابع عشر فزادوا في الرفاهية والتهدن وفتحت في ايامه مدارس العلم واحترمت اهله وانشاء رصدخانة ومعامل لتكرير البارود وكثرت في ايامه انواع الملاهي والملاعب المسماة بالتياترات وزين اللوفر بالعمد التي حوله واحداث في المدينة ميادين للنزهة منها ميدان الكانوريل الذي عمله للوليمة سنة ١٦٦٢ وميدان فندوم

وميدان النصر وإنشأ حول المدينة أبراً غير ابوابها الاصلية منها باب النصر الذي وضع اساسه مرتان وردم باباً كان انشأه اتون وقد هدم سنة ١٧٧٧ وردم الخنادق وغرس الاشجار التي ترى الآن حول البلوار وازال تلالاً كانت تضر بصحة اهل المدينة ومن حولها وبنى محلها ابنية بديعة ورتب مصابيح في الطرق وخص رجالا لاطفاء الحريق وظهرت في مدته العربات الكبيرة المعروفة بالانبيوس ولم تكن موجودة من قبل وخصصها باماكن معينة وجعل لكل مكان اجرة معلومة ولكن لغلو اجرتها كان لا يركبها الا من لا يستطيع ركوب العربات المعتادة ومنع من ركوبها العربية ونحوهم وكانت اولا سبعمائة ثم صارت اثني عشرة ولهذا كانت قليلة الراج ثم في سنة ١٨٢٨ رخص في ركوبها لكل من اراد وفي ذلك الوقت كان مأمور الضبطية وناظر المالية واحدا فلما رأى الملك ان الواحد لا يقوم بالوظيفتين كما ينبغي امر ان يعين لكل وظيفة واحد وبسبب هذا التنظيم أمن الناس على اموالهم واهليهم واتسعت عمارة المدينة وكثر الوافدون اليها حتى بلغ عددهم في ايامه خمسمائة الف نفس وعدد الدروب خمسمائة وعدد الميادين مائة والقناطر تسعاً وعدد المنازل اثني عشر الفاً الكبير منها اربعة الاف ولكن في ايامه عزت النقود وبلغ دين الحكومة غايته لما حدثه من العارات والتنظيمات واحصي الدين بعد موته فكان ثلاثة مليارات من الافرنك فانشأ جان لاوو بنكا للمصارفة وجمع فيه

ستة ملايين من الليرات فجزأها الى الف ومائتي سهم كل سهم ستة  
 الاف وستمائة وكان من شروط ذلك البنك ان يقبل فيه بدل  
 القود اوراق حوالات فلما اخترع ذلك تعامل بها الناس غنيم  
 وفقيرهم حتى صار ملحقاً بالتجارة وهرع اليه الناس ولما اشتهر امره  
 وضع صاحب البنك في جهات امريكا عدة مساهمين ثم اجتمع  
 البنك والكومبانية وصار مالها واحداً وادارتها واحدة فبلغت قيمة  
 السهم الواحد تسعة الاف ليرا وذلك سنة ١٧٢٠ ثم في سنة ١٧٢١  
 صدرت اوامر الحكومة بنقص قيمة الاسهم تدريجياً وحدد لذلك  
 ميعاد غايته اول شهر ديسمبر من السنة المذكورة وان كل من تاخر  
 عن الميعاد المذكور تقص قيمة سهمه فتضرر من ذلك اكثر الناس  
 وفي سنة ١٧٧٠ اجتمع ناس وارادوا ان ينوروا شوارع باريز بالنزيت  
 وجعلوا على كل مصباح في السنة الواحدة ثلاثة واربعين ليرة  
 واثني عشر صولدي ليس منها ثمن العواميد التي تحمل المصابيح  
 فكانت باريز في تلك الايام على غاية في التقدم وكثر بها المؤلفون  
 ورحل اليها كثير من اهل اوروبا وخفف فيها شان العقوبات  
 فكان كل انسان يتكلم بجرته ويكتب ما شاء من احوال الخلق  
 سواء كانت خصوصية او عمومية سياسية او دينية وظهر فيها رجال  
 ذوو افكار فالفوا كتباً انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم  
 غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل وبلغ عدد منازل باريز  
 في تلك الايام خمسين الفاً منها خمسون لوكدة وعدد الدروب

ذات المصايح سبعمائة وسبعة وستين وكان بها من الكنائس  
ذات النواقيس ست واربعون ومن غيرها عشرون واحدى عشر  
تكية للفقراء ثلاث للرجال وثمان للنساء ومن الديورة مائة وثلاثة  
وثلاثون ومن المدارس عشر وكان بها تسعة وعشرون مارستاناً  
وخمسة واربعون مجرىً لخراج القاذورات وستون حنفية واثنتا  
عشر سوقاً وثلاثة ابواب يقال لكل واحد منها باب النصر وخمسة  
هياكل من التيج فان لحق باريز من القيام الاول بعض الاصحاح  
الا انها من بعده الى الآن لم تنزل آخذة في التقدم بكثرة المباني  
والمعابد الدينية والمدارس والامكنة الخيرية كالمارستانات  
واللوكاندات ومحلات اللهو واللياترات فترى كل من احب  
ان يتبع نظره جاءها او يرى ابداع مخترع قصد ارجائها فهي  
مركز اللهو والانبساط وكل بدعة في الدنيا لها بها ارتباط لانها  
قد حازت محاسن الدنيا اجمع وليس من يرى كمن يسمع وما يدل  
على انها انتقلت من حالها الاول ان مساحتها في الاصل كانت  
لا تزيد عن ستين فداناً مصرياً يحيط بها سور مبني كبناء القرى  
ثم ما زالت تسع ويكثر اهلها الى ان بلغت مساحتها خمسمائة  
فدان وذلك بعد موت فيليب دو كيش وبني حولها سور محكم في  
غاية الارتفاع وجعل فيه ابراج ومزاعل في غاية الاحكام والتحصين  
ثم بلغت في القرن الرابع عشر والخامس عشر تسعمائة فدان وفي  
ايام لويز السادس عشر وقيام الدولة الفرنسية القيام الاخير



وذلك سنة ١٧٧٢ بلغت مساحتها الفين وستائة وسبعين فداناً ثم في سنة ١٨٠٠ بلغت ستة آلاف وخمسةائة فدان وإما الآن فهي ضعف ذلك ولا يخفى على حضرتكم ان سعة المكان تابعة في الغالب لكثرة السكان فقد بلغ عددهم الآن نحو مليون ونصف بعد ان كانوا في القرن التاسع والعاشر لا يزيدون عن ٢٣٠.٠٠٠

ثم قال الانكليزي وفيما ذكرناه كفاية وان كان ما قيل بالنسبة لما يقال في حتمها قليلاً الا ان ما لا يدرك جله لا يترك كله ولكن بقي امر اريد ان اخبركم به وهو ان صاحبنا الذي كنا اجتمعنا به حين كنا بمرسيليا ارسل تذكرة يسلم فيها على حضرتكم وعلى نجلكم ويعتذر اليكم في عدم ارساله جواباً مخصوصاً لكم بان لسانه في العربية لا يفهم بما يجب لجنابكم وانه بعد يومين يكون عندنا بباريس وارسل ايضا يستفهم مني عن امر يتعلق بجنابكم كان سألتني اياه حين كنا هناك ولم اتفق معه فيه على شي وقد ارسل الآن يطلب الافادة عنه

فقال الشيخ وما هذا الامر

فقال انه كان تمنى علي ان اترجم حضرتكم في ان تعطوا لجمعية المعارف المشرقية بعض دروس من الفنون العربية وانما لم اخبركم بذلك حين كنا هناك لكونه لم يكرر علي فظننت انه نأى عنه وهذا الرجل من اعيان تلك الجمعية فها هو الآن ارسل يطلب الجواب وهو موقوف علي رأي الجناب وهؤلاء الجماعة كلهم امرء

علماء كرماء وتعرفكم بهم مما يزيد في شهرتكم ويرفع من درجتكم فضلا  
 عن الحصول على مال بوجه حلال وقد اخبرني ذلك الرجل ان  
 مرادهم ان يجعلوا لمحضرتم في كل درس خمسين فرنكا  
 ولا مشقة عليكم في ذلك فان زمن الدرس ساعة ونصف فالراي  
 عندي انه اذا اتى وخاطبكم في هذا الشأن ان لا تمتنعوا فان فيه  
 فوائد كثيرة اقلها اطلاعكم على غوامض عوائدهم التي لا تعلم الا  
 منهم خصوصا وقد قيل بارك الله في من نفع واتنفع  
 فاني الشيخ على مقصده الحسن وكان قد حان وقت الصلاة  
 فاستاذن وقام الى مصلاه فصلى ثم نام

## المسامرة الثانية والثمانون

## البالو

ولما اسفر الفجر قام وصلى ثم دخل عليه ولده فقبل يديه  
فسأله كيف كانت ليلتكم وما الذي رأتموه فيها فقال ما رأيت إلا  
نوعا من الجنون حتى تحقق عندي معنى قولهم الجنون فنون رأيت  
الشيخ هناك لا يوقر شيبته والامير لا يراعي مقامه وابته وكل انسان  
تنازل عن قدره لا تميز بين وضعهم وشريفهم ولا بين غنيمهم وفقيرهم  
ورأيت اقواما في صفات مختلفة منهم من ستر وجهه بقماش رقيق  
ومنهم من ستره بالجلد ومنهم من ستره بالورق ومنهم من صبغه  
بلون الورد ومنهم من تلثم وكان الشيب لاح بعارضيه ومنهم من  
جعل له لحية وكأنها جاوزت ثدييه ورأينا اللون اجسامهم مختلفة  
فمنهم الاسود والاحمر والابيض والاشقر وغير ذلك من الالوان التي

لا تكاد توجد في نوع من الانسان ومنهم من ستر عورته بجلد  
كالجرب ومن وضع على ظهره فروة كهيئة الاعراب وغير ذلك من  
الهيئات والصفات وسمعت هناك اصواتا مختلفة وانغاماً متنافرة غير  
مؤتلفة ولما رأيت ما هم فيه من الجنون تمنيت الرجوع ولا احضر  
هذا المحجون ولولا ان من شرط المرافقة اللين والموافقة لرجعت ولا  
كنت رايت ولا سمعت فان يعقوب حين وصلنا الى هناك قبض  
على يدي فتبعته فسار بي نحو ساعة الى ان وصلنا محل التذاكر  
فاخذ تذكرتين ودفع في كل تذكرة افرنكين ثم سرنا في متسع من  
الارض حتى وصلنا ميداناً فيه من انواع اللطائف واشكال الرسوم  
والزخارف ما لا يحصى فوجدناه ملائناً نساءً ورجالا وكهولا واطفالا  
ولاخلاف هيئاتهم لا تعلم اجناسهم وحول ذلك الميدان غرف  
كثيرة منها ما يسع واحداً ومنها ما يسع اكثر ومنها المظلم ومنها  
المضيء فقعدنا في احدها فلم يمض الا لحظات واذا بالآلات قد  
ضربت وقام غالب من بالميدان فرقص عليها فكانت تسرع تارة  
وتبطى اخرى وهم معها في البطى والسرعة فكانوا يقومون للرقص  
مثنى وفرادى الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل فيرقصون ساعة ثم  
يقعدون ليستريحوا ثم يقومون ثانياً او يقوم غيرهم ولم في رقصهم  
حالات فتارة يقومون صفيين ويسيرون خلف بعضهم الى وسط  
الميدان ثم يعود كل صف الى موضعه الذي بدا منه او يقوم  
موضع الاخر وتارة ياخذ احدها بيد الاخر ويدوران خلف بعضها

وكيفية حركتهم في حال رقصهم ان يضربوا الارض بارجلهم فتارة يضعون واحدة ويرفعون الاخرى وتارة يضعونها ويرفعونها جميعا ومن الغريب ان غالب الراقصين والراقصات من المتفرجين لا من ارباب المحل ولكل كيفية من هذه الكيفيات اسم معروف بينهم كما اخبرني يعقوب منها ما يسمى بولكا ومنها ما يسمى الكانكان ومنها ما يسمى الولس وقد اخذني يعقوب في بعض سكتات الاستراحة ودخل في مكانا داخل المكان الاول فرايت فيه قوماً اخرين منهم من يلعب القمار ومنهم من يشرب السجارة وغير ذلك والكل في هيئته المعتادة لم يغير منها شيئاً فما نظرت الى رجل منهم الا وهو يلاغيني ولا امرأة الا وهي تناغيني ففهمت من كلامهم ان مقصودهم الرقص معي او الجلوس معهم ولكون معرفتي بلغتهم لم تبلغ درجة معرفتهم بها كان يعقوب يبادر بالاجابة عني ويخبرهم اني مصري لا معرفة لي بشي من هذا الامر من اصله وان محيئي انما هو من باب قولهم العلم بالشيء خير من جهله وما رأيت هناك رجلا الا ومعه المرأة والمرأتان وتارة يكون مع المرأة الرجل والرجلان فسألت يعقوب هل بين هؤلاء النساء والرجال نسب فقال لا نسب ولا حسب وانه ربما يجتمع الرجل مع زوجته او امه او ابنته ويقطعون زمنا في هزليات وسخريات ثم يفتقرون ولا علم لاحدها بالآخر لما يحصل من التغير والتشكيل الذي رأيت وانه قد يجتمع في مثل

هذه الليالي كثير من الشبان فيصرفون فيها مبالغ جسيمة وان  
 الفاحشة بينهم ليست قاصرة على اهل المدينة لانه يحضر من الارياف  
 بعض نساء اما لتعثر لها على خدمة واما لتنظر لها صاحباً فذلك  
 يكثر الفحش والمنكر في مثل هذه المواضع من غير منكر ولا مانع هذا  
 ما كان واظن انه بعض ما حواه ذلك المكان ولا اكنم عنك ما  
 رأيت ولا ما ارى لعل ببركتكم يغفر لي ما خطه القلم وبه جرى

فقال الشيخ لولده او قد نظرت الى ذلك كله وملاّت عينيك  
 ما لم يقل احد بجله ألهذا ارسلتك او على مثله عودتك أما علمت  
 ان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه أما سمعت قوله صلى  
 الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم أنسيت  
 قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه ذي الجلال والاکرام النظر  
 سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتى ابدلته ايماناً يجد  
 حلاوته في قلبه فالتوبة استعد ولمثلها لا تعد وبينما الشيخ يعظ ولده  
 ويعنفه على ما حصل واذا بيعقوب عليهما قد دخل فقطع الشيخ  
 كلامه ووجه الخطاب الى يعقوب ولامه انما الان له الخطاب  
 ليقف على ما عنده من الجواب فقال لم يكن مقصودي من ارساله  
 معك الا لتطلع على احوال هذه المدينة واهلها لتطلع على مثل  
 هذه الامور اذ لا ضرورة الى معرفتها

فقال يعقوب يعتذر اليه ياسيدي لا تواخذني فاني اعلم يقيناً

ان حضرتكم تأنفون من حضور هذه المواضع ولكن عذري ما علمته  
 فيكم من الرغبة في الوقوف على عوائد هذه البلاد واهلها فذهبت  
 به اليها لتقفوا به على معرفة هذه العادة ولو كنت اعلم ان ذلك  
 يخل بحسن التربية ما ذهبت به والذي اخبركم به نجلكم وان كان  
 منافيا للوقار والكمال الاّ انه مألوف لهم مرغوب فيه عندهم فان لهم  
 بالبالو والرقص شغفا زائدا حتى ان الامراء والملوك لتفعله في  
 بيوتهم ويدعون اليه احبابهم من نساء ورجال  
 واما الاماكن المعدة له كالذي كنا به الليلة فلا يذهب اليها  
 الاّ فقراء الناس وغرباؤهم

ومن عوائدهم ان كل من دعي الى البالو ولو كان دني  
 المحرفة لا يذهب الاّ في ثياب غالية القيمة زائدة الكلفة وانهم  
 يعتنون بشان نساءهم اكثر من اعنائهم بانفسهم حتى ان الرجل  
 منهم ليرغب في ان تكون امرأته او بنته هي المنظور اليها دون من  
 عداها فتحدهم بياغون في حلية نساءهم ويصرفون فيها اكثر مما  
 يصرفونه على انفسهم حتى لو اعسر الرجل لا تلمس له امرأته عذرا  
 بل تضايقه حتى يأتي لها بما تنزين به جبراً وقهراً ومن عوائدهم ان  
 لكل وقت عندهم هيئة مخصوصة لا يتعدها ولا يلبس فيه ما عداها  
 وان نساءهم هن اللاتي بيدهن الحل والربط داخلا وخارجا فلا  
 يتصرف الرجل منهم في شي الاّ باذن امرأته

فقال الشيخ لعربي ما في هذا كله شي يمدح بل لا ثمرة له الآ  
 الشقاق وفساد الاخلاق فان المرأة بالنسبة للرجل كالنار بالنسبة  
 للمحطب فكما يترتب علي اجتماع المحطب والنار الالتهاب والانتقاد  
 كذلك يحصل من اجتماع الرجل بالمرأة وقوع كليهما في كثير من  
 انواع الفساد ولولا تمكن هذه العوائد منهم وتوارثهم لها عن متقدميهم  
 لما الفوها ولا شكروها ولكن العادة محكمة





## المسامرة الثالثة والثمانون

اهرام مصر

والفقايس

ثم قام الشيخ واخذ ولده ويعقوب وتوجهوا الى محل الانكليزي  
فسلموا عليه ثم خرج ابن الشيخ مع يعقوب وبقي الشيخ والانكليزي  
يتجادبان اطراف الحديث من القديم والحديث وبينما هما كذلك  
واذا برجل من اصحاب الانكليزي فقام له واجلسه بجوار الشيخ ثم  
اخذ يعرف الشيخ باحواله وكثرة سياحته وان له معرفة تامة باللغة  
الفارسية والتركية والعربية وعليه في مدرسة الجمعية المشرقية  
دروس يلقيها بهذه اللغات فلما سمع الشيخ ذلك عظم الرجل في  
عينه وقال الان تم الارب حيث ظفرت في هذه البلاد برجل  
يعرف لغة العرب فلعلي اكتب من معلوماته فوائد تحل من

سياحتي محل واسطة العقد من الفرائد اذ لذة مجالسة العلماء فوق  
لذة الظمان بشرب الماء

ثم قال الرجل للشيخ ايها الاستاذ ان طبعنا يميل كل الميل  
لمعرفة اخبار بلاد المشرق وقلوبنا محبولة على حب اهلها لاسيما  
المصريين فان جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة  
الرومانين وغيرهم والتقدم الذي تفخر به بلادنا منشأ مصر فلها  
علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة فكما نحن فيه من التقدم  
والثروة سببه المصريون فيا لم من قوم ادخروا ذخائر انتفع بها  
بعدهم الاواخرفانهم قد وضعوا اساسات انبنى عليها لمن بعدهم  
هذه التقدّمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها وهذه  
الصنائع الفاخرة كان لهم فيها اليد الطولى على اهل القرون الاولى  
وما بقي بعدهم من الاثار والمآثور عنهم في كتب الاخبار من الابنية  
المجلىة والصنائع الجميلة يعرب عن مزيد قدرتهم وشدة مهارتهم  
وعلو افكارهم

فقال الشيخ ما ذكرته لمصر من المحاسن بهذا الاسلوب من  
باب نظر المحب للمحبوب كما قال الشاعر  
وعين الرضا عن كل عيب كليله

كما ان عين السخط تبدي المساويا

فقال الرجل ايها الاستاذ وحق من جعلك للعلوم كهفا  
وحباك كمالا ولطفا انه لولا المصريون لكننا الى الان غرقى في

بجار الجهل حائرين في اودية الضلال لا نعرف كيف التمتع بلذات  
 الدنيا التي اعدّها الله لنا سبحانه فوحقك اني منذ ازمان احب ان  
 اسافر لتلك البلدان وادور في نواحيها واطلع على ما فيها من عجائب  
 الآثار التي لا نظير لها في قطر من الاقطار ولكن يحول بيني وبين  
 ذلك خطوب الزمان وصروف المحدثان ومع ذلك فاني عازم على  
 السفر في هذا العام ولعلنا نجتمع معا على شاطئ بحر النيل

نعم ان السياحين ما تركوا خبراً الا ذكروه ولا اثرّاً الا نقلوه على  
 حسب ما شاهدوه ولكن ليس الخبر كالعيان وفي هذه المدة سهل  
 السفر في البر والبحر بواسطة آلات البخار فانها تقطع بعيد المسافات  
 في اقرب الاوقات فحفت مشقة السفر وصار الامن عاماً وامتنع ما  
 كان يخشى في الاسفار من الغوائل

فاجابه الشيخ بالبشر واظهار المسرة والشكر والارتياح للقاءه في

مصر

فشكر الرجل الاستاذ ثم قال له هل بمصر الان ما يسهل  
 الامر على السياحين من بيوت معدة لاقامتهم ووابورات برية  
 وبحرية تسهل امر الذهاب والاياب وغير ذلك مما يلزم ايام  
 السفر

فقال الانكليزي الان لا فرق بين القاهرة ومدن اوروبا  
 فان فيها لوكدات مختلفة الانواع وفي نيلها ووابورات مختلفة القوى  
 تسير على راحة السياحين وتذهب بهم حيث شاءوا فضلا عن

السفن الشراعية المزخرفة باحسن الزخارف المستكملة الآلات  
والادوات فتجد السائح يخنار احدى السفن ويركبها مع من احب  
او بمفرده ولا يزيد عليه المصروف عن مائتي جنيه مدة شهري  
السياحة اللذين يقضي بعضهما في الاقامة بمصر وضواحيها وبعضها  
السياحة جهة صعيدها ما بين اكل وشرب واجرة اماكن وسفن  
ورجال وغير ذلك

وان من الله سبحانه عليّ وكنت بمصر ذاك الوقت لازمتكم  
وكنت لكم الدليل لاني وان سبق لي رؤية كثير من بقاعها  
واطلعت على جميع الاثار الموجودة بها لكن اود ان اراها مرة ثانية  
فانه كلما تكرر نظرك اليها ازددت علما جديداً واطن ان كل  
جيل يأتي لا بد ان يرى غير ما رايناه ويعلم غير ما علمناه فانظر الى  
اهرامها وعظيم بانيها حيث وصفه كل انسان من بعد امعان النظر  
اليه كل الامعان جيلا بعد جيل ومع ذلك فكل وصفه بغير ما  
وصفه به الاخر من الكيفيات مع ان كلاً ما ذكر الا ما رأى فتجد  
البعض وصف شكله واصله وسبب منشئه والغرض منه ولم  
يوافقه من اتى بعده فبعضهم قال انه مدفن لاحد الفراعنة وبعضهم  
قال انه كان محلا يرصدون فيه النجوم ومنهم من قال انه من الاثار  
الجليلة التي جعلها المصريون محلا لمعارفهم واثرا يستدل به من اتى  
بعدهم من الامم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار  
فهو اثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم

الهندسية وعلم جر الاثقال وفنون انواع العمارة ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه زواياه على انه اثر فلكي وبه معبد للديانة واذا حسب ما في اجزائه من النسب الصحيحة بالنسبة لبعضها وبالنسبة للدرجة الارضية دل على انه اثر لبقاء وحدة الابنية الطويلة والسطحية وقد شرح ذلك بعض علماء الفرنساويين في مجلد ضخ فقال الشيخ رأيت في كتب العربية انه تربة وان به دهايز في اسفله واماكن لا يعلم ما بها

وذكر بعض الناس ان به اموالا وذخائر وقد ظن المأمون الخليفة العباسي ان به اموالا عظيمة ففتح الهرم الكبير وصرف في ذلك مالا عظيماً فلما لم يقدر على هدمه نأى عنه وقيل انه وجد بقدر ما صرف في الهدم

ثم بعد محادثات من هذا القبيل استأذن الضيف للقيام ودعا الشيخ والانكليزي الى منزله في الليلة المستقبلة فاجاباه ووعده بالحضور ثم بعد ذهابه ببرهة قال الانكليزي للشيخ يا حضرة الاستاذ ان جميع المؤرخين قاطعون بان قدماء المصريين بلغوا من العلم والحكمة درجة لم يبلغها غيرهم وشهد لهم جميع الملل قديماً وحديثاً بكمال العقل فبهذا لا يسلم العقل ان هؤلاء الحكماء العلماء العقلاء بنوا هذه الاهرام ترابا ليس غير بل لا بد لهم من مقاصد جلية في وضعها على هذه الكيفية

فقال الشيخ نعم ولا مانع ايضاً من ان يكون بناؤها على يد

ملوك متعددة ولا بد من احتياجها الى عمال لا تحصر وتجهيزات  
 جسيمة اقتضاها صنع هذا الاثر قبل الشروع فيه بزمان طويل  
 قال الانكليزي فحيث لا مانع من ان يكون لهم غرض اصلي  
 كان هو الباعث لهم على بنائها ولكن بسبب قدم هذا الاثر وسكوت  
 من مضى من المؤرخين عن ذكر ماله من صحيح الخبر لم يقف احد  
 على حقيقته بل ذهب كل فيه الى ما ذهب وتوعدت الاوصاف  
 وكثرت الاقوال

فقال الشيخ وما الذي ترضيه من تلك الاقوال  
 فقال الذي اراه هو ما قاله احد العلماء الفرنسيين من ان  
 الغرض منه الاشارة الى ما عندهم من العلوم والمعارف بوجه موجز  
 وطريق معجز

فقال الشيخ وكيف ذلك فقال وجد ان طول ضلع القاعدة  
 المربعة للهرم ٩٠٢، ٢٣٠ م وان الارتفاع لكل من اسطحنه ٧٢٢، ١٨٤ م  
 وان الفرق بين هذين الخطين ٤٦، ١٨٠ م وهذا القدر ربع مقدار  
 ارتفاع كل من اسطحة الهرم وهو مساو لضلع الفدان المصري القديم  
 المعروف بالاورور الذي ذكر هيرودوط وغيره ان مربع قاعدته  
 مائة ذراع ولربما كان هو الجريب المعروف عندهم فعلى هذا يكون  
 بين قاعدة الهرم وبين ارتفاع الوجه نسبة صحيحة كالنسبة بين  
 عددي خمسة واربعة وكذلك لو قارنا مقادير جميع اجزاء الهرم  
 بالارتفاع المذكور لوجدنا انها منسوبة اليه نسبة صحيحة من غير

كسر فنرى ان ارتفاع باب الدخول للهرم ١٥١٤ م وهو عبارة عن جزء من اثني عشر جزءاً من الارتفاع الكلي للهرم وان مدرج المدخل من ابتداء الارض الافقية الى اول المدرج الصاعد طوله ٢٣ متراً وهو عبارة عن عشر طول القاعدة وثلث مقدار الارتفاع وبهذه المقارنة نجد ان جميع الاجزاء منسوبة الى القاعدة او الارتفاع نسبة صحيحة ولو قسمت خمسمائة قسم لوجدت كل قسم منها ٤٦٢ م وهو طول الذراع المصري القديم ومنه تبع القدم المصري ولو قسم هذا الطول الى ستين قسماً لكان القسم الواحد ٢١٥ م وهذا الطول القصبة التي كانت مستعملة في قياس الارض عند دخول الفرنسيين الى مصر وقبلهم كان ضلع الفدان بها عشرين قصبة والذي يستفاد من قول الخزاعي ان الذراع كان طوله في الزمن السابق اربعة وعشرين قيراطاً في جهات الصعيد وفي وقته صار ثمانية وعشرين قيراطاً وحيث كان مقياس الروضة موجوداً في وقته فبالضرورة يمكن استخراج مقدار الذراع القديم منه وحيث كان القياس الاخير ٥٣٩ م فيكون مقدار القديم  $\frac{24}{28}$  يعني انه ٤٦٢ م مثل ما وجدناه في الهرم وكان يستعمل اولاً في قياس زيادة ماء النيل ثم زيد فيه اربعة قراريط

وان قسمت القاعدة الى اربعمائة قسم كان طول القسم ٥٧٧٥ م وهو طول الذراع البلدي ومن هنا يعلم بالبدهة ان الذراع البلدي المنسوب للبلد والقصبة المستعملة في قياس الارض

منسوبان لضلع الهرم نسبة صحيحة وكما ان الفرق بين طول القاعدة والارتفاع بقدر ربع الارتفاع كذلك الفرق بين الذراع المصري القديم والذراع البلدي بقدر ربع الذراع المصري القديم لانه باضافة ربع عدد ٤٦٢ م عليه يحصل ٥٧٧٥ م وكانت القصة موجودة قديما ويستدل على وجودها بما ورد عن قدماء المؤرخين ان قدر طولها ٢٠٨ م فلو اضيف اليها ربعها كان الذي ينتج ٢٦٨٥ م وهو قدر القصة التي كانت مستعملة الى دخول الفرنسية مصر وعلى هذا فالفرق الذي بين الذراعين وبين القصبتين هو عين الحاصل بين القاعدة والارتفاع للهرم وضلع الهرم ستون قصة بالقصة الجديدة لزيادتها على القديمة بقدر ربعها وضلع القاعدة يزيد عن الارتفاع بقدر الربع وعلى ما نقل عن المؤرخين ان الاستادة ستون قصة تكون الاستادة هي ارتفاع الهرم فيعلم مما سبق ان الهرم اثر للاقيسة يستدل منه على وحدة المقاييس المستعملة في المساحة الزراعية وغيرها واتجاه زواياه مع الضبط المحكم للنقط الاربع الاصلية يدل على انه اثر فلكي

وايضاً مقدار الدرجة الارضية للعرض المتوسط لمصر ١١٠٨٢٧١٦٨ م وان جزءاً من ستمائة جزء منها يساوي ارتفاع الهرم وهو ١٨٤٧١٢ ومن هنا يكون ارتفاع الهرم منسوباً للدرجة الارضية لمصر ويكفي لوجود مقدار الدرجة الارضية ضرب مقدار الارتفاع في ستمائة ولا يكون الفرق الا خمسة امتار او ستة وهو



فرق غير محسوس وبما نقل عن المؤرخين ان الدرجة الارضية ستائة استادة يتضح ان هذه الاستادة مصرية وان المصريين قدروا الدرجة الارضية في الازمان السابقة ونسبوا لها مقاييسهم كما فعل المتأخرون في المتر المستعمل عندنا الان وجعلوا ارتفاع وجه الهرم علما عليها

وان ضلع القاعدة للهرم جزء من اربعمائة وثمانين جزءا منها بمعنى ان الدرجة الارضية المتوسطة لارض مصر قدر ضلع قاعدة الهرم اربعمائة وثمانين مرة

ويؤخذ من قول هيرودوط وغيره من المؤلفين ان الذراع المصري القديم جزء من اربعمائة جزء من الاستادة وهو صحيح لاننا لو قسمنا مقدار الارتفاع على اربعمائة لوجدنا ما نتيح ٤٦٢ م وهو ما وجدناه للذراع فيما سبق

والاستادة التي استعملها هيرودوط وبلين وسترابون وغيرهم واطلقوا عليها اسم الاستادة الاولينية لم تكن غير الاستادة المصرية وان الاروام وغيرهم نقلوها من مصر لارضهم

وبناء على ما سبق يكون قدر محيط قاعدة الهرم مائة وعشرين مرة هو مقدار الدرجة الارضية وقدر الارتفاع وحده وهو الاستادة عبارة عن ست ثوان ارضية ومحيط القاعدة ثلاثون ثانية او نصف درجة ارضية

والتفاضل بين ضلع القاعدة وارتفاع الوجه يكون ربع استادة

ويساوي مائة ذراع مصري قديم ويكون هو ضلع الفدان المصري القديم المعبر عنه عند الاقدمين بالاورور وعندكم بالمجرب وهو الوحدة الزراعية التي كانت مستعمله في قسمة الارض بين الاهالي وعلى موجبها تحجي الاموال وتنصب الحدود بعد انحسار ماء النيل عن الارض

ويؤخذ من كلام المؤرخين ان القدم جزء من ستائة جزء من الاستادة فاذا قسمنا الارتفاع الى ستائة جزء كان الذي يتبع ٠،٣٠٨ م وهو مقدار القدم وحيث كان هذا هو مقدار القدم الرومي فيعلم ان اصله مصري وجميع المؤلفين اتفقوا على انه ثلثا ذراع فاذا اضيف حينئذ نصف ٠،٣٠٨ م اليه كان المجموع ٠،٤٦٣ م وهو مقدار الذراع كما سبق

فقال الشيخ المتعارف في الشرع وبين الناس ان الذراع هو ذراع الآدمي وبه ضبط الميل والفرسخ وغيرها من الاقيسة وان الذراع اربعة وعشرون قيراطا او اصبعاً والاصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون اي البغل

فقال الانكليزي نعم كان ذلك في مبدأ الامر قبل اتساع الجمعية الاولى واما بعدها فصاروا يستعملون ذراع الآدمي في قياس الاشياء التي تلزمهم كالاقيسة وغيرها ويستعملون القدم في قياس الاطوال الارضية ثم لما اتسعت دائرة المعاملات بينهم صاروا ينظرون الى شي ثابت لا يقبل التغير يقيسون عليه فلم يروا اوفق

من الدرجة الارضية فقدروا بها الذراع ونسبوا اليه مقاييس  
 المعاملات المستعملة الى الان وما حصل فيها من التغير غير محسوس  
 لا تدرکه العامة ويؤكد ذلك قول بعض المؤرخين مثل  
 هيرودوط فانه ذكر ان النسبة بين القدم والذراع كالنسبة بين  
 اثنين وثلاثة يعني ان القدم ثلثا ذراع وليست هذه النسبة موجودة  
 بين قدم وذراع الانسان اذ النسبة بينهما كالنسبة بين اربعة وسبعة  
 ولو فرض قسمة الذراع الى اربعة وعشرين فيرابطا كما هي العادة  
 لكان القدم الفلكي ستة عشر فيرابطا منها مع ان القدم الفلكي اربعة  
 اسباع ذلك فلا يكون الا عددا كسريا ويكون استعماله عسرا  
 جدا بخلاف الاول لا عسر في استعماله اصلا وهذا مما يؤيد ان  
 الذراع والقدم الجاري بينهما القياس ليسا فطريين لان طول القدم  
 الانساني اقل بكثير من القدم المستخرج بنسبته للذراع سواء كان  
 طبيعيا او فلكيا فان قدم الانسان يندر ان يتعدى طوله ١٦٥ م  
 حيث يكون طول الرجل ١٧٢ م ويكون اقل من ذلك ان  
 كان طول الرجل اقل

وقدم الانسان تبلغ القامة به سنا ونصفا فان لم يكن المقصود  
 هنا القدم الفلكي المتفق عليه كيف يذكر المؤرخون ان القامة ست  
 اقدام فقط وطول قامة الانسان ثلاثة اذرع ونصف بذراعه كما  
 هو ممدون في الكتب الصحيحة فعلى هذا لا يرتاب احد في ان القدم  
 والذراع المقدر بها الاطوال بل جميع المقاييس هما المنسوبان

للدرجة الارضية وانها اتفاقيان لافطريان ونسبة القدم الى الذراع  
ونسبة الذراع الى القامة كسبة اربعة الى ستة وستة الى اربعة  
وعشرين في حال كونها الاجزاء الفلكية

وتدل هذه الاعداد على قبضات كل قبضة اربعة اصابع  
فلكية ايضاً بمعنى ان القدم اربع قبضات والذراع ست والقامة  
اربع وعشرون قبضة واما نسبتها الطبيعية لبعضها فهي كسبة  
اربعة وسبعة وستة وعشرين لبعضها

وجميع ما قلناه من ان جميع الاقيسة منسوبة للدرجة الارضية  
مذكور في كتب المؤرخين فانهم ذكروا ان الخطوة الكبيرة المصرية  
مساوية للقامة يعنون انها ست اقدام وليس في الآدميين من تكون  
هذه خطوته فعلى هذا لا يشك في انها خطوة اتفاقيه منسوبة للقدم  
المنسوبة للدرجة الارضية كما ان الخطوة الضعيفة للمصريين خمس  
اقدام بالقدم الفلكي والخطوة الهندسية الرومية طولها خمس اقدام  
ايضاً فلكية فتكون حينئذ عين الخطوة الضعيفة للمصريين وتكون  
منقولة منها الى بلاد الروم فالخطوة الهندسية هي القامة ايضاً والباع  
الذي كان يستعمل في القياس وكان طوله ست اقدام فلكية او  
اربع خطوات بسيطة كل خطوة منها قدم فلكية ونصف او سبع  
اقدام بقدم الانسان والميل المصري الذي صار اساسا لجميع الاميال  
عند جميع الملل في الازمان القديمة مقداره الف مرة بها والى القامة  
او الخطوة ينسب التواء الذي كان مستعملا عند الاور وباويين

وهي بالمتر ٨٤٧٢،٨ م وتدخل في محيط قاعدة الهرم خمسمائة مرة  
وارتفاع الجلسة التي تحت الهرم قامة كاملة او خطوة هندسية  
مصرية

والذي يؤكد كون تلك الاقيسة جميعها فلكية احنواء كل  
من الدرجة الارضية ومحيط الكرة نفسه عليها عدد صحيح فانه لو  
قيس طول محيط الكرة بالقدم لوجد عبارة عن حاصل ضرب  
سته مرفوعا الى الدرجة الخامسة وطول الدرجة الارضية المصرية  
ثلاثمائة وستون الف قدم وان قيس بالذراع كان طوله عبارة عن  
حاصل ضرب ستة في عشرة اربع مرات مرفوعا الى الدرجة الخامسة  
وفضلا عن ذلك ان الميل الرومي الذي طوله خمسة الاف قدم  
اذا قيس به محيط الارض اشتملت عليه سبعة وعشرين الف مرة  
فكيف تكون هذه النسبة صحيحة ان لم تكن القدم منسوبة للدرجة  
الارضية

ولو اخذ ثمن هذا الميل وجعل مقياسا وقيس به الدرجة  
الارضية لاشتملت عليه ستائة مرة

وحينئذ يكون هو الاستادة الاولبية التي قلنا انها ارتفاع وجه  
الهرم وماخوذة من مصر ولكن دخلها زيادة ونقص بتداول الايام  
وتغير الدول مثلا:

الفرق قدر ثلث الذراع البلدي وهو خمسة اجزاء من اثني عشر  
جزء من الذراع القديم والشبر جزآن من خمسة اجزاء من الذراع

البلدي وهو نصف الذراع القديم وهو ثلث الذراع الاسلامي  
وهو جزء من الف جزء من ضلع قاعدة الهرم وكل اربعة اشبار  
ثلاث اقدام مصرية

واما الذراع الاسلامي فلم يعرف بمصر الا سنة ١٥١٧  
ميلادية حيث دخلت الدولة العثمانية بها والاصل غير معلوم  
ويزيد عن الذراع البلدي بقدر ثلثه وزيادة ثلاثة مليمتر وبالنسبة  
لذراع المقياس الموجود بالروضة فهو قدرة مرة وربع مرة

وقد عرفنا ما سبق مقدار الذراع البلدي ونسبته للذراع  
القديم واما ذراع مقياس الروضة فاصله الذراع القديم باضافة  
سدسه اليه والفرق ليس بحسوس لان الذي يتج من القياس على  
عمود المقياس لطول الذراع ٥٤٠ م والذي يتج من الحساب  
يكون ٥٣٩ م

وهذا الذراع لا يستعمله المعلنون بارتفاع درجة النيل بل  
يستعملون ذراعا صغيراً اتفاقياً لتطمئن قلوب الاهالي وبهذه الوساطة  
تتحصل الحكومة على تحصيل المال من الاهالي وهذا الذراع ثلثا  
ذراع المقياس وينقسم الى اربعة وعشرين قيراطا كاتقسام ذراع  
المقاييس اليها انما قراريط كل على حسبه فيكون صغره مقابلا  
للواحد وربع من تقاسيم الذراع الحقيقي وقسم العشرين يقابل قسم  
الخامس عشر وقسم اربعة وعشرين يقابل قسم سبعة عشر وثلاثة

ارباع وذراع المنادي يساوي ثمانية عشر قيراطا وثلاثي قيراط من  
قراريط الذراع القديم

واما الذراع الذي تستعمله البنائون والتحاتون فهو خمس  
القصة الكبيرة القديمة وان شئت قلت هو جزء من مائة جزء من  
ضلع الفدان الكبير المساوي ضلعه عشرين قصة كبيرة كما ذكرنا  
وضلع الهرم يشمله ثلاثمائة مرة عددا صحيحا واذا جمعت مقدار الذراع  
القديم على القدم القديمة كان الذي يتبع هو طوله فهو قدمان ونصف  
بناء على ذلك

والتحاتون يسمونه قيراطا ويقسمونه ثلاثة اقسام ويسمون كل  
قسم منها: ثلثا وكل ثلث يقسمونه نصفين ويسمون كل نصف  
نصف ثلث وكل نصف ثلث يقسمونه اربعة اقسام ويسمونه قراريط  
فيكون كانه منقسم الى اربعة وعشرين قسما ولكن لم ندر من اين  
جاء له هذا الاسم مع انه لا بد لهذه التسمية من اصل كان معروفا  
فيما سبق ثم جهل ولو فرض انك ضربت مقدار هذا الذراع وهو  
قدمان ونصف في اربعة وعشرين تجد ستين قدما مصرية وهو  
قياس كان مستعملا عند المصريين في قياس الارض المحروثة وقدره  
اربعون ذراعا بالقديم والذراع المذكور هو الخطوة البسيطة وهي  
تساوي ذراعا بلديا وثلثا اي ان الذراع البلدي ثمانية عشر قيراطا  
من قراريطه والاستادة المصرية تشمله مائتين واربعين مرة ويؤخذ  
من قول الادريسي وابي الفدا وابي الفرج والمسعودي ان الفرسخ

ثلاثة اميال هاشمية او خمس وعشرون غلوة يعني استادة وبالذراع الهاشمي تسعة الاف ذراع كل ذراع منها اثنان وثلاثون قيراطا واثنا عشر الف ذراع بالذراع القديم الذي هو اربعة وعشرون قيراطا فعلى هذا يكون الفرسخ خمسة الاف متر وخمسمائة وواحدا واربعين وثلاثي متر وهذا الفرسخ هو الفرسخ القديم المصري والعرب تسميه الفرسخ الصحيح واما الميل فهو ثمان غلوات وثلاث او ثلاثة الاف ذراع هاشمي او اربعة الاف ذراع مصري قديم

ومن هنا يعلم ان الغلوة ثلاثمائة ذراع هاشمي او اربعمائة ذراع قديم والنسبة بين هذين الذراعين كالنسبة بين عددي ثلاثة واربعة ومقدار الميل المصري حيثئذ الف وثمانمائة وسبعة واربعون مترا ومصر والعرب استعملته والدرجة الارضية تشمله ستين مرة ويكون مقدار الغلوة عند العرب مائتين وواحدا وعشرين متراً وسبعين سنتيمتر وهذه الغلوة هي التي استعملها بطليموس وعنه اخذتها العرب وتدخل في الدرجة الارضية خمسمائة مرة

ويوجد خلاف الاذرع الماضية ذراع قدره سبعة وعشرون قيراطا وهو الذراع الذي استعمله الخليفة المأمون وكان اخذه عن الفرس وهو المعروف بالذراع الاسود وقدره بالمتر ١٩٦٠ م وهو عبارة عن ذراع قديم وثمن واما الذراع الهاشمي فذراع قديم وثلاث وقدره بالمتر ٦١٦٠ م وهو ذراع وجزء من خمسة عشر جزءاً من الذراع البلدي وذراع وسبع من ذراع المقياس وذراع وتسع من



الذراع العبراني وقدمان من القدم المصري القديم الذي استعملته العرب كما استعمله غيرهم وذراع الرومانيين منسوب للذراع المصري ينقص  $\frac{1}{2}$  من مقدار الذراع المصري فيكون مقدار الرومي ٤٤٢٤ م والذراع المقدس عند العبرانيين كانت نسبتته الى الذراع الرومي كنسبة عدد خمسة الى اربعة وحينئذ فمقداره يعلم باضافة ربع على مقدار الرومي ويكون ٥٥٤٢ م وهو يدخل اربعمائة مرة في الغلوة التي تشمل عليها الدرجة الارضية خمسمائة مرة وهي الغلوة التي استعملها بطليموس في قياساته والذراع السلطاني للبابليين كان منقسماً الى ثلاثين اصبعاً وكل اصبع منقسم الى قسمين اي انه كان منقسماً الى ٦٠ وكان طوله يزيد عن الذراع المعروف ثلاثة اصابع اي انه لو اضيف تسع عدد ٦١٨ م الىه كان ٥١٢١ م هو طولها وهذا المقدار هو مقدار ثالثة من الدرجة الارضية والقامة تشتمل عليه ستين مرة كما ان الميل يشمل العسله ستين مرة وكان يوجد قياس للاطوال في الزمن السابق طوله اربعة وعشرون ذراعاً به واربعون ذراعاً بالذراع المصري القديم اوست قضبات بالكبيرة او عشر قمامات صحيحة او اثنان وثلاثون ذراعاً بالذراع البلدي

ونسبة القصة الكبيرة الى الذراع البلدي كنسبة عشرين الى ثلاثة ومدة دخول الافرنج ارض مصر كانت هي المستعملة في جميع الجهات القبلية والبحرية وطولها بالذراع البلدي ستة اذرع

وثلثا ذراع او عشر اقدم مصرية صحيحة

والذي حصل فيه تغير كثير من بين المقاييس جميعها هو القصبه وذلك لانها اساس المساحة التي يجبي الحراج على حسبها وكثيراً ما كانت تقتصر المساحون على جعلها ستة اذرع وثلثي ذراع فقط اي ٢٦٥٧٥ م ونسبة هذا القدر الى طول القصبه كنسبة تسعة عشر الى عشرين فيطلب بها مال اربعين فدانا في مقابلة ستة وثلثين فدانا بالقصبه القديمة وهكذا والقصبه الصغيرة التي مع المساحين كان طولها ٢٦١ م عبارة عن عشرة اذرع بذراع النادي وستة اذرع وثلثي ذراع بذراع مقياس الروضة

فمن هنا يوضح انهم عوضوا الذراع البلدي بذراع المقياس حتى لا يخرج القصبه عن كونها ستة اذرع وثلثي ذراع كما كانت عليه زماناً طويلاً والقصبه الهاشمية طولها ستة اذرع هاشمية او سبعة اذرع وتسع ذراع بالاسود او ثمانية اذرع بالذراع القديم ومقدارها بالمتر ٢٦٩٤ م عبارة عن عشر اقدم عبرانية والقصبه المصرية القديمة طولها خمسة اذرع بالهاشمي الذي يسمى ايضاً في بعض الكتب بالعتيق والعسله من ضمن الاقيسة عند العرب والفرس ومقدارها ستون ذراعاً بالهاشمي اي ٢٦٩٤٤ م والميل الذي استعملته العرب الذي قدره الف قامه او ستة الاف قدم لم يكن شيئاً آخر غير المقياس الذي كان عند المصريين ومقداره يساوي دقيقة واحدة من الدرجة الارضية لمصر وكان قدره عشر غلوات وكان يدخل في

الفرسخ المصري الصغير ثلاث مرات وفي الكبير ست مرات والميل  
 الرومي ثمان غلوات اولنبية او مصرية والميل العبري ست غلوات  
 مصرية وهو ٢٦٠٠ قدم مصرية والفان بالذراع العبري وبالمتر  
 $\frac{1}{2}$  ١١٠٨ م وهو ست وثلاثون ثانية والوحدة الزراعية السطحية  
 هي الفدان وهو عبارة عن مربع ضلعه بالقصب عشرون وبالذراع  
 البلدي مائة وثلاثة وثلاثون وثلاث وبالمتر سبعة وسبعون ومساحته  
 خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون متراً مربعاً وقاعدة الهرم  
 تشمله تسع مرات صحيجة وضيع الفدان مائتان وخمسون قدماً  
 مصرياً فيزيد حينئذٍ عن ضلع الاوروراي الفدان المصري القديم  
 مائة قدم وحينئذٍ فنسبة الفدان الكبير الى الاورور كنسبة تسعة  
 الى خمسة وعشرين

والقصة المستعمله الان عندكم ٣٥٥ م والفدان بها ثلاثمائة  
 وثلاث وثلاثون قصبه مربعة وثلث اي اربعة الاف ومائتا متر  
 مربع وكسر صغير فاذا نسبناه الى الفدان الذي كان مستعملاً في  
 جمع الخراج الى دخول الافرنج وبعد خروجهم بمدة سنين لا يكون  
 غير سبعة عشر قيراطا باعتبار ان الفدان الكبير القديم اربعة  
 وعشرون قيراطا والاورور القديم نصفه تقريباً ففدانكم الان متوسط  
 بين الفدان الصغير اي الاورور والفدان الكبير ونسبة الفدان  
 الجديد الى الفدان القديم كنسبة عددي سبعة عشر الى اربعة  
 وعشرين وبناء عليه فكل مائة وعشرين فدأناً جديدة لا تبلغ الا

خمسة وثمانين بالمساحة القديمة وحيث انه في مدة الملك الاشرف سنة ٧٧٧ ومن قبله الى مدة الملك الناصر وجد ان مساحة الارض المزروعة الموضوع عليها الخراج ١٢٦ ١٧٢ ٣ وفي مدة الافرنج مسح المزروع في القطر فوجد ١٨٠ ١٢٦ ٢ وهما قريبان من بعضهما فيمكن الان ان نعرف هل حصل زيادة في المنزرع او نقص وذلك بعد رد حسابه الى القصة القديمة

والمرحلة بناء على قول الادريسي وابي الفدا اربعة وعشرون ميلا هاشمياً او ثمانية فراسخ مصرية او ثلاثون ميلا رومياً او عشرة فراسخ فارسية وتبلغ بالمتر ٤٤ ٣٣٣

وبيوم الملاحه بناء على قول الادريسي وابي الفدا وهو ما يعرف عندهم بالمجرى مائة ميل بالهاشي او درجة ارضية وثلاثا درجة وبالغلوة الصغيرة المصرية الف غلوة كاملة او خمسمائة واربعون غلوة كبيرة مصرية ايضاً وبالمتر ٩٩ ٧٥٠

وفي الازمان القديمة كانت المصريون تستعمل في قياس الاطوال الكبيرة ثلاثة انواع من الفراسخ اصغرها كان عبارة عن ثلاثين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان استعماله في الجهات البحرية من ارض مصر وقدره بالمتر ٥٥٤١ ٦٥ م والثاني يزيد عن الاول وقد استعمله هيرودوط وكان ستين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها الف ومائة واحدى عشر غلوة وتسع وكان يستعمل في الاقاليم الوسطى من

مصر من منف ابتداءً ولذلك سمي الفرسخ المصري المتوسط ومقداره  
بالمتر ٥٥٨٥٠٠٠ م

والفرسخ الكبير طوله ستون غلوة من الغلوات التي كل درجة  
ارضية منها ستمائة غلوة وكان مستعملاً في الاطوال الجغرافية فكان  
يوجد بالجهات البحرية والقبليّة وطوله بالمتر ١٠٨٢٣٠ م

والفرسخ الفارسي عشرة اميال رومية وثلاثون غلوة من  
الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية سبعمائة وخمسين مرة وهو  
دقيقتان واربعه اعشار دقيقة من الدرجة الارضية ويدخل في  
الدرجة الارضية خمساً وعشرين مرة ولهذا كان هو المستعمل عند  
اغلب سكان المشرق والعبرانيين فاخذ عنهم الاوروبيون ومقداره  
بالمتر ٤٤٤٣٢ وهذا المقدار يطابق اربعة وعشرين ميلاً او ٢٤٠  
غلوة مصرية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية ستمائة مرة  
فيعلم ضرورة انه ماخوذ من مصر لانه لا يقال ان العجم قاسوا  
الدرجة الارضية اذ لم ينسب اليهم ذلك احد من المؤرخين وفي  
كتب العرب ان مقداره خمس وعشرون غلوة عربية من الغلوات  
التي تشملها الدرجة الارضية خمسمائة مرة التي قدرنا انها ٦٧ ٢٢١ م  
وقد قلنا فيما سبق ان الوحدة التي كانت مساحات الارض تقدر  
بها هي الاورور وهي عبارة عما يحرت بحراث واحد في يوم واحد  
وبناء على قول هيريدوط كانت مربعا ضلعه مائة ذراع يعني انها  
كانت عشرة الاف مربع والذراع المستعمل هو الذراع القديم

الذي هو ٤٦٢ م فعلى هذا تكون المساحة بالمتر المربع الفين ومائة  
واربعة وثلاثين

وكانوا يقيسون بخشبة طولها عشرة اذرع وطول ضلع الاورور  
بها عشر مرات وكانت منقسمة ثلاثة اقسام كل قسم خمس اقدام  
فكان طول القسم الواحد مساوياً للخطوة الهندسية ونصف القصة  
المصرية القديمة التي كان طولها عشر اقدام وضلع الاورور بها خمسة  
عشر مرة وكانوا في الغالب يستعملون نصفها فيبلغ ضلع الاورور  
به ثلاثين مرة فبناءً على ذلك تكون مساحة الاورور تسعمائة  
خطوة مربعة وذلك عبارة عن ٢٢٥٠٠ قدم مربعة وبمقارنة المائة  
الذراع التي هي طول ضلع الاورور للثلاثين التي هي قياسه بنصف  
القصة نجد ان القصة ستة اذرع وثلاث اذراع وهذا المقدار هو نسبة  
ما بين الذراع البلدي الذي قدره ٥٧٧٥ م والقصة الديوانية  
التي وجدها الفرنسيون بالجزيرة وقدرها ٢٨٥ م وسمى ايضاً  
بقصة الرزق ومن هنا يعلم ان الاقيسة وان صارت كبيرة عما  
كانت لكن النسبة منها لم تتغير عما كانت عليه قديماً ولم يكن  
الاورور وحده هو المستعمل في المساحة بل كان لهم اقيسة كثيرة  
صغيرة وكبيرة على حسب ما يقتضيه الحال منها العسلة وهي مربع  
قدره عشرة الاف قدم مربعة اي ان ضلعه كان مائة قدم كما ان  
ضلع الاورور مائة ذراع ومنها الغلوة وهي عشرة الاف قامة مربعة  
اي مربع ضلعه مائة قامة ومنها العسلة المضعفة وكانت مربعاً

طوله عسلتان وعرضه واحدة ونسبتها الى الاورور كنسبة اربعة الى تسعة

ومنها الاستادة اي الغلوة المربعة كانت ٣٦٠٠٠٠ قدم مربع فان فرض ان ضلعها منقسم الى عشرة اقسام متساوية انقسم السطح الى مائة مربع صغير كل منها ٣٦٠٠ قدم مربعة او مائة قامة مربعة اي الى مربعات ضلع كل منها ستون قدما او عشر قامات او اثنا عشرة خطوة هندسية ويتكون عنها الجزء المئيني بالنسبة الى الغلوة وكانت تستعمل في تقدير المساحات

واما الفدان الديواني وقت دخول الفرنسيس وادي مصر فكان ضلعه عشرين قصبة ديوانية وذلك عبارة عن مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وهذا المقدار هو ثلث الاستادة وهو قدر ارتفاع وجه الهرم فعلى هذا يظن ان الاستادة كانت منقسمة الى تسعة اقسام اي مربعات كل منها اربع عسلات مربعة ضلع كل منها عشرون خشبة كما ان الفدان الديواني ضلعه عشرون قصبة ديوانية ولذلك تسمى هذه المساحة اي المركبة من اربع عسلات بربع الفدان المصري القديم وكان ضلعه بالذراع القديم مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا كما ان ضلع الفدان الديواني بالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث وعلى هذا فمساحة الفدان القديم كانت ٣٧٩٤٠٦ م مربعا ومساحة الفدان الديواني ٥٩٢٩ م مربعا ونسبة الاول الى الثاني كنسبة ستة عشر الى خمسة وعشرين

وربما كان منقسمها الى اربعة وعشرين قيراطا كما ان الفدان الديواني كذلك منقسم وهذه القسمة تزيد في سهولة الحساب بسبب ان العسلة تكون مشتملة على ست منها فلو فرضنا ان الاستادة او الغنوة منقسمة قسمين متساويين وجدنا انه يحصل من ذلك تساهل عظيم في التقدير لان الشكل الذي ضلعه الغلوة يكون منقسمها الى اربعة مربعات ضلع كل واحد نصف غلوة ومساحته تسع عسلات مربعة او يكون مساويا لاربعة من الاورور وتسمى هذه المساحة ربع الغلوة وتشتمل على اربعمائة خشبة مربعة او تسعمائة نصف قصبه قديمة او اربعين الف ذراع مربع او على ثلاثة الاف وستائة خطوة او على خمسة وعشرين جزءا من الغلوة او على الفين وخمسمائة قامة مربعة

ولم يكن في قياس الفدان المصري القديم صعوبة لان مساحته اربعون خطوة بالخطوة الهندسية كما ان مساحة الفدان الديواني الان اربعون نصف قصبه وضلع الفدان الديواني سبعة وسبعون مترا وهو يزيد عن ضلع الفدان القديم بقدر ربعه وهذه النسبة لاشك هي الواقعة بين الذراع القديم والذراع البلدي والفدان الديواني يزيد عن القديم اورورا واحدا ولا شك في ان للفدان القديم نسبة صحيحة مع الاقيسة القديمة لان ضلعه ثلث ضلع قاعدة الهرم وعلى هذا فمساحة القاعدة تشمله تسع مرات وزيادة على ذلك ضلعه عبارة عن عسلتين ونصف والميل المصري القديم يشمله



اربعا وعشرين مرة والقصبه المستعملة في قياسه تدخل في ضلع قاعدة الهرم ستين مرة

وضلع الاورور يساوي ثلاثة اخماس ضلع الفدان الديواني وربع الاستادة المربعة =  $\frac{1}{4}$  الغلوة المربعة =  $\xi$  اورور =  $\eta$  عسلات مربعة وضلعها ثلاث عسلات فلو قسمنا كل عسلة من التسع قسمين متساويين وجدنا ان ثلاثا منها تكوّن ضلع الاورور واربعاً منها تكوّن ضلع الفدان القديم وخمساً منها تكوّن ضلع الفدان الديواني والست الباقيات تكوّن ضلع ربع الاستادة وعلى هذا فالنسبة بين هذه المساحات الاربع كالنسبة بين هذه الاعداد ١٦٩ ، ٣٦٢٥ ، وما يؤكد ان ربع الاورور كان موجوداً قديماً كون ضلعه ستين خطوة هندسية كما ان ضلع الاستادة ستون خشبة وبالجملة فوجود ربع الاورور بين الاقيسة القديمة يؤكد وجود ربع الاستادة ونسبة الفدان المصري القديم الى الفدان الديواني الجديد على ما ذكرنا كنسبة ١٦ الى ٢٥ ونسبة اضلاعها الى بعضها كنسبة ٤ الى ٥ اي ان الفرق الذي حصل في طول الذراع من اربعة وعشرين قيراطا الى ثلاثين قيراطا حصل ايضاً في القصب المستعمل لقياسها وبسبب ان عدد عشرين بقي ثابتا لعدة القصب الداخل في الطول متصل لسطحها زيادة كنسبة ٢٥ الى ١٦ والنسبة بين الفدان القديم والاورور كنسبة ١٦ الى ٩ وكما ان الغلوة كانت منقسمة الى اربعة اقسام وكل قسم منها الى اربعة

اخرى تسمى الاورور كذلك الاورور كان منقسما الى اربعة اقسام  
 وقاعدة الهرم قدر كل ربع منها مائة مرة وقدر الاستادة اربعا  
 وستين مرة وكان طول ضلعه خمسين ذراعا او خمسا وسبعين  
 قدما وسطحه ٢٢٥ خطوة او الفين وخمسمائة ذراع وبالقصب  
 الديواني ٣٦ قصبة مربعة وكانوا يعرفون قدر ما تأخذ الارض  
 من البذر بمكيال لم يسمى المد المساحي وهو اربعون ليورا فكان  
 نصفه وهو عشرون ليورا يكفي لبذر مائة قامة مربعة فيقسمونها  
 الى اربعة اقسام ضلع كل قسم خمس قامات ومساحنه خمس  
 وعشرون فكانوا يقدرون ما يلزم للارض بهذه الطريقة ويجعلون  
 لكل خمس قامات مربعة ليورا من البر وهكذا فكان المد الواحد  
 الذي وزنه اربعون ليورا يكفي لبذر مائتي قامة ونصفه لنصفها  
 ومن الاقيسة التي كانت تستعمل في مساحة الارض الخطوة المربعة  
 وهي جزؤ من تسعمائة جزء من الاورور وجزؤ من اربعمائة جزء  
 من العسلة وجزؤ من الف وستائة جزء من الفدان القديم وجزؤ  
 من الفين وخمسمائة جزء من الفدان الديواني وجزؤ من اربعة  
 عشر الفا من الغلوة المربعة وكان ضلع العسلة عشرين خطوة  
 وضلع الاورور ثلاثين وضلع الفدان القديم اربعين وضلع الفدان  
 الديواني خمسين وضلع الغلوة مائة وعشرين ومنها الخشبة المربعة  
 وقدرها مائة ذراع وهي جزؤ من مائة جزء من الاورور والقصبة  
 وقدرها مائة قدم مربعة وهي جزؤ من مائة جزء من العسلة وكذلك

كان من القياسات قياس صغير قدره خمس قامات مربعة وضلعه ست خطوات ومساحته ست وثلاثون خطوة مربعة او اربعمائة ذراع مربع اعني ٩٠٠ قدم وكان يدخل في المد المساحي اربع مرات وفي الاورور خمسا وعشرين وفي الغلوة اربعمائة مرة ويمكن ان يقال ايضا ان العسلة كانت منقسمة الى اربعة اقسام كل منها الربع وان الغلوة المربعة تشمله مائة واربعاً واربعين. وربعا يشمله ستاً وثلاثين والقدان القديم يشمله ستة عشر مرة والديواني خمسا وعشرين والاورور تسع مرات وربع العسلة عبارة عن  $25 =$  خشبة اي  $100$  خطوة  $= 2500$  قدم فجميع هذه المقاييس كانت مستعملة في مساحات الارض بحيث كان يتيسر للمساح مع غاية الضبط والسرعة معرفة مساحة الارض وما تشتمل عليه من الكسور لغاية القدم المربعة ولهذا شهد جميع المؤرخين للمصريين بفوقانهم جميع الامم في الفنون الهندسية ونسبوا لهم اختراع اصولها وقواعدها التي هي سبب تقدمهم في جميع العلوم والصنائع ولواني اطنبت في مادة الاقيسة واطلت على حضرتكم الكلام في بيانها فليس هو الغرض الاصلي بل الغرض ان اثبت لحضرتكم اتساع دائرة معلومات علماء هذه الامة حيث وصلوا في الاحتماب الخالية الى تلك الدرجات العالية مع ان جميع الامم في ذلك الوقت كانوا خاملين وفي زوايا الذل والمسكنة قاطنين غرقى في بحار الجهل لا يعرف لم فكر فيما جل ولا قل وكانوا راتعين في الاجم

والغابات مثلهم كمثل الحيوانات فلم يخرجهم عن هذه الحالة إلا  
اقتناؤهم اثر المصريين وسيرهم في طريقهم مقتنين بقول من وصل  
منهم الى هذه الارض وتلقى عن علماءها واساتذتها يقيمون بالمدارس  
والمعابد ويتلقون الاسرار عن المصريين ومن ذلك الوقت اخذت  
الحشونة في الزوال وانجلي عن بصائرهم غشاء الجهل والضلال  
واتضح الطريق فسلكوا سبيل الهدى ونالهم من الثروة والترفة ما  
نالهم فاسسوا المدن والقرى وبنوا المباني الفاخرة العالية الذرى  
وكانوا قبل لا يسمعون بها ولا يعلمون والمصريون كانوا بالغين  
النهاية في كل ذلك وكان بشاطئ نيلها المباني المشيدة والبساتين  
الفاتقة العديدة وفي داخل مدنها وصحاريها من المعابد والهياكل  
ما يعجز عن وصفه الانسان في كل زمن من الازمان والى الان  
كل من دخل تلك الارض من الاغراب وتامل ما بقي فيها من  
الاثار التي هي من عجب العجائب يقف متحيرا ويطرق متفكرا وذلك  
لا يستغرب من امة من اثارها البنائية الاهرامات الشامخة والبرابي  
العجيبة ولا يستبعد عليها انها قاست الدرجة الارضية ونسبت جميع  
اقيستها اليها ولاجل بقاء ذلك على ممر الازمان وتعاقب الملوان  
جعلوا نفس الهرم حافظا لتلك الاقيسة فضلا عن حفظه لامور  
شئى لم يقف احد عليها الى الان

## المسامرة الرابعة والثمانون

### نبذة تاريخية

فقال الشيخ المستفاد من اقوال المؤرخين بناءً على ما أجروه من البحث وما أخذوه عن الاوائل أن بين هبوط آدم والطوفان ٢٢٤٢ سنة وبينه وبين المسيح عيسى بن مريم ٥٥٦٢ سنة فيكون بين الطوفان والمسيح ٢٣٤٢ سنة وحيث أن يكون بناء الهرم قبل الميلاد باربعة الاف وخمسمائة سنة وبعد الطوفان بالف وثمانمائة وخمسين سنة وحيث أنهم قدروا ما بين جلوس منيس وبناء الهرم بثمانمائة وثلاث سنين فيكون جلوس منيس بعد الطوفان بثلاثمائة وخمس وخمسين سنة اي بعد موت نوح بخميس سنين وقد قالوا ان فرعون مصر صوفي الاول الذي اطلق عليه هيردوط اسم كيوس ابتداء البناء في هذا الاثر بعد انفصال الحكومة السياسية

من الحكومة الدينية بواسطة منيس الذي اسسها قبل الميلاد بخمسة  
الاف وخمسمائة وثلاث سنين وفي مدة هذا الانقلاب بل من  
ابتدائه يرى ان المصريين على معلومات تامة ولم دراية بمعارف شتى  
وعلمو كثيرة فانهم كانوا على غاية التمدن والتقدم لكن لا يدري  
هل اخذ المصريون هذه العلوم عن سبقتهم من الامم واذا كان  
كذلك فعن من اخذوا ام هم الموجدون له من غير واسطة غيرهم  
والظاهر انهم اخذوها عن غيرهم لان الارض قبل الطوفان كانت  
عامرة باولاد آدم عليه السلام وكانوا متصرفين في جهاتها وكانوا  
قد وصلوا الى درجة في العلوم والمعارف ولما اغرق الله قوم نوح  
عليه السلام ولم ينج الا هو واولاده ومن آمن تفرقوا في الارض  
وتناسلوا وكثروا فعمرت بهم الارض ثانياً وبالضرورة كان عند  
من نجا معرفة بعلوم من غرق فعلموه اولادهم وانتشروا فيهم ولم تكن  
اهل مصر الا من ذرية سام لانه ابو العرب والفرس والروم ولكن  
لا ادري هل هم اول من عبد الاصنام ام سبقتهم الى عبادتها غيرهم  
فقال الانكليزي ان عبادة الاصنام كانت لعاد وثود كما لا  
يخفى ذلك على حضرتكم وكان عندهم السحر والكهانة كغيرهم فلم يكن  
المصريون في ذلك الا تابعين اثرهم

فقال الشيخ وما سبب اتساع دائرة العلوم عندهم دون غيرهم  
قال سببه انهم لما وصلهم علوم من اغرقهم الطوفان تأملوا فيها  
فاستنجوا منها واستكشفوا من اثارها ما وصلوا به الى شأ وبعيد في العلوم

واما كونهم مخترعين لتلك العلوم فلا يقبله العقل لانه لم يكن بين  
 الطوفان وبين نشأة الحكومة المصرية الفرعونية الا زمن قليل لا  
 يكفي في وصول المعارف والعلوم الى هذا الحد الذي كانت عليه  
 وقت ظهور منيس على التخت لاننا نرى من اقوال المؤرخين انه  
 من حين جلوس فرعون مصر على التخت شرع في اعمال جسيمة  
 فيها من الدلالة على التقدم في العلوم الهندسية ما لا يخفى منها انه  
 سد احد فرعي النيل الذي كان جارياً مجذاً جبل ليبيا وحوّله  
 الى جهة الشرق في نصف المسافة التي بين الجبلين وادخل ماء  
 النيل في وادي الفيوم فازدادت بذلك سعة ارض وادي النيل  
 ولا جرم ان هذه الاعمال يلزم بها امور هندسية مثل ميزانيات وغير  
 ذلك لاجل معرفة حال هذه الارض المحصورة من جميع الجهات  
 بالجبال والصحاري ومنها انه ازال البرك التي تكوّنت من مجرى  
 النيل وبنى محلها مدينة منف وحفظها من الغرق والعدو بما انشأه  
 حولها من الحصون والجسور وزينها بهياكل ومعابد بقيت اعجوبة  
 يفخر بها بعده ثلاثة الاف سنة زيادة على ما نظمه من القوانين  
 وما اودعه في المدينة من المستبدعات التي فاقت بها على طيبة  
 القديمة التي كانت مقراً للسلطنة ومحلاً لقوة الديانة الى وقته فلو لم  
 تكن العلوم عندهم في درجة الكمال ما امكنهم اجراء هذه الاعمال  
 ومن ورث الملك بعده الف كتاباً في التشریح ومن اتى بعده بنى  
 هذه الاهرام التي هي اعجوبة مدى الايام بتعجب منها كل انسان ما

بقي الزمان وما نظر اليها احد الا واقراً لمؤسسها بعلو الدرجة في العلوم وغزارة عقولهم بدلالة هذه الاثار والرسوم فان من اجرى هذه الامور لا بد له من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى مثل علم جر الاثقال والعمارة وحركات المياه والطب والهيئة وسير الكواكب واحوال السماء وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا الحد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الاساسية لما فعل من ذلك ان مصر كانت من قديم الزمن بالغة اقصى درجات التمدن وواضح دليل على ذلك بقاء هذه الابنية بها الى الان وايضا هذا التمدن لا يمكن ان يوجد دفعة واحدة بل لا بد انه مضى عليه قرون كثيرة حتى بلغ هذه الدرجة والسبعمائة عام التي قدرها علماء الافرنج بين الطوفان وجلوس منيس على التخت لا تكفي ايضاً في تحصيل تلك المعارف بل لا بد من وجود اصلها قبل الطوفان فان الارض قبله كان بها ام شتى منهم المتمدن وغيره وكانت العلوم بالغة الى درجة اوجبت اتساع معائشهم فكانوا ارباب قوة وثروة وما يدل على ذلك قول افلاطون عند تكلمه على سكان الاطلنطيك الذين اغرقهم الله بالطوفان ان ارضهم كانت قرية من بوغاز الطارق وان قوانينهم كانت قرية من قوانين المصريين وهذا القول نقله سولون المشرع عن علماء مصر فانه تلقى عنهم ويؤخذ من هذا ان منيس لما جلس على التخت وظهر امره اخذ له قانونا من القوانين القديمة التي وصلت اليه بواسطة النوبيين الذين



كانوا بالجهة القبلية من مصر فانهم الناقلون لجميع المعارف والعلوم التي ورثها المصريون عن اجدادهم سكان اسيا الناجين من الغرق فكانت هذه المعارف محفوظة عند طائفة القسس يرثها الابناء من الاباء جيلا بعد جيل من غير تغيير ولا تبديل وانت خير بان تقدم العلوم واتساع دائرتها وزيادة الجهد في كشف حقائق مستحجة انما يكون بالاشتراك العام فضلا عن المساعدات من قبل الحكومة الا ان بمصر اموراً توجب تعطيل ذلك منها وجودها منعزلة وسط الصحاري وهذا يمنع سهولة اخلاطهم مع باقي سكان الارض من الامم وحيث لم يكن بها ممن ورث تلك العلوم الا طائفة الديانة فغاية ما يمكن القوة البشرية انما هو معرفة ما وصل الى هولاء من غير زيادة عليه وهيئات ان وصلوا اليه ولا شك ان هذا على طول الايام مما يوجب تفهم المعارف عاما بعد عام كما حصل ذلك بالفعل في مصر حين سكنها غير اهلها فلولا ما شاهدناه بها من الاثار لاستبعدنا ما عزاه الى اهلها نقلة الاخبار ولعدناه من نوع الخرافات التي ضيع المؤرخون في تنميتها نفائس الاوقات

فقال الشيخ عزو المعارف والكشف عن الحقائق الى من كان قبل الطوفان مما لا مرية فيه ومما يدل على ذلك صرح النمرود الذي بناه وكان مركباً من اثنين وسبعين برجاً على كل برج كبير منهم يستحث على العمل فان ذلك كان بعد الطوفان بزمن لا يسع ان يهتدوا فيه الى معرفة بناء مثل هذا كما سنبينه فانهم بعد

الطوفان بزمن قليل تبلبت الستهم فتنفرق بنو نوح فصار لسامر  
واولاده العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند ولحام واولاده  
مشرقاً مما يلي مصر على النيل وكذلك مغرباً الى الغرب الاقصى  
وليافت وولده ما يلي بحر الخرز مشرقاً الى جهة الصين وفي ذلك  
الوقت كانت شعوب اولاد نوح اثنين وسبعين شعباً فلم يكن  
عندهم معرفة تامة باحوال العمارة والهندسة ووضع الاحجار فمن  
اين لم ان يبنوا مثل ذلك البناء اذ يلزم لجمعه في العلو الذي  
قدروه به اصول وقواعد لا بد منها وايضاً فان النمرود كان عاملاً  
من قبل الضحاك على سواد العراق وما اتصل به وفي تلك  
الاقوات كان للام قوانين منظمة وشرائع معظمة وكان لهم رسل  
تهديهم الى طاعة الله فلا بد انهم كانوا ذوي ثروة عظيمة حتى اغتروا  
بذلك غروراً وجعلوا قول الانبياء كذباً وزوراً وناهيك طغيان  
النمرود وظلمه وبغيه وتجبيره وحروبه أفلا يدل هذا كله على ان  
الام قبل الطوفان كانوا ارباب معارف وكذلك معرفتهم للاشهر  
واسماها والسنة ومقدارها فقد ورد عن المؤرخين ان نوحاً عليه  
السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب ورست بارض  
الموصل على الجودي لعشر بقين من المحرم فكانت المدة ستة اشهر  
وعشر ليال فكل هذه ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على ان العلوم  
والمعارف كانت موجودة قبل الطوفان  
فقال الانكليزي رأيت في الآية الرابعة والعشرين من الباب

السابع في التورية ان الماء بقي على الارض مائة وخسين يوماً وذلك من ركوب نوح السفينة الى استقرارها على الجبل وان دخوله فيها كان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني واستقرارها على الجبل في اليوم السابع عشر من الشهر السابع فتكون المدة حينئذ خمسة اشهر باعتبار ان الشهر ثلاثون يوماً والشهور شمسية وعلى هذا تكون السنة شمسية وعدد ايامها ثلاثمائة وستين يوماً وهذا يدل على ان الاقدمين كان عندهم معرفة بمحركة الشمس واخلاف سيرها بطاءً وسرعة بالنسبة لحركتها فيعلم من ذلك انهم كان لهم معرفة بعلم الفلك

فقال الشيخ رأيت في كتب التواريخ ان كثيراً من اهل الهند والصين وغيرهم كانوا يعتقدون ان الله عزوجل جسم وان الملائكة اجسام لها اقدار مختلفة وان الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك الى اتخاذ تماثيل واصنام مختلفة على صورة الباري والملائكة فكانوا يقربون لها القرابين والندور لشبهها عندهم بالله وملائكته واقاموا على ذلك مدة من الزمان حتى نبههم حكماؤهم على ان الافلاك والكواكب اقرب الاجسام المرئية الى الله وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وان كل ما يحدث في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب على مقتضى امر الله فعظموها وقربوا لها القرابين ومكثوا على ذلك دهرًا فلما راول الكواكب تخفى في النهار وفي بعض اوقات الليل لما

يعرض في الجوم من السواتر امرهم بعض من كان فيهم من الحكماء ان يجعلوا لها اصناماً وتمائيل على صورها واشكالها فاتخذوا اصناما وتمائيل بعدد الكواكب السبعة المشهورة واخذ كل فريق منهم يعظم كوكباً ويقرب له قرباناً خلاف ما يقربه الاخر ظناً منهم انهم اذا عظموا ما صوروا من الاصنام تحركت لهم الاجسام العلوية وساعدتهم في كل ما يريدون وينوا لكل صنم بيتا وهيكلاً وسموا تلك الهياكل باسماء الكواكب حتي ذهب قوم الى ان البيت المحرام انما عظم على مرور الدهر لانه بيت زحل ومن شأنه البقاء والثبات ثم لما طال عليهم العهد عبدوا الاصنام نفسها على انها تقربهم الى الله والغوا عبادة الكواكب ولم يزالوا كذلك حتى ظهر بودا وكان اول ظهوره بارض الهند فخرج منه الى السند ثم الى بلاد سجستان وبلاد زابلستان ثم دخل كرمان فتنبأ وزعم انه رسول واتى ارض فارس في اوائل ملك طيمورث ملك فارس وهو اول من اظهر مذاهب الصابئة فامر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم واراها ان من هناك بدء النفوس وقال بعضهم انه اول من عظم النار وقال انها تشبه ضوء الشمس والكواكب ثم افترق بعده من تبعه فعظم كل فريق منهم ما رأى تعظيمه وقد قالوا ان البيت المحرام اول البيوت السبعة المعظمة المتخذة على اسماء الكواكب السبعة والبيت الثاني مارس وهو على راس جبل باصبهان والبيت الثالث سندوساب وهو ببلاد الهند وله قرابين وفيه احجار المغناطيس

الجاذبة والرافعة والمنفردة والبيت الرابع البوهار الذي بناه متوشهر وهو بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سداته تعظمه الملوك وتتقاد لامره وكان له اوقاف كل من ولي بسداته يسمى البرموك ومن ذلك سميت البرامكة لان خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت والبيت الخامس عمدان وهو بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة والبيت السادس بيت كارشان شاه بناه كارش الملك على اسم المدير الاعظم من الاجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من مدائن خراسان والبيت السابع باعالي وهو ببلاد الصين بناه ولد يعبور بن يعويل بن يافث بن نوح وقيل انما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان فجعله سبعة بيوت في كل بيت منها سبع كوى بازاء كل كوة صورة من صور الكراكب السبعة مصنوعة من الجواهر على اختلاف انواعها ولم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين يعلمون به اتصال الاجسام السماوية وافعالها بما يحدث في عالم الكون من الحركات والافعال وهو سدى خيوطه من الابريسم ممدودة على خشب يتحرك على حسب حركات الطبائع فيحدث ضروباً من الحركات فاذا اتصلت افعاله وتوالت حركاته في النسيج ظهرت صورة فيضرب من الحركات يظهر جناح طائر وباخراسه وباخرجلاله فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع فجعلوا اتصال الابريسم بالة النسيج وما يحدثه الصانع في

ذلك من الافعال مثالا لتأثير الكواكب العلوية في الاجسام  
الكونية فبضرب من المحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر  
فرخ وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ويوجد  
ويعدم ويتصل وينفصل ويجمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد  
ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق فانما هو من حركات الكواكب  
واما العرب في جاهليتها فكانوا فرقا منهم الموحد المقر بخالقه  
المصدق بالبعث والنشور الموقن بان الله يثيب المطيع ويعاقب  
العاصي

ومنهم المقر بوجود الخالق القائل بحدوث العالم واعادته الا  
انه انكر ارسال الرسل وعكف على عبادة الاصنام وهم الذين حكي  
الله عنهم قوله ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى ومنهم من اقر  
بالمخالق وانكر الرسالة والبعث وهؤلاء هم الذين حكي الله عنهم  
قوله وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا  
الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون ومنهم من مال الى  
اليهودية او النصرانية ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهيئته ومنهم من  
كان يعبد الملائكة ويزعم انها بنات الله وانها تشفع لهم عنده وهم  
الذين اخبرنا الله عنهم بقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما  
يشتهون ومنهم من كان مقرا بالتوحيد مثبتا للوعد والوعيد كعبد  
المطلب بن هاشم بن عبد مناف

وسبب اتخاذ العرب للاصنام انه لما نشأ عمرو بن لحي وتولى

ملك الحجاز وانتشر صيته في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وكانت العرب تطيعه احسن الطاعة وسار بقومه الى مكة واستولى على امر البيت ثم الى مدينة البلقاء من عمل دمشق من ارض الشام فرأى قوماً يعبدون الاصنام فسألم عنها فقالوا هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقي ونستشفى بها فنشفي فاعجبه ذلك وطلب منهم صنما فاعطوه هبلا فقله الى مكة وجعله على الكعبة واستصحب صنين آخرين وها اساف ونائلة ثم دعا الناس الى عبادتها فاجابوه ثم قلده العرب في ذلك فكان لكل قبيلة صنم فكان ود لقبيلة كلب وكان مجموعة الجندول وسواع لقبيلة هذيل ويغوث لقبيلة مذحج وقبائل من اليمن ونسر لقبيلة ذي الكلاع بارض حمير ويعوق لقبيلة مهران واللاة لتيف وكان بالطائف والعزى وهبل لقريش ومناة للاوس والخزرج واساف ونائلة على الصفا والمروة واستمرت العرب على عبادتها الى ان جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام فكسر الاصنام واتخذ العباد من تلك الاوهام وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسبي وقد ذم الله تعالى فعلهم بقوله انما النسبي زيادة في الكفر

وكانت المصريون صابئة فانهم كانوا يعبدون الاصنام والصابئة اقدم الامم على الارض ولغتهم السريانية التي هي لغة آدم عليه

السلام ويزعمون انهم اخذوا دينهم عن شيت وادريس ولهم كتاب  
يسمونه صحف شيت فيه محاسن الاخلاق كالصدق والشجاعة  
واجتناب الرذائل وقد ذكر ابن الوردي احد المؤرخين عندنا  
صحيفتين من صحفهم الاولى وتسمى صحيفة الصلاة ومنها انت الازلي  
الذي تربط به الرئاسات رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات  
رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ومنك تنزلت العقول  
الى مدبري الارض لانك السبب الاول احاطت قدرتك بالكل  
ولك الوجدانية التي لا تحد ولا تدرك مدبر سلاطين السماء وينابيع  
النور الدائم الانارة انت ملك الملوك الامر بالخيرات كلها الفاعل  
لكل شي بالوحي والاشارة تنبت المخلوقات وبرمزمك ينتظر العالم  
باسره ومنك النور وانت العدة القديمة السابقة لكل شي نسئلك  
ان تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الان وفي كل اوان الى  
الابد ياظاهراً متعالياً عن كل دنس احلل عقالنا وعافنا من كل  
مرض وبدل احزاننا افراحا بك نعتصم ومنك نخاف نسئلك ان  
توفقنا لتعجيد عظمتك التي يشار اليها ولا ينطق بها منك الكدل  
وبك يستنبر الكل وانت رجاء العالمين ومعين الناس اجمعين

وفي الثانية لا يجزين احد منكم في معاملة اخيه الى ما يكره ان  
يعامل بمثله واياكم والتفاخر والتكاثر لا تحلفوا بالله كاذبين ولا  
تهجموا على الله باليمين واعتمدوا الصدق حتى يكون نعم من قولكم  
فيها يستحقها ولا كذلك وتورعوا في تحليف الكاذبين بالله جل ذكره



فانكم تشاركونهم في الاثم اذا علمتم منهم الحنث وليكن الامر في نفوسكم  
 ن تكلوهم الى الله عالم السرائر فحسبكم حاكم يعدل وناطق يفصل  
 لا تلهجوا بهجو الكلام وسوء المقال لا تفاوضوا الاضاليل والاباطيل  
 ولا تكثروا الهزل والضحك والهمز والهمز لا تبدر منكم عند الغضب  
 كلمة الفحش فتجبر عليكم المآثم والعقوبة من كظم غيظه وقيد لفظه  
 ونطق منطقته واظهر نفسه فقد غلب عليه الشر كله استشعروا  
 الحكمة واتبعوا الديانة وعودوا انفسكم الوقار والسكينة وتحلوا  
 بالاداب الحسنة الجميلة ترووا في اموركم ولا تعجلوا لاسيا في مجازاة  
 المسيء ان يكن من احدكم فرطة وارتكب منكرا فليقطع ولا تحمله  
 السلامة منها على المعاودة لها فانها ان سترت عليه في الدنيا يفتضح  
 بها على رؤس الاشهاد يوم الدين (وها طويلتان) . اه . وهذا  
 الكلام منسوب لازمان كانت قبل الطوفان وفيه دلالة ظاهرة  
 على ان المعارف كانت متقدمة في تلك الاعصر وكان للصائبة  
 اعياد وهايكل يعظمنها فاعيادهم كانت عند نزول الكواكب  
 الخمسة المتخيرة في بيوت شرفها والتخيرة هي زحل والمشتري والمريخ  
 والزهرة وعطارد والهايكل التي يعظمنها بيت مكة وبيت بظاهر  
 حران مججونه ومن هايكلهم هيكل السنبله وهيكل الصورة وهيكل  
 النفس وهذه مدورات الشكل واما هيكل زحل فمفسدس واما  
 هيكل المشتري فثالث واما هيكل المريخ فمستطيل واما هيكل الشمس  
 افريع واما هيكل عطارد فثالث في جوف مربع واما هيكل القمر

فثمن ومن هياكلهم بيت بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمصلينا  
يقول انه هيكل ازر ابو ابرهيم الخليل عليه السلام وذكر بعض اهل  
الاطلاع ان باقى بلاد الصين هيكلًا مدورًا له سبعة ابواب في  
داخله قبة مسبعة الاركان عالية البنيان وقيل ان باعلى القبة شيئًا  
يشبه الجوهريز يد على راس العجل تضيء منه جميع اقطار ذلك  
الهيكل وان جماعة من الملوك حاولوا اخذ تلك الجوهرة فاذا صار  
بينه وبينها مقدار عشرة اذرع لم ير شيئًا وان حاول اخذها بشيء  
من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار  
ثنت وانعكست وتعطلت وان رميت بشيء فكذلك فلم يجدوا لهم  
حيلة في اخذها ومن تعرض لهدم شيء من هذا الهيكل مات لوقته  
وكانها دبرت من انواع الاحجار المغناطيسية وفي هذا الهيكل بئر  
مسبعة الفم متى اكب الانسان على فيها يسقط فيها وصار اعلاه  
اسفله وحول فم البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم يقال  
انه بقلم السند هند هذه بئر تؤدى الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا  
وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه  
وتؤدى ايضًا الى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل ولا يقتبس  
منها الا من ساوت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا وحكمته حكمنا فمن  
قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم انه قد وازانا ومن عجز عن  
الوصول الى ما وصفنا فليعلم اننا اشد منه بأسًا واغوى حكمة واكثر  
علمًا واوسع دراية والارض التي فيها هذا الهيكل والقبة والبئر ارض

حجرية صلبة مرتفعة كالجبيل الشاخ فاذا رأى الانسان ذلك الهيكل  
والقبة والبئر حصل له عند ذلك جزع وحزن وتاسف على افساد  
شي منه او هدمه

ويقولون ان اهرام مصر قبور احدها قبر شيت بن آدم والاخر  
قبر ادريس وهو اخنوخ والثالث قبر صابي بن ادريس الذي  
ينتسبون اليه ويعظمونه يوم دخول الشمس برج الحمل فيتزينون  
ويتهادون فيه ومن هناك يعلم ايضاً ان علم الفلك ومعرفة الكواكب  
وما يلزم لذلك من العلوم كان قديماً واصله من ارض اسيا ومنها  
انتقل الى مصر والى غيرها من البلاد حين تفرق اولاد نوح  
بالارض بعد الطوفان وعمروها وبنوا بها المباني على مثال ما كان  
في اسيا قبل الطوفان

فقال الانكليزي ما ذكرته من الادلة على اثبات العلوم لمن  
كان قبل الطوفان في غاية الوضوح ففي التوراة وهي من الكتب  
القديمة ما يدل على ذلك فانه حين تكلم فيها على الخليفة من مبدئها  
وما يتبع ذلك من الحوادث بينه غاية البيان حتى صار كل من  
قراه كانه شاهد بالعيان كل حادثة من حوادث الاولين التي  
احدثها رب العالمين وهذا وان كان فيه مخالفة لما نقله دويودور  
عن المصريين في شان الخليفة وتديبرها الا انه اصح لان ما نقله  
دويودور ليس الا عبارة عن خرافات واوهام وبيان صور واوثان  
لا يحصل بها معرفة السر المقصود منها واما ما في التوراة فهو حق

لا ريب فيه فانه عن موسى الكليم ومثله لا ينطق الا عن من هو  
بكل شي عليم وايضاً مذهب دويودور مأخوذ من امور ظنية  
تجت من رصد الحوادث الطبيعية ولم يقف لاهو ولا غيره على ما  
اودعه الله فيها من الاسرار الخفية واما المكتوب في التوراة فهو  
بالنظر الى باطنها وحقيقه امرها لان موسى عليه السلام اوحى اليه  
بما قرره وكان عليه السلام بمصروقت وجود العلوم القديمة بها على  
اصلها وكانت اخبار الازمان الماضية وحوادثها عند علماءها على  
صورتها الحقيقية بخلاف دويودور فانه لم يوجد بمصر الا بعد  
اخطاؤها عن درجة علوها وفخرها بما لحقها من توالي الفتن والمظالم  
وعليها فان علماءها بعد استيلاء الاروام والعراقيين والاعجم عليها  
كانوا عن درجة قدرهم نازلين وفي قيود الذل والهوان مكبلين  
هاجرين العلم والمعايد لما فشا اذ ذاك من المفساد فاستبدلوا  
الاشتغال بالمعارف الخفية بالاشتغال بغيرها وتفننوا فيه بظنونهم  
الفسادة واوهامهم الكاسدة فعموا بعباراتهم والغزوا في تفهاتهم التي  
كانوا يستعملونها في وصف الهياكل وغيرها فدخل الجهل شيئاً  
فشيئاً وصار العلم بالحقيقه نسياً منسياً وصارت عباراتهم فيما بعد  
غير مفهومة للتمسس فشرحوها بغير المقصود منها فاحلوا الكذب  
محل الصدق واقاموا الباطل مقام الحق فخيبت على عقولم عناكب  
الجهالة وعششت في اذهانهم حمائم الضلالة

ومن قال ان اول من عمر ارض مصر النوبيون يعني سودان

أفريقية فقد اخطأ خطأ كبيراً لأنه لا مشابهة بين السودانيين  
 والمصريين في شي أصلاً لا في أعضائهم ولا في لغتهم بل السودان  
 من قديم الزمان على ما هم عليه الآن والذي يقبله العقل هو ما  
 ذكرتموه حضرتكم وما هو مدون في كتب العرب من أن من نجوا  
 من الغرق كانوا من سكان الجهة المرتفعة من الأرض فلا بد  
 أنهم كانوا في حدود الخراب منها وبعضهم كان سكن بأسيا وهم  
 الذين كانوا في سفح جبال توروس وجبال قاف فصارت أرض  
 أسيا كأنها منبع النوع البشري ومنها خرجت فرق متعددة وتفرقت  
 في جهات الأرض وعمرتها ومنهم من ذهب إلى أرض النوبة فعرها  
 وانتشر فيها إلى الشلالات في نهاية أرض مصر

وأما قول المؤرخ إيفور أن اسم النوبة كان يطلق على أصل  
 القبائل الساكنة قرب أرض البالستين من أرض أسيا وقول  
 هيروودوت أن أزدشير كان من النوبيين سكان أسيا فيجمل أن  
 يقال أن هذا الاسم كان يطلق على جميع أهل هذه الجهة بسبب  
 سرة لونهم من حرارة الشمس ثم فيما بعد أطلق على سكان شاطئ  
 النيل الأعلى وربما تشهد لذلك المشابهة المحاصلة بين المصريين  
 السالفين والنوبيين والحباش فعلى قولها لا مانع من أن يقال أن  
 أصل الجميع من سكان أسيا قبل الطوفان والذي يغلب على الظن  
 أنها متقدمة على من عداها في المعارف والفنون وأن التمدن كان  
 عندهم في أعلا التقدم وحيث لا غرابة في مشابهة قدماء المصريين

للصينيين في حروف الكتابة وبعض القوانين فان اصل الجميع واحد وكل منهم من ذلك الاصل مستمد وفي التوراة مدن غير بابل كانت العداوة بين اهلها لا تنقطع وكانوا كالبابليين متمتعين برياض المعارف مقتطفين منها ثمرات حسنة وكانوا يطلقون اسما اولاد نوح عليه السلام على مواضع معينة ولا شك ان اهل هذه المدن لم تبلغ تلك الدرجة في زمن قليل بل لا بد انه بقي عند بعض عائلاتهم بعض ما كان عند اباؤهم الاولين من المعارف والعلوم حتى ظهر منهم ما ظهر من الاثار فيما بعد الطوفان ولكن في كلام بعض مؤرخي الصينيين ما يدل على ان حادثة الطوفان ازلت جميع ما للامم من الاثار فان قيل اذا كان كذلك فما السبب في بقاء العلوم والفنون حتى الاخلاق والعوائد والاطوار عند المصريين هذه القرون الطويلة وفي كتبهم المقدسة مع انها من علوم الامم السابقة على الطوفان فلنا ان ارض مصر لما كانت منعزلة عن باقي الامم منحصرة بين صحراويين ولم يكن بينها وبين غيرها اتصال والمسالك الموصلة لها صعبة كان ذلك هو السبب في ابقاء المعارف بها لانه لو سهل الوصول اليها لدخلت الاغراب واضاعوا معلوماتهم وما ورثوه عن اباؤهم الاولين فان فتوحات سزستريس الاكبر ترتب عليها اختلاط المصريين بكثير من الامم البعيدة عنهم والاسرى التي اسروها منها تقلوا اخبارها وخصب ارضها فدعا ذلك الى رغبة كثير من الناس فيها فسكنوها واخלטوا باهلها

فحصل بذلك تغير في جميع احوال الملة في الامور السياسية والدينية  
وفي هذه المدة تيقظت الملل الاخر الى مصر ففتح ذلك عليها ابواب  
المصائب وكان اهلبا قبل ذلك من حذقهم وخصوبة ارضهم  
متحصلين على ما يزيد عن حاجتهم وكانت العلماء وارباب الوظائف  
في غنية عظيمة وسعة تامة فبذلك كانت دائرة المعلومات اذ ذاك  
متسعة وإدارة الحكومة منتظمة بقوانين عدلية فكان قانون العدل  
بها له السلطان ولواؤه متشراً فوق راس كل انسان من ابتداء  
منيس الى اخر العائلة الثامنة عشرة بخلاف سكان البقاع الاخر  
والكلام في هذا المبحث يطول وليس الى ساحله وصول وقد اذف  
الوقت ويلزمنا ان نغير الهواء ونريح الفكر بالنتزه في بعض جهات  
البلد ثم بعد ذلك نتوجه لصاحبنا



## المسامرة الخامسة والثمانون

وصف

بعض أنحاء باريس

فقام الشيخ الى غرفته وادى من العبادات ما يلزمه في ديانتته  
ثم غير ما عليه من الملابس فلم يلبث برهة من الزمن واذا ببرهان  
الدين قد حضر فقال له والده يا بني تهباً للخروج فانا مدعوون  
فتهباً كما امره والده في زمن يسير ثم توجهوا الى غرفة الانكليزي  
فاخذها وسار بها الى ان وصلوا ميدانا محاطا بابنية عالية محملة  
بصور متائلة وغير متائلة ووسط هذا الميدان صورة قلة مرتفعة  
فوق قاعدة مربعة وسط سعة مبلطة وحول تلك الصورة درابزين  
من كل الجهات فوقف الشيخ وولده والانكليزي ينظرون اليه  
والى الصورة الموضوعه في اعلاه فقال له الانكليزي الصورة التي



تراها هي تمثال نابليون الاول الذي اخذ مصر حين القيام الاول  
واغار بجيوشه على جهات كثيرة من اوروبا وانتصر مراراً عديدة  
الى ان آل الامر الى اخذه اسيراً وحبس في جزيرة سنت هيلين الى  
ان مات ثم احضر الفرنسيس جنته ودفنوها لاجل بقاء ذكره  
ورفعوا له هذا التمثال وهو من حجر الأّانه مكسو بتونج المدافع  
الماخوذة من النمساويين وغيرهم وارتفاعه ثلاثة واربعون متراً ومن  
داخله سلم ضيق يصعد منه المتفرجون الى اعلا القلعة وكان في  
محل هذا التمثال قبل ذلك تمثال الملك لويز الرابع عشر المشهور  
وكان على قاعدة من الرخام الابيض وكان فوق حصان من التونج  
فلما حصل قيام الامة الفرنسية كسروه ووضعوا مكانه هذه  
الصورة وفي مدة الملك لويز الثامن عشر صدر الامر بنزول  
التمثال في سنة ١٨١٤ فانزلوه ولكن في مدة الملك لوي فيليب  
عمل التمثال الذي تراه ووضع محله وكان يوم وضعه يوماً مشهوداً  
حضرت فيه عساكر الرديف والآلايات وكثير من اهالي المدينة  
وحضر الملك بنفسه مع جميع خواصه ورجال دولته وكانت  
الموسيقات تضرب والمغنون يترنمون بالالمان والناس في اعلا  
درجة الفرح

فقال الشيخ الذي يظهر من ان ملة الفرنسيس عندها طيش  
وخفة لان ما تستحسنه في يوم تستقبحه في غد وليس لها ثبات على  
حال واحد وهذا مما يوجب دوام اسباب الخلل اذ من الواجب

عليهم بقاء احترام من اسس لهم هذه الشهرة العظيمة التي كانت سبباً في رفعة قدرهم واتساع دائرتهم وقوة سطوتهم وهيبتهم واحترامهم عند جميع الامم حتى نشأ لهم من ذلك ما فيه من السعادة والتقدم ما لا يخفى وما حصل في مدته من الخلل لا يدعوهم الى تنزيله عن درجته المستحقة له فان ما وقع من الشراييمه لم يكن مقصوداً له بل ذلك تقدير العزيز العليم ولو قدر على منعه باي حيلة ما قصر وما اسسه لهم دليل على غزارة عقله فانه احدث لهم ما يفخرون به فكان ينبغي لهم ان يديموا تعظيم هذا التمثال واحترامه وبيناهم في هذا الحديث واذا بهم وصلوا حديقة السراية الملوكية وكان وقت الاصيل فوجدوها جنة لا يكاد يوجد لها مثل كثيرة الازهار جارية الانهار مخضرة الاشجار مخضلة الربى معتلة الصبا بها خلق كثير ما بين عظيم وحقير ونساء ورجال وشبان واطفال ما بين فطيم ورضيع ورفيع ووضيع فالرضيع على عاتق مرضعته وابن السنين الى الخمسة مع دادته يتنوعون في الالعب فمنهم من بيده عصا يضرب بها كرة ويتبعها حيثما ذهبت ومنهم من بيده طارة قدر الغريال بحركتها بالسرعة والنباهة ويدخل في وسطها ويخرج مع عدم قطع حركتها وآخرون يسوقون طارات مختلفة القطر بعضا فيضربها بعضهم والبعض يمسك حبالا بيده فيجره من تحت قدميه ومن فوق راسه والعباب اخر كثيرة التنوع مع نظافة الاطفال وسلامة ابدانهم وحسن صورهم وامثالهم

للمربيات واتباعهم او امرهن فعند ذلك تذكر الشيخ القاهرة واحوال  
 اطفالها الوخيمة وطباعهم الذميمة ودناسة ملابسهم وكثرة بكائهم  
 وعنادهم وقارن بين الحاليتين وعوائد اطفال الامتين وتمنى ان  
 تكون تربية اطفال المصريين كالجاري بباريز لتخلص الاطفال  
 من ربة الامراض الناشئة من عدم تريضهم وحبسهم داخل بيوت  
 اهلهم فمن ازدياد فكره في ذلك واشتغاله بما رآه هنالك كان لا  
 ينظر الى من يمر به من الناس المتجملين بالملايس الفاخرة وارباب  
 الوجوه الناضرة وكان كلما قرب من جهة بها اطفال يعين النظر  
 فيهم ولا ينقل طرفه عنهم ولكن لما كان عالما ان الانكليزي لا  
 يخرج عن رايه توهم في نفسه ان موافقته له ربما كانت على خلاف  
 رغبته فقال يا صاحبي ارجو منك السماح وعدم المواخذة فاني  
 حظيت هذا اليوم بنظري لهؤلاء الاطفال حظوة لا تعادل وسررت  
 بروءيتهم سرورا لا يماثل وازالت روءيتهم عني هموما كثيرة فنعم ما  
 يفعل بهذه الاولاد وان هذه الاصول التي هم عليها لفي غاية السداد  
 فان فيها حفظا للاطفال من العاهات ولولا هذا الارتياض للحتم  
 ما يلحق ابناء المصريين من الامراض

فقال الانكليزي ومن عوائدهم ايضا كلما وجدوا الجو صافيا  
 ان يذهبوا باولادهم او يرسلوهم الى محلات التنزه في اليوم مرة او  
 مرتين الى ان تقوى بنيتهم فيرسلوهم الى المكاتب ليتصلوا على ما  
 فيه مصلحة لهم ولاهلم

وبالتجارب وجد من يموت منهم قبل هذه الرياضات أكثر من يموت بعدها في هذه فائدة عظيمة من حيث زيادة تعداد الأهلالي وزيادتهم يزيد الخير لأن ثروة الأمة تابعة لزيادة عدد أهلها وفي داخل البلدة وخارجها حدائق وميادين مثل هذه وفيها من الأشجار والحيطان ما ينشرح به صدر كل إنسان وناقورات وهياكل للزينة كل ذلك مجعول لتروح الناس وترى أفكارهم وقت التنزه

ثم سار الشيخ والأنكليزي فيا من جهة مراياها الأقبلها خلق كثير في زي واحد لا يفرق الإنسان بين الأمير منهم والحقير والغني والفقير وكانوا لا يسمعون غير خرخشة الفساتين ودوي العربات ومناغاة الأطفال والفاظ رخيمة من ربات الدلال وهكذا كان يسمع من كل جهة ثم سارا حتى وصلا إلى ميدان بنيانه من أحسن البنين فمد الشيخ بصره يمينا وشمالا وخلفا وأماما فوجده محاطا بمنازل عالية البناء حسنة التقاسيم وعليها درابزينات متنوعة الأشكال ملونة بالوان مختلفة لا يخرج واحد منها عن مجاوره ولا يعلو عليه ولا يتفاوت بعضها عن بعض إلا بزيادة الرونق والزينة ووجد جميع الطرق مزدحمة بالخلق ازدحاما عظيما وكأنه يوم عيد لما على وجوه الناس من الفرح وعلى أبدانهم من الملابس الحسنة فصار الشيخ يتفكر في ذلك ويتأمل كل التأمل فلما رآه الأنكليزي مستغرقا في الفكر ينظر للناس تارة ولغيرهم أخرى قال

له ايها الاستاذ هل لك ان تفت ههنا هنيهة امام هذا الملك  
المفارق لاهله المعزول عن ملكه بعد بقاءه فيه ثلاثة الاف سنة  
فلما سمع الشيخ ذلك الكلام التفت فرأى عموداً مرتفعاً الى السماء  
لا يدرك اخره البصر ولم ير الشيخ مثله ولا سمع به فيما مضى وغير  
فقال للانكليزي ما هذا الذي ارى فقال هذا عمود يقال له المسلة  
واصله من مصر وكان بصحراء الاقصر والي الحجاج فاهداه محمد  
علي باشا لشارل العاشر فنقله الى هنا ووضع في هذا الميدان ليكون  
اعجوبة الى اخر الزمان

وبينا هما كذلك واذا بشيخ كبير انسل من بينهما وهو يقول  
هذا اثر من اثار المصريين الذين اخنى عليهم الزمان دال بذاته على  
عظم قدرتهم وقوة باسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزانة عقولهم  
وتالله انا ما علمنا الا بعض ما عملوا ولا وصلنا الا لقليل مما وصلوا  
فيا ايها الاثر الجليل انبئنا عن احاديث الماضين وما كانوا عليه في  
تلك السنين فقد مر عليك سنوات واعوام وليال وايام وشاهدت  
ما فعله الظالمون وجناه المعتدون فافصح لنا عن تاريخ ما رأيت  
من الامم واعرب عما جرى بينهم في الزمن المتقدم وها انت في موضع  
غير الاول فهل تعيش قدر ما عشت وتنظر من الحوادث قدر ما  
نظرت فالتفت الانكليزي فرأى الناس في ازدحام من خلف وامام  
فاوسع للشيخ الطريق واخذ بيده وترك الناس في فريق الى ان  
وصلوا العربية فركبوها وصار الشيخ يسئله عن تلك الاعاجيب وهو

يجيبه كأنه أمها وأبوها فقال له إن أهل الإطلاح يقولون إن الواضع لهذه المسئلة رامسيس الأكبر صاحب الفتوحات الكثيرة والمصادمات الشهيرة ببلاد الشام والعراق والحبش وكان يوم وضعها بباريس يوماً مشهوداً فلم يتخلف أحد عن الخروج والنظر إليها حتى الملك وعائلته ولهج الباريزيون بذكرها وإطالوا البحث عن حجرها وعن الملوك الذين في زمنهم رسمت والنوع الذي منه قطعت وهي عندهم إلى الآن من أعاجيب الزمان

ثم ساروا حتى وصلوا إحدى الجهات فنظر الشيخ فرأى سراية قد تحلت بالصور العجيبة الشكل والهياكل النادرة المثل بين أعمدة من الحجر شاهقة الارتفاع قاسمة جميع الجهات السراية أقساماً متساوية الأضلاع وعلى الباب حرس بالسلاح يتمشون فقال الشيخ ما هذا المكان الذي أراه عجيب المنظر حسن المنظر وما هذه الأعمدة الرفيعة والهياكل البديعة فقال الإنكليزي هذا مسكن ملوك الفرنسيين الآن ويقال له سراي التويلري ومعنى هذا اللفظ في الأصل محل ضرب الطوب وقد كان كذلك قبل بناء بقي الاسم وذهب معناه وبجواره سراي اللوفر كانت قبل بناء التويلري مسكناً للملوك أيضاً ثم جعلت الآن محلاً للرسوم والهياكل

فقال الشيخ وهل يمكن الآن أن نراها فقال إنها لا تفتح إلا في أيام معينة وأوقات مخصوصة وفيها مكان كله صور ورسوم يدخله النقاشون والمصورون لأجل تمرنهم على صناعتهم فإذا جاء اليوم

الذي تفتح فيه ذهبنا ان شئت لننظر ما هناك من الرسم الغريب  
الصنع والصور البديعة الوضع  
فقال الشيخ سجان الله ان هذه الدنيا لا يبقى فيها شي على  
عهد بل لا بد ان يناله نصيبه من الشقاء والسعد  
وإذا مررت على الديار وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

فقال الانكليزي صدقت ايها الاستاذ فان هذه الحداثق والمباني  
العالية والطرق القوية كانت قبل ذلك بركا يخزن فيها الماء  
والاوساخ وكان منظرها اقيح من منظر الخراب ثم انه في القرن  
الثالث عشر صارت محلاً لمعامل الفخار الذي يغطون به سقف  
المنازل وقاية لها من الامطار وكانت الملوك اذ ذاك تسكن سراية  
الموفر ولكن لم تكن وقتئذ مزخرفة الظاهر كما هي الان بل كانت  
عبارة عن برج مستدير عالي السور وحواليه خنادق متسعة عميقة  
لا يمكن عبورها الا بواسطة قناطر يرفعونها بالسلاسل في اوقات  
معلومة وفي ذلك الوقت بسبب كثرة تحزب الامة الفرنسية  
وعداوتهم لبعضهم وملكهم كانت بينهم فتن لا تنقطع فكانت همة  
الملوك مصروفة لامر الحرب ووقع الاعداء والمحافظة على انفسهم فكانوا  
لا يشتغلون بامر الزينة والمزخرفة ثم ارتفع الخوف وهذأت الفتن  
واطمئنت القلوب وقويت علائق الاتحاد فازدادت ثروتهم واتحدت  
كلمتهم ووجهتهم فصاروا كأنهم رجل واحد وصار يضبط حكومتهم

قانون واحد وساروا تحت راي ملك استقر ارايم عليه فذهب منهم جفاء الطباع واخذت الاحوال القديمة تذهب شيئاً فشيئاً وبعد ان كان جل همهم صلابة البناء وقوته وارتفاعه ومئاته صار مطع نظرهم الى حسن صورته وتناسب اجزائه ولطافته فاخذوا يزينون اماكنهم ويتغالون في زخرفها حتى وصل بنائهم الى ما تراه وبعد ان كان لا يتمكن احد من القرب الى سراي الملك صارت الناس تمر كما ترى في طرفاتها وتحوم في حوماتها ويدخلون من جميع الابواب من غير منع ولا حجاب فكل زمن له حكم

وفي زمن الملك فرنسوا الاول اشترى محل سراي التويلري وكان فضاء يبلغ قريباً من مائة فدان مصري واشترت والدته ما جاوره وبنت فيه محلاها ولم يبدأ في سراي التويلري الا في وقت ماري دومدس ومن ذاك الوقت سكنها الملوك وصار كل ملك يضيف اليها شيئاً ولم تكن من اول الامر متصلة بسراي اللوفر بل كان بينهما فضاء وبيوت للاهالي فصارت الملوك تشتري هذه البيوت شيئاً فشيئاً ويدخلونها ضمن السراي ولم يصل هذا المكان الى الهيئة التي تراها الان الا مدة نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس وان كان نابليون الاول ولويس فيليب وغيرها من قبلها اشترىوا كثيراً من البيوت وادخلوها ضمن السراي وصرفوا في ذلك مبالغ جسيمة من المال

وفي تقسيم المدينة اعنبت سراي اللوفر وسطا وجمع طرق



البلد متصلة بها وتنتهي بالمحيط ولما قسموا المدينة جعلوها عشرين  
 خطا وسموا كل خط باسم أشهر مكان فيه فالاول يسمى باللوفر  
 لوجود سراية اللوفر به والثاني بالبرتينة والثالث بالتامبل ابي المعبد  
 والرابع بالمحافظة وهكذا

وبعد برهة وقت العربية فنزلوا لدى مكان فطرق الانكليزي  
 بابه ففتح البواب ودخلوا واذا بصاحب المنزل قابلهم بالترحب  
 وسار امامهم نحو ديوان عظيم متسع مفروش باحسن الفرش منقوش  
 سقفه باحسن النقش وحائطه من كل جهة بالورق المنقوش  
 بالذهب وفيه من عجائب الرسم وغرائب الصنعة ما يسر الناظر  
 وارضه من خشب الجوز مفرغة في قوالب اشكال هندسية منتظمة  
 وكان هناك ثلاثة من ارباب الجمعية الشرقية كلهم يتكلمون  
 بالعربية وغيرها من اللغات الشرقية وكذلك صاحبة المنزل مع  
 اثنتين من النساء الحسنان فلما قرب صاحب المنزل من المجلس  
 عرف الحاضرين بدرجة الشيخ في المعارف وغزارة مادته في العلوم  
 وفصاحته في العربية فقاموا له واجلوه واجلسوه وسطهم وأنسوه  
 وجلست صاحبة المنزل عن يمينه فصارت تحييه باحسن ما عندها  
 من التحيات ويترجم احد الحاضرين للشيخ تحياتها وكان مطمح نظر  
 الحاضرين الى برهان الدين لكونه كان اشد حياء من والده حسن  
 السميت كثير الصمت فاعجب صاحبة المنزل اذبه وكماله فكان  
 اغلب حديثها معه وكان الانكليزي قريبا منها فكان هو المترجم

لكليهما ولما حضر الطعام اجلسته عن يمينها والشيخ بينها وبين زوجها  
ثم اخذوا يتناولون الطعام ويتجادبون اطراف الكلام ويتسألون  
اسئلة اثناس حتى رفع الطعام فرجعوا الى الديوان ودار بينهم  
المحدث في كل قديم وحديث بخصوص مصر وما احتوت عليه  
من المحاسن قديما وفي هذا العصر وخصوبة ارضها واعندال قطرها  
وصفاء هوائها ومن سكنها من القدماء والمحدثين ومن تصرف في  
امرها من الاولين والآخرين وتداول الدول في الاواخر والاول  
وما اعتورها كل زمن من المنخ والمحن وكان من جملة المحاضرين  
رجل قد ناهز السبعين عليه الوقار والجلالة معظم لدى المحاضرين  
مسموع الكلام عندهم اجمعين طلق اللسان في اللغة العربية فظهر  
للشيخ من كلامه انه مارس كثيراً من المعارف المشرقية لانه رأى  
غالب كلامه اللغة العربية والفقه واشعار العرب وبنوادر الادباء  
ورآه حافظاً لكثير من غرر القصائد ومنتخب كلام البلغاء يمزجها  
بنوادر مستطرفات ويقارن بعض لطائف كلام العرب بما يقابلها  
من كلام الافرنج فعجب الشيخ من ذلك كل العجب وطرب من  
منادته كل الطرب فطال بينهم الكلام وانفسح المقام ودخل معهم  
الانكليزي والمحاضرون اجمع منهم من تكلم ومنهم من سمع وخاضوا  
بين جد وهزل ومفضول وذو فضل وحوادث البوادي والمحاضرات  
في الغواير والمحاضرات الى ان قرب الليل من الاتصاف وجاء  
اوان النوم فاستاذن الانكليزي وقام الشيخ والمحاضرون وتواعدوا

بالاجتماع فقال ذلك الرجل للخوارج اني اريد ان اتشرف بك  
 وبحضرة الشيخ الليلة القابلة فاعذره له الشيخ ووعده بان يحضر الى  
 منزله في الليلة التي تليها وانصرف كل مسرورا بما حصل له من  
 الاثناس بمن رآه من امثال الناس وذهب عن قلب الشيخ ما داخله  
 من الم الاغتراب وفراق وطنه والاحباب وشكر الانكليزي على  
 حسن صنيعه به وعلى ما اسداه اليه من البر وتعرفه باحسن  
 الناس فقال يا حضرة الشيخ هذا بعض ما يجب عليّ وغاية مناي  
 اطئنان خاطركم وادخال السرور عليكم وقد علمت الليلة سرور  
 من اجتمعنا به بحضرتكم لاسيما الرجل الهرم فانه انجذب الى حبكم  
 بكليته فمن الواجب دوام الود بينكما وقد رجاني في ذلك وهذا لا  
 باس بمعرفته فانه من مشاهير هذا الوقت علما وادبا ومن خيار هذه  
 الامة حسبا ونسبا وله تآليف عديدة في علوم شتى ومعرفة بلغات  
 متعددة فضلا عن كونه رئيس الجمعية المشرقية معدودا من علماء  
 اروبا وامريكا ومن اعضاء جمعية الملة واني لارى ان معرفة مثل  
 هذا اصل يبني عليه معرفة امراء البلد واكابرها

فقال الشيخ ومن لي بمثل هذا فاني استظرفت كلامه وعجبت  
 لجودة قريحته وذكاء فطنته وتوقد ذهنه مع كبر سنه  
 فقال الانكليزي وكيف رايته في علومكم قال هو مع غلبة  
 العجبة عليه في النطق لبعض الالفاظ العربية ذو قدم راسخة في  
 العلوم وله اطلاع على كثير من كتب العرب وتضلع من علم

الادب ولا بد انه ساح في كثير من بلادنا ومارس فضلاء العباد  
حتى تمكن ما تمكن

فقال الانكليزي نعم فانه حكى لي انه اقام بمصر مدة سنين  
وتوجه الى الحجاز واقام بمدة مدة ثم سافر الى عراق العرب ونزل  
بغداد وساح تلك البلاد ثم ذهب نحو عراق العجم وسكن تحت  
ملك فارس وكل ذلك كان لطلب العلم فحجني منه ثمرات واقتطف  
زهرات واما بلاد اوروبا فلم يترك منها بقعة الا وله فيها شهرة  
وسمعة حتى جنى من ثمار معارف كل جهة احاسنها واقتطف من  
ازهار كل فن اطايها وفي مدة تغربه حاز الفضائل من الافاضل  
واكتسى الوقار من معاشر الامثال وستسبر غوره متى كثر الاجتماع  
وتأكدت علائق الالفة



## المسامرة السادسة والثمانون

## تعدد الزوجات

ثم وصلا محل سكنهما فحبي كل صاحبه ودخل الشيخ غرفته فتوضأ وصلى صلاته وقرأ بعض ادعية ثم دخل فراشه ونام حتى الصباح فلما استيقظ من نومه دخل ولده عليه وجلس بجانبه بعد تقبيل يديه ثم قال له والده قد آنسنا اهل مجلس الليلة فانهم اذكيا ظرفاء واظن انك كنت في غاية الانس بصاحبة المنزل فاني ما رأيتها فارقتك ولا رأيتك مللت حديثها وكنت احيانا تمدق النظر نحو صواحباتها وهن كذلك فغض برهان طرفه وتبسم واطرق راسه ولم يتكلم فقال له والده ما الذي دار عليه حديثكم لا بد ان

تخبرني بما جرى بينكم فقال سألني صاحبة المنزل عن حال النساء  
عندنا وعن والدي واخوتي فاجبتها بما يليق ثم سألتني أمتزوج ام لا وهل  
والدك معه غير امك ام لا فقلت لها اما انا فلم اتزوج واما والدي  
فليس معه غير والدي ولم يتزوج بغيرها فقالت وكيف ذلك مع  
ان المشركين يحبون تعدد النساء فقلت لها كثير من المسلمين  
لا يتزوجون بغير واحدة وليس التعدد محتا عليهم وإنما قد تعرض  
للانسان اسباب تلجئه الى ان يعدد نساءه والشرع عندنا لا يمنع الا  
ما زاد عن اربع واما ملك اليمين فلا حظر فيه ولو كان ما كان  
فضحكت احدى النساء متعجبة وقالت حيثذ يمكن الغني ان يقتني  
الوفا للتمتع بهن فقلت لها نعم فقالت حين ذاك لا يعرف لاحداهن  
فضل عن غيرها فاي بلدة تصنع بنسائها هكذا وكيف تكون معيشة  
النساء بها لا جرم انها عيشة غير مرضية ولا شك في ان نسائهم  
لا ينقطع لهن زفير من الم الغيظ الكامن في انفسهن وان كل واحدة  
انتهزت فرصة من الاخرى تفعلها بها لتحظى بزوجها او سيدها  
دونها واظن انه اذا كان صاحب عائلة على هذا النسق لا يسر  
خاطره ولا يروق ناظره ويقضي يومه وليلته في دعاويهن مع بعضهم  
ومعه فتارة يكون خصما وتارة حكما وربما لا يأمن على نفسه وماله  
من عائلته فالعجب كل العجب من هذا الاصطلاح الذي هو منشأ  
الفساد في حياة الانسان وبعد موته فان ما يحصل بينه وبين

عائلته في حال حياته لا بد ان يحصل اشد منه بينهن وبين اولادهن بعد ماته خصوصاً عند قسم التركة أتظن ان هناك قانوناً للزواج احسن من القانون الذي عندنا فقلت لها ان احسن قانون واحته قانون شريعتنا الغراء فانه قانون الخالق المدبر لامورنا المتكفل برزقنا وقد جاء به الانبياء المرسلون المطهرون المقربون عليهم الصلاة والسلام وكل ما جاء به الرسل يجب علينا السير بمقتضاه من غير زيادة فيه ولا نقص ومن خالف الشرع وتعدى عن حدوده استوجب الحد كما لو خالف افرنجي انجيل عيسى عليه السلام او يهودي تورية موسى فانه يعاقب على مقتضى شريعته ولا يسوغ لاحد ان يسير بمقتضى عقله ويترك ما وردت به الشريعة فان عقل الانسان محل للخطاء وايضاً ليس في النوع الانساني من هو اوفر عقلاً من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والله فيما نراه من الخلاف بين الشرائع عند التشريع حكمة خفية لا تدركها عقولنا ولو اطلعنا عليها لرجعنا الى الحق وتركنا ما سؤله الشيطان حتى وقع عند بعض العقول موقع قبول واستحسان واما اشتغال البال بالذي يحصل من منازعات الضرات فلا يحسن وجهاً للتحسين والتقيج فقد يكون هناك من له امرأة واحدة وهو منغص العيش من قبلها مشوش الفكر بسببها فكل نفس جعل الله لها من هموم الدنيا وحظوظها نصيباً على قدرها وقد يحصل التوافق بين زوجات ويتنظم الحال ويحسن المال

فقال الجميلة منهن البديعة بينهن ليس للانسان الا قلب واحد فلا يهوى غير شي واحد وكيف يقسم بين اثنتين فقلت لها دوام المحال من المحال فانه لو تعلق قلب الانسان بذات من الذوات والفها اشد ما يكون من الالفه وتولع بها وهام فلا تثبت له هذه الصفة على الدوام بل متى انتقضت مدة التعلق قصيرة كانت او طويلة وتخلي القلب عما علق به سكن غيره فيه واظن انا لو تأملنا لوجدنا هذه الحالة لدى كل الناس لا تخص جهة دون اخرى ولا خلقا دون اخرين ففي قانون شرعنا لو وجد الرجل بقلبه كراهة لزوجنه يسوغ له فراقها وكذلك هي لها ان تشتري منه عصمتها او تطلب منه ان يفارقها ويتخلص كل من الم الكراهة واما عندكم فلا حيلة ولا خلاص لاحد الزوجين من صاحبه تحابا او تباغضا فتبسمت صاحبة المنزل من قولي وقالت لمن تحدثني قد الزمك المصري المحبة فحجبت ولم نتكلم بعد ذلك وكان صاحبنا الانكليزي معنا وهو المترجم لي ولها عما دار بيننا من الحديث فكان يقوي حجتي فقد فهمت من كلامه ان قال لمن ان بقاع الارض مخالفة لبعضها في احوالها وكل امة سكنت بقعة منها كانت امور نظامها واحوالها على حسب ما تقتضيه حال بقعتها تتما للنظام وتوافقها بين البقاع وما فيها من الحيوان والنبات والمياه والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك وايضاً فان المقصود من



الزواج انما هو زيادة النوع الانساني فلو فرضنا انه جار في بلاد  
 المشرق كجربانه في بلاد المغرب لحصل الخراب في ارض المشرق او  
 العكس لما وسعت بلاد المغرب اهلها فان المولودين في اوروبا  
 اكثرهم ذكور والمولودين في الشرق اكثرهم اناث فنسبة الاناث  
 المولودين بارض المانيا مثلا الى الذكور المولودين بها كنسبة مائة  
 واربعة الى مائة هذا وان كان من يموت هناك من الاناث صغيراً  
 اكثر من يموت من الذكور فان العبارة في التعادل بمن بلغ سن  
 البلوغ من النوعين واما زيادة الذكور عن الاناث في ارض فرنسا  
 على العموم فهي جزوء من خمسة عشر جزءاً بخلاف باريز فان زيادة  
 المولودين الذكور عن الاناث بها جزوء من سبعة وعشرين جزءاً  
 وفي لوندرة نسبة المولودين الذكور الى الاناث كالنسبة بين عددي  
 تسعة عشر وثمانية عشر وفي مدينة نابولي من بلاد ايطاليا كنسبة  
 اثنين وعشرين الى واحد وعشرين وفي بلاد الفلمنك وما جاورها  
 كنسبة ثلاثة وعشرين الى اثنين وعشرين وليس ذلك مجرد قول  
 بل كله ثابت بجميع نتائج تعداد هذه الجهات في نحو من مائة سنة  
 فظهر من هذا ان الذكور ببلاد اوروبا اكثر من الاناث بخلاف  
 ارض مصر وبلاد النوبة وبلاد الشرق فقانون الطبيعة عندهم  
 جار على عكس ما عندنا لان المولود من الاناث عندهم اكثر من  
 الذكور بقدر ثمن عدد الذكور وهذه حكمة ابدية واردة ازلية وفي

بلاد الصين وياپونيا زيادة الاناث عن الذكور بقدر السدس وقانون الفناء جارٍ تقريبا على هذا المنوال في اوروبا النسبة بين الاموات الذكور والاناث كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين وخمسة وعشرين وفي مصر على مقتضى الجداول التي حررتها الافرنج تكون النسبة بين من يموت من النساء ومن الرجال كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين الى عشرين فمعناه ان من يموت من النساء اكثر ولكنه غير مساوٍ لكمية المولودين هذا مال ما فهمته من كلامه معهن ثم ضرب لي مثلا بمديرية المنيا وبني مزار فقال ان الملك الاشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان مسح قطر مصر كله وعد اهل المنيا وجميع قرى المديرية وكان ذلك سنة ثمانمائة وخمسة عشر فوجد اهالي تلك المديرية قريبا من العدد الذي وجدته الافرنج حين عدوا تلك المديرية فان رجال اهلهما كانوا مدة الناصر تسعة عشر الفا وثمانمائة في ثلاث وثلاثين قرية وخمسة عشر الفا وسبعائة في ستة وستين كفرا والفين وثمانمائة وواحداً وعشرين في ثلاث وعشرين نزلة والفا وستمائة وثلاثة وثلاثين في ثمانية وثلاثين لجمعاً فمجموع ذلك تسعة وثلاثون الفا واربعمائة واربعة وخمسون رجلا ويجعل عدد النساء اكثر من عدد الرجال بقدر الثلث كما دلت على ذلك التجارب يكون مجموع النساء اثنين وخمسين الفا وسبعائة وخمسين فيكون جميع اهالي المديرية من

الذكور والاناث مائة الف وثلاثة الاف نفس وثمانائة وفي وقت  
الافرنج وجدوا اهالي المديرية المذكورة مائة الف واربعة الاف  
وستمائة وخمسين نفسا فيكون الفرق ما بين مدة الملك الناصر  
وبين عدد الافرنج لهذه المديرية اي من سنة الف وثلثمائة وخمسة  
عشر الى الاف وسبعمائة وثمان وتسعين نحو ثمانمائة نفس في ظرف  
اربعمائة وثلاث وثمانين سنة وهو شي يسير جدا لكن يلزم ان يلاحظ  
انه في تلك الاوقات كان ياتي الطاعون في كل اربع سنين مرة  
وفرار اناس كثيرين بسبب ما كان يحصل اذ ذاك من الجور  
والظلم هذا ما لاح بفكري وبناء على ما سبق يعلم سبب تعدد النسا  
في بلاد المشرق دون بلاد المغرب وارجو ان اسمع من جنابكم ما  
عندكم في هذه المسئلة

فقال الشيخ لاشبهة في ان القوانين العامة التي يراد بقاؤها  
على مرور الازمان يجب ان تكون ملحوظة الاصول والفروع  
بلواظ الاستحسان وان تكون مربوطه بعقل صحيحة واغراض  
حميدة يفهمها كل احد ويرى ان لا سداد لاعماله وحسن حاله  
وماله الا بالركون اليها والتعويل عليها سواء كان القانون من  
الفيض الالهي الذي لا يكون مسبوقا باجالة فكر وتدقيق نظر  
وهو المسمى وحيا والهاما وحملة الانبياء والرسل وتسمى تلك القوانين  
باسم الشريعة والدين او كان القانون باجالة الفكر وتدقيق النظر  
ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب فما كان منها اسهل مسلكا واعلى

غاية وأبعد من شوائب الفساد وأقرب الى الضبط واجمع للخير  
انحط عليه الاختيار وتطابقت فيه الآراء وأصحاب أولئك القوانين  
يسمون باسم الحكماء وقوانينهم تسمى الحكمة العملية وهي قسمة الحكمة  
العملية والحكمة العلمية منقسمة الى أربعة أقسام القسم الأول سياسة  
الشخص نفسه وهذا القسم هو المسمى بين أهل الإسلام بعلم الأخلاق  
والتصوف الظاهر وقد وضع علماء المسلمين فيه كتاباً جمة كقوت  
القلوب لآبي طالب المكي ونصف أحياء العلوم لمحجة الإسلام الغزالي  
( ويشرح في هذا العلم ما جبل عليه الإنسان من القوى وأثارها  
وتقسيمها الى أصول وفروع فيبين مثلاً أن الإنسان ذو قوة غضبية  
هو من جهتها سبع وقوة شهوية هو من جهتها بهيمة وقوة عاقلة  
هو من جهتها ملك من الملائكة وروح من الأرواح المقدسة وإن  
لكل من القوى تابع هي لها بمنزلة الخدم والعمال والقوة العاقلة هي  
السلطان الأكبر وأنه يلزم الإنسان أن يكون تصرف قواه تحت  
أوامر القوة العاقلة ونواهيها ) القسم الثاني سياسة المنزل بان يعرف  
ما للمنزل وعليه من الحقوق وما لاهله من الوظائف اللائقة  
بأشخاصه فيسلم لكل شخص وظيفته بعد إيقافه على حدودها وأعمالها  
وغاياتها القسم الثالث سياسة المدينة وهو كالقسم الذي قبله وغاية  
الأمر أن المدينة منزل أكبر القسم الرابع سياسة القطر وبالتامل  
يعلم أن جميع السياسات مرتبطة ببعضها ارتباطاً متيناً كما هو من مقتضى  
النظام الفطري الذي عليه مجموع العالم أزمته وإمكانة إذ لا ريبه

في ان العالم شخص واحد ذو اعضاء واذا تمهد هذا علمت انه يجب في كل قانون شرعا كان او غيره ان ينظر الى علله التي اسس عليها وغاياته التي يرشد اليها فانها المحافظة له الموجبة لبقائه الممكنة له من القلوب فان مدار امر الحي على ما يحفظ به حياته اصلا وتوابع فكل امر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب وكل امر اوجب فيه نوعا من الفساد فهو مبغوض غير انه اذا نظر في احكام المصالح العامة وتاييدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها جارية على منهاجها ومتى كان النظر مقصوراً على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ولم يتم امر مصلحة لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة ومن الامور العظيمة التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بقانون منتظم امر اجتماع الذكور بالاناث فانه مع كونه مانعا من لحوق ما يشاء عن الامتلاء فهو السبب في بقاء النوع وتكثيره وللانسان بين طبيعته التي يشارك بها سائر الحيوان واسطة تميز بها عنه وهي العقل فهو لا يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه الا تبعا للاحكام العقلية ولما لم تكن الانظار العقلية والطباع النظرية كافية في ذلك من الله علينا بان ارسل لنا انبياء تلقينا منهم ما لا تفي به الانظار العقلية فكان من شريعة موسى عليه السلام ان يجمع الرجل في عصمته ما شاء من النساء فلما جاءت شريعة عيسى عليه السلام نسخت ذلك واوجبت الاقتصار على واحدة وتوسطت الشريعة المحمدية كما هو شأنها في كثير من الاحكام فاجازت

العدد الى الاربع ومنعت ما وراء ذلك كما اجازت فراق واحدة  
واحياز اخرى وحيث كانت الشريعة المحمدية مبنية على العدل  
والاحسان واجنباب انواع الظلم والعدوان وكسر عادية القوى  
السبعية والبهيمية وقد امرنا باتباعها والاهتداء بانوارها لم يكن امر  
تعدد النساء محذوراً الا في المحال ولا في المال فانه اذا نظر لبقاء  
النوع وتكثيره كما هو المأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا  
تناسلوا تكثروا كان التعدد اعون على ذلك الغرض وانجح وان  
نظر الى المساعدة والمعونة فالكثرة مع الائتلاف واتحاد الغرض  
خير من عدمها ولا نظر في الدين لمجرد الشهوات اذ لو نظر لها  
لوجدنا ان المرأة الواحدة تعجز كثيراً من الرجال واذا كانت النساء  
في بقعة اكثر من رجالها والضرورة داعية الى توزيعهن فتعدد  
الزوجات لازم غير ان استحكام الجهالة والغاء مدارس الديانة وترك  
بناء الاعمال على احكامها وانقطاع المواعظ المحسنة النافعة المفيدة  
بين الرجال والنساء تولد منه العود الى مقتضيات الطباع من  
الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات  
والدخول في الامور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة فاخزل  
قانون الازدواج ولحقه الفساد وقامت المشاققة فخلاصة القول ان  
جميع الاشيا حسنها وقبحها ومدحها وذمها تابعة لكيفياتها وتناجها  
فها طابت كيفيته وعظمت ثمينته لم يخلف احد في حسنه . اه .

## المسامرة السابعة والثمانون

## التعداد او الاحصاء

ثم دخل الانكليزي والشيخ يلقي لابنه هذا الكلام فانتقل  
الحديث بهم الى مسألة تعداد اهل الارض وذكر ما في ذلك من  
الفوائد السياسية وبيان ما وضع له من التقريبات فكان من  
الانكليزي ان قال لو قلنا مثلاً ان النسبة بين الموجودين بارض  
فرنسا وبين المولودين بها في السنة الواحدة كالنسبة بين عددي  
واحد وواحد وثلاثين فهم منه معرفة جميع اهل فرانساً تقريباً بضرب  
عدد المولودين في عدد واحد وثلاثين ومثل ذلك ما لو قدرنا  
ان النسبة بين اهالي جهة من المانيا والجهات الشمالية وبين  
المولودين بها كالنسبة بين عددي واحد وتسعة وعشرين وثلاث  
والقصد من ذلك معرفة عدد الامة على سبيل التقريب وهذا لا

باس به بل قد يجب على المحكام لينبوا عليه مقاصدهم في اصلاح حال رعاياهم وهذا علم نفيس معتنى به عند الامم الاوروباوية وله فوائد عندهم منها معرفة من بقي من ولد في يوم واحد مثلا بعد مضي عدد من السنين ولهم في ذلك جداول يذكرون فيها ان بعد سنتين الا ربع سنة يموت ربع من ولد في اولها ويبقى الثلاثة الارباع وبعد اربع سنين الا شهر يبقى ثلاثة اخماس فقط وبعد تسع يبقى ثلاثة اثناسع وبعد عشرين سنة الى الثلاثين النصف وبعد خمس وثلاثين الى اربعين يكون الباقي خمسين وبعد الاربعين يبقى الثلث وبعد مضي خمس وخمسين سنة لا يبقى الا الربع ثم بعد سبع وستين يكون الباقي ثلاثة اجزاء من عشرين جزءا من الاصل ومتى بلغ العمر سبعا وسبعين سنة يكون الباقي جزءا من ثمانية عشر جزءا من الاصل وبعد مضي خمس وثمانين سنة يكون الباقي اثني عشر جزءا من الف جزء من الاصل وبعد اربع وتسعين سنة يكون الباقي ثلاثة اجزاء من الف جزء وبعد مائة وخمس سنين وثلاثة ارباع السنة يكون الباقي جزءا من مائة الف جزء ومتى بلغ العمر مائة سنة وتسع سنين يكون الباقي جزءا واحدا من الف الف جزء من الاصل اي انه لو فرض ان الاصل كان المولود في يوم واحد الف الف لا يبقى منهم بعد هذه المدة الا واحد عمره مائة سنة وتسع سنين

فهذه الوسائل تكون افكار المحكام تابعة لسير الامة في جميع



تقلاتها وحركاتها نحو السعادة والفقر والقوة والضعف والكثرة  
والقلة فعلى مقتضى ما يروونه يخون نحو ما فيه الاصلاح  
فقال الشيخ من المعلوم ان الافرنج لم يقيسوا بمصر غير ثلاث  
سنين وهم في قتال دائم فكيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا  
الاستكشاف مع انها بقيت في يد غيرهم اعواماً وقروناً ولم يحدثوا من  
ذلك شيئاً

فقال الانكليزي لا غرابة في ذلك فان الاعمال تابعة للنيات  
فمن سبق على الافرنج كان لا يشغله عن شان نفسه شأن وما كان  
يحصل عليه كان كافياً لما يلزمه واما الافرنج فكانت نيتهم غير نية  
من سبقهم وباختلاف الاغراض تختلف الاعمال انظر الى المرحوم  
محمد علي باشا حين وليها بعد الافرنج فحدث فيها اموراً عميمة  
وجلب اليها من البلاد الاجنبية كل صنعة غريبة ثم تبعه في ذلك  
من بعده ممن ورثها من ولده فتراها بعد ان كانت في زوايا النسيان  
مهجورة العمران لا ذكر لها بين الامصار قد كساها التمدن حلل  
المخار فقصدتها العافون من كل واد وغلت مزارعها واضحت نزهة  
للناظرين وبساتينها عقود جمان رصعت بالدر الثمين وما من سنة  
تأقي الا ويستجد بها من المنافع ما يفوت المحصر من فوائد جديدة  
ومحاسن عديدة والمغارس تزداد والثمار تنمو وبعده ان كان  
كثير من ارض الزراعة بها قد استحوذ عليه العدم وصار لا ينبت  
من طفو ماء البحر الملح عليه او تغطية الرمال له حصل الالتفات

في مدته ومدة اولاده فصلح اكثرها وزرع وظهرت الثمرة لاهلها وقد كان بالجهات الجرية من مصر منافع مياه متسعة وبها كثير من الحشائش فكانت بطول مكث الحشائش وركود الماء يحصل منها تعفن وامراض يترتب عليها تلف للاهالي فصارت الان لا يرى لها اثر وتبدلت حشائشها بالزراعات النافعة كالارز والقمح والحنطة وغير ذلك

فقال الشيخ ان ذلك متوقف على العلم بما كان عامراً وغامراً بمصر قديماً فلو عرفنا ذلك أمكن الحكم بتفضيل احد المحالين وتفاوت ما بين الزمانين فان من المؤرخين كابن اياس من يقول ان المنزرع من ارض مصر زمن السعودي اعني في حدود القرن الرابع كان مائة وثمانين الف الف فدان ويبلغنا الان عن بعض صيافة البلاد ان جميع المنزرع من ارض مصر ما بين الاربعة الاف الف والخمسة الاف الف فتكون نسبة ما بين الزمانين كنسبة واحد الى ستة وثلاثين او خمسة واربعين ولا اظن ان هذا الفرق كان يزرع ثم هجر فلعل في عبارة ابن اياس تحريفنا والاف هو خطأ والذي يؤيد ذلك قوله ان في ذلك الوقت كان لا يجبي الخراج على بكرة ابيه الا اذا بلغ عدد من يشتغل بالزراعة اربعمائة وثمانين الف نفس في جهات القطر مع ان الموجود حين التعداد الذي صار في زمنه ليس الا مائة وعشرون الف نفس وكان المنزرع اذ ذاك ربع الزمام فان اراد الفدان المصطلح عليه

خص كل شخص من المائة والعشرين ثلاثمائة وخمسة وسبعون فداناً ولا يعقل زراعة هذا القدر بشخص واحد وإن أراد بالفدان أقل من الذي نستعمله كالتقيراط مثلاً فيخص كل شخص من المائة والعشرين ألف نفس حينئذ خمسة عشر فداناً فيكون القدر الذي أراد وضعه ألف ألف فدان وستائة ألف فدان وليس مائة وثمانين ألف الف فدان وإذا كان للشخص الواحد خمسة عشر فداناً لا يبعد عليه زراعتها وما يدل على أن في عبارة ابن آياس تحريفاً أو خطأ ما ذكره في موضع آخر عن المسعودي أيضاً من أن مساحة أرض الزراعة جميعها بالقطر المصري مسير ستين يوماً فإن كان قصده سعة طولها وعرضها ستين بسير الإنسان فالمساحة الذاتية الآن لا توافق المساحة الأولى أصلاً والذي يغلب على ظني غلبة تقرب من اليقين أن الأصل ألف الف وثمانمائة ألف فدان وإن الناسخ لكتاب ابن آياس أضاف صفرًا فحصل منه هذا الخطأ الفاحش

فقال صاحبه الأنكليزي قد قلت صواباً فإن المساحة التي صارت مدة الأفرنج ومن قبلهم توافق ما ذكرت فقد صار حصر جميع الأرض المنزروب عليها الخراج في جميع الجهات وتحررها قوائم من طرف صيارف الجهات فوجدت ثلاثة آلاف فدان ومائة وثلاثة وستين ألف فدان وستائة وثمانية عشر فداناً وقوبل ذلك على ما استنبطه مهرة المهندسين وحرروه من رسم الأرض وهو

ثلاثة الاف الف ومئتان وسبعة عشر الف فدان وستائة وسبعة عشر فداناً فوجد بينهما فرق قليل نشأ من اختلاف طرق الحساب بين مساحي الاهالي والمهندسين وحيثئذٍ فهذا المقدار اعنباره صحيح لا شك فيه فانه موافق لما وجد في دفاتر المساحة زمن الملك الناصر سنة ٧١٥ هجرية الموافقة لسنة ١٢١٥ ميلادية وهو ثلاثة الاف الف ومائة واثنان وسبعون الف فدان ومائة وستة وثلاثون فداناً ولا عبرة بما بينهما من الفرق لانه ناشئ من اختلاف طرق الحساب والقياس

ثم قال ولا يخفى على حضرتكم ما حصل في القطر المصري بعد زوال ملك الفراعنة واستيلاء الاغراب عليها من الاسباب التي اوجبت تاخيرها وعدم انتظام حالها ونشأ من ذلك تلف كثير للارض بتركها واهالها وفرار اهلها حتى خرب كثير من البلاد فمن ذلك يعلم ان ما وجده الافرنج مزروعا بوادي مصر ليس جميع ما كان يزرع في الازمان السابقة بل لا بد من اضافة ما كان قابلاً للزراعة ولم يزرع في ايامهم وكذلك الترع والجسور التي انشئت وارض البلاد التي استجدت وما اتلفه البحر المالح بعد تلف الجسور وترك المحافظة وضمه الى ما كان يزرع زمن الفراعنة وهذا الامر لا صعوبة فيه من بعد ما حرروا من الرسوم وقد امكن بسببه معرفة مساحة القطر وما اشتمل عليه بغاية الدقة كالمبين ادناه

فدان	
ارض مشغولة بالسكن	٧٣٠٥٨
مساحة المنزوع والقابل للزراعة	٢٢١٦٧١
غير الصالح للزراعة	٧٤٩١٤٠
جزائر النيل	٣٦٦١٣
ترع وخليجان وجسور	١٢٠٥٦٣
اماكن السكن والخراب	١٦٣١٦
مساحة مجرى النيل المشغول بالماء	١٥٨٩٤١
البيئات والبرك	٩٤٢٨١٠
الارض الرملية	٢٢٧١٣٤
جملة ذلك	٥٥٢٤٢٥٠

اي خمسة الاف الف فدان وخمسمائة واربعه وعشرون الفا ومائتان وخمسون فدانا من الفدان الذي مساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون متراً مربعاً وهذا القدر يعادل من الفراسخ المربعة التي كل فرسخ منها يدخل في الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة الفا وسمائة وثلاثة وستين فرسخاً مربعاً وثلاثي فرسخ تقريباً والمزروع من ذلك يعادل تسعمائة وخمسة وستين فرسخاً مربعاً ونصفاً فان اضيف الى ذلك مساحة الخرسة وهي

٢٢٤٨٧

ومساحة الجزائر المتروكة وهي	١٠٠٩٤
ومساحة ما عدم من الجسور والترع وهي	٨٢٩٠
ومساحة التلال والخراب وهي	٢٦٨٢
ومساحة الرمال من ارض الزراعة وهي	٦٨١٨
ومساحة ما تلف بسبب البرك وهي	٢٣٠٠٠
ومساحة ما غطته الرمال وهي	٤٩٠
	<hr/>
كان المجموع	٢٢٠٠٦١

اي ان الذي كان يظن زرعه في عهد الفراعنة الفان ومائتان فرسخ مربع تقريباً منها في الوجه القبلي الف وخمسمائة فرسخ وفي الوجه البحري سبعمائة فرسخ والمتنفع به من ذلك الان قريب من الفين وخمسمائة فرسخ مربع والمتروك مع امكان زرعه وانتفاع الاهالي به عند قدرتهم وثروتهم سبعمائة فرسخ مربع وهذا موافق لقول ابن اياس بعد التصليح الذي ذكرنا وذلك انا اذا ضربنا المنزرع في وقته وكان قدر ربع ما كان يزرع قديماً في اربعة يحصل سبعة الاف الف فدان ومائتا الف فدان وهو عبارة عن الفين ومائة وخمسة وخمسين فرسخاً مربعاً والفرق بينه وبين ما قدرته الافرنج قليل جداً فبناء على ما ذكرنا يكون ما يزرع في الايام السابقة قريباً من سبعة الاف الف فدان وما كان يزرع مدة الافرنج اقل من النصف وكذا ما كان يزرع مدة الملك الناصر

فقال الشيخ اذا كان ما يزرع الان نحو خمسة الاف الف فدان  
فيكون قد زاد عما كان يزرع ايام الفرنج نحو الثلث وهذا مما  
يفيد التقدم بلا شك

فقال صاحبه الانكليزي حصول التقدم بمصر امر غير منكر  
وارض مصر قابلة لان يزرع بها ضعف ذلك واكثر واذا التفت  
الى قطر مصر امكن ان يزرع به كل ما كان يزرع سابقا وان  
يرجع ما كان له من الثروة القديمة والذي يغلب على ظني ان في  
هذا التقدير خطأ فان قدر الفدان المستعمل في جباية الاموال  
الان سبعة عشر قيراطا من الفدان الذي كانت الافرنج قدرته بمعنى  
انه ثلث وربع الفدان القديم واذا لاحظنا ذلك وجدنا ان الخمسة  
الف الف هي الثلاثة الاف الف وخمسمائة وثلاثة وستون الف  
فدان ومائة وثلاثون فدانا فيكون الفرق عن مدة الافرنج ثلاثمائة  
واربعة وخمسين الف فدان فقط وهذه نتيجة اعظم من النتيجة  
الحاصلة من ابتداء الملك الناصر الى دخول الافرنج وهذه مدة  
تقرب من اربعمائة وثلاث وثمانين سنة حصل فيها نقص ثمانية  
الف فدان وخمسمائة وثمانية عشر فدانا باعتبار المقرر في قوائم  
الصيارف ودفاتر الخراج

وعمار قطر مصر ليس الا بتقدم الزراعة فكما حصل زيادة  
الائتفات الى الزراعة واتسعت ارضها زاد تعداد اهالي القطر وكما  
حصل اهمال في الزراعة وضاعت ارضها نقص التعداد ففي الازمان

السابقة كان تعداد الاهالي كثيراً جداً لان الفراعنة كان لهم اعناء  
 بامر الزراعة وقد بلغ عدد الاهالي في زمنهم الى مقدار عظيم وان لم  
 نثفق المؤرخون على قدر معين فان هيردوط وهو اقدمهم قال انه  
 كان بمصر في وقت امزيس نحو عشرين الف مدينة وقرية وفي  
 زمن بطليموس وديودور الصقلي اقتصر على ثمانية عشر الفا وجعل  
 عدد الاهالي سبعة الاف الف نفس في زمن الفراعنة وفي زمنه  
 نقص الى ثلاثة الاف الف وكانت جيوش الفراعنة الف  
 الف نفس وعدد العساكر التي ساقها سيزوستريس من مصر في  
 محارباتها ستمائة الف من المشاة واربعة وعشرون الفا من الخيالة  
 خلاف سبعة وعشرين الف عربية حربية وتوكرت فاق الجميع  
 وجعل العدد ثلاثة وثلاثين الفا في زمن بطليموس فيلدولغوس  
 وغيرهم قدر ان تعداد المدن ثلاثة عشر الفا فقط ومن قول يوسف  
 الاسرائيلي يؤخذ انه لم يتعدّ تعداد الاهالي في قطر مصر عن سبعة  
 الاف الف خلاف الاسكندرية التي جعل عدد اهاليها ثلاثمائة  
 الف وقال انه كان في مدينة بيلوز عساكر للمحافظة على القطر من  
 جهات الشرق يبلغ عددهم مائتين وخمسين الفا

ومؤرخو هذا الوقت لم يكتفوا في عدد المصريين بمبالغة من  
 سبقهم من المؤرخين الذين ذكرناهم بل زادوا عليهم بما لا يتصوره  
 العقل فمنهم من قال ان عدد الاهالي سبعة عشر الف الف ومنهم  
 من قال سبعة وعشرون الف الف ومنهم من قال اربعون الف



الف ومبالغة الجميع ظاهرة لانه لا يتصور في بلدة نسبتها الى فرنسا كنسبة جزء الى اثني عشر جزءاً ان يعيش بها هذا القدر ونحن وان كنا لا ننكر كثرة اهالي مصر مدة الفراغنة لكن لا يمكننا ان نقول انهم يزيدون عن سبعة الاف الف فان سعة ارض القطر حسب ما قدره الاقدمون الفان ومائتا فرسخ وهذا موافق ايضاً لما هو الان ولتقدير الافرنج بعد رسمهم سطح الارض جميعه ومن القدر هذا مدينة طيبة ومنفيس وباقي المدن وهو مع وروده عن اقدم المؤرخين الذين ساحوا ارض مصر في زمن يقرب من الزمن الذي زال فيه ملك اهلبا وانحط فيه مقدارها مناسب لسعة ارضها الزراعية التي بها حياتهم وما قاله بعض المؤرخين يمكن ان نبرهن عليه ولا مانع من انه كان الموجود بها ثمانية الاف مدينة وقرية وكفر كما قال بعضهم لا كما قال ديودور من انه كان بها ثمانية عشر الف مدينة لان في الجزء الاخير من البطالسة كان عدد القرى والكفور والمدن ثلاثة الاف وكانت ارض الزراعة اقل من نصف ما كان يزرع سابقا ولا مانع من ان عدد البلاد كان قدر ذلك مرتين ايام كانت القوانين العدلية القديمة هي المتسلطة وذلك قبل دخول الاغراب من العجم واليونان وغيرهم هذا القطر وخراب ارضه وهدم بنائه

فقال الشيخ اني سمعت ان مدينة طيبة كانت اكبر مدن الدنيا عمارةً وانها كان لها مائة باب كل باب يسع مائتي فارس

فاذا كان كذلك فلا شك انها تشغل سعة من الارض عظيمة  
وانها كانت مسكونة بخلق يزيدون عن ساكني القاهرة الآن بمرار  
كثيرة

فقال الانكليزي ولوان ايدي الزمان وصروف المحدثان  
غيرت معالمها ودرست رسومها واعنت مبانيها واخنت على مفاخرها  
الآن ما بقي الا ان من اثارها دال على ان شكل المدينة في الزمن  
القديم كان عبارة عن اربعة اضلاع عظيمة الامتداد وان احدى  
الزوايا تنتهي الى المحل المعروف الان بكفر جرجس والثانية الى  
الشاطىء الايمن للنيل والثالثة الى شاطئه الايسر وتسمى الان تل الايسر  
عند تل قبور الملوك والزاوية الرابعة الى المعبد او البرجي الصغير  
الموجودة على الميدان الكبير فكان بناء على ذلك يمر الضلع البحري  
بالقرية المعروفة بالتخاني وبجزيرة الورزية وينتهي قريب القرية  
والضلع القبلي كان يمر في قربه مائة عمود قاطعا للجزيرة الجديدة  
وخراب الكربك كان يوجد على بعد سبعمائة متر من الضلع الجنوبي  
ومساحة الارض المحدودة بهذه الحدود تقرب من سبعة الاف  
فدان مصرية

وطول اعظم قطري في هذه الاربعة الاضلاع احد عشر الف  
متر ومحيطه ستة وعشرون الف متر فاذا استنزل من ذلك مساحة  
مجرى النهر وهي خمسمائة فدان تقريبا مع مساحة الميدان الكبير  
وخراب السراي الملوكية الموجودة في جنوب الاقصر على بعد ثلاثة

الاف متر كان الباقي ما كان مسكونا من هذه المدينة في الازمان  
السابقة وقدره خمسة عشر الف اورور او خمسة الاف فدان مصرية  
كبيرة

وإذا قارنا تخت مصر القديم بتختها الان وهو القاهرة فلا يكون  
اهل طيبة في الزمن السالف اقل من سبعمائة الف نفس لان  
محيط القاهرة ثلاثة عشر الف متر وخمسمائة متر بدون اعتبار  
الاعوجاج الداخل والخارج وباعتباره يبلغ محيطها اربعة وعشرين  
الف متر ومساحتها الفاً وخمسمائة وثمانين فدانا تقريباً وهو ربع  
مساحة ارض باريز وعدد اهلها بالتفحصات التي صارت مدة الافرنج  
يقرب من مائتين وستين الفاً وذلك سنة الف وسبعمائة وثمان  
وتسعين ميلادية فعلى ذلك يكون قد خص الفدان الواحد مائة  
واربعة وستون شخصاً بادخال ارض المساجد والمحانات والميادين  
وغيرها وقياساً على ذلك تكون اهل طيبة ثمانمائة وعشرين الف  
نفس او سبعمائة الف بالاقول وما تقدم يعلم ان اهل القطر المصري  
كانوا كثيرين ولذلك كانت اشجار الثروة والرفاهة باسقة  
الاصول مورقة الافنان وكانت ارضها لما اشتملت عليه من البر  
والاحسان هي المشار اليها باطراف البنان وكانت ارباب الحاجات  
ما بين قاصدها وآت وكانت وفود التجار ياتونها ليلاً ونهاراً  
وثمرات العلوم تجني من مدارسها بواسطة ما بها من العلماء واستمر  
ذلك اياماً مديدة واعواماً عديدة حتى دخلها الفرس وبددوا شملها

فحلت باهلها المصائب واحاط بهم الظلم من كل جانب فاختل نظام  
احوالهم القديمة وذلت علماءهم واحقروا فرجع سعدهم القهقري  
وفارقت زراعتهم ارضها ومن كثرة الفتن الثائرة بين المصريين  
والفرس تلف اكثر الاثار الشهيرة وهدمت المباني الفاخرة ثم استولى  
على الاقليم البطالسة فاخذوا في رد كل شي لاصله لكن لم يتم  
ذلك فانه ان كان يحصل من بعضهم ما يوجب التقدم يجيء  
الوارث فيفعل ما يوجب التاخر فيقتت حالة التاخير الى ان  
استولت الروم وضمت مصر الى ملك القياصرة وجعلت طعمة لرومة  
فتمبوا اموالها وغيرها وحوالها ثم وقع الفشل بين الرومانيين وبعضهم  
فزاد انحطاط قدر مصر وذهب ما بقي من فضلها وما زال اهلها  
كذلك يتناقصون الى ان تولى عليها عمرو ابن العاص من قبل  
الخليفة عمر بن الخطاب فكان تعداد اهلها حينئذ لا يزيد عن اربعة  
الاف الف وستائة وثلاثين الف نفس بناء على ما ذكره المورخون  
فقد نقل ابو الحسن عن ابن خطير انه ضرب على اهل مصر  
خمسين الف الف يدفعونها على ثلاثة اقساط متساوية اذا كان  
النيل وافيا وبلغ حده المعلوم واذا نقص عن حده ينقص من  
المضروب عليهم على حسبه ومن يرضى من الروم وغيرهم بالشروط  
المعقودة مع اهل مصر يعامل بما يعاملون به ومن يأبى من الاهالي  
دفعها استقطوه من العدد فلو امكن معرفة ما دفعته المصريون  
وما ربط على كل نفر لم يصعب معرفة عدد الاهالي ويتوصل

لذلك ما ذكره مؤرخو العرب في هذا الخصوص  
 فمن قول ابن عبد الحكم يعلم ان في مدة الروم كانت الارض  
 منقسمة الى اربعة وعشرين قيراطا وكان المجموع على الفدان من  
 الخراج ارب قمع وويتان من الشعير

وهذا غير فردة الرؤس فانها كانت تدفع نقدا وان عمرو بن  
 العاص ابني الخراج علي ما كان عليه في مدة الروم

وذكر القدوري انه جعل علي كل غني في كل سنة ثمانية  
 واربعين درهما وعلى كل اجير اثني عشر درهما وانها كانت مضروبة  
 على اليهود والنصارى ما عدا عبدة الاوثان من العرب دون  
 المرتدين والنساء والاطفال وذوي العاهات والفقراء والمساكين  
 ومن يدخل في دين الاسلام وعلى هذا كانت الجزية اخذة في النقص  
 بزيادة من يتدين بدين الاسلام الى ان اعطيت التزاما في زمن  
 القاضي الفاضل اي سنة ٥٨٧ وكان مقدارها اذ ذاك واحداً  
 وثلاثين الف دينار ثم نقصت بعد ذلك كثيراً الى ان صارت  
 سنة ٨١٠ احد عشر الف دينار واربعائة

مع انها كانت في زمن عمرو بن العاص اثني عشر الف الف  
 دينار وفي زمن المتوقس عشرين الف الف

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصل  
 عبد الله بن سعيد عامله من مصر اربعة عشر الف الف  
 وفي زمن المقرئ تقصت نقصاً كلياً فكانت تدفع منفردة تارة

وتضم الى الخراج اخرى وكانت في زمن عمرو بن العاص لا تؤخذ الاً من بلغ الحلم وكانت النساء والاطفال معافاة منها وكان قدرها اربعين درهما من الفضة او عشرة دنانير خلاف ارب من البر ويؤخذ من قول يزيد وابي الحسن ان الذي كان مضروباً على كل رجل من القبط ديناران ولا بد ان هذا كان الحد الوسط يعني ان البعض كان مضروباً عليه اربعة والبعض ثلاثة والبعض اثنان والبعض اقل كما صار ذلك في توزيع ما ضربته الافرنج على اهالي القاهرة سنة ١٧٩٨ ميلادية فقد ضربوا عليهم تسعين الف حصة جعلوا منها تسعة الاف على الاغنياء قيمة الحصة اربعمائة واربعون ميدياً وثمانى عشر الف حصة على من يليهم في الثروة قيمة الواحدة مائتان وعشرون ميدياً وثلاثة وستون الف حصة على من يليهم كل حصة قيمتها مائة ميدي وعشرة والنسبة بين هذه الحصص كالنسبة التي كانت في زمن القدوري

والذي يدل على ان الدينارين الحد الوسط ما نقله المقرئ عن حسين بن شالي في الكلام على القرن الاول من الهجرة من ان اهل اسكندرية كانوا ستمائة الف خلاف النساء والاطفال حين استيلاء عمرو بن العاص عليها وانه ضرب على كل رجل من اهل القطر دينارين الاً اهل الاسكندرية فانهم دفعوا الفردة زيادة عن الخراج لانها اخذت عنوة فمن جميع ما تقدم يفهم ان الخمسين الف الف التي ضربت على اهالي القطر هي دراهم

ولا بد لنا الان من معرفة قيمة الدينار لانه تغير بتغير الازمان  
فانه كان مدة الحاكم بامر الله يساوي اربعة وثلاثين درهما وبعده  
بزمين صار يساوي واحداً وثلاثين ثم ستة وثلاثين ثم ثمانية عشر  
درهما وكان الدينار المصري يساوي خمسة عشر درهما ونصفا ثم  
صار يساوي ثلاثة عشر درهما ونصفا وفي الصدر الاول كان  
الغالب في المعاملة الدينار ثم صارت الغلبة للدرهم ثم الميدي فلو  
فرض ان قيمة الدينار كانت خمسة عشر درهما لكان مبلغ الخمسين  
الف درهم عبارة عن ثلاثة الاف الف دينار وثلاثمائة وثلاثة  
وثلاثين الف دينار فاذا اخذنا نصف ذلك كان عدد الرجال  
الذين كانوا يدفعون الجزية اي الف الف نفس وستمائة وستة  
وستون الف نفس وقد يمكن معرفة عدد الاطفال وغيرهم من  
جدول وضعوه لامة مركبة من عشرة الاف الف نفس مثلا ومن  
هذا الجدول يعلم ان بعد احدى عشرة سنة ونصف لا يبقى الا  
ثلاثة ارباع الاصل ونصف سدس قيراط

وبعد ست عشرة سنة يكون الباقي ستة عشر قيراطا وثلاث

سدس قيراط

وبعد عشرين سنة يكون الباقي اربعة عشر قيراطا ونصفا

وبعد خمس وعشرين سنة يكون الباقي اثني عشر قيراطا وثلاثا

وبعد ثلاثين سنة يكون الباقي عشرة قيراط ونصفا

١٠٠٠

وبعد سبع وثلاثين سنة يكون الباقي ثمانية قراريط ونصف  
سدس القيراط

وبعد ثلاث واربعين سنة ونصف يكون الباقي ستة قراريط  
وبعد خمس واربعين يكون الباقي خمسة قراريط وثلاثي  
قيراط

وبعد ثمان واربعين سنة يكون الباقي اربعة قراريط الأ  
سدس سدس القيراط

وبعد ٥١ سنة يكون الباقي اربعة قراريط الاسدس سدس  
القيراط

وبعد خمس وخمسين سنة ونصف يكون الباقي ثلاثة قراريط  
وبعد ثمان وخمسين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وثلاثا  
وبعد ستين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وربع سدس  
قيراط

فاذا تقرر ذلك علمنا عدد من وصل من الاطفال الى سن  
احدى عشرة سنة من امة عددها عشرة الاف الف بطرح الباقي  
بعد الاحدى عشرة وهو ثلاثة ارباع تقريبا من الاصل الذي هو  
عشرة الاف الف فيكون الباقي هو عدد من بلغوا في العمر احدى  
عشرة سنة وكذلك لو اردنا معرفة من بلغ عمره عشرين سنة الى  
خمس وعشرين نسقط المقدار المقابل للخمس والعشرين وهو الاثنى  
عشر قيراطا وثلاث قيراط من المقابل الى العشرين وهو اربعة عشر



قيراطا ونصف قيراط فيكون التفاضل ويكون الباقي قيراطين  
وسدس قيراط وهو تعداد من بلغ العبر المذكور ولا بد من  
الملاحظة في قسمة العشرة الاف الى اربعة وعشرين قيراطا  
ولاجل استعمال هذا الجدول في معرفة عدد اهل مصر زمن عمرو  
بن العاص نقول حيث كانت الاطفال معافة من الجزية فيخرج  
العدد المقابل لسن الاحدى عشرة سنة وهو خمسة قيراط وثلثا  
قيراط ونصف سدس قيراط فيكون ذلك بالنسبة للعشرة الاف  
الف الفى الف وثلاثمائة واثنين وسبعين الفا وثمانمائة واثنين  
واربعين والباقي وهو سبعة الاف وستائة وسبعة وعشرون  
الفا ومائة وواحد وخمسون هو عدد الرجال والنساء معا فعلى  
تقدير ان عدد النساء مثل عدد الرجال يكون نصف الباقي وهو  
ثلاثة الاف الف وثمانمائة وثلاثة عشر الفا وخمسمائة وتسعة وتسعون  
هو عدد الذكور ثم تنسب نسبة بان نقول نسبة عدد الرجال الى  
العشرة الاف الف كسبة العدد الذي وجدناه من حساب الجزية  
وهو الف الف وستائة وستون الفا الى العدد المطلوب ايجاده  
وبالحساب تجد انه اربعة الاف الف وثلاثمائة وتسعة وستون الفا  
فباضافة ثمن هذا القدر لزيادة النساء عن الرجال وباضافة جزء  
قليل في مقابلة الفقراء والمساكين يعلم ان عدد الاهالي اربعة  
الاف الف وستائة وثلاثون الفا تقريبا  
فقال الشيخ يظهر من ذلك ان تعداد الاهالي منذ دخل

الاسلام مصر نقص تقصا كثيراً عن المدة القديمة خصوصاً في المدة  
الاخيرة من ايام المنتصر بالله فان في وقته تصرفت ايدي العدوان  
وزادت اسباب الطغيان وانتهب الحكام ايراد الحكومة واهملت  
السياسة بتولي غير المستحق عليها لاحتفال والددة الخليفة وقمئذٍ  
بطائفة العبيد فاشتعلت نيران الفتن استعماً لا اضربها الي النظر وطمت  
المجادول والخيلان وعجزت الاهالي عن زراعة ارضها لانه كان اذا  
علا النيل غرقت واذا لم يعلُ شرقت لعدم اجراء الطريق اللازم  
للري وتصريف المياه فأدى ذلك الى صيرورة كثير من الارض  
مناقع ماء وخرّب كثير من الجهات البحرية واستمرت هذه الاحوال  
بل زادت زيادة فاحشة في زمن الباشاوات الذين كانوا مندوبين  
لسياسة الديار المصرية فان من اتى منهم كان لا يشتغل في السنة  
التي يقيمها الا يجمع المال لنفسه صارفا اوقاته في التمتع واللذات  
جاعلاً زمام الحكومة بيد من يوافقه على اغراضه من البيسكات  
وبهذا السبب كان الفشل مستديماً وعصا الخلاف بينهم مشقوقة  
وكثيراً ما يكون السبب في ذلك الباشا نفسه الذي هو منوط  
بادارة الامور فنشاء من هذا مضار اضعاف ما صار من قبل  
وامتدت ايدي الجند والعرب للنهب والسلب في الجهات البحرية  
والتبيلية فلم ينج من شرهم الا من دخل في حى قبيلة من العرب  
فحصل من هذا نقص كثير وبدا بالقطر خلل كبير وما يؤيد ذلك  
قول العلامة المقرئ انه في زمن المنتصر بالله كان ايراد مصر من

جوالي وخراج الف الف دينار في مبدأ امره وبعد مدة من حكمه وصل الى ثمانمائة الف دينار ثم نقص فوصل الى خمسمائة الف دينار الى ان عجز عن تأدية مرتبات الجند فاين هذا ما ضربه عمرو بن العاص وعبد الله بن سعيد وما كان في زمن الخليفة المأمون والخليفة المعتصم فانه بلغ في ايامها اربعة الاف الف ومائتين وسبعة وخمسين الف دينار اذا بلغ النيل حد الوفاء وهو سبعة عشر ذراعاً وعشرة قراريط وكان خراجها ايام الحاكم الف الف دينار وثمانمائة الف دينار ولما تولى بدر الجمالي وكانت ولايته سنة ٤٨٢ بلغ ثلاثة الاف الف ومائة الف دينار وفي زمن ابنه الافضل بلغت خمسة الاف الف دينار ولم يتقص عن هذا القدر زمن صلاح الدين وكانت مرتبات جنده ثلاثة الاف الف وستمائة وسبعين الفا وخمسمائة دينار ومرتب المتقاعدين الف الف دينار وفي زمن الملك الناصر بلغ الخراج تسعة الاف الف دينار وخمسمائة واربعة وثمانين الف دينار ومائتين واربعة وستين ديناراً بالدينار الحبشي الذي قيمته ثلاثة عشر درهما منها ستة الاف الف ومائتان وثمانية وعشرون الفا واربعائة وخمسة واربعون ديناراً تحبى من الجهات البحرية وثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وخمسون الفا وثمانمائة من الجهات القبلية

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان تعداد اهالي مصر وقت دخول الافرنج ارضها كان الف الف وستمائة وثمانية عشر الف

نفس وتسعمائة وخمسين نفساً وكان عدد اهالي كل مدينة هكذا

	عدد
اهل رشيد	١٥٠٠٠
اهل دمياط	٢٠٠٠٠
اهل محلة الكبرى	١٧٠٠٠
اهل سكندرية	١٥٠٠٠
اهل اسيوط	١٢٠٠٠
اهل قنا	٠٥٠٠٠
اهل جرجا	٠٧٠٠٠
اهل بني سويف	٠٥٠٠٠
اهل قليوب	٠٤٠٠٠
اهل بلبليس	٠٣٠٠٠
اهل المنصورة	٠٧٠٠٠
اهل طنطا ومنوف	١٥٥٠٠
اهل المنيا وملوي	١١٠٠٠

فعلي هذا تكون اهالي المدن مائة وسبعة واربعين ألفاً وسبعمائة وخمسين نفساً واما اهل القاهرة نفسها فكانوا مائتين وثلاثة وستين ألفاً وسبعمائة نفس وكان اهل القرى والكفور والعزب والنزلات التي الف وسبعة وسبعين الف نفس وخمسمائة فيكون اهل القطر

جميعهم ألفي ألف نفس وستائة وثمانية عشر ألف نفس وتسعمائة وخمسين وذلك أقل ما كان زمن دخول عمرو بن العاص بالف الف واحد عشر ألفا وخمسين نفساً

وكان عدد قري الوجه القبلي وكفورهِ وعزبه خمسمائة وخمسة عشر وعدد قري الوجه البحري ألف وسبعمائة وتسعة وسبعين فكون جميع البلاد بالوجه البحري والقبلي الفين ومائتين وأربعة وسبعين على مقتضى ما وجد في دفاتر الخراج وأما على مقتضى ما وجد على الخرطة فهو ثلاثة آلاف وستائة والفرق بينهما إنما حصل من كونهم في بعض الجهات يعدون عدة كفور بلدة واحدة فيقيد في الدفاتر كذلك ويقرب من هذا العدد ما كان في زمن الملك الناصر لأنه كان الفين ومائتين وتسعة وخمسين بلداً منها خمسمائة واثنا عشرة بلدة في الوجه القبلي في ثمان مديريات وهي

بلاد

٠٥٠ بلاد مديرية شرق اطفح

٠٩٧ بلاد مديرية الفيوم

١٥٦ بلاد مديرية البهنسا

١٠٢ بلاد مديرية الاشمونين

بلاد مديرية منفلوط

٠٢٢ بلاد مديرية اسيوط

٢٦. بلاد مديرية اخميم

٤٨. بلاد مديرية قوص

والف وسبعمئة وسبع واربعون في الوجه البحري في ثلاث

عشر مديرية

بلاد

٢٠. ضواحي القاهرة

٥٩. بلاد مديرية قليوب

٢٨٠. بلاد مديرية الشرقية

٢١٧. بلاد مديرية الدقهلية

١٢. بلاد مديرية دمياط

٤٧١. بلاد مديرية الغربية

١٢٢. بلاد مديرية منوف

٤٦. بلاد مديرية ابيار وبنى نصر

٢٢٢. بلاد مديرية البحيرة

٢٦. بلاد مديرية فوه

٠٠٦. بلاد مديرية نستروية

٠٠٨. بلاد مديرية سكندرية

٣٥٨. بلاد مديرية البحيزة

فمن ذلك يعلم ان اهالي القطر في القرن العاشر من الهجرة

كانوا قريباً من ألف وخمسة الف وهو قريب من عدادهم  
مدة الافرنج وبناء على ذلك يمكن مقارنة الازمان القديمة  
بالازمان التي تلتها ومعرفة تقدم الامة المصرية كل زمن  
وتأخرها

والكلام على مصر كثير فلتقتصر منه الان على ما ذكرنا  
وكان قد دعا الانكليزي بعض احبته ينزه نفسه في جنينته



## المسامرة الثامنة والثمانون

### الفلاحة والزراعة

فقال للشيخ قد دعانا احد المحبين لان تتروح في روضة له خارج المدينة بمسافة يسيرة واني مستصوب قضاء بقية هذا اليوم عنده في تلك الروضة ولنغتنم بهذه الطريقة رؤية جنينة فرانسا وسرايتها وننعم نظرنا بروئية بعض ضواحي المدينة وطيب هواء هذا اليوم وصحو السماء ولطافة شمسه ونلحق هذا اليوم بامسه وصاحب المنزل من الذين اجتمعت عليهم بالامس وهو من اعضاء الجمعية المشرقية ورئيس مجلس الزراعة وَوُلِّيَّ من عهد قريب نظارة الجفلك المعد لتجربة اخبار النباتات الغربية وطرق نجحها في ارض فرنسا وله ممارسة تامة في امر الفلاحة وتنوع طرقها في جهات مختلفة وله في فن الزراعة كتب مفيدة واختراعات جديدة واقوى باعث لي



على اجابته كون بيته في نفس الجفلك فنطلع هناك على تجرباته  
 وطرقة التي يستعملها مع استنشاقنا الهواء النقي والنظر لخواحي هذه  
 المدينة وقد ارسلت يعقوب ليجهز لنا ما يلزم من الاكل وامرته بان  
 يحضر العربة بعد ذلك

فقال الشيخ هذا ما قام بفكري فكانك عالم بسري فما تم  
 كلامهم الا ويعقوب قد حضر فقال للخواجا ان هناك مسافراً  
 يسئل عنك فقام الانكليزي متوجها اليه وغاب قريباً من ساعة ثم  
 رجع واخذ بيد الشيخ وتبعها ولده فقال له الشيخ من هذا فقال هذا  
 صاحبنا الذي اجتمعنا به في مرسلينا وقد حضر منذ يومين بالمدينة  
 والان جاء الى منزلنا ليسلم علينا فاخبرته بما عزمنا عليه فطلب ان  
 يكون معنا فقال الشيخ قد اصاب فانه من خير الاحباب وتم به  
 انسنا ثم ساروا حتى دخلوا منزلهم وكان المسافر قد سبقهم اليه فقام  
 لهم وسلموا عليه ثم حضر الاكل فاكلوا وشربوا وكانت العربات  
 حاضرة فركب الشيخ وصاحبه والمسافر واحدة ويعقوب وولد  
 الشيخ اخرى وساروا الى ان وصلوا سكة الحديد فنزلوا جميعاً في  
 عربة واحدة واخذ الحديث بينهم يدور فيما للدنيا من الاحوال  
 والامور الى ان وقف الوابور بعد ربع ساعة فنزلوا بالقرب من  
 محطة وجدوا صاحبهم الذي دعاهم عندها يتظرهم فسلم على الشيخ  
 وولده وعلى صاحبيه ثم امر بتقديم العربات فركبوا وبعد بعض  
 دقائق نزلوا قريباً من قصر مشيد عالي البناء يحيط بثلاث جهات

منه بساتين فيها من جميع انواع الاشجار المتوجة باحسن الازهار  
 ووجدوا باب القصر صاحبة المنزل وولدها ومعها بعض النساء  
 اتراها فلما اقبل زوجها بالشيخ ومن معه قابلتهم بالتحية واجرت ما  
 يلزم كعادتهم وبعد ذلك اخذ بيدها حضرة الخواجا الانكليزي  
 ودخلوا الى ديوان بهج المنظر فيه احسن انواع الفرش فمكثوا به  
 برهة ثم قال الانكليزي لصاحب البيت انما جئنا هنا لنرى سراي  
 فرساي وما بارض حضرتكم ليطلع حضرة الشيخ على محاسن مبتدعاتكم  
 في فن الزراعة

فقال ذلك قصدي ولكني ارى الباقي من النهار قليلا والذي  
 اراه ان تقيموا عندنا الليلة ليم لنا الانس بكم وفي غد نذهب جميعاً  
 واطلعكم على ما اعلمه من امر هذه السراية منذ انشئت الى الان  
 وما مر عليها من الاحوال

فقال الانكليزي الراي ما رأيت ولكن فيم نمضي بقية هذا  
 اليوم فقال بالانس بحضرة الاستاذ والاطلاع على ارض التجربة  
 وانواع آلات الفلاحة القديمة والجديدة  
 فقال الخواجا نرجوكم السماح في المبيت هذه المرة فان عندي  
 بعض اعذار ولا بد لي من العود

فقال صاحبة المنزل انا ممنونون لك حيث احللت الانس  
 بساخذنا وشرفتنا بحضرة الشيخ وحياتكم ان تفضلتم بالمبيت عندنا هذه  
 الليلة تم انسا وانبسطت بكم نفوسنا فشكر الشيخ فضلها ثم دعا لها

وقال الايام بيننا والعود احمد ثم انتقلوا على المحصور في يوم غير هذا وقاموا لينظروا محل التجارب فلما وصلوا اليه وجدوه مكاناً متسعاً يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما الى اقسام معتدلة بطرقات كذلك حسب الانتظام طولاً وعرضاً كل قسم مربع محاط باشجار في بعضها انواع الخضراوات وفي الاخر انواع من نبات الاقوات كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من اوراق مملوكة في قطع من الخشب قائمة في زوايا الميضان مكتوب فيها قدر البذر وعمره وسعة الارض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت بذره ومدة مكثه وهكذا فكان هناك قمح مصر الاحمر والابيض وقمح بلاد العرب وقمح المسكوب وبلاد اخرى كل صنف في حوضه في غاية الانتظام والاحكام بحيث تراها متساوية خضرة نضرة اعوادها متساوية ما بينها من البعد قوية غليظة الساق طويلة الاوراق فيها شدة خضرة تدل على قوة ارضها وكان صاحب الارض يقف عند كل حوض ويبين لهم حسن نباته وصفاته وفوائده والبلاد المجلب منها وقدر غلته وقدر الزيادة عن البذر ويبين نسبة ذلك المحصول لغيره من جنسه في البلاد التي يزرع فيها والاسباب التي نصح بها وهكذا كل صنف الى ان وصلوا الى قصر صغير في باب البستان فجلسوا هناك قليلاً ليستريحوا ثم دخلوا البستان فأوا فيه اصناف الازهار وانواع الفواكه والاشجار وغير ذلك ما يبهر العقول وجميعها مجلوبة من بلاد متنوعة وكانوا كلما وصلوا شجرة غريبة بين

لهم ما يتعلق بها الى ان تمت نزهتهم ثم سار بهم الى المكان الذي به  
آلات الزراعة مثل المحاريث ذوات العجل وآلات البذر والمحصد  
والدرس فكانت انواعا منها القديم المتروك باختراع احسن منه  
ومنها المستعمل من مدة وعلمت تتيجنه ومنها ما هو جار تجربته  
وجميعها مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر ثم عادوا الى القصر وجلسوا  
فيه ينظرون من شبابيكه الى البستان وما حوله فأروا الغابات  
على احسن شكل وصورة الارض في غاية البهجة وانواع المزارع تسر  
الخطير وتروق الناظر فعجب الشيخ كل العجب واستحسن نظام ما  
رأى واثني على الخواجا كل الثناء ومدحه كل المدح على اهتمامه  
بهذا الشأن وصرف افكاره في تطبيق قواعد علم الفلاحة النظرية  
على العمل واجرائها بالفعل وقال له ان ثواب اعمال الانسان  
على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة خصوصا فن الفلاحة فانه اكثر  
الفنون فائدة واعيا للناس نفعا فمن يحسن طريقه ويعم نفعه ويكثر  
فائدته يكون ثوابه اكثر فاني امة تبعت ضو مصباحه وسلكت  
سبيل نجاحه عظم ثوابها واشتهر بين الناس فضلها واما الامم التي  
لا ارض لها تزرعها كعرب البادية وكذا التي لم تشتغل به لجهلها  
بامرهم فمثلها كمثل الحيوانات العجم سواء بسواء وهذا الفن اقدم  
الفنون جميعا وبه اشتغلت الامم قبل الطوفان وعنهم اخذ من  
بعدهم يؤيد ذلك ما في الكتب المقدسة ان نبي الله نوحا عليه  
السلام زرع بعد خروجه من السفينة ومنه تعلمت ذريته حتى

انتشر في كثير من بقاع الارض بعد تبليل الاسن وتفرق اولاده  
وكذلك كان معروفا عند قدماء المصريين وغيرهم كاهل الهند  
والصين وبابل وما يدل على فضله معرفة الانبياء له كنبى الله  
اسحاق عليه السلام في ارض فلسطين ونبى الله ابرهيم وكيعقوب  
واولاده عليهم السلام لانه ارسلهم الى مصر لثراء غلال في زمن  
اجديت فيه ارضهم فحسبك فضلا بفن اشتغلت به الانبياء ولعمري  
ان فضله لا يعادل ونفعه لا يماثل وهو اصل التقدم وكل الصنائع  
فرع له

فقال له صاحب البستان هذا من حسن اخلاقكم ولطف  
طباعتكم ثم قال له الشيخ وهل يحتاج في معرفة فن الفلاحة الى كثير  
من الاعمال ويلزمه كثير من الممارسة

فقال ليس فن من الفنون يحتاج الى ما يحتاج اليه والمتفكر  
فيه الممارس له لا يعرف كيف وصل الاقدمون الى معرفته وطرقه  
المتشعبة المتنوعة سيما نبات الاقوات واستنباته والذي يزيد المرء حيرة  
اهتداؤهم الى حبة القمح من بين سائر انواع الحبوب التي تزرع  
وكان بعض الناس يزعم ان جميع الحبوب الغذائية كانت تشتمل  
على خواص وصفات وتكرار زرعها هو الذي صيرها اقواتا وهذا  
القول لا عبرة به فان ثقليل الصنف بالزرع وان غير بعض  
صفاته لا يغير حقيقته بالكلية فالصحيح ان جميع الحبوب على اختلاف  
اجناسها من ابتداء الامر بالهيئة التي نراها عليها الان وقد شوهد في

جهات كثيرة جميع انواع الحبوب يخرج من الارض بطبعه من غير استنبات وعدم مشاهدتها في بعض الجهات ربما كان من عدم الدقة في البحث او غير ذلك وعلى كل حال فن الزراعة انما وصل الى اليونان من المصريين ثم منهم الى الرومانيين ومن ذلك يعلم ان فن الفلاحة لم يدخل اوروبا الا بعد وجوده بافريقيا واسيا بزم من طويل ولذلك كانت سكان اوروبا في تلك الحقب تسكن الاجام والفلوات وتسبح كالحوانات في الغابات للحصول على الاقوات فبالضرورة كانت متوحشة خشنة مع ان كثيراً من جهات افريقيا واسيا في تلك الحقب كان محفوظاً بالنعم مشهوراً بالتقدم

واما ما يوجد في عصرنا هذا من المعرفة بالزراعة فجزء من فنها والذي يدل على ذلك انه لما تفرق الناس وتبلبلت الالسن بعد الطوفان وانتشروا في بقاع الارض فمنهم من وجد نفسه بارض سهلة الزرع كثيرة الخصوبة فاستعملوا فيها ما تعلموه من اصولهم ومنهم من وجد نفسه بارض ليست كذلك فلم يجدوا سبيلا الى استعمال ما يعلمونه من فن الفلاحة فمن صادف الارض السهلة زرع وتعيش ومن لم يصادفها هرع الى الاجام وتوحش وربما صادف بعضهم جهات فيها جميع انواع الحيوانات فاخترع طرقاً لتكثيرها لثقات بها وعلى مقتضى كثرة ما يلزم لفن الفلاحة يؤخذ ان من استعمالها بقي مدة يستعملها بحالة بسيطة فلم يكن عندهم محارث ولا كانوا

يستعملون الحيوان في الحرث بل غاية الامر انهم كانوا يستعملون قوى انفسهم كما شوهد ذلك في كثير من بقاع الارض فانه لما استكشفت أمريكا كان اهلها يستعملون قواهم فكانوا يمسكون بايديهم الة ينكتون بها الارض ويقطون بها البذر تسمى في بلاد مصر بالمعزقة وللان جهات كثيرة لا تعرف غير الطرق القديمة فسكان جزيرة فرانس الجديدة يحرثون ارضهم بالآلة جميعها من الخشب و جهات اخرى ليس عندهم غير المعزقة و جهات لا يستعملون في شق الارض غير نوع الفوس وفي جهات من افريقيا على شواطئ نهر جانبي قوم اذا ارادوا حرث الارض اجتمعوا اربعة اربعة او خمسة خمسة وشقوها بسيوفهم وكان سكان الكاناذا في الزمن السابق يشقون الارض بقرون الحيوانات وفي المدة التي كانت اكثر الامم غارقة في بحار الجهل كانت مصر منعمة البال ممتعة بالبحيرات فان الفلاحة كانت عندهم على ما نراه الان لم تتغير فكان عندهم المحراث واللواطة وباقي الالات ومما يؤيد ذلك احترامهم للثور المسمى ابيس وما ذاك الا لما راوا فيه من المزية

فقال الشيخ وهل يعرف اول من اخترع آلات الفلاحة

فقال نعم ورد عن المؤرخين ان اول مخترع للمحراث احد

فراعنة مصر المسمى اوزريس وهو الذي علم سكان ما وراء النهر استعمال الثور في الفلاحة ولا ينكر استعمال المحراث بمصر زمن

يوسف عليه السلام ولا استعمال الثور بارض العرب زمن ايوب  
عليه السلام

وكان المحراث في الاصل مركبا من قطعتي خشب احدهما  
قصيرة منبسطة على الارض تسمى البسطة وفي طرفها حديدة عريضة  
تسمى السلاح وهي التي تشق الارض والثانية طويلة ممتدة الى امام  
تسمى القوس وعند زاويتها الحادة حديدة عريضة لتثبيتها ببعضها  
تسمى البلنجة وعند موخر الخشبتين ثالثة طولها نحو ستة اشبار تسمى  
الريح وهي التي تكون بيد المحراث يزن بها المحراث حيث شاء وبقي  
له اجزاء اخرى غير ما ذكر كنت اسمع بها من اربابها وهذا هو  
الذي كان يحرث به اليونان والرومانيون واما بعض  
جهات امريكا فكانت آلات حرثهم عبارة عن قطعة خشب  
معوجة ثم عملوها فيما بعد من قطعتين ويؤخذ من قول ديودور  
ان اليونان كانت تحرث على الحمير وان موسى عليه السلام نهى  
عن ذلك

فقال الشيخ في بعض جهات الوجه البحري كالشرقية يستعملون  
الى الان آلة تسمى المعزقة فيجمع اربعة رجال او اكثر ويبد كل  
واحد منهم معزقة وينكثون الارض بعد بذرها فيتغطي البذر  
والتلويط الى الان مستعمل في الوجه القبلي وهو عبارة عن امرار  
قطعة خشب من نخل او غيره على وجه الارض اذا كانت كثيرة  
الوحد بعد بذرها ولست اعرف طريقا ابسط من ذلك واظن ان



جميع الاراضي التي تزرع بهذه الكيفية هي اول الارض عمارةً واستنباتاً لان هذه الكيفية اول ما يخطر بالبال وليس فيها كلفة فقال الحواجا جميع الطرق المستعملة بمصر الى الان قديمة جداً ومرسومة في البرابي وهي عشر طرق ذكر منها قدماء المؤرخين طريقة وهي ان بعض الجهات بعد القاء الحب في الارض يأتون بالخنمازير ويدورون بها حتى يتوارى الحب ولم تكن عقولهم قبل الطوفان قاصرة على معرفة الحرث والقاء البذر بل كانوا يعرفون ايضاً كل ما يزيد لها في صلاح الارض كتشبيدها بالرماد وارواث الحيوانات وكتعميمها بالمياه الكدرة كما هو جارٍ بمصر الى الان وذكر المؤرخون ما لقدماء المصريين من الاعمال الجسيمة مثل بحيرة مورس التي بارض الفيوم والجسور العظيمة التي انشاها فراعنة مصر لحفظ الارض من الغرق وقت فيضان النيل وكالمجداول التي بواسطتها تفرق المياه على جميع الارض وهذا اقوى دليل على ان الفلاحة وتثريد الارض كان امرًا معلوماً عندهم ويلزم من ذلك معرفتهم كيفية الحصاد وان كان لا يدري الزمن الذي اخترع فيه الاثنان المعوجنان المعروفتان عند المصريين بالمنجل والشرشرة ولعلمهم كانوا قبل اختراعهما يقلعون النبات بايديهم لوجود ذلك الى الان في جهات كثيرة واما الدرس الذي يستعمل الان لفصل الحب من عوده فلا بد انه تاخر زمنًا طويلًا لان معرفته تحتاج الى زيادة تقدم لما فيه من الصعوبة والذي كان مستعملًا عند المصريين

وغيرهم في هذا الامر هو جعل الزرع بعد حصاده حزمًا ينقلونها لارض متسعة منتظمة اعدت لذلك ويديرون البهائم فوقها حتى ينفصل الحب عن غيره وبعض الناس كان ياخذ قطعاً من الخشب ويسمر فيها احجاراً ويدورونها فوق تلك الحزم فينفصل الحب من غيره واهل فلسطين كانوا يستعملون عجلات ثقيلة فيدورونها بالبهائم وهذه الكيفيات باقية الى الان في جهات كثيرة من ارض فرانساً وغيرها واما الصينيون فكانوا يستعملون مهرسمة من رخام وكيفية التذرية لتمييز الحب عن التبن بواسطة الهواء باقية عند اغلب جهات الشرق وارض مصر و اغلب البلاد الحارة وآلة التذرية المسماة بالمذرى قديمة جداً لا يعلم وقت اختراعها ولا شك ان اختراعها من يوم اختراع الفلاحة فهو واصل الينا من تقدم على الطوفان وبالمجملة فجميع انواع الفلاحة وكذلك آلاتها واتقانها انما حصل تدريجاً على حسب دقة الصنعة وكثرة لوازمها ومن ذلك جعل الحب خبزاً والاقنيات به فانه يتوقف على اعمال كثيرة كالغريلة والطحين والنخل والعجن ثم تقطيع العجين وتسويته الى ان يصلح للاكل فان لكل عمل من هذه الاعمال آلات وكل آلة متوقفة على غيرها وغيرها متوقفة على غيره وهكذا فلا بد انه مضى على النوع البشري زمن وهو جاهل بجميعها ثم اضطرته الضرورة الى اختراعها شيئاً فشيئاً الى ان عرفها جميعها الا اننا لا ندري كيف اهتدى الاقدمون لمعرفة ما في القمح من المادة الغذائية

وان كان ذلك لا يمنع من عزو هذه الفنون الى من كان قبل  
الطوفان فانهم حين رست بهم السفينة وانتشروا على وجه الارض  
منهم من وقع في ارض قحلة لا تنبت شيئاً فاكتفى بما يجده في  
وهاها من الكلاء وما يقدر على صيده من نجودها وما يقذفه الحجر  
من السمك ونحوه ومنهم من صادف ارضاً صالحة فزرعها وتوتت  
بما يخرج من نباتها من غير طحن ولا خبز فان ذلك مما اهدوا  
اليه على ما حكاه بعض الفلاسفة مما راوه من فعل الاسنان  
بالحب حتى يصير كالدقيق ثم تلويك اللسان له حتى يمزج بالريق  
ثم ازدراده وبلعه فلما رأوا ذلك اتوا بمجربين كالرحى ووضعوا الحب  
بينها واداروا احدهما عليه ثم اخذوه ومزجوه بالماء ثم وضعوه في  
النار ليحف ويصلح للغذاء الى ان اهدوا الى ما يلزم له من الآلات  
كالمنخل والغربال والتنور كما ذكرنا

فقال الشيخ ومما يؤيد ذلك ما يفعله عرب البادية خصوصاً  
في اسفارهم فانهم لا يتزودون بغير الدقيق فاذا ارادوا الاكل عمدوا  
الى جانب منه فلتوه بالماء ثم اضرمو ناراً وصبروا عليها حتى يهدأ  
لهبها فاذا هدأ وضعوا عليها العجين حتى يحف بعض جناف  
فياخذونه ويسونه ثانياً بما تسرهم من اللبن او العسل هذا دابهم  
في اسفارهم ومنهم من يقلي الحب ويستفه ومن المصريين من يلدده  
بالنار قبل صلاحه ويدخره للطبخ ويسمى عندهم بالفربك

فقال الانكليزي وكذلك قبائل كثيرة من السودان لا يعرفون غير ذلك وكانت هذه الطريقة كثيرة الاستعمال في بلاد الهند بناء على قول هيرودوط ولكن هذه الطرق اخذت في الاندثار لتقدم الناس كل زمن فعملوا ان الغرض من الزراعة السنوية والانتفاع بها مدة السنة وان هذه الطريقة لا يتفجع بالبر بواسطتها الاّ مدة قليلة كشهرا مثلا فلا بد انهم بحثوا عن الطرق التي تعم النفع ولكن يلزم انهم لم يصلوا اليها الاّ على التدرج وحيث كان في اكل الحب بغلافه عسر والنفس تأنف منه فلا بد ان اول شي اشتغلوا به انفصال القشر عن لبه وان اول شي استعمالوه لذلك التخميص لان جميع القبائل المتوحشين من افريقيا وامريكا تستعمله الان واجمع المؤرخون على ان اول صنف اقتات به الاقدمون الشعير وحيث كان قشره لا ينفصل عنه الاّ بالطحن وكانوا وقتئذٍ لم يعرفوه استعمالوا التخميص لذلك والسياحون الى الان في بلاد الحبش لا يتزودون بغير الشعير المحمص وكانت الناس قبل اهتدائهم الى اختراع الرحي والطواحين تهرسه في اهوان فكان التخميص يسهل عليهم ذلك واما كيفية تقعه في الماء وتصفيته فقديمة وقد كان اليونانيون والرومانيون يستعملون ذلك ويتغذون به كما يفعل اهل الشرق بالارز واللان كثير من الناس تستعمل ذلك مثل قبائل الكلموكيين فانهم لا يتقوتون بغير الشعير فيضعونه في الماء اولا الى ان يلين ثم يعصرونه ليميز

عنه قشره ثم يضعونه في قدور ويوقدون النار تحته الى ان يقلى  
ثم يتناولونه بايديهم وليس لهم قوت بغير هذه الكيفية

ومن اليونان والرومانيين من كان يهرس الحب في اهلوان من  
خشب او من حجر لاجراخ الدقيق وفصل اللب من قشره وقد  
بقيت هذه الطريقة الى الان عند خلق كثيرين وقال هيرودوط  
ان سكان جزائر الانكليز كانوا لا يستعملون غير هذه الطريقة  
فكانوا يفركون السنابل بايديهم ليفصل الحب ثم يهرسونه في اهلوان  
ثم يعجنونه وياكلونه نيئا واما اهل بيرو من امريكا فكانوا يحففونه  
اولا على النار ثم يدقونه ويتناولونه بقطعة خشب كالمعلقة لا يفصلونه  
من قشره وعلى ذلك كثير من المتوحشين الى الان واما عند تمدن  
المخلق فكانوا قبل اختراع صنعة المنخل المعروف يعمدون الى بعض  
اغصان دقيقة فينسجونها ويخلون بها ومنهم من كان ينخل بخرق  
من القماش المخلل النسيج وما يشبهه قال بولين ان منخل اليونان  
والرومانيين كان من السمار ومنخل اهل الاندلس من الغزل ومنخل  
البحول من شعر الخيل وكانوا جميعا يعجنونه ثم يلعقونه نيئا كما  
يفعل بعض سكان جزائر الانكليز ولم يهتدوا الى كيفية انضاجه  
بالنار الا بعد زمن طويل ومنهم من كان في ذلك الوقت يمزج  
الدقيق بالماء كالعصيدة ويضعه على النار حتى يغلي ثم ياكله  
ومنهم من كان يضع فيه لحما ثم يسويه وذلك كان قوت قدما  
الفرس والرومانيين واليونان واهل العراق كما قاله بولين ومنهم

من كان يقطع اللحم قطعاً ثم يلتقيه في الدقيق ويسويه على النار فيعلم من ذلك قلة ارتفاعهم وقتئذٍ بالبرلان تمام فائدته لا تكون إلا بعد عجنه وخبزه وذلك يحتاج الى فكرة كبيرة واعمال كثيرة لم يهتدوا اليها الا بعد زمن طويل وان كانت تلك الصنعة بالنسبة الى زمننا قديمة لما ورد في التوراة من ان ابرهيم عليه السلام قدم لضيفه خبزاً مرققاً

فقال الشيخ هكذا خبزاهل البادية الى الان ولم في تسويته آلة من فخار يسمونها النيغة يخبزون فيها اذا حلوا ويحملهونها اذا ارتحلوا فاذا ارادوا الاكل عجنوا الدقيق ثم قطعوه قطعاً صغيرة ورقفوه بايديهم على الواح من خشب ثم اوقدوا النار تحت النيغة حتى تحمر من داخلها فاذا انقطع الدخان اخذوا ما رقفوه شيئاً فشيئاً ووضعوه على النيغة حتى ينضج

فقال الانكليزي هذه الكيفية لا باس بها وربما دلت على تقدم او تمدن اربابها واما القدماء فمنهم من كان يضع العجين على احجار صحاة ثم يغطيه بالرماد الحار ولعل ما قدمه ابرهيم التحليل لاضيافه من هذا القبيل وعلى ذلك بعض اهالي اسيا الى الان الا انهم يلفون العجين ببعض حشيش وقاية من الرماد وربما وضعوا فوقه جرات كبيرة ومنهم من يضعه بين حجرتين ثم يدفنها في الرماد الحار ومن التتار من يعجنه كالعصيدة ويضعه في اناء ويوقد تحته ناراً حتى يفور ثم يتناوله الى غير ذلك مما لا حصر له وذلك

كله لا ينافي قدم التنور المسمى بالفرن وتقدمه على زمن ابراهيم عليه السلام وذكر بعض المؤرخين ان اول من اخترعه رجل مصري يقال له عنوس واما ما حكاه حضرة الشيخ عن العرب فليس خاصا بهم بل ذلك طريقة قبائل كثيرة من التركمان وغيرهم الا اننا لا ندري متى كان اختراع الخبيرة واستعمالها والظاهر انها من الامور الاتفاقية كأن يكون عند بعض الناس قطعة عجين حامضة فاضافها الى عجين جديد ثم سواه فوجده ألد من الاول طعاما واسرع هضما فاعناده واخذه عنه من بعده وان كان كثير من اهل اسيا وافريقيا وامريكا لا يستعملونها الى الان وقيل انها كانت موجودة على عهد موسى عليه السلام وروي انه نهى قومه عن اكلها حين خروجهم من مصر واول آلة استعمالها الانسان في طحن الحب الحجارة ثم الرحي ثم الطاحون وبين اختراع كل آلة والتي تليها زمن طويل ونحن وان كنا لا نجزم بوجود الرحي زمن ابراهيم الخليل عليه السلام لكن نجزم بوجودها من ايوب عليه السلام وباستعمالها هي والطواحين عند المصريين كما يظهر ذلك من التوراة فانه ذكر فيها منع بني اسرائيل من ان تاخذ حجر الرحي الا برهن وكان الذي يديرها الخدم والعبيد وكانت مستعملة عند اليونانيين والرومانين وجميع الامم الماضية

قال ناقل الحديث وكانت العربيات قد اعدت للجماعة على الباب فركبوها وسارت بهم نحو فرساي وهم يتحدثون بامر الزراعة

والفلاحة وما ينشأ عنها من تقدم البلاد واهلها الى ان جزم الشيخ بان مدار العماره على الزراعة فوافقه الجميع على ذلك وقال الانكليزي ان هذا هو القول الحق فانه لا تحل الثروة بجهه الا اذا تقدمت فيها الزراعة ففي ارض فرنسا مثلاً تقدمت الزراعة تقدماً جيداً حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص وذلك التقدم من ابتداء سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٤٦ فكان محصول زراعة القطن سنة ١٧٩٠ مليارين ونصفاً وفي سنة ١٨٤٦ وصلت قيمته ضعف ذلك وفي العشرين سنة التالية لسنة الف وسبعائة وتسعين كان الربح غير محسوس لكن من ابتداء سنة ١٨١٥ شعر ان الربح ثلاثون مليوناً في السنة الواحدة ومن خمسة عشر الى ست واربعين صار يزداد حتى بلغت الدرجة المتوسطة ستين مليوناً كل عام

وبسبب هذا الفرق زادت اهالي القطن فان عددهم من سنة ١٧٩١ الى سنة ١٨١٥ كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها مائة وعشرين الف نفس ومن سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٦ مائتي الف نفس واما من سنة ست واربعين الى خمس وخمسين حصل تاخير فلم تبلغ زيادة كل سنة غير ستين الف نفس واما بالنسبة للمحصولات فقد وجد ان صنف الغلال ضعف من سنة ١٨١٥ الى خمس واربعين فكان في سنة ١٨١٥ اربعين مليون اكتوليترو وفي سنة ٤٥ ثمانين مليوناً ومحصول البطاطس ضعف ايضاً حتى وصل الى خمس عشرة مرة زيادة عما كان في



سنة خمس عشرة وكذلك نوع الحيوان فقد بلغ عدد الحيوان الكبير تسعة ملايين الى عشرة وعدد الخيل من مليونين الى ثلاثة وعدد الضان ما بين اربعة وعشرين مليوناً وست وثلاثين مرة من الملايين

وفي سنة ١٨١٢ كانت قيمة الاراضي المملوكة ومنها العقارات الفا وخمسمائة مليون وفي سنة خمس عشرة بلغت الفين وثمانمائة وثلاثة واربعين مليوناً ومع هذا فقد زادت قيمة الارض في قريب من ثلاثين عاماً قدر خمسين في المائة هذا وان كان حسن الارض وارتفاع قيمتها لا بد له من نفقات الاً اننا يمكننا تقديرها ولو على وجه التقريب فنقول على فرض ان فائض المائة عشرة في كل سنة تكون الستون مليوناً التي هي فائض ستمائة مليون مصروفة على الارض فلو وزعت على الارض المنزعة بالقطر لوجد انه صرف على كل اكتار من المساحة اثني عشر فرنكاً عشرة منها في اصلاح الارض واثنان في اصلاح حال الزراعة

وبعد ان كانت قيمة الاكتار سنة ١٧٩٠ لا تزيد عن خمسمائة فرنك صارت الان تساوي الف فرنك فمقدار قيمة ارض الزراعة بالقطر خمسون ملياراً وكانت قيمة موجود الزراعة لا تزيد عن الف مليون فصارت الان خمسة امثال ذلك نصفها قيمة حيوانات ولاات زراعة والنصف الاخر قيمة بذر وما يتبعه من سباخ وغيره ومن هنا يعلم ان ربح الزراعة من ابتداء سنة ١٧٩٠ وصل الى اربعة

امثال ما يصرف عليها واجرة العمال وان زادت الا انها لم تبلغ ما يخصها وحيثئذ يلزم من يسوس الام ان يجعلوا عدد الاهالي قاعدة لجميع ما يدبرونه وان يجتهدوا في مابه زيادة عددهم ليحصلوا على زيادة البركة والطريق في ذلك سهل لاننا نعلم ان الله سبحانه لما خلق المخلوق اودع فيهم اسراراً ينمون بها ويملئون الارض وجعل تلك الاسرار متعلقة بالاقوات كما هو مشاهد فانك لو قطعت عن اي شي مادته التي يتغذى بها لاخذ في الجفاف ثم مات فيلزم الاعناء بالامر الذي منه القوت وهو الفلاحة لاجل نمو الاهالي ولذلك ترى بعض الناس اذا راوا امة قد اضمحل حالها ونقص عددها قالوا ان ذلك ناشئ من كثرة الرهبانية فيهم ومحاربة الجيوش البرية والبحرية لم فتراهم في تلك الاوقات يكثرون من البحث على الزواج وربما ساعدوا من عجز عن مؤنه وعاقبوا من اصر على العزوبة ومع ذلك لا يحصلون من مقصدهم على كبير فائدة لان ما ظنوه سبباً ليس بسبب فيكون مثلهم كمثل من يعالج بدواء من غير وقوف على اصل الداء فانهم لو امنعوا النظر وقارنوا امور الامة المحاضرة بالماضية لظهر لهم ان اسباب الفساد ليس الا اهل فن الفلاحة وميل الكثير الى الزهو والتعلق به وكثرة ما يستهلك ويصرف على القليل من الناس واثبات ذلك بان نقول لو سلمنا ان ازدياد اي نوع بخصوبته ليس الا لوجدنا فوق الارض ذئبا اكثر من الغنم لان الانثى من الذئب تلد عدداً كثيراً في

بطن واحد ويتكرر ذلك منها في السنة الواحدة والغنم ليست كذلك سيما والعادة جارية بخصاء كثير من ذكورها وذبحها وليس ذلك جاريًا في الذئاب فلو كانت خصوبة النوع في ذاتها سببًا في كثرته لكان عدد الذئاب لا حد له وربما ملا الأرض مع ان الامر ليس كذلك فاننا نرى الغنم تزداد مع استمرار الاخذ منها وما ذلك الا لكثرة مرعاها وقتله للذئاب

ومن ذلك بعض متوحشي امريكة وافريقة فان حالتهم كحالة الذئاب لان تعيشهم ليس الا من الصيد والقنص فترى العدد القليل منهم شاغلا لسعة عظيمة من الارض بحيث لو زرعت وخدمت حق الخدمة لكيفت اضعافهم ومع هذا لا تقطع الخصومات بينهم وليس عندهم رهبانية ولا عفة وما ذلك الا لثقل القوت عندهم وقد ثبت في كتب التاريخ ان الفدان الواحد عند الرومانيين يكفي العائلة الكبيرة مع ان المتوحشين لا يكفي لقوته اقل من خمسين فدانًا حيث كان جل هم الصيد والقنص فمن هذا تكون الالف فدان مزروعة كافية لالف شخص وغير مزروعة لا تكفي خمسين من المتوحشين فظهر بذلك ان كثرة الاهالي تابع لاتساع دائرة الزراعة فكما حصل الاجتهاد في خدمة الارض واصلاحها ازداد المحصول وكثر الجنس وكما اهلته وتركت قلت الاقوات ونقص العدد وان كل ما يستهلك في امر الزهو مضاد لمنفعة الامة

فيلزم مدبر امر الامة ان يصرف جميع همته في توجيه افكارها نحو  
البساطة والبقا

وفي سنة ١٨٤٠ بلغت قيمة محصول الزراعة في ارض دولتنا  
خمسة الاف مليون فرنك منها الف وستائة مليون قيمة محصول  
اللحم والصف واللبن والفراخ والباقي وهو ثلاثة الاف واربعمائة  
مليون قيمة محصول الحبوب والحشائش وغيرها وكانت موزعة  
بالنسبة لعارة الارض المضروب عليها الخراج فخص كل اكنار  
في الجملة مائة فرنك وايضاً بالنسبة لتفاوت الاهالي قلة وكثرة في  
المجها فكان ربع الارض يتحصل منه مائة وخمسون فرنكاً ونصفها  
مائة فرنك وربعها خمسون فرنكاً فقط وسبب هذا الفرق ان  
الربع الاول كان في كل مائة اكنار منه مائة نفس واما النصف  
فكان لا يوجد في المائة اكنار الا خمسة وستون نفساً وكذلك  
الربع الاخير كان لا يوجد في الاكنار منه الا اربعون نفساً ومجها  
العمار في الغالب تكون بالقرب من التخت والمدن وشواطئ البحر  
والمجها القليلة العمار الجنوب والوسط ونهاية العمار جهات الشمال  
ويوجد في المائة اكنار منه مائتا نفس ونهاية القلة في العمار جهة  
جبال الالب فلا يوجد في المائة اكنار هناك اكثر من عشرين  
نفساً ولو جعلنا الدول مرتبة على حسب تعداد الاهالي نجد ان  
بلاد الفلمنك يخص كل مائة اكنار منها مائة وخمسة وعشرين شخصاً  
وبلاد الانكليز تسعين والمانيا وايطاليا ثمانين وفرنسا ثمانية وستين

واسبانيا وبرتغال اربعين والدولة العلية خمسة عشر وكذا  
المسكوف

ثم قال الانكليزي ان بلادنا وان كانت بعد الفلمنك في  
الدرجة المذكورة الا انها مشهود لها بزيادة الاعناء بامر الزراعة  
والفلاحة ولذلك كان محصول ارضنا اكثر من محصول ارض  
فرانسا وليس ذلك من جودة ارضنا وانما هو من جودة الطرق التي  
نستعملها والتفات الحكومة لما يحصل منه زيادة المنفعة والربح للاهالي  
وان حصل في هذه الايام تقدم كبير للزراعة في فرانسا عن السابق  
لكن بين المحصول عندنا وعندهم بونا بعيدا وها انا اوضح لحضرتكم  
طريقة كل من الدولتين واقارن بين الطريقتين ليظهر الفرق  
وقبل كل شي اقول من المعلوم ان اهم الامور الثبوت فان به قوام  
البنية الادمية وهو انواع فمنها ما هو جيد للغذاء مفيد لقوة الانسان  
ومصلح لبنيته ومنها ما هو غير ذلك وحيث كانت الانواع المتخذة  
من دقيق الحبوب ليست كافية لقوام البنية وصحتها فيلزم ضم اللحوم  
اليها لانها احسن شي في هذا المعنى وحيث يلزم ان كل بلدة يكون  
بها زيادة عن الحبوب قدر ما يلزم للغذاء من اللحم وهو عبارة عن  
مائة درهم لكل شخص كما استدل على ذلك الباحثون من ارباب  
الدراية فاذا تقرر ذلك نقول قد نتج من الاحصاءات الرسمية التي  
اجريت في بلادنا ان كل انسان من الانكليز يخصه كل يوم خمسة  
وسبعون درهما ما يذبح واما الشخص الواحد من فرانسا فلا يخصه

غير تسعة عشر درهما فتكون النسبة بين تقدم الفلاحة عند الانكليز والفرنسيس كالنسبة بين خمسة وسبعين وتسعة عشر وهذا يدل على ان اعناء الانكليز باقتناء الحيوانات ازيد من اعناء الفرنسيين وان علمهم بالقاعدة الاساسية لتقدم الزراعة اكثر لانه اذا ازداد الحيوان امكن الحصول على احسن الغذاء واخصبت الارض بواسطة السماد الموجب لازدياد المحصول والمرعى ومن زيادتهما تزداد الثروة فاذا نظرنا لصنف الاغنام مثلا عند الامتين وجدنا عند كل واحدة منها خمسة وثلاثين مليوناً مع ان ارض بلاد الانكليز ليست مساحتها الا ٣١ مليوناً من الاكتار بخلاف ارض فرنسا فانها ثلاثة وخمسون مليوناً فينص كل اكتوبر من ارض الانكليز رأسان ومن ارض فرنسا راس واحد والمتحصل من الصوف عند الانكليز ستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيين كذلك ومن صنف اللحم كل عام عند الانكليز ثلاثمائة وستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيين مائة واربعة واربعون مليوناً وبهذا يعلم ان نسبة اللحم المتحصل عند الانكليز الى اللحم المتحصل عند الفرنسيين كالنسبة بين عددي ثلاثمائة وستين ومائة واربعة واربعين وهذه المقادير هي مقادير التوسط لجميع جزائر الانكليز اي ايرلندة وايكوسا وبريطانيا فلو نظرنا الى بريطانيا وحدها لوجدنا في كل اكتوبر راسين من الغنم مع انه لا يوجد في الاكتار

من فرنسا غير ثلثي رأس هذا ومحصول الرأس الواحد في بلاد  
الانكليز ضعف محصوله في فرنسا فيعلم من هذا ان ربح الفلاح  
الانكليزي ضعف ربح الفلاح الفرنسي في هذا النوع

وعلى ذلك نفاس ارباح البقر في كل من المجهتين وقد احصي  
ثمن الجبن المبيع بمديرية شيسيتين خاصة في السنة الواحدة فبلغ  
خمسة وعشرين مليوناً من الافرنكات ولبن بقر جميع فرنسا لم يبلغ  
الآلاف مليون لیتروثن اللیتر عشرة فرنكات واما المتحصل من  
بقر الانكليز فضعف ذلك قدرًا وثمانًا فعلى هذا يكون ربح الفلاح  
الواحد من الانكليز اربعة امثال ربح الزراع من الفرنسيين واغرب  
من هذا تفاوتهم في عدد البقر بالنسبة لارضهم فان بقر الانكليز ثمانية  
ملايين في واحد وثلاثين مليوناً من الاكتارات وبقر الفرنسيين  
عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليوناً منها فلو نسبنا بقر كل قوم  
الى ارضهم لكان بقر الانكليز بالنسبة لارضهم اكثر من بقر الفرنسيين  
بالنسبة لارضهم وان كانت ذبائح الفرنسيين اكثر عددًا لانهم  
يذبحون من البقر في كل سنة اربعة ملايين فيها من اللحم اربعمائة  
مليون كيلوجرام واما الانكليز فلا يذبحون من البقر الا مليونين  
الا ان فيها من اللحم خمسمائة مليون كيلوجرام فاذا ناملنا ذلك علمنا  
ان ما يذبحه الفرنسيين وان كان في العدد ضعف ما يذبحه الانكليز  
الا انه يتقص في اللحم نحو الربع وسبب ذلك ان الانكليز لا تذبح  
الصغير ولا المهزول وذلك لامرین الاول كونه غير مستوف لشروط

الغذا والثاني ان ذبحه حينئذ يكون كصياح راس المال من قبل تربيعه سواء بسواء بخلاف الفرنسيس فانهم يذبحون من العجول الصغيرة اكثر ما يذبحونه من الكبيرة ولقلة هذا النوع عندهم لا يمكنهم الصبر الى ان يكبر الصغير فتضيع عليهم بذبحه فائدتان الاولى جودة اللحم والثانية الانتفاع به وايضاً فان الانكليز من عادتهم اراحة البقر من الاشغال وتسمينها واما الفرنسيس فانهم يستعملونها في جميع الاعمال الشاقة ولا يذبحون الكبير منها الا اذا هزل لحمه وضعفت قوته مع اننا لو تأملنا فيما يكتسبونه من استعماله وفيما يضيع عليهم به لوجدنا ان استسمانه واستثاره اربح لهم من استعماله لانه بالبحث عن ذلك وجد ان قيمة البانها بفرنسا نحو مائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم اربعمائة مليون وما يقابل شغلها مائتا مليون فيكون جميع ايراد البقر بفرنسا سبعمائة مليون

واما الانكليز فان ثمن البان بقرهم اربعمائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم خمسمائة مليون فجميعه تسعمائة مليون فترى ايراد هذا النوع عندهم قد زاد على ايراده بفرنسا مائتي مليون وان اعتبرنا ريع كل من الجهتين على حدته وجدنا مجموع ايراد الفلاحة بفرنسا خمسة الاف مليون من الافرنكات منها قيمة اللحم ثمانمائة مليون وقيمة المحنطة ستائة مليون فبااعتبار هذه المقادير تكون قيمة اللحم في فرنسا نحو السدس من ايرادها مع ان قيمته عند الانكليز



تبلغ ثلث ايرادها تقريباً وما ذاك الا لكون احوال الزراعة عندهم  
متقدمة تقدماً زائداً

فقال صاحب المنتزه ان ما ذكرتموه صحيح ولكن قد نطقت  
الحلق الان لامر الزراعة ونمائها لوجود الخلطة العامة وحصول الالفة  
النامة فانا نجد كل انسان قد تحصل على ما فيه منفعة له ولو كان  
على بعد منه لسهولة السفر وقرب المسافة بما حدث من الآلات  
النجارية برّاً وبحراً فجميع الآلات التي كانت لا توجد الا عندكم قد  
صارت موجودة عندنا وربما تحسنت زيادة عما عندكم فتقدمت  
الزراعة واتسعت اصناف البضاعة وان كان لتاخير الزراعة اسباب  
كثيرة واقواها تاثير الاحتقار باهل الفلاحة وعدم الالنفات اليهم  
وترك التبصر في احوالهم وارتكاب ما تضع به ثمرات الفلاحة من  
تسخير اهلها بالعسف والتهر والتعدي عليهم بما يقهر حالهم ويفسد  
عليهم اعمالهم وكالتغالي في الزينة والزهو والاكباب على اللعب  
واللهو خلافاً لما يزعمه اخساء العقول من ان ذلك من لوازم الثروة  
فان بطلانه لا يخفى على كل ذي بصيرة لانا لو اخبرنا ما كانت  
تستهلكه اي امة في الزمن الغابر وما تستهلكه في الزمن الحاضر  
وقارنا بين الزمنين لوجدنا بينهما فرقا عظيماً مثلاً النور كان لا  
يوجد بمدينة باريز الا في بعض اماكن منها كالذي يخص رب  
المنزل واما الان فترى جميع اماكن البيوت مضيئة وعلى ذلك لا  
شك انه يلزم لها الان استصباح اكثر مما كان يلزم لها في سالف

الزمان ولا يتيسر الحصول على ذلك الا بزرع ارض له زائدة عما كان يزرع في الاول وذلك لا يكون الا بنقص جزء مما كانت تزرعه لقوتها وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى فضلا عما يلزم لجلبه الى المدينة من رجال الزراعة وحيوانات الفلاحة وما يلزم لهذه الحيوانات من زرع ارض لمعهاها ينقص بقدرها من ارض الحبوب فاذا نقصت ارض الحبوب نقصت القوت فينقص عدد الاهالي فان قيل لا يلزم ما ذكر لانه كان فيما مضى غابات مهملة وبرك ومناقع كثيرة معطلة وقد عمرت الان وزرعت فهلا تكون عوضا عما نقص من ارض الحبوب قلنا ذلك مسلم لو كان عاما في جميع الجهات فانا نجد بعض جهات كانت عامرة بالخلق فلما زرعت فيها هذه الاصناف ونقصت مزارع حبوبهم نقص عددهم فحيثئذ لا شك ان الاكثر من الزينة وانواع النفاخر موجب لنقص ارض الاقوات فاما ان تنم من الخارج والا هاجرت الاهالي وتعطلت فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربة بل اضر لان المحاربة وان كانت تضر بارض الزراعة لا تضر بالامة وان اضررت فضررها وقتي وما يؤيد ذلك انك ترى بعض جهات وقع فيها محاربات كثيرة وهي الان احسن مما كانت قبل الحرب لان الغالب ان الحرب اذا كانت في جهة وانلفت منها شيئاً زاد عمار الاخرى بقدر ما تلف من الاولى وقد يتنبه الجميع بعد انتضاءها فيتركون الرفاهية فيعودون الى احسن مما كانوا فعلنا من ذلك ان

الحروب وكذا الامراض الوبائية ليست السبب في تدمير الام اصلا بل السبب فيه حب الزهو والزينة ليس الا لانا لو فرضنا ان فرسا واحدا دخل مدينة للخيلاء به لا لعله لم نشك انه ياخذ من ريع تلك المدينة لمؤنته ما يعادل مونة اربعة من نوع الانسان وهذا فرس واحد فما بالك بافراس او ما بالك بغيره من الحيوانات التي لا فائدة فيها الا النظر لذاتها او التامل في ألوانها وهيئتها ولا يقال ان اقتناء الحيوانات وان كثرت مؤنتها لا ضرر فيه لما يترتب عليه من تسميد الارض بروثها فتزيد في محصولها بقدر مونة الدواب والحيوانات التي بها لان ذلك انما يقال في الدواب والحيوانات التي بالقرى وارض الزراعة واما الحيوانات التي بالمدن فلا لان روثها بها لا قيمة له بل قد يصرف عليه دراهم لاجراجه من محله مع ما يلزم لذلك من تعطيل اشخاص من اهل الفلاحة لخدمتها وجلب مؤنتها وقد توهم بعضهم ان كثرة الامة وقتلتها تابع لما يستهلك قلة وكثرة اعني انه كلما كثر المستهلك كثرت الامة وكلما قل قلت وهذا التوهم لا يسلم به الا لو اقتصر على ما لا بد منه والواقع غير ذلك فانا نرى القليل من الامة يصرف اضعاف ما بصرفه الكثير منها فاذا تأملنا ذلك وجدنا ان معيار الثروة وعدمها تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة وقتلتهم فكما كثروا اخصبوا وكلما قلوا اجدبوا فاي قوم لم يشتغلوا بامر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا على الامة عموما وعلى المشتغلين بها خصوصا فحيثئذٍ يجب على ولاة

الامر التنبه لذلك وحمل اهل البطالة على العمل ولا سيما الشحاذين الذين اتخذوا التكيف صنعة فانهم يتفننون في الحيل ويتعللون بما تسوله لهم انفسهم من العلل فلا يضي على الواحد منهم زمن قليل الا وقد تحصل على جزء من المال فمثل هؤلاء يجب منعهم وامرهم بالتكسب لئلا يقتدي بهم من يميل الى البطالة والكسل ليستغني بهذه الصنعة الخبيثة عن التكسب بالعمل فاذا تمهد هذا علمنا ان فن الفلاحة والزراعة هو الاصل بل هو اساس ثروة البلاد وعمارها واصل رفاهية اهلها فيجب على كل حاكم احترام المشتغلين بها والالتفات اليهم كل الالتفات ومساعدتهم بانواع المساعدات وتطبيب قلوبهم والرافة بهم والا كان كمن هدم اساس بيته بفاسه لان مثل كل ملك مع رعيته كمثل شكل هرمي الملك كراسه والرعية كقاعدته واسبه ورجال الدولة ما بين ذلك على قدر درجاتهم فكما ان كل جزء من اجزاء هذا الشكل حامل لثقل ما فوقه وهكذا الى الطبقة السفلى فتكون هي التي عليها ثقل الجميع كذلك ارباب الحكومة السياسية على اختلاف درجاتهم كلما فسدت درجة سرى ضررها الى من دونها وهكذا حتى تجتمع جميع المضار على الضعفاء واهل الفلاحة فلو قصر الملك نظره على من يليه من رجال دولته وصرف عن دونهم نظره فسد نظامه واخذت مملكته واحكامه فكما انه لا بقاء للشكل الا بقواعده كذلك لا بقاء للملك الا برعته فان تنبه الحاكم وانصف من نفسه عرف كيف يصون ولايته

من الخلل بان يشمل بنظره جميع رعيته لا يفرق بين الاجانب منهم  
وذوي قرابته ولا بين ضعيف منهم وقوي وخص من بينهم اهل  
الفلاحة بمزيد العناية والالتفات لانهم الحاملون لاتقاله القائمون  
بمصالحه واعماله اذ لولاهم ما كان للملك قوام ولا تم له نظام وحيث  
كانت الارض لا تفيد الا بقدر ما تستفيد لا فرق عندها بين  
عظيم فترمه ولا فقير فترمه بل ان قام صاحبها بما يجب لها  
وخدمها انتفع بها والا عدمها وهي على اختلاف انواعها لا يخلو شي  
من اجزائها عن فائدة حتى الرمل الذي لا يصلح للزراعة لو وضع  
منه شي في الارض السبخة او البرك المالحمة لاصحها وكذلك اخراس  
الارض لو نقيت منها فيها وحرثت لكانت اصح من غيرها وكذلك  
الارض الحجرية يؤخذ منها احجار للمباني العظيمة ذات الاسوار فما  
من انسان اقام في اي مكان وتيسرت له اسباب الراحة وانتفت عنه  
الموانع الا تيسر له منه اضعاف قوته وتحصل على ما لا يحصل عليه  
غائص البحر لياقوته فلو فرض ان فداناً غرس اشجاراً لا تثمر وترك  
الى نحو عشرين سنة لكان فيه من الخشب والفحم ما يقوم بهال عظيم  
مع انه لم يلزم له الا قليل من العمل والعمال فما بالك لو غرس  
اشجاراً ذات ثمر فلو فرضنا ان ذلك الفدان بعينه كان في المدة  
المذكورة يزرع حبواً لكانت فوائده اكثر منها في الحالتين السابقتين  
فعلم من ذلك ان الناس تابعة للزراعة كثرة وقلة ولو كان ذلك  
الفدان بعينه في ضاحية من ضواحي المدن قد هيا له صاحبه

محابس لريه وغرس فيه اشجاراً واجرى اليه انهاراً وجعل فيه عروشا  
أما كان بذلك يساوي اضعاف مثله من ارض القرى والارياف  
وما ذاك الا لكثرة عماله واحنفاف الناس به فهذا دليل ايضا على  
انه كلما كثرت الناس بارض زاد محصولها وان الانسان لو خلي  
ونفسه لجعل من الارض المحجربة بساتين وكروما الا ترى ارض  
مرسيليا فانها كانت اولا جبالا ورمالا فاجتهد اهلها حتى حفروا  
فيها خنادق وطموا ارضها بالتراب واجروا اليها الماء ثم غرسوا فيها  
من انواع الفواكه والاشجار ما يستغل منه اموال عظيمة فلواحصينا  
عدد قرية وفرنسانهم قائمون بخدمة ارضهم حق القيام لكان عددهم  
دائماً في زيادة لان الجمع عليه عند ارباب الفلاحة ان الارض  
كلما خدمت زاد محصولها فليس محصول المحرث مرة كحصول  
المحرث مرتين ولا محصول الارض التي تسقى بماء المطر كالتي  
تسقى بماء العيون ولا محصول الارض التي سقيت كحصول الارض  
التي لم تسقَ وهكذا من محسنات الزراعة فالفلاحة لاشك انفع  
الصنائع اذا توفرت اسبابها وانتفت الموانع عن اربابها خلافا لقوم  
ذموها واستعجبوها وعدلوا الى دماء الناس واموالهم فاستباحوها مع  
علمهم بان فوائد الفلاحة لا تعدلها فوائد وادرار ارزاقها دائماً  
متزايد وهم الاثنيون وسكان اسيا فكانوا يزعمون ان الفلاحة  
والتجارة ما يوهن القوى البدنية ويورث الذل للذرية فتركوا جميع  
الصنائع ولم يلتفتوا لما فيها من المنافع وعدلوا الى نهب الاموال

واسر ما قدروا عليه من نساء ورجال وعم ذلك جميع اوروبا  
فانتج خرابها وافسد العمار الذي كان بها وكان المتقطع للفلاحة  
وقتئذ الارقاء ومن يأوي اليهم من الغرباء فارتحلت عنهم حينئذ  
الفضائل الدثرية وقد كانت بقعتهم عين منبعها ومرج مرتعها وانظر  
الى الرومانيين وما كانوا فيه من الخمول والتوحش فلما افاقوا  
من خمولهم وتفتوا في الفلاحة علت شهرتهم وقويت شوكتهم ثم تقادم  
بهم الزمن واهملوا امر هذا الفن واشتغلوا بالمحاربات فال امرهم الى  
الخراب وضعفت دولتهم وانحطت صولتهم وانتهى بهم الحال الى  
ان تقاسم ارضهم المتبررون وبالجملة فلم نر جهة اهلتم فيها الزراعة  
الا حل باهلها القحط والمجاعة

فقال الشيخ احسنت الا انه بغير العدل لا يتم صلاح اذ لولاه  
ما قدر مصلى على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على  
سفره وهو صفة في الذات تقتضي المساواة وهذه الصفة اكمل  
الفضائل لشمول اثرها وعموم نفعها واليها الاشارة بقوله صلى الله عليه  
وسلم بالعدل قامت السموات والارض وتوضيح الكلام يحتاج الى  
مقدمة في هذا المقام ذلك ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها  
واخرج منها ماءها ومرعاها وبت فيها من كل دابة فكان فيما خلق  
نوع الانسان ولعلمه انه ليس كغيره من سائر الحيوان احوج بعضه  
الى بعض في ترتيب معاشه ومؤنه وتحصيل ملبسه ومسكنه لانه  
ليس كسائر الحيوانات التي تحصل بنفسها ما تحتاج اليه من غير

صنعة بل خلقه ضعيفاً لا يستقل وحده بامور معاشه

ثم مست الحاجة بينهم الى سايس عادل وملك عالم عامل  
يضع فيهم ميزاناً للعدالة وقانوناً للسياسة توزن به حركاتهم وترجع  
اليه معاملاتهم وكان مباشرة هذا الامر من الله تعالى بنفسه من  
غير واسطة على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة فاستخلف  
علمهم من الادميين خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا  
بها بين الناس حتى يصدر ترتيبهم على قانون مشروع وتجمع كلمتهم  
على امر متبوع ولا تحقق العدالة الا بعد العلم باوساط الامور المعبر  
عنها بالمصراط المستقيم ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره الا ان  
اثر اولاً في نفسه اذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد قال  
تعالى أأمرون الناس بالبر وتسنون انفسكم فمن عدل في حكمه  
وكف عن ظلمه نصره الحق واطاعه الخلق وصفت له النعماء واقبلت  
عليه الدنيا فبنى بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن  
المحروب ولم يخلق الله تعالى احلى مذاقاً من العدل ولا امر من  
الجور لان اسر المملكة واركانها وثبات احوال الامة وبنائها  
العدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية او غير اسلامية فما  
قاعدة كل مملكة واصل كل سعادة ومكرمة

فالواجب على الملوك وولاة الامور ان لا يقطعوا في حكم الا  
من القانون المصنوع لهم سواء في ذلك العادات والزواجر والاوامر  
والمعاملات لانهم متصرفون في ملك الله وعباد الله بشريعة الله



ولذلك قالوا صنفان اذا صلحا صلت الامة واذا فسدا فسدت  
 الملوك والعلماء وقالوا اذا همّ الوالي بالجور او عمل به ادخل الله  
 التقص في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات  
 واذا همّ بالخير او عمل به ادخل الله البركة في اهل مملكته وفي كل  
 شي حتى في التجارات والزراعات فلا يصلح لهذا المنصب الاّ من  
 قطع من الطمع امله ووافق قوله عمله وكذلك عماله ونوابه والا  
 كان كما قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه

فعفر جميع الناس من رابط الكلب



## المسامرة التاسعة والثمانون

فرساي

وما وصلوا الى هذا المقام من المقال حتى وقفت بهم العربية على باب الجنيبة التي قصدوها فنزلوا وقصدوا القصر اولاً ليروا ما فيه من العجائب فدخلوه ولم يتركوا محلاً منه حتى نظروه فرأوا فيه صوراً وتمائيل واشياء كثيرة من هذا القبيل منها ما هو على صورة عساكر مصطفة ومنها ما هو على صورة طير كأنه يباغي الفه ومنها ما هو على صورة نساء في غاية الجمال ومنها ما هو على صورة خيل مسومة وكأنها متهيئة لنزال او هجوم

ومنها ما هو على صورة بعض الملوك الاول ورجال الدول فكانوا كلما مروا بصورة شرحها الخوارج المشيخ ولو لم يسأله عنها فلما خرجوا قال الانكليزي للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى فيما فعلت

حوادث الزمان وخطوب المحدثان وتحول الأشياء عما كانت عليه  
وخرجها عن موضوعها

فقال الشيخ كيف ذلك وما الذي خطر ببالك فقال ان  
هذا القصر كان محلا للملك لا يصل اليه شريف ولا صعلوك فلما  
تقلبت به الايام وامتدت اليه يد الزمن عاما بعد عام اضحل حاله  
وآل الى ما ترى مآله والذي وضع فيه الصور والرسوم التي رأيتها  
هو لوي فيليب فلورأينه قبل قيام الفرنسيين حين كان مركز دائرة  
الحكومة ومحل فصل كل مشكلة وخصومة فكان غاصا في النهار  
باصحاب الحاجات والليل بانواع الملاهي والمستلذات ولولم يضع  
فيه هذا الملك هذه الرسوم ما جنح اليه احد

فقال الشيخ ليس ذلك من الدهر بعجيب ولا عند ارباب  
المعارف بغريب فكم لعبت الايام بمثله حتى ازالته من اصله كما  
قال

هي المفادير تجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على خال

يوماً تريك خسيس العقل ترفعه

الى السماء ويوماً تنفض العالي

اذ من المعلوم ان الدهر لا يبقى على حاله بل لا بد له من  
اعطاء ومنع وخنض ورفع وحركة وسكون وظهور وكمن وصحة

وعلة ويسار وقلة فلا يدوم على حال الأ الكبير المتعال  
وإمّا الكون أجمع وما حوته جهاته الأربع فلا يخلو عن  
صحة وفساد وضلال ورشاد على حسب ما اقتضته ارادته العلية  
ودبرته حكيمته الخفية فترى الشيء قد كسي حلال اليها وعلاه رونق  
الحسن والأزدها وعن قريب تراه قد حل به القضا كل ذلك  
لحكم وأسباب منها ما علم ومنها ما ضرب دون العلم به الحجاب  
ومن تصفح تواريخ الام وتنبع اخبار الناس من عرب وعجم وجد  
ان كل زمن لا بد فيه من تغير ومحن ومن يطالع الآن على هذا  
المكان ويتامل في بنيانه واتساعه وإتقانه وما اخذه من الارض  
يحكم على واضعه بالغرور ولكن هكذا دأب الأسان على ممر  
الدهور فانه كلما تمى حالة وبلغها تمى اعلى منها وهكذا الى ان  
يأتيه هادم اللذات ومشتت الجماعات فيجده غريباً في بحر شغلته  
فيجذب به من بين اهله واحبته فهناك تنقطع علايق اوهامه وتنبت  
حبال اغتراره بأيامه ولنترك الآن الكلام في هذا الشأن وادخل بنا  
البستان نريج الخاطر باستنشاق ارجه العاطر ونمتع الناظر بزهره  
الزاهر فساروا حتى دخاوه فكانوا كلما مروا بنوع من ازهاره او  
ناحية من نواحيه او شجرة من اشجاره ساله الشيخ عنها فيطلب له  
في وصفها وخواصها ولطفها الى ان وصلوا كهفا حوله اشجار يسمع  
منه تغريد اطيبار فوجدوا عنده مصطبة من حجر لجلوس كل من

رَفَجَلَسُوا وَانْفَقَ اِنْ ذَلِكِ الْيَوْمِ كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَجَارِي الْمِيَاهِ يَجْمَعُ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ اَهْلِ بَارِيْزٍ وَغَيْرِهِمْ فَحَصَلَ عِنْدَ الشَّيْخِ مِنَ الْعَجَبِ مَا ذَهَبَ بِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ فَسَالَ صَاحِبَهُ الْاَنْكَلِيْزِيَّ عَنِ اَصْلِ هَذَا الْمَكَانِ وَعَنِ زَخْرَفِهِ وَاتَّقَنَهُ هَذَا الْاِتِّقَانُ

فَقَالَ لَهُ الْاَوَّلَى اِنْ تَسَالَ فِي ذَلِكَ صَاحِبِنَا الْفَرَنْسَاوِيَّ لِاَنَّهُ اَدْرَى بِاَحْوَالِ بِلَادِهِ فَقَالَ لَهُ الْفَرَنْسَاوِيَّ هَذَا مِنْ حَسَنِ اخْلَاقِكُمْ وَالْاَفْتَارِيْجِ هَذِهِ الْبَقْعَةُ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ مِنْ اَهْلِ اُوْرُوْبَا لِاَنَّ لَهُ حَوَادِثَ جَسِيْمَةً فِي اَزْمَنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَرْتَبُ عَلَيْهَا تَقْلِيْبَاتٌ كَثِيْرَةٌ فَيُغْلِبُ عَلَيَّ ظَنِّي اَنَّهَا بَعْضُ مَعْلُوْمَاتِكُمْ وَلَكِنْ هَكَذَا يَكُوْنُ الظَّرْفُ عِنْدَ اَرْبَابِهِ فَاَقُوْلُ اِنْ هَذَا الْمَكَانُ لَمْ يَكُنْ فِي الْاَصْلِ كَمَا تَرَاهُ الْاَنَّهُ بَلْ كَانَ بَقْعَةً لَا تَوْءَلَفُ وَلَا تَسْكُنُ مَا بَيْنَ مُخْفَضِ وَعَالِ وَمَجَارِي مِيَاهِ وَتَلَالٍ لِاشْيَاءٍ بِهَا سُوْيُ غَابَاتٍ وَلَا يَأْوِي إِلَيْهَا اِلَّا الْحَيَواْنَاتُ وَكَذَلِكَ الْمَدِيْنَةُ الَّتِي تَرَاهَا عَلَيَّ مَا تَرَاهَا عَلَيْهِ لَمْ تَكُنْ اِلَّا عِبَارَةً عَنِ كَهْرٍ صَغِيْرٍ مُشْتَمِلٍ عَلَيَّ قَلِيْلٍ مِنَ الْبَيْوْتِ كَالْعَشَشِ لَا يَسْكُنُهُ اِلَّا اَوْغَادُ النَّاسِ وَطَغَامُهُمْ هَكَذَا كَانَ اَصْلُ هَذِهِ الْبَقْعَةِ ثُمَّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ مِنَ الْمِيْلَادِ اَنْشِئَ بِهِ كَنِيسَةً ثُمَّ مَارِسْتَانٌ لِمُعَالَجَةِ مَنْ يَمْرُضُ مِنْ خِدْمَتِهَا لِاَنَّهُمْ كَانُوْا رَهْبَانًا لَا مَأْوَى لَهُمْ سِوَاهَا فَبَقِيَتْ كَذَلِكَ مَدَّةً وَاَعْظَمَ مَحَلٌّ كَانَ بِهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بَيْتٌ لِاحَدِ الْبَرُوْتَسْتَانِيَيْنِ الَّذِيْنَ نَجَّوْا مِنَ الْقَتْلِ فِي وَاْقَعَةٍ

برتملي ثم قبض عليه وقتل واستولت الحكومة على جميع متروكاته  
وانعم ببنته على بعض من يلوذ بالملك الى ان تولى لويز السادس  
عشر فاخذ ارض ذلك البيت واطاف اليه ما يجواره من الارض  
وانشأ في الجميع قصرًا وحديقه

فقال الشيخ اذا كان هذا المكان في الاصل على ما ذكرت  
من الصفة فما الذي اعجبه منه حتى افه

فقال الفرنسي لا شيء الا انه كان يهوى الصيد وكان  
ذلك المكان بطريق غابة مشهورة بالحيوانات الغريبة ولم تكن  
سكك الحديد وقتئذ موجودة فانفق انه ذهب مرة ليصطاد  
فامسى عليه الوقت فبات فيه في طاحونة مهجورة وامسى عليه  
الوقت مرة اخرى فبات في خماره فاشترى تلك الارض وما يجانباها  
ووضع فيه ما يلزم له لياوي اليه اذا حصل له مثل ذلك ثم لما  
اتم القصر والحديقة شرع في عمل سكة الحديد بين قصره وباريز  
واجتهد في تصفية هوائه فجمع العمال من الرجال وازال ما كان  
حوله من التلال وطم المنخفض وردم المناقع فألفه الناس واتخذوا  
لم به مساكن فانتسعت عبارته وتغيرت صفته ثم مرض الملك  
مرضا شديداً فوكل امر الملك الى امه ماري ميديسي فاسأت  
التدبير ولم نعول في امر الملكة على وزير ولا مشير بل سلكت  
طريق العسف ففسد ما بينها وبين رجال الحكومة خصوصاً  
ريشليو وكان من اعيان رجال الدولة واقربهم الى الملك فانها

فعلت معه ما لا ينبغي فعله مع مثله فلما برى الملك من مرضه  
وجلس محامه راودته امه في طرده وطرده من بيتي اليه فلم يوافقها على  
ذلك بل ارسل اليه ليرده الى ما كان عليه فوجده متأهباً للخروج  
من البلد خوفاً على نفسه من سعاية ام الملك به فامته فعدل عما  
كان عازماً عليه وحضر الى الملك وترجاه في ان لا يعود الى  
الخدمة لئلا يقع بين الملك ووالدته شيء بسببه فلم يقبل عذره  
بل الزمه المقام معه لعلمه بصداقته وكفايته فلما لم يجد له مخلصاً  
من المقام معه قال له ان كان لا بد من ذلك فاول ما اشير  
به عليك ان تعمل طريقة تأمن بها شر هؤلاء المفسدين اشارة لقوم  
سماهم وفيهم والدة الملك فقال له الملك هذا رأي سديد وكما  
اشرت به في حتمهم قريب غير بعيد فقال ينبغي نفي فلان وفلان  
حتى الوالدة ففعل كما قال وامر بنفيهم في الحال حتى والدته  
فلم تعد للمملكة بعد ذلك وجعل الحل والعقد بيد ريشليو  
فنفذت كلمته وقويت شوكته وقام بتدبير المملكة وحده وبلغ  
من نفوذ الامر وحسن الراي حداً لم يبلغه احد قبله ولا بعده  
فاكتسبت هذه البقعة في تلك المدة من الروتق والباها ما يجلب  
عن الاحصاء ثم لما مات الملك وجلس محله ابنه لويز الرابع  
عشر احتفل بها وصرف فيها اموالاً كثيرة حتى نقلها الى حال  
احسن من حالها الاول فكان هو الذي اتتهها هذا الاتقان  
وجعلها على هذه الصورة التي تراها الان فان الملوك الذين

اتوا بعده وإن كان لهم بها اثار الا انها ليست شيئاً بالنسبة لما ابتدعه هو كما هو ظاهر فجميع ما تراه فيها مما يسر الناظر ويشرح الخاطر ليس الا من اتقان الملك المذكور وكان الذي اغراه على هذا المكان حتى ابرزه في غاية من الحسن والاتقان عشقه لاحدى توابع الملكة وكان لا يتمكن من منادمتها الا في هذا المكان فما اغراه واغواه الاّ داء الحب الذي اعتراه ففصل هذه البقعة تفصيلا غير تفصيلها الاول وجمع فيها الرسوم الهندسية وصور الحيوانات وغرس حول بعض الاقسام ازهاراً وحول بعض اخر اشجاراً ورتب في كل جهة فساقى وحيضاناً ونوافير واخلجانا ومغارات وصخوراً ونحو ذلك من كل ماله نظير في البراري والبحور وجعل فيها اماكن لمن اراد ان يستريح من التعب واماكن لمن اراد اللعب واماكن للحيوانات البرية ومثلها لانواع الطير وكان يعمل بها في بعض الاوقات ولائم يصرف فيها ما لا يصرفه ايام المواسم ولما رأى ان ماء البرك المجاورة لها لا يفي بما انشأه فيها من الفساقى والاخلجان وسقى الاشجار جمع المهندسين وامرهم بعمل طريقة لتكثير الماء بها فصنعوا لها آلات جسيمة تنقل الماء من نهر السين اليها وصرف على ذلك اموالاً عظيمة حتى وصلت اليها فلم يكتف بذلك بل جمع العساكر والعمال وامرهم بحفر النهر المعروف بنهر الاور فاقاموا في حفره مدة كابدوا فيها انواع المشاق ومات كثير منهم ومع ذلك كان لا يرثي لحالمهم ولا يرافهم بل كان يتهدد



المأمورين ويتوعدهم ويعاقب كل من تأخر عن العمل  
قال بعضهم انه اجتمع في حفر هذا النهر ما ينيف على  
ثلاثين الفاً واما قدر ما صرف على القصر فلم اتحققه الا اني  
رأيت بعض اوراق تدل على ان ما صرف فيه مائة وتسعون  
مليوناً وقتئذٍ هذا ومع قيام الحرب واشتعال نارها كانت العملية  
في القصر مستمرة ما بين نقاشين وبنائين ومصورين الى ان اشرف  
الملك على الارتحال وقربت اليه اوقات الزوال فبنى كيسة رتب  
فيها قسسا وخداما فكان يحضر اليها كل يوم احد وخميس فقلده  
في ذلك اتباعه وخواصه فكان اذا حضر اليها تبعوه وازدحموا عليها  
وإذا تخلف لم يحضر منهم احد وكان غالب ايام ذلك الملك مصروفة  
في تنظيم هذا المكان فكان يقسم اوقاته فيجعل وقتا لنومه ووقتا  
للمطالعة في اخبار دولته وقومه ووقتا لخلوته واجتماعه باحبته  
ووضع بجانب سريره لوحا عليه رسم صورته وصورة امه وزوجته  
فاذا اتبته من نومه كانت تلك الصور اول ما يقع بصره عليه وكان  
اذا جاء وقت قيامه من نومه دخل عليه الموكل بخدمته فينبهه ثم  
يخرج ويدعوا بالحكيم ومن يلوذ به فيغزون رجله ويلقون عليه  
بعض عبارات غزلية وكلمات هزلية حتى يعود اليه نشاطه ويتدبر  
اليه حواسه ويتم انبساطه ثم ترفع الستارة فيدخل عليه احد خواصه  
ومعه كتاب الدعوات فياخذه منه ويدخل به خلوة فيمكث فيها  
ما شاء ثم يعود الى مكانه ويلبس ثيابه ويخرج فيجد القسس والعمال

في انتظاره فاذا وقع بصره عليهم وقعوا له ساجدين ثم يامر كلا من عماله بالانصراف الى اعماله فينصرفون ويبقى هو مع بعض خواصه يتحدثون في حيل الصيد وانواع المصيد هكذا كان دابه فانظر الى هذه المدينة بعد ان كانت في اول امرها كفرة الا يذكر كيف صارت احسن مدينة في الدنيا وما ذاك الا لاقامة الملوك بها واحفالم بشأنها وتنظيم شوارعها وجمع انواع الملاحب في مراتعها فعمرت ضواحيها وملأت الخلق نواحيها وانشي بها خمامر كثيرة ومحلات مزخرفة لمبيت الاغراب وورد اليها الخلق من كل جهة خصوصاً ايام اطلاق المياه وغلت اجرة البيوت بها غلوا لا يخاطر ببال وقل ان يوجد بها محل للاجرة خال فكانت فرساي مدة جلوس لوزير الرابع عشر على التخت محل انس وانسراح وولائم وافراح ثم اتى ولده من بعده فلم يجر على سنن والده في تقسيم اوقاته على ما قدمنا بل صرفها جميعها في حظوظه النفسية ما بين مخادنة نساء وفجور ولعب وهو وشرب خمور حتى كان من شدة اكبابه على المنكر مع احبابه يجعل له آلة توصل اليه ما لزم من غير احتياج الى خدم فاقبل عليه المفسدون من كل حدب وحسنوا له القبيح من الشهوات واغروه بسائر المنكرات فعم الفساد وانتشر بين العباد ولا تسلم عما كان يهديه الى النساء فانه ما يجلب عن الاحصاء وقد بلغني من فعله القبيح واسرافه انه اهدى مرة الى بعض صواحيه قلادة ثمنها مليون وستمائة الف فرنك فانظر كيف كانت هذه البقعة مدة

لويز الثالث عشر ومدة من جاء بعده وكيف صارت مدة لويز السادس عشر من حسن حالها واستقامة احوال نساءها ورجالها حيث كان حسن السيرة ومدوح الفعل والسريرة يحب العلم واهله ولم يرتكب شيئاً مما ارتكبه من كان قبله الا ان الزمن الذي كان تصرم في الفساد قد الزم الرعية وكذا الحكومة بديون لا يرجى لها سداد فشكوا اليه ذلك فرق الحالم واخذ يجمع ما تشتت من شملهم ويهون عليهم الامور ويعدهم وينهم بما يجلب لقلوبهم السرور وكان الذي قبله قد شرع في اعمال جسيمة نافعة كبناء ميناء شربور وحفر خليج سربوني مع خلو خزينة الملكة من الدرهم والدينار واضطرار الرعية الى من ينظر في احوالهم اشد اضطرار فجمع النواب وكل من اشتهر من روساء الطوائف فكانوا الها ومائتين واربعة عشر وجعلهم ثلاث درجات

الاولى القسيسون ومن يلهم فكانوا ثلاثمائة وثمانية الثانية اعيان المدينة ووجوهها فكانوا مائتين وثمانية وتسعين الثالثة اعيان الزراع وعرفاء القرى وارباب الضياع فكانوا ستمائة وسبعة وامر بتهيئة محل لهم يجتمعون فيه فبيئوا لهم المكان الذي هو مدرسة ابتدائية الان وعينوا يوماً لافتتاحه فحضر الملك وكان عن يمينه اهل الديانة وعن يساره وجوه اهل المدينة وجلس الوزراء على قدر مراتبهم وكانوا جميعاً في ذلك اليوم قد حضروا وعلمهم ملابس الزينة الموشاة بالذهب وغيره ما عدا الاهالي فكانوا

بهيأتهم المعتادة وبعد ان كان هذا المجلس يسمى بمجلس النواب  
 اطلقوا هذا الاسم وسموه بمجلس الأمة ولما كان من عادة امثالهم في مثل  
 ذلك ان ينزعوا برائتهم ويظلوا واقفين ولم تراخ تلك العادة في  
 ذلك الوقت قال بعض المحاضرين هذا خروج عن العوائد  
 الرسمية وخلل في القوانين السياسية واكثروا من الكلام في ذلك  
 فلم يلتفت الملك اليهم وشرع في مقالة تلاها عليهم فذكر فيها مسألة  
 الدين وعدم انتظام عوائد الفردة ونحو ذلك من الامور التي تضرر  
 منها الاهالي ثم ختمها بامر النواب بالاتفاق على طريقة لاصلاح  
 خلل هذه الابواب ثم قام ناظر الخاصة وتلا مقالة بين فيها ما  
 اجمله الملك في مقالته فذكر ان قدر الدين ثلاث مليارات وتسعون  
 مليوناً وان الايراد لا يقوم بالمنصرف بل يتقص عنه في كل سنة نحو ستة  
 وخمسين مليوناً وخمسمائة الف فرنك وان قدر الايراد خمسمائة  
 وواحد وثلاثون مليوناً واربعمائة واربعون الف فرنك وان من  
 العبدل والانصاف ان تكون وجوه الناس كخيرهم في الفردة وان  
 جميع ما يلزم للحكومة يوزع على جميع النفوس من غير تمييز بين رئيس  
 ومرؤس ثم قال فاما ان نتفقوا جميعاً على كلمة واحدة واما ان  
 تبدي كل طائفة ما يظهرها وعلى كل لا بد من اعمال الفكر في  
 تخليص الحكومة من ورطة هذا الامر ثم اذن لهم بالانصراف  
 فانصرفوا فلما كان اليوم الثاني حضروا فقالوا الصواب صرف  
 النظر عن اراء رؤس الطوائف وان يؤخذ راي كل شخص على

حدثه فمن كان أكثر عمل برأيه فنفر بعضهم من هذا الرأي فلما بلغ الملك ذلك امر بعدم تغيير المعتاد ونهى عن الدخول في كل امر يوقع بين الناس الفساد واذن لهم بالانصراف فانصرفوا واغلقت الابواب فنشأ من ذلك امور لا يحصرها لسان ولا يحيط بها جنان كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنساوية فترتب على ذلك تدوين الاحكام السياسية والقوانين الفرنساوية وظهر نابليون بونابرت وتعصبت الدول على الامة الفرنساوية فاتتصر عليهم وسننكم على ما وقع بين هؤلاء القوم في يوم بعد هذا اليوم

المسامرة التسعون  
الجيولوجيا  
او علم طبقات الارض

ثم ركبوا سكة الحديد وتوجهوا الى باريز فصادف دخولهم  
غروب الشمس فاستأذن صاحبهم الفرنسي وتوجه الى منزله وبقي  
الشيخ مع صاحبه الانكليزي ولما لحق كلا منهما من التعب من كثرة  
المشي طول يومه استأذن كل منهما صاحبه ودخل محل نومه وعند  
الصباح اتى الفرنسي الى الانكليزي فاخذه وذهب به الى الشيخ  
فتلقاها بالقبول واحسن لها في القول ثم قال الفرنسي للشيخ  
كنت كتبت الى صاحبنا الانكليزي كتاباً رجوته فيه تبليغ السلام  
الى حضرتكم وان يترجاكم في قراءة دروس لنا في علم العربية  
بالمدرسة المشرقية وقد سألته البارحة عما تم عليه الامر فاخبرني انكم

قبلتم رجاءه فارسلت الى اعضاء الجمعية ابشرهم بذلك فسروا جميعا غاية السرور وكانوا يظنون ان اجابتم الى ذلك من ابعد الامور

فقال الشيخ قد نجت مقاصدكم لا خاب قاصدكم وكيف امتنع من ذلك والعلم ينهى اهله ان يمنعوه اهله وها انا مستعد لما ترومون ومتهيب لما ترغبون ولم يكن الباعث لي على اجابتم ما ذكرتموه في المكتوب الذي حررتموه بل اقول كما قال انا موصول بنعمة من حبله بالود موصول ثم اتفقوا على اليوم والساعة وقام الفرنسي مع الانكليزي واذا بابن الشيخ دخل عليه وقبل على عادته يديه فاخبره والده بما صار وبما انخط عليه القرار وانه عازم على انجاز الوعد ومتوجه اليهم في بعد غد

فقال له ولده ان يعقوب اخبرني حين استشعر بهذا الخبر ان له رغبة في حضور هذا المجلس ولكنه يخشى ان لا يأذنوا له فقال له الشيخ قل له عني لا عليك من ذلك ولا مانع من حضورك معنا هناك ثم اذن لابنه بالانصراف وحذره من تضييع الوقت اذا اراد الطواف وكانها كانت كرامة للشيخ فان يعقوب كان قال له قبل دخوله على والده ان هنا مكانا على نحو ساعة من باريز يعمل فيه في مثل هذا اليوم كما يعمل في الموالد في بلادكم وفيه ما يشرح الخواطر ويسر النواظر فلما خرج من عند والده واخبره بما قيل في شأنه تم انبساطه وتنبه نشاطه وقال له هل لك

في الذهاب الى هذا المكان لنرى ما فيه وتنشق نسمات هاتيك  
الجنان فلم يجد له بدا من الموافقة عملا بقولهم شرط المرافقة الموافقة  
فركبا عربة وسارا فقال له ابن الشيخ اتذكر ايام كنا راكبين البحر  
حين كنا نرى دخانا صاعدا الى السماء فكنا نراه في الليل كأنه  
مخلط بشهب وهلب وكان الخواجا يقول لوالدي انه خارج من  
جوف الارض فاضن ان هذا من ذلك وذلك يقضي بوجود حرارة  
شديدة في جوف الارض حتى تذوب منها هذه المعادن والاحجار  
وتدفع على وجه الارض وتشر سلطنا ذلك فكيف وصل الانسان  
الى جوف الارض حتى علم ما هناك

فقال له يعقوب قد سألت عن مسائل مشكلة والاجابة عنها  
على مثلي معضلة ولكن على حسب الامكان اذكر لك ما يحضرنى  
فيها الان مما سمعته من بعض العلماء واطلعت عليه في كتب  
الفلاسفة الحكماء انما يجب ان تعلم اولاه انه لا ينبغي للانسان ان يحكم  
على الاشياء بظواهرها وانها كانت كذلك من اول امرها فان  
الارض التي تراها مكسوة باصناف النبات مملوءة بانواع الحيوانات لم  
تكن قبل ذلك كذلك حتى المدن التي تراها الان عالية البنيان  
معمورة بالسكان لم تكن كذلك بل لا بد وان يكون قد تداول  
عليها تقلبات منها ما اوقع اهلها في مضرات ومنها ما البسهم ثياب  
ثروة وسعادات فاذا كان هذا فيما على ظاهر الارض فلا مانع من  
ان يكون ما في باطنها كذلك فاننا لو نزلنا الى ما في جوفها من مغارات



عميقة كمفارات الفحم الحجري مثلا لوجدنا حرارة باطنها اشد من حرارة ظاهرها وهكذا كلما نزلنا ثلاثة وثلاثين متراً نجد حرارة اشد مما فوقها وايضاً فان الارض مركبة من طبقات ومعادن بعضها فوق بعض منها المستقيم وغيره وقد يكون بعض الطبقات مفصولة عن بعضه بمادة ليست من جنسه وغير ذلك مع اننا لو نزلنا الى باطن الارض وامعنا النظر لوجدنا في خلال مادتها بعض عظام واثربعض نبات فمن اين كان هذا النبات والحجوان واي حيوان كان ومتى كان في هذا المكان أفلا يدل ذلك على وجود تقلبات مضت في الاعصر والازمان التي انقضت وقد اعنى علماء كل زمان بالبحث عن هذه العظام فظهر لهم انها عظام حيوانات كانت في ازمان مضت ثم انقرضت عن اخرها

وحيث كانت تلك العظام غائرة في جوف الارض وعلى بعد عظيم من سطحها ينبغي القطع بمرور تقلبات عظيمة وادوار مختلفة اوجبت بلاءها وامتزاج ما بقي منها بالمواد المعدنية والحجرية فقال له ابن الشيخ واي علم يشرح هذا الحديث وهل هو قديم او حديث

فقال يعقوب العلم الذي يذكر فيه ذلك يسمى باللغة الفرنسية علم الجيولوجيا ومعناه علم طبقات الارض او علم تكوين الارض وهو علم حادث لم تؤسس قواعده ولم تنتشر فوائده الا في القرن السابع عشر من الميلاد ومستنده المشاهدات والاطلاع على ما خفي من

طبقات الارض فكانوا كلما كشف لهم شي اثبتوه واستنجوا منه  
غيره ولذا ترى هذا العلم دائماً يتسع شيئاً فشيئاً وهو علم نفيس اذ  
به يمكن نسبة كل طبقة من طبقات الارض الى الزمن الذي  
تكونت فيه واخشى ان تكلمت معك فيه ان تسأم من طول  
المقام او كثرة الكلام

فقال قل ما شئت ولا تقصر في الايضاح ولا تجل بالافصاح  
فاني لكلامك سامع

فقال يعقوب اذ قد الزمتني بالاجابة وان ابين لك خطأ  
الراي وصوابه فاقول

اعلم ان علماء هذا الفن يقولون بتغير ظاهر الارض وباطنها  
اما تغير ظاهرها فبما هو مشاهد لكل احد واما تغير باطنها فقد استدلوا  
عليه بشيئين احدهما ما وجدوه في خلال طبقاتها من الاثار  
الحيوانية والنباتية والثاني الانتقاد والاشتعال الذي وجدوه في  
باطنها كالذي رأيناه حين كنا بالبحر فلما رأوا ذلك قالوا لا بد  
ان يترتب على هذا الانتقاد فوران وغيليان يوجب تعدد  
الطبقات وارتفاع كل طبقة على التي فوقها وان تتخلل بعض  
اجزاء الطبقات السفلى بين اجزاء الطبقات العليا ومن ذلك  
العظام ونحوها وكان البحث عن هذا الامر في اول الزمن  
مجهولاً فكان بعض القدماء اذا رأوا اثر حيوان او نبات اكتفوا  
برؤيته ولم يبحثوا عن سببه وبعضهم بعده جزء من اجزاء الارض

وبعضهم ينسبه الى ما يشبهه من الحيوانات الا انه كان مخترع له  
 بعض حكايات خرافية واقوال وهمية فينقلها عنهم من ياتي بعدهم  
 ثم من بعدهم وهكذا فمن ذلك ما نقل عنهم وكانوا قد رأوا عظاما  
 يشبه بعض اعضاء الانسان فنسبوه اليه وقدروا له طولاً وعرضاً  
 غير طولها وعرضه المعروفين

اول من تكلم في هذا الفن العالم الشهير الفرنسي المسمى  
 بيزنار باليس وكان في القرن السادس عشر من الميلاد فانف في  
 ذلك كتابا بين فيه ان جميع الاثار النباتية والحيوانية التي توجد  
 خلال الاحجار لم تكن الا بقايا حيوانات واشجار كانت مخلوقة في  
 قيعان البحر ومحلها الان هو الذي كانت خلقت فيه من قديم الزمان  
 ثم اتى من بعد هذا العالم في القرن السابع عشر علماء ايتاليون  
 فافتقوا اثره وقالوا برأيه وصاروا يكتبون كلما رأوه من الاثار  
 وينسبونها الى اصولها ومن ذلك العهد اتسعت دائرة هذا العلم وكثر  
 اهله ثم انهم اتقسموا قسمين قسم ينسب تكوين الارض الى النار  
 وقسم ينسبه للماء وكل اقام على مذهبه دليلا اسس قواعده واثبت  
 بالبراهين فوائده مع اجماعهم على ان جميع ما يوجد من اثار الحيوانات  
 والنبات كان له اصل في الخلق وطريق الاستنباط من هذه الاثار  
 طويل لا حاجة لنا به الان فعلى اي حال لولا وجود هذه الاثار  
 واشتغال اهل هذا الفن بها اثناء الليل واطراف النهار لكان هذا  
 العلم الى الان في حيز الاهمال كعلم قدماء المصريين فانه بقي زمنا

طويلا لا يلتفت اليه وكان كثير من الناس يظنه مجرد نقش  
 وصور ولا يخطر بباله انه من عظيم الاثر الى ان ظهر شامبلون  
 الفرنسي فتأمل في اصوله وقواعده واظهر المحباً من فرائده حتى  
 وقف على تاريخ المصريين وعلم كثيراً من حوادث الاقدمين  
 فكذلك هذا العلم فان العالم الشهير المسمى كوفي الفرنسي ما  
 تكلم على تكوين الارض والتقلبات التي استمرت من بدء الخلق الى  
 زمنه والتي تعتبرها الى الان الامن تبعه تلك الاثار وامتحانها  
 ونسبتها الى ما يشبهها واما اشتعال المواد واتقادها في تخوم الارض  
 فكان الاقدمون يقولون به فوافقهم على ذلك المتأخرون وبنوا ذلك  
 على امور منها ازدياد الحرارة كلما تعمق الانسان وتغلغل في جوف  
 الارض فانه كلما نزل ثلاثة وثلاثين متراً زادت الحرارة درجة كما  
 تقدم ومنها البركان والمياه النابعة من جوف الارض ومنها البخار  
 الذي يصعد من جوف الارض في بعض البقاع فهذا كله دليل  
 على وجود الحرارة

وبناء على ما قلنا من زيادة الحرارة في كل ثلاثة  
 وثلاثين متراً تكون الحرارة في المركز ١٩٥٠٠٠ درجة وعند ذلك  
 تكون جميع المواد التي في هذه الدرجة نامة السيلان ويؤخذ مما  
 اسلفنا ان الطبقة الظاهرة التي تجمدت بتأثير البرودة كانت قبل  
 ذلك سائلة بتأثير المواد السائلة والابخرة المحبوسة تحت الارض  
 فلما اثرت البرودة في القشرة الظاهرة جمدت المواد المتدفقة المهامسة

لها وتقص حجمها نحو العشرة كما هو شأن كل مائع تجهد  
وحيث أن تكون الطبقة الأرضية التي هي ظرف أوسع من  
مظروفها فربما كان بينه فضاء وقد يمتلأ وإذا حصل في الظرف  
انخفاض وارتفاع تكبر من على ظاهره ما يسمونه سلاسل الجبال  
وقد ينفتح الظرف فتحات فتخرج منها مواد سائلة وترتفع إلى الجو ثم  
تسقط على سطح الأرض فيكون منها هذه الجبال الشاغخة الموجودة  
في جميع جهات الأرض هذا إذا كانت الفتحات واسعة فان كانت  
ضيقة عادت المواد المقذوفة منها إليها فكان ما يسمونه العروق  
المعدنية أو الحجرية وقد يكون الخارج من تلك الفتحات مواد  
معدنية أو حجرية فيتخلل منها مواد ملحية أو جيرية أو غير ذلك فإذا  
اختلفت بالبحار كان من املاحها ما يسمونه أرض الرسوب فإذا  
تقرر ما ذكرناه من احوال القشرة الأرضية وما يعرض لها علمنا انه  
منير لصورتها ومبدل لهيئتها وانه ناقل للبحار عن مواضعها ولكن  
لا يكون ذلك الا بعد مضي ادوار من الزمن طويلة تسكن الأرض  
وتستقر في كل دور منها فتنتقل المواد السائلة منها إلى مواضع  
قريبة أو بعيدة عنها على اختلاف تأثير الماء قوة وضعفا فإذا استقرت  
كان ما يسمونه الأرض المتقولة وما ذكرته لك في بيان اصل  
الجبال والصخور والبركان والعروق المعدنية وتموج الطبقات  
الأرضية وقذف المواد السائلة في باطنها إلى ظاهرها وتخلل بعضها  
بين طبقاتها وبيان أرض الرسوب والأرض المتقولة انما هو على سبيل

الاختصار والافالكلام على ذلك بعبد القرار  
وقد جعل علماء هذا الفن جميع المواد المتذوفة التي تكوّنت  
منها كرة الارض ثلاث طبقات

الاولى الطبقة التي كانت سائلة ثم جمدت بالبرودة وسموها  
الارض المنبلورة

الثانية المواد التي في قرار البحار كالرمال ونحوها وسموها  
اراضي الرسوب

الثالثة الاراضي البركانية وتسمى المنبلورة ايضاً الا ان تلك لها  
صفات تميزها عن غيرها كالاتار النباتية والحيوانية وهذه تحدث من  
تأثير المواد الكامنة تحت الارض وهذه الطبقات الثلاث وان كان  
بعضها فوق بعض الا انها ليست على نسبة واحدة والا كانت معرفة  
علم تكوين الارض سهلة لا صعوبة فيها اذ يتوالي فعل البراكين  
وقذفها بانواع مختلفة في مواضع وازمان متعددة تكون الطبقات  
التي تحدث ما يقذف تارة متقطعة وتارة تستحيل الى نوع اراضي  
الرسوب ويتبدل النوع بغيره فحينئذ لا بد لكل من اراد ان يقف  
على حقيقة اي ارض ان يعرف اولاً ما قيل فيها ومن اي نوع هي  
ثم بعد ذلك يحكم عليها

فقال ابن الشيخ بقي عليك امور ذكرتها ولم تات لها ببرهان  
قلت ان هناك حرارة مركزية ولم تذكر سببها وهل هي سابقة على  
التكوين ام حصلت بعده وذكرت ان البرودة تؤثر في الارض

ونسبت اليها تجهد الطبقة الارضية السطحية حتى حيست بتجهدھا  
 المواد الداخلة وانه يحصل في الطرف بواسطة البرودة ارتفاع في  
 بعض المواضع وانخفاض في بعض اخر فتحدث الوهاد وسلاسل  
 الجبال ولم تبين اسباب هذه البرودة وكذلك ذكرت المياه ولم  
 تذكر سبب جريانها هل هو تلك المواد المتذوفة ام غيرها وعلى كل  
 فاین كانت مواد التكوين قبل وجود الكون

فقال يعقوب لا تعجل عليّ فاني اعلم انك ستسألني عن ذلك  
 كله وانما اخرجت بيانه لضرورة تميم الكلام على المتدمات التي سمعتها  
 فاذا ثبتت في ذهنك اتبعتها بذكر المقصود من هذا العلم وهو معرفة  
 مادة الارض وكيف كانت قبل ان تكون بهذه الكيفية واي شي  
 اثر فيها حتى صارت في هيئتها الحالية وجرت فيها المياه وعمرت  
 بالانسان والنبات وسائر انواع الحيوانات فاقول لا يخفى عليك مما  
 تقدم ان درجة حرارة مركز الارض كبيرة جدا لا يقاومها شي ولو  
 كان في غاية الصلابة فعلى هذا يلزم ان تكون جميع مواد الكون  
 في ذلك الحين بخارية وان يكون حجمها وقتئذ قدر حجمها جامدة  
 ألفا وثمانائة مرة ولذلك قالوا ان حجمها كان قريبا من حجم  
 الشمس الذي هو قدر كرة الارض الغامرة ولكن بدوران المادة  
 الارضية في الفضاء البارد المحيط بها من جميع جهاتها كانت تبرد  
 بالتدرج الى ان انتقلت من الحالة البخارية الى حالة الميوعة ثم الى

الصورة الكروية التي يقبلها كل مائع وتوضيح ذلك يعلم من علم  
يقال له علم تحريك الاجسام

وحيث كان للارض بدورها حول محورها حركة خاصة  
بها يترتب عليها تعاقب الليل والنهار كما هو مذكور عند اهل  
هذا العلم حصل لها وقت ان كانت سائلة من الانتفاخ والاستدارة  
ما يحصل لاي مائع دار حول محوره بان علت وانتفخت من وسطها  
وهو المنطقة المسماة بنحط الاستواء وانسطت وهبطت من طرفيها وهما  
المحلان المعروفان بالتطين فتغير شكلها وبعد ان كانت بخارية  
صارت مائعة ولم تؤثر البرودة في جميع المواد بل منها ما بقي على  
حاله الاصلية فكان منه جو عظيم السعة له اشعة متشرة في الفضاء  
يتخلل منها ابخرة الماء والمواد الارضية وانما لم تتحدد لان حرارة الجو  
في ذلك الزمن كانت شديدة حافظة لبقائها على حالتها البخارية  
ولان ضغط الجو على الكرة في ذلك الزمن كان اقوى من ضغطه  
عليها الان لتقله بما فيه من الابخرة المائية والترابية والمعدنية فلم  
تجمد وتندل لشدة الحرارة والضغط وقتئذ ولا شك في ان جميع  
ابخرة الجو كانت فوق بعضها على حسب ثقلها وخفتها فكان اثقلها  
اسفلها وهي الطبقة التي تلي الارض كالابخرة الحديدية والنحاسية  
والبلاتينية فكانت هذه الطبقة في غاية الثقل والكثافة وفوقها ابخرة  
المواد الاقل منها ثقلا وكثافة كابخرة الاملاح المعدنية والكبريتية  
والفسفور وفوق هذه الطبقة ابخرة المواد الهوائية الخفيفة الصافية



كبخار الماء والاكسجين والازوت والاسيد كربونيك وهذه الابخرة كلها وان كانت متفاوتة ثقلا وخفة الا انها كانت دائما في ثقل واستحالة من حالة الى حالة فكان يفصل منها تيارات وعواصف فتمزق ما جاورها من الطبقات وتنفذ منها فيكون لها عند ذلك رعد وبرق اعظم مما تسمعه الان وكذلك كرة الارض تتأثر من المواد التي في جوفها فيحدث فيها كذلك تيارات شديدة تدفع تلك المواد الى جهات مختلفة فيتولد منها ما يقال له الكم بائية فيكون لها عند ذلك من الرعد والبرق والاصوات المختلفة فوق ما تسمعه الان هذا ما كانت عليه الارض والجو في مبدأ امرها وكانت الارض وما يحيط بها سائرة في مدارها في فضاء متسع محيط بها من سائر جهاتها وبسبب شدة برودة الفضاء التي كانت بحيث لا تنقص عن مائة درجة تحت الصفر كان كلما تقادم الزمن وقوي تأثيرها على الارض نقصت ميوعتها واخذ ظاهرها في الانجهد شيئا فشيئا ولم يجهد دفعة واحدة بل في نقط منفردة وازمنة مختلفة ثم تجمعت وانصلت ببعضها حتى سترت الكرة الملتببة ويظهر ان تلك الطبقة في ذلك الزمن كانت رقيقة جدا وان كان سمكها الان ثمانية واربعين الف متر لان نسبتها لنصف القطر كواحد من مائة وثلاثين فلوقتها كانت لا تقاوم المواد السائلة داخلها بل تتشقق من بعض المواضع فيخرج من باطنها بعض مواد ترتفع الى الجو ثم تسقط وتجمد فتكون منها الجبال والعروق

التي توجد خلال الارض في كثير من المواضع كالخماس والتوتيا والاشموان والرصاص وهذه العروق نارة تكون عمودية ونارة تكون مائلة وكثيراً ما تكون على غير انتظام وقد يتفرع من تلك العروق فروع ومن الفروع فروع اخرى الى ما لا نهاية له فمن ذلك يظهر ان السطح الظاهري للارض كان مختلفاً في الاتجاه والارتفاع والانخفاض والسعة والشكل والتضريس وبسبب استمرار التأثير الداخلي عليها كانت دائماً تتغير الى ان وصلت درجة برودة السطح حداً يمكن معه سقوط المواد البخارية من الجو على سطح الارض بصفة الميوعة انما لشدة حرارة الجو كان الماء الساقط منه وقتئذٍ شديد الحرارة ايضاً لان حرارته كانت مائة درجة فاذا نزل ووجد ظاهر الارض شديد الحرارة لم يستقر عليها بل يتصاعد ثانياً ويقطع طبقات الجو الى ان يصل الى الطبقة العليا ويحل في البرودة فيستحيل من الحالة البخارية الى الميوعة وينزل الى سطح الارض ثانياً في هيئة المطر فتحيله حرارة الارض الى بخار ويصعد في الجو ثانياً وهكذا كلما نزل يتقلب بخاراً وكلما صعد يتقلب مائعاً الى ان يبرد سطح الارض فيستقر عليها لان الماء كلما نزل ياخذ جزءاً من حرارتها فاذا برد سطحها استقر عليها ولم يستحل بخاراً ثم لم يزل يزداد حتى عم جميع الارض وتسلطن عليها وتمكن من حبس الحرارة في جوفها وان كانت في بعض الاوقات تتنفس بعض تنفسات فتغير شكل ظاهرها ومن ذلك الوقت ابتدأت الارض في دور

جديد ومع تسلطن الماء على ظاهرها لم يزل الماء الذي في باطنها شديد الحرارة ولما كانت الطبقة العليا التي هي ظرف لظاهر الارض مركبة من السليس والانتيموان والبوتاسي والصدودا وكانت هذه المواد تتأثر بتأثير الماء والهواء والحرارة حصل لها في تلك المدة استحالات اوجبت استقرارها في قرار البحار وصار ينفصل منها جواهر دقيقة كالرمل ومواد طينية ومن شدة جريان التيارات المائية كانت تأخذها معها الى مواضع فتتركها فيها فترسب فتكوّن منها الارض التي تسمى بارض الرسوب ومن تأثر المواد الطينية بالحرارة ذابت وتجمعت فلما تعطلت الحرارة بردت فتكوّنت عنها الارض التي تسمى بالارض الشيستية اي ذات الصفائح التي منها اردواز فمن ذلك يعلم ان الارض الطينية اردوازية فوق الارض الطينية وان الارض في ذلك الزمن كانت عبارة عن جزيرة صغيرة يحيط بها ماء حار من كل جهة وان البحار كان بها طين كثير فرسب بازدياد البرودة وعظم به سمك الطبقة السطحية وان المواد الداخلة كانت تخرج منها فتكوّن جبالا وصخوراً صوانية وشستية وان البرودة كلما اثرت في الارض نقص حجمها وتمزق سطحها وخرج منها مواد سائلة فتجمد وتستحيل الى صخور ومياه ممزوجة بمواد وان هذه المحوادث تكررت مراراً كثيرة لا يعلم عددها الا خالفها ولهذا نجد في طبقات الارض الاولى وهي التي تكونت في الدور الاول عروفا صخرية متقاربة من بعضها وفي خلالها معادن مختلفة واما

الاثار الحيوانية والنباتية فلم يشاهد منها شي خلال الصخور التي امتحنت في الدور الاول ولذلك قالوا ان الارض كانت في تلك المدة مجردة عن النبات والحيوان وهذا هو الظاهر لان الحرارة كانت وقت ذلك شديدة والظلمة مطبقه لكثرة الابخرة المائعة من وصول حرارة الشمس الى الارض فلما نتاع نزول المطر وفتق طبقات الظلمة صفا الجو ودبت البرودة في الارض ووصلت اشعة الشمس اليها ومن ذلك الوقت اخذت في الظهور ولكون الحرارة لم تنعدم بالكلية لم يظهر في ابتداء الامر الا بعض نبات وحيوانات بحرية محارية فكان كلما ضعفت الحرارة كثر النبات والحيوان فكان يظهر منها في كل دور جنس فيمكث ما شاء الله ثم غيره فيمكث كذلك وهكذا الى ان وصلت الحرارة حداً يمكن معه بقاء نوع الانسان فعند ذلك خلق الله النوع البشري واسكنه الارض وتمعنه بجميع ما خلق قبله فيها

وقد وجد في الطبقة الطينية آثار حيوان ونبات فاستدلوا بها على وجود هذين النوعين حين تكوين هذه الطبقة واجمعوا على ان اول ظهور الاجسام الحساسة اي الحيوان والنبات كان في الماء لانه هو الذي اودع فيه سر الحياة ثم اخلفوا في السائق منها والظاهر انه النبات لان ما وجد من اثاره اكثر مما وجد من اثار الحيوان واني وان كنت اطلت عليك الكلام في هذا المقام فما تركته اكثر ما ذكرته ولعلك فهمت معتقد اهل هذا العلم في اصل تكوين

الكرة الارضية الى ان ظهر فيها اصناف المخلوقات واكتست بانواع  
الحيون والنبات

ومن جملة معتقدهم قولهم ان سمك الطبقة التي تجهدت وحسبت  
المواد السائلة ثمانية واربعون الف متراً وان تكوينها لم يكن دفعة  
واحدة بل كان في اربعة ادوار

الدور الاول وجد فيه الصخر والصوان والسماق والثاني  
والثالث وجد فيها باقي الاحجار والرابع وجدت فيه الارض التي  
كانت زمن الطوفان وهي التي نحن بها الان وطريقهم في ذلك كله  
الاستكشاف وما عثروا به في خلال الارض من المعادن والاحجار  
وانثار النبات والحيوان

فقال ابن الشيخ لعل هذا كله مني على ما فهموا وان كان  
الواقع خلاف ما زعموا فان تدبير الكون وابرازه من عالم الخفاء الى  
عالم الشهود امر لا يحيط به الا القادر المتفرد بوحدة الوجود والذي  
يسعنا في مثل ذلك ان نجعله من جملة الممكن وتباعد عن القطع  
فيه بشي مما يمكن ولكن لا بأس بعلم ما قيل في هذا الفن سواء  
المظنون منه والمتيقن لان معرفة مثل هذه الامور ربما تنفيد العلم  
بجقيقة الكون في سابق الدهور فالمرجو من فضلكم استيفاء الكلام  
على ما قيل في هذه الادوار وكيف كان ثقلها الى ان وصلت الى  
الدور الذي وجد فيه الليل والنهار وعلى الارض كيف كانت  
ومتى كانت ومن اي شي تكوّنت وما الذي يتميز به كل دور

عن غيره ولا تؤاخذني فيما عودتني عليه من كثرة السؤال وطلبي  
منك الاطباب اذا شرعت في اي مجال لان بضاعتي في هذا المعنى  
قليلة ومدركتي لفهم مدركاتكم كليله

فقال يعقوب لا مواخذه ولا لوم وهل توسمت مني شيئاً من  
ذلك في غير هذا اليوم وكيف يكون ذلك مني او يؤثر ما يشعر به  
عني ألتست بحسوبكم ولا شغل لي غير خدمة جنابكم وغاية ما أقول  
هبوني امرًا ان تحسنوا فهو شاكر

لذلك وان لم تحسنوا فهو صالح

ولكن ارى الوقت لا يسع الكلام في هذا المعنى فقم بنا الى  
المجتمع لننظر ما فيه ولا بد ان نعود الى الكلام في هذا الشأن حتى  
نستوفيه



## المسامرة المحاذية والتسعون

نادرة

وكان المكان الذي جلسا فيه قريبا من الطريق ولكن لاستتاره بالشجر كانوا يرون الناس ولا يرونهم فلم يحصل لابن الشيخ ما كان يحصل له اذا مشى في طرق المدينة حيث كان لا يمر بطريق من طرفها الا رأى الناس قد احناطوا به من كل جهة كما هي عادتهم اذا رأوا غير ابناء جنسهم او احداً تزيى بغير زيمهم ثم قاما ومشيا حتى بلغا المحل الذي عيناه للعربة وكانت واقفة بجوار فندق دخلاه واكلا فيه وشربا ثم خرجا وسارا الى الجهة التي قصداها فوجدا خلقا كثيرين مجتمعين في فسحة خارج البلد بها حوانيت من خشب تنقلها اصحابها وتذهب بها اي مذهب ووجدا بالفناء المذكور زحاما كثيرا فنزلا عن العربة ومشيا بطوفان من

جهة الى جهة فلم يجدا شيئاً يستغرب وتمنى ابن الشيخ ان لا يكون الى ذاك المحل ذهب خصوصاً لما رآه وسمعه ما يكدر خاطره وينفر طبعه وخشي ان طال المقام ان يحصل له ما يؤذيه او يتغير قلب والده عليه فقال ليعقوب ارحل بنا من هذا المكان فاني ما رأيت احداً الاً وظننت انه شيطان فخرجنا مسرعين فرأيا في الطريق محلاً على بابيه مكتوب ما معناه من اراد ان يرى اغلظ امرأة على وجه الارض واطول واقصر رجل كذلك فليدخل هذا المكان

فقال ابن الشيخ ليعقوب ادخل بنا هذا المكان لعلنا نجد فيه شيئاً نتروح به وينسينا ما كان فوافقه ودخلاه فوجداه في غاية ما يكون من الاتقان وفيه الكراسي كثيرة مصطفة فجلسا في ناحية منه فظنرا الى صدر المجلس فوجداه خالياً وبجانبه فرجة وعليها ستارة واذا برجل امرد مهول الحلقة مفرط الطول يظهر عليه سن الشباب قد خرج من خلف ستارة ومشى حتى توسط المحل ومعه رجل يقول للحاضرين هذا الرجل من الهند وطوله يزيد عن مترين فقام اليه اطول رجل من الحاضرين ووقف بجانبه فلم يبلغ ثدييه فوقف برهة كاد ان يغشى بها عليه فاخذ بيده الرجل الذي كان معه واجلسه لانه مع صغر سنه وطول قامته لم يكن فيه قوة للحركة اصلاً حتى لو دفعه اي انسان بيده لوقع على الارض ثم خرج رجل اخر متناسب الاعضا رخم الصوت طلق اللسان حسن العبارة خفيف الروح لا يبلغ طوله هنداسة وله لحية فصار يتعصف



ويرقص ويصنع حركات غريبة ويفعل افعالا تدل على قوة عجيبة  
ثم عمد الى فردة من جزمة الرجل الكبير الحجم فدخلها حتى غاب  
عن اعين الناس ثم خرج منها وكان ذلك الرجل كلما خاطبه  
احد فهم يادنى اشارة واجاب بافصح عبارة ثم جلس بجانب الرجل  
الاول وخرجت امرأة لم ير اغلظ منها فاخذت تتحرك كأنها ترقص  
وتترنم وتعاني خفة الحركة وغلظ الجسم يمنعها وتكلف السرعة وثقل  
البنية يدفعها فلما انفض الثلاثة من لعينهم خرج ابن الشيخ ويعقوب  
فوجدا بالباب ازدحاما لم يرياه حين دخولها وقد احاط بهما خلق  
كثيرون ممن كانوا داخل المحل وخارجه فلم ينفذا من بينهم الا  
بغاية المشقة ثم سارا الى ان وصلا العربية فركباها فقال ابن الشيخ  
يا عجبيا لهذه الامة ويا ليت شعري ما اوجب انكباهم هذا الانكباب  
وازدحامهم علينا حين خروجنا من الباب

فقال يعقوب هكذا دأب الافرنج خصوصا الفرنساوية فان  
لم العناية بكل ما يروونه مخالفا لعوائدهم ولوراوه الف مرة  
فقال ابن الشيخ ويا ليتهم اقتصروا على النظر من بعد ولم تمتد  
الى ثيابي منهم يد بل كان بعضهم يقبض عليها ويتأمل فيها وبعضهم  
يقلمها ظهراً لبطن كأنه يشتريها فكنت اتغافل واغض بصري  
واتجاهل خوفا من النزاع والمخصومة

فقال يعقوب ان غالب ما رأيت من اهل الريف وسكان  
البادية فنجدهم عقولهم قاصرة وحماقتهم من غير سبب ظاهرة وقد

احسنت فيما فعلت فانك لو خاطبتهم لم تأمن شرهم وربما كان  
يترتب على ذلك اكثر مما رأيت

فقال ابن الشيخ حاشا ان يكون اهل ريف مصر كذلك  
فانك لا تراهم الا مشغولين بامرانفسهم ولورأوا غريبا ببلادهم ولو  
كان زيه مخالفا لزيهم لا يعنون النظر اليه وان نظروا اليه نظروا  
نظرا خنلاسا بحيث لا يدركه الا قليل من الناس

فقال يعقوب هكذا اقتضت حكمة الملك الديان وانت تعلم  
انه ليس في الامكان ابدع مما كان أنسيت نصيحة والدك وهو آخذ  
بيدك ويقول لك يا بني ما نازعني احد في امر الا اخذت في امره  
بثلاث ان كان فوقني عرفت له فضله وان كان دوني رفعت قدرتي  
عن منازعته وان كان مثلي تفضلت عليه فالاحسن ان تصفح صفح  
الكرام وان لا تضيع وقتنا في تتبع عثرات اولئك الاقوام فاخبرني  
عن اي الثلاثة الذين رأيتهم كان عندك اعرب

فقال ابن الشيخ اما بالنسبة لمن خلق الذر وفصل له اعضاء  
وجعل لبعض الدود اسنانا كالمقاريض بل امضى وخلق الانسان  
من نطفة ثم من علة واخرج من جوف الصخرة السماء اضعف  
حيوان ورزقه فلا غرابة ولا عجب

واما بالنسبة لعوائد الخلقه فالقصير احق بالاستغراب واولى  
لان الرجل الطويل وان كان غربيا في خلقته وطول قامته وعدم  
قوته لا يساوي الرجل القصير في ذلك فانه مع فصاحته وطلاقة

لسانه تراه قد بلغ من القصر الغاية ونخافة الجسم النهاية ولكن لا ادري هل هو من الفرنسيس ام من غيرهم وهل سنه على قدر جسمه ام لا

فقال يعقوب انك لو القيت بالك الى كلامه حين خروجه لعرفت منبته واصل لسانه وقدر عمره وما كان من امره فانه ذكر عند خروجه انه رجل من جزيرة بالبحر المحيط الجنوبي وان عمره تسع وثلاثون سنة وانه اقام ببلاد الانكليز وفرانسا مدة وساح باكثر بلاد اوربا ولذلك كان يتكلم مع كل انسان بلغته فقال ابن الشيخ ما اظن خلقاً بهذه الصفة الا ان يكون من ذرية ياجوج وماجوج فان منهم على ما قيل من طوله شبر ومن طوله شبران وغايته ثلاثة اشبار فقال يعقوب وما ياجوج وماجوج واين موضعهم من الارض فقال ابن الشيخ هم جيل من اولاد ادم وموضعهم خلف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين وذلك انه لما وصل في سيرة الى مغرب الشمس عند جبل ارمينية واذربيجان وجد هناك قومًا فشكوا له منهم وجعلوا له جعلاً على ان يجعل بينهم وبين ياجوج وماجوج سداً فضربه على احدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم داخل السد قبيلة واحدة فقال يعقوب لا مانع من ذلك ولكن الذي اعلمه واطلعت عليه في كتب التاريخ ان اللابونيين والسمويد كلهم قصار ولعلها

خاصة في هواء قطرهم وطبيعة ارضهم وان الملوك في الزمن  
السابق كانت تتخذهم اضحوكة لهم ويغدقون على من اتى اليهم  
بواحد منهم حتى قيل ان اهل المشرق لما علموا ان سبب الرغبة  
فيهم حقارة جسمهم استعملوا طرقا تمنع الطول فكثروا فكان  
الرومانيون يجمعون منهم في اوقات سرورهم ويفرون بينهم حتى  
يقتل بعضهم بعضاً ثم عزو وجودهم في القرون الوسطى وقد كانت  
الامراء تستعملهم في البريد لتوصيل الاخبار وذكر المؤرخون انه  
وجد في القرن السابع من الميلاد رجل لم يبلغ طوله ثلثي ذراع  
معياري فعندي ان كل من كان من هذا القبيل فهو من ذاك  
الجيل

## المسامرة الثانية والتسعون

## الجمعية المشرقية

وبينا هما في الحديث لم يشعر الا وهما داخل المدينة فسارا حتى وصلا محل الشيخ فنزلا عن العربية ودخلا عليه فوجدا عنده صاحبه الانكليزي فبدأ ابن الشيخ بتقيل يد والده ثم تحوّل للانكليزي فصافحه وقعد بجانبه وكان قد حان وقت ذهابهم الى منزل رئيس الجمعية فقال الانكليزي لابن الشيخ هي نفسك فانا متوجهون هذه الساعة فقال ابن الشيخ ان اذن الوالد فسمعا وطاعة ثم انهم قاموا جميعا وركبوا العربية وسارت بهم حتى وصلوا منزل رئيس الجمعية فقابلهم بغاية الاحترام وحياءم تحية الكرام وكان بالمجلس جماعة من مشاهير العلماء ورجال الجمعية المشرقية ووجوه الامراء فاخذ رئيس الجمعية بيد الشيخ حتى اجلسه وقعد بجانبه

وأنسه وكان بالمجلس مع صاحبة المنزل نساء كثيرة فقعد الجميع  
يتجاوزون اطراف الحديث الى ان حان وقت الطعام فقاموا جميعا  
واخذ كل واحد منهم بيد امرأة وجاءت صاحبة المنزل الى الشيخ  
واخذت يده فتبعها ومشى معها حتي دخلت به محل الطعام  
فجلست والشيخ عن يمينها وصاحبه الانكليزي عن يسارها وجلس  
صاحب المنزل في الصف الثاني وابن الشيخ عن يمينه وجلس  
الباقون في مواضعهم التي رسمت لهم فاكلوا ثم رجعوا الى محل  
الجلوس كل ذلك وهم مخفون بالشيخ احذاف الهالة بالتمر ومخفون  
به احذافهم بملك مطاع فيما امر وكان كل من خطر بباله شي يتعلق  
بفن العربية تلتف في ابدائه فيجيبه الشيخ بجواب لا يحوم حوله من  
عداه فيعجبون من بلاغة عبارته وعذوبة لفظه وجودة حفظه



## المسامرة الثالثة والتسعون

## الفرنسيس في مصر

وكان بالمجلس رجل فرنساوي ممن توجه مع نابليون الى مصر وشهد وقعته باهلها وانتشار رجاله في اعالها واطلع على ما كان من امرائها قبل توجه الفرنسيس اليها فظهر للشيخ من اطراف كلام ذلك الرجل حبه للمصريين وميله للعائلة المحمدية فقال له اكنت بمصر ايام حوادثها مع الفرنسيس فقال وقبل ذلك ايضاً فقال الشيخ اني لا اتحقق ذلك لصغر سني اذ ذاك وغاية ما اتخيله اني كنت ارى والدي في تلك الايام كل ما دخل وخرج يقول لوالدني ماذا ترين في هذا الحرج العرب في البادية تنهب والماليك تفسد وتخرب والفرنج في الطرق تقتل وتسلب فمن فر من قوم وقع في يد اخرين ونحو ذلك من الكلام الذي يخيف

الابطال ويزعج النساء والاطفال مع اني اعلم طبع المرحوم في تجلده  
وتحمده بين اهل بلده فما اضطره الى بث هذه الشكوى الافظاعة  
ما رآه من عموم البلوى

فقال له ذلك الرجل لو بحثت عن اصل ذلك كله لوجدته  
من المالك الذين جعلوا مصر غنيمة لهم وقسموا ارضها وقرائها بينهم  
فانهم كانوا يجزبون الاهالي والعرب علينا ويجذرونهم منا بقولهم انه  
لا غرض للفرنج من بلادكم الا سلب اموالكم وهتك اعراضكم وصرفكم  
عن دينكم ونحو ذلك من المنفرات مع ان الفرنج كانوا بريئين من  
ذلك كله لا غرض لهم الا اصلاح الحال واتخاذ الناس من ورطة  
هؤلاء الجهال فلو قدر وبقينا بارض مصر الى الان لكان خيراً لهم  
ولكن من سوء حظ المصريين انه حدث بقطرنا بعض حوادث  
ترتب عليها عود رئيسنا بونابرت الى البلاد فخرجنا منها بعد ان  
غذيهاها بفلذ أكبادنا ورشخناها بدم اولادنا ومع ذلك فقد رسنا لهم  
بها قوانين جميلة واثاراً عامة النفع جميلة يرجى منها الخير ويتقى بها  
الضير كالترعة المالحمة والحلوة والقناطر الخيرية والمطابع وتقسيم مصر  
الى اخطاط لكل خط حاكم وعسس يطوف فيه ليلاً ونهاراً يمنعون  
الشورور واهل الفساد ويحثون على كس الطرق والشوارع  
وتنظيفها ومن محاسن مبتدعاتنا الامر بتعليق قناديل على ابواب  
البيوت والوكايل والخانات فكان احكام الاخطاط يطوفون بالليل  
فاذا وجدوا بيتا او خانة ليس على بابها قنديل سمروه للحفاظ على



ما فيه فاذا طلع النهار اتوا بصاحبه فيجازونه على حسب ما يرون  
ومنها انشاء استنائه لعلاج المرضى جمع لها من الاطباء والادوية  
ما يلزم لكل داء وهي فيما بين القاهرة ومصر تسمونها بالانصر العيني  
ومنها الكورتينات وتعين محلاتها في كل مدينة وغير ذلك من  
الاعمال التي لو لم تشتغل بها افكارنا ما كانت خطرت لهم على بال  
لان شان المصريين بل سائر المشرقيين الاقتصار على حفظ القرآن  
ومعرفة بعض امور دينية يفنون عندها ولا يتعدون حدودها ولا  
يغوصون في معاني الكتب واسرارها وكذلك حكامهم وكان من  
يلي امرهم من المماليك ونحوهم لا همة لهم الا تحلية سروج الخيل  
والاكباب على الملاهي طول الليل ولبس السراويل الواسعة الذيل  
والاكثر من الخدم والغلمان واستتباع ذوي الوجوه الحسان وهذا  
كله ربما كان مانعا من تصرف العقل وزيادة الفكر خصوصا وهم  
مقتصرون في التفكير في القرآن على ما يظهر من مبانيه ما بين  
الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والبحث على الزهد في الدنيا  
ولذتها والتحذير من التوسيع فيها والاعتزاز بزهرتها ونحو ذلك مما  
تخاف منه القلوب ويزهدهن تامله في كل شي محبوب في الدنيا  
ومطلوب حتى يبيع الحاضر بالغائب ويعود نفسه على الرضى بكل  
ما حل بها من المصائب ويذهل عما فيه صلاح معاشه ويهجر  
اسباب ثروته وانتعاشه

فقال له الشيخ اما ما ذكرت من نسبة ما وقع بين المصريين

والفرنسيس للمالك فمن المعلوم ان المدافعة عن الوطن في ذلك الوقت كانت واجبة على العموم لافرق فيها بين مالك وملك وشريف وملك وعلى فرض ان الاهالي انما قاموا تبعاً لراي حكاهم الذين هم امرؤهم فهل فعلوا غير ما يلزمهم

فقال الانكليزي ان ما يقول الشيخ حق فان ميل الانسان الى اهل ملته وديانته امر فطري ألا ترى ان اهل باريز لم يفتحوا ابواب المدينة للملك هنري الرابع الا بعد ان رجع عن المذهب البروتستاني الى مذهبهم مع انه من بيت الملك والجميع فرساوي واصل الدين واحد

فقال الشيخ من هنا يعلم ان لا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس وترك من هم معهم على ملة واحدة وعوائدهم وقوانينهم في الاحكام متحدة فقال له ذلك الرجل الشيخ كل ذلك معقول ومقبول الا ان الفرنسيين لما دخلوا مصر لم يحدثوا بين المسلمين بدعة على غير رأي امرائهم وعلمائهم بل ما فعلوا فعلا الا بمشورتهم واخذ رأيهم كما يعلم ذلك من المنشورات التي عليها امارات رضاهم واستحسانهم فكانوا معينين لذلك جملة من اكابرهم اهل الحل والعقد منهم الشيخ خليل البكري تقيب الاشراف والشيخ عبد الله الشرفاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد الامير

وغيرهم فبونا برت رئيس الجيوش مع علو همته وسعة باعه واطلاعه  
 وحسن ادارته وسياسته لم يستقل في مصر بارائه ولم يكلل حكم  
 البلاد الى امرائه بل انتخب جملة من كبار علماء المصريين واعيان  
 تجارها الاعتباريين وفتح لهم دواوين وضم اليهم مترجمين ورتب لهم  
 مرتبات واغدى عليهم بالعلوفات وفوض الحكم اليهم وعول في  
 حل كل مشكلة عليهم وبالجملة لم يفعل ما يجلب بشرفكم ولا ما  
 يضر بقطركم وانظر الى ما حصل منه لما تغلب على جزيرة مالطة  
 ووجد بها اسرى كثيرين من اهل الاسلام فانه اطلقهم وجهزهم  
 وارسلهم محفوظين الى بلادهم واعان ان لا يؤخذ احد من اهل  
 الاسلام من بعدهم اسيراً وقبل وصول جيشه الى مصر ارسل  
 يحذرهم عن الفساد والتعرض لشي ما بايدي اهل تلك البلاد  
 ويقول لهم ما معناه انكم ستدخلون مصر آمنين مظفرين منصورين  
 وتهزمون حكامها المتحدين مع الانكليز فقد قطعوا على تجارنا السبيل  
 وبالغوا في ظلم اهل وادي النيل واعلموا ان الامة التي تقصدونها  
 امة محمدية وكلمتهم التي يبني عليها امر دينهم لا اله الا الله محمد  
 رسول الله فايكم ان تغيروها عليهم او تصرفوهم عن قوايتهم وعليكم  
 ان تكرموا ائمتهم وقضايتهم ولا تحدثوا شيئاً في مساجدهم وجوامعهم  
 واعلموا ان عوائد بلادهم ليست كعوائد بلادكم فينبغي ان تستأنسوا  
 باهلها وتطبعوا بطباعهم واياكم ان يدخل احد منكم دار احد او  
 يتعرض لامرأة فان ذلك عندهم منكر فمن فعل ذلك منكم حل به

البأس وعد من ارادل الناس واول بلدة تنزلون بها الاسكندرية  
 وستجدون بها من اثار من اسسها ما يروق بالكم به ويقطع عن  
 التعلق ببلادكم اما لكم وما كفاه هذا التشديدوما انذرهم به من  
 الوعيد بل صدر منه منشور بقتل من قطع السبيل من العسكر  
 او فعل شيئاً من المنكر او غصب من احد شيئاً ولو درهما ثم جمع  
 ضباط العساكر والالايات وضمنهم ذلك كله وهكذا كانت افعاله  
 واقواله كلها فلم يكن مراده مجرد التغلب واشهار نفسه بالحرب بل  
 كان جل غرضه وغاية امله ان يكون الناس كلهم في امان  
 ورفاهية حال وان لا يتعرض احد لاحد في عرض ولا مال

وكان وصول بونابرت بجيوشه الى ثغر اسكندرية لخمسة عشر  
 يوماً من المحرم سنة الف ومائتين وثلاثة عشر هجرية الموافق لشهر  
 حزيران سنة الف وسبعائة وثمانية وتسعين ميلادية فلما دخل  
 اسكندرية جمع علماءها واعيانها وانتخب منهم سبعة قلدهم زمام  
 الاحكام وما تحتاج اليه البلدة من النظام منهم الشيخ محمد المسيري  
 والسيد محمد كريم وقال لهم على مقتضى الحرية لا يلي الحكم الا  
 عقلاء الرعية لان جميع الخلق سواء في العدل والحكم بالحق وقبل  
 خروجه من اسكندرية الى مصر عمل دستوراً يتضمن جميع ما مر  
 وزيادة كما هو مبين في تاريخهم وكان قد احضر معه من  
 الروسية مطابع تطبع باللغة الفرنسية والعربية فطبع عدة فرمانات  
 وفرقها بالديار المصرية ثم شرع في ترتيب دنوان فجمع له ستين

شخصاً منهم اربعة عشر يقال لهم المجلس الخصوصي والباقون يقال لهم الديوان العمومي كل ذلك اظهاراً للعدل ورفقاً بالرعية  
فقال الشيخ جميع هذا صحيح مسلم غير انه لا يخفى ان زمن الحروب عادة يكون زمن شدة على الناس وما يقع فيه من المصائب يكون غالباً على غير رضى الروساء وقد تقع امور فظيعة توجب تنفير الطباع مثلاً تخريب المساجد وانتهاك حرمانها وقهر العلماء وتحريم التجار كل ذلك قد وقع بمصر مدة هذه الحرب مع نهي بونابرت عنه فكان داعياً لنفرة الاهالي

واما كتابة المشائخ الى الاقاليم بالمسالمة فذلك امر واجب عليهم لحتم دماء الناس لما راوا من قيام العربان واهل الفساد وكثرة التمل والسلب والنهب وضرورة ان الاحكام كانت قد تغيرت والناس كانوا مضطربين لم يعودوا على الحكم الجديد والتبس الفساد بالمصلح فقصده العلماء تسكين الفتن وحفظ الانفس والاموال وبالجمله فلم يكن للمصريين داع الى النفرة عن احكام الفرنسيس غير الحمية الدينية مع ما حصل من الشدائد التي جرت العادة بمجصولها في زمن الحروب وتجديد الاحكام

ثم ان الرجل الفرنسيس انصرف من بينهم وقام كل في محل استراحته فقال ابن الشيخ لابيه قد استفدت من ذلك المجلس ان الفرنسيس سبق لهم انهم استولوا على مصر وما كنت اظن ذلك ولا خطر ببالي فقال يا بني قد استولوا عليها وحكموا فيها وامرو ونهوا

وفعلوا فيها الافاعيل لولا ان الله خلاصها منهم فقال وما كانت احكامهم فيها وقوانينهم وكيف كانت وقائعهم في فتح البلاد وقهر العباد

فقال الشيخ يا بني اني كنت وقت حلول الجيش الفرنسي بمصر صغيراً الا اعي ما يقال ولا ما يفعل ولكني منذ هاجرت من بلدي الى مصر لطلب العلم كنت اسمع بما كان من الفرنسيين فكنت كلما سمعت عنهم شيئاً قيده حتى جمعت من ذلك كتاباً وجلدته

فن احكامهم انهم ضربوا على الاملاك والعقار ضرائب فجعلوا على الاعلى ثمانية ريات وفرنسا والاوسط ستة والادنى ثلاثة و ضربوا على المعاصر والسيارج والوكائل والخانات ثمنها ما جعلوا عليه ثلاثين ومنها ما جعلوا عليه اربعين كل على حسبه وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم ولصقوها في مفارق الطرق وارسلوا منها نسخاً للاعيان وعينوا المهندسين لتمييز الاعلى من الادنى وبالغوا في الضبط والاحصاء وتقييد الاسماء فضاق بالخلق القضاء ومنهم من استسلم للقضاء ولم تندبر العوام في العواقب فانتبذ منهم جماعة وتناجوا فيما بينهم وواقفهم من التعميم من لم ينظر في عواقب الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم فقاموا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وبرزوا بالسلاح والات الحرب والكفاح وهدموا مصاطب

الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس في عدة جهات وترسوا بها  
 فلما رأى الفرنسيس منهم ذلك تحيزوا الى القلاع وكان كبيرهم  
 ارسل الى المشائخ فلم يجيبوه فامر بضرب المدافع والبونيات على  
 البيوت والحارات وتعمدوا على الخصوص الجامع الازهر وحرروا  
 عليه المدافع والقنبر فلما سقط عليهم ذلك نادوا ياخفي الالطاف  
 نجنا ما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع  
 الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت الدور  
 وسقطت بعض القصور وخرب كثير من البيوت والوكائل وعظم  
 الخطب واشتد الكرب فركب المشائخ الى كبير الفرنسيس ليرفع  
 عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل فعاتبهم في التاخير  
 واتهمم بالتقصير فاعندروا له فقبل منهم ثم بعد هجعة من الليل  
 دخل الفرنسيس المدينة ومروا في الازقة والشوارع من غير معارض  
 ولا مانع وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخلوا الجامع الازهر  
 بالنعال والسلاح وربطوا خيولهم بصحنه ومقصورته وكسروا  
 قناديله وسهارته وهشموا خزائن الخدمة والمجاورين واخذوا ما  
 وجدوه به من الكتب والمتاع بل طرحوا نفائس الكتب في  
 ميضأته واتفوا الوفا من مجلدات مؤلفاته ثم قرروا على الناس  
 فردة اخرى قدرها مائة وستة وثمانون الف ريال فرانس مع ان  
 الناس ما أدوا الفردة الاولى حتى قاسوا فيها من الشدة ما لا يوصف  
 ومات اكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة ومنهم من هرب وخرج

على وجهه فجعلوا على العقار والدور مائة الف ريال فراسا وعلى ارباب  
الحرف المستورين ستين الفا وقسموا البلد ثمانية اخطاط وجعلوا  
على كل خط خمسة وعشرين الفا ووكلوا ذلك الى مشائخ المحارات  
ومن كان ساكنا بتلك الاخطاط من الامراء مثل المنسب بجهة  
الحنفي وعرشاه وسويقة السباعين وضرب الحجر ومثل زين الفقار  
جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والاشرفية  
ومثل حسن كاشف جهة الصليبية والخليفة وما في ضمن تلك  
الجهات من العطف فجعلوها على ثلاث نمر فعلى المرة الاولى ستون  
ريالا وعلى الثانية اربعون وعلى الثالثة عشرون والزموا المستأجر  
بدفع مقدار ما يدفع المالك والدار التي لا يجدون لها صاحباً  
يأخذون ما عليها من جيرانها ثم نادوا ان كل من لا يدفع ما  
عليه بعد اثنين وثلاثين يوماً من المناداة تنهب داره ويحاط بوجوده  
وتنهبوا نهب الدور بادنى شبهة ولم يوجد لهم شفيع تقبل شفاعته ولا  
متكلم تسمع كلمته واحتجب كبير الفرنسيين عن الناس وامتنع من  
مقابلة المسلمين وكذلك قلده عظماءهم وزاد ان عينوا لجمع تلك  
الاموال رجلاً قبظياً يسمى شكر الله فنزل بالناس منه بلاء شديد  
فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيين وجماعة من الفعلة بايديهم  
آلة الهدم فاذا دخل داراً ولم يدفع له صاحبها ما عليه امرهم يهدمها  
واقبح شي ما فعله باهل بولاق فانه كان يجبس الرجال مع النساء  
ويدخن عليهم بالثطن والكتان ثم فعل باهل مصر كذلك كل



ذلك في شهر واحد وفي اخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات  
والوكائل فحتموا عليها ثم صاروا يفتخونها واحداً واحداً وياخذون  
ما فيها فيقومونه بالجس الاثمان فان بقي لهم شي من الغرامة اخذوه  
من جاره وان زاد شي احوالوا صاحبه على جاره وهكذا حتى اخلوا  
جميع الخانات والوكائل من البضائع واخذوها وارباها ينظرون  
وكانوا اذا نتحوا خاناً او دكانا ووجدوا به اشياء ثينة او صرة فيها  
دراهم او دنانير اخذها امناءهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها وفي ذلك  
الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور فاحصوا جميع الاشياء جليلها  
وحقيرها ورتبوها بدفاتر وجعلوها اقلاما يتقلد من يتعهد بدفع ما  
وضع عليها وجعلوا جامع الازبك الذي بالازبكية سوقا للمزايدة  
في تلك الاقلام فكان يجتمع الاثنان فاكثر في قلم واحد وربما  
تعهد الشخص الواحد باقلام متعددة ثم شرعوا في هدم الحسينية وما  
خرج عن باب الفتوح وباب النصر من الدروب والحارات  
والمساجد والحمامات والحوانيت والاضرحة فكانوا اذا دهموا داراً  
لهدمها لا يكون اهلها من نقل ما بها ولا اخذ شي من انتقاضها  
فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانتقاض النافعة من البلاط والخشب  
الى عمارتهم وابنتهم وما بقي من كسارات الخشب تجعله الفعلة حزماً  
ويبيعونه على الناس باغلى ثمن لعزة حطب الوقود وقت ذاك  
فتكلف للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره كل ذلك مع  
مطالبتهم بما تقرر على املاكهم ودورهم من الفرضة فكان يجتمع على

الشخص الواحد في الوقت الواحد النهب والهدم والمطالبة بالفرضة وكان لهم في المطالبة بالفرضة أمور قبيحة ولما قسموا الاخطاط على الامراء ومشائخ الحارات ضموا اليها اعوانا والزمو كل امير ومشائخ حارات خطه بما خصه من الغرامة فكانوا اول ما يجتمعون بديوانهم تبتدىء الكتابة بكتابة التنبهات وهي اوراق صغيرة باسم الشخص والقدر الذي عليه وعلى شقاره وعلى هامش الورقة حق طريق الحامل لها ثم يدفعون الى كل واحد من اولئك الاعوان جملة من تلك الاوراق فلا يفتح الاسان عينه الا والمعين واقف على بابه ويده ذلك التنبيه فيعده بالوفاء فاذا قبل عذره لا يفارقه حتى ياخذ منه حق الطريق وما يفارقه الا وقد اتاه معين اخر بتنبيه اخر فيفعل معه كما فعل الاول فاذا سعى الانسان جهده حتى ادى ما عليه وظن انه تخلص من ذلك فحالاً يجد خلفه معيناً اخر ومعه تنبيه جديد فيقول له ما هذا فيقول ان الفرضة لم تكمل وقد جعلنا على كل عشرة خمسة او ثلاثة او ما سوّلت لهم انفسهم وهكذا من الغرامات التي هي اشد من الدواهي

ومنها انهم قرروا على مشائخ البلاد مقررات يقومون بدفعها في كل سنة زيادة على الخراج وجعلوا البلاد اعلى وهي ما كان طينها الف فدان فاكثر واوسط وهي ما كان طينها من ٥٠٠ فدان الى ما دون الالف وادنى وهي ما كان طينها دون الخمسمائة فجعلوا على الاعلى خمسمائة ريال وعلى الاوسط ثلثمائة وعلى

الدون مائة وخمسين واستملوا اسماء البلاد والكفور من القبط  
فاملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين فرميا املوا  
اسماء من غير مسميات ثم امروا بتوزيع مليون على ارباب الصنائع  
والحرف وهو مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا وان يدفعوها  
على ثلاثة اقساط كل اربعة اشهر ثلثها

هذا نموذج ما كان منهم بمصر

فقال ابنه وما منعك البارحة في مجلس المحاورة ان تذكر لهم

هذه الافاعيل التي صدرت منهم

فقال الشيخ يا بني ابي فائدة في ذكر ذلك الا المناقسة والمناقشة

خصوصا ونحن بين اظهرهم وقد قالوا

ودارهم ما دمت في دارهم \* وحيهم ما دمت في حيهم

وقيل ايضا

ودارهم في دارهم وحيهم \* في حيهم وأرضهم في أرضهم

لا سيما وهم عارفون بجميع ذلك فلا فائدة في حكايته الا

تغير النفوس ومن يتأمل فيما كان يصدر منهم ما ظاهره العدل

والاصلاح يجد انه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل اغراضهم

مثلا اطلاقهم الاسارى المسلمين الذين وجدوهم بالاطة فانما هي

مكيدة من مكائد الحرب وذلك انهم حين وصولهم الى ثغرا الاسكندرية

كتبوا كتباً وارسلوها الى البلاد التي هم قادمون عليها تطينا لهم

لئلا يتنبهوا ويحاربوهم فاوهموهم انهم قادمون من قبل السلطان

وارسلوا هذه الكتب مع هولاء الاسارى وارسلوا بصحبتهم جواسيس  
من مالطة يعرفون اللغة العربية ويتكلمون بلغة المغاربة فلم يمتازوا  
عن اسارى المسلمين فلما وصلوا الى مصر صار الجواسيس الذين  
ارسلوهم يوسوسون للناس ويشطونهم ويحلقون عزائمهم عن القتال  
فكانت هذه ايضاً مكيدة من مكائد الحرب فلما قامت الحرب بين  
المسلمين والفرنسيين خفي اكثر الاسرى ولم يدر اين ذهبوا وما  
ذهبوا في الحقيقة الا الى جيش الفرنسيين ليخبروهم بما سمعوه وما  
شاهدوه من المسلمين

ومن افاعيلهم انهم حبسوا بعض العلماء فما اطلقوهم حتى بلغهم  
مجيء الوزير الاعظم بجيوشه فخرجوا من غير منازعة ولا معارضة  
وعمل بينهم وبين الجيش العثماني والانكليزي شروط مفصلة هي  
وجميع وقائعهم بمصر في بطون التواريخ وقد انقضت تلك السنون  
واهلها وتلك الايام نداولها بين الناس هكذا عادة الله في خلقه لا  
معتب لحكمه ولم يطلعنا على حكمه فكم سلط اقواما على اخرين كما  
دلت عليه كتب الاول وقد يسلط الفجار على الابرار وله في ذلك  
حكم واسرار وكان خروج الفرنسيين من ديار مصر في شهر الله  
المحرم سنة ١٢١٦

## المسامرة الرابعة والتسعون

## العقائد

وفي اليوم الثاني بعد طلوع الشمس دخل الانكليزي عند  
الشيخ وجلس بعد ان ادى واجبات التحية ثم قال ايها الشيخ قد  
عنّ لي من مجلس البارحة ان اسألك عن مسألة خطرت ببالي  
فقال الشيخ ما هي فقال يؤخذ من الكلام السابق ان بين المسلمين  
والنصارى عداوة مع انا نسمع في كتابكم آية تدل على خلاف ذلك  
قال الشيخ اي آية قال لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا  
اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مؤدّة للذين آمنوا الذين  
قالوا انا نصارى ( الاية )

فقال الشيخ صدق الله العظيم في كلامه القديم فقد قال  
المفسرون كالفخر الرازي وغيره في تفسير هذه الاية ان مذهب

اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من يخالفهم في الدين باي طريق كان فان قدروا على القتل فذاك ولاً فبغصب المال او السرقة او بنوع من المكر والكيد والحيلة وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهوديان بمسلم الا هما يقتله  
واما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء في دينهم حرام كما في دين الاسلام وايضاً فان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا كما هو مشاهد فيهم والحرص معدن الاخلاق الذميمة فان كل من كان حريصاً على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا واقدم على ارتكاب كل محذور لطلب الدنيا فلا جرم ان تشدد عداوته لكل من نال مالا او جاها بخلاف النصارى فانهم في اكثر احوالهم معرضون عن الدنيا زاهدون فيها مقبلون على العبادة تاركون لحب الرئاسة والتكبر وكل من كان كذلك فلا يجسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصهم بل يكون لين العريكة سهل الاتقياد للحق قريباً الى قبوله كما قال تعالى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى اخر الآيات فهذا هو معنى مودتهم للمسلمين واما الديانة فالقدر مشترك بينهم وبين اليهود في مخالفة المسلمين بل اليهود يخالفون في الالهيات فقط والنصارى يخالفون في الالهيات والنبوات

فقال الانكليزي ان ما تقول ايها الشيخ حق فان النصارى كانت صفاتهم حميدة كما ذكرت لكن الان دخلت فيهم اصداد

تلك الصفات وتشعبت مذاهبهم واعتقاداتهم وجرت بينهم العداوة  
والبغضاء ولهم فلسفة قبيحة ومقالات شنيعة في الديانات والرسول  
والكتب السماوية

فقال الشيخ نعم يظهر بعض ذلك على وجه الرجل الفرنسي الذي  
الذي كان معنا البارحة

فقال الانكليزي هذا الرجل من ضمن الفلاسفة المتعمقين وله  
كتاب عمله في الاعتقادات وقد قرأت منه جملة وافرة فوجدته  
يذكر فيما يتعلق بالاديان ان جميع الملل مستمدة من منبع واحد  
وان بينها اشتراكا في القضايا الاساسية كالتوحيد فدين الاسلام  
مستمد من دين اليهود من حيث الاصول فقط بخلاف دين  
النصارى فمستمد من دين اليهود من حيث الاصول والفروع  
معاً فدين النصارى مبني على دين اليهودية كما تبنى الدور والتصور  
على قواعدها فيهدم دين النصرانية بعدم تمسكهم بكتب اليهود ومع  
ذلك فهو لا يعترف بوجود موسى بن عمران ويستدل على نفيه  
بعدم ذكره في كتب بني اسرائيل ويقول ان نبي الله داود وابنه  
سليمان وارميا واشعيا جميعا سكنوا عن ذكره واحكام بعضهم مناقض  
لاحكامه مثلاً قول موسى ان الله يعاقب الابناء بظلم الاباء الى  
الجيل الرابع يخالفه قول حزقيال ان الابناء لا يعاقبون بظلم ابائهم  
ويقول ان ما يعزى الى موسى من الاحكام هو ما يعزوه الهنود الى  
نبي يسي بنجوس وجميع ما اثبت لموسى ثابت لنجوس فانه ولد بمصر

والتي في النيل وتربى في جبل ببلاد العرب واوحى اليه بالرسالة الى امة متبربرة وعبر البحر الاحمر بانفلاق الجبله ولم يتل قدمه واذاً من جبينه اشعة الانوار الا ان نجوس لما ضرب بعصاه الارض لم تنبع عين ماء كما حصل لموسى في ضربه الحجر بل نبعت عين نبيذ وكانت ذات حربة مزينة باغصان العنب

وقد زعم علماء اوروبا ان نجوس سابق على تاريخ موسى فيمكن ان كلمة موسى جعلت علامة على امر كان في تلك الازمان كما استعملوا كلمة اوميروس الشاعر اليوناني في الجاهلية للدلالة على بعض الحوادث العظيمة

ويقول ان التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئاً في ذلك على قول ماري اغسطس انه لا يصح بقاء الاصحاحات الثلاثة الاولى على ما هي عليه وعلى قول اوريجين بان ما في التوراة مما يتعلق بخلق العالم امور خرافية بدليل ان كلمة براه العبرانية وهي بفتح الباء وشد الراء وسكون الهاء معناه رتب ونظم ولا يرتب احد شيئاً وينظمه الا اذا كان موجوداً من قبل فاستعمال هذه الكلمة في خلق العالم تقتضي ان مادة العالم كانت موجودة من قبل فتكون ازلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان ازليين وحيث انهم قالوا ان المادة ذات حياة فتكون الروح ايضا ازلية لانها هي التي بها الحياة وبما ان المادة هي النور والحرارة والقوة والحركة والجذب والقوانين والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشي



الواحد لا يمكن انفصالها وجميع ذلك يخالف ما في التوراة  
ويقول أيضاً ان الستة الايام التي ذكرها موسى لخلق العالم هي  
الازمان الستة التي ذكرتها الهنود والجنهارات الستة التي ذكرها  
زروطشت للعجوس وان الفردوس الذي كان فيه ادم انما هو بستان  
الهيبريو الذي كان يخفزه التنين وان ادم هو ادميو المذكور في  
ايزورويدام وان نوحا واهله هو الملك دوقاليون وزوجنه بيبرا  
وهكذا

ويبالغ في القدح في التوراة ويقول انها مبتدأة بقتل الاخ  
اخاه واغتصاب الفروج وتزوج ذوي الارحام بل البهائم وذكر  
النهب والسلب والقتل والزنا ونحو ذلك من الامور التي لا يليق  
ان تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله امينا على اسراره الالهية  
فانظر الى اجترأ هذا الرجل على نبي الله موسى عليه السلام وعلى  
كتاب الله التوراة مع ان التوراة هي اساس الانجيل فما يقال فيها  
يقال في الانجيل ولذلك يقولون ان رسالة عيسى قد نهبت عليها  
اليهود من قبل بقولهم انه سيجي اليهم مسيح وكلمة مسيح ككلمة مساييس  
ومساييس لقب شريف باللغة العبرانية وقد لقب به اشعيا النبي  
كيروس ملك الفرس كما في الاصحاح الخامس والخمسين ولقب  
به ايضاً حزقيال النبي ملك مدينة صور ومع ذلك فلم يلتفت هذا  
الرجل الى شي من ذلك فقال ما قال ومن اعتقادات النصارى  
ايضاً ان الله تجسد في صورة عيسى وانه هو الاله وليسوا اول قائل

بهذا التجسد بل قيل قبلهم في جزاكا وبرهمة بقدر الهند وقيل في  
ويشئوانه تجسد خمسمائة مرة وقال سكان البيرو من امريكا ان  
الاله الحق تجسد في الهم منكر قباق بن الشمس وكذا سكان  
الاسكنديناوة قالوا ان الله تجسد في الهم اودين وان ولادة عيسى  
من بكر بتول بفتح روح القدس يشبه قول اهل الصين ان الهم  
فؤيه ولدته بنت بكر حملت به من اشعة الشمس وكان المصريون  
يعتقدون ان اوزريس ولد من غير مباشرة احد لاهه

وقول النصارى ان عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع الى السماء  
حيًا قال بمثله قبلهم المصريون في اوزريس المصري وفي اورونيس  
من اهالي فينيكية وفي اوتيس من اهالي فريجية الا انهم لم يقولوا  
برفعه الى السماء وكما قيل ان اودين كان قد بذل نفسه وقتلها  
باختياره بان رمى نفسه في نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك  
لاجل نجاه عباده واحزابه فكذلك النصارى يعتقدون ان حلول  
الاله في عيسى وارساله وموته انما كان لاجل فداء الجنس البشري  
وتخليصه من ذنب الخطيئة الاولى خطيئة ادم وحواء واما ادريس  
النبي فقد رفع الى السماء بدون ان تكفر عنه الخطيئة ولا شك  
ان هذا خرافة ولم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا  
فائدة في ذكره

فقال الشيخ نعوذ بالله من هذا الضلال الذي لا ينشا مثله

عن عاقل ولكن من يضل الله فلا هادي له ومن يهدي الله فما  
له من مضل

قال الانكليزي بل منهم من ينكر جميع الكتب السماوية  
ويقول انها من تأليف البشر جمع فيها مؤلفوها حوادث القرون  
المخالفة

فقال الشيخ مثل هؤلاء القوم لا تجوز مجالستهم ولا معاملتهم  
ولا مخالطتهم فانهم ينكرون الرسل والكتب وينقصون الاله الحق  
سجانه فالحمد لله الذي فصلنا عن ذلك الرجل بسلامة

ثم ان العربية وصلت بهم الى المحل فنزل الشيخ ودخل  
عند الخوجا وقال اريد ان اقف على ما يقول النصارى في نبي  
الله عيسى بن مريم وفي الاداب النصرانية فقال الخوجا ان اغلب  
النصارى يقولون ان العلماء الاولين مجمعون على ان شريعة  
عيسى ليست الا متممة لشريعة موسى وموضحة لما اشكل من احكامها  
حتى قال بعضهم ان عيسى والحواريين كانوا يهودا واستدلوا على  
ذلك بما نقل عن الحواري بولص انه ختن تلميذه تموته في مدينة  
ليسترة وحث الرومانيين على الخنن وانه قال لهم ان اليهودي الحق  
من كان يهوديا باطنا وظاهراً ويقول الحواري جاك ( يعقوب )  
للحواري بولص كما في الباب التاسع عشر من كتاب اعمال الحواريين  
فلتعرف جميع الناس انك على شريعة موسى ويقول بولص  
نغوسطس في الباب الخامس والعشرين من ذلك الكتاب اني لم

يحصل مني ما يخالف شريعة موسى ولا قوانين النصرانية فهذا اصل دينهم واعتقاد حواريم ومتقدمي علماءهم فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ويدل على ذلك ما نقله بعضهم عن ماري بولص انه قال في الباب الخامس من رسالته الى الرومانيين ان نعمة الله قد نشرت علينا من الاحسان الموهوب لانسان واحد وهو عيسى المسيح وقال في الباب الثامن من هذه الرسالة نحن شركاء المسيح في وراثته احكام الله

وقال في رسالته للتقليبيين تخلقوا باخلاق عيسى فانه كان على صورة الرحمن ولم يطع قط في مساواته وقال ايضا لاهل افسوس في الباب الاول من هذه الرسالة اللهم ربنا ورب المسيح عيسى جد علينا بعقل الحكمة وللعبريين في الباب الثاني انكم قد صيرتم عيسى اقل من الملك بيسير وكذلك بما قاله اوريبوس استقف مدينة قيصرية في الباب الاول من تاريخ امناء دين النصرانية انه لا يعقل ان الوجود يعني وجود الله يحل في صورة بشرية ونحو ذلك من العبارات المنسوبة الى الحواريين واتباعهم المؤمنين فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ولا خطرت له على بال فقال الشيخ هذا هو كلام العقلا ولعل هولاء هم الذين مدحهم الله في كتابه وشبههم نبينا بعض اصحابه

واما تهودهم في الدين فلعلم ارادوا الرجوع الى الحق واليقين

وهذا شي لا محذور فيه اذا عرفوا معناها وعملوا بمقتضاها

فقال الانكليزي الا انهم بعد موته بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة شمسية دبّ فيهم القول بالوهيته وذلك ان قسطنطين الاول جمع روساء الديانة في مدينة نيقة وحملهم على القول بها فاتبعوه الا ثمانية عشر اسقفا فلم يتحولوا عن اعتقادهم ثم بعد ذلك باربع وثلاثين سنة اجتمع روساء الديانة ثانياً بمدينة ريميني وتكلموا في هذا المعنى فانفق منهم اربعمائة اسقف على عدم الوهيته واتبعهم الباقون ومكثوا على ذلك نحو اثنتين وعشرين سنة ثم اجتمعوا مرة ثالثة بمدينة القسطنطينية سنة ٢٢١ ميلادية فاستقر رأي الجمعية على الوهيته وبقي الحال على ذلك الى اليوم

فقال الشيخ هذه امور لا نستطيع الموافقة عليها ولا شك انه كان وقتئذٍ لرؤساء النصارى آراب ومقاصد في تقريرها ولو تأملوا اوفى تأمل لرأوا الادلة ناطقة بان الله تعالى واحد احد يستحيل عليه الجلول والاتحاد والتعدد ومشابهة خلقه في امر من الامور وهو حي لا يموت وقادر لا يعجز لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وانما عيسى عبد من عبيده خلقه بقدرته التامة من غير اب كما خلق آدم من تراب من غير اب ولا ام وافاض عليه النبوة والرسالة وقد انطقه الله بالحق وهو في الهدى فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ويوم القيامة يتبرأ منهم ومن مقالتهم هذه فيقول سبحانه ما يكون لي ان

اقول ما ليس لي بحق ثم يقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان  
 اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيديا ما دمت فيهم  
 وبالجملة فبطلان هذا المذهب واضح للعيان ومستغن عن  
 البيان وما احسن ما قاله البوصيري في هزيمته تبكيتم لهم وتبكيتم  
 عليهم فمن ذلك قوله

أله مركب ما سمعنا \* باله لذاته اجزاء

الى ان قال

أهو الراكب الحمار فياوي يح اله يمسه الاعياء  
 فقال الانكليزي وما الذي تروونه يا معشر المسلمين في امر

عيسى

فقال الشيخ ان الذي يلزم اعتقاده في امر عيسى على ما اخبر  
 به نبينا الصادق المصدوق في القرآن والسنة انه ابن مريم بنت  
 عمران واسم امها حنة فكانت حنة لا تلد فنذرت ان رزقها الله  
 ولدا جعلته من سدنة بيت المقدس اي خدمته فحملت حنة ومات  
 زوجها عمران وهي حامل فولدت بنتا وسمتها مريم ومعناها بلغتهم  
 العابدة ثم حملتها واتت بها الى بيت المقدس ووضعتها عند الاحبار  
 وقالت لهم دونكم هذه المنذورة فتنافسوا في تربيتها لان اباهم وهو  
 عمران كان من ائمتهم فقال زكريا انا احق بها لان خالتها زوجتي  
 فاخذها وضمها الى ايساع خالتها فلما كبرت مريم افرد لها زكريا  
 غرفة فلما بلغت من العمر ثلاثة عشر سنة ارسل الله تعالى جبريل

ففتح في جيبها فحبلت بعيسى وولده بيت لحم وهي قرية قريبة من القدس سنة ٢٠٤ من تاريخ الاسكندر فلما جاءت مريم الى قومها بعيسى تحمله قالوا لها لقد جئت شيئاً فريا واخذوا ليرجموها فتكلم عيسى وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت فلما سمعوا كلامه تركوها ثم ان مريم اخذت عيسى وسارت به الى مصر فاقامت به اثنتي عشرة سنة ثم عادت به الى الشام ونزلا الناصرة وبها سميت النصارى فاقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله تعالى اليه فسار الى الاردن وهو النهر المسمى بنهر الشريعة فاغسل فيه واتدأ بالدعوة وهو ابن ثلاثين سنة لسته ايام خلت من كانون الثاني لمضي ثلاث وثلاثين وثلاثمائة للاسكندر

واظهر عيسى عليه السلام المعجزات فاحيي ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة ايام من موته وجعل من الطين طائراً قيل هو الخفاش وابراً الاكمة والابرص وكان يمشي على الماء ويلبس الصوف والشعر وياكل من نبات الارض وانزل الله عليه المائدة وسبب نزولها ان الحوار بين الذين اتبعوه وكانوا اثني عشر رجلاً قالوا له هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء فسأل عيسى ربه عز وجل فانزل عليه سفرة حمراء بين غماتين غمامة فوقها وغمامة تحتمها فنزلت وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ثم قال لهم

يقيم احسنكم عملاً يكشف عنها فقال شمعون رأس الحواريين انت اولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وكان عليها مندبل فرفعه وقال بسم الله خير الرزقين فاذا سمكة مشوية تسيل دما وعند راسها ملح وعند ذنبها خل وحوها الوان البقول ما خلا الكراث ومعها خمسة ارغفة على واحد زيتون وعلى الثاني غسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله أ من طعام الدنيا ام من طعام الآخرة فقال ليس منهما ولكنه شي خلقه الله بقدرته فقال الحواريون ياروح الله لو اربتنا من هذه الآية آية اخرى فقال يا سمكة احي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم رفعت المائدة وقيل مكثت تنزل يوما وتغيب يوما الى اربعين ليلة

فقال الانكليزي ان اليهود يزعمون انهم قتلوه وبعد قتله

صلبوه

فقال الشيخ كذبوا والله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ليزيده شرفا لديه وذلك انه لما اعلمه الله انه سيرفعه اليه دعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال لهم احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا عشاءم وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام اخذ يغسل ايديهم ويمسحها بشيا به فتعاطوا ذلك فقال من رد علي شيئا ما اصنعه فليس مني فتركوه



حتى فرغ ثم قال لهم انما فعلت هذا بكم ليكون لكم اسوة بي في خدمة  
بعضكم بعضا واما حاجتي اليكم فتدعون الله لي ان يؤخر اجلي فلما  
نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم فجعل عيسى يوقظهم ويقول ما  
تصبرون لي ليلة فقالوا ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنطيل السمر  
وما نقدر عليه الليلة فقال يذهب بالراعي وتفترق الغنم وليكفرن  
بي احدكم قبل ان يصبح الديك وليبيعي احدكم بدرهم يسيرة ولياكلن  
ثمني

وكانت اليهود قد جدت في طلبه فذهب رجل من  
المحاريبين اسمه تطليانوس الى فيلاطوس الملقب هيرودوس وكان  
رئيسا على اليهود اذ ذاك وقال ما تجعلون لي اذا ادلتكم على المسيح  
فجعلوا له ثلاثين درهما فاخذها وذهب بهم ليدلم عليه فرفع الله عيسى  
اليه والقي شبهه على الذي دلم عليه فاخذوه وربطوه وجعلوا  
يقودونه مجبل ويقولون له انت تزعم انك تحيي الموتى افلا تخلص  
نفسك ثم قتلوه وصلبوه

وبين رفع عيسى ومولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة  
وخمس واربعون سنة وعاشت مريم امه نحو ثلاث وخمسين سنة  
لانها حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة وعاشت معه ثلاثا وثلاثين  
سنة وبقيت بعد رفعه ست سنين اثنى عشر سنة كانت العبودية من صفاته  
والاكل والشرب من ضروراته يعقل انه اله او يتصور انه ابن الله  
مع اجماع جميع العقلاء على عدم الوهيته وانفاق جمهور الفلاسفة

والمحكّماء على عبوديته وأظن ان ضرر الخلق على العموم انما يأتي لهم من قبل من تصدى من غير استعداد لنشر العلوم من قال منهم بحلول الوجود المطلق فيما عداه وبني على هذا القول الخطاء ما بناه فقال ان الانسان اشرف انواع الحيوان فهو اولى بالحلول واستتج من ذلك ان الاله اتحد بالصورة البشرية وهو اعتقاد فاسد ورأي عن الصواب حائد لا يقبله عقل ولا يساعده نقل وايضاً لا يلزم على القول بالحلول الذي زعموه بالنسبة لعيسى ان يقال الانسان اله او الاله انسان هذه نتيجة هذا الزعم الغريب الظاهر الفساد لعقلاء العباد

ومن الغريب تقدم الاوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقاءهم على هذا الاعتقاد الفاسد فلعل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيكة فلولاها لم يبق له عندهم اثر بالكلية واغرب من هذا كله قدحهم في الاسلام واهله مع عدم معرفتهم بشي منه من اصله اذ لو تأملوا الاشارات القرآنية وما ورد من الاثار النبوية لعثروا بالتمدن الذي يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذي يجاولونه وما اقاموه ولعل الحامل لعلمائهم على استمرار هذا الرأي بينهم رغبتهم في بقاء الباباوية التي معناها السلطنة على جميع اهل الارض لانهم يزعمون ان البابا نائب عن الاله الذي يدعونه فاين هذا من دين الاسلام المبني على ان الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله واحد لا من قلة وموجود لا من علة لا يحيط به

مكان ولا يشتمل عليه زمان ليس منفصلا عن شي ولا ينفصل عنه شي ولا يحل في شي وليس مثله شي وهو الخالق لكل شي الغني عن كل شي ارسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون فعم بدعوته المشارق والمغرب ولم يفرق في امره ونهيه بين الاجانب والاقارب لتقوم المحبة وتصح المحبة وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة فمنهم من اهتدى واجاب ومنهم من ضرب بينه وبين الهداية حجاب ليميز الخبيث من الطيب واهل الجنة من اهل جهنم وكل ذلك لحكم واسرار هو بها اعلم وهكذا كان في كل امة خلت رسول يدعوهم الى الله واعتقاد ان لا اله سواه كما ارشدنا الى ذلك القرآن العظيم المنزل على عبده ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

فقال الانكليزي هل عندكم علم بعدد الانبياء والرسل  
فقال الشيخ نعم الا ان ما يجب علينا معرفته على التفصيل  
خمس وعشرون رسولا وهم المذكورون في التنزيل وجمعهم بعضهم  
في قوله

حتم على كل ذي التكليف معرفة

بانبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

ادريس هود شعيب صالح وكذا  
 ذوالكفل آدم بالمخار قد ختموا  
 ومنهم اولوالعزم خمسة جمعهم بعضهم في قوله  
 محمد ابراهيم موسى كليهما

وادم عيسى هم اولوالعزم فاعلم  
 فعيسى عليه السلام من اولي العزم لصبره على اذى قومه  
 ورئيسهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه هيبين ومصداق  
 لما قبله من كتب الله تعالى  
 وقد اخترع النصارى اشياء لم يخبرنا عنها كتابنا وذلك  
 كالتعبد الذي تنسبه النصارى الى عيسى بن مريم فما هو وما  
 سببه وما وجه نسبته اليه

فقال الانكليزي التعبد هو الغسل وذلك انهم يغسسون  
 اولادهم في ماء المعمودية يعتقدون تطهيرهم به كالحنان لغيرهم ويامرون  
 كل من اراد ان يدخل في دينهم بالاغتسال فيه  
 واما نسبته الى عيسى فلم يثبت انه عمد احدا في حياته ولا  
 امر احدا به وهذا التعبد وان اشتهرت نسبته اليهم لم يكن خاصا  
 بهم بل كانت اليهود من قبلهم يغتسلون في نهر الكنك وكذلك  
 قدماء المصريين كان كل من اراد منهم ان يتلقى اسرار (ماري  
 متراس) يعهد الى نهر او بئر فيغتسل فيه وليس ذلك اول شي  
 اخلقوه اذ منه قولهم فيمن اذنب انه لا تقبل توبته حتى يعترف

للقسيس بخطيئته اذ لم يثبت ان عيسى الزم احداً بالاقرار له بذنبه بل هذه عادة جارية من عهد ايزيس احد الهة المصريين وغيره من الهة اليونانيين وكذلك اليهود كانت معتادة على الاعتراف بذنوبهم لاجبارهم

واما الاعتراف بالقضاء والقدر والجنة والنار فاول من تكلم في ذلك سقراط وتبعه افلاطون فقسم الارواح الى طاهرة وغير طاهرة وقسم غير الطاهرة الى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها اصلاً

واما التثليث الذي يقولون به فانه ما اتاهم الا من كلام افلاطون التابع فيه لتيمة احد علماء لوتريس ثم سرى منه الى من بعده حتى وصل الى اليهود وهم الذين لقنوه للنصارى وكذلك زي اهل التدين والجثي على الركب ووضع القسيسين ايديهم على رؤس الناس وقرأتهم بعض كلمات للتبرك بها كل ذلك كان موجوداً عند قدماء المصريين

ومن جملة دعوى النصارى قولهم ان الحكمة لم يتكلم بها احد قبلهم مع انه قد سبقهم الى الكلام عليها سقراط وكنفوشوس وانطونين وارسطو ويوسيد وغيرهم وكذلك الفلاسفة الاسطوائيون اي الذين كانوا بالاسطوانة وهي مدرسة زينون الفيلسوف فكل هؤلاء كانوا قبلهم وقد تكلموا بها وحملوا الخلق عليها حتى صناعة تركيب الالفاظ وتاليف الكلام وكان الرومانيون قبلهم يعاقبون على

الزناء وكذلك كان للسياسيين قوانين في عقاب كل من ارتكب ذنباً او خطيئة او تكلم بما لا ينبغي فكل هؤلاء كانوا جميعاً في زمن لا يدرون فيه ما النصرانية ولا اهلها وكذلك قولهم بالعفو عن المسيء فانه قد سبقهم اليه ايضاً فيتاغورس وكان قبل المسيح بنحو ستمائة سنة حيث قال ما معناه لا تجتهدوا في الانتقام من اعدائكم بل اجتهدوا في ان تصيروهم من احبابكم وكذلك قولهم لا تفعلوا مع غيركم ما لا تحبون ان يفعل بكم فان زروطشت قال مثل ذلك وقد كان قبل حرب تروادة بدهر طويل حيث قال افعل مع غيرك ما تحب ان يفعل معك واذا شككت في قبح شي او حسنه فامسك عنه وكذلك قال كنفوشيوس مثل ذلك وكان قبل المسيح بخمسمائة وخمسين سنة وكله ماخوذ من كلام هونغ حيث قال ما معناه انس المسيء واسأته ولا تفكر الا في الطيبات وفعل الخيرات

وقال سينبق اذا اردت ان يكون الله راضيا عنك فكن عادلا وكفى بالمرء تعظيها لله ان يتبع اوامره  
وقال سليمان عليه السلام اول الحكمة مخافة الله فاذا علمنا ذلك ظهر لنا ان النصرانية لم تأت بشي كان معدوما عند من قبلها الا ان عندهم امرين لا افهم سرها ولم اجد احدا من قدماء المؤرخين قالها

فقال الشيخ وماها فقال انهم ياكلون فطيراً يسمونه قربانا

ويعتقدون انه لحم المسيح ويشربون شرابا يسمونه اذكاراً يعتقدون  
انه دمه

فقال الشيخ ان دين النصرانية ليس مذموماً في الاصل بل هو  
شريعة من شرائع الله تعالى وكذلك دين اليهودية ولما جاء الاسلام  
نسخ جميع الشرائع ثم ان اكابر النصارى في القديم غيروا في دينهم  
وبدلوا وحرفوا فقد عرض له البطالان من جهتين من جهة نسخه  
بالشريعة المحمدية ومن جهة التغيير والتبديل الذي وقع فيه من  
علماء الديانة

فقال الانكليزي نعم جرت العادة بان صلاح الامم وفسادها  
انما يكونان بصلاح الرساء وفسادهم وعندنا رساء الديانة كثيرون  
ولكل منهم اغراض يريد تحصيلها وترى لهم حنّاً شديداً على التبرك  
بالصليب وتقريب القرابين ونحو ذلك لكن لا يخلو ذلك عن  
الاغراض

فقال الشيخ اني اراك تتعقبهم في امور كثيرة وذلك من  
انصافك وشدة نظرك وكان ابن الشيخ مصغياً فقال ما معنى الصليب  
وما معنى القربان وما الفرق بين الكنيسة والدير ونحو ذلك  
فقال الشيخ لقد رأيت في بعض الكتب كثيراً من عوائدهم  
وعقائدهم وعرفت معابدهم ومراتب رساءهم فمن ذلك ان اصل  
تبرك النصارى بالصليب وهوشي ذو خطوط اربعة يجمع اصلها  
المحور انهم اعتقدوا ان الذي اخذته اليهود وصلبته هو المسيح وان

صلبه كان على شي بهذه الصفة وانهم سقوه الخمر في حنك الخنزير فلما قام حرض على حمل الصليب وان القربان رغيغ مستدير عليه صلبان كثيرة يجذف في كل بيت كل يوم احد من الصوم الكبير ويحمل الى الكنيسة فاذا فرغت الصلاة اخذ القسيس بعضه وفرق بعضه فتنصرف به النصارى فيفطرون عليه كل يوم الى الجمعة وهكذا وان من اسماء روسائهم الجاثليق وهو الرئيس بالنسبة الى السلطنة الظاهرة ومنها المطران وهو الفقيه الورع المستصحب للبس الصوف الاسود واصل هذا الترتيب عندهم ان القاري للانجيل من اول وهلة يقال له شماس فان اتقن حفظه وفهمه صار قسيساً ويدوم على ذلك ما دام عنده زوجة فان ماتت زوجته ولم يتزوج غيرها صار مطرانا وان تزوج غيرها سمي صالح القسوسية وخرج عن مراتب العلم فان تنزه المطران عن الذفر وما يخرج من الارواح صار بتركا على مذهب الامن واما الروم واليعاقبة والنسطورية فلا يكون عندهم بتركا الامن تنزه عن النساء وعن اكل الارواح وما يخرج منها من اول عمره الا العسل والسبك لانه خليفة المسيح وطاعة هولاء فرض واما الاسقف والراهب وغيرها فاسماء للمتعبدين خاصة

واما المعابد فالبيعة هي المعبد الصغير غير المرتفع والدير المعبد الكبير الكثير المرافق والمحاريب والكنيسة ما اشتملت على عواميد الاناجيل ولم يرفع بناؤها والصومعة مكان رفيع دقيق الاعلى واسع



الاسفل والقلة مثلها الا انها لا تسع اكثر من واحد والزوار منطقة  
تشد في المحصر وقت الصلاة مشتملة علي صليب اذا شدت كان  
على السرة ولولا ان كلامنا في ذلك يشبه الفضول مع وجود اهل  
ملتهم لزدتكم كثيراً من امور ديانتهم

فقال الانكليزي وهل كتب المسلمين اكثر من كتب الفرنج  
اني لا اظن ذلك فان للفرنج تأليف عديدة في فنون شتى وقد  
اطلعوا على كثير من كتب المسلمين ومارسوها حتى تفسير القرآن  
وصحيح البخاري ومتمن خليل وغير ذلك

فقال الشيخ اسرار الكتب لا تؤخذ الا عن اهلها الذين تلقوها  
مسلسلة واحداً بعد واحد الى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك  
ليس حاصلاً الا في علماء الاسلام الذين استنارت بصائرهم فادركوا  
معاني الكتب واسرارها نعم قد فرط علماء المسلمين في هذه الازمان  
في فنون شتى حتى جهلوا واتقنوا غيرهم كفن التاريخ والرياضيات  
ونحو ذلك فلو انهم اتقنوا لذلك واتقنوه لانقادت لهم جميع الامم  
ومعلوم ان العلم على اقسام علم للاخرة وعلم للدنيا وعلم لها معا فلو  
اتقنوا جميع العلوم لكان خيراً لهم ومع ذلك فعلماء الدين هم المدحون  
المثني عليهم في كتب الله تعالى وعلى لسان رسله وكفى العلم واهله  
شرفاً قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله تعالى هل  
يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى فاسئلوا اهل  
الذكر ان كنتم لا تعلمون وقول النبي صلى الله عليه وسلم مثل

العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر  
وقوله فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم وقوله ان الملائكة  
لتضع اجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع وقوله ما اكتسب  
مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى  
ولكن للعلم حتموق واداب لو ذكرت لك بعضها لوقعت في العجب  
العجاب منها قوله صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل ما لم  
يخالطوا السلطان او يداخلوا الدنيا وبالجملة فمن اطع على اخبار  
المتقدمين وما كتب فيها من حين ظهور هذا الدين وجد ان لا  
نور لعلم الا والقرآن مصباحه ولا مطلب لمعرفة الا وهو مفتاحه  
فهو الذي نشر اية العز على جميع العلوم والمعارف واستظلت بظل  
لوائه غرائب الفنون واللطائف اذ بظهوره زالت من القلوب الاحن  
وانقطعت من بين الناس اسباب الفتن لجريانه على قانون مقبول  
قد تلقت القلوب السليمة بالقبول ومن تتبع احكام الملل وتامل في  
قوانين الاول وجد ان لا موجب للنزاع على الاطلاق الا ما فرق  
بين اليهود والنصارى من الاختلاف والشقاق فان فرق النصارى  
متشعبة جدا مع شدة بغض بعضهم لبعض فضلا عن بغض اليهود  
لجميع فرق النصارى وبالعكس حتى قالت اليهود ليست النصارى  
على شي وقالت النصارى ليست اليهود على شي وقد جاء القرآن  
فيه تبيان كل شي وهدى ورحمة وليس في احكامه اختلاف ولا  
تناقض

فقال الانكليزي أليس عندكم مذاهب مختلفة كذهب مالك  
والشافعي والحنفي والحنبلي والليث والثوري وغير ذلك فضلا عن  
اختلاف اهل كل مذهب في مسائل مذهبهم

فقال الشيخ كلهم من رسول الله ملتبس ليس بينهم تباين  
كلي بل احكامهم كفروع الشجرة التي اصلها واحد  
فقال الانكليزي فما بال مساجدكم لا تحلونها ولا تزینونها  
كما تحلى كنائس النصارى وبيع اليهود

فقال الشيخ قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زخرفة  
المساجد لئلا تلهي المصلي عن الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى  
ومع ذلك فهي في غاية الاحترام فلا يدخل فيها احد بالنجاسة ولا  
القاذورات ولا يتكلم فيها بلبغو الحديث ولا يدخلها جنب ولا  
حائض ولا نفساً ولا يشهر فيها السلاح ولا ترفع فيها الاصوات  
ولو بالعلم فهي مع احترامها وتعظيمها لا تليق زخرفتها ولا تشييدها  
لان المقصود فيها التذلل والخشوع ولذلك ورد ابنوا مساجدكم جما  
يعني بلا شراريه وابنوا مدائنكم مشرفة وكان موضع مسجد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قبوراً للمشركين وخرباً ونخلافامر  
بالقبور فنبشت وبالحرب فسويت وبالنخل فقطع فصفوا النخل  
قبلة المسجد وجعلوا عضائده الحجارة وقال اجعلوه كعريش موسى  
وكانت تصل الايدي الى سقفه ولما ولي عمر ابن الخطاب الخلافة  
وامر بتجديده قال للقيم على العارة اكنن الناس من الشمس والمطر

واياك ان تحمّر او تصفر فتفتن الناس فاذا فرغت من العارة  
 فاجعل فيه القناديل الاّ انه صلى الله عليه وسلم كان يامر بتطيب  
 المساجد وتنظيفها وتجهيزها وصيانتها من الروائح الكريهة ويقول  
 ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجملة في النار ويقول  
 جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وصناعكم وبيعكم وشرائكم  
 وخصوماتكم ورفع اصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ولا تغذوها  
 سوقا ولا طريقاً ولا تمرؤا فيها بلغم نبي

فقال الانكليزي اني ارى لجميع كلامك حلاوة وطلاوة  
 ولا يمل من سماعه ولا يسأم من استرجاعه وقد ذكرت جملة من  
 احكام الاسلام كالصلاة والزكاة فهل لك ان تفيدني عنها شيئاً

فقال اما الصلاة فهي قرينة ذات احرام وسلام او سلام فقط  
 وهي افضل الاعمال بعد الشهادتين وهي عروس العبادات اي تشبه  
 العرس في اشتغالها على القرآن والدعاء والذكر والتسبيح والتحميد  
 والركوع والسجود والخشوع والوقوف بين يدي الله تعالى وغير  
 ذلك من العبادات الكثيرة في عبادة واحدة كما ان العرس يشمل  
 على اصناف الماكل والالعب والفرح والزينة والنزاهة ولها شروط  
 صحة وشروط وجوب واركان وسنن وفضائل

واما الزكاة فهي مال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص اذا  
 بلغ قدرأ مخصوصا في زمن مخصوص ويصرف في جهات مخصوصة  
 فقال الانكليزي وما ذلك قال اما المال المخصوص المأخوذ

فهو ربع العشر في العين الذهب والفضة والعشر كاملاً في الحبوب  
 إذا سقيت بالسبع ونصف العشر ان سقيت بالآلات وشاة واحدة  
 في اربعين شاة الى اخر ما هو مفصل في محله واما المال المخصوص  
 الماخوذ منه فهو العين والحراث والماشية واما التدر المخصوص فهو  
 النصاب وهو عشرون ديناراً في الذهب ومائتا درهم في الفضة  
 وخمسة اوسق في الحبوب الى اخر ما هو مفصل واما الزمن المخصوص  
 فهو الحول او مجي الساعي في الماشية او طيب الحبوب واما الجهات  
 المخصوصة فهي الاصناف الثمانية المذكورة في الاية انما الصدقات  
 للفقراء الخ وشرعة الزكاة لتطهير الاموال والانفس ولها شروط  
 واركان واداب يطول شرحها منها انها تخرج من جنس المال  
 الزكي فلا يجزيء جنس عن غيره ولا ردي عن جيد ولا سقيم عن  
 سليم قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبون وقال تعالى  
 يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما اخرجنا لكم من  
 الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون

واما الصوم فهو الامساك عما يصل الى الجوف او الرأس من  
 قبيل الفجر الى غروب الشمس وله شروط واركان واداب ومن  
 فضائله انه يضعف الشهوة ويهذب الخلق ويصفي الباطن ولذلك  
 قال صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم البائة  
 فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع ولم  
 يجب منه في كل سنة الا شهر واحد وهو شهر رمضان ولا يقوم

صوم غيره مقامه ويحرم عندنا صوم خمسة ايام من كل سنة وهي يوم  
 عيد الفطر ويوم عيد الاضحى والثلاثة التي بعده وتسمى ايام التشريق  
 ومن حكمه مشروعية التشبه بالملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام  
 فينبغي فيه العزلة عن الناس والاشتغال بالقرآن والصلاة والاذكار  
 ومن اداه تعجيل الفطر وتأخير السحور ومنها الافطار على وتر من  
 الرطب او التمر وما احسن ما قيل في ذلك  
 فطور التمر سنه

رسول الله سنه

ينال الاجر عبد

يجلي منه سنه

ولا ينبغي ان يجعل شهر فكاهاه ولعب

واما الحج فهو قصد بيت الله الحرام لاداء فريضة الاسلام ولا  
 يجب الا مرة واحدة في العمر ومحل وجوبه ما لم يمنع من ذلك  
 مانع كفقرا او انقطاع طريق او مرض او عدم رفيق قال تعالى والله  
 على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرة الشيخ ان الله لا مكان

له فلم خصت هذه العبادة بهذا المكان دون غيره

فقال الشيخ هكذا اقتضت الحكمة الازلية والارادة الربانية

قال بعضهم

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد روي ان الله تعالى لما اهبط ادم من الجنة قال له اني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي فلما كان زمن الطوفان رفع فكان الانبياء يجحون ولا يعلمون مكانه فلما بوأه الله لابراهيم بناه من خمسة اجبل حراء وثبير ولبنان وجبل الطير وجبل الخير وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية وهيات ان يساوي المخلق بين دار بناؤها لبن التراب والتبين ودار بناؤها لبن المسجد واللجين ففرق بين مدينة اكثر عمارتها الشهوات ومدينة عمارتها الآيات البينات فقد يجد الانسان قلبه في مكان اكثر ما يجده في غيره وذلك ليس للاجر والتراب بل للاجر والثواب او مجالسة الاتراب كما قال

اقبل ارضا سار فيها جمالها \* فكيف بدار فيها جمالها  
وقد طاف بهذا البيت مائة واربعة وعشرون الفا من  
الانبياء سوى ما لا يعلمه الا الله من الملائكة والاولياء فهو البيت  
الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سر الاولية وقد اثنى عليه  
ذو العزة والجبروت قال تعالى ان اول بيت وضع للناس للذي  
بيكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن  
دخله كان امنا وقال صلى الله عليه وسلم خير بلدة على وجه الارض

واحبها الى الله مكة الى غير ذلك من الآثار الدالة على فضلها  
فوالله لولا العوائق الشاغلة لبسطت لك متون آياتها ونشرت  
عليك فنون دلائلها وكان قد حان وقت القيام فاستأذن الشيخ  
وقام وهو يكرر هذا الكلام

يا رحمة الله للعباد \* اودعك الله في الجهاد  
يا بيت ربي يا نور قلبي \* يا قرة العين يا مرادي  
يا كعبة الله يا حياتي \* يا منج السعد يا رشادي





## المسامرة الخامسة والتسعون

## نوادير

ثم دخل مخدعه ونام حتى الصباح فافاق فدخل عليه ابنه فقال له اين كانت غيبتك وفيما انقضت ليلتك قال له كنت مع يعقوب والخوارجا الطلياني في غرفة بجواركم فوجدنا بها كثيراً من رجال ونساء وفيهم صاحبة المنزل وهي التي اخذتني واجلستني بجوارها والذي اخرني الى هذا الوقت اني رأيت بعضهم يحاجي بعضا بمسائل معماة منها ما كنت افهمه ومنها ما لم اتفعل معناه فقال له والده هل بقي منها في ذهنك شي قال نعم من ذلك ان احدهم قال لثلاثة ممن كان هناك لياخذ كل واحد منكم ورقة اي من الاوراق المعدة للهو واللعب بشرط ان لا تزيد نقطها المرسومة عليها عن تسع فاخذ كل واحد ورقة ثم قال لمن اخذ اولاً ضعف عدد

نقط ورقتك ثم اسقط من المجموع واحدا واضرب الباقي في خمسة ثم زد على المجموع خمسة ثم اضع الى الجميع رقم ورقة الشخص الثاني ثم ضعف الحاصل واسقط منه واحدا واضرب الباقي في خمسة ثم اضع الى الجميع رقم ورقة الشخص الثالث ففعل كما قال ثم قال له فاقدر المجموع فقال كذا فقال حينئذ يكون لكل واحد من الثلاثة بقدر عدد النقط الذي كان على ورقته فعبينا من ذلك فلما رأى الطلياني تعجبي قال لا عجب لان ورقة الاول كان عليها ثلاث نقط وورقة الثاني اربع والثالث سبع فباسقاط واحد من ستة التي هي ضعف الثلاثة صار الباقي خمسة وبضربه في خمسة صار الحاصل خمسة وعشرين وبزيادة خمسة يكون الحاصل ثلاثين وباضافة رقم الثاني عليه وهو اربعة يكون الحاصل اربعة وثلاثين فاذا ضعفته صار ثمانية وستين فاذا اسقطت واحدا بقي سبعة وستون فاذا ضربته في خمسة كان المجموع ثلاثمائة وخمسة وثلاثين وبزيادة خمسة يكون المجموع ثلثمائة واربعين فاذا ضم عليه رقم ورقة الثالث وهو سبعة بلغ ثلثمائة وسبعة واربعين فلو تأملت ذلك لوجدته مركبا من الارقام التي على الاوراق الثلاثة

ومنها ان احدهم مد يده الى الطاولة واخذ ثلاثة اوراق وقال لي اختر في شرك واحدة منها ففعلت ثم وضع الثلاث على الطاولة بعضها فوق بعض واخذ ثلاثا اخرى وعرضها على النساء اللاتي

كن معنا فاخترت احدهن واحدة منها ثم وضع الاوراق الثلاث  
 بعضها فوق بعض ايضاً بجزاء الثلاث الاول ثم اخذ ثلاثا اخرى  
 وفعل فيها كما فعل فيما قبلها ثم سألتني عن ورقتي في اي صف  
 هي فاشرت اليه فاخبرني بها ثم سألت كل ست عن ورقتها في  
 اي صف فاشارت اليه فاخبرها بها من غير ان يخطئ ثم فرق  
 الثلاث الاولى بعضها بجزاء بعض ثم فرق الثلاث الثانية يجعل  
 كل ورقة منها على كل ورقة من الثلاث الاولى وكذلك فعل  
 بالثلاث الثالثة فعميت لذلك فقال يعقوب لا تعجب فان الورقة  
 الاولى تكون في الصف الاسفل والورقة الثانية تكون في الصف  
 الاوسط والورقة الثالثة تكون في الصف الاعلى ثم قال لي يعقوب  
 واغرب من ذلك اننا لو فرضنا جميع الورق ستاً وثلاثين وقسمناها  
 ثلاثة اقسام كل واحد منها اثنا عشرة ورقة وجعلنا ورق كل  
 قسم متخادياً ثم قلنا لانسان اختر في نفسك ورقة من اي قسم  
 اردت وارادنا معرفة هذه الورقة من غير ان نسأل عنها لاممكن  
 ذلك من غير صعوبة ثم قام واخذ الورق الذي كان موجودا  
 وقسمه كما قال ثم قال لي اختر في شرك ورقة فاخترت من الصف  
 الوسط فجمع ورقه ووضعه بين اوراق الصفيين الاخرين بعد جمع  
 كل منهما كذلك ثم اخذ الورقة العليا وجعلها مبدأ صف ثم  
 الثانية وجعلها مبدأ صف اخر ثم الثالثة كذلك ثم اخذ الرابعة  
 فوضعها فوق الاولى والخامسة فوق الثانية ثم السادسة فوق الثالثة

وهكذا حتى جعل الورق ثلاثة اقسام ثم سألتني عن الصف الذي فيه الورقة التي اخترتها فاشرت له اليه فجمع ورقه ووضع بين الصفيين ثم وزعه كما فعل في الاول ثم سألتني عن الصف الذي هي فيه فاخبرته به فقال حيثئذ هي في النصف من هذا الصف فكان كما قال

فلما فهم من كان هناك ان يعقوب دراية بمثل هذه الاحاجي سألوه ان يبيدي لهم شيئاً مما عنده منها فابدى لغزاً على دسته الورق التي عددها اثنان وخمسون ورقة وقال لاحدى النساء خذي اي ورقة شئت فاخذت ورقة على غير مرأى منه ثم ضم اليه الباقي وبعد برهة بين لها العدد الموجود في ورقتها ثم عرض الورق ثانياً عليهن فاخذت احدهن ورقتين حيث اتفق كما امر ثم قال لها خذي لكل ورقة اوراقاً حتى تكمل ارقامها خمساً وعشرين نقطة يعني ان كانت تقط احدى الورقتين ستا تاخذتسع عشر ورقة وان كانت تسعاً تاخذت عشر فاخذت كما قال ثم جمع ما بقي من الورق فكان سبعة عشر فقال لها تقط الورقتين سبعة عشر فكان كما قال فدهشوا من حذقه وشدة فطنته خصوصاً الشاب الذي كان يلعب اولاً حتى انه طلب منه ان يعلمه ما اشكل عليه من احاجيه فاجابه الى ما طلب ثم لما علمنا قيامكم فمنا فدخلت محلنا ومعني يعقوب فاراني من ذلك اموراً كثيرة ووعدني بغيرها فسألته عن الشكل الاول وكيف عرف الرقم

الذي على الورقة التي كانت اخذتها المرأة من غير ان يسألها عنه فقال لي طريقة معرفة ذلك ان تجمع جميع ارقام الورق وتجعل الخادم مثلا منها مقدراً باحد عشر والبنت باثني عشر والباباز بثلاثة عشر ثم تجمع رقم الورقة الاولى على الثانية والحاصل على الثالثة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاستقطبها منه واخف الباقي الى رقم الورقة الرابعة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاستقطبها منه كما تقدم ولا يلزم ان تعد رقم الباباز لانه ثلاثة عشر وهكذا الى ان تنتهي الى عدد منه تعلم الورق الناقصة ورقها مثلا اذا كان الباقي الاخير احد عشر دل على الخادم وان كان اثني عشر دل على البنت وان كان صفرا دل على الباباز فلو فرض ان عدد الورق كان اثنين وثلاثين فطريق معرفتها هي طريق اثنين وخمسين بعينها لكن الاستقاط يكون عشرة عشرة لا ثلاثة عشر فاذا وصلت الى الورقة الاخيرة تضم على الحاصل اربعة فان كان اقل من عشرة فاطرحه منها فان الباقي يكون عدد رقم الورقة الماخوذة وان كان الباقي اكثر من عشرة فاطرحه من عشرين فيكون الباقي عدد تلك الورقة فان كان الباقي اثنين دل على الخادم وان كان ثلاثة دل على البنت وان كان اربعة دل على الباباز ثم قال لي واذا فرضنا ان احد الحاضرين اخذ ثلاث اوراق وارادنا معرفة حاصل اعدادها فطريقة ذلك ان ناخذ ستة ورق من اوراق اللعب يكون عدد ورقها يقبل القسمة اثلاثا

بان تكون ستا وثلثين مثلاً ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث  
خذ لكل ورقة قدرًا من الورق يبلغ بالرقم الذي على الورقة احد  
عشر فاذا فرض ان رقم احدى الورقات التي اخذها تسعة ياخذ  
ها ورقتين وان الثانية سبعة ياخذ لها اربعا وان الثالثة ستة ياخذ  
لها خمسا فيكون مجموع الورق المأخوذ في هذا المثال اربعة عشر  
والباقى اثنين وعشرين وهو جملة ارقام الورقات الثلاث الماخوذة  
اولا

ولنا في حلها طريقة اخرى وهي ان نقول للذي اخذ الاوراق  
الثلاث استقط في شرك رقم كل ورقة من اثني عشر واجمع البواقى  
الثلاث ثم نستعلم منه عن الحاصل ونسقطه من عدد ورق اللعب  
وهو ستة وثلاثون فيكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب مثلا  
اذا كان رقم ورقة تسعة وورقة سبعة وورقة ستة كان باقى الاولى  
ثلاثة وباقى الثانية خمسة وباقى الثالثة ستة ومجموع هذه البواقى  
اربعة عشر فاذا استقطناه من عدد الورق وهو ستة وثلاثون كان  
الباقى اثنين وعشرين وهو المطلوب ولو كان عدد الورق اكثر من  
سته وثلاثين بان كان اثنين وخمسين مثلا وارادنا معرفة ارقام  
الاوراق الثلاث استعملنا عددا اكثر من عشرة واقبل من سبعة عشر  
الذي هو ثلث الاثنين وخمسين بعد الكسر كخمسة عشر ثم نقول  
للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة ورقا من اوراق  
اللعب حتى يتم رقم الورقة بالورق الماخوذ خمسة عشر كان ياخذ

في المثال ستة للورقة التي رقمها تسعة وثمانية للتي رقمها سبعة وتسعة  
 للتي رقمها ستة فمجموع الاوراق الماخوذة وهو ستة وثمانية وتسعة  
 ثلاثة وعشرون تظم الى الثلاث الماخوذة اولا فيكون الحاصل  
 ستة وعشرون والباقي ستة وعشرين نطرح منه اربعة فرق ما بين  
 اصل عدد الورق وهو اثنان وخمسون وبين ثلاثة امثال العدد  
 المستعمل وهو خمسة عشر مضافا عليه ثلاثة اي ثمانية واربعون  
 يكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب وهناك طريقة عامة اي  
 سواء كان ورق اللعب اثنين وخمسين او ستة وثلاثين وسواء  
 كان في كل من الحالتين كاملا او ناقصا وسواء كان العدد  
 المستعمل خمسة عشر او ثلاثة عشر او اربعة عشر او ستة عشر وسواء  
 كان عدد الورق الماخوذ ثلاثة او اربعة او غير ذلك

وهي ان تضرب العدد الذي استعملته في عدد الورق  
 الماخوذ وتضيف الى الحاصل عدد الورقات الماخوذة ثم تسقط  
 الحاصل من عدد ورق اللعب المستعمل اي من اثنين وخمسين  
 ان كان عدده مركبا من اثنين وخمسين ومن ستة وثلاثين ان كان  
 مركبا من ستة وثلاثين فيكون الباقي هو العدد اللازم اسقاطه من  
 الورق الذي يكون باقيا من ورق اللعب وباقي الطرح هو المطلوب  
 مثلاً اذا فرض ان الماخوذ اربع ورقات وان رقم احداها ثلاثة  
 والثانية خمسة والثالثة سبعة والرابعة عشرة وفرض ان العدد المختار  
 أحد عشر يضرب أحد عشر في اربعة يكون الحاصل اربعة واربعين

يضم عليه اربعة فيصير ثمانية واربعين تطرحه من اثنين وخمسين  
يكون الباقي اربعة تطرحها من تسعة وعشرين فيكون الباقي خمسة  
وعشرين وهو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة ورقم تسعة  
وعشرين السابق هو الورق الذي بقي من ورق اللعب بعد تكميل  
كل ورقة من الورق المأخوذ احد عشر كما مرلانا ناخذ للاولى  
ثمانية وللثانية ستة وللثالثة اربعة وللرابعة واحدا ومجموع ذلك تسعة  
عشر فاذا اضفنا له الاربعة التي اخذت كان الحاصل ثلاثة  
وعشرين اذا طرحناها من اثنين وخمسين كان الباقي تسعة وعشرين  
كما ذكرنا

وهناك دقيقتان ينبغي التنبه لها الاولى ما اذا فرض ان ارقام  
الاوراق الاربع مثلا كانت واحدا وثلاثة واربعة وسبعة وفرض  
ان العدد المختار اثني عشر فيلزم على قياس ما مر ان نضرب اثني  
عشر في اربعة يكون الحاصل ثمانية واربعين ونضم عليه اربعة  
عدد الاوراق يحصل اثنين وخمسين وهو قدر عدد ورق اللعب  
فحينئذ يكون الفرق بينهما صفرافي هذه الحالة وما مائلها يكون  
الورق الباقي بعد المأخوذ هو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة  
وبيانه انه اذا اخذ للورقة الاولى احدى عشر ورقة لتكميل العدد  
اثني عشر واخذ للثانية تسعة وللثالثة ثمانية وللرابعة خمسة ومجموع  
ذلك ثلاثة وثلاثون فاذا اضيف له اربعة وهو عدد الورق المأخوذ  
يكون بسبعة وثلاثين فاذا طرحته من عدد الورق الذي هو اثنان



وخمسون فان الباقي يكون خمسة عشر وهو ارقام الورقات الاربع  
المأخوذة

والثانية ما لو فرضنا ان المأخوذ ثلاث ورقات من ورق  
عدده ستة وثلاثون وكانت ارقام الثلاث المأخوذة اربعة وسبعة  
وتسعة والعدد المختار خمسة عشر فعلى قياس ما مر نضرب خمسة  
عشر في ثلاثة يكون الحاصل خمسة واربعين نضم له ثلاثة يكون  
ثمانية واربعين وهو اكثر من عدد ورق اللعب ففي هذه الحالة  
سقط الاصغر وهو ستة وثلاثون من الاكبر وهو ثمانية واربعون  
فيكون الباقي اثني عشر نضيفه الى الورق الباقي بعد المأخوذ فيكون  
حاصل الجمع هو ارقام الورقات الثلاث المأخوذة ففي هذا المثال  
لاجل تكميل ارقام كل ورقة خمسة عشر نأخذ للاولى احد عشر  
وللثانية ثمانية وللثالثة ستة وحاصل الثلاث خمسة وعشرون  
وبإضافة الورقات الثلاث يكون الحاصل ثمانية وعشرين نسقطه  
من عدد ستة وثلاثين الذي هو ورق اللعب يكون الباقي ثمانية  
نضيف له الاثنى عشر وهو الفضل بين الستة والثلاثين والثانية  
والاربعين فيكون الحاصل عشرين وهو ارقام الاوراق الثلاث  
وقد تطراً دقيقة ثالثة وهي ما لو فرض ان ارقام الورقات  
الثلاث اثنان وثلاثة واربعة وكان العدد المختار خمسة عشر وعدد  
الورق ستة وثلاثين ففي هذه الحالة يلزم لاجل تكميل رقم الورقة  
الاولى ان نأخذ لها ثلاثة عشر وللثانية اثني عشر وللثالثة خمسة عشر

عشر ومجموع ذلك ستة وثلاثون يضم له عدد الورقات الثلاث فيكون تسعة وثلاثين وهو أكثر من عدد ورق اللعب بقدر ثلاثة ففي مثل هذه الحالة تستط ثلاثة من اثني عشر التي هي الفرق ما بين ثمانية وأربعين وستة وثلاثين فيكون الباقي تسعة وهو أرقام الورقات الثلاث وهكذا

فقال الشيخ لا بأس بهذه المعايير لما فيها من توسيع العقل والاعانة على معرفة الحساب ويقرب من ذلك ما سمعته في صغري وهو ما لو فرضنا ان انسانا معه ثلاثة اوعية احدها يسع ثمانية ارطال والثاني خمسة والثالث ثلاثة وكان الكبير مملوا والاثنتان الباقيان فارغين و اردنا ان نضع نصف ما فيه في الاناء الوسط فيلزم

اولا ان نملأ من الكبير فتكون فيه خمسة وفي الكبير ثلاثة ثانياً نملأ الصغير من الوسط فيكون حيثئذ في الصغير ثلاثة وفي الوسط اثنان وفي الكبير ثلاثة

ثالثاً نضع ما في الاصغر على ما في الاكبر فيكون في الوسط اثنان وفي الكبير ستة والصغير فارغا

رابعاً نضع ما في الوسط في الاصغر فيكون فيه اثنان وفي الكبير ستة والوسط فارغا

خامساً نملأ الوسط من الكبير فيبقى فيه واحد والاصغر اثنان والوسط خمسة

سادسا حيث وصلنا لهذا الحد نكمل الاناء الصغير ما في  
الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط اربعة وفي الكبير واحد فحينئذ  
قد انقسم الزيت كما هو المطلوب

فقال ابن الشيخ لو اردنا بقاء نصف الزيت في الاناء الكبير  
كيف نفعل

فقال الشيخ نملاً الصغير اولا فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير  
خمسة

ثانياً ننقل ما في الصغير في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي  
الكبير خمسة

ثالثاً نملاً الصغير من الكبير فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط  
ثلاثة وفي الكبير اثنان

رابعاً نكمل الوسط من الصغير فيكون فيه واحد وفي الوسط  
خمسة وفي الكبير اثنان

خامساً نضع ما في الوسط في الكبير فيكون في الصغير واحد  
وفي الكبير سبعة

سادساً نضع ما في الصغير في الوسط فيكون فيه واحد وفي  
الكبير سبعة والصغير فارغاً

سابعاً نملاً الصغير من الكبير فيكون في الصغير ثلاثة وفي  
الوسط واحد وفي الكبير اربعة وهو المراد

ثم قال لو فرضنا ان الاناء الكبير يسع اثني عشر رطلاً و اردنا

انفصال النصف لتعطيه لبعض الناس ولم يكن معنا الا انان  
 اخران احدها يسع سبعة ابطال والاخر خمسة فطريق العمل هكذا  
 نملاً الصغير اولاً فيكون فيه خمسة ويبقى في الكبير سبعة  
 ثانياً ننقل ما في الصغير الى الوسط فيكون فيه خمسة وفي  
 الكبير سبعة

ثالثاً نملاً الوسط من الكبير فيكون في الصغير خمسة وفي  
 الوسط خمسة وفي الكبير اثنان  
 رابعاً نكمل الوسط من الصغير فيكون في الصغير ثلاثة وفي  
 الوسط سبعة وفي الكبير اثنان

خامساً نضع ما في الوسط في الكبير وما في الصغير في الوسط  
 فيكون في الوسط ثلاثة وفي الكبير تسعة

سادساً نملاً الصغير من الكبير والوسط من الصغير فحينئذ  
 يكون في الصغير واحد وفي الوسط سبعة وفي الكبير اربعة  
 سابعاً ننقل ما في الوسط للكبير وما في الصغير للوسط فيكون  
 في الوسط واحد وفي الكبير احد عشر

ثامناً نكمل الوسط من الكبير فيكون في الوسط ستة وفي  
 الكبير ستة وهو المطلوب

وبيناها على هذا الحال واذا يعقوب قد دخل فقال له  
 الشيخ اني اتبعت طريقةتك ونهجت محجك وان لم ابلغ في ذلك  
 درجتك وقد اثبتت على ولدي بعض امثال تهرب ما كتبنا فيه

هذه الليلة وحكى له مسألة تقسيم الزيت في الاواني الثلاثة  
 فقال يعقوب هذه المسألة مثل ما اذا كان المراد تقسيم واحد  
 وعشرين برميلا ثلثها ملو من المائع وثلثها فارغ والثلث الثالث  
 على النصف على ثلاثة كل واحد ثلثها وثلث المائع  
 فقال ابن الشيخ ياخذ كل واحد سبعة فقال يعقوب هذا  
 ظاهر اذا كانت البراميل كلها فارغة او مملو او متساوية المقادير  
 وفرض المسألة ليس شيئاً من ذلك ولو تأملت لعرفت حلها لان  
 عدد سبعة يمكن تحليله الى ثلاثة اعداد وهي اثنان واثان وثلاثة  
 وكل من هذه الاعداد تحل به المسئلة فنعطي مثلاً للاول اثنين  
 مملوئين واثين فارغين وثلاثة على النصف  
 وللثاني اثنين مملوئين واثين فارغين وثلاثة على النصف  
 وللثالث ثلاثة مملو وثلاثة فارغة وواحداً منصفاً وبهذه  
 الكيفية يكون مع كل واحد من الثلاثة قدر ما مع الآخر من  
 البراميل والمائع  
 ويمكن حلها بطريق اخر وهو ان يعطى للاول ثلاثة ملائنة  
 وثلاثة فارغة وواحد على النصف وللثاني ثلاثة ملائنة وثلاثة فارغة  
 وواحد على النصف  
 وللثالث واحد مملو وواحد فارغ وخمسة على النصف ففي  
 هذه الطريقة ايضاً اخذ كل منهم الثلث في كل من المظروف  
 والظروف

ثم لاجل حل كل ما يشبه هذه المسألة يلزم ان يكون خارج قسمة عدد البراميل على عدد الاشخاص عدداً صحيحاً فلو لم يكن كذلك لم نأت القسمة كما لو طلب تقسيم واحد وعشرين برميلا على اربعة فهذا لا يمكن بخلاف تقسيم اربعة وعشرين برميلا على اربعة فلا شك في امكانه فان خارج القسمة ستة فالذي يلزم هو تحليل خارج القسمة الى اجزاء صحيحة بقدر عدد الاشخاص ففي هذا المثال الاجزاء التي يتحلل اليها ستة هي ٢٢ وواحد وواحد ولا يكون غير ذلك فعلى هذا يعطى للاول اثنان مملوآن واثنان فارغان وواحد على النصف وواحد على النصف وللثالث واحد مملو وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف

وللرابع واحد مملو وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف فلو فرضناها سبعة وعشرين برميلا ثلثها مملوء وثلثها على النصف وثلثها فارغ واريد تقسيمها على ثلاثة فالقسمة ممكنة لان خارج القسمة تسعة ولها ثلاث كيفيات

الاولى يعطى لكل منهم تسعة براميل كل ثلاثة من نوع الثانية يعطى للاول واحد مملو وواحد فارغ وسبعة على النصف

وللثاني اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وللثالث اربعة مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف  
 فياخذ بهذه الطريقة كل واحد تسعة  
 والكيفية الثالثة ان يعطى للاول اثنان مملوءان واثنان فارغان  
 وخمسة على النصف

وللثاني ثلاثة مملوءة وثلاثة فارغة وثلاثة على النصف  
 وللثالث ٤ مملوءة واربعة فارغة وواحد على النصف  
 وفي هذه المسائل وما يشبهها كتب طويلة وجدت منها كتابا  
 مع احد اصحابي المراكبية الذين كنت اجتمع بهم عند الفراغ من  
 الشغل فكان يغنيني عن مفاكرة الانيس ومحادثة المجلس وقد  
 حفظت منها اشياء كثيرة وان شاء الله في وقت غير هذا نتكلم فيما  
 يحضرنى منها فاني جئت الان مرسولا من قبل الخواجا لا علمكم انه  
 يتظر حضرته حيث تكون الساعة ١٠ افرنجية وها انا متوجه نحو  
 المدينة لقضاء بعض اشغال امرني بها

## المسامرة السادسة والتسعون

## التدين

ثم استأذن الشيخ وتوجه فجلس الشيخ مع ولده برهة ثم نظر في الساعة فوجد الوقت قد أزف فقام متوجها اليه ومعه ولده فلما دخلا عليه قام لها واجلسها وأنسها ثم قال للشيخ ان رئيس الجمعية ارسل لي تذكرة يسلم فيها على حضرتكم ويخبرني انه في انتظارنا جميعا في الساعة المعينة بيننا وبينه ويقول ان من شأن الكرام اذا وعدوا وفوا بوعدهم وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات فلما علم ابن الشيخ امتداد الوقت استأذن والده في الذهاب مع يعقوب فاذن له فقال ابن الشيخ ليعقوب الى اين تريد فقال ان حضرة الخوجا اشترى بالامس نظارة معظمة من احد المخازن وكان بها بعض نقص فامر صاحبها باتمامه وقد اعطاني ثمنها لاحضرها له



فقال ابن الشيخ انذكر حين كنا بالمركب وحضرة الخوaja  
بذكر لنا بعض كلمات تتعلق بالنظارات وكان قد وعد ان يشرحها  
لنا اذا وصلنا الى باريس فعسى ان يكون مشتراها لانجاز ما وعد  
فقال يعقوب ربما كان كذلك ولكنه لم يخبرني عن شي

وبيناها سائران اذا باناس كثيرين يدخلون كنيسة وعلى  
بابها عربات كثيرة وخدم وكلمهم في زي غير معتاد وعلى ابواب الكنيسة  
عساكر بملابس رسمية وجميع آلات الموسيقى تضرب فسأل ابن الشيخ  
يعقوب فقال له هذا معبد النصارى الذي يتعبدون فيه فقال  
وما المناسبة بين محل العبادة الدينية والملاهي الدنيوية

فقال يعقوب الباريزيون دائماً المحظوظ النفسية فلا يفارقونها  
سواء كانوا في المعابد او التيارات او غيرها فتجد في كل منها ما  
في الثاني من المحظوظ ولا فرق بينهما الا بكثرة ما يوقد في الكنيسة  
من الشموع وما يحرق فيها من البخور وكثرة النساء والشبان  
وميلهم الى الاصوات الحسان لا يكون للقيس شهرة بينهم الا بحسن  
الملابس ونضارة الزي وكثرة الوشي وما اشبه ذلك

فقال ابن الشيخ لو دخلنا لعلمنا حقيقة الحال  
فقال يعقوب لا باس في دخولنا فدخلا فوجدوا ازدحاماً عظيماً  
من رجال ونساء ولكل هيئة مخصوصة به وقت عبادته فترى  
الرجال وقوفاً رؤسهم مكشوفة والنساء جاثيات على ركبتين  
وبأيديهن كتب صغيرة منقوشة وعلى جلودها رسوم بماء الذهب

واللحين وعلى النساء والرجال افخر الملابس واما القسيسون فلا يراهم الداخل الاعلى بعد وكانت ملابسهم اذ ذاك مكللة بالذهب ومزركشة بالقصب ومزينة برسوم يقضى لها بالعجب وكان كبيرهم يتكلم بصوت عال رخم كانه خطيب على مرتفع عظيم الا ان ابن الشيخ لم يعرف كيفية هذه العبادة لانه لم يسبق له في هذا الامر عادة فعجب كل العجب وطرب ما رآه غاية الطرب سيما واصوات الآلات والالحان كانت تخلط باصوات القسيسين فسأل يعقوب عما يقوله القسيس وعن اللسان الذي يتكلم به فقال يعقوب اما قوله ففي الامور الدينية مثل الصلوات والادعية واما لسانه فاللاتيني

فقال ابن الشيخ اذا لا علم للحاضرين بما يقول فقال نعم ولكنها رسوم يؤدونها واوصيك ان تكتفي الان بالنظر والمشاهدة وكان ابن الشيخ وقت دخوله لم ينزع عمامته فراه احد الخدم فامر به بان يكشف راسه ففعل ولم يتوقف ولكنه عجب من اعنائهم بكشف الرؤس مع عدم خلعهم النعال ورأى كلاباً كثيرة مع اربابها داخل المعبد ولا انكار على احد من احد فزاد عجبه من ذلك ورأى جميع حائط الكنيسة من الداخل مكسوا بالجوخ الاسود والشموع موقودة في جميع اماكنها ثم التفت ابن الشيخ فرأى ميتاً قد حضروا به وقدامه عدد كثير من القسيسين والرهبان لابسين الملابس الرسمية فوضعوه وجعلوا يطوفون حوله

ثم اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا من الكنيسة وقد رأى يعقوب ان ابن الشيخ تأثر من تلك المناظر فسأله عن السبب فقال يسوئي ان ارى المعابد على غير ما وضعت له فانظر الى مساجدنا وقارن بينها وبين الافرنج في كنائسهم تجد فرقا عظيما فان اجتماع المسلمين في المساجد عندنا ان كان للصلاة على الجنازة لم يفعلوا الا ما يعود نفعه على الميت من الصلاة عليه والاستغفار له سواء كان الميت غنيا او فقيرا صغيرا او كبيرا وان كان لاداء فريضة كانوا على غاية من الخضوع والخشوع ولذلك يطلب من الانسان قبل شروعه في الصلاة طهارة بدنه وثوبه والتوجه الى ربه بقلبه وقلبه والتخلي عن الاخلاق الرديئة والتعملي بالاخلاق المرضية

فقال يعقوب قد كان امر الدين قبل الان بعدة قرون عند جميع الامم من اهم الامور وكانت اماكن العبادة اكثر احتراماً واعتباراً من جميع الاماكن وبعض من يجهل سر ذلك يزعم ان الاديان انما كانت معظمة في الزمن السابق لجهل الامم اذ ذاك مجال امر الديانة ويقول ان رقاب المخلوق كانت بايدي القسيسين يتصرفون فيها تصرف السادات في عبيدهم واما الان فقد استغنى الناس عن ذلك لعلمهم بثمرات التمدن وصار كل انسان في غنية عنهم ويمكنه الاهتداء بنفسه الى ما فيه صلاح له وليس احد ملزما باتباع دين دون اخر فله اختيار اي دين شاء وله ان لا يتدين بدين

اصلا فمن هذا وامثاله تغيرت عتيرة الناس فصار حال اغلب بقاع  
اوروبا كما ترى من قلة التدين

وحال الكنيسة في الموتي يختلف باختلاف الناس فالغني  
تعقد له محافل مثل ما رأيت وذلك على حسب ما يصرف من  
التقود

واما الفقير فربما لا يفعل له شي من ذلك اصلا ومع ذلك  
فلو تأملت جميع هولاء الناس بعد خروجهم من الكنيسة وتفقدت  
احوالهم لوجدتها مخالفة لامور الديانة بالكليية فان البنات تقول  
لامها مثلا فلانة كانت في زي فلانة في زي فلانة او فلانة  
اجادت الغناء اكثر من فلانة وكسوة سيدي القسيس كانت كذا  
وكذا ورأيت سيدي القسيس فلانا يتكلم مع فلانة سرا او علانية  
وهلم جراً ولا تكاد تسمع في ذلك اليوم الا الكلام في قدر ما احرق  
من الشموع والبخور وكسوة الكنيسة وما اعطي للشمس وما زخرفت  
به خشبة الميث ومن مشى خلفه او امامه من الاعيان والامراء ونحو  
ذلك وقل ان تسمع احداً يذكر اسم من قبضت روحه او من قبضها  
وإذا سمع ذلك لا يكون الا من امرأة عجوز منهم

ولما وصلوا الى الخانات الذي قصده يعقوب تلقاها صاحب  
الخانات وامر لها بكرسيين واجلسها ثم قال ان الصندوق قد تم  
من مدة وكنت عازما على ارساله لحضرة الخواجا الظني انك لانتاخر  
عن الميعاد الا لعذر

فقال يعقوب انه بعثني في الوقت الذي عينته له وانما تأخرت لان ابن الشيخ رأى في طريقنا جنازة فاحب ان يدخل الكنيسة ليعرف العوائد الجارية هنا في الجنازات فمكثنا بها حتى علم عوائدهم في موتاهم فهذا هو الذي اخبرني عن الحضور في الوقت المعين

فقال صاحب الحانوت اظن ان القسيسين احتفلوا بهذه الجنازة فاني سمعت انه صرف للكنيسة نحو ثلاثين الف فرنك وانه اجتمع في الجنازة جم غفير وكنت تهبأت للذهاب لانظر ما هناك فمنعني مانع وهو اني كنت في جهة سراي الملك ثم قال وماذا قال صاحبك المصري فيما رأى وهل نشييع الجنازات في بلده كما رآه في بلادنا فهم ابن الشيخ كلامه ولكنه هاب ان يكلمه باللغة الفرنسية خوفاً من العثرة فيها

فقال ليعقوب بالعربية قل له ان عوائد المسلمين في ذلك ليست كعوائدكم فان المسلمين اذا مات منهم احد وكان مشهوراً بشيء من مناقب الصالحين لا يلنفت لما له بل يجتمع لجنازته كل من سمع بموته وان لم يكن من اهله ولا من ذوي قرابته فاعتبار الميت عندنا وعدم اعتباره بعد ماته تابع لما كان يعمله من خير او شر في حياته فان كان كثير الاحسان سليم القلب طاهر اللسان متعوداً على فعل الخير دائماً السعي في نفع الغير محباً للمساكين والفقراء مؤدياً ما اوجبه الله عليه في السراء والنساء حزن لموته

الاجانب ورتوه اكثر من اقاربه الذين ورتوه وان كان بخلاف  
 ذلك في حياته لاتي ما يسؤه ويسؤ اقاربه بعد وفاته فقد يكون  
 الشخص عندنا فقير الحال لا وارث له ولا مال ويجتمع في جنازته  
 من الرجال والنساء ما يضيق عنه الفضا ويصلون عليه ويمشون  
 خلفه وبين يديه يستغفرون له ويعددون محاسنه الى ان يدفونه  
 فاذا فرغوا من دفنه عزوا اقاربه ان كان له اقارب والاعزى  
 بعضهم بعضاً ثم يرجعون الى منزل الميت ان كان له منزل يليق  
 بالعزاء والا فالى محل يليق به ويذل اهل الثروة والمرؤة ما في  
 وسعم من الخدمة ورفع الكلف عن اقارب الميت ويعملون له  
 الختمات والسج ونحو ذلك من العوائد التي يعود نفعها على الميت  
 كطعام الطعام وغير ذلك الى ثلاثة ايام او اكثر على حسب  
 فضائل الميت قلة وكثرة كل ذلك واقارب الميت لا شغل لهم الا  
 مقابلة الواردين وتشجيع الصادرين واما اذا كان الميت بخلاف  
 ذلك فلا يعبا احد بمجنازته ولا يعلم كيف ولا متى صار الى حفرة  
 ولو كان غنيا متمولا ذا ثروة وعلى كل حال لا يجب في تركة الميت  
 ولا على ورثته سوى غسله وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في ترتيبه  
 الا ان كان اوصى في حياته ببعض خيرات تعمل له بعد ماته  
 ومن الاحكام الدينية انه اذا مات الميت منا وخلف ولداً  
 قاصراً او حملاً في بطن امه حرم علينا استعمال شيء من مخلفاته ولو  
 فرشاً او آنية حتى شرب الماء الى ان تقسم التركة وتبين الانصاء

وهنا وقف ابن الشيخ عن الكلام فترجم يعقوب مقاله  
ثم قال لصاحب الخان ان الخواجا في انتظارنا فهات الصندوق  
فناوله اياه فانصرفا به يجدان في السير الى ان وصلا فوجدا الشيخ  
وصاحبه في انتظارها فقال الخواجا ليعقوب ما احرك الى هذا الوقت  
واخذ يلومه ويعنفه واره خلقا لم يكن من قبل فيه يعرفه وكان من  
عادة يعقوب ان لا يكتم عنهم شيئا من خبره فذكر لهم ما كان من  
امر الكنيسة ورغبة ابن الشيخ في دخولها فكف عن لومه ثم التفت  
الى ابن الشيخ فرأى على وجهه علامات الخجل فقال لا بأس عليكما  
حيث كان في تاخركما فائدة

فهرس

الجزء الثالث

من كتاب

علم الدين

في	المسامرة	صفحة
عود الى حكاية يعقوب	الثامنة والستون	٧٨٥
السباع (من حكاية يعقوب)	التاسعة والستون	٧٩٠
ابن آوي (من حكاية يعقوب)	السبعون	٧٩٤
النمر (من حكاية يعقوب)	الحادية والسبعون	٧٩٦
الفركة (من حكاية يعقوب)	الثانية والسبعون	٧٩٩
سنور الزباد (من حكاية يعقوب)	الثالثة والسبعون	٨٠٥
الوصول الى باريس	الرابعة والسبعون	٨٠٨
لحمة في باريس	الخامسة والسبعون	٨١٦
الحبوان العجيب	السادسة والسبعون	٨٢٤
حبة البجر والمائشة (من حكاية يعقوب)	السابعة والسبعون	٨٢٤
كاشالو او العنبر (من حكاية يعقوب)	الثامنة والسبعون	٨٥٠
ثمرة قصة يعقوب	التاسعة والسبعون	٨٥٢



في	المسامرة	صفحة
- سوق في باريس	الثمانون	٨٥٧
باريس	الحادية والثمانون	٨٦٥
البالو	الثانية والثمانون	٩٠٧
اهرام مصر والمنابيس	الثالثة والثمانون	٩١٢
نبذة تاريخية	الرابعة والثمانون	٩٤١
وصف بعض انحاء باريس	الخامسة والثمانون	٩٦٠
تعدد الزوجات	السادسة والثمانون	٩٧٢
التعداد او الاحصاء	السابعة والثمانون	٩٨٢
الفلاحة والزراعة	الثامنة والثمانون	١٠٠٨
قُرْشاي	التاسعة والثمانون	١٠٤٢
الجيولوجيا او علم طبقات الارض	التسعون	١٠٥٤
نادرة	الحادية والتسعون	١٠٧١
الجمعية المشرقية	الثانية والتسعون	١٠٧٧
الفرنسيين في مصر	الثالثة والتسعون	١٠٧٩
العقائد	الرابعة والتسعون	١٠٩٢
نوادر	الخامسة والتسعون	١١٢١
التدين	السادسة والتسعون	١١٢٦















# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية

الجزء الرابع

طبع في مطبعة جريدة الحروسية بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المسامرة السابعة والستون

الجمعية المشرفية

ثم ان الخواجا فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقبله وقال  
لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالمركب فها هي فخذها  
واحفظها وهي نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته  
وغير ثيابه ورجع وكانت العربية حاضرة فركبوا جميعا الى المدرسة  
المشرفية ليلقي الشيخ فيها درسا فساروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية  
على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم  
والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ به  
حلة مصرية مما يلبسه العلماء فتنحست العيون اليه

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذاً  
 بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له  
 غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا تعظيما  
 له واجلالا وتلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه  
 الرئيس والخوارج وابنه حتى اجلسوه على كرسي قدهيئ له في وسط  
 الحلقة فكان الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاضرق راسه  
 مليا خاشعا لله تعالى ولما جلس الجميع واستقر كل في مكانه افتتح  
 الشيخ الدرس فقال بعد التعوذ والبسلة نحمدك اللهم على ما اوليتنا  
 من النعم التي لا تعد والمنن التي لا تحصى خلقت الارض والسموات  
 واسكنت فيها انواع المخلوقات الفرد الصمد لا شريك لك في الملك  
 يا مدبر الفلك ومجري النجوم انت الاول الاخر الباطن الظاهر  
 فاليك المرجع والمستند وعليك التوكل والمعتمد اللهم وفقنا لما  
 يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد فقد سألني حضرة  
 الرئيس المعظم والاساذ المخم ان اشرح بعض مسائل علمية وفنون  
 ازهرية عقلية ونقلية فلم تسعني مخالفته بل وجبت علي طاعته  
 ومخالفته مع اني اعلم من نفسي العجز عن الخوض في هذا المشرع  
 وعدم القدرة على ان احوم حول هذا المربع فارجوكم ايها السادة  
 الاساتذة والاحبار الجهابذة ان تعضوا الطرف عن المغوات وتصفحوا  
 عما يقع من الزلات فان من الواضح الغني عن البيان ان الانسان  
 محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الانسيه

ولا القلب الا انه يتقلب

واسئل الجميع ان ينظروا الى الفقير بعين الرضى والتقبل

في كل ما يفعل او يقول فقد قيل

وعين الرضى عن كل عيب كليله

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفيني واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق

بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة

والسلام ثم قال اعلموا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان

فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان يتكلم بالسريانية فالسريانية هي

اول اللغات ثم نوح اللغات الى انواع فجعل افسحها وافضلها اللغة

العربية فنريد التكلم في طرف ما يتعلق بها فنقول ان اول من

تكلم باللغة العربية نبي الله اسماعيل بن نبي الله ابراهيم الخليل عليهما

السلام ثم ما زالت تسع جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط

بها من ائمة اللغة الا التليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم بي ان املي

عليكم منها بعض دروس تكون لغياهب غوامضها كالشموس فما

وجدت اقرب من الدواوين التي تشتمل على ما كانت تستعمله

العرب في تغزلاتهم وما كانوا يقولونه في حلولهم وبتغلاتهم ورأيت من

احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل

شاعر فوق الغبراء وهو امرء القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور واسمه جندح بن حمير بن عمرو وجندح بضم اوه وثأثه  
 وسكون ثانيه على وزن قنفذ ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت  
 الواثا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومهلل وامرء القيس لقبه  
 وكنيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذي الفروح لقوله في  
 بعض قصائده

وبدلت فرحا داميا بعد صحة

لعل منايانا تحولن ابؤسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

( اذود القوافي عني زيادا )

ومعنى امرء القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في  
 اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لضم فنسب اليه ولهذا كان  
 الاصمعي يكره ان يروي قوله الاثني

عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل

فكان يقول يا امرء الله وكان ابوء حجر طرده في صغره من  
 اجل غنيزة التي كان يتشيب بها فلما طرده صار يتقلب في احياء  
 العرب ويتبع صعاليكم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني  
 امد فغضبهم عسفا شديدا فتمالأوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل  
 ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرا  
 وحملني ثقل الثار كبيرا وقام في اخذ ثار ابيه في خبر طويل سننكم  
 عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب ثار ابيه الى ان وصل

اتقرة قطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب  
وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك  
وفيها يقول

اجارتنا ان الخطوب تنوبُ \* واني مقيم ما اقام عسيبُ  
اجارتنا انا غريبان ههنا \* وكل غريب للغريب نسيبُ  
فان تصليني تسعدي بمودتي \* وان تقطعيني فالغريب غريبُ  
فلما مات دفن بجانبها وكان اخر ما تكلم به ( رب طعنه  
منعجرة وخطبة مستحضرة وجفنة مدعثة وقصيدة محبرة تبقى غداً  
بانقرة ( المنعجرة ) في الاصل الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة  
بالجفنة التي يسيل منها الوداء وهو الدهن والجفنة القصعة الصغيرة  
والمدعثة المكسورة والمحبرة المحسنة واتقرة بفتح الهمزة وسكون النون  
وكسر القاف معرب انكوريه وهي عمودية التي مات بها امرء  
القيس ثم شرع ياتي عليهم من حفظه ويتألق في تعبيره ونظمه  
ويجمل ويوضح ويكني ويصرح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل  
وكان من جملة ما القاه عليهم عند الكلام على قول امرئ  
القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوا بين الدخول فحومل

ان قال ان الالف في قفا يجمل ان تكون للثنية لان  
العادة ان اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرفقة ادنى ما تكون ثلاثة ويجهل ان يكون الخطاب  
لواحد وانما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور السنتهم عليه  
كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان از دجر

وان ترعياني احم عرضا ممنعا

وان تكون مبدلة من نون التوكيد والاصل فنن فابدلها  
ألفا في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويجهل ان المراد تكرير  
الامر مرتين والاصل قف قف فالحق الالف اشارة دالة على ان  
المراد ذلك كما قالوه في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال رب  
ارجعون ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو  
علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارا والدخول بفتح الدال  
اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الاعلى  
مثنى او مجموع كقولك المال بينهما والدار بين الاخوة وكقوله  
سوتي اليك نفي لديك هجوعي

فارقتني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلا بد من العطف عليه بحرف مشرك  
وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو  
الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع  
على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على  
متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعه للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشترطنا في لفظه بين  
ان لا تدخل الاعلى متعدد فما تضع في قول القرآن في صفة  
المنافقين مذبيين بين ذلك فان لفظ ذالا يشار به الا الى مفرد  
فقال له الشيخ لو دقت النظر لوجدت الجواب واضحاً وذلك  
ان اسم الاشارة وان كان مفرداً لفظاً لكنه متعدد معنى لانه ادى  
تأدية شيئين وناب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل  
بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية  
بين ذينك الفريقين ونظيره لفظه احد في قوله تعالى لا نفرق بين  
احد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الا انها  
تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع وما يدل على ان  
اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابته في باب ظن عن المفعولين  
نحو ظننت ذلك فلنخص من هذا ان بين لا يتبع بعدها الا متعدد  
او ما يؤدي تأدية المتعدد فقال له اخر اذا كان كذلك فحيث  
لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو

فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين  
الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً  
• للشاربين

فقال ذلك السائل فما تقول في قوله تعالى حكاية عن قول  
فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه فان بين الثانية  
مضافة لضهير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبينك ايما الاحلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بيني  
 وبينك فان بين في الموضوعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني  
 ضمير المخاطب فلمَ جاز ذلك ولم يميزان يقال المال بين زيد وبين  
 اخيه فقال الفرق بين الموضوعين ان المعطوف في الايات قد عطف  
 على المضمرة المجرور وقد شرط جمهور النحويين في العطف عليه  
 تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يميزون مررت بك  
 وزيد ولهذا الحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي  
 تسألون به والارحام عطفاً على الضمير المجرور حتى قال بعضهم  
 لو اني صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه  
 الجر بان الواو للتسم فيكون الباري سبحانه قد اقسام بالارحام تنويهاً  
 بفضلها وتنبيهاً على تاكد حتمها ووجوب رعايتها ثم سمع الشيخ رجلاً  
 من وسط الحلقة يقول

وبيننا المرء في الاحياء مغتبط

اذ صار في الرسم تعفوه الاعاصيرُ

كانه يعرض بالاعتراض على الشيخ في اشتراطه في لفظ بين

ان تضاف الى متعدد

فقال الشيخ ليس يبدع ان يتغير حكم كلمة بتغيير ما تضم اليه

لان التركيب يزيل الاشياء عن اصولها ويحيلها عن اوضاعها ألا

ترى ان ربّ الحجارّة لا يليها الا الاسم كقولك ربّ اخ لم تلده امك

فاذا اتصلت بها ما شيرت حكمها ووليها الفعل كقوله تعالى ربنا



يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وكذلك لم الجازمة فانها حرف  
فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضا صارت اسما في بعض المواضع  
بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قلّ وطال فانها فعلان لا  
يستغنيان عن الفاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل  
لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظا او تقديرا  
وهذان الفعلان لما دخلت عليهما ما الزائدة وتركت معهما استغنيا  
عن الفاعل وجاز ان يليهما الفعل نحو قولك طال ما زرتك وقلّ  
ما هجرتك وكذلك لم اشياء تختلف اسماءها باختلاف اوصافها فانهم  
لا يقولون للقدح كأس الا اذا كان فيه شراب ولا للبئر ركية الا  
اذا كان فيها ماء ولا للدلو سجيل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا  
يقال له ذنوب الا اذا كان ملانا ولا يقال للبستان حديقة الا اذا  
كان عليه حائط ولا للاناء كوز الا اذا كانت عليه عروة والا  
فهو كوب ولا للعباس ناد الا وفيه اهله ولا للمرأة ظبينة الا وهي  
في الهودج ولا للستر خدر الا اذا اشتبل على امرأة ولا للقدح سهم  
الا اذا كان فيه نصل وريش ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذا  
ولا للخيط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا لماء الفم رضاب الا ما  
دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه  
الطعام والا فهو خوان ومثل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار  
اللغة العربية التي لم يطالع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتضلع  
من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالذائد  
مع ان له كلاما كثيرا غيرها

فقال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما  
اختاره وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول  
دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل \* لعب المشيب برأسه فبكي

وقول ابي تميم انا ابن قولي

نقل فوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى

وحنيه ابدأ لاول منزل

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه \* ان يعادي طرف من رما

لك ان تبدي لنا حسنا \* ولنا ان نعمل المحدفا

فقال له اخر وكان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان

دعبلا سرق معنى بيته السابق يعني قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم

بن الوليد

مستعبر بيكي على دمنة \* ورأسه يضحك منه المشيب

فقال له الشيخ نعم الا ان دعبلجا جاء به اجود فصار احق به

منه وقد تفنن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فثمة قول بعضهم

تسم الشيب بذقن الفتى \* يوجب سخ الدمع من جفنه  
 حسب الفتى بعد الصبا ذلة \* أن يضحك الشيب على ذقنه  
 ولما علم الشيخ أن لهم بفن البديع بعض المام قال وفي هذه  
 الآيات عند علماء البديع من الجناس أيهام التضاد وهو الجمع بين  
 معنيين غير متقابلين بلفظين يوهان ذلك وذلك لأن المراد من  
 ضحك المشيب وتسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا  
 سخ الدمع وإنما يقابله بلفظه فلذلك سي بإيهام التضاد وكلما كثر  
 عدد المقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيئين  
 كالآيات المتقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يعني المال والمجد مقبل

ولا الخجل يعني المال والمجد مدير

وقد تكون بين أربعة كقوله

قابلتهم بالرضى والبشر منشرحا

ولوا غضابا قينا حزني لغيظهم

وقد تكون بين خمسة وخمسة كقوله

ازورهم وسواد الليل يشفع لي

واثنى وبياض الصبح يغري بي

وكتوله

راحت تحب دجى شبابِ مظلّم

وغدت تعاف ضحى مشيبِ نيرِ

وقد تكون بين ستة وستة كقولاه

على رأس عبد تاج عزِ يزينه

وفي رجل حرٍ قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم نسع ان هذه القصيدة وهي قفا

نبك الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب

تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر

في اقصى الارض فلا يعبأ به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة

فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخراً لقائله

وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به فكانت العرب في الجاهلية تجتمع

في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول

شعر علق على الكعبة شعرا مرىء القيس هذا فعلقه على ركن من

اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا

قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اختار بعض امرائهم

منها سبعة فسميت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر

الطويل وعدتها ثمانون بيتاً الا بيتا والثانية لطرفة ابن العبد وهي

من الطويل ايضاً ومطلعها

ره اطلال بيرة شهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد  
وقوفاً بها صحبي علي مطيم يقولون لا تهلك اسي وتجلد

وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلى المزني وهي من الطويل ومطلعها  
أمن ام اوفى دمنة لم تكلم بمجومانة الدراج فالثلثم  
ودار لها بالرقمتين كانها مراجيع وشم في نواشر معصم

وهي اثنان وستون بيتا

والرابعة للبيد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها  
عفت الديار محلها فمقامها بنى تأبد غوها فرجامها  
فمدافع الريان عرى سهمها خلقا كماضن الوحي سلامها

وهي سبعة وثمانون بيتاً

والخامسة لعمر بن كئثوم من الوافر ومطلعها  
الا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الابندرنا  
مشعشة كأن الحصى فيها اذا ما الماء خالطها سفينا

وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها  
هل عادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم  
يا دار عبله بالجواء تكلم وعي صباحاً دار عبله واسلي

وهي خمسة وسبعون بيتاً

والسابعة للحارث بن حلزة الشكري من الخفيف ومطلعها

اذنمتا بينها اسماء ربنا ويل منه الثواء  
 بعد عهد لنا ببرقة شيا • فادنى ديارها الخالصاء  
 وهي ثمانون بيتاً

• وكان سبب انشاء امرى القيس قصيدته هذه انه كان  
 يعشق عذيرة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقائها ووصالها فانتظر  
 ضمن الحى وتخلف عن الرجال حتى اذا طمعت النساء فسبتهن  
 الى الغدير المسمى دارة جملج واستخفى هناك اذ علم انهن اذا  
 وردن هذا الماء اغتسلن فيه فلما وردت عذيرة والعذارى  
 اللواتي كن معها ونضون ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرى  
 القيس وجمع ثيابهن وجلس عليها فلما رأته اكبرن هذا الامر  
 وشق ذلك عليهن وناشدنه ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع  
 اليهن ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عواري فخاصمه زماناً طويلاً  
 من النهار فأبى الا ابرار قسمه فخرجت اليه او قمهن فرمى بثيابها اليها  
 ثم تابعن حتى بقيت عذيرة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام  
 لا بد لك من ان تفعلي مثل ما فعلن فخرجت اليه فراها مقبلة  
 ومدبرة فلما لبسن ثيابهن اخذن في عذبه وقتلن له قد جوعتنا  
 واخرتنا عن الحى فقال لمن لو عقرت راحلتي لكن انا كان فقلن نعم  
 فعقر راحلته ونجزها وجمعت الاماء الحطب وجعلن يشنوين اللحم  
 وياكلن الى ان شبعن وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما  
 ارتحلن اقتسمن امتعته فبقي هو فقال لعذيرة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان تحمليني واحث عليها صواعبها ان تحمها على مقدم هودجها  
فحملته فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشير الى ذلك  
كله في قصيدته ومع علو منزلة امرئ القيس في البلاغة  
وشهادة الاولين والآخرين له بذلك فهو قائد الشعراء الى النار  
يوم القيامة لان ابامرة اغراء على قبائح صارت سنة عنه وصار قدوة  
فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين  
حتى نبعث رسولا فتعذبه من بين اهل الفترة لحكم يعلمها  
الباري سبحانه

واستمر الشيخ يتفهم بلحه الى ان جاء الوقت المقدر لتقيام  
وكاد من كثرة ما لقي عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم  
جلالته وملأت قلوبهم مهابته لرقه تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه  
وغزارة علمه فلما ختم الدرس وجهلى على النبي صلى الله عليه وسلم  
قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم  
في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون به الى ان وصلوا محلا  
قد اعد للاستراحة فخلصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في  
نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء  
الدرس فلما شربوا التهوية قال قد ذكرت لنا ايها الاستاذ ان  
العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم ونثرهم الا بعد  
شهادة قريش لهم فبن قريش وما قدر ما حازوه من فنون  
الادب حتى اذعن لهم جميع العرب

فقال الشيخ قد سألت عن علاصيتهم وشاع وانتشر فخرهم  
 في البقاع خلاصة ولد قنطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم  
 نزل القرآن قوم كانت البلاغة شعارهم والفضاحة دثارهم  
 حازوا الفضائل تفصيلاً وجملاً واحسبوها نهلاً وعلاً قويم قد  
 تباعدوا عن عننة تميم وتلتة بهراء وكشكشة ربعة وكسكسة بكر  
 وططمانية حمير وغنمة قضاة فقال ما ذلك ايها الخبر لقد زدني  
 تشوقاً لبيانك وتطلعاً لتبيانك

فقال اما عننة تميم فانهم يبدلون من الهمزة عيناً ومنه قوله  
 اعن توسمت من خرقاء منزلة

ماء الصباية من عينيك مسجوم

يريد ائن توسمت

واما كشكشة ربعة فانهم يبدلون كاف المخاطبة شيئاً فيقولون  
 ما بش وما لش يريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله  
 فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظم الساق منش دقيق

ومنهم من يقلب الباء ميماً والميم باء اذا كانا في اول الاسم  
 فيقولون في نحو بكر وبجر وبدر مكر ومدر وفي نحو مسجد  
 ومعبد بسجد وبعبد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني  
 وكان يتكلم بتلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي ممن  
 الرجل فقلت من مازن فقال من اي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربعة



فقلت له من مازن ربيعة فكلمني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان  
اسم الشيخ بكر قال فكرمت ان اجيبه بلغة قومي كراهة ان واجهه  
بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين فظن لما قصدته وكان من  
الفتنة بمكان ومن فطنته ما حكى انه كان بحضرتة جارية تغنيه

### قول القائل

أظلم ان مصابكم رجلا اهدى السلام تحية ظلم  
فاختلف من بالحضرة في رجل فمنهم من نصبه على انه  
اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها والجمارية مصرة على ان شيخها  
ابا عثمان المازني لقضا اياه بالنصب فسأله عنه فقال الوجه النصب  
فقال ولم ذلك فقال لان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فعارضه  
بعض من بالمجاس فقال له المازني هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا  
ظلم فرجلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام معلى ان  
تقول ظلم فتم الكلام فاستحسن الواصل الجواب وامر المازني بالف  
دينار واما كسكسة بكر فانهم يزيدون على كاف المؤنثة سينا عند  
الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس  
واما غنمة قضاة فصوت لا يفهم تقطيع حروفه

واما طمطائية حمير فهي ما في لغتهم من الكلمات المستنكرة  
فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام منها فيقولون طاب  
ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ماروي عن النبي صلى الله  
عليه وسلم لما سأل سائل وكان حميريا امن امبراصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم  
ليس من امبراه صيام في امسفر واما تثلثة بهراء فانهم يكسرون حرف  
المضارعة فيقولون انت تعلم بكسر التاء ونحن نعلم بكسر النون وهو  
يعلم بكسر الياء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولم سميت قريش قريشاً  
فقال له لان القرش في اللغة يطلق على دابة من دواب البحر تغلب  
ولا تغلب فسمي احد اجدادهم قريشاً تشبيهاً بتلك الدابة وكل من  
كان ينتهي نسبه اليه يسمي قريشياً .

وقد اختلف المؤرخون في ذلك الجذ الذي لقب بقريش  
فقيل هو فهر بن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما  
قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهر جماعتها والاكثرون النضر  
فقال السائل وحيث كان هذا الجذ عظيماً فلم يصغر اسمه فقال  
الشيخ تصغيره ليس للتخفيف بل للتعظيم على حد قول التائل  
ما قلت حبيبي من التخفيف

بل يعظم اسم الشيء بالتصغير

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغير التثخيف قال  
نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتثخيره كقولهم في رجل  
رجيل وفي دار دويبة واما لتكبيره وتهويله كقولهم لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم

دويبة تصفر منها الانامل

واما التنقيصه كما يقال لم يبق من بيت المال الا دينيرات واما

لتقريبه كقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل

وانت اذا استدبرته سد فرجه

بضاف فويق الارض ليس باعزل

اي بذيل طويل فضايف صفة لموصوف محذوف وكقولك ازورك

بعيد العيد وجاءني فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف

بمعنى التقريب

واما لآكرامه والشقة عليه كقولك يا بني وياخي وكقول

ثمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك القوم شرفاً على

سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة

من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفاني من قريش فانا

خيار من خيار من خيار فقال له كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل

وقدمضى له من الزمن اجيال فقال له ان العرب عموماً من عاداتهم

المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيد العالمين

وصفوة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد

المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن

كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن إد بن أد بن ادد بن اليسع بن المهيسع بن سلامان بن نبت بن حم بن قيزار ابن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام لكن النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو المجد المتم عشرين وما زاد على ذلك الى اسماعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع بعضهم اباؤه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتها وهما

علقت شفيحاً هال عقلي قرانه

كتاب مبين كسب لي غرائبه

فدى معشر نفسي كرام خيرة مدا الفهم مذ نيل مجد عواقبه  
فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيحاً  
اشارة الى جده شيبه الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة  
لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح له باب في الكلام يطنب فيه  
ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين  
اسكنه ابراهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وجد بها قبائل من  
جرهم بن فحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اسماعيل تزوج منهم  
امراً فولد له منها اثني عشر ولداً ذكراً فتبيل لهم ولذريتهم العرب  
المستعربة وانما قبيل طم ذلك لان لغة اسماعيل كانت عبرانية فلما  
تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بجلاف العاربة فمعناه المتأصلة في العربية وكان قبل جرم بن قحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم باليامية من جزيرة العرب ولكنهم اتقروا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم ينقل عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم ظلوم جعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعليها حتى يدخل هو عليها فأنفت جديس من ذلك ودبروا في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعاما دعوه اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم فقتلوا الملك ومن لحموه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فسار ملك اليمن الى جديس ووقع بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبق لطمس ولا لجديس بعد ذلك ذكر فلذلك سميت العرب البائدة ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتبادم عهدهم وهم عاد وثمود وجرم الاولى وكانت على عهد عاد

فلما اطنب الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفصيل عنصرهم ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب النخل من المتأخرين والمتقدمين على ان القران عربي مع اننا نجد

فيه الفاظ منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الاراتك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرور وكالجبث فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالدري فان معناه المضيء وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالاباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هيئة ونحو سرادق فانها سريانية ايضا واصلها سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حصب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك تخنك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طارية ومعناها البارد المتن ونحو القوم فانها عبرية ومعناها الخنطة ونحو القسطاس فانها رومية ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خفت عليه فاتقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فاما من لغة الا ونجد منها في القرآن الفاظاً

فقال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب متسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا انه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانع من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القرآن من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عدّها وهذا لا يخرج القرآن عن كونه عربياً فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرج عن كونه عربياً  
الأتري ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها  
فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة  
وقوع مثل هذه الكلمات في القرآن وان كان كل كتاب انما  
نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين  
والاخرين ونبأ كل شيء ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة  
الى انواع اللغات والالسنه لتتم احاطته بكل شيء وايضا فان  
النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون  
في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه  
فاخير له من كل لغة اعزبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب  
وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل  
غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربتها بالسنتها  
وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل  
القرآن وقد اخلطت هذه الكلمات بكلامهم فمانزل القرآن الا  
بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار  
والعلل والنهل فبمعنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي  
يلبي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا  
يلبي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للاهبل  
والعلل الشرب الثاني لان الاهبل تشرب مرتين في العرصة  
الواحدة الاولى نهل والثانية عال وهذه الالفاظ من جملة الفاظ







الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية  
 الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو الحجاج وابو كلثوم  
 وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطام ثلاث وكنية  
 الفهري ابو ذكري وكنية الفنفد ابو سفيان وابو الشوك وكنية الكركي  
 ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود  
 وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود  
 وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية المهدد ابو الاخيار  
 الى غير ذلك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال الحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعشت ارواحنا  
 وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان  
 من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسيليا فقال  
 للشيخ اريد ان تشرفني غداً انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب  
 فقال له الشيخ يكون ذلك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى  
 المنزل وكان الشيخ لم يصل الفرض الذي عليه فلما انصرف  
 الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتموضاً وصلى ثم التفت الى ولده وقال  
 كيف كان الدرس فقال ما رأيتك في جلاله مثل ما رأيتك  
 في هذا اليوم ولقد كان قلبي في هذا الامر يخفق ولساني من  
 هيبة المجلس يكاد ان لا ينطق الى ان افتتح الدرس فانجلى ما بي  
 وذهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسر بان  
 الماء او الدواء اذا وافق الداء ولقد رأيتك تارة تتأني في الكلام

وتطنب في توضيح المرام وتقيط عن مجذرات المسائل الحجاب وتكشف  
 عن وجوه مشكلاتها الثقاب ولعمري لقد سررت في هذا اليوم  
 اكثر من فرح الاطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت اهل الجمع  
 كلم يثنون وبفضلك يعترفون فاجدلك مثلاً الا كما قال القائل  
 غموض الشيء حين تذب عنه      ثقل ناصر الخصم المحقق  
 تضيق عقول مستمعيه عنه      فيقضي للعجل على المدقق  
 فضمه والده اليه وقبله بين عينيه وانشد  
 ما ابيض وجه المرء في طلب العلا

حتى تسود وجهه في المبدأ

ثم قال وانا اخبرك بما حصل لي وهو اني كنت قبل قدومي  
 عليهم احسب مجلسهم لا يعتريني منه ادنى نخيل ولا ير بفكري منه  
 وجل فلما قدمت اليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعاً اعتراني  
 بعض فتور وخشيت ان يفرط مني بعض هفوات فيتوهوا في  
 القصور فلما استعدت بالله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي  
 ميدان الخطاب وقد استغربت مهاتي لهذا المخصر مع اني كثيراً ما  
 قرأت دروساً في جمع اعظم من هذا بالازهر وقد تم المجلس بفضل  
 ذي الجلال والحمد لله على كل حال واريد الان ان ارج بدني  
 لان الخواجا في انتظاري للخروج الليلة للتنزه فان كان لك غرض  
 في الخروج معنا فقم ادّ فرضك وارح بدنك

المسامرة النامية والنسعون

البركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عند أبيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب  
 الى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب ان يدخل فأبى وقال انما  
 جئت لاخبرك بان والدي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخواجا  
 للنزهة وقد اذن لي في الخروج معه وان حضرة الخواجا في انتظاره  
 فهل انت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتى لولا العذر  
 وكان ابن الشيخ حريصاً على صحبة يعقوب لما كان ليعقوب  
 من العلم بالامور لكثرة تفرقه واسفاره فكان دائماً يستفيد منه  
 معلومات تتحسن بها آدابه وكان كل منهما يأنس بالآخر فلذا  
 قال ابن الشيخ ان لم تكن معنا فلست بتوجه معهم  
 فقال يعقوب لا يليق بك ذلك واظن انهم عازمون على

التوجه الى التياتر فتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد  
 نستأذن ونتوجه نحو العين التي كنا بها سابقاً واتم لك هناك ما  
 كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئاً  
 للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارها والعربة حاضرة  
 مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما  
 فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نمر به فنستفيد منه علماً  
 فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد  
 ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله عني خيراً فان لكبر السن حكماً  
 وللعادة احكاماً وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود  
 فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل فكدت صحیح  
 الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة  
 احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب  
 طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للفسحة فلاجل  
 تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علمي بان هذه  
 عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصاً مع برودة البلاط وعدم الحائل  
 الكثيف الذي يمنع بردهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم  
 اربعين يوماً صار منهم فكنت اخرج من منزلي اول النهار الى  
 الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الا ليلاً بل لا اتحول  
 من مكاني الا لأزالة ضرورة او اداء عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلساً واحداً للمطالعة حتى ينتصف الليل فانام مكاني  
وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض  
وتسلطت على جسيمي الاستقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلي  
بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز  
فان الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب  
ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السياحة  
 واجتمعت بحضرتكم داخلي النشاط ودبت الصحة في جسيمي بسبب  
كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم  
اكره عدم الحركة حتى اذا كنت منفرداً في غرفتي اراني احب القيام  
والمشي فاقوم لانظر من الشايك واطلع على الاحوال فانا احمد  
الله واشكره كثيراً على الاجتماع بحضرتكم وقد ادركت للسياحة  
فوائد كثيرة حجة غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع  
وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال

لو كان في شرف المأوى بلوغ منى

لم تبحر الشمس يوماًدارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة

العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله

فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكرهوا الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا بكرة استعماله بحال  
فهو أكثر نفعاً ثم مشياً وابن الشيخ خلفهما واستمرا في الكلام على  
الحركة

فقال الخواج لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والتعود  
يفيت المقصود والتعود على الحركة ما يتوي البدن ويبرى كثيراً  
من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما  
كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم  
وكثرة العلل وما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى  
حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر  
الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض  
تدور حول الشمس وبالحجلة فلا شيء من العالم بثابت مطلقاً  
فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار  
وغيرها ما لا يعلم كنهه الا مكنونه يتحرك بحملته فضلاً عن حركة  
اجزائه صغيراً وكبيراً وما ذلك الا للحكمة بالغة اقتضتها ارادة  
مدبر الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية  
تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر يبلغ اودع في جوفها  
وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على  
ان السماوات دائماً في حركة فليس الحكم بالحركة خاصاً بالاجسام  
الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولغيرها حتى الجبال والبحار  
وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشقت في قدم الزمان

وتهددت وانتقلت صخورها إلى الجهات القطبية الجنوبية وبعد ان مرقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وافريقيا فكل من مر بها وتأمل هياكلها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة لحوادث عنيفة واسباب قوية ولم تزل مثل هذه الامور تحصل الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون سواحل وتارة تتراكم في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها مرور الدهر اتساعاً ويكسوها تداول الايام عمراناً وارتفاعاً فسبحان القادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال في ارض لم تكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الا للحكم بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان واغرب من ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلهما صخور ضخمة تكون على قم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجو من الحرارة والبرودة والامطار والثلوج والرياح فتتفتت وينقلها السيل وتنسفها الرياح فتارة تأتي في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضاً ويخصب ما كان مجذباً وتارة تلتقي في البحر فتتراكم فيه وتعظم حتى تحوله عن



موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلط على الجبال ما اثر فيها  
 ففتتها رمالاً وحصى ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى  
 حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري  
 الانهر والنجبان ومصابها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر  
 انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت بجريانها ومن امعن النظر  
 وتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن  
 مجاريها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضاً ذات مزارع  
 وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر الجبرية فقد  
 قالوا انها انما تكونت ما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان  
 ما يجلبه نهر الطونة والرین من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد  
 مصبها وكذلك نهر المسيسيبي بامريكا فانه لضعف جريانه لا يقوى  
 على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة  
 ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة  
 دفعه وسرعة جريانه لا يبقى في قراره شيئاً مما يأتي به بل يأخذه  
 معه حتى يلقيه على شاطئ البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب  
 ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكوّنت عنه ارض تبلغ مائتي ميل  
 وهناك اسباب اخرى لا ندرکها تحدث احياناً بظاهر الهكرة الارضية  
 فانا نجد في بعض الجهات ارضاً قد ارتفعت شيئاً فشيئاً واخرى  
 قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندرکها لطول الزمن الذي  
 مرّ عليها فلواطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول خلقها الى الان دائماً في حركة وتموج كتموج المياه فينخفض ما كان مرتفعاً ويرتفع ما كان منخفضاً وقد استدلو على ذلك باخطاط ما بين مدينة صور وثغر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفاً عن الحيوانات التي غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعنها الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيراً من المين القديمة صارت الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا ايضا ما يدل على ان كرة الارض دائماً في حركة ومن ذلك تأثير الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعقد سحاباً ثم يسير الى الجهة التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائعاً او متجمداً ثم ينفذ لناخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب وبالجملة فلم يخلق الله شيئاً الا وفيه سرٌّ وله حركة اما على انفراده واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى شيء من المخلوقات لاستغرق فيه العمر ولا يفضى به الحال الى تفويض العلم بالحقيقة الى من لله الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسخه يد الزمان والمحتمه في  
النسخ بغير كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان  
الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية  
والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي  
الذراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فافتضت حكمته تعالى  
انه اذا اتصلت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان  
الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدثت المواليد الثلاثة التي هي  
المعدن والحيوان والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الا بحركة  
اتصال الآباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت  
كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الا انها متولدة عن غيرها ايضا  
لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن النار ثم اتصلت  
بالرطوبة فانتجنا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فانتجنا ركن  
الماء ثم اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن التراب فحصل في الابناء حقائق  
الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الاب  
ويبوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة  
من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لو كسانبور  
وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلقا  
كثيرا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخبروا للجلوس  
ناحية منه قد راق منظرها وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينها هامية فالوا الى ذلك الموضع فكانوا بحيث  
 يرون كل من يمر عليه فحجب الشيخ من كثرة المارين واختلاف  
 حياتهم

فقال الانكليزي لو تأملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السنتهم  
 واجناسهم واللوانهم وسألنا كل واحد منهم على حدته عن قطره  
 وبلدته واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من  
 هندي وصيني وتركي وشامي وغير ذلك وها هو حضرتكم مصري  
 والمغربي انكليزي قد فارقنا الاوطان وجمعنا هذا المكان فلولا الحركة  
 في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى  
 ولد ولد ولده وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك  
 انواع النبات والحيوان فانها تنتقل من جهة الى جهة ومن قطر  
 الى قطر اثنا النبات لا يتقل حالة كونه نباتا بل بذره هو الذي  
 يتقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فيلقيه في ارض غير ارضه  
 وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواصل الطير فاءذا  
 انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت ولعل هذا معنى ما قيل  
 ان ربع ما على الكرة الارضية من النبات لبذره اجمحة او شبه  
 الاجمحة فيطير بمعونة الهواء حتى اذا سكن وقع فينبت حيثما استقر  
 ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضا السيل والمخجان  
 والبهار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائره انواعا من الفاكهة  
 والنوا واغصان الشجر ويسير بها حتى يلتقيها في مواضع غير

مواضعها فتنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان نبات ارض قد  
ظهر فجأة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل  
وتوارىخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يتبع في حركته  
حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في  
ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها اليها وكذلك  
جميع ما بالاخري فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر  
والاموز والقطن والكمان والتيل والفول والقناه جميعها اصل  
منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثنين الاخيرين لم يدخلوا  
بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه  
وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة  
الاقتيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها  
لا تنثر الا في جهات خاصة جعل لحكمته الباهرة وقدرته البالغة  
نباتات اخرى ثمر في كل ارض ولا تخصص بجهة دون جهة  
وذلك كالمخنطة والشعير والقطاني ونحوها فان انواع النبات عموماً  
تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعاً صالحاً للغذاء وصالحاً  
لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بجمرة الشمس  
كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على  
وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى  
سائر الجهات لما روي من ان ادم لما اكل من الشجرة التي نهي عن

فربانها واهبط الى الارض كان نزوله بتلك الجهة فلم صنعة الحديد وامر بالمحراث فحراث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز واكل فلما حضرته الوفاة احاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبيته هذه ستكم من بعده فهذا الاثر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحويان كان موجوداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال يتشرب من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك ما تيسر وذهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهيم نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمال الحويان فيها والمصريون ينسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس وواقفهم على ذلك سكان البيرو من امريكا في الذرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثني عشر الف قدم والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الا من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسبا وانا وان كنا نحزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكننا لا

ندري متى نزل ولا في اي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول اليها فنحو الخوخ والبرقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو البرنقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريكا وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر المتوسط

ثم صاروا كل ما ننج بارضهم شبيء زرعوه فيما استولوا عليه من الاقطار ولذلك لا تجد في اوروبا شيئا من الحبوب والفواكه الا في امريكا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بجزيرتي مدير وكناريا وسائر البلاد القبلية من افريقيا وامريكا وكذلك القطن والارز بجهات برزيليا والابيازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب والقرنفل بجزيرة موريس وجزيرة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي ببرزيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب السكر والنخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونيا زرع الشاي من الصينيين واما البر والشعير فوجودها باوروبا قديم وفي كلام بعض قدماء المؤرخين والشعرا ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقيا اهل  
الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحدث فيها ويقال انه منقول  
اليها من افريقيا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من  
الميلاد على يد الملك شارلمين وقد كثر بها الان حتى صار  
كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثا في اوروبا فالعرب هم الذين  
زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديما في بلاد المشرق وكان  
اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع  
عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعه عندهم حتى صار يرسل منه  
الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان بارضهم  
ولكن لم يظهر لصيصة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق  
بدليل تسمية الاوروباويين لها بقمع الترك وتسمية اليونان  
لها بقمع العرب وقد شوهد من النبات مثل الشوك ونحوه كثير نابتا  
في خلال النبات النافع في الارض التي نقل اليها نبات المحنطة  
ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع  
قد ورد اليها مع المحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك النباتات  
بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول  
مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط



وإتلاف بنوع من الألسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة  
 لاستدل العارف بذلك على من كان ساكناً بها مشرقياً كان أو  
 مغربياً وأنه باختبار النبات وتفقد احواله وتقلاته يمكن معرفة  
 تنقلات الأمم فان من النبات ما يتبع العبيد ومنها ما يتبع عرب  
 البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ  
 الأرض التي انتقل إليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي  
 وغيره وذلك كالحرفوش والخوخ فانها لما انتقلا الى الجهات الجنوبية  
 من امريكا كثيرا بها ومنعا ما عداها حتى ضاقت المراعي على  
 ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر  
 فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد  
 الصين ارض يقولون ان جميع ما بها من النبات منقول اليها ولم  
 يبقَ بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق  
 انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والخوخ والسريرز  
 (الكرز) والذي نقل البرتقان والليون الى اوروبا هم العرب  
 ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب  
 خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فتجدها  
 باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذيدة الطعم بعد ان كانت  
 دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب  
 ان كل شيء انتقل الى مكان غالب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تأثيراً في  
الطباع

وقال بعض المؤرخين ان لكل ارض نباتا ينسب اليها فينسبون  
الدخان والبطاطس الى امريكا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم  
الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الاندلسيين ايام تملكهم وجدوه  
مستعملا في التحضيرات الكيماوية عند اهل مكسيك وكان قبل  
ذلك معلوما بين اهالي الصين وجاوى ولم يدخل اوروبا الا سنة  
الف وخمسة وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان  
مستعملاً باجزاياتهم فقط فلا بد انه كان معروفاً ببلاد اسيا  
قبل استكشاف امريكا بزمن طويل

وقد تبين لك ما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض  
لا بد ان يغير حالة الارض كما يغير بذلك طبيعة النبات وتبين  
ان تنقلات الحيوان والنبات تابعة في الغالب لمن سكن الارض  
لما بينها وبين الانسان من الارتباط التام اذ بهما بقاء بنيتهم وقضاء  
اوطارهم وستر عورتهم وقد وقف كثير من الناس عند ظواهر الاشياء  
فزعوا ان الحيوان لا يتقل من الارض التي خلق بها وليس هذا  
الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة  
للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان  
الماضية لسكوت المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن  
تنقلات الادميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من ان اول عمارة بني آدم الارض كانت بالمشرق  
يمكن ان يقال ان وجود جميع الحيوانات كان بالمشرق ثم انتقلت  
الى المغرب

وقد قال المؤرخون ان الخلق كانوا اول امرهم عشائر رعاة  
ثم تفرقوا فلا مانع من ان تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك  
وبالجملة فالحيوان والنبات كل منهما ينتقل باسباب ووسائط  
دبرها الخالق جلت قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل  
نهر او خليج ينقل في سيره الى البحر كمية عظيمة من ذوات الروح  
وكثيراً ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة  
بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها المحار والقواقع الذي  
لا يعوم وحده فتكون له كالرؤوس الذي يركب عليه في البحر  
كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الارض والحشرات  
والافاعي والدود والسبك والطبوز والقواقع ونحو ذلك راكبة فوق  
الاعشاب وغصون الاشجار العائمة في البحار فتنتقل بواسطتها  
من جهة الى جهة وكذا الهواء قد ينقل منها الوفا مولفة ويسير  
بها الى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من  
زجاج خلف مصراعي شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينها  
في مدة ستة اشهر بذر ثمانية انواع من النبات واحد عشر نوعا  
من تعاوي عش الغراب واربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد ياخذ الهوا ما هو اكبر من ذلك كالقارة والعرة والسنك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطر ببلاد فرنسا فكان كلد سماكا وكثيراً ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يد لنفسه فوق البحر خيطاً دقيقاً ثم يسير عليه مسافه ثم يد غيره ويتقل وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلاثمائة ميل ولكون تلك الحشرات لا تظهر الا في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك الخيوط تنصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة بالكهرباء فان كانت كهربية الخيط سالبة طردتها كهربية الطبقات السفلى من الجو وجذبها كهربية الطبقات العليا منه وكل هذا ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقيقة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يفقد قوته او الفه فترى الحمير الوحشية تترك بلاد التاروت وتجاوز صحاري اسيا في فصل الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي يشاطئ بحر عنال وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العجم لاجل المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي وتساخر الى الجنوب كارب بلاد السيري وفار بلاد النرويج ونحوها والدويبات الصغيرة جداً تسبح عادة متجمعة طوائف طوائف حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر انواع من الحشرات لا يعلم من اين اتت ولم يسبق لاهل تلك  
الجهات رؤيتها وعادة تأتي سائحة فوق الماء او دابة على الارض  
وكثيراً ما شوهدت الديدان تتطعم البجار العظيمة والفيافي الواسعة  
الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيء وقد اقتضت  
الحكم الازلية ان ما يؤلف يعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض  
ذلك كان مقفوداً من اوروبا الى القرن الحادي عشر ثم امتلأت  
منه مثل دود التزفانه يميل الى الاماكن التي اعتادها فلا يفارق  
مغارس التوت وهي موجودة في الهند والصين قبل ان توجد  
باوروبا وغيرها بزمان مديد واول ظهوره بالتسطنطينية كان في  
القرن السادس جلبه اليها احد التسيسين ثم نقل منها الى اليونان  
والذي ادخله ارض صقلية الملك روجير ثم منها الى باقي الارض  
والنحل تهوى الجهات الغربية ولكن الان صارت لا توجد في جهات  
جبل اورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يتمكن ان يعودوها على  
ارض السيبيري مع انها كانت غير معلومة في الامريكا الى القرن  
السابع عشر من الميلاد والان بعد استقرارها فيها اخذت في  
الازدياد حتى ملأت جميع البلاد والهند تسميها بالذباب الانكليزية  
ولم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول الناس  
بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على  
مسير المهاجرين الى الجهات الغربية

وللنمل تغلات عجيبة وهي وان كانت تظهر لغير المتأمل انها

في سيرها متفرقة غير مؤتلفة ولا منتظمة إلا أنها جيوش متتابعة  
ولا تفضل عن طريقها أصلاً بل تهتدي إلى متصدها مع الانتظام  
وهي أنواع

منها الأسود وهو كثير جداً وإذا ظهر في مكان يكاد يستر  
وجه الأرض ويأكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل  
المنازل ويملاها حتى لا يترك منها موضعاً إلا ويتلف ما به فلا  
يسع أهل المنزل حينئذ إلا فراقه

فقال الشيخ الجراد في تغلاته أكثر ضرراً وأشد أذى لأنه  
لا يبقى من الزرع ولا يذر ويقال أنها تحفر ليضمها في الرمل ومن  
حرارة الشمس يفرخ ويكبر في أقرب وقت ويكون أولاً بغير جناح  
فاذهب النسب سار به إلى حيث يبرد وكثيراً ما يملأ الفضا  
فيغطي الأرض ويجول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا أنها كذلك وسيرها من الشرق إلى الغرب  
وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاع مختلفة فتكون في إفريقية وبلاد  
الإنكليز وأرض جرمانيا وكثيراً ما حل القحط في الجهات التي  
تحل بها لأنها تهلك جميع النبات والشجر وكثيراً ما يجيء عقب ذلك  
الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رملها وكذلك السمك  
وسائر الحيوانات المائية لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج إلى أماكن  
تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن  
وكثيراً ما شوهد كلب البحر ملازماً للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش الام يتوقف على سياحة انواع من السمك فينتظرونه في زمن معين ويصيدونه ويتفنون به وذلك كالبورى والثوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسج في بلادكم وهناك نوع من السمك يسمونه اسكيري وتسميه الفرنج مكره

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المتقدم في الطين ويظهر نصفه المؤخر فاذا خرج الشتا خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل المحركة ويبيض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتجده زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضاً فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سبباً في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرج منه مادة لزجة يلتصق بها في نوع من الشجر ليصيد نوعاً من الحاربهواه وكثيراً ما شوهدت السمكة والحارة معاً فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تنارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف باليني الذي يوجد في بحار الهند الغربي واورىكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيداً عن البحر مغشياً عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش متظم فتخرج الذكور ثم الاناث

ويأخذ سعة عظيمة من الأرض نحو مائة متر ومتى اشتدت حرارة الشمس عليه استظل بالأشجار فإذا جاء الليل سار طوائف ويكون لها ديب تحس به الناس وسط النبات فإذا قربت من البحر الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة فإذا تعرض لها أحد دافعت عن نفسها ويسمع منها قرص أسنانها في مدافعتها فإن لم تنخلص بذلك تفرقت إلى جهات مختلفة ثم تنضم وقد يموت أكثرها في سياحته والطير كالسمك في التنقل بل أقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة الشمالية ويذهب إلى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره آلاف أميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغرب فإنه يكون بأوروبا على شاطئ البحر الأسود وبحر الخزر وينعق ببلاد الهند والمجهم كما ينعت بأمريكا وجزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا فلكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه أحياناً التماساً لمواد الغذاء أو فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب أمرها أنها لا تخطئ أوان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وتشاهد هذه الغريزة في المجهوس منها سواء كان مقتنعاً أو متولداً في البيوت فإنه إذا أحس بصوت أبناء جنسه حن إليه ولو خلى سبيله لساير معها وغالب الطير اللطيف لا يكثر بالبرد والمحر ولا بالثراب والبعث بل متى جاء الوقت المعلوم له هجرته إلى الأمانة المعهودة له خرج إلى تلك الجهات وإقام بها فيفرح به أهلها وتقبل إليه طباعهم



فيتلذذون بسماع تغريده ويانسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية يكون عليها ومنهاج ينهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازات فالبعض يكون منفرداً والبعض يكون مجتمعا ومنها ما يسير بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار فالأوز يسافر مجتمعا معترضا والغصفور يسير متسلسلاً والجمع يسير على هيئة شكل مثلث وإذا صادفها في سياحتها بحر قطعته طيارانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعته سباحة ومن المستغرب جداً طريقة سباحة الطير المعروف بالساني فانه اذا اراد مفارقة اوروبا الى افريقية صبر حتى تهب ربح شديدة من الشمال الغربي فاذا هبت رفع احد جناحيه كالتلع وحرك الآخر كالمجذاف وترك نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى افريقية واماكن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتبهئون لصيده ومثله اللقلق المسى عند الفرنج سيحوي فخصيفه الجهات الشمالية الباردة من اوروبا ومشتاه وطنه الاصلي من افريقيا فيسمع صوته بجهة الاهرام وغيرها وحمام امريكا الشمالية يتقل في اوقات معلومة في عدة بقاع لا يعلم سكانها من اين انى وينتشر احيانا في نواحي امريكا الشمالية والجنوبية معا واذا آن وان يبضه اجتمع ويبحث عن المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل ينتقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن اناثه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتصد البلاد الشمالية ومنه نوع تهاجر اناثه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره واما الحيوانات ذوات الثدي فلا تنتقل من بقاعها المعدة لها الا اذا جاءت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما يتقله الانسان معه كالخيل والحمر الوحشية الى حيث يستوطن من البقاع وهي التي تناسلت في التانس وعمرت منها البلاد بامريكا فانها ترحل في فصل الشتاء الى الجهات الحارة وكذلك الطيأ والفيلة مع غلظ جثتها تترك مواضعها لطلب مراتبها في الجواموس الامريكاني المتوحش ينتقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فيتبع مجاري الانهار والسيول للتماس ما يبغيه فيرضه وضعها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا يعلم احد طريق اهتدائه اليه

وللقردة طرق عجيبة في قلة كبار الانهر والخجان المتسعة

واما الحيوانات الاهلية فتتأمل تبعاً لانتقال الانسان فخيول اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالانديسيين وكذا النعم منها هناك كثير ضائناً ومعزاً وذلك بسبب تنقل الناس كما ان الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها وجود كما تقدم

وذلك كالفأر بأمريكا فإنه قبل دخول الأور وباو بين هذه البلاد لم يكن له بها وجود أصلاً

وقد تقدم أن أول بقعة وجد بها الآدمي هي أرض الهند وهناك علامات تدل على ذلك فإنها كانت في أول الزمن كثيرة النبات والخير ثم أخذت أرضها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى قل خبرها فهاجر منها أكثر ساكنيها بأسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت آخذة في العلو والاحمال حتى صارت جبالا لا تنبت فلم يبق بها ساكن ولم يزل ينتقل الإنسان من جهة إلى أخرى بحوادث داعية إلى ذلك حتى امتلأت منه الأرض وعمرت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث أودع في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه دلالة على أن الحركة أساس بدع نهار الأكوان وقيامها وقانون جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة في كل حاجاته ولكنها تكون على أنواع بحسب أنواع الحيوان وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض آخر لانه سبحانه كما نوع أحوال البقاع نوع ما لساكنيها من الطباع فليست طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن الأرض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضا يختلف باختلاف البقاع  
فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا وكلما سهلت  
طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه  
وكلما صعبت ازداد الكد والنصب فبين سكان الجبال ونحوها من  
الجهات الصعبة المحرث والغرس و (بين) سكان الارض النخصبة  
ذات الانهار والخمجان بون بعيد وتباين في الطباع والاوزاع  
وكذلك طرق التخفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة  
تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد  
بذلك قوتها ويسرع رجوع الدم الى القلب وينشأ عن ذلك  
للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد  
الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف  
بذلك قوة الانسان ويدخله الفتور ولا يقوى على العمل ولذلك  
تجد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه متى انتظمت حركة  
القلب والاياف فقد انتظمت السوائل في اتحاء الجسم وتكون  
حركة الدم نحو القلب اتم فيقوى فعله وتزيد قوته وقوته فوائد  
كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة  
الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتي قل خوف الشخص على  
نفسه كثر حبه للمحق والتماسه له واتباعه اياه اينما كان ويكون  
بعيدا عن الظنون والاهام عاليا عن الكذب والنفاق والخداع  
والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الاخلاق والطباع ما يغير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة مثلاً لو حبسنا رجلاً في مكان شديد الحرارة لنالم وهمدت قواه بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الاقدام عليه الى الجراحة لم يفعل اذ ضعف قوته يورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك تجد سكان البلاد الحارة في القوة اشبه بالشيوخ وسكان البلاد الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة الى البقاع الحارة او بالعكس لتغيرت طباع كل الى ما يناسب الجهة التي انتقل اليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائماً يكون الانسان ضخماً الخبثه قليل الهمه والشايط وسببه ان قوة الالياف ينشأ عنها استجلاب العصارة البرديئة من الغذاء فيحدث امران الاول ان جواهر الكيموس تصير صالحة لان تكسو الالياف وتغذيها فتكبر الخبثه والثاني انه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجلبه قلة اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الاحساسات في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فانها فيها قويه جدا وفي المعتدلة تكون معتدلة وكذا تختلف درجة الاحساس عند الناس باختلاف الافطار والعوارض وذلك ان اختلاف الاحساس ناشئ من كون جميع الاعصاب الوارده الى المنسوج الجلدي يتكون من كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي رقيقاً جداً واطراف الاعصاب مفتحة فتحس باقل شيء ورد عليها من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجمع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى الملح الا الاحساسات العظيمة  
المحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان القوى العقلية جميعها حاصلة  
من احساسات صغيرة فمنها ما يكون الاحساس كثيراً في البلاد  
الحارة قليلاً في غيرها والالم كذلك فانه يحصل من تنزيق بعض  
اعصاب الجلد او تفريته فكماكثر كلماكثر الالم وبالعكس ففي  
الباردة التي جنة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التنزيق  
لغظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرقه اعصابهم وجلودهم  
ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار  
الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع  
تكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل  
اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم  
اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فمعتدلو الأحوال  
مطلقاً.

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نجد البلاد الجنوبية مثل  
ايطاليا وماجاورها من البلاد الفة رجالها نساءها ليست كالفه رجال  
البلاد الشمالية الباردة بنساءها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد  
والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة اجسامهم وثقلها  
وتمام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات  
الروحية وكلما بعدوا عن القطبين وقربوا الى خط الاستواء نقص  
هذا الميل واضنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض  
 بالمشروبات الروحية كالنيذ ونحوه للائتنعاش وبث الحرارة لتنبعث  
 المحركة خيفة جمود الدم الأترى ان الماء هو الشراب المألوف عند  
 اهل المشرق من يوم خلق الله الدنيا بخلاف النيذ ونحوه فهو  
 المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تنقطع رغبتهم  
 في النسا لكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال  
 وتزداد تلك الرغبة بالتدرج بحسب البلاد الحارة ولو اخضرت اهل  
 البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصدق والحق والامانة من اهل  
 البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر  
 والمساوي فتراهم لا هم لهم الا شهوات انفسهم وطاعتها بما تقترحه  
 عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في  
 الفضائل وطورا في الرذائل يغشون كل ناد ويهيمون في كل واد  
 وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك  
 الى القوى العقلية فتتساوى لديهم الامور فلا تنبث خواطرهم الى شيء  
 ولا يهتمون بشيء ويغلب عليهم الكسل ويتهملون العذاب في  
 الدنيا بالامل ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك  
 استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى الفقراء  
 والدراروش والشماذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم  
 بما تواتر عن السياحين ان الهنود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بقعتم وقد شوهد ان من تناسل من الاور وباو بين هناك يشبه طبعه طبع الهنود دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم بحرقن انفسهن بالار بعد موت ازواجهن ومنها انهم مع ضعف قواهم ونخافة اجسامهم يتوهمون اوها ما جسيمة جداً فيتوهمون اموراً افزع من الموت فلا يبالون من الموت ولهم صبر وتجدد على انواع العذاب

وهو لا التوم مخلو اذهانهم وسلامتها عن العوارض وقابليتهم واستعدادهم لكل ما يلقي اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن غيرهم ان ثقفن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يتعلمونها ويتداولونها بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين اموراً معقولة خالية عن الاوهام والوساوس ليحبيلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة الاعلية ليس في اذهانهم شيء من التخليطات كالأطفال الذين يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكثر من الكبار الذين دخلت اذهانهم تشويشات تعظمها او تمنعها عن رسوخ التعليمات فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحرمتها ومع جهلهم وعدم وجود قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمنا طويلا حتى كسروا شوكتهم وخفضوا دولتهم ولو اضفت ضعف بنية الامم المشرقية عن العمل الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لعرفت سبب ثباتهم على



قوانينهم وعوائدهم واخلاقهم فانك لو قارنت بين ما كان في  
سالف الازمان وما هو الان لم تجد الا فرقا يسيرا ومن نامل  
احوال الامم وجد ان المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة  
الناس هم الذين اكسبوا اهل بقاعهم ما هم عليه من العوائد والاحوال  
ضرورية ان كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حين  
صارت كالجبله لم فبعض المؤسسين ساير اهل بقعته على ما هم  
عليه من رديء الخصال وسيء الاحوال فلم يزدادوا بذلك الا  
ضرراً من الفقر ونحوه والبعض رفع اهل بقعته عن الرذائل  
وحملهم على التحلي بافضائل فتحسنت احوالهم وحمدت خصالهم  
وافعالهم ففي اعتقاد الهند مثلاً ان السكون والعدم هما الاصل  
واليهاتوئول الاشياء فيرون البطالة احسن الاحوال ويستندون  
في ذلك الى اسمه تعالى الثابت لانهم فهموا ان معناه الذي لا يتحرك  
مع ان الامر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول  
ازلاً وابدأ وسكان جزيرة سيام يقولون ان المعيم الابدي هو كون  
الانسان لا يجير على الحركة واتعاب الجسم فلذلك كان السكون  
وعدم الاشتغال عندهم امراً مرغوباً فيه في تلك البلاد الحارة المضعفة  
لجميع القوى ولان الراحة عندهم امر طبيعي هو المتصود  
بالذات

فلما اسست القوانين على حسب قطرهم وما يناسب اوضاعهم  
من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعتبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسة على الاجتهاد والسعي والبحث  
على ذلك فتجد احوالهم مستحسنة وقواهم متوفرة وارزاقهم متيسرة فيبين  
الفرقيين بون بعيد مع انها متجاوران

المسامرة التاسعة والتسعون  
الاكتيزي والنوانرو والكتاب

ثم اننا وان لم نستوف الكلام في هذا الملام الا اننا محتاجون  
الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتياثر فانكم ما رأيتموه ولا  
وقفتم على حقيقة ما فيه فتساما وركبا العربة واخذنا باطراف  
الاحاديث الى ان وصلنا مكانها فنحنا كل نحو عرفته فلما خلا الشيخ  
بابنه قال له ما تقول فيما حدثنا الخواجا في هذا اليوم فقال انتم  
بذلك ادري وبالحكم فيه اخرى فقال ما قال الا حقا ولا نطق

الأصدقاً واني جلت في بحر الفكر في شان هذا الامر مدة سيرنا  
في الطريق فوجدته في مثاله صادقاً وبالحق ناظماً ما كأنه الآ  
ساح كل بقعة واثبت له فيها سجدة وركعة وعاشر من استوطنها  
من السكان في كل الازمان فانه لا ينف على تلك الاحوال  
الآ من كان هكذا من الرجال فله دره عالماً نحريراً وفاضلاً  
بالامور خبيراً حاز من كل فن طرفاً فاخذ منه ملحا وظرفاً

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات  
فاني اراه يكلم كل انسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة  
كانه في كل لغة اصيل وليس فيها بدخيل ومن مزياه انه محبوب  
عند كل من يعرفه

فقال الشيخ ان ذلك من علمه وادبه فان من تحلى بحيلة  
الادب اغناه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني قم بنا نذهب اليه فذهبا فوجدا الأكل قد  
كملت هيأته فجلسوا جميعاً يأكلون وفي خواص الاطعمة يتحدثون  
ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للفرج على التياتر فاخذ الخواجا له ولهم  
تذاكر ودخلوا فلما اخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل  
جانب فسرّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يترجم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها  
من النكات الهزلية والمجدية وفي الاوقات الخالية بين الالعب  
اجتمع بكثير ممن يعرف الخواجا فكانوا يحيمونه ويمزحونه ويؤاسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى اتقضاء اللعب فانصرف الخوaja مع  
الشيخ وولده وكان باللعب خلق كثير ما بين نساء ورجال  
وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اخن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد  
وازداد تعجبه من خلوه بالهم وانتظام حاله لانه رأى جميع اوقاتهم  
ما بين اعمال جديّة سديدة وهزليات والعباب غريبة مفيدة تكسوهم  
ثياب ثروة ونزاهة وتفيدهم علوما باحاديث الفكاكة فما يمر عليهم يوم  
من الايام الا وتزيد اعمال الثروة والنزاهة عندهم فتعطي عليهم  
الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربفة فقال الخوaja ايها  
الاستاذ ان البوسطة تتوجه غداً فان اردت ان ترسل كتاباً فخرره  
الليلة فقال له الشيخ جزيت خيراً ووقيت خيراً ثم ذهب كل  
نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان غير النوم فان  
شاء الله نحرر خطاباتنا غداً ونرسلها الى البلاد لوالدتك  
والاولاد فقبل يده وقام لينام فقابلته يعقوب بعد قضائه ما كان  
مشغولاً به فسلم كل منهما على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان  
بما رق وراق فتبكي له ما رآوه في هذه الفسحة وعن التياتر وما فيه  
من النزهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك

فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عافك عنا

وفرقك منا فقال بعثني حضرة الخواجا الى بعض اصحابه لامرهم  
فقال لئله تم على مرامه فقال نعم وقد فرح به فرحا شديداً  
واستفدت انا منه كذلك شيئاً جديداً وهو هذه الساعة فهنا  
بها ابن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن  
الشيخ لينام فلما انتبه من نومه اخذ حبرة وكاغدا ويراعا وصار يحرر  
لوالدته هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الاذيال قرب  
الله لنا ايام النداني

وبعد بث الاشواق ابدي لجنابك اني منذ فارقت مطلع  
سعودك ومرع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من  
وقت يمر علي الا وانا منتظر ورود خبر منك الي اطمئن به  
عليك وعلى الاخوة والاخوات والابام والاخوال والعمات والحالات  
ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان  
بعد الشقة يزيد لوتني وينغص خاطري وكم هاج علي الوجد وقت  
الانفراد وكم صورك الوهم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران  
ولا سيما اذا اشتد النذكار لهاتيك الديار وما كنت تغلبنه بي من  
الحنو وعطفك علي ورافتك بي فعند ذلك يهيج وجددي ويكاد  
ان يشيب من تذكاره فودي ولولا ان من الكنان المنان بصحبة  
اعز الحلان وعرفت يعقوب الذي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق  
لذبت من الم النوى واعتزني من الم الجوى ما لم اجده دول

ولعددت ثواني الغربية سنوات و دخلت جميع اوقاتي عن اللذات  
 لكن ملازمته لي وشفقتة علي وتسليته لي برائق العبارات خفف  
 عني الكروب وربما تحصلت بصحبته على كمال المرغوب مع صحة  
 البدن والنزهة في غائب الزمن ومشاهدة امور ظريفة مع ما انتسبه  
 منه بالممارسة عند المحادثة والموانسة واما صاحبنا الخواجا فلا يدع  
 في نفسي شيئاً احبه الا ويجلبه لي لان حبه لي زائد وقد بلغت حد  
 التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهيمته فجزاه المولى عني خيراً  
 فصرت الان وان لم اتحصل على درجة عظيمة في اللغة الانكليزية  
 لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي وافهم  
 ما يقال لي وقد اخذت ايضاً في تعلم اللغة الفرنسية ولست مقتصرأ  
 على ما اخبرتك به بل كل ما وقع نظري عليه او سمعته او  
 فهمته اسطره لكي اطالعك عليه حين العود الى مصر ان شا الله  
 تعالى والذي يغلب على ظني انا نقيم شهراً بباريز ثم نتوجه  
 الى بلاد الانكليز ووالي في هذه المدة فضلاً عن اشتغاله مع  
 الخواجا بقراءة بعض دروس عربية بالمدرسة المشرقية ففضله كل  
 وقت ينشر وفخره بين العلماء يزيد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير  
 الفراق وعدم ورود الخطابات الينا منكم فالمرجو عدم انقطاع  
 الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان  
 ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخواجا من المكاتبات ثم  
 ارجو تبليغ السلام الى الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقرأه بتمامه وسر  
من حسن نظامه وسلاسة مبانيه وجزالة معانيه ثم قال له ان  
كتابك فيه الكفاية فانه استوفى ما يلزمي كتابته ثم وضع اسمه  
بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد  
وبارسال رسائل مع الورد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم  
برسم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخوجا فحياها واكرم  
مناها ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة  
فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخوجا داخل  
الظرف وبرشه ثم سلم ليعقوب الظرف بها فيه فتوجه به  
الى البوسطة

ثم قال الخوجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم  
للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر  
مهم وهو ان لاحد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من  
التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا  
فلا بأس لاسيا والبلدة قريبة والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو  
من فائدة وان شئت ان تبقى ههنا ومعك يعقوب فلا مانع وان  
شأ المولى في يوم غير هذا نذهب معاً ومع كل هذا فالرأي لكم فقال  
الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع

فقال الخوجا الرأي ما ترونه واظن اني اعود قبيل الغروب  
وفي ذهابي وايابي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطركم ذهبنا جميعاً فانفقنا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول  
كل ما تيسر وقام الانكليزي وتوجه وبقي الشيخ وولده  
ويعقوب

### المسامرة المائة

#### الحفر اقية

فقال الشيخ ليعقوب قد سبق انك اخبرتنا ببعض حوادثك  
حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختك  
فهذا او ان ذلك فاذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخواجا  
ترك العربية للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربية حاضرة  
فلنركبها ونذهب لنغنم اللذتين ونكون التسلية بشيئين فنظر  
الشيخ الى ولده فرأى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسن



لأناباه ولكن انتظراني نحو ساعتين فان لي ارباً اريد قضاء فاجابه يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى شرفة يعقوب فمد يعقوب يده الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كنا في الجراول تعرني بك فقال ابن الشيخ وقد كتبت في رقعة وارسلته لوالدني فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة التي هي مثال للارض بما فيها لابن لك عليها الاقطار المعصورة من غير المعصورة وكيف تنوزع البحار عليها وحيث امهلنا حضرة الوالد ساعتين فالرأي عندي ان نصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال ابن الشيخ ان في شوقاً شديداً لمعرفة هذا السلم فقال يعقوب ستعرف ذلك قريباً ان التيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولبدء معرفة البحار المحيطة بالدنيا ويكفي الان ان تنظر لهذه الكرة ليثبت ما تراه في ذهنك

فاعلم ان جميع ما تراه على سطحها محدوداً بخطوط هو اشارة الى الارض القارة والجزائر وما سواها من سطح الكرة هو المستور بالمياه ويتكون عنها البحار المسماة باسماء مختلفة على حسب اوضاعها وهذا الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى الى اسفل الضيق الوسط العريض الطرفين هو المسمى بالدنيا الجديدة وهي الامريكتان الشمالية والجنوبية فالشمالية هي الجزء الاعلى من الشريط والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث التي يصل بعضها

بعض الممتدة بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام وتقسّم الى قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الشرقي ويعرف بأفريقية وهي قطعة من الارض منها اقليم مصر والسودان والحبشة والمنغرب وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه الى قسمين ايضا غربي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها فرانساجرمانيا والانكليز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسيا التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والترك وغيرها وجميع هذه القطع الصينية المرسومة في الجنوب الشرقي جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة وباقي هذه الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كناية عما تحصر من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقال له البحر الاطلسي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك يجتمعان ويتكون عنهما البحران النجمدان وهما النجمد الشمالي عند القطب الشمالي والنجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تأملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف الشمالي من الكرة وإن معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عشم الخير وبحر

لهند المحيط بمجائر الاوقيانوس ويتصل بمحدود افريقية واسية من  
 جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل ماء يجري  
 وسط الارض القارة من اي جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة  
 مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرع منه بحار صغيرة تخرق الاراضي  
 القارة مثل البحر المحيط قد احترق الدنيا الجديدة فتكونت بها منه  
 فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تيا وكذلك دخل منه  
 في الدنيا القديمة فروع مثل بحر يابونيا وبحر الصين وغيرها من  
 البحور وكذلك البحر المنجمد الشمالي تفرع منه فروع فمن فروعه  
 بالدنيا القديمة البير الابيض ومن فروعه بالدنيا الجديدة البحر القطبي  
 ومن فروع البحر الاطلنطي بالدنيا القديمة بحر بلنيتة والبحر المتوسط  
 الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج غينا وفي الدنيا الجديدة  
 بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من  
 بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر القلزم وبحر عومان وخليج بنجال  
 وبحر العجم

والبحر المحيط متصل بالمنجمد الشمالي في بنار بهران وبحر الهند  
 ببغازات عديدة في جزائر السند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر  
 المنجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطي بالاوقيانوس  
 وبيغاز ماجيلان

واما البحر الاطلنطي فيتصل بواسطة البحر المنجمد الشمالي

ببحر اسلاندة وبواسطة البحر المتجمد الجنوبي بالاقويانوس وتصل  
 بالبحر المحيط بالاقويانوس وبيناز مجيلان وبيجر الهند بالحجزء من  
 الاقويانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه الجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في البحر  
 الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط انقسام تلك المياه يتجه على غير  
 انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء  
 الشرقي الى رأس عشم الخير ويمرّ ببرزخ السويس

واما الماء الجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في  
 الثلاثة الابحار الاصلية وهي البحر المحيط والاطلنطيتي والمتجمد الشمالي  
 وخط انقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب

ومساحة ارض الدنيا الجديدة عماراً وخراباً وسهلاً وحزناً

٢٩٦ ٨٠٧٠ ميريامتر مربع

ومساحة الدنيا القديمة ٧٨٠٠٠٠٠٠٠ ميريامتر مربع اي ان  
 سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثمان مرات ونصفاً تقريباً  
 وبما ذكرته لك تدلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم  
 وما فيها من البحار ايضاً ثم لا بدّ بعد ذلك من معرفة الامم الساكنة  
 في كل قسم على حدته وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على  
 وجه التفصيل فنقتصر على ذكره عجبلاً لكن قبل الدخول في  
 شرح ذلك اذكر لك بعض كلمات نقتف بها على تاريخ علم الجغرافية  
 لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجياً

ثم نتكلم على قطعة أوروبا حيث نحن الآن فيها فنقول الكرة الأرضية كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الآن فكانت كل أمة في تلك الأزمان الخالية تعد نفسها في وسط الأرض وكانوا إذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط به نهر عظيم كانوا يسمونه الأوقيانوس وكانوا إذ ذاك لا يعرفون من البحار غير البحر المتوسط وكانت أرض الروم تعتبرها مركز ذلك القرص ويظنونها ممتداً من جهة الشمال إلى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب إلى بغاز قادس ومن جهة الشرق إلى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب إلى آخر أفريقيا والبلاد المعلومه كانت بلاد الروم وآسيا الصغرى ومصر وإثاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتماد الناس في البحر المحيط واتسعت قطعة أوروبا وآسيا وأفريقيا ما استكشف من الأرض والبلاد وبقي ذلك إلى زمن القرطاجيين فساحوا في البحر المحيط واستكشفوا الجزائر الخالدات في الجهات الجنوبية وجزائر الإنكليز في الشمالية وبعد الإسكندر الأكبر عرفت أغلب بقاع آسيا الكبرى ثم إن استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية إلى وقته فكانت عبارة عن أغلب بقاع آسيا وأفريقيا وأوروبا وهي محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات أوروبا خصوصاً الجهات الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذٍ الأمم

الساکنة على نهر الطونة وبحر البنتیکا وجزائر الانکلیز

وفي القرن الثاني من المیلاد جمع بطليموس جميع المعلومات الجغرافية وضبط حدود الارض المملومة ووسع الکلام في قطعة افريقا وآسيا وبين أرض الصين الا انه لم يعين الحد النري لافريقا وللمتبررون النازلون من الشمال الذين هجموا على من باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البتعة وذلك في القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبينوا جميع جهات اسيا وافريقا كل البیان وساحوا أرض الصين وجزائر السند وفي وقتهم مدت الديانة المحمدية انصانها وهزّت بلابل العز افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط أرض الهند ولم تلم جهة شمال اوروبا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت علمت البروسيا والسکنديناو والروس ومن عهد حروب الاتراك والمغول وقف على معرفة سکنان البقاع المركزية لآسيا وأرض التار وبلاد السيبيريا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السياحة فانتسعت دائرة الجغرافية اتساعاً عظيماً بما استفيد من رسائل السياحين وترحلهم فعلمت اوضاع ام كثيرة كانت تجهولة الى ذلك الوقت خصوصا اوضاع اسيا وافريقا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسياحة حصل لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الوندیده وجنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا بطريق البر لا بطريق البحر علمت اغلب البقاع والطرق المجهولة للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقاً لتجارتهم الهندية استكشفت استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الى ما لم تصل اليه سفن الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الاطلانتيكي اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧ من الميلا

ثم في سنة ١٤٢٢ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٢ جاوزوا خط الاستواء وفي سنة ١٤٨٤ استكشف برطولي ديدار رأس عشم الخير وفي اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرستوف كولومب الاسبانيولي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٢ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون رأس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت صار ما بين اوروبا والهند طريقاً مسلوکاً وعلم الناس بحر العجم والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنگال وغير ذلك من بقاع شتى وذلك انه من نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيها للبرتغاليين فاستكشفتوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر الهند سنة ١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانيون كما فعل البرتغاليون في  
 جهات امريكا وفي سنة ١٥١٢ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا  
 وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠  
 كثر استكشاف جهات الدنيا الجديدة حتى علمت بتامها  
 ومن حينئذ اتسعت دائرة التجارة والملاحة وجابت جميع  
 الامر البحار بسفنها واستكشفت كثيرا من الجزائر ووقفوا على جميع  
 الجهات المعمورة من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه  
 غير الطريق الموصل للقطب الشمالي ووسط افريقيا وهولندة  
 الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه  
 يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحة  
 الآن اهن شيء حيث بني على قواعد بنتضاها تجوز الفلك  
 البحار العظام وتسير على خطوط معلومة مضبوطة بالحساب ويصل  
 الناس الى اقصى اغراضهم من ابي جهة من الكرة امنين مما كان  
 يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضا لكل مخيف  
 ثقلة معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق واذا  
 تعددت الطرق لا يدرون النجاة في ابي طريق فكان من يسبح  
 منهم تطول عليه المدة

وبيناها يتحدثان والى تلك الكرة ينظران اذ دخل عليهما  
 الشيخ فاراد يعقوب ان يقطع الكلام فقال له الشيخ امض فيما انت



فيه فقال اني خشيت تضييع الوقت فاحببت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتم فينبغي ان نقف عندما وصلنا ونخرج فتال وانا اريد ايضا ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم باختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل اني ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت اتشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنح بخاطري ان اسال حضرة الخواجا عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح ما تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة ببحار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجهد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيقي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود وينط وهي يمر باالي جبل القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم بنهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس ويجاز واكبر طولها خمسمائة وثلاثون ميترامتر واكثر عرض منها ثلثمائة واربعة وثمانون ميترامتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٢ ميترامتر ووجدها في الارض طوله ٣٩١ ميترامتر ومساحتها ١٧٧٨٠٤

مهيأ من مربع وعدد أهلها ٢٢.٠٠٠.٠٠٠ نفس وعلى حسب أرضها وما تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها إلى جنوبية وشالية فالأولى عبارة عن أرض مرتفعة جداً وبها جبال عالية مختلفة هيئة وأخذاً وسواحلها البحرية خبان كثيرة

وبأرض ذلك الجزء أنهر كثيرة تمتد في جميع جهاته وبهذه الصفات تكون محفوظة من الرياح الشمالية وعرضة للرياح الشرقية الأفريقية الرطبة بسبب البحر المتوسط والثانية عبارة عن أرض واسعة وبرك متعددة، وهذه الصفات كانت عرضة للرياح الباردة الثلجية التي تهب من آسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فارتفاع أوروبا الجنوبية وكثرة موانئها سبب في اتساع دائرة الفلاحة والتجارة بها وموجب لاستئصال أهلها وتمدينهم بخلاف أوروبا الشمالية فإن أرضها مع اتساعها ليست مسكونة إلا بأمم فقراً متوحشين في قبضة حكومة تتصرف فيهم كيف شاءت وكل من الاثنين وإن وجد في سواحله خلبان وبحر إلا أن وضع البحر المتوسط الملاصق لأوروبا الجنوبية بين ثلاثة أقسام الدنيا آسيا وأفريقيا وأوروبا هو الموجب لسعادة أهل هذا القسم منذ أربعة آلاف سنة وهو منبع التمدن ومركز تجارة جميع الأمم ولو قارنا قطعة أوروبا بغيرها من الأرض لوجدناها أقل منها خيراً بالطبع فإنه ليس فيها ما بالآخرى من النبات والحيوان والمعادن وأكثر ما يوجد بأرضها الحديد وكان غالبها مغطى بالغابات لكن مع طول الزمن ومساعدة طيب الهواء وهمة

هلهما صارت اكثر بقاع الارض عمراناً وخيراً فالانسان هو الذي  
 بتدبيره كساها حلل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان  
 وعلو شأنه فقد جاب لها جمع انواع النبات اللطيفة من البناج  
 الشاسعة وكذلك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات  
 والف بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك اثنان التمدن وبعد  
 ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلها جسوراً  
 قوية وطرقاً هندسية وسواها سطوح جبالها ونشفتوا مستنعاتها  
 المضرة فاتسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد  
 وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات  
 كثيرة حتى وصلت رسائلهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع  
 المحصولات فزادت ثروة اهلها وصحت ابدانهم وصارت ارضها اتقى  
 الارض هواء واكثرها ثماراً وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها  
 والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعية

الاول الاندلس

الثاني فرانسوا والجزول

الثالث جرمانيا

الرابع ايتاليا

الخامس الروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الانكليز فتكون  
اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق  
بست امم متباينة فكان في جزير اليونان والروم وجنوب ايتاليا امة  
يقال لها اليبلاسك وفي شمال ايتاليا ومجيث جزيرة الاندلس امة  
يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت  
وفي جرمانيا والسكاندينافو الجرمانيون وكانت تنقسم الى كيمريس  
وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفنواي ولول  
امة منهم دخل فيها السدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون  
في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئاً  
من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغاية ما هناك انه خرج اناس  
منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جنات الجول  
وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دولة عظيمة وتبعهم  
الرومانيون وهم امة صغيرة من الايتاليين استولوا باستمرار الحروب  
على الثلاث الاول من الامم المذكورة واختلفوا بالخامسة  
وجهلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت  
جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب  
الى البحر الاطلنطي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن  
الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء نصب الطونة في  
البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم متدداً كثيراً فيحكمون

على جميع الجهة الشرقية من اسيا والشمالية من افريقيا وكانت مملكتهم مقسمة الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايتاليا وولاية اسبانيا وولاية الجول وولاية بروتانيا ويداها ما على شاطئ نهر الطونة الابن ثم في سنة ٣٢٤ من الميلاد اتحدت تلك الدوله الى درابين مشرقية ومنبريه فكان يبع الدوله المشرقية الروم وبعض جهات من اوروبا وولايات اسيا جميعها والجهة الشمالية الشرقية من افريقيا ويتبع الدوله الغربية جميع ما بقي من افريقه من الشمال الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبريرة التي كانت متوطنة بالجهات الشمالية من اوروبا واغارت على الجهات الجنوبية منها واستولوا عليها وابطلوا دولة الرومانيين الغربية وغيره ترتيب سياسة اوروبا وسموا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية هذا القسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم يقال لها الوبزجوث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي استولى على ايتاليا الاستروجوت ثم اللومباردي وعلى جزائر الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالبة ولم يبق من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط فازمانهم كانت فتناً وحروباً وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة ثمانمائة ميلادية ثم قويت الفرنج واسست دولة المغرب وكانت

تشتمل على الجول وإيطاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخدمت  
سطوة الاقوام المتبربرة وابتدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم  
البلغاريين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينمرك  
ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروس

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانتزعتها  
من الاوروباويين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٢ ثم زالت دولة الفرنج  
بالكلية وظهر بدلها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة  
منها وهي فرانسوا وإيطاليا والمانيا وفي القرن الحادي عشر انقسمت  
اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار  
وليون وكاستيل

وفي الجول فرانسوا واللورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا  
المانيا وبوهيم والنمجي الذين هم المحر والبولونيا اي اللاه ودينمرك  
وسويد ونورويج وسكنديناوة والروسية وغير ذلك وفي ايطاليا ايطاليا  
وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول بروتانيا  
وايكوسا وارلاندة وبقيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن  
اوروبا ويتوالي الازمان وتقلب الحدان تداخلت الدول بعضها  
في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك انمسا على

اوروبا وغير ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك  
وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس  
من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال  
وانقسمت فرنسا الى اكثر من اثني عشرة دولة وجرمانيا الى  
اربع دول المانيا والحجر واللاه ودينبارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة ليتاني وامارة مسكو وهذه  
الاخيرة مركبة من خلق مجهولة احوالهم

وانقسم السكديناوة الى مملكتين السويد ونورويج  
وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس وارلانده  
وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتتة ليتخلص من قهر ملك  
النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاماً ثم  
انقلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على  
بجيش جزيرة الاندلس وايطاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت  
بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى  
مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيباً جديداً استمر له عليه الى سنة  
١٧٨٩ فكانت حينئذ بلاد الروم في قبضة الترك وايطاليا كانت  
منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس  
كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والجول الى عدة  
دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينبارك واللاه والحجر

والى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة  
وبقيت السكنديناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز  
دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرانساً غيرت هيئة  
اوروبا تغييراً كبيراً ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية  
ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك ابي البندقانيين وقسمت  
دولة اللاه بين البروسيا والروسية والنمسا وفي سنة ١٨٠٢  
انضمت ولاية البيومتي الى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة  
١٨٠٦ عوضت بدولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا  
وويرتنبيرج وسكس وولايات اخرى ودولة المانيا المتماهدة وانفصل  
من ايتاليا جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرانساً عدة ولايات  
اضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة  
في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية  
الويستفالي وخرجت ايضاً عنها ولاية اللاه واستقلت باسم  
وارسووي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فرانساً وخرجت عن حدها  
الاصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني  
وللايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين  
وجزائر الروم وايتاليا ونابلي واسبانيا والبرتغال وغير ذلك  
وكان من جملة الشروط التي تربت عليها اوروبا المعقّدة



سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم وصارت ايتاليا عبارة عن امارة صقلية و امارة الكنيسة و امارة توسكانا و امارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن مملكة و جزء منها صار هو مملكة هولاندة و جزء اخر اعطي للبروسيا وغير ذلك و انقسمت جرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة اكبرها النمسا و بروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا و اسكنديناوة في تصرف الروسية و كانت منقسمة الى ولايتين تحت تصرف ملك واحد و صارت جزائر الانكليز دولة واحدة و يوجد في هولاء القوم الى الان اثار عوائدهم و لغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها من البيلاسك و لغتهم من لغة الروم القديمة و اغلب ايتاليا من الامة القديمة و دخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية و دخل في الجنوبية العرب و لغتهم صارت من الرومية و بقي في جزيرة الاندلس ما قل من الامة الاصلية و اغلبها من الرومانيين و الويزيجوث و العرب و لسانهم من اللغة الرومانية و في الجول قليل من سكانها الاول و اكثرها اخلاط من الرومانيين و الجرمانيين و لسانهم مأخوذ من الرومانيين و اغلب سكان جرمانيا من النسل القديم و السلاو و لسانهم هو لسان اباؤهم الاول من غير تغير و الروس عبارة عن سلاو و فينوا و لسانهم اللسان القديم و اهل السكنديناوة و التوتونيون و لسانهم هو القديم ايضا و نصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانين والرومانين ولسانهم مشتق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي جهة الشمال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التتار وهم الامة الاصلية وبعض اخر اتراك وجراكسة وياوروبا في هذه الحالة ثلاثة انواع من سكانها الاصليين ففي جهة الجنوب الطائفة اليونانية الرومانية وهم يتقسمون الى اروام وتليانيين واندلسيين وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليوناً

وفي الوسط والغرب نوع التوتون وينقسم الى المانيين وسكنديناوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليوناً وفي الشمال والشرق عائلة السلاوأي الصقالبة وتنقسم الى الروس والسلاف وعددهم سبعون مليوناً والى الفينوى والترک واليهود وغيرهم ويقربون من عشرين مليوناً وغالب اهل اوروبا يتدينون بدين النصرانية وهناك قليل من المسلمين واليهود وفي بعض بقاع صغيرة في جبهة الشمالية عباد اوثان واهل الجهة الجنوبية يبلغ عددهم نحو مائة مليون والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستون مليوناً والبروتستان بالجهة الشمالية وعددهم خمسون مليوناً والمسلمون واليهود وغيرهم نحو عشرة ملايين

واما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين من المقاتلين في وقت السلم ويصرف عليهم في العام ما يقرب من خمسي ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هذه الساعة انما هو على وجه الاجمال والاختصار وان شاء الله تعالى في مرة اخرى ابين لكما كل دولة على حدتها فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر المتجمد وكيفيته وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك بالعربية ثم قاموا وركبوا

المحاضرة (١٠١)

نزعة في باريس

فقال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلاً ونهاراً وكان الشيخ يتضرر من سكنه داخل البلد لما يرى ويسمع دائماً من الحركات القوية والاصوات الانسانية والحيوانية فان العربات ليلاً ونهاراً تمر وتكر فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

وشبابيك الدور والنصور والحوانيت ارتجاج من الارياح والفتح  
والنلقو وللدسكارى واصحاب الاساب والمحظوظ اصوات والمخان  
وذئاب وايب وكل ذلك بورت النبق ونيموش ابل وندابل  
الاشنال قتل لي قرب لو سدا خارج اللد لمان نا اوتق وصحة  
جسم ابتي وارفق فقال مقرب رأي الشيخ في حله فان الخواجا  
ايضاً متضرر من الإقامة بهذا المحل ولكن الذي اتجه الى الإقامة  
به قربه من محل سفله واصحابه وقد وصف لي محلاً اوسع من هذا  
يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا  
خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الى النقلة وما تاخر فاشي الشيخ  
عليهما ثم قال ان مدينة باريز لمن أعجب مدن الدنيا بما حوته من  
المحاسن والزخارف والتحف والمطائف وثروة اهلها وحسب  
بنائها واظن ان عيشة الفقراء بها ضنكة لكثرة اهلها

فقال يعقوب ربما كان حال الفقير بها احسن منه بغيرها  
فان اصحاب المال كما يعملون الامال المظيمة لا يجوا كثيراً  
كذلك الفقراء لم طرق متنوثة يصلون بها الى قوتهم وتلذذاتهم  
على حسب حالهم وفتراء كل مدينة على حسبها وكل ما كبرت  
المدينة وزاد بها زهو الاشياء كثرت بها طرق معاش الفقراء  
فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتبعون اموراً كثيرة لا  
يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلاً البواب لا يقتصر على وظيفته  
بل يرى هو وعياله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

يخصف النعال والمداسات والمرأة تخط الثياب والبنت نغني  
وتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا ناملت تجد بالدروب  
اناساً فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجالا  
واطفالا يسحقون مراكيب الناس واخرين يتصون شعر الكلاب  
واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم  
من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق  
الحواث والاعلانات وقطع اللعب داخل التياترات وهذه الامور  
وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيراً ما وصل بها  
الفقراء الى ملك عتار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واظن  
انك رايت اناساً بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام  
فقال نعم قال هذه امور يتعيش منها خلق كثيرون ويكسبون  
منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق  
والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك ما يوجد في المدن  
الكبيرة

فقال ابن الشيخ بالقاهرة كثير من الناس يجمعون فضلات  
السجارات التي ترمى وباخذون منها الدخان ويبيعونه بالاسواق  
ويقتاتون بثمنها واخرون يجمعون قطع الزجاج ويبيعونها لمن  
يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق  
وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجهاً يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي  
 الوهاب فقال يعقوب مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزاً للهو  
 واللعب والمحظ والطرب هي أيضاً مركز لتجارة واسعة ترد اليها من  
 جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى  
 البقاع كافة فلا يفقه في الارض الا وترد اليها منها بضاعة تجدها  
 مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن رونقها وبهجتها فكل  
 اهل اوروبا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكذا اسيا وافريقيا  
 وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال  
 بالصنائع واكثروا من الورش والمعامل فانتسعت دائرة تجارتهم  
 فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تحت دولتها  
 فقط بل تحت دول الكرة بتمامها

ثم قال ايها الشيخ قد صرنا خارج البلد فينبغي ان نصرف  
 هذه الساعة في التروح والتنزه وأن شاء الله تعالى ايمن لكأما  
 اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل  
 وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالا وقال ما الطف هذا النسيم  
 شتان ما بينه وبين ما في داخل البلد فما هنا من مورث الصحة  
 بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب  
 كدورة الهواء والنفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا  
 الى هذا المكان ثم صار يكرر الالتهات يمينا وشمالا نحو التصور  
 فيجد بعضها بحافة الطريق والبعض بعيداً عنها وكل منها داخل

حديقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار  
 والازهار وكان يري اودية بين النصور فيها البقول والخضراوات  
 وتارة يجد ارضا متسعة كلها اشجار ملنفة وازهار مؤتلفة الا ان  
 بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات  
 مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظر الى  
 جهة الاراي الشمس قد رسمت على سطحها صوراً مختلفة من  
 ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الريح بها تتحقق والاعضان  
 ببعضها تصفق وتخبيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسيقى  
 تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الطيار وصياح  
 البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخير  
 الجداول والانهار وتغريد الثماري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم  
 هذا الصنع وقال من تأمل لمركات هذه الاشجار قال انها متباعدة  
 بالحياة في هذه الدار ولها شهنوات كاللحيوانات فتري البعض  
 يخضع ويتضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتمايل وينعطف  
 على غيره والبعض مضطرب اضطراب المتعادين واخر  
 ينضم انضمام المتحابين فكان الالفه والتحاب والتنافر والاجتناب كما  
 يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاعضان فتري  
 البعض كمن ذهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن اقتتر بعد  
 الغنا او فارقه خلانه حتى آل الى الفنا ففيها المجرد عن اوراقه  
 والمجروح باحنكك الاخر فيه وخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصا اذا كان مجاوراً للقاء على ساقه المزدهي بغصونه  
 واوراقه ومنها كالمظهر للدلال ينيل مع الريح حيث مال  
 وفيها ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن نال  
 درج العز في هذه الدنيا فما من كبير او صغير الا ويدل على  
 عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا عم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعا  
 ثم قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدراهم وتوجه الى تلك اللوكاندة  
 وهيء انا طعاماً فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فالوا به نحو  
 العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد انبسطت والابدان  
 من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافيا  
 فان تفضلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسنا



## المسامرة ( ١٠٢ )

تمة حكاية يعقوب واخيه

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضوري الى لوندرة وقام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل من كنت اعرفهم بل كلهم مستعدثون فسألتهم عن اختي فلم يفدني احد منهم شيئاً انما اخبرت بلان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخيه واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوت الجزمي معلمي فلما وقع نظري عليّ قام وعانقني واجلسني بجانبه ثم دار بيننا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سأله عن  
 اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني اخذته منذ سنة وصار  
 يتاسف على ما نابني ويلمني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه  
 الى اختي فقام معي واخذ يدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسالت  
 زوجة البواب عن ثرة مسكننا فدلني فصعدنا حتى وصلنا للمكان  
 وطرقت الباب ففتحت فلما وقع بصرها عليّ تعاقنا والمعلم ينظر  
 الينا ثم جلسنا وجلس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقضينا  
 غالب الليل نتحدث فيما وقع لنا من الحوادث فكان مما حدثني  
 به ان قالت لهما لما انتقطع خبري عنها حزنت حزناً شديداً وكانت  
 الست لمحبتها لها تصبرها وتسليها حتى البستها ثوب الصبر ولكن  
 كانت تعتزل الناس احياناً وتبكي عليّ واستترت كذلك الى ان  
 ماتت الست فخرجت من البيت ولم ترضَ بخدمة غيرها واخذت  
 هذا المسكن وكانت تتبات من صنعة الخياطة ولها مهارة فيها  
 وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس وقدموها عليّ غيرها  
 من الخياطين فاتخذت لها حانوتاً جمعت فيه عدة من البنات  
 وكانت تصرف عليهنّ فاكتسبت من ذلك نحو ثلاثمائة جنيه فقلت  
 لها يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لعشنا سوية في ارغد عيش  
 وفرحت بذلك وبجئت على محل واسع واستاجرته لنا وصرنا معاً  
 فكنت اخرج معها بعد تمام اشغالنا نحو النابات حول البلد وتارة  
 نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اسمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما رأته من الحوادث  
وما عاينته من المشاق مدة الافتراق وفي الخلوات كانت تملأ قلبي  
سروراً باندام لطيفه تسميني اباها ولكنها كانت اذا ذكرت ما رأت  
من الحوادث وما قاست من الشدائد والم الفراق ندمع عينها  
فاطيب خاطرها واباليها وكثيراً ما ارى على وجهها السخير فاسالها  
فلا تفيدني شيئاً وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهيب وتمدحه  
وتمدح العزلة عن الخلق وكثيراً ما قالت لي انت السبب في  
حيي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت  
منها هذه العبارات في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي  
عني بعض احوالها فكنت اكثر الاءستفهام منها فلا تفيدني ومضى  
علينا احد عشر شهراً ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر  
السرور احيانا اكثر من البكاء فكنت ادخل عليها بغتة فاجدها  
تبكي بكاء شديداً فاذا راني سكتت فداخلي الوسواس وضاق  
صدري وزاد شي وفتمدت راحتي حتى تمتت الموت وعلى قدر  
ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجهد في اخفائه علي  
فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي  
الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا اجدها تحولت  
عن حالها حتى اعتراها التحول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه  
الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هناك  
نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدها بالمنزل وسالت

عنها فقيل لي انها خرجت وما عادت فضقت ذرعا من ذلك حتى كدت اقتل نفسي وترا كمت علي مصائب الدهر ورأيتني وحيداً كما كنت في بلاد الغربية فخطر ببالي الاخذ بلاط بالناس عسى ان تزول عني افكاري وتهبون علي احزاني فلما اختلطت بهم تحمقت خطأ ظني لما كنت اعينيه عند مخالطتهم من فساد افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اصغيت لتوهم فلا استفيد منهم شيئاً وجاهدت نفسي على ان اعودها الائتلاف بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضاعت علي الارض بما رحبت واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيها وحيداً عن الناس بعيداً وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن الناس واذا اجتمعت بهم كاني في فلاة خالية منهم فلا التفت لما يفعلون ولا اصغي لما يقولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا بالكيسة متفكراً في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء خاضعة خاشعة من خشية الله تعالى واخر يطلبين غفر ذنوبهن وبعد خروجهن يرى علي وجوههن السرور فكانت الشهوات البشرية تلاطم امواجها خارج المعبد وتنفذ في داخله ففي تلك اللحظات كنت اطلب الخلاص من اموال الدنيا بالموت ليطمئن قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين الغروب وللانجزة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي كأنها تتماوج في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حوالي وانفكر في وجودي ببلدة مثل هذه كبيرة  
ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الموان  
الى هذا الان وبعد ما ظننت ان المهموم انقضت باجماعي باختي  
ساء في الدهر بفرقتها من غير ان تعلمني بمستترها وما دريت ماذا  
حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها غيري فكان ذلك بهيج  
اشجاني ويزيد احزاني فحل بجسمي السقم وزاد الألم فكنت بسبب ذلك  
امضي الايام متفكراً ومن هذه الامور متخيلاً ثم طراً علي في يوم ان  
اذهب نحو الثايات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضاء  
العمر فذهبت الى ما اردت فضوعف علي العذاب امثالاً وزاد  
البدن اضمحلالاً وزاد في الفكر واشتد علي الامر وقضيت مدة  
طويلة على هذه الحال فكنت اقيم في الغابة تارة واسبح فوق رؤس  
الجبال اخرى لا ارى غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكنت ارى  
القرى على بعد كائنها تنط سود حولها دخان وانفكر في الرعاة  
والزراع حين رؤيتي لم على بعد فاقول ما من احد منهم الا وله  
اُلف يترب عوده وقلب يحن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهيمه  
وانت يا يعقوب حكم عليك القاهر بالجزاة وكيف تطلب الراحة  
بها مع انك لم نجدتها فيها وماذا عليك اذا اقتديت بغيرك ورجعت  
الى العمران واخترت من النساء امرأة تقضي زمنك معها وتشتغل  
بامر تمعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول بهم عنك هذه  
المهموم فكنت ارتاح بتلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابنته ولا حسب لك ولا نسب لا سباً وهم يعرفون  
أصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن  
يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمن الى معاشره  
الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة  
بيني وبينهم وهل احد اقرب الي من اختي ثم تكرر علي الافكار المحزنة  
بجيوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة  
وجمع الاموال بمقاساة الاهوال فكنت متردداً غريقاً في بحار الافكار  
لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة  
في لجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال  
الخلق سئمت عشرتهم وانقضت النعم وفي بعض الاحيان كنت  
الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهيمه ولا بد من  
مرور مهموم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا حبيب ولا  
امير الا ويختمه امور تكدره فيلزمه ان يستعد لها ويصبر عند نزولها  
وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان  
يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطاء في امورك وتزج  
ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس  
مجتهداً في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلمي بالاقامة  
عنده لما بلغه خبر اختي فقلت له ان ضعف قوتي وشغل فكري  
يمنعان من ذلك ووعدته اني ان ائمت في البلد لا اجعل اقامتي الا  
معك فكنت اتردد عليه احياناً وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر

على ذلك وأنا غير مشتغل بأمر وفي تلك المدة ما تركت بلدة الا  
 ذهبت اليها لاستخبر عن اختي وبسبب انها كانت تخبرني بحب  
 الرهبانية ضمنت انها تكون في احد الديورة فطقت على جميعها فلم  
 اقف لها على خبر ولم اشر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من  
 احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعتمها الذبء او اخطفتها النسور  
 الى السماء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكت  
 فارقه من مدة خمسة عشر يوماً فرجدت على الطاولة مظروفا  
 ففضضته فوجدته من اختي فطار لي وخقت بلابل قلبي فقراته  
 فاذا فيه

أخي وعزيزي وقرة عيني الله يشهد على ما بقلبي من حيي لك  
 ولو ملكت بذل روجي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان  
 اصرف جميع طبياتي في جلب السرور لك ولكي حتميرة ذليلة وقد  
 قاسيت من ذهري ما لا يقاسيه غيري وهذا سبب فراتي لك واخياري  
 الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصغ عما حصل مني في  
 خروجي عنك وانصالي منك بدون علمك وما بعثني على ذلك  
 الا خوف منعك لي عما سنخ بفكري مع تصميحي عليه وطيران قلبي  
 اليه وانت تعلم ببيلي للرهبانية وتعلم اني ليس لي راحة في سواها فعذري  
 قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت ببيلي للرهبانية ومن  
 وقت خروجي من عندك الى الان وأنا في الدير الفلاني وقد اخترته  
 على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

أنعيد فيها متى دخلتها كان البحر تحت نظري وأواجه تواس  
 وحشيتي وتذهب الم وحدتي وموقع هذا الدبر فوق الجبل بعيد  
 عن كل طريق والنباتات محيطة به يذكرني الأيام التي مضت علينا  
 في الاجتماع مع المناء والسرور فافرج بذلك كربتي ويكنيك مني  
 معرفتك قدر حيي لك واني ما اخترت المنزلة الا لراحتك ولو عرفت  
 فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اياها ولكن  
 معرفتها لا تزيدك الا كربا على كربك وها على همك وقد حررت  
 لك كتابي هذا بدموع عيني فارجوك قراءته بعين الرضى عني فمهي  
 عن كل عيب كليله ومع كل هذا فلا حيلة في حكم القادر فارجوك  
 ان تصفع عيني الصفع الجميل وتقبل عذري ولا تمنيب ظني فيما رجوت  
 فقلب اخذك بأبين أكتوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان  
 لا تنعزل عن الناس وان تنزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول  
 عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية  
 التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتممت قراءة هذا الكتاب الا  
 وقلبي في خفتان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي  
 تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة سنها ولاي شيء  
 دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطاب  
 جسيم ثم فتحت الكتاب وقراءته نائياً وقلت ربما يكون فاتني شيء  
 منه اول مرة لم أفهم معناه فلم أفهم منه أكثر ما فهمت اولاً انما يابوح  
 من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انساناً وتخلت عنها



او تحققت عدم الوصول اليه بوجه حل اما نظراً لمحلها او حاله  
 وقوي هذا عندي بامور نذكرتها كت اراها منها من ذلك انها  
 كانت تكتب مكاتيب وترسلها مجتهدة في اخفائها نني وقد قوي  
 عندي هذا الظن حتى حاولت صرفه فلم ينصرف فاخذت ورقة  
 وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاؤي منها ان تسمح لي بشرح  
 حقيقة امرها ولحمت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته  
 بالبوستة فلم يمض غير قليل الا وورد منها افادة لم تغدني بها  
 شيئاً غير نهيبها لي عن العزلة وتحريضي على الانس بالناس والحث  
 عليّ بالزواج فعند ذلك عزمتم على التوجه اليها وافعل ما يمكنني  
 في نهيبها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع  
 ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها  
 لا تكلم احداً فكتبت لها مکتوباً فافادتني في رده انها اعدت نفسها  
 لخدمة المسيح وليس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا  
 ومن ضمن كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحب  
 لي الخير فلا تشغلني عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال  
 بالخلق فان روءيتك لي تشغلني عن العبادة نعم ان رضيت ان  
 تكون لي والداً يوم الاستئناف كما هو الاوفق بمروءتك اذنت لك  
 لك بالدخول عليّ فعميت من صدور تلك العبارات عنها مع  
 علمها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكتت تارة  
 اقول ينبغي الرجوع حالاً وتارة اقيم هنا حتى انظرها وتارة اقول

أقبل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فارح نفسي من تلك الاموال واحرق قايها وانص عيشها كما احرق كبدى وكدرت صفوي ونصت علي عيشي حيث دفنت نفسها بالحياة وبيننا لنا كذلك جاتي خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت لنا دكة نجلس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم والليلة بتامها كأني انقلب على حجر النضا حتى اسفر الفجر فقممت الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خلثا كثيرين فوقفت معهم فحجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب فصرت اقلب نظري بيننا وشالاهم بعد برهة ففتح باب صغير فخرجت منه اخي وعليها من الحجل وذاب الزينة ما لا يوصف فنسيت عند ذلك ثمومي واستراني من الحشوع وتعظيم الدين ما لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين العتمة والتعظيم وتب تخطر والقسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد القسيسين عن زيتته واتى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها لخدمة المسيح وفي الحال تصدعت الروائح الزكية من جميع جهات المعبد وكانت الناس تطلب النظر من التيسس اليها ومنها اليه ثم نزل من فوق المنبر وبس ثيابه الرسمية وامر بتتين فأثنا باختي الى اخ درجة من العترب فهناك جثت على ركبتيها ثم دعوني لأوءدي واجبات الابوة فتمثلت بين يدي القسيس

لاناوله المتص فرجع حينئذ ما كنت ظننت زواله وعظم عندي  
الكرب وظهر لي انها لم تتالك نفسها بل كادت ان ينش عليها  
الا انها نظرت الي نظرة معتذر متبهد فهمدت وداخلني خشوع  
ثم اجري المتص على راسها فزال شعرها الذي كان يسترها اذا  
نشرته ولبحق الارص اذا ارسلته ثم اتى لها بثوب من صوف  
فلبسته وبخار فنعات به راسها ووجهها وبرداء من كتان  
فتردت به

وحيث كان خروجها من الدنيا وزهدا فيها لا يتم ولا  
يكمل الا بصورة موتها ودفنها كالميت الحقيقي التت نفسها على  
الرخام كالميت فكفونوا ووضعوا حولها اربع شععات وقد اخذ  
القسيس الكتاب وهو بلباسه الرسمية والرهبان مصفون به وكنت  
حينئذ قريبا منها حريصا على معرفة جميع ما يحصل من الحركات  
فسمعت صوتا خفيا من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعه  
غيري والفاظه يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان  
تجعل هذه اللحظة آخر عمري حتى لا اقوم من موضعي وان تصب  
على اخي الذي لم يقاسمني فيما جنيت من الخطيئة الصبر فيطمئن قلبه  
ويعيش عيشة مرضية فلما سمعت منها ذلك استرني اضطراب  
فوقعت على اختي قتلت يا عروس المسيح يصفغ الرب منك حيث  
تركتني وحيدا اكابد تنغص الايام فاضطرب من بالكنيسة ما  
فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشيا علي ولما اتقت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اختي من الحصى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان لا ابحت عن نقائها فمعظم ذلك عليّ وخرجت لا ادري اين اتوجه فدخلت غابة وصرت افكر فيها حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت في نفسي ليس لك الا مفارقة هذه الارض فانه لم يبق لك فيها ما يوجب اقامتك بها وانما انظرت شفاء اختي لاردعها فبقيت نحو خمسة عشر يوماً استنشق اخبارها فتارة كانت تبغني وتارة لا ثم بلغني خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع واخذته حالة المروع لما ذكر موت اخيه وشقيقة روحه فقال له الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته

يوماً على آفةٍ حدياءٍ محمولٍ

ومعلوم ان ما جرى لكما يجري لغيركما فتزود الصبر تفز بالاجر وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت عتلاً وافراً فهل رأيت حياً لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كالحك للذهب وسترزق راحةً ينعم بها بالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحفي كم تَوْضاً من كل فائت فاني منذ اجتمعت بمحضرنكم هدأ روعي فارجو ان لا يفرق الله بينا وان يجعل اخر حياتي بين يدي حضرتكم وقد تزمت على ان اقيم بارض مصر

المسامرة ( ١٠٢ )

المبورصة

فقال الشيخ هذا مما يسرني وشي نية خير وتحققها سهل فعن قريب نعود وتكون معنا خصوصاً وحضرة الخوجا يعزك كثيراً وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا التلياني ويلزمنا الذهاب اليه وفي وقت اخر تم لنا اخبار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخوجا التلياني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخوجا الانكليزي ارسل لنا تذكرة يعتذر فيها عن الحضور لامر منعه وساءعود قبيل المغرب لانشرف بكم وتسبرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ يقوب وولده بذلك فاخذوا يتهمان للتوجه واذا بالرجل التلياني قد

حضر فقال ان جملة من الاحبا دعوتهم مع حضرتكم وها انا قد حضرت حسب ما اخبرت جنابكم في الذكرة فقاموا جميعاً وركبوا عربة ثم ساروا فمروا بسرانية مشيدة البناء مزخرفة الارجاء حولها اناس كثيرون في حركة عظيمة

فقال الشيخ ما هذا المكان فقال الخوجا هذا المكان يسمى البورسة اي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات المملكة وبينها وبين جميع ممالك اوروبا والمشرق وامريكا فهنا مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والماسرة وعضاء التجار وهومن ضمن العارات العظيمة التي تتباهى بها باريز وينبغي رؤيتها والنظر للجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلمنا نظره في يوم غير هذا ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخوجا ان دخوله مباح للجميع الناس وامر هذا المكان عجيب واصطلاح اهله في تخاطبهم غريب فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المفق عليها فيما بينهم يظن انهم ليسوا من اهل باريز لان لهم لساناً خاصاً بهم يتكلمون به فيما بينهم وبين علماءهم ولا يعرفه غيرهم وهناك ازدحام شديد وللانفاظ تصادم قوي يشأ عنه دوي هائل بحيث يمنع الطارىء عن فهم معاني الالفاظ لاختلاطها وعدم تمييزها

وما يزيد الانسان تعجيباً انه لا يوجد هناك غير الكلام واما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله ويعين النظر فيهم يرى البعض منهم مسروراً والبعض بالحزن

مغموراً والبعض يقلب من الحيرة كفيه ويتف شعراً لحيته ومنهم المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع بل يطوف وإلى ما بدا منه يرجع وأساس ذلك كنه حب الدرهم والدينار فانها يفسلان بالعقول ما لا تفعله الخهور فمن ذهب ماله غاب عقله وساءت حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاربه فيلزم من يريد الدخول في زهرتهم ان يكون خبيراً بمعاني الفاظهم وكيفية معاملاتهم وعلى يقين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم واصطلاحات ساستهم وعوائد خاصتهم وعامتهم والا فلا بد ان يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائداهم

فقال الشيخ ان بالقاهرة مكاناً له شبه قليل بهذا يقال له حارة اليهود فيه كثير من الصيرفة والمرايين ففي بعض ايام السنة تزدهم عليهم الخلق الواردون من الارياف وغيرها اما للاقتراض او للتسديد او لتغيير المواعيد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتنمون فرص الاحياج فيحملون الخلق ائثال الربا ومن حرصهم لا يقرضون الا برهن او ضمانة وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من الناس قد آل امره الى بيع مارهنه ولحقته الفاقه ولبس ثياب النذل بعد العزوف في بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معاً فكم من متأوه من هذه الطائفة والعجب ان الرباء محرم في الشريعة الاسلامية ومع هذا لم يبق من الناس في هذا العصر فقير ولا غني الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعبد عليه صار كأنه من الامور

المجازة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انه من فعل الخيرات  
 وازالة الضرورات ويرون الامتناع منه من الحرج والتنضيق على  
 العباد وتعطيل الارزاق

فقال الخوجا التلياني ايها الاستاذ ان التجاري بهذا المكان ليس  
 كالجاري بجارة اليهود بصر لان المعاملة في هذا المكان خاصة  
 بالشركة التجارية ليس غير

واما المعاملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن  
 ذلك حارة اليهود واما هنا فانه اذا فرض ان بعض الناس رغبوا  
 في الشركة في عمل شيء تبلغ تكاليفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا  
 عنه الحكومة ومتى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في  
 هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هناك  
 اشخاصاً معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فيثبتون  
 ينادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد  
 توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المتدار ظا منهم رواج  
 الامر فيشترىون بازيد وهذه الاسهم كالبضائع التجارية تباع  
 وتشترى وتغلو وترخص حسب ما يعثور الامر المشترك  
 في .

واما التجاري بجارة اليهود عندهم وعند الصيارفة على العموم  
 فهو مبادلة القود بغيرها فكل منهم تراء ينتهز الفرصة فيجعل القيمة  
 على حسب ما يراه من الاحتياج فاذا رأى مضطراً اطعمه وزاد



في اكرامه وسهل له امر الربح ليرغب في معاملته فان لم يتفطن  
 المضطر لمكن وقع في حبالته وكلما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد  
 في الربح واجتهد في الاستخوذ على حجب املاكه فاذا علم ان ما في  
 ذمته صار قريباً من ربح قيمة املاكه او نلتها امتنع عن اعطائه  
 وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة  
 الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه  
 رأس مال وربحاً وقل ان يبقى للمدين شي من ثمن ملكه فهذه  
 حالة فظيعة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدعائها  
 خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثني عشر في المائة كل عام  
 مع انه ضعف الفائدة ببلادنا اذا غلا سعر القود فان المعتاد  
 عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين  
 الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم يضحون اذا صارت  
 الاسعار هكذا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر  
 فيها القيل والقال وقد سمعت ممن اتق به ان فرط المائة في  
 الشهر الواحد قد يبلغ بالناهرة ثلاثة او اربعة اعني زيادة عما  
 يحصل بلوندره اثني عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك  
 من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان  
 في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ  
 الخناج مائة فانه يكتب عليه سناً بضعفها تقريباً لانهم يعطوه من  
 المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة تمامها فاذا طلب مائتين فانه يقطع مائة واربعة فقط ويكتب عليه السند بمائتين وهكذا اذا طلب الفاً وأكثر فمن ان يسهل السداد على المقترض سواء كان تاجراً او زراعاً بالصبارفة اذا ببلاد المشرق من اكبر المضائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض التجار والصبارفة يعملون طريفاً بفتح من عامر امر الفرط وهو انهم يترقبون الوقت الذي هو تبيل خرج المحصول فيسعون الارزاق بثمان بخص فيأتي المضطر فياخذ منهم نقوداً بقدر معين من المحصول على حسب تسعيرهم وقد يسعون قنطار القطن مثلاً ببنهين فياخذ الطالب مثلاً مائة جنيه فيكتبون عليه بخمسين قنطاراً يؤدها بهذا السعر بعد شهر مثلاً فاءذا جاء الوقت طلبوه بها فياخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما يبق عليه في سند جديد بقيمة وقت التسديد مع اضافة الفرط في نظير صبرهم الى العام القابل وهكذا يفعلون معه في كل عام بهذه الطريقة فيبقى الشخص دائماً مكبلاً في اغلال قيود الدين مطالباً بنفس المبلغ الاصلي بل باكثر منه وما دفعه من المحصول كأنه ربح المال وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فتارة يقبله من صنف الى اخر وتارة يجعله نقدية في ذمته والفلاح لا يعارض في ذلك لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للميري والاهالي والعيال وليس في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالاكل ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين الجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً الصبر من ذلك ويتمنون زواله وانظامه فعلى المحكام وولاة الامور النظر في ذلك ومنعه والبحث عن اسبل الطرق التي يستقيم بها امر المعاملة بين الناس ونجح بها مساعيهم في زراعاتهم وتجاراتهم

وفي الازمان الماضية كان المرانون يفعلون ببلادنا كفعالهم الان ببلادكم لكن الحكمة التفتت لهذا الامر وربطت قيمة معينة للتقدي لا يتعداها احد وكل من تعدى عد مرايا وعوقب على مقتضى القانون فخذت نيران اهل الربا الا انهم لم ينتطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرفون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سراً اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البرصة فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالبلغراف يوماً فلا يحصل ضرر ولا غدر كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم تظهر البرصة بباريز الا سنة ١٥٦٣ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عند المنظر في حال التجارة في سرية الحفانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تبن مكان مخصوص صنع من خشب مؤقتاً باحدى زوايا جنيئة سرانة سواسون التي صحت وكانت معدة لسكن افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يتعاملون باوراق

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الا ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاعياد والمواسم وترتبت بواسطة عسكرية المحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيههم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك بداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجمع الناس بالطرق لهذا الشأن ورتبت قصاصاً على من يخالف الامر ويقتم ذلك الطريق المنهي عنه فجعلت جزاء التفرغ الجسم فضلاً عن السجن الطويل وعينت ستين صرافاً يتوزعون في نواحي البلد بلا حرج عليهم واما الحرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غرم تغريباً عظيماً ومع هذا فكانت الناس تجرأ على هذا خفية فعوقب منهم كثيرون

ولما اكثر الناس الشكوى للحكومة وطلبوا فتح البصرة فتمت سنة ١٧٢٤ وعينت لوكندة تسمى لوكندة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧٨٤ فكانت الصيارفة والسماسة يقيمون بدورها الارضي ومدة بونابرت الاول نقلت الى احدى الكنائس ثم نقلت منها الى السراية المملوكية وعادت الكنيسة الى اصلها وفي سنة ١٨١٧ بنيت هذه السراية التي رابتها وخصصت لذلك وبنائها على متسع من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسة مئتين متر طولها اثنان وسبعون متراً وعرضها خمسون متراً والدور الارضي به الحواصل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون متراً وعرضه ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار ألفاً يتعاطون الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصارفة تجتمع في محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتباراً وترى الان فيه زيادة عن امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن وفتح الورش الجسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي نتسع بها دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك واحد فنقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنكيكات والصارفة والتزموا لمدينة باريز مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك على ابطال ذلك فلم يقبل منهم

وقد احصي عدد من يدخل البرصة كل يوم فوجد من ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون ومائة الف فرنك

وبالجملة ففوائد هذا المكان كثيرة جداً وبيان المجاري فيه يحتاج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا بد ان اذهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعكم على احواله

## المسامرة ( ١٠٤ )

## بيت الكتب

ثم وقفت العربية فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا على درج حتى وصلوا الدور الاعلى فوجدوا فسحة متسعة وبها صاحبة المنزل قفامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرفية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يتنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تمنيت على حضرتكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحداً اثر واحد وجماعة عقب جماعة حتى تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يجيونه ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سروراً عظيماً واستأنس بهم كأنه بيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدقين به يتذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يساله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

ناريخية وآخر يطلب منه معني بيت شعر وهو بحبيهم وبزيد لهم في  
 الفوائد وبناهم يتفكرون وفي فنون العلم يتقلون اذ دعوا للطعام  
 فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام  
 بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين أنبدا بالفاكهة ام نوءخرها  
 فقال الشيخ ان للشيخ الاجهوري في ذلك نظماً جميلاً بين فيه  
 ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً  
 حيث قال

قدم على الطعام توتا خوفا

ومشهاً والتين والبطينا

وبعده الاجاص كمثرى عنب

كذاك تفاح ومثله الرطب

ومعه الخيار والجميز

قنا ورمان كذاك المجوز

فتلقوا منه تلك الايات بالقبول وكانوا يسرعون لحفظ

ما يقول وتم بينهم مجلس الاكل في تلك المحادثة ثم عادوا الى

الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية

بجانبه ومن رغب في المشي تمشي مع صاحبه او صاحبه فجاهم

صاحب البيت وجلس معهم ثم بعد ان دار الحديث بينهم قال

اني منذ كنت بمرسيليا وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانه كني

واطلعه علي ما احتوت عليه

فقال الشيخ ونحن لذلك متظرون وللوفاء بالوعد  
متشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام معه الشيخ والرئيس  
فدخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الابعاد  
يقرب من التربع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة  
الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من  
النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال وفي تلك الدواليب  
كتب محبوكة مرصوفة صفوفًا متناسقة كل صنف على حدته  
مع النظافة للمكان بما فيه والرونق الذي يسر الناظر وارضه مفروشة  
ببساط فحمي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجيب الصور  
ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة  
من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات  
الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك النظام وما بتلك  
الكتبخانة من الحسن مع الاحكام فقال يندر وجود مثل هذه في  
بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخوجا كيف  
لو رأيت خزنة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرتين او اكثر  
واما هذه فارن ما بها ليس الا ثلاثة الاف ومائتي كتاب فقال  
الرئيس خزاتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الرونق  
والانقان ما لهذه واغلبها ورثته عن ابي وجدي فقال صاحب البيت  
بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها  
فقال الشيخ اذا لا بد انهما لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم



التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع ما في هذه الدوايب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة أقسام فهذا للكتب العربية وهو أكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتب خزائني هذه حسب المنهضة الأصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب ما يتعلق بأوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بأمريكا وجزائر المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون الأدبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما ترى على حروف الهجاء فإذا أردت أي كتاب اطلعت على الدفتر فعرفت نمرة وحرفه فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية فاخذ الدفتر وقرأ له أولاً كتب التفسير فاذا فيها تفسير ابن عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن الجوزي وتفسير ابن بركان وتفسير ابن أبي شيبه وتفسير أبي الضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم وتفسير ابن فورك وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير أبي الحسن وتفسير أبي ذرٍّ وتفسير أبي طالب الكرمانى وتفسير ابن مردويه وتفسير الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الازديلي وتفسير الاسفراييني وتفسير أكمل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرر في تناسب الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير الجاهلي وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة

ومن الحديث كتاب فتح الباري شرح البخاري والعيني شرح

بخاري والسندي شرح مسلم الحلمية لابي نعيم والفردوس للدليهي  
والسنن لابن ماجه ومسانيد الائمة ومشكاة المصابيح لملاّ علي قاري  
ومشارك الانوار للصاغاني

ومن التوحيد كتاب ابكار الافكار واحلى المواهب وتبصرة  
الدلة والتسيد شرح التمهيد وتأسيس التقديس ورموز الكنوز  
وزبدة الكلام وعمدة النظار والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر  
ومدارك العلوم ومشارك النور ونهاية المنقول وهداية الهادي

ومن الفتاوي في مذهب ابي حنيفة فتاوي ركن الدين  
الكرماني وفتاوي احمد بن عبدالله البلخي وفتاوي امين الدين محمد  
بن المتعالي المصري وفتاوي بدع الدين وفتاوي حسام الدين وفتاوي  
الحنفية لسعد الدين الفتازني

ومن الفتاوي في مذهب الشافعي فتاوي ابن ابي عصرون  
فقيه الشام وفتاوي الحداد وفتاوي ابن رزين وفتاوي ابن الصلاح  
وفتاوي ابن عبد السلام وفتاوي ابن القاص وجملة من فتاوي  
المالكية وكذلك الحنابلة

ثم قرأ في اسماء كتب اللغة منها كتاب قاضي الحق لابي العلا  
المعري وقاعدة البيان وضابطة اللسان لابي جعفر احمد بن الحسن  
المالقي وكتاب الكامل للبرد النحوي وكتاب الاساس وكتاب  
لسان العرب وتاج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من كتب  
اللغة التي لا توجد مجتمعة في كتبية في احدى بلاد الاسلام ثم قراه

اسماء غريبة المثال عزيزة المنال في النحو والمعاني والبيان والبديع  
 ككتاب سيبويه وغيره وكتاب دلائل الاعجاز في البلاغة واسرار  
 البلاغة والفتاح وغير ذلك

وفي المنطق غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الاصول  
 وغير ذلك

ومن التاريخ كتاب اخبار الزمان وكتاب ابي الفدا  
 وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الاثير وغيره من كتبه  
 الغربية ثم بعد ذلك اخذ الدفتر ووضعه مكانه واتى بمصحف  
 مجلد مظرف في داخل كيس من الديباج الاخضر ففتحه  
 الشيخ فوجده مكتوباً بالخط الكوفي في رق الغزال ثم جلس وصار  
 يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الاستاذ الحمد لله الذي جمعني بك  
 فاني منذ زمان متوقف في بعض اشياء في القرآن ولكوني لا اعرف  
 علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تنزل وقفاتي ولم اجتمع باحد  
 في بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال فقال له الشيخ ما  
 وقفاتك فقال ان في القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه  
 انس ولا جان وقوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه  
 فوربك لنسئلكم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلكم الذين  
 ارسل اليهم ولنسئلكم المرسلين فيبين الآيتين الاوليين والاخيرتين  
 على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن  
 شرط التناقض ان يتحد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

ليس ذلك كله يوم القيامة قال بلى ولكن يوم القيامة كما اخبر الله  
مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاختبار انه يكون مشتملاً على  
مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من  
اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته  
ولا يكون في مقام اخر وحينئذ لا تعارض في الايات ولا تناقض  
فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار  
لغتك فقد ازلت عني كثيراً من الوقفات فاني كنت اري بين قوله  
تعالى لا تخصصوا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد و(بين) قوله  
تعالى ثم انكم يوم القيامة عدد ربكم تخصصون تناقضاً وبين قوله  
تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم  
لا ينطقون ولا يوعدن لهم فيعتذرون تناقضاً وبين قوله تعالى  
فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتسألون وبين قوله واقبل بعضهم  
على بعض يتسألون كذلك وبذلك الجواب ازيلت تلك  
الوقفات والله المنة والشكر الجميل حيث جمعنا بحضرتكم تقبس  
من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشياً عن السؤال مهابة  
فالان لما زال عني من غياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو  
من جنابكم الاذن لي في السؤال فقال الشيخ نحن لا يطيب لنا  
عيش الا بالمذاكرة في العلوم فانه حياة ارواحنا فسل ما  
شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني صرت من الان  
فصاعداً جريئاً على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بتلك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك بي اني بالنسبة لعلماء تلك الصناعة لا أعدّ فقال كيف ذلك وانت لها كالأصل منه يستمدّ ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثلي هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقد ورد ان اهل زمان النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدروا ايضاً وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جداً فلو انهم قدروا على مقدارها وهو ثلاث آيات لكانوا قد اتوا بالمتحدى به فكيف ذلك مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل الأكثر لا يعوز الفصح فضلاً عن ان يعوز الافصح ولو كان وحده فضلاً عن ان يظاهره الانس والجن

فقال الشيخ ومن أين توءخذ هذه الشهادة من القرآن قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لساناً) ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري الى قوله انك كنت بنا بصيراً وهذه احدى عشر آية عندكم فاذا قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد أفلا يكون الافصح اقدر وان كان واحداً على اكثر فكيف اذا

ظاهرة في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اما وفاتك فوقفات من رسخت في العلم قدمه ولكن هل اذا عبرت على لسان صاحبك بكلام على نسق مخصوص واذا سمعته يقول كنت اريد ان اقول هكذا وما كان يتيسر لي ينزل ذلك منزلة القول قال لا فقال الشيخ اذا لا يقال ان موسى قدر على نظم احدي عشر آية لانها حكاية عن معنى كان يريد ولا يتيسر له ان يعبر عنه كما في الايات فقال لله درك قد ازلت عني ما كنت اظن انه لا يزول ولكن عندي وقفة اكبر من هذه لعل كشف التناع عنها يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ بتيسير الله تعالى فقال يا حضرة الشيخ اني كون القرآن من عند الله شك قال لا قال كيف وهو ينادي بانه من عند غير الله قال الشيخ كيف ذلك وتغير وجهه فقال لا لتغير ان السؤال اقتضى ان يكون الكلام هكذا فقال الشيخ بيم ينادي ذلك فقال او ليس في القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا

قال الشيخ نعم وما يتبع من ذلك قال ان فيه من الاختلافات اكثر من اثني عشر الفًا كما تسمع اصحاب الترات ينقلونها اليك وهل عدد مثل ذلك لا يكثر

قال الشيخ مهلاً قد هالني اول سوءالك فاسمع ما اقول تجدد القرآن منادياً بانه ليس من عند غير الله وذلك انه ليس المراد بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد التناقض في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا استقرت ما ينسب  
 الى كل واحد من البلغاء اشعاراً كانت او خطباً او رسائل لم  
 تكد تجد قصيدة من المطلع الى المقطع او خطبة او رسالة على  
 درجة واحدة في علو الشان فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى  
 صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في  
 كلام المتكلم الواحد فترى البعض فوق سماك السآ علواً والبعض  
 تحت سماك الارض نزولاً وما ذلك بخاف على ذي بصيرة اليس  
 الامر كذلك قال بلي قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفاً  
 في البلاغة قال لا قال الشيخ ايكفيك ذلك في الجواب عن  
 سؤالك فقال يكفي ثم يكفي ولك الشكر والمنة ثم اثنى عليه  
 وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بقي في ذهني حاجة اريد ان لا  
 اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكاً فقال ان القرآن  
 لا شك كلام الله وقد علمه لمحمد عليه الصلاة والسلام بلا شك  
 وفيه وما علمناه الشعر وما ينبغي له فقال الشيخ نعم قال وهذا  
 يستدعي ان لا يكون فيه شعر مع ان فيه من جميع بحور الشعر فان  
 فيه من بحر الطويل من صحيحه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر  
 وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم  
 وفيها نعيدكم وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن بحر المديد  
 واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر ويجزئهم وينصرم عليهم  
 (و) يشف صدور قوم مؤمنين ومن بحر الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه تالله لقد اترك  
الله علينا ونظيره القوه على وجه ابي بات بصيرا ومن بحر الرجز  
ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ومن بحر الرمل وجفان  
كالجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي  
انتقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره  
نقذ بالمحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قربة  
ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف  
ارأت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا  
يكادون يفقهون حديثاً وكذا قال يا قوم هؤلاء بنائي ومن بحر  
المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المقتضب  
في قلوبهم مرض ومن بحر المجهث مطوعين من المؤمنين في الصدقات  
ومن بحر المتقارب واملى لم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبجان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان  
يكون مقصوداً فقالوا هو الكلام الموزون قصداً فقال نعم قال  
الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصوداً موازنته  
لتفاعيل الشعر ولم تقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى  
ولا كبرى. فليس شعراً اصلاً وعلى تسليم ان ذلك من الشعر ليس  
يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلاً نادراً  
والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القراء ان انه ليس بشعر فيقال  
بناءً على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر



فقال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شفيت مني الغليل  
وازلت شبيهاً ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علماً وادباً  
وعقلاً وكماً لا ليتني لا افارقك ابداً ثم خرجا من المكتبية وصارا  
يتحدثان في امر رشتي حتى ازف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه  
الرئيس وصاحب البيت وبعض الحاضرين تعظيماً له حتى ركب  
عزبته وسار معه ولده ويعقوب الى منزلهم



### المسامرة (١٠٥)

#### قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه  
وعلى ولده ثم قال رايت باوراق الحوادث امس ان احد الاشقياء  
الشائع ذكرهم بنواحي باريز قد ضبط منذ ايام وفي هذا اليوم  
يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا بيت عليه فهل تاذن لحضرة نجلك في التوجه معي فقال الشيخ  
لأبأس إنما لا بد ان تكونا ههنا قبل الزوال فان حضر الخوجا  
توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا  
نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من رؤيتها فقال  
يعقوب سمعاً وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجلين يتحدثان  
الى ان وصلا الى المحكمة فوجدنا اناساً كثيرين هناك وبباهاطائة  
من العسكر يمنعون البعض من الدخول فتقدم يعقوب للضابط  
وعرفه انها غريبان ويريدان الدخول فابى ان يدخلها فجعلا  
يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجد ذلك شيئاً وبيناهما كذلك اذا  
بالخوجا التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفها وسلم  
عليها وتكلم مع ابن الشيخ بالعربية وكلم الضابط كلاما عرفه  
الحقيقة ثم ادخلها فوجدنا خلقاً كثيرين محيطين بحاجز من حديد  
بداخله محل المحكم الذي هو صدر المكان وفيه جميع الاعضاء كل  
على حسب درجته والرئيس هناك على كرسي مرتفع وامام الجميع  
طاولة فلم يلبثا الا قليلاً وتم المجلس فامر الرئيس باحضار الجاني  
فاتي واجلس على كرسي من خشب وصاروا يسئلونه نحو الساعة  
ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طولته ثم هاجت الناس فرحا وصار  
العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة اللغط وعدم معرفة  
ابن الشيخ بلغتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انما عرف  
انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المعكوم عليه  
فلما بعدا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصيل القصة فقال  
يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث  
لانني لم اتحققها باطرافها فذهبنا الى قهوة قريبة هناك وجلسا  
بخزنة صغيرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقرأ اوراق  
الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رعى الورق وقال ان اصل  
هذا الشقي من قرية قريبة من مدينة اورليان تركه والده في  
المهد فربته امه ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعده في المعيشة  
ولكن كان شقيا من ابتداء طلعه حتى عرف بذلك بين قرانه  
وهو في المكتب وكانت البنات تكرهه لتجرئه على ما لا يليق مع  
انه قبيح المنظر وسقيم البسمة احد شقيه عاطل وكان اذا مشى يضحك  
منه من يراه ولا يألفه احد من النساء لدمايته ولسخافة شقله كان  
يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالتهر ومع كون  
شهوته كشهوات الحيوانات العجم تعشق بنتا بارعة في الحجال وهي  
لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبا وميلها لغيره وانما نظره له المحبة  
وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكأيتيه وقد وقع في قلبه  
ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليه لكونها فقيرة فصار ينفق عليها  
كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبلغ اربيه مع ارباد فقره سيما  
وهو يحب الراحة وليس له طريق الى الاكتساب ولا يرضى بان  
يشغل باسغال الفلاحين فانه كان من غباوته وجور طبعه

يتصور عظم شأنه ورفعة قدره فيجملة ذلك على الترفع عن الخدمة مع ما هو عليه من الضعف والعجز فحصل له حيرة شديدة ولم يجد سبيلاً به يتحصل على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك هذا المسلك مع ان التوانين كانت مانعة من الاضطهاد من ارض الغير وكان يقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما يتحصل عليه ياتي به الى محبوبته فاضهرت الميل اليه واثرته على سائر احبتها فاعتابوا وضجروا وفتهم رجل من خفراء الغيطان فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث انه يعلم التوانين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على ذلك جزاؤه الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذه واوقعه في يد الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخاص وترك الصيد فاطتعت العلائق بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينما هو في صيده مرة غافلاً عن عدوه اذ احيط به وقبض عليه باغراء غريمه الاول فاخذ وحكم عليه بالسجن عاماً كاملاً

فكان في تلك المدة تنو فيه سورة الغضب وثقوى ارادة الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به البحث عن محبوبته ولكن اتبع منظره وراثته حاله كانت اذا راته

تفر منه ولا تميل اليه فضايق من ذلك ذرعاً واشتد به حال  
 الفقر فأتاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله  
 احد من عظماء بلده ولا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد  
 كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اخنار رعي الاغنام فابت اربابها من تمكنه منها لعلمهم  
 بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب  
 عليه مرتين واتخذ حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ  
 من غفلته فتمدحج بالسلاح في الغدو والروح فكان لا يغفل عن  
 عدوه طرفة عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه  
 في جميع حالاته ملاحظاً لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره  
 وحذق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه  
 فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث  
 سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحيون البهيمي فامضي تلك  
 المدة في عذاب اليم كانه في نار الحجيم وبعد مضي المدة خرج من  
 القلعة التي كان محبوساً بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر التيسيس  
 الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر التيسيس  
 عنه ايضاً انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن  
 حالاً من حالي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحباً  
 للغدر والفساد وذلك اني قبل سجنني كنت طائشاً صغير العقل

حتى جرتني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن  
اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب  
فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يريني ويحسن احوالي وجدت به  
من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقيماً اثنان قاتلان والباقيون  
ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون  
بي ويقولون ما لا يسعني النفوس به من سب المسيح والتفاخر بالقتل  
وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تجها  
الاسماع وتنفر من سماعها الطبايع فاذا اردت اجنبائهم لم اجد غيرهم  
فاضطرتت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشرتي  
بهم لم اجد بداً من موافقتهم حتى صرت واحداً منهم وضاع ما  
عندي من حسن العقيدة وتعودت الامور الذميمة وألفت الكبائر  
حتى فقت على اقراني في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق  
من قال مشيراً الى هذه الحال

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه

فكك قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشرتي لم واضطراري للامتزاج بهم لم اعمل بقوله

في البيت الاخر

فان كان ذا شر فجانبه سرعة

وان كان ذا خير فقارنه تهتدي

بل تهت في اودية الضلال وغرقت في رديء الخصال وكنت

أرى في نفسي العداوة لجميع بني آدم لما قاسيت من الشدائد وسوء  
الحال وهم في أمن وثروة ورخاء فكنت إذا ابصرت الشمس  
طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة أو سمعت صفير ربح  
أو صوت عصفور هاجت شجاني وئمت احزاني وأوقدت نفوسادي  
نار ارادة الانتقام فكانت كراهي لابناء جنسي دئماً في ازدياد فلما  
استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع  
الى بلدي لا حباً فيه ولا للتعيش به بل لقصد الانتقام من الذين  
كانوا سبباً في شقاءي وطول عنائي فصرت اهرول واعدو  
عدوا شديداً وفي قلبي شيء يحملي على الجري كالسائق العنيف  
وإذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثار فكرة ما  
مر عليّ من الشدائد وكبرت في نفسي جرائم اعداي ففتحت عليّ  
جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصور  
في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند رؤيتهم اياي على  
حين شغلة فتمهون عليّ الالام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما  
كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها من قبل وكان  
دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناساً ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني  
واعرفهم فظروا اليّ وتجاهلوني فأعرضت عنهم وذهبت الى السوق  
فأريت به طفلاً جميلاً الصورة وكنت قديماً احب الاطفال فاعطيته  
صلدياً كان معي فاخذه مني وجعل ينظر اليّ ثم رمى به وفرّاً  
كالخائف فعجبت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فر مني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحيتي فشعثها ضرورة  
يزيد في شناعة صورتي ثم خطر ببالي احتمال اخر لفراره مني وهو  
انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد  
ففرمني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتزاني من الحزن  
اضعاف ما عاينته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر  
من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل  
رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبي بالادميين  
من شدة عداوتي لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير  
قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما  
رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ  
كانهم لا يعرفونني ثم عدت الى قهوة فرأيت في طريقي امرأة عليها  
اثر الذل والمسكنة فتأملتها فاذا هي التي كانت سبباً في جميع ما  
حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني  
باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على  
اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اخنلاطاً بجماعة من العسكر  
فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من  
الراحة لانني رأيت من هوادني درجة مني

ثم سألت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها  
في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجرداً من المال والاهل  
وقد كنت سابقاً اتوقى ملامة الناس واخشي علي نفسي العار



فاصبحت كاني مزقت جلباب الحياء عن وجهي وصرت اتلذذ  
باقامتي بينهم مع نفورهم مني وتباعدهم عني لاني كنت ارى في ذلك  
عذاباً اليماً عليهم على اني ما كنت املك شيئاً اخشى عليه او احرص  
على حفظه وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت  
مطبوعة في اذهانهم وكان المطبوع في ذهني حب مخالفتهم فيما  
يجبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد  
اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الجميل والخصال الحميدة ولكن تشفياً  
منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكاري لما قاسيت من الاهوال  
والالام اذهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف او فضل  
وتماذيت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطرباً في  
احوالي غير قاصد امرأ معيناً افعله انما كنت اتصور ان القوانين  
وضعت للبحري على سننها والعمل بمتضاهاها فخالفتها عمداً لما نابني  
بسببها من النوازل والمصائب الفاتئة الحمد وان كانت مخالفتي  
لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن  
على اضرار السوء فصرت اصطاد كلما وقع بصري عليه وكانت هذه  
الصنعة عندي شهوة لذيدة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها  
خصوصاً ولم ار غيرهما انتوت منه وازداد عندي حب مخالفة  
القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحقني قبل ذلك  
وصرت مزمناً على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت  
اصطاد لتصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسوء الاحوال  
 عدة اشهر حتى تنوسي امري وصاروا لا ينسبون اليّ شيئاً مما يحصل  
 من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي  
 ذات يوم رأيت حيواناً فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الاّ  
 بعد ساعتين فحررت البندقية عليه لارميهِ فلاحت مني النفاتة  
 فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر  
 فيه فاذا هو الخفيّر الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان  
 فهاج جسمي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعداي الذي  
 انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت  
 انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة تكلمتني امي ان تركته يعيش برهة  
 من الزمن وارعدت فرائصي وتضاربت اسناني واضطرب نفسي  
 حتى اني لم اشعر بتحول البندقية فضرته فنفذت الرصاصة في  
 احشائه فانكبت على وجهه يتسخط في دمه كأنه من هدايا مكة  
 ففي الحال خدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفني عليلي وقلت اني  
 قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول  
 ولست ابالي اذ أرحمت حشاشتي

بقتل عدوي ان اعذب بالنار

ولست أرى شيئاً يلد حديثه

وافرح منه مثل اخذي بالثار

وقلت ما اوقع هذا الغي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكأنه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينامر وجفنه

باكٍ يقلب طرفه نحو السما

يرمي سهاماً ما لها غرض سوى

الاحشاء منك فربما ولعلها

وبينا انا اتشفى فيه اذ تنيرت حالي وداخلي الخوف وتنهت  
لنفسى وصرت كنائم استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته  
وحق في المثل راحت السكون وجاءت الفكرة ولا سقط في يدي  
رايت اني قد هلكت فحينئذ رجعت على نفسي باللوم والتقرير  
ودهشت ما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي  
قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد  
يئست من الحياة بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل  
وصرت وانا في الغابة كاني في مقبرة ممتلئة بالاموات  
لكثرة فكري في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني  
اسمع نفسي تقول لي يا قاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس  
فبهت وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بقرعة واتكلم مع  
الرمة واقول الان لا تتكلم ثم داخلي الشاغل نائياً وقلت لنفسي  
ان ما قاسيته من المهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما  
جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضراء ما كنت اظن انه  
لا يوجد مثله لمخلوق غيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الآخرة وصغرت عندي حالي الأولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من تخيل القتل والصلب والمشقة وحبالها وتصورت لي صورة شفق امرأة كانت قتلت ولدها وكنت نظرت اليها مشنوقة وانا صغير في المكتب ورايت ان حياتي من يومئذ صارت من حق القصاص وصرت اتنى حياة المقتول لا تخلص من هذه الورطة ثم انتقلت ففكرتي الى تعداد سيئاته مع طول حياته لاهون على نفسي وجعلت اربط أفعاله السيئة بعضها ببعض فلم يساعدي تصوري وغابت علي الخواف وغاب عني ما كان قبل ذلك بربع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشائي حتى اوقعني في حد القتل وبيناً انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد صوت فرقلة وفرقعة عربية تسير خارج الغابة وكان محل القتل قريباً من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة الخوف فاخذت في اسباب الاخفاء ودخلت وسط الغابة هائماً على وحيي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتل ساعة فعزمت على العود اليه لاخذها فاستعين بثمانها ولم يكن معي شيء من النقود اصلاً فلم اجد لي جسارة على القرب منه وتجاوزني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم رجلاً وأؤخر أخرى وتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت الساعة ووجدت معه ايضاً نقوداً تقرب من ريال فاخذتها ثم

اردت ان اصر ذلك في جبي فلم استطع وكان شيئاً مسك  
 بيدي ثم ترجع عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها  
 ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل  
 الحامل لي على رميها الالفنة والتعاضم عن اخذها لانه قد خطر  
 ببالي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتله الا لاخذ ما  
 معه فينسبونني الى قله المروءة مع اني ما قتلته الا تشفيماً فيه ومكافاة  
 له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في  
 الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود ابلاد المجاورة لها  
 فاخذت اهرول واعدو عدواً شديداً الى قريب الظهر ومن  
 كثرة الجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلت في  
 الجري قوتي كثرت فكري وزاد اضطرابي حتي كنت ارى  
 خيالات مهولة محيطة بي من كل جهة كل واحد منها اكبر  
 هولاً من الاخر وكان تلك الخيالات تضربني بالسلحة حداد  
 توءم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتي كنت  
 اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليّ والحكم بقتلي وكما هممت  
 بضرب نفسي اجد عندي جيناً عن ذلك وتعز عليّ مفارقة الحياة  
 مع اني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهنا لي حياة  
 ولا موت وحل بي خوف عذاب الله في الآخرة واستترت بي هذه  
 الحالة الى الساعة السادسة من اتداء هروبي وهرّ علي فكري جميع  
 انواع العذاب الديوي والآخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

لهويناء وادخلت البرنيطة الى اخرها في رأسي حتى نزلت على  
 عيني وسترت وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء  
 حتى عن الاشياء غير الباطنة وسلكت طريقاً ضيقاً لا ادري اين  
 يوصلني فاوصلني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فازددت خوفاً  
 على خوف وبينا انا اسير اذا بصوت مرتفع يقول قف مكانك  
 يا هذا فرفعت البرنيطة قليلاً فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد  
 دهمني ومعه نبوت كانه جزع نخلة وهو مصفر اللون مع سواد  
 خفيف وفي عينيه بياض شديد مع حورٍ وعلى وسطه حبل طويل  
 قد اداره مرتين فوق سلطة خضراء وفي حزامه سكينه عريضة  
 وطبجة ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كفي يد ثقيلة  
 كالطرقة فحفت اولاً منه ولما تحققت انه من قطاع الطريق ذهب  
 خوفاً منه لاني حينئذٍ كنت لا اخاف الا من يخاف الله دون  
 مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت مثلك ان  
 كنت كما اظن فقال ليست الطريق من ههنا فما اني بك  
 هنا فقلت له وانت ما اتي بك ههنا ولاي شيء تسألني  
 وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيّ وفيما  
 انا عليه وقال انت تتكلم كالشعاذين ثم بهت كانه تحير في  
 امري فقلت ربما كنت كذلك بالامس فضحك من ذلك وقال  
 ستعلم انا حقيقةك وبظهر لنا متصدك فقلت اتركني اسير في طريق  
 فقال نسير سووية صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نطقت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل  
فصعد نظري في وقال يظهر انك قريب من الشفق وان لم يكن  
كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً  
فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من  
شنتة معلقة في ابطه فيها شراب فعزم علي ان اشرب معه وكنت  
في ذلك اليوم المشووم لم اتناول شيئاً من الطعام ولا الشراب من  
والتعب فشربت معه فحصل لي انتعاش وخفت عني  
متاعبي وهومي وتعلقت بحبل الحياة وانساني الشراب شقاوتي وتخللت  
السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجرداً عن الانيس  
والاليف وزال عني اضطراب القلب والتاعب ثم ان الرجل  
اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجانبه وقلت له ان شرابك اراخي  
فيلزمننا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخاناً وقده الزند  
وولع منه الدخان وتكيف ثم قلت له هل مضى عليك زمان طويل  
في الكار فنظر الي ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي علي سكينته  
وقلت له هل قنلت كثيراً وسفكت الدما فعبس في وجهي وقال  
من انت يا هذا ووضع السكينة علي الارض وجعل ينظر الي فقلت  
اني مثلك قاتل لكني مبتدىء في الكار فسكت قليلاً وقال انت  
لست من هذه البلاد فقلت اني من بلد قريب بينك وبينه ثلاثة  
فراسخ وذكرت له اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند  
اذك نهض قائماً وعانقني وقال طال ما تمنيت لقائك وصحتك

وقد ساقنتك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي  
عنده الجليل والحقير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك  
ويحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بخنزيرين صدمتها من  
الغيطان لا قيمة لها ولا كلفة في مؤنتها وهل من الانصاف ان  
تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى  
تناسي الملة واتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والمالية جميعاً وصرت  
بجال يرثي لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن  
فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت ملياً وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير  
بقتل الخنازير فقلت لم اجد لي حيلة الا قول القائل  
اذا لم يكن الا الاسمة مركباً

فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيراً ما اتمثل بقول القائل

كفي بك داء ان ترى الموت شافياً

وحسب المنيا ان يكن امانيا

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه

القصة بتامها ثم سألته عن حاله فلم يرد عليّ جواباً واخذ بيدي

وقال لي نجوت وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم

ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضاً كثيرة الشجر



فصفر الرجل بفيه فجاوبه اخر من بطن الارض واذا بطابق قد  
انفتح وبه سلم ينزل عليه الى جوف الارض فنزل فيه وقال حتى  
اربط عنك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه ثم الطابق ثم غب  
عن بصري فداخني خوف شديد وخطر ببالي ان اخذ السلم  
وافرّ به ثم نظرت الى فم الطابق فرأيت دخاناً يتصاعد كأنه طاقة  
من طاقات جهنم وان احد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل  
ليريني ما انزجر به عن الافعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول ان  
كان قاتلاً او يناه او كان مظلوماً نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي  
انزل فنزلت فوجدت غاراً مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء  
ورجال محققون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعاً وسألوا  
عليّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي واخذوا يعامروني  
مسامرة ترفع عني الاوهام والمخاوف ويشنون عليّ بسالتي ويمداحون  
شجاعتني فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها  
العجب والكبر ثم امروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا اكؤوس  
الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الاكل بين امرأتين حداهما  
قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طالقة اللسان حاضرة  
الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والاخرى اصغر منها الا انها  
متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت اقوم من  
الكبيرة قدأ واحسن شكلاً وارق مبنئ واخف معنى نحيفة مألوفة  
فهويتها وان كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لمبي علق بالصغيرة اكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجلت انزه طرفي  
ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا  
قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل  
يوم ناء كل الذ الماكل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى  
الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على  
انفسنا ورفعناك فوق رؤسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب  
في الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت  
طريد النوع البشري والان تحصلت على ماري من التمتع بجميع  
الملاذ آكلاً وشرباً وظفرت بهن كنت اهواه من الحسان ربات  
الجمال وصرت آمناً مما اخاف فلم لا ارضى بما عرض عليّ اختياراً  
منهم لا سباً وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم اربدّ من  
القبول للحصول على المأمول لكن رايت ان اشترط على الرئيس  
اخذ الفتاة التي علقها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت  
جعلتك رئيساً على هؤلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد  
نزلت لك عن الرئاسة فقبلتها واخصصت بصغرى البنين ولم  
ينازعني احد من القوم ولا عاني وصرت صاحب امرأة عاهر  
ورئيس قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر واخذت من حينئذ  
افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والعدوان فهابني جميع  
الناس وراعهم امري وقد كنت اشبع بين المغفلين من الفلاحين  
اتي مصاحب جنية فزاد ذلك في هيبتهم وادع عليّ من غفلتهم

ما لم يعد عليّ من شجاعتني

ولما وصل خبري الى الحكومة ائتمت في ضبطني وجعلت لمن  
يدل عليّ او يضبطني جعلاً عظيماً ومع ذلك لم يتوصلوا مني على  
شيء وبقيت حولاً كاملاً بين هؤلاء القوم ثم كرّهت عشرتهم  
والاقامة بينهم لتغيير قلوبهم عليّ فاجتمع عليّ امران نفور الجماعة مني  
وبحث الحكومة عني فكنت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من  
سطوة الحكام ومن خيانة هؤلاء البغاة الطغاة وبعد ان كت افرح  
بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدل فرحي غماً وسروري  
هماً وتمتبت مفارقة هذا الغرور والعدول عن تلك الشرور وندمت  
على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي  
وانتخب واقول لعلي اذا تركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من  
احوالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة  
تلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى  
عسى ان يقبلني انه تواب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول  
درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهة ايتاليا وان  
الملك مجتهد في تجهيز العساكر لذلك فندثنتي نفسي ان اكتب الى  
الملك خطاباً يتضمن طلب العفو عني وادراحي في سلك المجاهدين  
فكتبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ  
 ومسامحتي ومما اعرضه على مسامعكم العالية اني كنت جنيت كبيرة  
 القتل والسرقة ومعلوم اني بذلك استحق القتل . فانا مستعد لان  
 اسلم نفسي للتصاص لكن اقدم لاشبابكم الكريمة رجاءً غريباً وهو اني  
 ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اؤدي  
 واجبات الحياة فقصدني ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني  
 من السيئات لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت بتبجح  
 افعالي ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون  
 لي براءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتيمن من خدمة  
 الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري وانني  
 اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من  
 حقوقي حتى اشترط شروطاً على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي  
 وحررتي ولم اكن مأخوذاً ولا مكنتف الايدي ولا اخاف من القبض  
 عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو  
 شئ مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالباً  
 له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقائي  
 ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بجرماني من  
 جميع ما يتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين  
 كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا استحق بها الطرد  
 الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان في الزمرة المذمومة وما كنت الان احناج الى طلب العفو ومع كل ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي بفي واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمكم لاجعلنّ ما بقي من عمري خدمة للركاب العالي فان كان رجائي مقبولاً فليصدر الامر بدرجة في الجرائيل لاعتمد على امركم الملوكي واحضر في الحال الى المدينة والا فتعبر الحكومة بحراها واما انا فاحرمّ على عيني المدينة ان تراها . أه .

فلما ارسلته ابطاء عليّ خبره فاتبعته باخر ثم اخر وطلبت فيه ان ادخل في الخيالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني عنه خبر صرفت النظر عنه وآيست من العفو عني وعزمت على الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين تلك العصابة وسلكت طريقاً غير معروف ومررت بمدينة فاردت المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين فلما قربت من باب المدينة وجدت المأمور جالساً على كرسي فجعل يتأمل فيّ ثم طلب مني تذكر المرور فناولته تذكرة كنت اخذتها من رجل كنت نهيت ماله فلم يكتب بها بل قام وامرني باتباعه فتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدت عنده رجلاً نحيف الجسم طويل القامة فلما رآني ذلك الرجل قال ألسنت الرجل الذي خرج عليّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فإتم كلامه الا واحد انخفراه  
يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع  
الضابط ذلك امر بجبسي فسجنوني بجبس الدم قال يعقوب وقد  
حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يتأمل في هذه الحادثة يحكم بخطاء من  
تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد مجت على  
حنفه بظلفه حتى اخذ رغب انفه واصل ذلك سقطاته الدنيئة وشهواته  
البهيمية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظر

ومعظم النار من مستصغر الشرر  
ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يتوهم فيه  
هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الاهوال ولعل  
قولهم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

## المسامرة (١٠٦)

## البنائكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألها عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخواج التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخواج لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرصة فركبوا جميعاً وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كاحاد الرعية في اعمالها الخاصة الجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضاً او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على ذمتها فترتب لذلك متعهدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهماً بربح معلوم وتلك الاسهم تباع وتشتري في البرصة على يد الساسرة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فممن من يأخذ سهماً ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئاً كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كالبضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تتغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضاً لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تتغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كالبضائع فقال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيراً ما حاك في صدري ذكرها ولا افهم معناها الاول سمعت مراراً كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهم محلات التجارة له رجال يدبرونه بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسمى البنكي

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقود فتارة تسلم اليه نقود



ليحفظها ويشغلها وتارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وتارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشراؤها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجوع المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحينئذ هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق اكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه المبالغ القدية او التي في الاوراق

والبنكير شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربابها وللبنك ائمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فاذا اردوا الاستراحة من العد والنقد سلموا ما عندهم من النقود الى بعض البنوك وكما طلب منهم او لم شيء احواله على البنكير ليستلم او يسلم ويكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم ويستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وتقل بحسب كثرة الاموال وقتها وقد يجمع جملة من التجار في بنك واحد فتحف المؤنة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكبرها واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنكير فيضيف البنكير على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او نقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان  
بنكيرهم واحداً ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده  
في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من  
البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم  
تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفي  
شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والمخرج لا تنقطع  
فلواقصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده  
بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه  
بغير ترويج ولهذا تجدد جميع البنوك تجريباً لدون النقود صنفاً بصنف  
برج قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب  
والفضة فيتحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المحجول  
لهم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لهم من الاعمال التجارية  
وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر برأس مالهم ولا باعمالهم مع  
عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكانهما نقود في صندوق  
البنكير ولا يعسر عليه ابدالها او ضربها بل متى اراد فانه يبدلها  
بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقوداً على حسب ما يرى وزيادة  
على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكت لما يرون فيه من زيادة الربح  
مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لهم اعمال جسيمة  
ودائماً يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لا يمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائضٍ معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان مطلوب عملائه اخذ في الريادة فلا يخرج بالاسكنت مبالغ مستحقة لحين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امنه في اجراء عملية الاسكنت ان يعلم ان المقترض قادر على الدفع في الوقت المعين ويكتفي في تحفظه علمه بان المقترض باع صنف بضاعته لآخر مقتدر واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند المذكور للبنكيز وضمانه يكتفي البنكيز بذلك في الاعتماد ويسلم النقود للمقترض بعد حجز الاسكنت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين في السند فاذا باع زيد لعمره بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على نفسه ان يوئدي المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيدا احتاج الى دراهم وليس له مبالغ عند البنكيز فانه يسلمه السند وياخذ منه الف غرش بنقص قيمة فائضها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر ضامين للبنكيز المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح فذاك والا ضمن كل منهما للبنكيز قدر خسارته

وحيث كان الاسكنت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكيز يجد فيه ربحاً عظيماً فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي طرق تشغيلها

وحيث ان بعض التجار يلزم له مبالغ دائماً لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه نقود زيادة عما يلزم له ولا تسح نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان، اما ان يقيها في البنك زمنا غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكتت واما ان البنكيير يسلم اوراقا تجارية باسكتت اقل من الاسكتت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او اكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوكة بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فاذا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منهما قاطن ببلد غير بلد الاخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكييره بتسديد المبلغ لعمرو فحينئذ ياذن ذلك البنكيير للبنكيير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسده لانها شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد باكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكيير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوكة ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجاج املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقترض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكيير ان يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكتت انما نغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكيير

خسارة ثم ان البنكيكر في كثير من الاحوال يفوض للمسار فيبيع  
 بالنيابة عن اخرين اوراقا تجارية مثل اوراق الايرادات المتررة على  
 الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والافتراضات الميرية  
 وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق نقود  
 يتعهد باستبدالها بنقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية  
 تضاعف نقوده الجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان  
 حق تبديلها بنقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل القود سواء  
 بسواء فاذا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بنقود يبقى جانب  
 اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحا  
 حقيقية

واعتبار ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكيكر لعملائه  
 واعتماد الناس على صداقته واقتداره فاذا حصل ما يخل بشيء من  
 ذلك اخل نظام جميع اعمال البنك

وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا عند  
 كل احد وله اسباب حقيقية يقوى بقوتها ويضعف بضعفها كان  
 الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك فاذا كانت المعاملة بين  
 طائفة اميالها مؤسسة على الائتمان ولهم عليه محافظة بحيث لا يتطرق  
 اليهم ما يهدم شيئاً من اركانها كانت الارباح كثيرة وانجاح حاصل  
 واذا تداعت اركان الائتمان تداعى لها النجاح واضمحلت وهكذا  
 فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تعامل نجارها الا

بالنقود فوراً وان كثرت بها البنوكة

ويعلم ما ذكرانه يلزم ان يكون للبنك في مال البنك جزءه  
يخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيلا وايضا هو نافع  
للبنك في استعواض ما عسى ان تقع للبنك من الخسران في بعض  
الاعمال بسبب خطأ يقع في بعض المصروفات ويتفجع به عوضا عن  
المبالغ التي تداخر عن اوقاتها لسبب من الاسباب وايضا هذا المبلغ  
يزيد في اعماله وارباحه

واما امر اوراق النقدية فمخصوص بالحكومة فهي التي تامر  
بنشره لبنك الحكومة ففي فرنسا يكون للبنك الفرنسي وفي  
الانكليز للبنك الانكليزي وهكذا كل دولة من دول اوربا لها  
بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة  
من ذلك الا قدراً معيناً بالنسبة لحال التجارة ولوازم الامال  
واعتبار تلك الاوراق كاعتبار النقود في التعامل بين الناس  
سواء بسواء كما تقدم لكون البنك متعمداً باستبدالها بنقده متى  
اراد حاملها صرفها بدون توقف في اي مكان من امكة الولاية  
فياخذونها للمعاملة في البيع والشراء والاجارات ونحو ذلك  
ويسددون بها الديون والتفاسيط الميرية المالية وفي الالتزامات  
وكما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الاوراق بالنقود  
ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها والا فلا يكفي  
في الائتمان اعتراف الحكومة بتلك الاوراق فان من بيده الاوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر نفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطوره بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحينئذٍ فلا فائدة في هذا الاستراف اذ لا يؤثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شراء ما يلزم شراؤه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سواء بسواء وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وقلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متامل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمناً للسلع انما هي منسوبة لتقادير ما تجعل ثمناً له فان جعلت ثمناً لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والمكسر بالعكس لافرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشتري جميع ما يلزم لم ملياران من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللازم لم من الاشياء فلو فرض تكثير القدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتاً على اصله ففي الحال تنقص قيمة القدية وما كان يشتري بفرنك يشتري باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تتناقص بنسبة تلك الزيادة وحينئذٍ يمكن فرض زيادة بها تكون قيمة

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا يتعامل بالفرنك بل يتعامل بالسبائك وصاحب الفرنكات لا يتعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فنضع قيمة النقود وتضطر الحكومة لاخذها من ايدي الناس فتسببها وهذا هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها من السبائك بخلاف العكس

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والثمة مع بقاء البضائع والسلع على حالها مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع بقاء الاشياء اللازم مشتراها على حالها لزادت قيمة وحدة المعاملة فتكون قيمة الدرهم مثلا من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة خالصة فتربح الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب الدولة والبعض يحب ان يربح ربحاً قليلاً واخر يضربها بالخسارة فكما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتؤخذ وتسبك ومن كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر من قيمة ما يعادلها من السبائك وقد صار معلوماً لحضرتكم ان النقص الذي يعترض النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تتعادل مع السبيكة



او تزيد عنها وهذا لا يمكن اجراءه على ورق النقدية اذا اكثر  
الحكام منها حتى يتعدى مجموعها مقدار اللازم وحينئذ يعترى  
للبائع المقررة فيها ما يعترى المعاملة من الراج وعدمه وانا اضرب  
لك مثلاً يزيد المسئلة وضوحاً وكشفاً

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرناسا اقترضت  
الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاؤل  
اقترض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان  
اثني عشر مليوناً من الجنيه تقريباً فلم ينشأ منه ضرر للبنك وإنما  
نشأ الضرر لما اضطرت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت  
مبلغاً من البنك يقرب من احد عشر مليوناً من ورق النقدية ولم  
تدفع في نظير ذلك شيئاً الا الاعتراف به وفرضت على نفسها فايضاً  
تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين  
واثمان المشتريات وغيرها مما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية  
ففتقت القيمة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتها  
دائماً لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعاملة اسمها  
واحد وقيمتها مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفه بمعاملة  
بالصاغ فهرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغيير اوراقه  
فاشكل الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا  
المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومة قد تصرفت في التبعة قدمت التضيعة  
 للعريس فصدر الاذن للبك بان يتوقف عن استبدال الاوراق  
 بالنقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا  
 يصعب جعل نقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك نشر من تلك  
 الاوراق مبالغ جسيمة فكبرت اسما مبالغ العملة الجارية في البلد  
 وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً  
 وسببه اننا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليوناً من  
 صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين  
 مليوناً فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليوناً بمعنى ان القيمة تنقص  
 قدر الربع ولما اكثرت الانكليز في تلك المدة من نشر ورق نقدية  
 ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جيبها لا تساوي  
 غير ثلاثة ارباعه نقدية ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب  
 والفضة في الزيادة لظافاً فاقية الفضة التي كان ثمنها قبل توقيف  
 صرف قيمة الورق خمسة من الشلن واثنين من البنس صارت  
 بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلن واربعة من البنس وغلا  
 سعرا قوات الامالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائماً في ازدياد اكثر من  
 الاقتراضات وازدياد اليكون المطلوب منها من دون ان يزيد  
 المطالبون لها من قبل لان الفوائض المبررة انما هي ارباح لمبالغ  
 قديمة قيمة وحدتها عالية ولما تيقظت الحكومة لهذا الامر الفظيع

وارادت حسبه لم تجد لذلك الا احد طرفين الاول ان تجعل  
 قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق  
 وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة الف وثمانمائة واربعة  
 عشر لا يشتري به الامائة حبة وثمانى حبات من الذهب الخالص  
 والجنيه الذهب القديم كان يشتري به مائة وثمان واربعون حبة  
 فحيث كان يكفي ان يجعل قيمة الجنيه الذهب مائة وثمانى حبات  
 وضرر هذا الطريق ان الذين لم على الحكومة ديون من قبل  
 يستولون بقيه اقل من القود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم  
 على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموجبة لتخفيف  
 ائقال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقرضوا الحكومة مدة النقص  
 دراهم قيمتها اعلى مما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تنقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد  
 قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشتري  
 به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصاً وهذا الطريق هو الذي  
 اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح نقصت مصاريف الحكومة وصار  
 توقيف ضرب معاملة الورق وصدرت الاوامر لبنك الانكليز بجمع  
 كثير من الاوراق واستبداله بنقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة  
 حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارات كبيرة على الحكومة  
 لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة نقود الدين  
 الذي عليها عن قيمة النقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستأجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استاجروا بالمعاملة  
النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في النازل ثانيا بعد هذه الحركة  
كان المستأجرون يدفعون خراج اكرض بزيادة ويسعون باقل  
وزاد الخراج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصف ولا مدخل  
للقيمة فيه فحسرا رباب الزرع خسارات جسيمة  
كل ذلك والشيخ مصغر لكلام الخواجا لما فيه من بيان علوم  
لم يكن يعلمها

وبيناها كذلك اذا برجل اقبل فكلم الخواجا سرا فنض قائما  
وقال للشيخ لا تواخذني فان هذا الرجل اخبرني بان الحكيم  
قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان  
ولدي متغير المزاج منذ ايام ولكنه بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربية ومعه ابنه ويعقوب فلما استقاموا  
في الطريق قال الشيخ لاشك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم  
افكار واخترعات نافعة غريبة فانظر كيف اعملوا الفكر في تحسين  
امور الدنيا واخترعوا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان  
ما ذكره حضرة الخواجا من طرق التيسير والسهولة التي سلكوها  
واستعملتها ارباب البنوك قد هوّن امر المتجر على كل انسان  
وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيما يتجر به من التمديدة  
ولكن لا ادري هل هذه البنوك من اختراع الاوروباوين ام هي

امر قديم اخذه الاور وباويون عن سبهم  
فقال يعقوب ان معلوماتي بالنسبة لذلك غير كثيرة ومع هذا  
اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشأن

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون  
البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلنا عن ذلك خبر شاف يوثق به  
والذي اتفقنا ان الاثنيين كانوا يعرفونه ويتعاملون به وكان  
عناهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتصلون على اموال جسيمة  
ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالنقد  
فقط فكانوا ياخذونها بربح معلوم ويقرضونها بربح غيره على رهن  
و ضمانات كما تفعل البنوكة الان فيتمصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من  
الميلاد ببلاد البناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم  
مبالغ عظيمة على الحكومة فاتفقوا على ان يجمعوا سندات تلك  
المبالغ ويتعاملون بها في تجاراتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها

وحيث كانت الحكومة تدفع فائضا لمبلغ الدين كان ذلك  
الفائض يتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعاً لحوال التجارة  
ومن لا اخذله ولا عطاء ياخذ فائض مبلغه من البنك بدون  
استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقة اتبعت في اغلب البنوكة التي ظهرت  
فيما بعد وجرى بها السهل في بعض البلاد مثل بليك وهولانده

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالنقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليزي في سكرها الذي ظهر سنة الف وستائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات اياً كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والف جنيه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائضاً في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ من يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجي الاسكت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه نقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها اموراً ميرة في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل مياعدها ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجرده حتى كانت سنة الف وسبعائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت البنوك كلها تجددت المواعيد تتصل على مزايا جديدة ب ورود المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريباً هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل راس ساهه قريباً من خمسة عشر مليوناً من الجنيه الانكليزي وهذا التدرج كان دائماً دينا على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس واثماتهم له وبهذا السبب كانت  
البنوكة كأنها مشاركة للحكومة في امورها حتى كان كل اضطراب  
ونقلب يحصل حساساً كان او قبيحاً اذا تأثرت منه الحكومة يتأثر منه  
البنك ايضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في  
دفع قيمة الورق للبنك نفوذاً حصل له اضطراب عظيم وصارت  
البنوكة تشبه فوريقة ورق لانها كانت تنشر ورق النقدية بحسب  
احتياج الحكومة ولذلك حصل في قيمته نقص كما ذكر لكم حضرة  
الخوارج واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين  
والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها  
ومتوسط ما افترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين  
مليوناً من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان  
الاسكت جاريًا انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة  
وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي  
في اخراج اوراق نقدية بقدر اربعة عشر مليوناً من الجنيه فقط واذا  
زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد  
العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربعة واربعين انقسم البنك الانكليزي  
بمقتضى الاوامر الملوكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في  
البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعة عشر مليوناً من الجنيه

منها ما يقرب من اثني عشر مليوناً على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق نقد بقدر الاربعة عشر مليوناً سندات مضافا عليها قدر الصنف وللناس ان يشتروا منه ورق النقد ويبدلونه بصنف عين فالاقوية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطا بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة دينايريه والاقوية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة دينايريه ونصف والتسم الثاني يأخذ من الاول بمبادلة الذهب باوراق النقد اسوة الاهالي سواء بسواء

ومن ابتدا هذا التاريخ صار منع البنوك من اخراج ورق نقدية مطلقاً وإذا اجتمع بنكان صغيران فلا يتعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منهما قبل صدور الامر

ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوك التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له وإذا ابطال البنك الكبير احد البنوك الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثاني ما كان يطل منه

وعدد البنوك التي في المديرية التابعة للبنك المذكور سنة الف وثمانمائة وثلاثة وخمسين احد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك بجميع



الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلثائة وواحد واربعون  
بنكا

واول بنك حدث ببلاد فرانس انشاء رجل انكليزي سنة  
الف وسبعائة وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن  
من تسلط الحكومة عليه وعدم انتطاع طلباتها فسد حاله وبطل  
وبقي الامر على ذلك نحو ستين عاما ثم صار تنظيم صندوق  
الاسكت وكان رأس ماله خمسة عشر مليوناً ليوراً تورنوا منها  
عشرة ملايين اخذتها الحكومة قرضه بشرط دفعها على تقاسيط  
سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة  
لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا  
المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعائة وتسعة وسبعين  
جعل رأس المال اثني عشر مليوناً وربع في المائة اربعة في السنة  
في حال السلم واربعة ونصفا في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة  
فتأثر من ذلك صندوق الاسكت ولكن دفعت الحكومة له ما  
كان عليها تقداً فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث  
سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر يجعل  
رأس ماله سبعين مليوناً ورخص له في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعاداً ثلاثين عاماً واقترضت منه الحكومة سبعين مليوناً فحصل من ذلك وقف الحال بسبب عدم إمكان الصرف لارباب الورق لوقته

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجارية من عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشأ منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب الفرنسية وبعد الهدأ ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول ما ظهر صندوق الحساب الجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً ورجحوا من دون ان يسع بما يخل بامانتهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضروري وجود بنك تستهد منه شرع بونايرت الاول ايام قنصلته في تشكيل بنك سماه بنك فرانساعلى نسق بنك الانكليز وجمع له جملة من البنائيرة المشهورين ولاجل ان ياتئهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمه خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطا وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب الجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثنين وجعلتها بنكاً واحداً وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة ثقبوا في اول سنة كان عددا ما اخذ من الاسهم سبعة الاف وخمسمائة ثم ازداد حتى بلغ خمسة عشر الفا ومبلغ ما صار اسكنته مائة وواحد وعشرون مليوناً في ظرف سبعة اشهر ونصف وفي السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليوناً وكان كل بنك بنشر اوراق النقدية ولم يحصل من ذلك ما يجمل بالاخذ والاعطاء انما في سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت اوامر الحكومة بجعل ذلك مخصوصا بالبنك الفرنسي فحصل الحاق بعض البنوك به وكانت مدة الرخصة خمسة عشر عاماً ومبلغ رأس المال خمسة واربعين مليوناً والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في البنك

وحيث كانت الحكومة دائماً تتداخل في امور البنك كان سير البنوك غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد ويقل الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة ثم عين بونابرت رئيساً للبنوك جعل معه وكيلين وحدد لها حداً تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليوناً وحدد الميعاد الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوك في المدن تبعاً لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف الذي كان يعتري الناس لم يحصل رواج وتعطلت البنوك وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت البنوك على حريةها واستقلالها بالنظر في امورها كما تشاء وسعود البنك الفرنسي من بين البنوك بنشر اوراق التقدية فصارت اغلب المعاملات وارده على هذا البنك في المدن وفي المديرية فحصل الضرر اذ من البنوك واستمر ذلك الى ان حصل التيام الذي كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوك الاخر بنشر ورق التقدية فكثير نشر الورق وحصل كساد عمومي فيه ونقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانياً باستئصال البنك الفرنسي به واستمر الحال على ذلك الى الان ومن ذلك الوقت انتظمت امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لهم في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهماً مستبدة وبهذا زاد رأس المال عن اصله وبسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة في اقتراض مائة مليون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوكه في المديرية لكل بنك مجلس ومدير يتعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولاً عند الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنسي واما الاعضاء فتمينهم بمعرفة الحكومة ايضاً من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدم  
 المجلس اسماءهم للحكومة في عريضة فتنخب منهم من يصلح  
 ويوجد ايضاً بنكان شهيران غير البنك الفرنساوي وفروعه  
 احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر  
 لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء و كس او معامل او سكك حديدية  
 وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربة قريباً من  
 العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى الدين فقال ابن الشيخ اني  
 من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الالاف المؤلفة من الجنيهات  
 الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد  
 الاوروباوية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبتو والريال  
 ابي مدفع واي طيره والشينكو وكلها مضروبة باوروبا

ولم يضرب ببلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمجديين  
 مع عزة وجودها وقلة المعاملة بهما فهل اخرجت الارض كموزها  
 للاوروبا وبين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام  
 عثروا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة  
 كتبت جمعتها فاذا رجعتنا اطاعتكم عليها وفيها بيان ما استخرج من  
 المعادن في القرون الخالية وما استخرج منها في القرون التالية ما وحدته  
 في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفترخانة الحكومة

المسامرة (١٠٧)

الموام والدواب

فاستحسن الشيخ منه ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها  
وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحياً والوقت معتدلاً وظل الاشجار  
قد رسم على الارض رسوماً يضيء ما بينهما من نور اشمس كبساط  
مكمل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور  
مع تقارب الاشجار، تباعدها يظهر للظل ضوء حسن وصور اشكال  
مختلفة بتغير الواسف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار  
فيأخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتنتعش به الارواح

وينشا عنه الانبساط والاعتراف وبسبب ذلك كان مشيهم على الارض هوناً هيناً وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض الاخضر وتوسدوا احجاراً لمساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيراً ما كان لا يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسمها وكان يحجل من ذلك ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي فان معرفة جميع النبات والاشجار واسماؤها ومنافعها وخواصها علم كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا لا اشك في ان اللخواجا بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفن من ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جداً والفضل في ذلك للسائح الذي عطف الله قلبه عليّ فاني بعد دخول اخي الدير رجعت الى لوندرة فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفاراً في جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعلمه الرغبة مني في حب الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني وانزته منزلة ابي بل اعظم فمضى عليّ خمس السنوات التي اقيمتها معه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

ففاجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي وياليت  
غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفة ومذ  
حكم الله عليه بالموت وهو بايتاليا تجددت احزاني وهاجت اشجاني  
ولعبت بي ايدي المحادثات وعرضت لي آفات البليات فاتخذت  
صنعة الملاحه وجبت من البجار كل ساحة وطفت جميع البلدان  
لاخبر من فيها من السكان فلم اجد بعده دلاً اركن اليه واعول  
في مهاني عليه فاسال الله ان يغمرني في رحمته ويتجاوز عن سيئاته  
ثم هطلت عيناه بالدموع فاخذ الشيخ يهون عليه حتى هدأت  
عبراته ثم قال ايها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسناً اليّ لم  
اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه  
فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر  
البر العطوف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعاً الى  
مبده فوجدوا ربوة مظلمة بالاشجار معشوسبة فجلس الشيخ فيها  
ليستريح فجعل ابنه يتأمل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل  
شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غاية الارتفاع  
وبجانبتها شجرة صغيرة لا ورق بغصونها وعليها دواب صغار  
لا تحصى فتأملها فوجدها تاكل من الاغصان جلدها والتفت  
فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك  
الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في



مصر بعض دواب تأكل الزرع الاخضر واخرى تأكل ورق  
الشجر وفي بعض السنوات تكثر على اشجار الفكة فتضرها ضرراً  
عظيماً ولكن لاشبه بينها وبين هذه الدواب

فقال يعقوب ان الهوام المصرة بالاشجار لا تحصى عدداً وتختلف  
انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض السنين تتجاوز  
الحد في الكثرة ببعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل  
احدى غابات المانيا يسمع للملك الدواب صوتاً منتظماً يحصل من  
قرضها غصون الاشجار واوراقها فيخرج غالب الناس اليها  
وينتشرون في ارجاء الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة  
ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانهم  
خارجون لمقاتلة الاعداء وفي بعض الجهات يشغل كثير من  
الناس بحفر خنادق عميقة في محاذة الطرق والحدود يمدونها الى  
مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها  
لمنع الدواب عن الاشجار الخالية منها وبالليل يظهر نوع اخر  
منها يعرف بمصر بابي الدقيق او الفرش اذا رأى النور اسرع اليه  
حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في  
الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر  
مشتعلة بالنار لها لهب ودخان واسع نحو السماء بحيث تضيء من  
كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة ويقرب  
الاشجار اشخاص لتقوية النار وايقاد غيرها اذا اقتضت الحال ذلك

فيكون حال مرعج ويأسف من يراه على اتلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الانسان لا يدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الانسان واتلاف ما به منفعه من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتمارها بالنسبة للانسان لا يمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعاً رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً ويتفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراب وشاميط لقتلها وتارة يحفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سمكة فيهلون عليها التراب

ثم قبض على دابة صغيرة مما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى يتلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتاً لها بين الخشب والتشرب تبيض فيها وتفقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدوبيات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكون في الجو منها طبقات تمتد امتداداً عظيماً في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والمخازير تأكل هذه الديدان وتنكب عليها ولذلك هم يستعينون بها على اتلافها فيأتون بالمخازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الأشجار لنسكن جوف الارض او تحت الحشايش فيوزعونها في داخل الغابات فكما نزل دود من فوق الشجر التقطته واكلته ومن هذه الموم صنف صغير الحجم له جناحان عريضان بالنسبة لجنته يطير بها في بعض الاحيان ويسمى بين الاهالي بخراق الاذن ويزعمون انه يدخل في اذن الانسان ويخرقها ويسكن في الخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وإنما سبب هذه التسمية انه يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شي كالآلة المستعملة في خرق اذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقنات من الفواكه والازهار كالورد وغيره والانثى منه تبيض وتجعل بيضها تحت ورق الشجر مجتمعا وترقد عليه كما يفعل الدجاج واذا حصل له تفرق بعث احد فيه مثلاً فانها تنقله الى محل اخر وتضم بعضه الى بعض وترقد عليه الى ان يفقس فيكون اولاً ديداناً صغيرة جداً لا تعجب ما وراءها فتحنو عليها الام بالشفقة والتربية الى ان تأخذ لونا اسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن امها ومنها صنف يكون عادة فوق غصون الاشجار ويقنات من صيد الدويبات الصغيرة ولا يضر بالشجر ويميز عن الجراد بطول جسمه وعظم اجنحه وهو بطيء الحركة اخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون الاشجار التي يعلوها بحيث لا يفرق الناظر بينهما وهذه الدواب كثيرة التحيل فاذا ارادت اقتناص دويبة دنت منها مع السكينة والاحتراس حتى اذا كان بينهما قدر مد ذراعها وثبت عليها وامسكتها

فتدخل في جسمها كثيراً من الشوك الذي يديها ورجليها فتهلكها  
وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى أيضاً المقدسة لأنها ترى  
في غالب الاوقات رافعة نصفها الاعلى عن الارض كهيئة المتهبل  
وبعض الناس يقول انها تهدي المسافر للطريق

ومن الدوبيات التي تأكل اوراق الشجر دوية طويلة  
دقيقة ذات ارجل طوال جداً لا فرق بينها وبين احواد الورق  
ولذا لا يميزها الناظر اذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة واذا ادركتها  
الشمس في سبورها وقفت ومدت ذراعيها وبسبب نحافتها تسميها  
الاطفال العصا الماشية او شعرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الاهالي في بعض  
الجهات الورقة الطائرة

واشنع جمع هذه الدوبيات الدوبات النطاطة ذات الوثوب  
التي منها جميع اجناس الجراد لها ايد وارجل طويلة بعظم بها  
وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمس فوق غصون الاشجار  
وتألف الشمس وجاف ارباكر وهي انواع كثيرة وفي البلاد  
الجبلية تجتمع بكثرة في الشقوق التي بها النبات والعشب ولها  
نغمت مخصوصة عند طلب الذكر للانثى او الانثى للذكر عند  
استغاثتها بذكرها من ذكر اجنبي يحاولها وتحدث هذه النغمت من  
حك ارجلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبسبب اختلاف قوة  
الاحنكاك تختلف قوة النغم وكلما ارتفعت الشمس فوق الافق

قوي النغم وكما مالت للفردوب او قويت درجة البرد ضعف  
وكثيراً ما تكون هذا الانعام نير مسموعة لنا وتكون مسموعة  
لجنسها فقط والذي يكون من - اذ انغم ظاهر بحيث نشعر به لا  
يهوى الا البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من  
نظر الى هذه الدويبات العجيبة الشكل استحسنتها واعجبته شكلها  
ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلة ولكن لاسباب لا  
نعلمها تملأ جوفها من الهواء في بعض الاوقات وتسافر الى البلاد  
الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها  
الصحف في الازمان الماضية والمحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين  
ينسب اليها تلف اصناف المنزروعات احدها وهو الاكبر يعرف  
بالجراد السياح ويكون غالباً في السواحل الغربية من افريقية  
وفي سواحل الصين وثنانها وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل  
وفي امريكا والاورستراي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا  
يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقسه الى كبره  
في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني  
بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانية ايام وفي هذه  
الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بتسعة ايام  
فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يوماً تكون  
تامة الاجنحة فتتكامل منها القوي بعد خروجها من البيضة بخمسة  
واربعين يوماً

المسامرة ( ١٨ )

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة واذا حل بجبهة اهلك الحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات ببلادنا فالتف اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الاهالي لجمعه وجعلت لم جعلاً على ذلك فجعلت على كل افة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشحونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو غالباً يظهر من صحراً بلاد العرب والشار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون  
متدًا فوق البحر مسافة بعيدة وأكبر مساعد له على السير هو  
الريج

وفي سنة الف وسبعائة وثمانية وأربعين وصلت جيوش  
الجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن  
السير بعد كسرتة في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة  
لم يتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام  
شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد ميرات سحابة من الجراد  
طولها ثمانون ملقة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه  
يكثر ببعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح  
الارض والانهر مكسواً به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع  
قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانائة وخمسة وثلاثين احتجب نور الشمس  
والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع  
ثم اهلك ما في الخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع  
الناس الا الفرار الى رؤوس الجبال

وفي سنة الف وسبعائة وثمانين نشاء منه فحط عظيم ببلاد  
مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجذوره وحب الشعير  
الذي في ارواث البهائم وبعر الجمال

وفي آخر سنة الف وثمانمائة وأربعة وستين نزل ببلاد  
السينيغال فاهلك جميع محصولها وشهد منه في الجو سحابة طوفا  
خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وأربعين حصل بسببه قحط  
ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف  
وثمانمائة وأربعة وستين خرج من الصحراء وهجم على البلاد والجزائر  
فاكل جميع المحصول حتى لم يبق شيئاً واستعملت جميع الطرق  
للتخلص منه فتنفرت العساكر مع الأهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجد  
هذا شيئاً فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى  
اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من أكلها ولم يترك جهة من  
الارض الا وقد غطاها باحيائه وامواته فكانت السحابة منه تمتد  
نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه  
بالشباك من الارض وروؤوس الاشجار ثم يحرقونه بالنار واهل  
السودان يطردونه بالتصويت واهل هولاندة استعملت المدافع  
في ازالته وفي الازمان القديمة كان اليونان يحملون على كل شخص  
كيلاً مخصوصاً يأتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسا  
جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك  
ولمن يأتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك



وفي مديرية مرسلها صرف في جمعه خمسة وعشرون الف  
فرنك وكذا مديرية اربل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل  
ربع فرنك على جمع كيلو جرام فكانت الناس تأتي باربعين او  
خمسین جملاً حملة منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بانواعه وقد جوز موسى عليه  
السلام لقومه اكل اجناس اربعة منه واليونان كانت تبيعه  
بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة ياكلونه ويجعلونه  
من الاطعمة والمغاربية في الجزائر ياكلونه ويسمونه الجراد الغربي  
ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يعلونه وياكلونه  
والايلاد والنساتجعلد في خيوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد  
تقلبه بالزيت واهل هولاندة تاكله ايضاً وبعض الناس يزعم ان  
الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الاربعين وفي راس  
الاربعين يتلى جوفهم وجلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من  
الحكماء والسياحن يكذبون ذلك

فقال الشيخ في شرعنا يجوز اكله مطلقاً فان الشارع نص  
على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الا الكبد والطحال  
فسبحان من در الاكوان واحسن صنعها فله في تسلط بعض  
جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان  
التسليم للحكيم العليم

فله في خلقه حكمة تكل البصائر عن دركها

فسلم لربّ الورى حكمه كما تفعل الطير في أنكها



المقامة (١٠٦)

نور الغاز

وبينا هم يتجادبون اطراف الحديث اذا بالخواججا الانكليزي  
اقبل فراه ابن الشيخ على بعد فقام ليقابله فالتفت الشيخ فراه  
مقبلاً فقام له فلما جلس الخواججا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين  
كغياب عامين وحتكم ما تخلصت من صاحبي الا بعد ان اعذرت  
له بحضرتكم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل  
ومسكته لاتهمون عليكم مفارقتة فانه على طريق بئر منه خلق

كثير وحواه بستان عظيم في وسطه عين ماء نابعة من الصخر  
 وبقره بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة  
 عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يملهم جليسهم  
 وهذا الرجل على غاية من الرقة واللطف والادب وزوجه  
 خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخوجا التللياني صاحبكم  
 وتوجهنا الى البرصة معه وفهنا ما يتعلق بهذه المصلحة من الامور  
 العامة وغيرها وبين لنا الايام التي ترتبت علينا في المدرسة المشرقية  
 وذكر لنا تشوقه لحضرتكم وراينا منه خلتنا حسنا قل ان نرى مثله  
 فحصل لنا غاية الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان واقيا بخدمتنا  
 قائما بما فيه رغبتنا وراحنا لكن غيابكم عنا لكونه غير معتاد لنا اقلنا  
 فاثني عليه الخوجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن  
 ان الترحل قد ارف فان الليل قد اقبل وتريد الرجوع قبل  
 الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا هنا بعد الظهر وتنزهنا في الغابة لكن  
 ما وصلنا الى اخرها لخوف يعقوب الضلال عن الطريق  
 فقال الخوجا احسن منتزهنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى  
 منه كثير من ضواحي باريز ولكن الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل  
 اعتادوا التنزه في غابة بولونيا

فقال الشيخ قد اُتيت الى هذا المكان مرتين هذه ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور و نشاط لا احد في غيره لاني متى كنت وسط هذه اشجار يحيل لي انها تحدثني بجمادات الالام الممانبة ومين ارى بها الاشجار المختلفة كلبلرط والصنوبر والحور وغيرها يزداد قلبي تمظيماً للملح حلّ وعلا واجد في نفسي اشراحاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جداً لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يقدني الا عن بعضها فقال الخواجا انواع اشير والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهواء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا نجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تنبت الا في الماء ولو انكسفت عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغر سني اذذاك وعدم اقتصاري عليه لم تحصل منه الا على بعض حبل والافله رجال تفرشوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسرارها فظهروها للناس فانتفع بها الجمّ وتمنوا التمتع الائم ولم تسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبسة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح حمودية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات كل جهة مقصوراً عليها صار عاماً لها ولغيرها

وستوجه غداً الى جمة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم على اجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنسية بانشاء هذا البستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق التعليم والتعلم لمن اراد ليطبقوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحيوارن والطير والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل باريز ام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر ويشرح الحاضر بسبب انتظام الطرق واتساع الحارات واعطفاف المصابيح ووضعها على ابعاد متساوية وكلما اتقلوا الى موضع راوا صورة احسن من الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ ولده ان المدينة

مزينة لاسباب وقتية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق تقبل  
وتدبر في جميع الطرقات التي مروا بها كما يحصل ذلك بالنهار  
سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ  
شطربيت فتمثل به وهو

(زليل الكفر ليس له نهارٌ)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال  
المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة  
فرايته قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطب في وصف  
نساءها ورجالها وطاف حول الدن الا انه لم يدندن ورتع حول  
ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلي اللثام واظنه لم ياتها من  
ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن تقابها ومع ذلك فجمع ما ذكره  
ورآه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي  
هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدماً زائداً وظهر في اعمال الخلق  
النتائج المفيدة فصلح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت  
رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعملاً الا ان الطرق التي كانت  
جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الاز وما حصل من  
التحسينات والاستكشافات ازال كثيراً من المضرات التي كانت  
تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذلك وهكذا كل شيء اخذ في  
النقدم والتحسين

فقال ابن الشيخ كان يخطر ببالي ان هذه المصاييح من الزيت

فأعجب من شدة ضوءها وإتامل في خلال النور لعلي أرى فتيلة  
فلا أرى الا ضوءاً يلمع ونوراً يسطع

فقال الخوaja ليس الامر كما تظن لان الغاز ليس زيتاً من  
الزيوت بل هو مادة اخف من الهواء ولا لون له وهو عبارة عن  
ادروجين وكربون ويسميه الكيمائيون بالادروجين المكربن وله  
معامل يدبرونه فيها ولهم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات  
فيجعلون له وابوراً له محبباً تحت الارض من مواسير الرصاص  
ونحوه فيوزع الى الجهات بمن معين وتلك العمدة التي تراها قائمة  
على الطرق عجيبة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الارض في  
محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه  
الغاز فاذا دخل الليل مرت الخدمة على تلك العمدة وبايديهم  
شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي باعلا العمدة الحابسة للغاز  
فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف  
العمود المغطى بالفانوس فحالا يلتهب الغاز وبضوءه فاذا جاء النهار  
قطعوا الوارد بقفل الحنفية فيقطع الضوء

فقال ابن الشيخ ان هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال  
احد من اهل مصر وغاية ما يظن ان الغاز اسم لنوع من  
الزيوت يستعمل استعمال الزيوت. وحيث انه هواء او شبيه بالهواء  
فكيف عرفوا ذلك وانفعوا به

فقال له الخوaja وكانوا قد قربوا من النزول سائبين لك

بعض ما يتعلق بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخواجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهئية تشبهاً للرونق وتليداً لما كانوا يألفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغاز يمر في تجويفها وخدمه البيوت يوقدونها كما توقد خدسة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنعمائتي سنة كانت جميع مدن الديار الاور وباوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان ينقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بها القتل والسلب

ثم في سنة الف وخمسمائة واربعة وعشرين ميلادية كثرت الشر



واربابه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام  
الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقت  
المطللة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسة واربعة  
وتسعين فجعل بدل القناديل في الحارات والشوارع قوائم من  
خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في  
الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين صار تنوير الطرق من  
الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة  
وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تنزل بعض جهات من  
اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصايح ما يوضع فيه فتيلة  
واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

وقد اخبر ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف  
ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين  
مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جداً ولم تحصل الفكرة في  
الغاز والتكلم في شأنه الا في سنة الف وستمائة وست وثمانين ميلادية  
وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد  
النامية اذا تجمع في ظرف محكم وعرض للهب اتقد واضاء واقام  
على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء  
ويولنا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضاً عن  
الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب  
فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي  
بين طريق استخراجه من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة  
وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلنتو  
الانكليزي اذن للجماعة مساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز  
فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة  
وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجابوا الى ذلك  
ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل الاستعمل بها الى  
الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة  
قناديل على ابوابهم ويندر وجود قنديلين او ثلاثة بالحجارة الطويلة  
وكثيراً ما يحصل من الضبطية التنبيه بوضع قناديل على جميع  
البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جداً بالليل وتخرج  
اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخوجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر  
وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما  
يتوقف على تيقظ الحكومة له خصوصاً اذا علمت انه اقل من غيره  
مصرفاً وثمناً واكثر منه نوراً واهل بسببه تكثر الحركة وتوسع  
الثروة ويحصل الامان وتقل اللصوص واهل الفساد

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفي لاجل ان يمر الغاز منها ويتخلص من بعض الغازات المتزجة به وبمروره في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحاً للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن ناقوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكبوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفما الى جهة قعره واذا كانت خالية من الغاز كانت مغبوسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها الغاز ترتفع شيئاً فشيئاً ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز ونقصه بواسطة ائتقال بحيث تكون حركاته صعوداً وهبوطاً منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انابيب الابراد آلة يقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انابيب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وبهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر ان لهم في توزيعه في طرقات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الارض على بعد مترفاكثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك براً وبحراً فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاوروباية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل انسان تحصيله اما باستخراج او شراء كالزيوت والشع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته والاته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل الحكومة لهم قدرًا معلومًا على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشرط عليهم شروطًا منها ان يكون نقيًا صالحًا للاستعمال وان لا ينشاء عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا نستخرجه من فحم الحجرفقط وان كان يمكن استخراجه من غيره كالخشب والدهن والزيوت والمواد الراتجية كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الحجري ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تملأ الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليتجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سدا محكمًا ثم توضع في افران مخصوصة لها وبوقد عليها حتى تباغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غازات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصفون المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

بعضها وكلها متصلة بما سورة يقال لها الام متصلة بخزن الغاز  
ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع  
خروفا يخرج منها مواسير رقيقة من الرصاص لتوزيع الغاز  
في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتغلق بحيث يمكن منع الغاز عن  
جهة مخصوصة او اصاله اليها متى ارادوا

ففي الحقيقة ان استخراجها يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة  
ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلية بل يبقى فيه رائحة كريهة  
وكثيراً ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض  
تنفس فيخرج الغاز وينتشر في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة  
امتر فيضر بحياة الانساج والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة  
وإذا اراد احكم تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من  
رائحتها الكريهة وربما بقيت فيها مدة تملأ بنكش على حسب حال  
الارض رطوبة ويوسوسة واحياناً يمر قريبا من مجاري المراحيض والسراديب  
الداخله في البيوت فاداء تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت  
من منافذ القصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها  
وكثيراً ما تكون احكام حنفيات تدزعه في داخل البيوت غير  
ممكنه السد فلا يبع منها التنفس ويتنشر في الغرف فيضر باهلها  
وقد دلت التجربة على ان الفيلة الواحدة منه تحرق في الساعة  
الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليترًا ويلزم لذلك احتراق مائتين  
واربعة وثلاثين ليترًا من الاكسوجين اللازم لتقوم حياة الانفس

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترًا من حمض الكربون  
المصر بالصحة فإن كانت الفتيلة في مكان لا يصل إليه الهواء فلا  
يمضي الا قليل وقد وصل إليها هواء ردي يحصل منه ما يحصل  
من دخان الفحم من الاختناق والعلل والأمراض الصدرية فلذلك  
كان الأحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا بماكن  
الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والأماكن الكثيرة الهواء  
وقد استدلوا بالتجربة على انه متى اخلط الغاز بالهواء بنسبة  
معلومة وكان في المكان جسم ملتهب كشمعة او غيرها فلا بد ان  
يحصل في الهواء التهاب ويكون له دوي وقرعة شديدة يخشى  
منه الضرر على من كان قريباً منه لكن محل حصول ذلك منه  
اذا زاد الهواء من الناز أكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو  
فرض ان حجمًا من الناز اخلط بقدره خمس مرات من الهواء او  
ستاً او سبعةً الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء  
عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلاً التهاب فالاقامة  
في مثل هذا المكان خطيرة لان زيادة الهواء غير مأمونة فيكون  
الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته  
وكان بها قنديل او شمعة ان يطفئها كذلك الاجسام المتقدة كالمئقد  
ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه  
ثم قال وكان عدد اللبّات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة  
وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعائة واحدى وسبعين لبّة

صرف عليها نحو أربعة وأربعين ألف جنيه

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات المتعمدة في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والالات اعني رأس مال هذه الشركات قريباً من مائة وعشرين ألف جنيه وكان ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتياً بالنسبة لما تأخذه الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ مقدار المحرق من الغاز في سنة ١٨٥٧ قريباً من ثلاثة وخمسين مليون متر مكعب واحترق فيها مليونان وستائة الف وكسور هيكوليتير من فحم الحجبر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة الف فرنك فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هرتما قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشمناها فسألت يعقوب فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيت المستخرجة من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في المنازل والورش والفوريقات ونحوها زيوتاً اتخذوها من خلط الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضاً زيوتاً متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيوتاً معدنية واللبنات والمسارج المستعملة لها ليست مثل المستعمله للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد من ذلك كله تميم حرق الانجرة الحاصلة من تلك المواد و يوجد ايضاً زيوت مدرة من خلط زيت الترابنتين او النفط او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع ولها قناديل مخصوصة بحيث لا يستصبح به الا فيها ولكن لكون جميع هذه الزيوت سريعة التبخر والتطاير وبادنى شرارة تلتهب بسرعة كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيراً ما حصل بسببها حرائق كبيرة ولها روائح كريهة ولا تزول من الارض التي تصيبها الا بعد زمن طويل فبتلك الاسباب استدلو على ان استعمال هذه الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها قناديل جربوها فيها فوجدوها محصلة للضرر المطلوب ومع ذلك فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة الان سيما في جهة الارياف فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر المستخرج منه سنة الف وثمانمائة وثمانية وخمسين الفين وخمسة وعشرين مليوناً من الليترات وقد حفر ما عدا الآمار التي كان يستخرج منها مائتان وخمسون بئراً واذا نجحت التجارب في وقود الوابورات بها بدل الفحم الحجري عمّت فائدتها واتسعت دائرتها



## وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعاً جديداً وهو انهم استعملوا قنديلا لطيفا مستوفيا لجميع اللوازم الا انه لا فتيلة فيه بل يكتفى عن الفتيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كقطعة فحم او سفنجة تغس في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلا عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والروائح الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه يمرور الهواء عليه يتشرب من الابخرة فتصل الى المسرجة فتلهب الشعلة ونضيء مثل الغاز المستعمل الى ان ينتهي والغاز الذي يكون في التنديل مركب من تسعين جزءا من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو ارد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا خير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكبراء بين فقد حصل منها فوائد حمة انتفعت بها الناس عموما وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك يطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الصراعة بطلب زيادة عدد هؤلاء العلماء حيث نتج من اعمالهم الخيرية تمتع الفقير بالنور الذي كان محروما منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتأخرون  
 ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استتق  
 الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم  
 ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت  
 العرب في حربهم تدبر من النفط ناراً ترسلها الى العدو بكيفيات  
 مختلفة منها ما كان يسبح فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها  
 ومنها ما كان يصعد في الجوّ ويسقط في اوتات معلومة على اماكن  
 معلومة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج  
 يهابونهم في حروبهم وكثيرا ما انهزموا منهم كما حصل في حرب  
 الصليب وغيرها

## المسامرة (١١٠)

السلف، والخلف في الاسلام

ولكن لا يدري الان كيف تناسى العرب هذه المعارف بالكلية  
وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى  
علمها الفرنج وتفننوا فيها وقد قالوا اذا ظهر السبب بطل العجب فليت  
شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم  
وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان  
البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فها على حالها  
لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم  
يتغير منها شيء وايضاً فان الارض لم تبجل شيء كانت تجود به من  
قبل وكذلك الشمس في غروبها وطلوعها لم تتحول قط عن

وما أحدثه خلف بعد مضي السلف. وجدنا السبب إنما هو ما صار  
 عليه الأئمة من خلف هذه الأمة فانهم تركوا ما كان عليه السلف  
 من النظر في مصالح الأمة والدعي فيها فيه نفعها فنبذوا ذلك كله  
 ورؤء شهورهم وشبهوا مشهورات وانشأوا حاجيات وحملوا الناس  
 ما لا يطيقون وشغلواهم بتفصيل ما يشتهون فان الأئمة للرعايا  
 كالرأس للجسد او كالتاب بالنسبة للجوارح اذا صلح صلحت واذا  
 فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد  
 العمومية فكانوا يتقدمون بهم في اقوالهم وافعالهم وكذلك الفرخ لما كان  
 رؤء ساوءهم تلك الصفة ظهرت فيهم المعلوم والصنائع وسرت منهم  
 الى شرهم حتى نمت ساء الملائحة

### في اخبار

المؤمنين من يوم رآهم في الدنيا من بعد ان رآهم في الآخرة  
 لهم الا نصرة الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين  
 الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم  
 ثم الذين يلونهم فكل قرن شر ما قبله وخير ما بعده وفي صدر  
 الاسلام كان تعظيم العلم واهله امرا لازما اذ كانت الاحكام الشرعية  
 بين الكافة هي المنظور اليها ولا معول فيما قل وجل الاعليها  
 فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخافقين رايتهم

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين  
 الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدوا السير في سبيله  
 حتى اتسعت دوائر وعلت في جميع البقاع منايره واستنارت به  
 بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بدكرته لم يكن قاصراً  
 على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع  
 ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل  
 العلماء الجهد في كل علم والفوا اسفار الكتب في فنون شتى فضلاً  
 عن المؤلفات التي لا تدخل تحت المحصر في الاحكام الشرعية تجد  
 مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة  
 والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك  
 ما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس  
 كالاهلة في السماء تنبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك  
 تألفت الطبائع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها  
 وكان ذلك سبباً في سعادتها واتساع دائمة ثروتها وما سبب ذلك  
 الا بناء الحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من  
 الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الا السعي في المصالح العمومية  
 واجتماع الكلمة الاسلامية ولما سار الحكام في غير هذا المنهاج وسلكوا  
 شيئاً فشيئاً طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم  
 الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الي شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بتفريق قلوب الائمة فسار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراءهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحرمان وظهر از ذلك التمدن الاسلامي الجديد واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء الممالك ثم قلداه المناصب العلية وامرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان الممالك هم اصحاب المحل والعقد وفي ذلك توسيد الامر الى غير اهله وتولية السفهاء امور الكرماء فحدث النفور والتباعد بين الناس ثم قويت شوكة الممالك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازالتها وتفرقت الكلمة الاسلامية واحترقت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في التفتقر وقل اهله لفقده ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديم من لا خبرة له بالشرع ولا بتدبير احوال الامة وتصور التمدن الاسلامي بغير صورته الاصلية فان اصله كان مؤسساً على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فباتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرضى والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع والافراد من جليل وحقير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدرج حتى

كثر العلم والمال وبالتدريج الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم  
 وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فتنحصر الاول بالمزايا  
 والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في  
 طريق الذل والقهر وتجرد بالتدرج عن مزايا الشرف حتى كاد  
 يلحق بالحيوان البهيبي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون  
 له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التقهقر فشتان ما  
 بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم  
 والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام  
 واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم والكلام في  
 هذا المعنى طويل وفتح بابيه الان لا يفيد

## المسامرة ( ١١١ )

## الفار

ثم استأذن الخوaja من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا  
وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم يتم تلك الليلة فدخل عليه ولده  
فقال يا بني قد سئمت الإقامة هاهنا واودت ان تكون خارج البلد  
وقد تكلمت مع الخوaja في هذا الامر فاستحسنه فاذا تقول فقال له  
ولده الرأي ما رأيت انما اخشى ان يكون المحل بعيداً فيشقى عليكم  
الحضور الى الدرس فقال له ان هو الا يوم في الاسبوع ومع ذلك  
لم يصرف الخوaja نظره عن هذا المكان بالكيفية فان شئنا اقننا هناك  
وان شئنا اتينا هنا فقال له ولده متي يكون ذلك فقال لم تنفق  
فيه على وقت ويغلب على ظني انه يكون غداً لانا متفقون على ان  
نذهب بعد ظهر هذا اليوم الى بستان النبات فرأى ابن الشيخ  
الوقت واسعاً فقال لوالده اتأذن لي ان اخرج مع يعقوب الى ان  
يجيء الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا



الخواجه في انظارها فاكلوا جميعاً وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن الشيخ كلام ما سمعه من الخواجه حين كان يتكلم على الغاز ومواد استخراجها وكيفية اذنتصباح به فقال ليعقوب خطر بيالي ان اسال الخواجه عن القار الذي تطلى به السفن فاني رايت به حين كنت بمصر ولكني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب

فقال يعقوب ان القطران والترابنتين مواد راتخية تستخرج من الشجر ما عدا القار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاول يلين بالحرارة ويناع اذا وصلت الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعته ادنى حرارة وتلك المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر تصعيده صار ثقياً وصلاح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا اجتمع معه طفا على ظاهره او قريبا منه وله رائحة تخصه لا تظهر الا عند العرض على النار ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار جميعه والجماد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه المواد تذوب في الكوئل وزيت الترابنتينة ولا تذوب في الماء وزعم بعضهم ان هذا المعدن مركبي مكون بين طبقات الصخور التي تكوّنت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان  
 اصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد اثر فيها  
 فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للغار  
 بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما  
 منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريباً منه وفي بعض  
 الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن  
 مديد الى الان وهي لم تنفذ ولعل له مدداً وان كالا نعرفه وبالجملة  
 فانواعه ومواضعه كثيرة وان كان المشهور منه في التجارة ثلاثة  
 انواع كما ذكرنا قار الموميا ويقال له قار يهونا او اسفلت وقار  
 مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنجي بيترول فالنوع  
 الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيها بالزجاج ولا يذوب  
 الا بجمارة شديدة تفوق درجة الغليان ويوجد في شواطئ بحر  
 لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء  
 وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر لينا ثم يجهد  
 بالهواً ويجمعه الناس ويتجرون به ويخرج ايضاً من جزيرة  
 بجزائر اللاتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان  
 قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى  
 فيغمسون فيه قطعاً من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن  
 يوجد ايضاً باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شعماً  
 اسود تختم به ظروف المكاتب وطلاً اسود يسي باسود الموميا والنوع

الثاني وهو بالت ويقال له القار الجبلي اسود اللون ولينه وصلابته على حسب حرارة الجو ولا يجهد الا في اوقات البرد واذا عرض لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت الحرارة ثمانين درجة صار ماءً وهو كثير الوجود بارض فرانسوا والانكليز وغيرها وقد يخرج في بعض الجهات تقياً من ثقب في الصخر كالعيون فتنلقاه الناس بجاريه وقد يوجد في بعضها مخلطاً برمل او تراب فاذا اردوا تخليصه قطعوه بارضه ووضعوه في قدور مملوءة ماءً واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه ويطفو هو فوق الماء فيؤخذ بملاقق ويعمل قوالب كل قالب نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في امور كثيرة كاللون والولانشر ويطلو به الخشب والحبال التي يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى استعملوه في الطرق بجوانب الشوارع بمزجه بحصى ورمل فيتحصل عنه مونة تستعمل في ذلك عوضاً عن تحجيرها وكذا في بريقة سطوح المنازل وظهور القناطر وتبليط الحارات عوضاً عن الحجر والبلاط فانهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكبر فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانسوا في كل عام نحو ثلاثة ملايين اقة وقيمة الثمانين اقة منه تقرب من نصف فرنك واما النوع الثالث وهو الزيت الحجري او البترول وهو المسى بالنفط فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد  
 ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي  
 فرانسوا في موضع واحد بالقرب من قرية جايبو ولذا يسمونه زيت  
 جايبو ولا يوجد الا بجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها  
 فيطفو على وجهها كالزيت في الحيطان الطبيعية او الصناعية  
 فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتجرون به ويخرج بالقرب من  
 قرية باكو من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي  
 في تسوية الطبخ وذلك الزيت يستعملونه عوضا عن القطران  
 وفي الاستصباح والمشرقيون واهالي ايتاليا وجنوبي فرانسوا ينسبون  
 له خواص طبية فيعملون منه جباير للجروح وللأمراض الروماتسية  
 وفي الباطن يقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع  
 الماء والنتاج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت النفط  
 ويدخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث  
 وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاءه ورائحته كريهة  
 ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخواجا فلا  
 حاجة الى اعادتها

## المسامرة (١١٢)

## المستشفى

فقال له ابن الشيخ اللذة في التنقل فالى ابن نذهب فقال يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم يتر الا القليل منها وبيناهما بتشاوران فيما يذهبان اليه منها اذا بالخواجا موريس الذي كانوا بمنزله منذ ايام دخل عليهما والى عليهما التحية فرجا به ثم خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه فهل يمكن الان الاجتماع به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته فهو في غرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفاكحته ومشاهدة طلعه فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصود كما ذلك فما انا متوجه الى استبالية لربوازيه  
لزياره حكيمها فان شئنا اننهما فرعة روءيتها ويكون ذلك داعياً  
للاطلاع على المستشفيات الموجودة في في مدينة باريز والمارستانات  
بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق وواقعه ابن الشيخ فساروا  
جميعاً الى ان وصلوا الى باب الاستبالية فشد الخواجا زراً من  
النحاس الاصفر مثبتاً في الحائط بقرب الباب فحرك جرساً عند  
مجلس البواب فجاؤ وفتح الباب وادخلهم واحاسهم في محل معد  
لمثل ذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم  
واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول  
ان حضرة الحكيم يتظركم فقاموا جميعاً الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ  
بيد الخواجا موريس وسأله عن معه فعرفه بابن الشيخ ويعقوب  
فرحب بهما وحياهما ثم طلب لهم كرسي وقهوة فجلسوا وشربوا وبعد  
لحظة قال له موريس نريد ان نرى الاستبالية فقال حياً وكرامة  
وقام وادخلهم حوشاً متسعاً مستطيل الشكل فيه شجر تسم تقسيماً  
حسناً الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في  
وسطه فواره تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمات لطيفة  
تشبه نغمات الموسيقى ناشئة عن اختلاط صوت الماء في نزوله في  
الحوض مع صوت عبث الرياح بنصون الاشجار وتغريد الاطيار  
فقال يعقوب يخيل لي انهم ما اخناروا هذا الموضع الجميل الحسن

الألتروج المرضى وتسليية افئدتهم عمّا بهم من الالام واثار الاسقام  
ورأينا ان من دبت فيهم النقاها والصحة يتمشون بين الأشجار مقبلين  
ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراسٍ يجلسون عليها وفي  
دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان  
وثلاثون سريراً وفي اخر كل عنبر ادبجانه ومحل للخدمة الذين  
يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضاءً ظلل بالشجر لاجل  
تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع  
الاصغر من الحوش حمام كنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل  
من يموت منهم وعند باب الدخول محال الحكماء والادارة والكتبخانه  
وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرفهم الحكميم بمن فيه وبالداء  
وبالدواء الذي يناسبه

## المسامرة ( ١١٢ )

## التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدين مريضاً قد أضناه المرض ونهك  
 جسمه وكساه ثوب الخمول والصفرة وهو باهت محمرّ العينين وله  
 آنين وتشنجات شديدة تكاد تفضي به الى العدم ورأوه يكثّر من  
 التثاؤب والقيء فامعن ابن الشيخ النظر اليه ورق لحاله وبعد ان  
 طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكيم الى محله فلما استقر بهم المجلس  
 سال ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن باله  
 لما رأى من سوء حاله فقال الحكيم ان اس مرض هذا الرجل هو  
 استعمال الدخان فان له انكباباً زائداً على مضغه فتولد له منه هذا  
 الداء العضال



فقال ابن الشيخ الحمد لله الذي انعم عليّ بوالدي الذي رباني على عدم استعمال الدخان حتى نشأت على كراهته فلا طيق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالشرقيين انهم يشربونه ولم به ولع زائد فقال ابن الشيخ نعم الا ان شربه ليس محموداً

فقال يعقوب رايت في بعض الكتب النبي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما أدت الى الموت فقال الحكيم ان الكيماويين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى النيكوتين وهو مائع لالون له متى كان في انابيب مقفولة ويتلون باللون السنجابي اذا لامس الهواء ورأخنه كريهة وطعمه لذاع ويكون في الدخنة التي يتلعبها الانسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثير في الممالك ريعها لم تظهر ببلادنا الا بعد القرن السادس عشر من الميلاد واظن انها كانت موجودة عند الامريقيين من قديم الزمان ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرستوف كولمب ارسل بذرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرنقال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئاً فشيئاً الى الان

فقال الخوجا موريس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشئها ومنهم من يقطع ورقها قطعاً ثم يمضغها ومنهم من يفرمها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجارات ثم يشربها وبالجملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها الا ترى اهل اوروبا واكثابهم عليها مع انهم لم يعرفوها الا منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقيل ان بذرها اهدي الى الملك شركان سنة الف وخمسة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتغال الا سنة الف وخمسة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانس الا سنة الف وخمسة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتغال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشتهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

فقال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستائة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجوا ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفتى امره حتي صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضا التبغ بمشاة فوقية

ومعدة تخشنة ثم غين معجزة . احفظ لبعضهم بالنسبة لاسم  
التبغ شعرا

بدت في سرا التلب نرمة ونمى

فدان لها طوعا شعاع الشوارق

فتاء وباء ثم غين هجاؤها

فدونكها نفاة للخلائق

الى ان قال

لها قوة تنفر قبيها كما انفر

وندمب بانصره شيخ بارد

ونذهب اخلاط الدماغ بشها

وتفتح للسوداء باب الخوانق

وفيها شفاء للسهموم جميعها

وافعالها في الهضم فعل الخوارق

وفيها دواء لست احصره

وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال المحكم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس  
يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان  
كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار  
من زرعه والان صار يزرع كثيرا بمملكة فرانسوا ومملكة البرتغال  
وبلاد المجر والامانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم  
حين سياحتي بام يبا الشامية يخبرون لراخته اطيب الارض واقواها  
واكثرها زبداً واكثرها رباً ويسخونه بمقدار وافر من السباخ وفي  
بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل منها ماء النهر لانها  
تكون مغطاة بطبقة من السلي ستمل كثيراً من البوتاص وفي  
اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة وان زرعه عندهم  
شهر مايو الفرجي ويزرع سبواً يشبه تارة يكون احمر وردياً وتارة  
اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعوا شيئاً فشيئاً  
وجففوه بالتفائه على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت ستائف  
ثم يربط حزماً ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجاً وفيها  
بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اوان زرعه فيبذرونه  
في الارض بالثقة وكيفية التباوي لكل ثلاثة عشر متراً ملعقة صغيرة  
ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يامونه ويتلون به الارض التي تخبروها  
له ويسمى المتقول قبل نقله زرعة وبعد نقله بلغته اهل الفلاحة  
شتلاً ومن العادة انه قبل جمعه بستة اسابيع يقشر ورقه القريب  
من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات بعد ارتفاع النبات  
منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حوادث سنة الف وثمانمائة وتسعة  
وخمسين ان بفرنسا اربعة عشر فريقة باسم الدخان خاصة موزعة  
في مدينة باريز وغيرها وان بها من العمال نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينوف على ثمانية وعشرين مليوناً من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليوناً من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لوزير الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الا للاجراخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليوناً من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفه فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرانس فتشتره من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريات وتصنع به ما يلزم له ثم تبعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فورياته الان بها نحو سبعمائة وعشر فوريات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قبة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريقا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليوناً من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليوناً ومن اوروبا مائة واربعون ومن امريقا مائة وثلاثون مليوناً ومن افريقيا اثني

واما الدخان المصري فلا اعرف قدر متحصله فقال ابن الشيخ  
هذا النوع يزرع عندنا كثيراً الا ان عوده قصير وورقه صغير  
ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا  
نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنباك يقولون ان في شربه فوائد  
فقال الحواجا موريس انواع الدخان كثيرة واخلافها  
باخلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلمنك  
مقبول في الشوق لمرارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه  
فمنه ما يكون ورقه عريضاً ورأئحه كرائحة جوز الهند ومنه ما  
يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورأئحه كرائحة النوشادر وهو ما  
ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية  
ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك  
فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديماً وحديثاً في شرب  
الدخان فمنهم من يقول بضره ومنهم من يقول بعدم ضرره  
والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من  
الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه  
تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما  
حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافا  
ويحول قبة العين والاكتار منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده ان من تعود عليه خف نومه وامن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودوخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لبنا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان وانتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضره تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الحجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قدرًا وقال بعض الحكماء ان شربه يوءثر في العينين ويهيجها اكثر من تهيجها من دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان عقب قيامه من النوم دمع العينين محمها ويحس فيها بجمرة والمكثرون منه يحسون بالحم في جباههم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه الخنلط بالدخان المتبع التهاب وتهيج للعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سجارات كثيرة بعد الأكل فتهبته عنه فبريء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الحجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال ونقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الأيدي واصفرار اللون  
 وسواد الأسنان وزرقة الشفتين وفتور الأعصاب  
 والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الأسنان فيخرج من الضغط  
 عليه مادة لذاعة تختلط باللعاب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء  
 انه ينقص العقل وليس كذلك وإنما يتخلف من مضغه نكهة  
 خفيفة تزول بالضمضة إلا انه يضر باللسان وبالأسنان لانتلافه  
 ثوبها الظاهر الحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الأمر الى  
 فقده وبلغ عصارته اشد ضرراً وقد رايت رجلاً من الملاحين  
 في الم شديد وتشجات بعد بلع مضغته وكان يقيء ويتأب كثيراً  
 فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تتبعنا ما قالوه في الدخان نفعا  
 وضرراً لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه  
 امان من داء الاسكوروبوط ووجع الحلق وانه مفسد للعقل ولكن  
 ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص  
 من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شرباً او مضغاً او استنشاقاً  
 ومن المعلوم ان استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس  
 عليه علامة على انه مخفف للهموم والوحشة وانيس في العزلة  
 ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري  
 الواسعة وسكان الجبال الشائخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار  
 العالية مشتركين في تعاطيه فحينئذ لا يطلق القول بمدحه او ذمه  
 ولا عبرة بما قاله الكياويون وبرى المشرقين لا يفارقون الشبوق



حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له  
 غلمانا من خواص خدمهم وسموهم التنجية نسبة الى التن اسم للدخان  
 غير عربي

فقال ابن الشيخ قد يقرب من تايدك في الدخان بيتان احفظهما  
 لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله  
 لقد عيرونا بالدخان وشربه

فقلت دعونا اذ له الامر احوجا

لانا رأينا الهر في قاع صدرنا

كهيئا فدخلنا عليه ليخرجا

فقال الحكيم قد اصاب القائل ورايت ان بعض من ابتلي  
 به من الكباويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة ليبقى  
 النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة  
 فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه  
 جافا ونهى عن استعماله مبتلا قال لان النيكوتين في الحالة  
 الاولى يتحلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استحالته  
 فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من  
 الجاف ثم قال ويجنب تعاطيه على الريق وقبيل الأكل ويغسل  
 الفم بعد شربه اما بالماء الخالص او الممزوج بقليل من  
 ماء الملكة

وينبغي لمن يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها  
فليتخذ له فما من كارم او عظم او عاج ويتجنب شرب سحابة شرب  
بعضها وتركت زمناً وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها  
حيثذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى  
وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والدرجيات احسن من  
قصارها وارداً الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع  
فيه وصولاً الى الفم منها في غيره

فقال موريس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهماتك  
وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ  
لم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاستباليات فقام مسرعاً  
وانجز وكتب لبعض حكماء الاستباليات خطاباً اطلب فيه في  
الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ  
اني وان لم اكن عربياً لكني محب للعرب لاسيما المصريين واود  
ان ارى والدك فاثني ابن الشيخ عليه خيراً وشكره على ما استفاده  
منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ  
ليعقوب ليتنارينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا  
ان الوقت قد ازف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له  
وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق  
كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونه يعتمنون به اغثناء زائداً  
وبعد حصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطاً قويا ويكبسونه كبساً شديداً ويجعلونه بالات لثلاً يكون حجمه كبيراً ثم يبيعونه كذلك او يرسلونه الى الفوريات ولهم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول فرزُه وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم تعفنه والثالث تنقية جدوره واضلاعه الكبيرة منه والتندية تكون في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان فوقها طبقات قليلة السمك ولهم في تنديته حساب على حسب ما يريدون ذلك انهم يسخنون له ماءً مالحاً ويجعلون تسخينه درجات بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحداً وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة فاما دخان السجارة فتستعمل فيه النساء فتلف المرأة بين اصابعها الاوراق الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطيع والجدور واما دخان الشرب فيفرم بالآلة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفايح محجوفة ثم يمر عليها بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطاً صغيرة من عشرة كيلو الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعمليته اصعب لانه يحتاج

الى اخبار النوع الموافق ثم يفرم ناعماً ثم يوضع في مخازن كياناً ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلو جرام ويترك هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يجتمهر وتبلغ درجة حرارته من ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه البخرة شديدة الرائحة غير معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها الحكيم واقواه تخميراً ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى بنصف متر واقفه تخميراً ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون معدوماً في القاعدة وللجودخل في تخميره واستوائه فيتقدم ويتاخر على حسب درجة الجو حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في الكيان جعلت اكواماً صغيرة لئلا تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة اشهر او ستة وبعد ذلك ينقلونه من مواضعه بعالم معتادين على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت وبعد تمام تخميره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يجهر ويسحق ثانياً وثالثاً فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هواء فتعود له الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة نقل الى مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه بسبب نعومته يمتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والانف والحلق فيحصل منه لهم مضايقات شديدة وغالبا تكون ثقلاً له

ثلاث مرات وتارة يكتفى بمرتين فيتكون عن ذلك نشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله مما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر للمعاطيه وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبالآلة بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضع فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عادي وخصوصي فالاول عبارة عن حبال تفتل من اوراقه بالآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي يتقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا فقال ابن الشيخ وما شأنه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شباك وان وجد فقصير لا يزيد عن شبر وباليته من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكي رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرهما معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجي

وحجازي ويقولون ان العجمي احسن كيفاً من الحجازي والان شربه  
بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب  
في نرجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر  
ومنهم من يجعل انبوتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها  
نريج (لياً) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه قم من خشب  
او عظم او كارم ومنهم من يكسوه بجوخ ومنهم من يكسوه بحريز  
زرکش بذهب او فضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين  
ومنهم من يشرب في عيدان من كرز ومنهم من يشرب في عيدان  
من الجرمشق مكسوة بالحريز او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب  
منها الكارم الصّرف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالملاس ونحوه  
ومن المترفين من يكسوها بالحريز المنظوم في اللؤلؤ والمرجان كل  
على حسب رغبته ودرجة رفايته سواء في ذلك الرجال والنساء  
ومن اعناء المشرقين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء  
خدمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقين بالدخان واعنائهم به  
هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري  
ولقد طفت البحار وجبت القفار فهاً اجتمعت بقوم الا  
وجدتهم يشربونه او يعضونه او ينشقونه فما قدر لي ان اتعاطى  
شيئاً منه خصوصاً لما رأيت من حال رفعتي الذين يتعاطونه من  
الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يجنج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فانحك نصيحة اخ مشفق  
ان لا تشربها ولا تقربها

المسامرة ( ١١٤ )

البنّ

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في  
المستقبل فلا ادري ما يقدر عليّ واخشى ان طالت بنا الاقامة  
هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد  
اخبرني والدي انه لم يتعاط النشوق الا للاستعانة على السهر في  
طلب العلم ثم لما تمادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك القهوة فانه

ايضاً اعتاد شربها وانكبّ عليها انكبأباً زائداً فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فماله هنا ترك هذه العادة واقلل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيد محبوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضاً عمّت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بامريكا ولم تظهر بايطاليا الا سنة الف وستائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندره الا سنة الف وستائة واثنين وخمسين وبميسيليا الا سنة الف وستائة وواحد وسبعين وباريز الا في سنة الف وسبعائة وسبع وستين وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه



شجرة بن من مدينة أمستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل  
منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فبات اثنتان  
منها في الطريق وسلمت واحدة فغرسوها فلما اثمرت اخذوا منها  
وزرعوا فلما اثمرت اخذ منها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومناك  
الى ان ملأت اشجار البن اكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم  
ولولا ذلك لعزت حبتها وغلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في  
سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليوناً  
كيلوجراماً

وبيانه من بلاد البريزيلا مائة وثلاثون مليوناً ومن بلاد  
جافا خمسة وخمسون مليوناً

ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليوناً  
ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليوناً ومن جواترا خمسة عشر مليوناً  
ومن كوبا اربعة عشر مليوناً ومن سومترا خمسة ملايين ومن  
كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف  
مليون ومن جزائر اللاتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن  
جزائر اللاتي الفرنسية والمولاندية مليون ونصف ومن ماني  
مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقيا وغيرها ثلاثة ملايين  
فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جداً وهو اطيب انواع البن  
والذها واكثرها مادة

وقد احصي البن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين  
فبلغ ٢٤٠١٨٠٥٥٥ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في  
تلك السنة بعينها ببلاد فرانس ٢٧٠٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرها من  
بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كفا  
ولا عزبة في الدنيا الا ولاهها شغف بشرب القهوة الا انها لا يصلح  
لزراعها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من  
هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين  
درجة مئئية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زراعها ان  
تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع  
ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهراً فاذا نقلت جعل بين كل  
شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار  
الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامته للمتصف  
بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع  
ويلزم لها الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى  
شرب الماء كثيراً وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عاماً  
او اربعين وزهرها وان كان لا ينقطع في اكثر السنة الا ان المعول  
عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط  
الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من  
يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصراً ثم يهزها فيسقط منها على الفرش  
ما طاب فيجمعونه ويتمون تجفيفه في الشمس وله مدقات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانياً وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يوماً وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يجففونه ثم يضعونه في طرود وزنايل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يتعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحميصه وسحقته ووضعها في الماء او صب الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فعملوم عند كل من يتعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يباليغ في تحميصه ومنهم من لا يباليغ ومنهم من يسخنه في مسخن من فخار بآلة من خشب ومنهم من يدقه بمدقة من حديد ومنهم من يطحنه يده في طاحونة ويتغير طعم القهوة لذتها تبعاً لطرق التحميص والعلامات الدالة على جودة استواء تحميصه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحميص ونداوة الحب ولعانه وميله الى لون بين السواد والحمرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث وينقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمناً في المخازن ضاع كثير من مزايه وبن مخا تضع اكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي اكثر من ذلك كانت

اشهى واجود وما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد  
التحميص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك  
لاجل ان لا يتبخر مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته  
ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يتصعد  
كثير من بخار القهوة وتضيع اكثر مزايها وللناس كلام في شرب  
القهوة فمنهم من ذمها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بحمل  
كلام من ذمها على الاكثار منها وكلام من مدحها على التقليل  
قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية  
بالمجواز وعدمه والمحق انها يعتمريها الاحكام بحسب ما يترتب عليها

### المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انهما تذكر الوقت المقدر لهما فكراً راجعين فلما دخلا على  
الشيخ والانكليزي قال لهما الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاء كما فاخبراه بتقابلها مع الخوaja موريس وما صنعه معها من توجهه معها الى الحكيم واخذه منه خطابا للحكام الاستباليات فقال لها الخوaja قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون الى بستان النيات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى قصر الملك فقال الخوaja للشيخ هاهنا طريقان احدهما من وسط البلد من المحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايها احب اليك فقال الشيخ اظن ان الذهاب على شاطئ النهر اشرح للصدر واجلى للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخير الخوaja الشيخ بين النزول في البحر وركوب سكة الحديد فاختر طريق البحر لما فيها من الاطلاع على الفوائد الجممة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معها على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح المخاطر ثم ان الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتمها دكاكين وخانات منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يسارا نحو النهر رأى اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعته على الارض ومنهم من هيا لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وأنا بمصر اذا رأيت المراكب التي على سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدھا شيئاً بالنسبة لما اراه هنا فقال الخواجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئاً بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزناً عاماً لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهارها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدوداً من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جريدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسة ائنين وستين متراً ويسير اولاً من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديماً بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كتيل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهته خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحددة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثمانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الاطلنطي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفاً واربعمائة متر وليس عميقاً وارض قاعه رملية وجزوءه المنحط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضاً نهر يقال له نهر الرين منبعه جبل سانجوتار ومصبه البحر الايض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعائة

واربعة وخمسين متراً واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق ويتجه بين  
 الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشاخنة  
 وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون  
 اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى  
 اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق لسان  
 العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومتراً  
 وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها  
 اثني عشر كيلومتراً وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريباً  
 ويفصل ما بين فرانسوا واقليم سفولا واقليم سويسرا وينصب فيه  
 اربعون نهراً جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة  
 مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزان وبعد خروجه من تلك  
 البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرانسوا ويأخذ نحو الجنوب  
 ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكوّن عنه مع  
 نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي  
 تلي باريز في الشهرة بفرانسوا فيكون جانب من تلك المدينة على  
 احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليهما قناطر للمرور  
 وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدد اهلها الان  
 مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات  
 ورش ومعامل خصوصاً للحرير وقد مر عليها من الحوادث الطيبة  
 وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصاً ايام الامم المتبربرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعع دولة الرومانيين  
وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تخناً لملكة البرغوني ولم تدخل  
في حكم مملكة فرانسوا الا سنة الف وثلثائة واثنى عشر ايام الملك  
فيليب الملقب بالخبيل فلما قامت الفرنسية ارادت الخروج عن  
الطاعة فحصرها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود  
ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة  
ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف  
من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه  
بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها  
بغته وتكبر سرعته وجريانه فيمرّ بمدن وقرى وحصون كثيرة الى  
ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدها يسمى الرون الكبير  
يسير الى الجنوب الشرقي والاخر يسمى الرون الصغير يسير الى  
الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق  
والاخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين  
احدهما يستمر له اسم الرون الصغير والاخر يسمى الرون الميت وجميع  
هذه الاقسام تصبّ في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى  
منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة  
وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا  
نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من  
ارض فرانسوا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة



عن احد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كغيره  
من الانهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم

واما نهر السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع  
منبعه عن مصبه اربعمائة وستة واربعون متراً ويمر من جهة الجنوب  
الشرقي الى الشمال الغربي مستقيماً الى ان يتجاوز مدينة تروى  
فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن  
وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل  
باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها منتزهات الملوك  
وعلى يساره على بعد ثمانية الاف متر مدينة ورساي التي كانت  
مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي  
المشهورة بمجادثة قيام فرانسوا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة  
الغرب مدينة سانسير المشهورة بمدرسة البياده المعدة لتحضير  
ضباط البياده الفرنسية ويمر ايضاً بمدينة ساندنيس المعدة من  
قديم الزمان لدفن ملوك فرانسوا الى الان ومدينة روان التي  
كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من  
المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورش ومعامل  
وكانت سابقاً من القلاع المحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم  
ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر  
الملح قريباً من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستمائة  
واربعون الف متر والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبه انهار صغيرة فعلم ما ذكر ان  
 نهر السين ليس أكبر انهار فرنسا وان كان أكثر منها نفعاً  
 لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لاسيما مدينة  
 باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض  
 مصر عموماً صعيداً وبحيرة وتبتدىء زيادته بعد النقطة القطبية ويتم  
 ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهار وللنيل خواص كثيرة  
 منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع  
 ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب او بالعكس ومنها  
 انه من المخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب  
 فيه غير نهر ادبرا

وما اخص به هذا النهر ما ياتي معه من الزبد الذي  
 لولاه ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان  
 حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجرياً وأكثرها للارض فائدة ورياً  
 وخصباً وطمياً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جرياً  
 لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة  
 وسبعون الف متر وأكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته  
 عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في  
 الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فوجيا طوله ثلاثة ملايين وثلاثمائة واربعون الف متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم الداخلة وانحارجة من المديرية الى التخت فضلا عن نقل التيل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعائة وخمسون الف متر ونهر الدون بالبال المهملة ببلاد روسيا طوله مليون وسبعائة وثمانون الف متر ونهر الدينير في بلاد الروس ايضا طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله مليونان واربعائة الف متر وعرضه خمسائة وخمسون مترا وهذا النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلثائة الف نفس وقيمة ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثائة مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية خايجيا كبيرا لاصلاح زرعهم طوله الف واربعائة واثنان وثلثاون كيلو مترا

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنجال طوله الف ومائة وخمسة وعشرون فرسخا واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في اضيق طريقه ثلثائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفاً وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر متراً الى عشرين ويبلغ في بعض الجهات ستين متراً وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسوا سبع مرات ويقطع في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال انكليزية وايام زيادته يعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون انحدار مجراه جزءاً من مائة جزء من المتر واكبر فروع نهر المصوري وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الفا متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة وسبعون فرسخاً ونهر البلانا طوله نحو ثمانية فراسخ

واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى المالح جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحته سبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جداً لان المحس الذي طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جداً حتى ان اكبر سفن المالح تصعد فيه الى مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة وفي ارض كندا بامر يقا نهر سانلوران عرضة عند مصبه عشرون الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون عرضه اثني عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خيلجان اكبرها خليج

ويلاند المار من بحيرة ايرية الى بحيرة اونتاريو بعد ان  
يجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون  
الف متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام نقصه تسعة وعشرون  
متراً وثلاثا متر وعرض قاعه ثلاثة عشر متراً وثلاثا متر وعليه  
سبعة وعشرون هويساً موزع عليها الانحدار الكلي بين البحيرتين  
وهو سبعة وعشرون متراً واما من خصوص عظم السرعة والجريان  
فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيحون)  
والدانوب (الطونة)

وفي جميع هذه الانهر تنصب انهر كثيرة فنهر الدانوب  
ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه  
ثلاثة وثلاثون نهراً وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها  
واتساعها طولاً وعرضاً ليست شيئاً بالنسبة للبحر الملح فانه  
لو فرض جفاف البحر الملح ونضوب الماء عنه وسلطت  
عليه جميع انهر الارض فلا ثملاء كما هو الان الا في اربعين  
الف سنة

فقال الشيخ قد افدني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا  
كان له في النفس خيال فلهه درك من حبر خبير وعارف بصير  
ولكن مع ذلك فالليل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد  
ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار  
الدنيا كما قيل في ذلك

وأفضل المياه ماء قد نبع  
بين اصابع النبي المتبع  
بليه ماء زمزم فالكوثر

فنبيل مصر ثم باقي الانهر

وللنبيل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد عند الحاجة وينقص كالعاقل المدبر الشفوق فياتي الى الارض في اوان اشتداد القيط والحروببس الهواء وجفاف الارض فيسقيها ويرطب الهواء وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا بطغى على البلاد بالفساد والانهار تأتي من جهة المشرق الى المغرب وهو ياتي من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرها على اصلاحه متصلاً وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدرج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خراج غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وارواها واعمها نفعا واكثرها خراجا وبالجملة فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل ومدحه نظماً وثراً قديماً وحديثاً فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل النيل ولا كثرة مزايا ولكن لو تأمل الانسان لوجد ان كل نهر في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطيف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان كان نهر بعيد العمق جداً اثر ذلك في الجو فتتقص درجة الحرارة في وقت الشتاء تدريجاً ويستحكم البرد الى ان يجهد ماء النهر فان كانت الاقطار متوسطة البرودة في الشتاء بان كانت لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مئبية لم يجهد الماء الا اذا بلغت درجة البرودة ثماني درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمان وخمسين الى ستين درجة من العرض فان بردها يكون شديداً وقت الخريف لتأخر ذوبان الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوّ بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبني على ذلك ان اتجاه الابجرة الرديئة تتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت حتى سرت الى مدينة سوبل لان نهري سان لوران وجوادي الكبير قد نشرا في داخل المديربات ابجرة السواحل فالانهر وان كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضانها وحصول النشع منها وشدة تقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها مضار كما يحصل من النيل والكنج والمسيبي والامزون فانها بعد نزولها تترك منافع وبركاً فيتولد عنها امراض بسبب الابجرة الرديئة المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على ان طول الاقامة فوق الانهر التي  
 بالبلاد الحارة مضره ضرراً بيناً ودلت التجربة ايضاً على انه اذا  
 مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت  
 واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف اهل البلاد  
 المعتدلة والباردة

والحكم التي اودعت في المياه كثيرة لم تقف الا على بعضها  
 وعلى الانسان ان يبحث عن خواصها وخواص غيرها على حسب  
 الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئاً عبثاً

---

المسامرة (١١٦)

الاحجار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت  
 غير هذا وكانت العربية قد وقفت بهم على باب عظيم مرتفع



فنزّلوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المامور فلما رآها قام  
لها واجلسها وامر لها بتهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان  
التقصّد الزيارة فرحب بهم وقام معهم واراهم عنابر المعادن واحداً  
واحداً ثم وقف بهم على طاولة ممرّدة من قوارير وفيها من  
جميع الاحجار التي يتعلّى بها وقال للشيخ ان هذه الاحجار هي مثال  
الاحجار النفيسة التي يتعلّى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر  
الفيروزج وهو نوعان نوع سماوي اللون مركب من اوكسيد  
الحديد والنحاس والنوع الثاني عظم قد استخرج مع فوسفات الحديد  
وهو يوجد عروقاً في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من  
بلاد العجم والجمهورية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللؤلؤ والذهب  
وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من  
ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر  
يوجد في بلاد البهم والحجر في الصخور البرقانية وله معامل في  
بلاد الحجر والبهم والتيرول

والزمرّد المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين  
وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرد مصر  
والييرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب  
بمصر وغيرها

واحسن زمردة معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة  
ببلاد الموسكو والزمردة الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرّد عادة

## مغروساً في الصخر

وأما الباقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والساوي ومنها الاحمر الثاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي اللون متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر الياباني والصنّاع تخال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منخبة او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر اليشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يوش في جميع الاحجار ولا توش فيه ولا يجلي الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحماً نقياً خالصاً واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم نتون ومن بعده سلط عليه بعض الكيماويين تياراً كهربائياً شديداً فانحرق وصار فحماً كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبريزيليا والسيبيريا ويوجد بين صخرارض الرسوب القديمة

التكوين المتقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الجدد في استخراجها من محاجرهم ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبنجال وجزيرة بورنيو واستكشافه في بريزيليا كان في القرن السابع عشر في مديرية ميناسجييري والمستخرج منه غشيا كل سنة في جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي ونقي لا يبلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراجها بالبريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده فيها ثم تغسل في حوضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على حافظها ويده قطعة خشب مجوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر بشيء منه ومن اعتياد العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيء منه ولو صغيراً جداً ومن عاداتهم ان كل من وجد شيئاً منه ينادي باعلى صوته قائلاً قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت قطعة كبيرة كافأ عليها وربما اعنته في نظير ذلك

وقال بعض المؤرخين ان حرك الاملاس واستعماله قديم لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعائة وستة وسبعين من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل نروج مع ان هذا الحجر وجد في بركة الدوك دنجو سنة الف وثلثائة وثمانية وستين محكوكا فلذا حكم بقره حكه

وآلة حكه عبارة عن قرص من الفولاذ اذقني الوضع يتحرك  
 بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس المحاصل من حك  
 حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصلب ولهم في ذلك  
 طرق والمعلوم الان ان الماس المستعمل بين الناس على  
 هيئتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردة

والثاني المعروف بالبرلاتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل  
 ذو اسطحة مثلثة والوجه الثاني مستو يخفي في مادة التركيب سواء  
 كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلاتا فكلا  
 وجهيه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثية او معينة  
 والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقئ مكشوفاً في  
 تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل  
 واختلف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة  
 التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين  
 فرنكاً وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من الميليغرام وقيمة  
 القيراط المستعمل في الحلئ تساوي ثمانية واربعين فرنكاً اي ان  
 قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكاً وذلك اذا  
 كان وزن الحجر قيراطاً فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة  
 بضرب مربع الوزن في ثمانية واربعين واما المصوغ قيمته  
 تابعة لهيأته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بخزانة

ذخائر فرانسا وكانوا قد عثروا به علي بعد خمسة واربعين  
فرسخاً من جنوبي جلو كند ووزنه غشما قبل حكه كان اربعمائة قيراط  
وعشرة قراريط واقاموا في حكه سنتين وبعد الحك صار مائة  
وسبعة وثلاثين قيراطاً وبلغت قيمه ذلك الحجر ثلاثمائة واثنى  
عشر ألفاً وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون  
الفاً فاشتره الدوك دورليان بثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة  
وسبعين الف فرنك وهو الان يساوي ثمانية الاف الف  
فرنك

ومن الحجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلو كوند  
غشيمه اوزنه ثلاثمائة واربعون قيراطاً وقدروا قيمته خمسة  
ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون  
قيراطاً وكان معمولاً عيناً لصنم بمعبد براهمة فاخذه احد عسكر  
الفرانساوية وباعه بخمسين الف فرنك ثم صار يتقل من يداى  
اخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بالنفي الف ومائتين  
وخمسين الف فرنك

وفي ذخائر انمسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطاً  
ونصف قيراط وبقال ان عند ملك البرنقال حجراً قدر بيضة  
الدجاجة وزنه الف وستائة وثمانون قيراطاً ولم يره احد  
من اخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطير وراهم ما فيه ومنه الى عنبر الحشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد  
الكياوية ومنها الى محل الالات وارايم بعض خواصها فكان كل  
ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في  
الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه  
لضرورة المرافقة كان مجبوراً على الموافقة وكان في جملة ما رآه  
في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعاً  
شديداً ولكنه تجلد حين رآهم لم يكثرثوا بها وما رآه في عنبر  
الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والنمورة والظبا والقردة  
والقيلة والزرافة والأيل والحمر والبقر الوحشية وكذلك انواع  
الطير والحيوانات البحرية كالدرفيل وفرس البحر والتمايح فأوا  
حولها اطفالاً ترمي لها خبزاً فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة  
خلقا كثيرين يضحكون على العابها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم  
على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد  
ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية  
وغيرها وارايم نباتاً مغطى بسقف من زجاج وبين لهم الطرق التي  
تزيد في الحرارة وبالجملة فلم يدع شيئاً بالبستان الا اطلعهم عليه  
وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم  
قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان اتشرف بحضرة الشيخ في يوم  
غير هذا لاربه ما يجب ان يراه مما لم يره في هذا اليوم فقال  
الشيخ لا بد من ذلك لاحظى برويتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال المأمور للشيخ ألا أخبرك بأصل هذا المكان قبل ان  
يعد لما رأته به من انواع النبات والحويان قال نعم فقال اصله كان  
فضاءً من فضات باريز فلما جاء لوزير الثالث عشر اصدر امره  
بانشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها  
بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فانشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تتقدم  
كل سنة عن السنة التي قبلها الى ان جاءت سنة الف وستمئة  
واثنين وثمانين فجعلها بوفون مؤلف كتاب حياة الحويان والتاريخ  
الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها واحداث فيها مدرسة لتدريس  
العلم

ثم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة  
لوائح وقوانين وامر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بوبرساي اليها  
فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام الا ويجلب  
اليها من المستغربات وانواع الطير والحشرات ما لا يحصى

المسامرة (١١٧)

الهوا. والماء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فيما دخلوا القهوة الا والمطر قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو من البرد فقال الخواجا ذلك ناشىء من اختلاف الاوضاع الجغرافية للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قد يشتد



البرد حتى تجهد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار  
 وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطراهل تلك الجهات الى الاستمرار  
 على ايقاد النار فيكون في كل مكان متقداو اكثر ويلبسون ثقل  
 الثياب كأنفراً وانضربات وكما نزل الانسان الى الشمال ازداد  
 عليه البرد والثلج وكما سعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة بجنّاج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا  
 الى مبيتنا فلما هدأ المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ  
 لخواجا انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهواء ولو كان في غاية  
 من الصفا لا بد ان يحمل معه ابخرة مائية متصاعدة من الانهار  
 والبحار والريح توزعها في الجهات فزرقة الجو المتد في السماء الى  
 ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط  
 بجميع كرة الارض والخلق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن  
 فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق  
 وكل حين يتصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك  
 الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان  
 ونبات وقد غلظا من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا  
 بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار  
 والبحار الى الجو بكمية ثقل وتكثر فعلى كل مستودع ماء من نهر  
 او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه  
 تحول بواسطة الهواء الى رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

قلة وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهواء زيادة عن غرام واحد اي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة غرامات ومن درجة عشرة الى ثلثين تكون غرامات البخار التي ينتصها الهواء موافقة لارقام اقسام الترمومتر فان زادت درجة الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من البخار بقدر حجمه وساوت حينئذ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك تزيد قوة البخار على قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان كمية البخار التي في الجو ولوانها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدها دون الاخر او كثرت عليه اكثر من الاخر فكلما مر عليه ريح تشبع منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفاً او قليلاً وحينئذ فتصاعد الابخرة وتوزعها في الجهات تابع ايضاً لكثرة هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشبعاً من البخار او قريباً من التشبع وكلما صعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك بحسب توزيع الانهر والنجبان والبرك والجبال والغابات واختلاف الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى ففوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشعبا بالبخار او قريبا من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافا ليس له الا خمسة عشر جزءا او عشرون جزءا من مائة ما يمكن ان تشربه وعلى العموم فمقدار البخار في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار التشعب ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشرته من الحرارة مدة النهار برده ثانيا الى الجو في الليل فاذا ردت التقطته الابخرة المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف بمظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا البخار هلك ما على وجه الارض كما مر وكلما جف الجو اشتدت حرارة الارض ففي النهار توثر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة وفي الليل ينبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك الحرارة فكلما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليلا شديدا البرد لان كمية البخار في تلك البقاع تكون قليلة جدا فلا تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء وما سبق يعلم ان البخار المائي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية الساقطة على الارض ومانع لها عند انعكاسها من الارض الى الجو من ان تضيع في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع البخار اشعة الشمس الساقطة الى

الارض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعا او لم يمنع واحداً منها

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة من الشمس الى الارض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الارض الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريعا ولا يسخن الا بعد مدة وما ذلك الا لمنع حرارتها دون ضوئها فكذلك بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من الارض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها

ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الجو لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجو لا صعوبة في تخليص الهواء من الابخرة المائية المتزجة به فان ذلك يحصل بتبريده كما لو أخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركها برهة من الزمن فانك ترى سطحها قد كسي بابخرة كالندى فكذلك يكون الجو اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية تتجمع وتصير ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فهمه من النفس في وقت البرد رأى بخاراً ظاهراً للعيان وكذا اذا نظر

الى الابخرة المتصاعدة من دسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار يرتفع ثم ينزل على الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منهما عبارة عن تجمع كرات صغيرة حاصلة في الجو ولم تنفق اراء الحكماء من الطبيعيين في تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب مناف للصحة ومؤذٍ للاجسام وهذا حق لان الضباب علامة على كثرة الرطوبة في الجو وانها متكونة في هواء راكد قريب من سطح الارض تتجمع فيه الابخرة المتصاعدة من القرى والمدن والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى صادف تكوُّنه في الجو سقوط ريح باردة من الطبقات العليا من الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهة العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يتميز عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يتكون من ابخرة ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتقطع السحابة الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تمزق ثانياً وكثيراً ما يفصل السحاب ما ينزل على الأرض  
مطراً قليلاً أو كثيراً فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو  
فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى  
يسقط على الأرض فقال له قد عرفنا ما سبق انه لا بد لفصل  
الماء من الهواء من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة  
تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته  
وبانبساطه وتمده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان  
في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف  
الآخر مكبس فكلما زهد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت  
حرارته فما انتهى الكبس الى الآخر الا وقد انتهت الحرارة فاحرقت  
الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء وتقص حجمه  
يزيد حرارته وبضدها تميز الاشياء في الطبقات العليا من الجو  
تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الأرض  
لاتساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينهما توازن فترتفع  
طبقات الهواء القريبة من الأرض الى الاعلى فتنبسط وتترك ما  
فيها من الابخرة فتسقط ثلجاً او برداً او مطراً على حسب شدة  
البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدتها جبل لم تقف عن سيرها  
بل ترتفع في الجو وحينئذ يقل الضغط عليها وتبسط وتبرد  
وتنفصل عن اجزائها فتصير الابخرة مطراً ونحوه ومن المشاهد انها  
عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل يسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقلته وتصادم تيارات  
 الهواء بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل  
 بمصادمة الاهوية للموانع المارة فسقوط المطر حينئذٍ تابع لحركة  
 الهواء وكل سحابة شاهدناها انما هي تاج لعمود من الابخرة صاعد  
 من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله تقطاً صغيرة  
 بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطة لا تزيد عن مليتر وبسبب  
 تحرك الهواء تتلاطم تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصبح نقطة  
 كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة  
 قدر سائيمتر فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح  
 شمالاً ويميناَ فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً  
 بحسب قوة الهواء ولا تنزل في خط رأسي بل تكون في نزولها  
 مائلة قليلاً او كثيراً وقد يشاهد عند سكون الريح سحب مرتفع  
 ارتفاعاً عظيماً وذلك ناشئ عن تبادل حاصل بين السحابة وما  
 تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا نقط ما الى اسفل منها  
 فاذا وصلت الى طبقة حارة تجرت وارتفعت ثانياً وهكذا فيكون  
 بين السحاب والابخرة ذهاب واياب فاذا تغيرت درجة الحرارة في  
 جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يتأمل في السما بعد الظهر  
 يرى السحاب يتجمع ويتفرق او يأخذ في الزوال ويتكون عن  
 ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يخلف باختلاف  
 البلاد تبعاً لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قربية من المساكن وتارة تعلقو روؤس الجبال وتارة ترتفع في الجو وأكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسمائة واربعين متراً كما اعنبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة الاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو اكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في اوروبا يختلف بين ألفي متر وثلاثة الاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيرني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيراً في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضاً سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظامها تارة يقل عمقه وعلى العموم فختلف حالته الوسطى في جهات البيرني من ثلثمائة متر الى خمسمائة بحسب البقاع وكثيراً ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد نقل وتكثر على حسب الاحوال وكمية الامطار الساقطة سنوياً على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب الممالك او جهات المملكة الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر المالح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بمجزائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين متراً مكعباً وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة



وتسعين وفي ونديك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي باريز مثلها وفي مرسليليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر مما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشدة بردها تجذب السحاب اليها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال الشائخة لانها قبيل تغيير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدر اهل رصدخانه باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا ما نزل بالساحة اكثر ما نزل بالسطح وذلك ان حبات المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع ماء المطر فوق السطوح خمسمائة مليمتر وعلى سطح الارض خمسمائة وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على الاسطحة بنحو التسع وكلما ارتفعت ارض الولاية عن سطح البحر الملح كانت بعيدة عن الابخرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملائم لسفحها والابخرة الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد اخبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتر والنازل بغيرها ألفاً وثلاثمائة مليمتر واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين الى خمسمائة وثمانين متراً مع ان ما ينزل في جبال الغوج يختلف من الف مليمتر ومائة جزء الى الف مليمتر ومائتين وما يفعل في درجة الرطوبة بالقلّة والكثرة القرب او البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهابّ الرياح وجنس الارض التي تر عليها ولذلك كان ما يقع من الامطار على سواحل البحار اكثر مما يقع في داخل الارض وبالتجربة وجد ان ما يقع في المديرية الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة واربعون اصبعاً مع ان ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تأتي باخرة البحر الاطلنطيقي والمتوسط الى اوروبا وكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشامخة يشاهد بجهات نورويج وسواحل افريقيا الغربية ضباب مستمر وامطار كثيرة ولعلو جهة مدينة مدريد بالاندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم ان الامطار تنقسم الى منتظمة وغير منتظمة تبعاً لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالباً في الاقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيها مع مناسبة هيئة الارض فيقع منها في الاوقات الحارة اكثر مما يقع في الاوقات الباردة واما المنتظمة

فيبتدئ سقوطها في المنطقة الحارة متى سامت الشمس الرأس  
 بتقدمها الى المنقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى  
 المسامته الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الافرنجي وتقوى في  
 شهري اغسطس وسنبر وتقل في شهر اكتوبر وعلى العموم تظهر  
 الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدئ من شهر اكتوبر  
 وتستمر الى شهر دسبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة  
 الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والاندلس والبرانس  
 من فرانس يكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي  
 الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى  
 الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين  
 الى خمسين كبلاد فرانس والمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل  
 الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى  
 خمس وخمسين كبلاد الفلمك والمانيا ينزل المطر ويكثر الضباب  
 في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان  
 وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونورويج اكثر مطرها في فصل الربيع  
 مدة قليلة ايضاً والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين  
 كبلاد لابوني وسبسيور وكشكا اكثر نزول مطرها في فصل  
 الصيف وما ينزل باوروبا ليلاً اكثر مما ينزل بها نهاراً والاقاليم  
 الموارية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل  
 الشتا وهي قليلة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات أكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطفة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلوا على ان للبقعة تأثيراً في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنجال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل مما ينزل بغيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيين تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوربون تسعة وثلاثون اصبعاً وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع اكثره في الزمن القليل ولبس في الجهات اكثر مطراً من سواحل مالابار واركان وجبال حملايا لان اكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الانجرة اكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقية وسواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتحلل وينزل حتى يملاً الاودية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هناك مرتفعة عن المالح بقدر الف وثلثمائة وستين متراً فوجد بعد عدة تجارب عملت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر متراً الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد كما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا يتقص متوسطه في سبعة اشهر من السنة عن اثني عشر متراً ونصف متر وقد شوهد في هذه النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على ارض فرانساً وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما يقع في سواحل الهند متر واربعه اخماس المتر وما يقع على الجبال الداخلة فيها يكون قدره ثمانى مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللتر الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين سانتي متر مكعبة من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعه اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المتادير تختلف باختلاف الارتفاع ففي الارض المساوية لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستائة واربعين متراً يكون قدر هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة الاف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضاً وقد يكون في المطر ايضاً ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومتى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها  
 في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة  
 لمخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للتخزين  
 لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في  
 جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الانترية ففي بلاد الانكليز  
 وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشاديرية  
 كالكربونات والنترات وذلك اكثر ما يكون منها في ماء الانهار  
 وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثانيا  
 مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من  
 الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا  
 يحيط بكنهها نقل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق  
 فمثله كمثل طائر نقر في البحر نقره فهو وان روي بها ما اخذ منه  
 مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من  
 العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخالصت سريره يرى جميع  
 ذلك ما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات  
 والارض واخلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما  
 ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد  
 موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر  
 بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

فقال الحوaja وازيدك انك اذا تأملت في المطرحال نزوله  
وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهاً بتقطير الماء في  
الانبيق فان اشعة الشمس تكون كأنها الفرن له والبحر الملح كأنه  
الانبيق والجو المرتفع كأنه تاجه والمجھات الباردة من الجو وشواشي  
الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المنجمدة هي المبرد له والانهر  
والمخجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي ترد الى المالح جميع ما  
اخذته منه وهذا مستمر الى ما شاء الله فكلما اندفقت مياه الاوعية  
في الانبيق تصاعدت ثانياً ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق  
وهكذا فللماء الحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم  
والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح  
وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخاراً  
ثم يتعقد سحاباً ثم ينقلب بخاراً ثم ماءً ثم ينزل ويجري في مجاريه  
ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل  
يخيل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي  
يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة ماءً

ومن عجيب لطف الله ان البحر الاستوائية بفعل حرارة  
الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية  
تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها  
وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والمخجان تقع على سطح  
الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض الهشة وبين الاحجار وفي جذور النبات وسيقانه وفي هذه  
السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية الخفيفة في جوف الارض  
ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تتحد بغيرها  
فتكون مواد يسميها الكيماويون الادرات او انها تكون في المناقع  
فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتحميها  
ويتحصل عنها مواد فحمية وليس من دايها الدوام على حالة من  
الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة  
تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجو ومنه ترجع الى سائل  
او ثلج او برد او جليد ثم تنقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تتقل  
الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جذور  
النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي  
يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرك  
للوابورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع  
الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخاراً فلا  
تغير من صورة من هذه الصور الا لتاخذ ما بعدها فاذا تركت  
البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى  
البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات  
السفلى من الارض وتصاحب الريح وتتبع ميل الارض وتكون  
في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من ذخايرها  
فلا يعوقها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تنقل تقاوي النباتات



ويض المحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب  
 والزلط وتقلع الحجر والشجر وتحرق الارض وتهدم الجبل وجميع  
 هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون  
 والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان  
 شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرة فوق نهر السين ثم اوى  
 كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا  
 ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب  
 قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسيجة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد  
 برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق الماء واخذت  
 كفات الطارة تضرب في الماء فيحدث فيه زغوة ويزيد والسفينة  
 تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر والى الجبال والاشجار  
 التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حواليه  
 وخرير الماء يسمع بين الحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما  
 ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف  
 التي تتراح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال  
 له يا بني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعتريها كساد ولا  
 خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلبت به الطروس وبه  
 استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاوائل والاولاخر ولقد  
 احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذلك المغرس -

واعلم بان العلم ليس يناله

من هم في مطعم او ملبس -

واحرص لتبلغ فيه حظاً وافراً

واهبج له طيب المتام وغلس -

لتعز حتى لو حضرت بجلس

اكرمت فيه وصرت صدر المجلس -

ان الخلي من العلوم مقامه

عند النعال له صموت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه

لا يرى شيئاً الا ببحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما

يترتب عليه من خير وشرّ ونفع وضرر هكذا دابه وديدنه ما دام

حياً فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا

عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عذوبته او

ملوحنه ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه وباء كل الثمر

ولا يدري من اين اتمه الحلاوة واذا مر بنهر عجب من اتساعه

وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك

فكم من خالق تولد وتلد وتموت على شاطئه وهم على فطرتهم الاصلية

من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء

لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فمن

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجا قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى صارت نهراً يجري على وجه الارض يقتلع ما قابله من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلون بلونها فتارة يكون اصفر او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها كذلك تختلف اسماؤه على حسب ما على شواطئه من الجزائر والعيون واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقريره ما بعد من الاقطار فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شاء كما شاء بقدرته لا اله الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد ثم التفت وقال للخواجا ارجو من جنابكم الاطياب في هذا

الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لرائحة له وانما فيه جزء من الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نصبت وصلحت وان حلل به الصابون تحلل سريعاً وان غلي لا يتكدر وان قطر لا يرسب في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيوية تلزم لتكوين الحيوان ونموه فان كان فيه جبس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الحبيس حينئذٍ يلتف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها  
 ويمنع ايضاً ترغية الصابون واما الماء الذي لا يروي فليس فيه  
 من الهول الا شي يسير وبه مواد نامية متحللة فيه وذلك كما البحر  
 المالح وما غالب الابار وماء البرك الراكدة واصفى المياه وانقاها ماء  
 المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح  
 والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناءً على ذلك تقدر ان نحكم بان  
 جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكررًا بالطبي والأتربة  
 ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر  
 له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه  
 قليل من فحم العظام المكلسة في افران مخصوصة داخل اوانٍ مقفولة  
 فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها  
 ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعاً للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى  
 ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالبًا  
 لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن  
 الحكم لاكثرها فيه ظهوراً فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية  
 تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المذر  
 واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد  
 ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً وتختلف حرارة الحار  
 منها بسبب بعد الطبقة الارضية النابع منها عن سطح الارض  
 وعدم بعدها

فقال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطباء اي نوع هو  
فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها لان لم فيه  
قبل استعماله اعمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم  
يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة  
في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة  
عليه ينخل الى الماء المطلوب ويسمى بالماء المقطر وهذا اذا كان  
اللازم منه قليلاً فان كان كثيراً قطروه بالانبيق وهو عبارة عن  
اناء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت  
على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة  
حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها  
البخار ينقلب ماء فيصب في اناء اخر ويقرب الالة ماسورة اخرى  
لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خالٍ عن الرائحة  
والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو اتى فيه سمك  
لمات وبالجمله فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من  
الاسرار

فقال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من  
الماء كل شيء حي حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء  
بانسان ولا غيره

فقال الخواجا ومن وصل الى شواشي الجبال الشاهجة الموزعة  
فوق كرة الارض يطلع على الحكم العظيمة التي اودعها البارئ

سبحانه في هذا الجودر العظيم ففي شواشي تلك الجبال تكون  
منابع الانهر والخجان الحارية في جميع الارض وهي عبارة عن  
بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك البحائر ما ينزل من السماء  
وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به روؤس الجبال الشاخنة  
فترى للجبال حكمة تجمع المياه التي استعارتها السماء من العجر بواسطة  
الشمس وحكمة ردها الى العجر ثانياً بواسطة الانهر والخجان  
ومحوها فوضع الجبال على الارض تابع لقاعدة ثابتة وقانون لا  
يخجل به نظام العالم فترى سير الانهر دائماً تابعاً لسير الجبال  
فسلاسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خط سيرها من الغرب  
الى الشرق وفروع الجبال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب  
فنهـر الفرات وخليج لعجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار  
الصين اتجه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر أوروبا وأفريقيا  
واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من  
المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك  
الا نيل مصر وبعض خجان ببلاد المغاربة وماء المطر الذي  
ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تبتلعه فيجري  
في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفوذ منها فيتبع سطحها  
ويتجمع ويتكون منه ما متسع فاما ان ينصرف الى العجر او الى  
الانهر او يبقى في هيئة برك تفعل عليها احوال موضعية تردها الى  
سطح الارض وهناك انهار وخجان تكون اولاً على سطح الارض

ثم تغوص في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يخفي ولا يعلم امره ومنها ما يخفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد الاندلس يخفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر ثانياً بعيداً عنها ونهر الموز في فرانسا يخفي بالقرب من بلدة باروى ونهر الدروم منها ايضاً في ولاية النورماندي يخفي في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها عشرة امتار وامثال ذلك كثيرة ومن الجائر ما يجف في بعض الازمنة ويغور مائه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت المعين ينبع الماء فيملأها ثانياً كما كان كبحيرة كيركينثز من ارض الكارينول وقدرها فرسخ عرضاً وفرسخان طولاً فتكون في فصل الشتاء غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعها بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك العيون بعينها وجرى الماء حتى تمتلئ وتعود كما كانت وكان بالقرب من قرية سبله في ولاية الانجو عين ماء قطرها من خمسة امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك وسطح الارض مركب بطبقات بعضها فوق بعض فيها مجارٍ للماء متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المحس بقرب ناحية ديب في قرية سنيقولا مجاري مياه تقرب من ماء يجري مفصلاً بعضها عن بعض بطبقات الارض ووجدوا بها اغصاناً عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تثكت زمنا في باطن الارض وان للماء الذي على وجه الارض اتصالاً بها في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئاً وكما بعد عن سطح الارض اشتدت حرارته فلذا تجد ماء العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ايضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقتها والان قد استعمل الاطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيوناً في اسلنده تنفجر من باطن الارض فتندفق دفقات بين الدفقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دفقة عمود من الماء غلظه نحو ثمانية عشر قدماً فيرتفع في الجو نحو مائة وخمسين قدماً ثم ينحني وينزل على الارض فيخني في جوفها فتنتفع لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقرة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الابخرة سخابة حاصلة من تبخر الماء وفي زيلنده الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والبخار وبعضها عظيم جداً تملأ الدفقة منه حوضاً محيطه نحو ثمانين متراً فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فاذا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن الجبال



ويلقيها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان  
ويأخذها معه في سيره وببلاسته للصخور المشته والاحجار اللينة  
يدخل بين جواهرها فيحملها ويزيل تماسكها فتفتت وتعدم وتنتقل  
اجزائها الى غير مواضعها والمحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري  
ببلاستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة  
وغيرها ودائماً تأخذ في صغر الحجم وقلّة الوزن حتى تدق وتعلق  
بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مها كان تماسكها وشدة صلابتها  
لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم المواد العائمة فيه  
وببلاسته للبرور يسويها وينظمها وبدخوله في اخلية الاجسام  
ومسامها يفتتها وكذلك اذا اتقل الماء من السبولة الى الجمودة  
ومن كل هذه الامور تتغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء  
يأخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء  
في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشيد الحكيم ان الجسم  
اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله

وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن  
ضعف الثقل النوعي للماء علمنا ان كل ما يأخذه الماء معه  
ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية  
فوجدوا في كل مائة وستين جزءاً من وزن ماء نهر (البو) جزءاً  
من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءاً من

الطين واما نهر الكنج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء اذان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة ايام ما قدر ضلعه الف متر واما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة اسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يليه هـ - ذا النهر في كل سنة فوجدوه قدر الهرم المصري الكبير باثنتين واربعين مرة وما يليه في اربعة اشهر فيضانه قدر اربعين هرماً وهذه المقادير التي يليها هذا النهر في البحر ولا يشاهدها الانسان تحتاج في نقلها الى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليوناً واربعائة الف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو اضيف الى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الانهر والخليجان الموزعة على سطح الارض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحقق ان الماء من آيات الله القوية الموكول اليها تغيير احوال الارض واوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الانهار مجمعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الارض وبعضها خفي يجري تحت الارض فيلزم ان تشمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجير والمجس وانواع الاملاح كالمنيزيا والسلجم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تغيير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات ان لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقي له حالته

الطبيعية وتلك المحكم اودعت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فينتخلص منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقاً لطبيعة ما فيه من الحيوانات وحيوانات المحار والشعوب لا تنغذى الا من المواد الجيرية فبعد ان تاخذها في جوفها وتسديها جرعتهما تذفها في البحر محاراً وشعوباً فانظر الى نقط المطر الصغيرة الواقعة فوق قمم الجبال في سيرها كيف تتحمل المواد الجيرية وغيرها لتكون طعمة للحيوانات الاخطبوطية الصغيرة ثم تذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها مسكناً لها ثم تتراكم شيئاً فشيئاً فتصير حجراً ثم شعباً الى ان تصير جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يخلف قوة وضعفا باخلاف عظم الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد ثقل الصخور الكبيرة وكثيراً ما تسحب معها احجاراً قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلقيه في البحر فيفتته حتى يصير ملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في وسطها او في سواحلها وكنيات الرمل التي نشاهدها في السواحل انما هي حاصلة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتحد من المحلات الشاخنة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحة فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يتلف الشواطىء والبرور وياخذ فيه الطين بالتدريج حتى يصير نهراً من طين وفي سنة ١٨٥٢ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاوجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السياحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجهد انهار البلاد الباردة فينجبس فيها كثير من الاحجار وغيرها ويتقل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها نقل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامريقة الخارج من بحيرة ايريه فانه بعد اثني عشر فرسخاً منها ينصب من علو في منخفض عظيم الانخفاض وينحدر ويسيل حتى يختلط ببحيرة اوتاريو وهناك يتقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدويهما صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلهما من حجر ومدر فبعضه يرسب في مجراها

وبعضه يلقبه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتبعاً وجمع ما كان متفرقاً فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعم باחסانه من احسن ومن اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر المصب عن موضعه

وقد شوهد سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو اربعين متراً فلو فرض ان التاخر في الماضي كان على هذا النسق كانت مدة حفره للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف عام وان كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن الذي كان يصب فيه ببجيرة ايريه وان استمر الحال على ذلك فعماً قريب تجف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبير بافريقيه لان به شلالات مرتفعة جداً يسمع لمائها دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي ترتفع وتخفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق حوله جبال فيكون للماء حينئذ دوامات وتلاطم امواجه فيسمع لها صوت مزعج ويصعد منها عهد من الماء بيضاء التواعد سوداء الرؤوس فاذا وصلت تلك العهد الى اعلي الصخور المحيطة به

انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فن تلاطم المياه ترى فوق الصخور سخابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم الصخور في ذلك المجرى الضيق جداً ترى المزاحمة والملاطمة تكثر وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطئ وتارة ينحبس في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيجفرها ويقلقل صخورها وبتمادي ذلك يتسع المجرى

وفي أرض السينيغال شلال نهر فيلو فان مائه ياخذ معه حجارة حمراء من حجارة شواطئه ومن كثرة ثقلها فيه وشدته واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد راوا على شواطئه في وقت التحاريق احجاراً مثقوبة واحجاراً تشبه الصور والتماثيل واحجاراً عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات وانجار حتى اغتر بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الاوهام الفاسدة فعبدها ويوجد ببلاد سويجيرة وجبال البيريني مصاب عجيبة الطفها شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جواراني وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنا عشر فتحة كالطاقات تسيل منها المياه باللامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين متراً فاذا هب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك روية تسر الناظر

وتشرح المخاطر ومن اعمال الماء ايضاً ما يعمله في بعض السنين وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور والشواطىء ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او ما كان اتى به من الطين ونحوه ويتوالي ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبحوار المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقيه البحر من جوفه فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة يستحوذ عليها الداس وتكسى رونق العارة بالمزارع والمباني والمنشآت الفخيمة وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة انواع من الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في الاجر المتوسطة والثالث في افواه الاجر عند مصبها في المالح وقدر الطين الراسب من نهر الرون عند مصبه كبير جداً حتى ان مدينة برتوس بعد ان كانت على شاطئ بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرناً صار بينها وبينه نحو الف متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقيه النهر في البحيرة وفي الامريكا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا بتمامها كمية عظيمة كل سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر الرون كوّن من رسوبه ارضاً متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الى يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تينومين الذي كان بناؤه سنة ١٧٢٧ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الان الف وستائة متر وكذلك نهر البرونهر الاربع اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابهما اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تقف عندها السفن زمن اغسطس رُدمت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سبينوا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الان بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوتروا فانه تحوّل عن مجراه الاصلي وسلك طريقاً في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة

وهناك انهار لا تحوّل عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائماً مغسباً فيها كنيّل مصر ونهر المسيسيبي ففي وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرقت الارض وبسبب كثرة ما به من الطمي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعا في البحر المحيط عوضاً عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه لان البحر ياخذ حينئذ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن تماذي هذا الفعل ياء كل مصب



النهر شيئاً فشيئاً ويدخل المالح في الاراضي ويتكون عنه خليج كبير  
ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن  
مواده الراسبة في مصبه الا انها تكون على التدرج ارضاً وتدخل  
في البحر كما شوهد ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في  
البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخاً في عرض  
اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مالحه كبيرة وصغيرة وصار ارضاً  
تاوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعماراً  
واهلها ثروة كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب  
البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد  
وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن  
مواضعها واما ذوبان الثلج المحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيراً  
ما شوهد ان السيول تكسو الارض الخصبه بالاحجار والزلازل  
والحصى وجذوع الشجر ونحوه فتصبح قحلة بعد خصوبتها ومثل ذلك  
يحصل من ذوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب  
فيضان نهرها ولم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل  
منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقلب كل ما التي فيه سواء

كان حجراً او نباتاً او حيواناً او غير ذلك

فقال الشيخ واين يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشيا عن

حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجراً فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثر فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتقلب حقيقتها ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حتماتها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بهيرون نابعة جهة كليرمون وسانتالبر وسانتنكتير من فرانساً متى التي فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم يستحجر

وفي اسيا الصغرى بمدينة هير وبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل يتكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تنبلعها الارض متى قابلت فجوة في الارض او مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبه وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بجمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتأخذها معها فتصب في مغارة او فجوة صادمت الهواء الجوي فينصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هيئات كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقفها اشكال على هيئة الابرنازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقاً زمناً قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهواء الموجود في المغارة فيتبخر ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

الجيرية وكلما نزلت نقطة حصل لها مثل ما حصل لما قبلها فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك النقطة في هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها بسقف المغارة وراسها نحو ارضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها هيات واشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يتشكل باشكال تعلق فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً ومنها ما يكون قصيراً غليظاً او رقيقاً وبعضها يتصل بالاولى او يقرب منها حتى ان من لاخبرة عنده بذلك اذا دخل تلك المغارات ورأى تلك العمد على هذه الهيئات ظن ان ذلك من اعمال القدماء الذين محبت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك كثيرة منها ما هو في مغارات جبال اليبيرني قرب بيزنسون من فرانساً ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة انتباروس ومغارة حان ببلاد الفلمنك ومغارة ارسى في بلاد سفوا ومغارة كردال ببلاد الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهير صغير يجري الى ان يصل جبلاً شاهقاً هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافياً لاكدورة فيه بعد ان كان محملاً بالطين والمواد الارضية فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في سيره يشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبراً

عبارة عن مغارات واولها تحت الارض بنحو خمسمائة قدم وطولها  
مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون ان سبب تلك العنابر  
زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية  
حجارة عجيبة اصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد  
المعدنية فيثقل ويقع في القاع وياخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها  
وبعد مدة يصير صخوراً ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية  
كما رآوا ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة

المسامرة (١١٨)

فصححة خارج باريس

وبيناهم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحض يعقوب  
لهم عربية فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة ارضها غير منتظمة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجاء تشبه باريز في  
 طرفها وحوانيتها واسواقها فسأل الشيخ عنها فقيل له انها تسمى  
 باللغة الافرنجية فنتين بلوأي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة  
 الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغربية ثم وصف  
 الخواجا لسائق العربية المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف  
 ببابه وكان صاحب المنزل غائباً فخرجت لهم زوجته وقابلتهم بالبشر  
 وحيّتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لهم بالتمهوه  
 ثم ارسلت الى زوجها فحضر وسلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم  
 وقال للخواجا لقد طوقتني منناً لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي  
 بمحضرة الشيخ وولده فاجابه الخواجا بكلمات تستجلب المحبة وتجري  
 في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنساوية فلم  
 يفهم الشيخ منه شيئاً فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه  
 حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه  
 اقام بالمجزائر عشر سنين فلما سمعه الشيخ قال للانكليزي لقد  
 قلدتني قلائد الامتنان اذ عرفتني بمن يعرف هذا اللسان فقال له  
 الخواجا هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا  
 هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي  
 ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تُتكلم معه ايضاً  
 باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين  
 كنت بالمجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسلها وهي اعلم باللغة العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقرية من قراها فقالت كانت ولادتي باسكندرية وكانت بها اقامتي الا ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه فنقيم بها مدة الشتاء بسبب متجر كان له وكثيراً ما سافرت معه الى دمياط والمنصورة ووطننا والمولد الاحمدي وسافرت معه مرة الى الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات القبلية بل يظهر ان علمك بتلك البلاد اكثر من علم اهلها بها فقال زوجها وكذلك كان لها عليّ حق التعليم فاني ما تعلمت المخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام المتعارف دون القراءة فقال الشيخ وحيثئذ تعرف الست القراءة والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي اللغة العربية فاحضر لي معلماً فكان يأتيني كل يوم فعلمني القراءة والمطالعة وقرات عليه القران والاجرومية وشرح الشيخ خالد في علم النحو وعندني بعض من كتب العربية بخط اليد ساطلعت عليها وكان معلمي عليه الرحمة بارعاً في فن الخط فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة ومع ذلك اكتب خطاً مناسباً واغلب مما اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك  
واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان  
فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيراً  
ما تحدثني زوجتي باخبارها فتزداد رغبتني في التوجه اليها ولا بد  
ان شاء الله ان نسافر اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى  
زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد  
وتجردت الاشجار من زيتها وكسيت غصونها بالثلج نحن الى مصر  
وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحدثون  
في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان  
وظافوا في نواحيه فكانت الست نتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف  
له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها  
الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا  
من وعثاء السفر واخذ بيده وادخله غرفة هبياة وقال له كن  
عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع  
يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان  
يعرف اللسان العربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل  
الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصلى ثم نام فلما اصبح  
دخل عليه ولده وقبل يده كعادته فقال له والده ماذا رأيت  
في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة  
ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هواء هذه الدار وهواء مدينة باريز وان شاء الله نقيم هنا مدة  
 فقال لابيه وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال  
 انها الايمان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخوجا ان بين ما  
 هنا والمدرسة بباريز بعض دقائق في السكة الحديدية فتوجه  
 للدرس ونعود مع الخوجا ففرح ابنه بذلك لانه كان يحب الاقامة  
 بباريز لكثرة ما بها من المستغربات

ثم حضر الخوجا الانكليزي وبعد ان سأل عن صحته  
 قال يلزم ان تقسم الايام التي نقيمها هنا على الاشياء التي  
 تحب ان تراها فهل نجعل وقت التفرج قبل الظهرام بعده فقال  
 الشيخ الامر لك فانك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد  
 الظهر اولى لتجعل ما قبل الظهر للمراجعة والتصحيح وافهم صاحب  
 البيت على ذلك ايضا وقال ان اكثر التفرج يكون في الغابة  
 فتارة نمشي على الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن  
 وبعدها وتارة نستعمل الاثنين معا وقد اخذت من الان في  
 ترتيب الفرج وكيفيةها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم  
 فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة  
 المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخوجا مع والده واقاموا نحو  
 شهرين على هذه الحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة  
 لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصا  
 وقد كانت تعلمه اللسان الفرنسي وتشرح له جميع ما يقع عليه



نظرة مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساء حب باريز واهلها  
 زيادة الابنة لهم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات  
 حسن وجمال وقد واعدت البدر بطلمعتها تعلق قلبها به  
 وتعلق بها صكنت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه  
 حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس يتعلل بتعللات  
 موجبة للتخلف بعد ان كان لا يوتر شيئاً على التوجه الى باريس  
 فكان يترك والده مع يعقوب عند الست ويذهب الى الدرس  
 فيكون تارة مع الست وتارة مع البنات ويقضي الاوقات في انواع  
 المسرات وازداد افتنانه بالبنات وتمكنت بينهما الالفه وكان كما  
 قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق  
 رأى لجة ظننها موجة فلما تمكن منها غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب  
 وترك ابنه في البيت فامرت الست خادمها انطوان ان يخرج به  
 وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعاً عربة وسار بهم واخذ برهان الدين  
 ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله  
 عما اعجبه في فرانساً ويحببها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا  
 هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماؤها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت  
 مريم ترى برهان الدين نهرالسين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة  
 لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تفتقر عن النظر اليه كما قال الشاعر  
نظر العيون الى العيون هو الذي

جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب  
والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الآكمة وداروا في ارجاء  
الغابة الى ان وصلوا فضاءً بين ثلاث اكات فصعدوا احداهما  
فراى برهان الدين حول الغابة ارضاً منزرعة ليس فيها شيء ما في  
الغابة فسأل الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة  
بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة  
وكما تعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض  
الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان  
البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون  
والتين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة  
الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات ياوي اليها  
الفارون من ظلم الرومانيين فلما انت دولة القوم المتبريرة وهم  
الالمانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم  
روء ساوهم تلك الغابة بينهم وبقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً  
للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على  
من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت  
بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تفترس الناس وتفسد

عليهم زرعهم وتهلك ضرعهم من غير ان يكون في قدرتهم منعها  
فكان نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي  
لانها كانت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل  
ومن شغف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن  
كان في قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابته  
ويجلي سبيله ليتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى  
القرن الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في التقص وارض  
الزراعة في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين  
وبولونيا متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل  
ما قيل في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو  
عليه الان

فقال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تأمل واعتبر  
الدهر لا يبقى على حالة فطوراً يضر وطوراً يسر



## المسامرة (١١٩)

## القطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيراً مشغول المخاطر بالغرام ولما  
وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس يتمشيان في طرف البستان  
قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق  
وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله  
لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس  
هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين  
فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد  
فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من  
ثمر هذا

فقال الخواجا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون شجراً كهذه ولوزه قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيراً ثم تأمل في المحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الاخرين وبقرهما التيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة وردت لنا من الشرق فالتيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قديم يزرع باوروبا واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس وفي زمن موسي بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين كان المدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان صار القطن هو المستعمل غالباً لكثرة زرعه في الجهات فبعد ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في الجهات الجنوبية من ايتاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وجزائر اليونان فقال الشيخان اول من ادخل في مصر القطن الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها وفي قطع ارض قليلة فتأخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة للملابس وما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الا

برغم انها بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفتشين  
 وحكاماً وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل  
 من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك  
 از ذاك ظلماً فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم  
 التحصل على ما يسددون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخوجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل  
 ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه النباتة  
 النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر  
 والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين  
 المؤرخ وسمياها صوقاً حيث قال انه يوجد في هذه البلاد الصوف  
 على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسيين  
 يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم  
 عليه المؤرخون كثيراً وكانت العرب تعجب به الا ان اليونان  
 والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعتنون  
 به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجاتهم فبعضهم يلبس  
 الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقيت اوروبا ثلاثة  
 عشر قرناً ميلادياً لا تعرف القطن ولا اقمشته وانما كانوا يستعملونه  
 فتائل للفتاديل

وفي سنة ١٢٥٢ ميلادية ظهر ببلاد الفريم والمسكوف وكان يجلب  
 اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشرم  
 انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالا كلياً  
 حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك قحط لم  
 يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع  
 الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت فقل الاحفالف به  
 شيئاً فشيئاً حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه  
 وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يتحصل  
 لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة  
 عن خمسة وسبعين مليوناً كيلوجراماً وهذا قليل جداً بالنسبة  
 لما يكفي لوازمهم فحصروا ما يرد اليهم محلوغاً من جهة الاينازوني  
 فوجدوه خمسة واربعين مليوناً كيلوجراماً غير ما يرد منها ومن  
 الهند مشغولاً وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجرام فجميع محصول  
 زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولاً وغير مشغول نحو مائة  
 وثلاثين مليوناً ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان  
 عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير  
 السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نساء ورجال يلبسون  
 القطن وكلمهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك  
 مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن  
 ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والوارد  
 من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليوناً كيلوجراماً اي

قدر ما يستهلكه اهل أوروبا بنامها والائتازوني من  
الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل  
اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين  
مليوناً من الاهالي عشريورات انكليزية وبناء على ذلك جعل  
اللازم لهم من القطن ألفاً وخمسمائة مليون ليوره في  
خصوص الكسوة ونحوها خلاف الاشياء التي تصنع منه  
ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا  
لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكفان الموتى الذين اخرجوا  
من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كرسوف كلومب الامريكا وجد اهلها لابسين  
من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناند كورتيز ارض  
المكسيك وجده مزروعاً بها وارسل الى الملك شركان هدية  
من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثياباً ملونة باجمل الالوان  
متقنة الصنعة والصبغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة  
ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن  
معروفاً عند اهالي بربيزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند  
استكشافه البغاز المسمى باسمه ووجد السياحون شجرة القطن نابتة  
بنفسها بشواطئ نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت



فيها ان هذه الشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان لنسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرها وكانت الالقنسة الاندلسية تساوي الشامية وربما فاقتها في الجودة وحيث كانت الاندلس من اوروبا فلا بد ان الاوروباوين انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا من ساحوا بافريقية الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقه مثل ارض السينجال وعتام وغيرها

واما وجوده في اوروبا فكان في اواخر القرن العاشر وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب اوهام دينية كانت تدخلها النصارى على الناس لكرهتهم في دين من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد ببلاد ايطاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معاملته من حيثئذ الى سنة

الف وستائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعاة  
والى سنة الف وسبعائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم  
قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر  
كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى  
بلاد الانكليز

وما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا  
للتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض  
الغلوريد ولما رأَت الاهالي نجاحه اخذوا يزرعونه واكثروا منه  
شيئا فشيئا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشالية  
واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم راوا ان التقارب يفيد  
محصولا اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويبدونه فزاد  
المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في تقاويه البذر  
المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجارب عديدة ان البذر المكسو  
بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرا واصغر بذرا فمن  
ذلك العهد صاروا لا يستعملون الا البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا  
على نوع منه طويل الشعر ذي صلابة ونعومة فوجدوه اجود  
انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسيج بسهولة ويتيسر  
تدقيق غزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام  
من قطن السيلان على فتلة رقيقة جدا بلغ طولها قريبا من ثمانين  
فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم محمد علي باشا فاتي به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذراً من الجيورجي من امريكا من قطن يسي بقطن سيا اسلندا اي قطن الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلتم سيلان) وهو احسن الموجود المرغوب فيه كثيراً بالفوريات ولذلك تزيد قيمته على غيره بنحو الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لوناً وحجماً فهنه الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل يبذر بارضه ما تيسر له من غير تحرر ولكن الان ابتداءً ان يميزوا بين الانواع وتنبهوا لزرع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره وبر لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا حلج يخرج منه تسع كيلات بذراً ومن ذي الوبرخمس ووزن البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخوجا ان الوان الاقطان النابتة بسواحل الكارولين الجنوبية والجيورجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لثقة صلابته فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال ومدراس وازمير ورودس وسالزنيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في  
 المائة جزء اربعة وستين جزءاً من المواد القابلة للذوبان في الماء  
 وهي ٨٨ و ٤٤ كربونات البوتاسة وعشرون اجزاء موريات البوتاسة  
 وتسعة اجزاء سلفات البوتاسة ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون  
 جزءاً لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد  
 عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسفات المغنيزيا وثلاثة اجزاء  
 بروتو اكسيد الحديد والباقي من الشب وبناء على هذا التحليل  
 يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المحنطة بالبحر الملح  
 وفي بعض الجزائر يسمونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحمة  
 كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين  
 يستعملون في السباخ الجيراو الطين الذي يرسب في قرار البرك  
 والمخجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسبيخه والان  
 عرفوه واستعملوا لذلك اتربة التلال القديمة وما يخرج من تحت  
 البهائم وحميقة وجدوا لتسبيخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او  
 خمسا وفي الايتازوني سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر  
 ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزه وكلما قلت صعوبة  
 الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيراً واذا فتح اللوز رايت  
 كأن الارض مستورة بثوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

رءوس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المساء ويرخص لهم في  
 ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في  
 غير وقت الصيف ففيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضاً بالذهاب  
 الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من  
 الارز ومقدار من العسل والسك ولحم الخنزير ويؤذن لهم في اخذ  
 بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر مايو الى  
 نصفه وبعد تمام زرعه يشتغل العبيد ايضاً بتنقيته من الحشائش  
 الغريبة والشغل عندهم بالمنطوية ويعطى لكل عبد قطعة ارض  
 يزرعها ما شاء ويتفع بما يخرج منها اما يبيعه لسيده او انه يرعى فيه  
 ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ذا يتحصل العبد على بعض  
 دراهم يشتري منها ملابسه وما يلزم له فجميع اشغال القطن على  
 العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو الفي  
 عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقا الفرقة عشرون  
 عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان  
 منهم كان شديد التسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في  
 كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى  
 اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس  
 وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم  
 فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر  
 ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب المحلجة وبها تمكن  
الرجل ان يبلج في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الات  
تدور بالحويان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة اشخاص اربعمائة  
وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٢ اخترعت  
الآت احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع امريكا  
الجنوبية

وبعد انفصال الحب من الشعريثون الشعرا ما خالطه من الاجسام  
الغريبة بتتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس  
في اكياس تجعل بالات وينقلونه في مراكب بنهر المسيسيبي الى  
اورليان الجديدة وهناك كل من لهُ شيء يضع عليه اسمه ونمرته  
وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينة من القطن  
مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوات المتحصلة من  
زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة  
فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل  
بقاع الارض

فقال الخوجا يوءخذ من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية  
انه تحصل ١١٤٠٠٠٠٠ بالة ووزن البالة يختلف من مائة  
وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة  
١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليونًا و ٦٧٥ الف كيلوجرام وبيانها

١٤٥٥

محصول	كيلوجرام
الايثاروني	٥٨٨.٠٠٠.٠٠٠
البريزل	٣٣.٠٠٠.٠٠٠
جهات من اميرিকা الجنوبية	٩.٠٠٠.٠٠٠
الهند الشرقي	٤٢١.٠٠٠.٠٠٠
بلاد الصين وبلاد سيام	٧٥.٠٠٠.٠٠٠
بلاد مصر	٣٩٤٥.٠٠٠
بلاد الجزائر	١٨.٠٠٠
سياراليونا من افريقيا	٤٥.٠٠٠
بلاد التركستان والقرني	٥.٠٠٠.٠٠٠
جهات من افريقيا	٣.٠٠٠.٠٠٠
اوروبا الجنوبية	٦.٠٠٠.٠٠٠
كيلوجرام	<u>١٩٣٦٦٧٥٠٠٠</u>

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩  
واكثر من اشتغل به اهل مدينة منشستر في المركز العمومي لصناعة  
القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها  
في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان  
زيادة عن اربعمائة الف نفس وابتداء صناعة القطن بها سنة ١٧٨٩  
ايام ثورة الفرنسيين الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن  
المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدنا

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويتجر بمصنوعه فكان يحصل لهم تعطيل وضياع اوقات فتبقيت اهالي منشستر الى ذلك وتحملت حتى اخذكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها بالبخار وعدد الشغالة يباغ الفا وخمسمائة نفس في الورشة الواحدة ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورش كثيرة بالفواحي ولو حصرنا الورش الموجودة في المدينة وضواحيها مع جميع الورش المخصصة بالغزل والحياكة في جميع بلاد الانكليز لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويتحصل من اثمان ما يصنع فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورشها من القطن الشعر كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمائة الف قنطار مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها المينا العمومية لهذا الصنف وكانت الورش في بادىء الامر تدور بالحيوان ثم كثرت الاختراعات لتسهيل صنعه ولم توجد الواپورات الا سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٣ فتاب الواپور مناب الآلات القديمة جميعها وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايتاليا ومن المرتينيك وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية



وبعد اشتهاره بامريكا تركت اكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه  
ورخص الوارد من امريكا لقلّة المصرف عندهم لان عبدهم تشتغل  
تقريباً بلا اجرة والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر  
والدول الأجنبية من امريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ على حسب ما نسمع ببلادنا ان اكثر الاقمشة  
الواردة اليها ولسائر جهات الدنيا هو من ورش الانكليز وجزء  
قليل من ورش الدول الاوروبية وذلك يقتضي ان يكون  
عدد الورش بتلك المملكة والشغالة بها شيئاً كثيراً جداً

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا  
سيما تجارة القطن ففي سنة ١٨٥٠ حرّر كشف بامر البرلامتوا تضح  
منه ان الورش بالمملكة كانت الفاً وتسعمائة والشغالة ٢٣١ الف  
شخص وان ما يرد لهذه الورش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون  
كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع  
منه على البلاد الاجنبية ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في  
داخل البلد على الاهالي ٧٢ مليوناً باعتبار ان كل شخص يستهلك  
كيلوغرامين ونصفا وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد  
اوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج  
من بلاد فرانساسته ملايين كيلو ومن بلاد السويس سبعة ملايين  
ومن باقي اوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده  
بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشرة وكانت القوة المستعملة في ادارتها ٩٧ الفا و١٢٢ حصانا منها بالبخار ٨٠١ الفا وبالماء ١٢٢. وهذه القوة تعادل مليوناً ونصفاً من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورش في تلك المدة ٢٨٠ الف نفس نساءً ورجالاً صغيراً وكباراً والمشتغلون بتجارته بانواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من اربعة عشر جزءاً من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايداً في جلب القطن الشعير الى الورش. ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الوارد لها اربعائة مليون كيلوغرام صنع منه ٢٦١ مليوناً اقمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليوناً والباقي وهو ١٨٤ مليوناً صنع شيتا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليوناً وتحصل من ذلك ١٤٢٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشتري اربعة وعشرون مليوناً فيبقى للربح والمصاريف نحو اربعين مليوناً وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادوي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليوناً من الرجال وذلك قدر اهالي فرنسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جمع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٢٢٦ الف بالة

وفي بلاد الفلمنك وبلجيكا ٥٩ الف بالة وفي باقي بلاد أوروبا  
١٤٧ الف بالة وفي ألمانيا ٢٤٩ الفا وفي الروسية ١٢٠ الف بالة  
فجميع بلاد أوروبا لم تصنع الا ثلاثة اضعاف ما تصنع بلاد الانكلترا  
وفي سنة ٥٧ كان مصنع بلاد الانكلترا ضعفي مصنع  
جميع بلاد أوروبا تقريباً لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع  
بلاد أوروبا من جميع الجهات قريباً من ثلاثة ملايين من بالات  
قطن الشعير وفي السنة المذكورة كان محصول اليتازوني وحدها  
ثلاثة ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكلترا والربع يبقى  
في البلد يصنع في فوريتاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد  
امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكلترا من بلاد اليتازوني  
فوجده أخذاً في النقص عددهم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً  
وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكلترا في مسافة سنتين من ابتداء  
سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءاً من الف من محصول اليتازوني  
والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعه اجزاء من الف وفي السنين  
الخمس التالية الى سنة ٢٨ كان وارد الانكلترا ٥٦ والموزع على الدنيا  
٤٢٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكلترا ٥٢٨ والموزع على  
الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكلترا  
٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى  
سنة ٥٠ كان داخل الانكلترا ٤١٧ والموزع على الدنيا  
٥١٢ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرانسا الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينها كنسبة مائة الى ٤٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع في ورش فرانسا فوجدوه كنسبة ١٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك في ورش الانكليز الى المصنوع في ورش الايتازوني من محصول تلك البلاد كنسبة ٢٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كنسبة ١٠٠ الى ٤٥٢ ومن سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث لجميع جهات اوروبا منه الى فرانسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا ومن تامل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد ورشها وكثرة مراكبها وقوة الاتها يمكن لها ان تنقص السعر حتى لا تتجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشر ساعات ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنتا عشرة ساعة بل ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعمائة وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك. وقد

ربا المال المنصرف ثلثائة مليون فيبقي للارباح والاجر المتنوعة  
٢٩٥٠ مليوناً من الفرنك

ومقدار الشغالة بورش اوروبا والايمازوني ١٢٥٠٠٠٠٠  
نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك  
يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليوناً من الفرنك  
ومن حين انتشار هذه النباة والتفات الناس اليها قل  
زرع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة  
الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قيمة واهية  
ولذلك تمكن الفقير من شراما يقيه البرد بادنى القيمة وانتفع بذلك  
عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قيمة  
الكيلو ١٢ فرنكاً وفي سنة ١٨٢٤ نزلت الى ستة فرنكات ثم في  
سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرف الناس بشجرة  
القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروبا ويين ان  
يشكروا فضل العرب اثناء الليل اطراف النهار فانهم هم  
الذين تلوهم من خشوتهم الى السعادة التي هم فيها الان

## المسامرة (١٣٠)

## الثمار

ومن حقق النظر في الأشجار والنباتات المغروسة في هذا البستان وجد أكثرها انما وصل الى هنا من بلاد العرب او من بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه اصلها من الشام من ارض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ فذكر ان اول دخولها في ايطاليا كان زمن قاطون وانها باوروبا انواع منها الاصفر والاخضر وما بعضه اصفر وبعضه احمر وتارة تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها القراصية وهي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من ارض فرانسوا وكذلك شجرة الكريز المعتدلة القد اللساء الجلد وارده من جهة سيرازونه

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسيح بثمان وستين سنة وانتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات اوروبا وانتقلت من ايتاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز الباردة والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدها مدلاة نحو الارض نابتة من جدور الاوراق تجذب اعين الناظرين بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة امتار عناقيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد افريقيا ومنها الحلو والمر ويستخرج منها دهن اللوز وهي مغذية ومبردة وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجز اخانات واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبر على ثمرة واخذنا من الارمن شجر المشمش

واما شجر التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت بطبيعتها في بلادنا وليست محنلة من الجهات ومن التفاح نوع حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانس بدل العنب ويستخرج منه شراب يسد مسد النبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بريد وهذه الشجرة الصغيرة المسماة بالقسطة وارده من امريكا الجنوبية والتين من البلاد المشرقية وكان ابتداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانس قبل

المسيح بستمائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا  
ثم تنوع انواعاً كثيرة ويؤكل اخضر وناشفاً والتجار يرسلونه الى  
جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند  
وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من  
زمن مديد وغالب هذه الخضروات وهذه الرياحين الزكية نقلها  
السياحون الى اوروبا الا انهم تفننوا هنا في زرعها حتى كثرت  
انواعها

### المسامرة (١٢١)

#### العنب

واعظم الشجر عندنا نفعاً والذو طعماً شجرة العنب هذه ومنبتها  
الحقيقي بلاد المجرستان نبت فيها بالطبيعة في صخور الجبال



الشامخة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس، وهو الان يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطباً ومنه ما يجفف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرنسا مليونان هيكتاراً وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة في النبيذ الفرنسي رغبت الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت متاجره حتى سار الى جميع بقاع الارض وقدر ما يتحصل من عصير المزروع منه بفرنسا يبلغ ستة واربعين مليوناً هيكتولتر (مائة لترا) من النبيذ الاحمر والابيض ومليون وربع من العرقى وكل ذلك قيمته تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليوناً من الفرنك وبهذا السبب تعد مملكة فرنسا اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد الاندلس والبرتغال وايطاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنسي وفي بلاد النمسا والمانيا والموسكو والفلمنك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار تجربة زرعه في جهات الجزائر فنجح نجاحاً تاماً فاتسعت زراعته وحصل لزرعه ارباح عظيمة خصوصاً لما ظهر لهم في نبيذه من الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجها اربع الاولى تقطيع العنب قطعاً صغيرة ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منها على الاخرى والعملية الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يملأ البرميل بل يوضع فيه الى نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفله وهذه العملية تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بتقليل من الدم او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس سواء كان ابيض واحمر والنبيذ الابيض يتحصل من الاحمر ولا تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن النفل في اول الامر وقت الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض لان المادة الملونة ليست حينئذ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف بالشبانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها فرقعة فترق بالشبانية كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة التي تسمع واعلى انواعه واغلاها ما عصر بعد التذيب والجفاف لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة ( ١٢٢ )  
 شراب التفاح والكمأري

وطريقة استخراج شراب التفاح تقرب من طريق استخراج  
 نبيذ العنب وأكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضاها العنب  
 ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه  
 فتعلمه منهم سكان المديرية المجاورة لهم من فرانساً مثل اهالي توار  
 وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفاً من زمن قديم وفي بعض  
 الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانساً كانت تشربه دائماً وكانت  
 في القرن السادس من الميلاد والمحقق انه لم يظهر بجهات النورماندي  
 في فرانساً الا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك البيرا

فلما قام مقامها شربه غالب اهل فرانساً ومنها وصل الى الالمانيين والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة الواحدة ثمانية ملايين هيكتواتر وقيمة ذلك ستون مليوناً من الفرنك وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة الحلو السكري والحامض والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمناً بخلاف المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيذ الطعم ولكنه قليل البقا وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس في مهاييس كبيرة ثم يوضع في الهواء كمانا اربعا وعشرين ساعة فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة يجمر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع لثقله وبعضها يعوم على السطح لخفته فاذا خالص من ثقله صبوه من حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل

ومن الشراب ما يستخرج من الكثرى واستخراجه كالذي قبله الا انه يبقى له لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد اسكاراً من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العرثي والكونياك والكرش والجن فتستخرج من النبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لانها تمنعنا عن الاطلاع على باقي ما هو في هذا  
البستان من انواع النباتات الغريبة وايضا فمعرفة عمل المشروبات  
الروحية لا تخصصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم  
قولهم العلم بالشيء ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ  
فلا باس بشرح عمل الالكول ونحوه

---

المسامرة (١٢٤)  
الكول

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص  
منه بالتخمير مثلاً لو اذبنا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

شيء من خميرة البوزة ثم تركناه في مكان درجة حرارته ٢٠ او ٢٥  
او في الشمس مدة قليلة رأينا المائع قد اضطرب وتصادم منه غاز  
يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئاً فشيئاً ثم ينقطع بعد عدة  
ايام فاذا صفي وركز حتى يهدأ وذقناه فاننا نجد الطعم طعم الشراب  
والرائحة رائحة النبيذ ولا نجد للسكر اثرأ فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا  
منه على مائع طيار ولا لون له يقبل الالتهاب فهذا هو الالكول  
وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والتفاح  
والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان  
في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء انقلبت الى خميرة  
وتحللت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول واذا تقطر  
النبيذ او البوزة او نحوها من الانبذة يتحصل مائع تختلف فيه كمية  
الالكول بكثرة الماء وقتله فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء  
وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اسماء مختلفة في التجارة بحسب مقدار  
الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل له  
عرفي وما كان الكوله اكثر قيل له روح فالعربي عبارة عن ماء  
مزوج بالالكول والالكول الخالص هو المجرد عن الماء بالكلية  
ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر  
مبوعة من الماء يلتهب منه الفم رائحته لطيفة ولهبه باهت ضعيف  
النور

وانواع العرقي وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من  
عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز  
واقل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقيمة  
العرقي تختلف باختلاف درجة الالكول وتميز هذه الدرجات في  
التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه  
علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج  
فيها زئبق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول  
فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات  
التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة  
جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد  
وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى  
مقياس الالكول وعند الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه  
اولاً في الالكول الخالص من الماء ورقموا عليه عدداً مائة ثم غمسوه  
في مائعات درجتها اقل بجمسة ثم بعشرة ثم بجمسة عشر وهكذا  
فعرفوا درجة ٩٥ و ٩٠ و ٨٥ و ٨٠ و ٧٥ و ٧٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لويز  
الرابع عشر عند هرمه لاجل اتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة  
عن عرقي سكري مختلط بمواد عطرية مثلاً الماء الذي تسميه الفرنج  
ايزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر يتقع فيه من غصون هذه  
النباتة الصغيرة التي اصلها على ما يقال من مصر وتخرج في ايتاليا

وتزرع الآن في جهة من فرانسما وما يسمونه كاسيس هو عرقى  
وسكر وفاكهة ويصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ  
او البرقوق والشراب المعروف بشراب الكورانا يوخذ من عرقى  
قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه  
وشراب الالبنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في  
الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب  
الانيسون او غيره وهو من السميات يقتل عند الاكثار منه



المسامرة (١٣٤)

البوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد اتفق المؤرخون على ان المخترع لها  
في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة



يلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب اهل  
الجهات الشمالية من فرانس والانكليز وجميع الممالك الشمالية يستعملونها  
كثيراً ومقدار ما يستهلك بلوندره من هذا الصنف كل عام  
مائتان وخمسون مليوناً من اللير وباريز مقدار ذلك اربع عشر  
مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصيتين التغذية والتنبيه وقد  
امتنحها بعض مشاهير الكياو بين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية  
واربعين جزءاً من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية  
كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتي في الحب المستعمل فيها  
فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من  
اكل ثمانية واربعين جراماً من الخبزاى ستة عشر درهماً

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية وبوضع  
عليه من الماء قدر حجمه اربع مرات ويترك الى ان يتفخ فينقل من  
الماء وبوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى  
سنة عشر حتى تنبت واحسن الفصول لصنعها فصلا الخريف  
والربيع فما صنع منها فيها فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع  
في غيرها فاذا نبت اخذ وجفف سريعاً كي لا يذهب نشاؤه  
ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يمر عليه هواء حار لطيف  
ثم اذا تم التجفيف بفرك وينخل نخلا يفصل به الحب من النبات ثم  
يدش دشا خفيفاً وبعد ذلك بوضع في حياض من الخشب بعضها  
فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابتداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مئوية وتقلب وتذلك وتترك حتى تهدأ ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسا وسبعين ثم يقلب ويدلك وتغطى الحياض وتترك ثلاث ساعات تقريبا ففيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيؤخذ حينئذ ويغلى مع عروق النبتة المعروفة بمحشيشة الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والمخاصة التي تبقى بها زمنا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى ليبرد فيها ولا يبقى في محله لثلا يتلف ثم توضع عليه الخميرة ويترك زمنا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي الخميرة الاولى وفي تلك الساعات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يوهخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخخير ويظهر على الماء رغوة ايضا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخميرة للبوزة التي نستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخخير وفي المشروبات الخناجة للتخخير ولا تكون البوزة تقية رائحة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المادة  
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار



المسامرة ( ١٢٥ )

الاشجار والزهور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخوارجا أيجوزلك  
حرمان الشيخ من الاطلاع علي ما في هذا البستان من الاشجار

والازهار التي قل ان يجمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس  
به وباليتمك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين  
الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن  
يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهديتها الى الشيخ قبلها وبعد  
ان تأمل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير  
فاني لم ار فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع  
النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف الوان  
الازهار المجموعة صحباً مختلفة الشكل والحجم وتوزيعها وسط  
الحياض بين الاشجار وبجافات الطرق كان لها صور ومناظر  
مختلفة باختلاف المواضع التي يقف فيها الناظر وما من صورة  
الا تسر الناظر وينشرح لها الخاطر ثم قال للست واني لاشكر  
فضلك ومعروف حضرة الخوجا لانه حصل لي من مجلسه  
فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخوجا حيث اشرفت هنا  
طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان  
اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين في الجهة المقابلة لنا من  
البستان وهناك كشك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه  
تغريد الطير فاظن ان لو رآه الشيخ لسنى الاقامة فيه لانه فوق  
ربوة صغيرة ويرى من شبابيكه الطريق السلطاني والزراعين  
بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخوجا بيدها واخذ  
الشيخ بيد ابنه وساروا حتى وصلوا مكاناً مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور  
والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة وأشكال عجيبه فكان  
تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عمودياً او منحنيًا  
قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه رءوس الصور القاذفة له فيكون  
لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في  
الحوض رنات لطيفة وينشأ عن امتزاجها بالاصوات المحاصلة  
من اهتزاز الأشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فهو من  
جانها فراء وطريقاً فسلكوه الى علوية مخوفة بالشجر وعليها قبة  
من انضمام اغصان الأشجار وراء اغصان الشجر متظمة انتظاماً  
تماماً وبجفتي الطريق صفيين من اعيان الورد وانواع الرياحين  
كالفل والياسمين وكل ماله رائحة طيبة مرتبة ترتيباً حسناً بحيث  
لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءه  
اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الأشجار ممتدة معها  
في دوائر القبة كأنها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الأشعة  
الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جات  
صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة  
الفرنساوية على ما ترجمه له الخواج ما معناه ارجوك ألا تؤاخذني  
في عدم مصاحبتك لك فان أكبر عذري جهلي باللغة العربية فقبل  
الشيخ عذرها واطنّب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا  
البستان على هذه الصورة الفائقة في حسن الرونق والبهجة يتضي

شدة الاعناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموال جسيمة فترجوا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدّمة بل يتولى الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنباتة ليست فيه بادر الى جلبها اليه بدون النفقات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مصروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيراً ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبلاً واودية وبجراً للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس هنا نباتة الا وعليها ثمرة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلامذة في كل اسبوع يبين لهم ما يتعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص بينها لم كالنباتات الطبية والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يبهر اولي الابصار ولا يبعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيراً من النبات بعد زمن يزول وينبت غيره من غير جنسه فلو لم يقبض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمت الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا براً ومجرأاً اذ منها اقواتنا وبها يعالج ما اخل من ابداننا وفيها ما تتعش بهمدار واحنا

فجزى الله عنا المشغولين خيراً اذ لولا هم ما عرف النافع من الضار ولا  
البارد من الحار . فقال الخواجا من تأمل رأى انه ما من شيء الا وتعتبر به  
احوال غير متناهية في السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة  
وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء ما نراه اولاً  
نراه الا وفيه شيء من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل  
عليها حركة الاعضاء وتنقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة  
خفية فلا ندركها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان  
وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض  
الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة  
ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها  
يخرج زهره في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت  
نفسه اما ان يتجرد من ورقه او يبس عوده ولا يعود لحالته الاولى  
الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على  
حسب تزهير النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا  
بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح له ايضاً ان لكل اربعة  
انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا نعداها وبعض  
المتوحشين الفاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من  
الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا يتفتح  
زهرة الا بمجاذب من الحوادث مثلاً التفوحان اذا احس بنزول

المطر انضمت اكام الزهر عليه انضماماً جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض  
النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهوديه  
وتسميها الفرنج لترن وتبت بارض السيريا فانها اذا احست  
بالشمس انضمت اكامها ضمماً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا  
ينفتح الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب وما يزداد تعجب  
الانسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها  
وارتفاعها اصلها خلايا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة  
بميت لا ترى الا بالنظارة المعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن  
فقاقيع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر  
وتنمو فتصير اجساماً ذات اسطحه متعددة بعد ان كانت كروية  
ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد  
في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنها الياف النبات والمجزع  
والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية  
الواحدة مع دقتها جدور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في  
الورق حباً كثيراً ومن الوانه اخذت الاوراق الوانها وبعض  
الطبيعيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذروفي المنسوج  
الخلوي يشاهد غالباً دقيق كالذي يستخرج من الحنطة وهذا الدقيق  
يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جدوراً او غصوناً او فاكهة  
وسكان جزيرة تايبي يصنعون الخبز من فاكهة تخرج في  
جزيرتهم فياخذونها ويحمصونها علي النار ثم ياء كلونها



فيجدون طعاما كطعم الخبز ولذا تسمى السياحون هذه الشجرة شجرة الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى اقة مصرية بل اقبين وثلاث وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا وغيرها من الجزائر اكثر غذاء اهلبا من جزع شجر يزرعونه في جزائرهم فتمى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعوه واخذوا منه بواسطة مغارف يغرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة من الخ اضافوا عليه ماء وقلبه حتى يمتزج الماء بالدقيق الموجود مع الخ ويمر من المادة الليفية فينزل في حوض اخر فينفل به ما فعل بالاول ويتلقى في حوض غيره فاذا عرف ان مادة الخ تخلصت من جميع دقيقتها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويؤخذ الدقيق طريا ويحفظ في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة يسع الوعاء الواحد منها من احد عشر كيلوغرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية الى ان تجف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغمسونها في الماء مرة بعد مرة واهل جهات الاستراليا يعرفون جدور نباتات يتعاطونها فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقال صاحب البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في بعض مسامراته احوالاً جديدة للنبات مستفادة من استكشافات اهل هذا العصر من العلماء والسياحين الذين جابوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فما انا مستعدة لخدمتكم  
وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواجا ويريككم  
بنفسه فلا باس

فقال الشيخ الرأي ما ترينه وايها تختارين فهو الموافق واني  
لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم  
فرصة لا بد من ان اتميزها واغترف من مجور علمكم العزيزة ما  
تتعش به روعي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي  
اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتأج هذا  
العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريدوما  
ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشراً في الكتب العربية  
فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله  
خصوصاً وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

فقال الخواجا الرأي المناسب ان نطوف في ارجاء البستان ونخار  
منه الجهة التي بها المشمومات فان في ذلك مناسبة للستات فتبسمت  
ثم قالت هذا هو الراي المحسن ولكن من الواجب اتباع راي الشيخ  
فقال الراي ما رآه الخواجا فان النفس الى الروائح الزكية اميل  
فساروا قليلاً ثم وقف الخواجا حذاء خطوط الورد وقال قد  
جمع المعلم ههنا كثيراً من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة  
وناولها اياها فطلبها منه ان يتكلم على بعض الازهار ليجمعها بين اللذة  
والفائدة فقال لا باس بذلك والاحسن ان نبدأ بالورد لانه

هو الذي بايدينا فنقول الورد أنواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة كالبلاد التي بساحل البحر الأبيض من أوروبا وإفريقيا وهذا النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد والسنات في جميع بقاع الأرض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء أصفر فقد منحها الله كثرة العطر بدل ما تقص من ورقها وجعل نوعها أفضل الأنواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد وأما أصلها فمن بلاد المشرق وقد اهدت الينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة بالورد المثني لكثرة ورق زهرته وأما هذا الورد السبعأوي الذي لا ينقطع زهره صيفاً ولا شتاءً فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثة عام أخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وإدخلناه في ضمن الأزهار التي تتحلّى بها بساتينا وهذا النوع يكبر كبراً زائداً في جهة تونس حتى يبلغ عشرة أمتار وبالتفنين في زرع الورد ظهر نوع يعرف بالورد المجوز وبلي هذا النوع شجر البنفسج وهو أوروباوي الأصل ويوجد في الغابات تحت ظل الأشجار وزهره وإن كان عزيزاً إلا أنه لا يتجرد من عطره وقد تعسر عليهم هنا استخراج عطره كما استخراج عطر الورد والياسمين وتبتدئ المسائر روائح أزهاره الزكية ويعطر الياسمين والحدايق من أول شهر فبراير ويستمر يهدي الينا من طيبات انفاسه الزكية مدة شهر مارس وأبريل ثم أشار الى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الا في القرن السادس  
 واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان  
 بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردي واستطالة  
 شكله السنبلتي وتجمع ازهاره وحمله فوق ساق وحيد وذبوله  
 التدريجي المتعاقب الذي يقي لنا التمتع باستنشاق ريحه الطيب  
 عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فائما على ما حوله  
 من الازهار واختارته ايدي الحسارن على غيره ثم اشار الى نوع  
 اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء الخمسة التي يعطر  
 الجوشداها فقد نقلها الاور وبايون من اسيا الكثرية العطريات  
 فزرعوها باراضيهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في  
 التجارة يستخرج من الياسين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم  
 ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبرشوكي  
 ولها زهر مجتمع اجتماعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانيليا وقطفت  
 منها زهرة وناولتها للشيخ فرأى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له  
 رؤيتها فسأل الخواجا عنها فقال له هذه النباتة غريبة واصلها من  
 البيرو من بلاد الامريكا واسمها في بلادنا الهلوطروب وفسرها في  
 القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا  
 تنوم بمشاة فوقية فنون ثم واو فميم والكبيرة منه تسمى صامر يوما وعلى  
 ورقها من الجهتين وبر والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

وازهاره الصغيرة متجمعة فوق الساق في هيئة صلبة ولونها ازرق  
سجاي وكل زهرة على حدها فوق ساق بمفردها ويتكون عن المجموع  
فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تتميز به هذه النباتات  
عن غيرها وباوروبا من هذا النوع ما ينبت بنفسه الا ان زهره  
ابيض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي  
تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية  
اللون المشكلة في شكل السنبله في اخر الغصون ماء شديد زكاء  
الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجاً بالملك وطعمه حريف  
ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة  
به والمشهور ان التفاح الفلفلي هذا ورد الينا من بلاد الانكليز  
وهو كثير بالبساتين

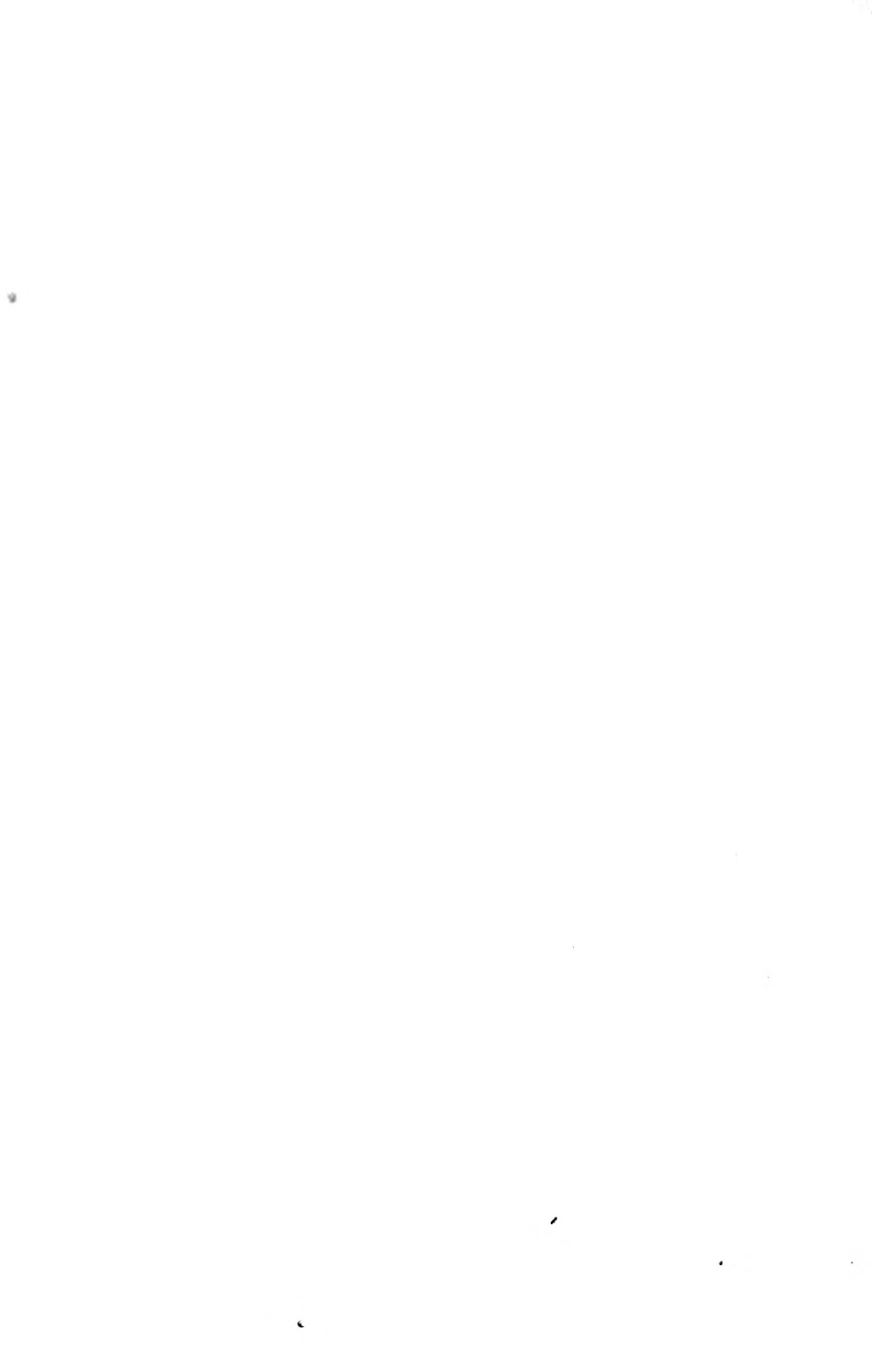
ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبل والحزامي  
ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية  
من ارض فرانسوا ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري  
طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة  
مخيفة مربعة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفي اعلاها بالازهار  
الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق  
خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كأنها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النبتة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثن ولها فروع دقيقة مستديرة محملة باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة اسفل وفي اعلاها نقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان على هيئة سنبله دقيقة ومنه البنفسجي والايض ويستخرج منه ماء السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر ساها وبطيب هواها



( انتهى الجزء الرابع )







فهرس

الجزء الرابع  
من كتاب  
علم الدين

صفحة	المسامرة	في
١١٥٢	٩٧	الجمعية الشرقية
١١٨٠	٩٨	البركة في الحركة
١٢١٠	٩٩	الانكليزي والنباترو والكتاب
١٢١٦	١٠٠	الجغرافية
١٢٤٥	١٠١	نزوة في باريس
١٢٤١	١٠٢	فتنة حكاية بمقوب واخيه
١٢٥٢	١٠٣	البورصة
١٢٦٢	١٠٤	بيت الكتاب
١٢٧٢	١٠٥	قصه
١٢٩٥	١٠٦	البناتك واوراق المعاملة
١٤١٨	١٠٧	الطوام والدواب
١٤٢٦	١٠٨	الجراد

صفحة	المسامرة	في
١٢٢.	١٠٩	نور الغاز
١٢٤٧	١١٠	العائف، والمخلف في الاسلام
١٢٥٢	١١١	القار
١٢٥٧	١١٢	المسنشفى
١٢٦٠	١١٣	التبغ
١٢٧٥	١١٤	البن
١٢٨٠	١١٥	الانهر
١٢٩٢	١١٦	الاشجار الكريمة
١٤٠٠	١١٧	المواآء والمآآء
١٤٢٦	١١٨	فحة خارج باريس
١٤٤٤	١١٩	القطن
١٤٦٢	١٢٠	الثمار
١٤٦٤	١٢١	العنب
١٤٦٧	١٢٢	شراب التفاح والكمثرى
١٤٦٩	١٢٣	الكوزل
١٤٧٢	١٢٤	البوزة او (الديرا)
١٤٧٥	١٢٥	الاشجار والزهور